موجز

تطور الحضارات الإنسانية

د. محمد صادق صبور

تمهيـــد

فى تطور الكائنات الحية – نباتات كانت أم حيوانات – يحدث التغير فى اتجاه واحد، لمدة طويلة، وقد حدث التغير فى دماغ بعض القردة وأدى إلى تطورها. بتغير خصائصها أمكنه أن يحكم تطور مجموعة كبيرة من المخلوقات، وشملت أسلاف الإنسان. تطلب تسيد الدماغ تغيرات جذرية فى السلوك الجنسى والاجتماعى، حددت بدورها خصائص المجتمعات البشرية وأدت إلى انتهاء العصر الباليوليثى.

كان الكشف عن الزراعة فى الشرق قديما تحولا ملحوظا فى حياة الإنسانية، فقد أصبح الزارع يفكر فى المستقبل وصار يتدبر فى إعداد محاصيله وحيواناته، وأصبح يتفكر فى حياته: فى شخصه ومسكنه ومجتمعه. أضحى هناك معنى للزمان والمكان، والمجتمع والدين. تطور الإنسان بسرعة أكبر، وتفرق فى أماكن أوسع: أراض زرعها ومراع ربى فيها غنمه ومواشيه، واستقر وارتحل، وتسلح بمهارات يدوية وقدرات عقلية. انتشر الإنسان الأول من نقطة مركزية على سطح الأرض، بخطى مختلفة السرعة إلى جميع أنحاء العالم. سكن الوديان الخصيبة، واختلط بأفراد مختلفين، وتعلم كيف يعيش مع باقى البشر: يساعد الواحد منهم الآخر، ويحميه ويدافع عنه، ويغتصب ويخضع للآخرين. مع الاحتفاظ بكيانه واستقلاليته. اخترع البشر الطبقات المختلفة فى المجتمع، ثم بدءوا فى تكوين المدن ثم فى خلق الأمم.

ابتدأ الزراع فى الانتشار فى أراض جديدة ثم تبعتهم أمم من مستخرجى المعادن صانعى الأدوات والآلات المعدنية، ثم طبقات من التجار ورجال الدين والملاحين والمحاربين الذين غزوا العالم القديم. كل حين وآخر، يختلط الناس قليلا بالأمم المجاورة لهم وينتج عن ذلك خلق أمم جديدة – انتشرت اللغات الآرية واللغات السامية، ثم تم الكشف عن الكتابة فدونوا التاريخ، حتى غير الإنسان التاريخ.

وحدت اللغة والدين أسلافنا من الأمم المختلفة وتزاوجوا وتكاثروا وصارت لهم قومية واحدة. تبع هذا ظهور الرجال المسلحين بأسلحة من الحديد، الذين يركبون الخيل، وصحبه تطور الكتابة والتقنية وظهور العملات المعدنية، والسيطرة على أراض شاسعة. ظهر قوروش العظيم فى بلاد الفرس كما

ظهر الإسكندر الأكبر فى مقدونيا وسيطروا على تلك البلاد عسكريا وسياسيا، وتغير المجتمع بعد أن صار خاضعا لنفوذ حاكم أوحد، ثم تكونت الأسرات الحاكمة، ولكن مشاكل الاحتفاظ بالسلطة لمدة طويلة هزمت الأسرات الحاكمة وأنهتها. وجاءت الإمبراطورية الرومانية التى تمكن فيها نفر قليل من الحاكمين، طوروا أنفسهم تباعا وجددوا فى أسلوب حكمهم، من البقاء فى السلطة لمدة طويلة وبدءوا البنية الاجتماعية لكل الحضارات الغربية.

فتح اتساع الامبراطورية الرومانية الطريق لهجرة الشعوب الشرقية إلى أوروبا، تلك الشعوب التى بدعت الفن والفكر الحضارى. بدأت هذه الشعوب فى التحضر فى أزمنة سابقة فى الأناضول، وبلاد ما بين النهرين، وفى سوريا، وفى مصر، صار هؤلاء الأقوام الآن يتحدثون باللغة الإغريقية ثم باللاتينية. ثم بدؤوا بإدخال ديانات جديدة. دخلت اليهودية كأول دين يؤمن بالتوحيد مقابل الشرك بالله، وكان هؤلاء الأقوام السبب فى تحول مواطنى الامبراطورية الرومانية المتعلمين ومن بعدهم ملكوهم المتبربرين – إلى الأديان الجديدة التى تحترم الحياة الإنسانية، وتبشر بالمساواة والوحدة بين بنى البشر وترفض عبودية الإنسان لأخيه الإنسان. تعدلت الأفكار اليهودية ودخلها كثير من التحريف والحذف والإضافة فجاءت المسيحية، ثم الإسلام لتصويبها. فى نفس الوقت ظهر فى الهند المعتقد بأن الناس ينقسمون – بحكم ولادتهم – إلى طبقات يعلو بعضها بعضا، وصار هذا المعتقد هو أساس ديانتهم.

أعقب انهيار الامبراطورية الرومانية دويلات اتحدت وأقامت نفسها المدافعة عن الحضارة الغربية وحامية حمى المسيحية، ولكن هزمتها جيوش المسلمين، والفرسان الأسيويين من المغول والترك، كما أغار عليها المحاربون البحريون الفايكنج من الشعوب الشمالية. دمر كل مغير شيئا واكتسب شيئا، واندمج فى المجتمع الأوروبى تدريجيا حتى صار منه. حدث تباعا نزاع بين الكنيسة والنبلاء الحكام والملوك، واتجهت الهجرة غير المقيدة من البلدان المتقدمة إلى الأراضى المتخلفة، حدثت نوبات من الاضطهاد والتحولات الدينية، وتفرقت الأقليات بين البلاد، وخاصة اليهود.

ثم نشأ المجتمع الأوروبى الحديث بعد تقلبات حادة فى الفكر والنشاط: الإصلاح الدينى، عصر النهضة الأوروبى، والثورات العلمية والصناعية. أدت هذه العوامل جميعها إلى خلافات اجتماعية وثورات سياسية من عمل أفراد معدودين نشئوا فى طبقات اجتماعية مخصوصة تطورت على مدى أجيال طويلة وخضعت لمعتقدات دينية ربطت بينهم. علمت هذه التجارب الثورية الثوار التالين كيف يحسنوا أساليبهم للقيام بالثورات ثم كيف يتجنبوا وقوع هذه الثورات.

اتسعت الثورات الزراعية التى بدأت فى غرب آسيا خارج مصر وأوروبا والهند حتى شملت الصين وبعدها إندونيسيا وأفريقيا الإستوائية. تم للإنسان أيضا الكشف عن الزراعة فى أمريكا. فى كل هذه الأماكن تطور الإنسان مستقلا عن تطوره فى الأماكن الأخرى. كان الزواج يتم بين أفراد من نفس الطبقة، وانقسم المجتمع أيضا إلى طبقة الحكام ورجال الدين والتجار والعمال المهرة والفلاحين الزراعين للأرض. وكان ارتفاع طبقة على طبقة أو انتصار شعب على شعب يصحبه الاستعباد والرق، كما يصحبه التزاوج المختلط بين الطبقات والشعوب لحد ضئيل. وتأثر كل عالم منفصل عن بقية العوالم باختلاف طباع البشر الأصلين من المهاجرين الجدد، واختلاف المحاصيل والحيوانات التى استغلوها واختلاف التعرض للأمراض والأوبئة حسب الجو الذى عاشوا فيه.

هذا الكتاب يعبر عن رأى صاحبه، والرأي الحر هو الذى ينتقل عبر البلاد بلا جواز سفر. الهدف هو إعادة كتابة التاريخ على أسس تاريخية وأسس بيولوجية (وقد سبقنى فى هذه المحاولة الأستاذ محمد كامل حسين فى كتابه «التحليل البيولوجى للتاريخ»)، ولو أن حقائق التاريخ مازالت غامضة عنا ودقائق البيولوجيا مازالت تستحدث كل يوم. فى كلا المجالين كثرت التنبوءات والتحققات والارتباطات لدرجة أوحت إلى بكتابة هذا الكتاب. فى هذه المحاولة يبدو أن هناك خطا واحدا مستمرا فى تطور الإنسان ومجتمعه، خطا يوجد بين البشر فى أى مكان، رأيت أن أعرضه أمام القارئ العادى لعله يثير فكره ويبدأ فى تأمل حقائق الحياة.

تاريخ الانسان والمجتمع

مقدمة

ربما كانت المقدمة فى عام ١٦٩٩ عندما شَرّح إدوارد تايسون شمبانزى جُلب إلى لندن من أفريقيا وتبين الشبه الكبير مع الإنسان، ولو أن الأفارقة والعرب اتضح لهم هذا التشابه منذ أمد طويل. أما بداية معرفة الأوروبيين لنشوء الإنسان وتطوره فترجع إلى تشارلز داروين الذى قدم قرائن عديدة وانتهى إلى العقيدة التى خطها فى كتابه «أصل الأنواع». مازالت الطرق التى اتبعها داروين هى نفس طرقنا اليوم ولكن الأصناف التى تمكن العلماء من دراستها حتى وقتنا هذا والوسائل التى استخدموها فى تلك الدراسات تفوق كثيرا وتتعمق إلى أغوار بعيدة عما استخدمه داروين فى دراساته، فقد وجد علماء اليوم أن هيموجلوبين الإنسان مثلا يختلف عن هيموجلوبين الغوريلا فى ثلاثة مواضع فحسب (وهذه قرينة على القرابة)، ووجدوا أن عدد الصبغيات (الكرموزومات) فى الخلايا البشرية هو نفس عددها فى خلايا القرود وأخذوا هذه قرينة على الأصل الواحد. ولكن مثار اهتمامنا الآن هو كيف حدث هذا التطور من القرد إلى الإنسان فى ضوء ما نشاهده وما نستطيع إخضاعه للتجربة، مستثمرين علمين جديدين لم يكونا معروفين على عهد داروين: علمى الوراثة والحفريات.

أشار لوجروكلارك وغيره إلى المجال الواسع لتركيب القرود، فقد تبين وجود تتابع للأنواع المختلفة تشير إلى تطور مطرد – توقف فى نقاط عدة. وجدوا نقصا مستمرا فى طول الأنوف مع نقص فى القدرة على الشم فى القرود المتتالية، كما وجدوا تطورا متتابعا فى قدرة الأيادى والأقدام على الاستمساك بالأشياء، والمقدرة التدريجية على الوقوف، والمشى واقفا، وفى تسطيح المخالب والأسنان الأمامية، وفى كبر حجم الدماغ الأمامى، وفى زيادة تعقيد تركيب النصفين الكرويين للمخ مع إطالة تدريجية للأعمار وانخفاض فى الإخصاب. حدثت هذه التغيرات فى نسانيس العالم القديم ونسانيس العالم الجديد التى انفصلت تماما عن بعضها بعد نشأتها فى عصر الإيوسين. تدل هذه القرائن على أن التطور قد سار فى اتجاه متواز، على مدى طويل جدا، بطريقة محتمة، فى اتجاه واحد.

قد يكون انفصال أسلاف الإنسان عن أسلاف القردة قد حدث فى عصر الميوسين منذ حوالى ٢٠ مليون سنة فى مكان ما من قارات العالم القديم، ولكن معظم البقايا التى وجدت عثر عليها فى عصر أحدث من هذا كثيرا، ووجدت فى شرق أفريقيا (فى زمن يتراوح منذ ٢ مليون إلى نصف مليون سنة). لهؤلاء الرجال القردة مظاهر محددة واضحة:

* صنعوا الآلات من القرون والعظام (وفيما بعد من الحجر).
* ضمرت أنيابهم ووصلت إلى حجم أسنان الإنسان.
* اتخذوا الوضع القائم أكثر من أى نوع من القرود.
* استمر حجم التجويف الدماغى كحجم تجويف أدمغة القردة (من ٤٥٠ - ٥٥٠سم^3) ولكن اختلفت التفاصيل الأخرى فى العينات التى وصفها مختلف العلماء، والظاهر أنها تمثل أنواعا مختلفة من الكائنات وليس نوعا واحدا، ولا يمكنها التزاوج، وقد تكون أنوع مختلفة من الكائنات وجدت معا فى نفس العصور وكان التنافس بينها قائما، تعيش جنبا إلى جنب فى بلاد مفتوحة، واستمر تطورها بطريقة متوازية، عبر عصور طويلة، بعضها استمر فى التطور، بينما بعضها الآخر (النباتيون) توقف تطوره ثم اندثر.

هكذا يكون الإنسان الأول قد ترك الغابة، وكان أكَلةُ الحيوانات بالإضافة للنباتات، وكان يمشى ولايتسلق الأشجار، وكان يستطيع الدفاع عن نفسه بالأدوات التى صنعها بيديه. مكنته الأيدى المتحررة (من المشى عليها) أن يستخدمها فى الصناعة وأن يقطع بها الطعام (ولم يعد فى حاجة لأن يمزقه بأسنانه)، وفتحت له الطريق لنمط جديد من الحياة. بهذا بدأ الدماغ الآدمى يتضخم وتتحسن وظائفه ليتقن المشى على رجلين ويتقن استخدام يديه. ومازال هذا سائر حتى عصرنا الحالى - خلال نصف مليون سنة (أو ٢٠ ألف جيل من أجيال الإنسان). تكيف الإنسان - خلال هذه السنين - مع عادات جديدة وظروف معيشة متباينة، خاض خلالها عصور جفاف شديدة مع عصور جليد متتالية. انتشر الإنسان فى جميع أنحاء العالم القابلة للسكنى، وانتشر من أفريقيا إلى جنوب أوروبا وجنوب آسيا، متنقلا حسب عصور الجليد المختلفة. تكونت فى هذه الرحلات أجناس مختلفةتتكيف مع مناخ مختلف، وهكذا نشأ الإنسان الباليوليثى الوسيط، الذى وجدت بقاياه فى جزيرة جاوة.

تطور هذا الإنسان - فى هذه المساحة الشاسعة من الأرض - بينما ظلت القردة على حالها. إزداد حجم الدماغ تدريجيا، واستثمرها فى مزيد من الإتقان فى صناعة الأدوات التى يستخدمها. استخدم النار - التى حافظ على اشتعالها لأنه لم يتمكن بعد من بدئها - فى طهو الحبوب وجذور

النباتات ثم اللحوم. ثم بدأت عضلات اللسان فى الاندماج فى عظام الفك وقد ساعد هذا التطور فى النطق والكلام، وزاد عدد الأسنان اللبنية (كما ظهر فى النوع الذى وجد بالقرب من بكين) كقرينة لزيادة طول المدة التى تحتضن فيها الأم وليدها. كلما كبر حجم الدماغ (والجمجمة) كما اتسع حوض المرأة لحد معين لايسمح باستمرار مدة الحمل أكثر من ٤٠ أسبوعا وفى نفس الوقت طالت مدة حضانة الوالدين لأطفالهما وبلغت من ١١-٢٠ سنة ولهذا استطالت مدة معيشة الفرد لتصل إلى ثلاثة أمثال مدة اعتماد الأبناء على آبائهم أو مايزيد.

السؤلان اللذان يطرحان نفسيهما هما:

* كيف حدث التغير فى حجم الدماغ وفى وظائفه؟

* ماذا كان مصير هؤلاء الأناس الأوائل الذين ظهروا منذ نصف مليون عام؟

لقد ظهرت بقايا لهم فى شرق أفريقيا وفى جزيرة جاوة وبالقرب من بكين وفى أنحاء قليلة من غرب أوروبا. هل هم طليعة الإنسان الحديث! لقد كان تطور الدماغ مفيدا للإنسان، فقد مكنه من حسن استخدام يديه فى صنع الآلات وفى استخدامها وفى ابتكار استعمالات جديدة لها (وإلى الآن لم يصل الإنسان إلى الحد الأمثل لهذه الوظائف). من المؤكد أن اختراعا قاد إلى الاختراع الآخر، وأن ارتباط البصر وحركة اليد مع الدماغ فتحت آفاقا أخرى للنشاط، وأصبح ذكاء الإنسان أشد فاعلية من قوة أسنانه وسطوة مخالبه فى الدفاع عن نفسه وفى تطوره وتقدمه. كل تحسن فى الدماغ قاد إلى أفكار جديدة وابتكارات، تضاعفت وتوسعت ثم تشابكت وتغلغلت فى التكوين الجينى وأحدثت تحسنا متتاليا فى قدرات الإنسان وأدت فى النهاية إلى تكوين إنسان آخر يفوق أسلافه فى قدراته ومداركه حتى وصلنا إلى الإنسان الذى تشاهده اليوم. وبهذا صار الدماغ هو العضو السائد فى علاقة الفرد ببيئته، وهكذا تطورت الأجناس تطورا متوازيا أدى إلى نشوء أصناف مختلفة منها فى الأماكن الجغرافية المختلفة عبر نصف مليون سنة حتى مقدم عصر الجليد الأخير.

المليون سنة الأخيرة تعرف جيولوجيا باسم «البلستوسين»، وقد تخللتها خمسة عصور متتالية - تعرف بعصور الجليد، بينها أربعة عصور دافئة. العصر الحرج منها للإنسان هو عصر الجليد الأخير، الذى استمر نحو مائة ألف عام، تخللته ثلاثة قمم حدثت منذ حوالى ١١٥ و ٧٢ و ٢٤ ألف سنة. حبست فترة التجمد الأخيرة كميات مهولة من الماء فى القارة المتجمدة الجنوبية وفى شمال أمريكا وجرينلاند وسكتندينافيا وسيبريا والتبت، وأدت إلى انخفاض مستوى الماء فى المحيطات والبحار حوالى ٢٠٠ متر. نتج عن هذا أن الجزر - كاليابان وبريطانيا - صارت متصلة بالقارات، ومجموعة الجزر بين آسيا واستراليا صارت معبرا متصلا بينهما، وصارت آسيا وأمريكا متصلتين.

صار انتقال الإنسان والحيوانات ممكنا بين القارات، وانتقل الإنسان من الشمال المتجمد إلى مناطق الدفء فى العالم وشاهد هذا الزمان هجرات اضطرارية للإنسان نتج عنه تغير فى توزيع الأجناس العظمى. هاجرت فروع متتالية من الجنس المونجولى عبر مضايق بيرنج خلال ٨٠٠٠ سنة إلى كافة أنحاء أمريكا، وكان آخرهم الإسكيمو الذين قطنوا آلاسكا منذ حوالى ٢٠٠٠ عام ووصلوا إلى جرينلاند حوالى سنة ١٣٠٠ بعد الميلاد. عبر آخرون إلى الجنوب وانتقل أبناء من جنس الأسترالويد عبر غينيا الجديدة (ومعهم كلبهم المستأنس) ووصلوا إلى استراليا. كذلك وصل البوش مان من شمال أفريقيا إلى جنوبها، ووصل الجنس القوقازى - الذى نشأ فى جنوب غرب آسيا - إلى أوروبا وكردستان وشبه جزيرة العرب حتى فلسطين، حافظت الأجناس المختلفة على تفاوتها إلى حد كبير بالنكاح فيما بين أفرادها، ولكن مما لاشك فيه أن التهجين بينها قد حدث، وانتقلت الجينات من مجموعة إلى مجموعة، مما تسبب فى اختلاف الأفراد المهجنين عن صفات المجموعات الأصلية.

ظهر النجاح الكبير لهذا الإنسان البدائى فى أدواته وفنه وقدرته على القنص والصيد، ووصل النجاح إلى قمته بين الأفراد المهجنين فى أواسط القارات. لاحظ علماء الانثروبولوجى فروقا بين قدرات الأجناس المختلفة. فقد تبينوا أن البوش مان (وغيره من الأجناس التى اتبعت الصيد والقنص) أكثر ذكاء: فالقانص عرف خصائص الحيوانات وطرق تربيتها وبدأ فى استئناسها وتعلم كيف يجتذبها - مما دل على معرفته الواسعة والدقيقة بأنواع النباتات فى بيئته وخصائصها الغذائية، والتطبيبية والسمية، (وعرف أيضا كيفية استخلاص السموم منها). لاحظ العلماء أن جامعى الطعام كانوا أقل ذكاء ممن اعتمدوا على الصيد والقنص وصائدى الأسماك، وصائدى الطيور وناصبى الفخاخ، وأن أكثرهم ذكاء كانوا مع اعتمدوا على الصيد والقنص وجمع الطعام معا، وهذه الميزة الجينية تفوق أى ميزة يمكن اكتسابها بالتدريب. ولكنه كان متخلفا فى بعض النواحى: كان متخلفا فى العد، سواء كان الأشخاص أو الحبوب أو الأيام، وكان يرى العمل اليدوى الرتيب المتكرر مثيرا للملل، وهكذا كان لايتحمل زراعة الأرض. كان الصياد القديم - مثل غجر أوروبا اليوم - دائم التجوال، ويقاوم الاستقرار فى مكان واحد ولم تتغير صفاته سوى بالتهجين. (وتظهر صفاته الأصلية فى بعض أنواع الرياضة الحديثة فى بعض طبقات المجتمع مثل صيد الثعالب والحيوانات المفترسة، ومثل تفاهتة، ومثل شغفه بالترحال). أما جامع الطعام فهو أقل كراهية لزراعة الأرض من الصياد، ومتى أتقن الزراعة اتخذها وسيلته لإنتاج الطعام وبدأ فى التكاثر السريع (لأن الزراعة تحتاج لقليل من الجهد وقليل من العناية). بدأ الإنسان فى المقايضة بمنتجاته مع جيرانه. ثم بدأ يتخذ التجارة وسيلة لكسب العيش، ثم بدأ فى استخراج المعادن من باطن الأرض، ثم فى صناعة السلاح وبيعه. وعند بدء الأسواق انتقل الإنسان إلى مرحلة جديدة من مراحل تطور المجتمعات الإنسانية.

قال جلال الدين الرومى (كبير صوفية الإسلام الأعظم) مثل مقولة داروين قبله بمئات السنين:

خُلقت جمادا فلما مِتُّ بعثت نباتا

خُلقت نباتا فلما مِتُّ بعثت حيوانا

خُلقت حيوانا فلما مِتُّ بعُثت إنسانا

فلم أخاف الموت ! هل عمرى بعثت أقل مما كنت

الباب الأول

الأصل والأساس

كَوْن الإنسان قد تطور من أسلاف أقل رقيا يبدو حقيقة واقعة، ولكن ما هى دوافع هذا التطور وأسبابه؟ وما هى آثار التطور خاصة فى مراحها الأخيرة؟ يبدو أن من أول أسباب التطور هى القدرات الإضافية التى يضيفها التطور إلى الإنسان الجديد فى صنع آلاته وفى إتقانه لفنه وفى تحسن كلامه وفى تكون أنواع من البشر المختلفين، وكلما تطور الإنسان كلما ازداد تعقيدا عن باقى الحيوانات.

ترحال الإنسان الجديد من آسيا إلى نهاية العالم ترجع إلى اختراعه لأدوات جديدة مكنته من السيطرة على البيئة ومن تغييرها، ومن تبديل حياته. كل هذه المنجزات حدثت فى ٢٠ ألف سنة الأخيرة. أول هذه الاختراعات هى تحسن صناعة الأدوات من الحجارة، وهذا التحسن يرجع إلى زيادة المهارة ومزيد من الرؤية المسبقة للأحداث المقبلة، فصنع آلات تمكنه من صنع الأدوات، وكشف عن معادن واستغلها، صنع أزميل من الفلنت مكنه من العمل بدقة أكثر على قرون الحيوانات وعلى العاج والعظام والخشب. نسج هذا الإنسان أردية من لحاء الشجر وصنع سلالا لخزن الحبوب. صنع الإبر لخياطة جلود الحيوانات وعمل الملابس، واستخرج من النباتات عقاقير للاستشفاء وسموما للصيد. وهكذا استثمر الإنسان الحيوانات والنباتات والمعادن لمنفعته، وعرف أين يجدها ويتعرف عليها ويسميها بأسماء وضعها لها ثم يستفيد بها. أهم هذه الاختراعات هى تلك التى زادت مقدرته على الصيد والقنص وعلى صيد الأسماك وعلى جمع الحبوب والنباتات وعلى السفر والترحال. صنع الحراب وشكل القذائف ليتقن الصيد، وصنع السهم والقوس فى أواسط آسيا منذ ١٥٠٠٠ سنة، ومنها انتشر غربا إلى أوروبا وأفريقيا وشرقا إلى أمريكا. ومن أهم مخترعات إنسان ذلك العصر هو صنعه للقوارب التى مكنته من الوصول إلى جزر المحيطات: الهادى والأطلنطى والهندى (ومازالت هذه القوارب البدائية تستخدم حتى عصرنا الحاضر).

انزاح الجليد عن العالم تدريجيا حوالى سنة ١٢٠٠٠ قبل الميلاد، وبدأ الإنسان يكشف لنا عن خواصه الآدمية منذ ذلك التاريخ. بدأ الإنسان فى دفن موتاه وفى التفكر فى الماضى والتدبر فى المستقبل، وبدأ يدرى بموقعه من الطبيعة. ثم بدأت التماثيل ثم الرسوم تخرج من يدى هذا الإنسان،

وترتبط بالأساطير والسحر ثم بالدين، ثم بدأت الحضارات فى الظهور: حضارة مصر (وفنها)، وحضارة شاتال هويوك فى الأناضول (واستمرت صنوف الفن والمعتقدات الدينية مع الإنسان حتى الآن).

وفى نفس الوقت بدأ الكلام للإنسان كاختراع عظيم، وتحولت أعضاء القضم والمضغ والبلع والتنفس تدريجيا إلى أعضاء للتعبير، وتطورت الحنجرة وسقف الحلق واللسان والأسنان والشفتين فى تركيبها لتلائم وظيفتها الجديدة، وتحول الدماغ واتصالاته العصبية بعضلات تلك الأعضاء ليناسب هذه الوظيفة الجديدة. وتعتبر عملية اختراع اللغات – أى استخدام الكلام للتعبير عن النفس والاتصال بالآخرين – من أهم منجزات الإنسان، وبدأت منذ عهد سحيق فى القدم، وربما تكون قد استغرقت أكثر من ألف جيل، وكان لاختراع اللغات أثر بالغ الأهمية فى أجناس الإنسان العظمى. أسس اللغات واحدة وأصولها واحدة ولكنها نحت مناح متعددة وتطورت متوازية فى أجناس العالم الكبرى، وصارت حاليا أكثر من عشرة آلاف لغة مختلفة، لايفهم السامعون المختلفون معانيها، ومهما حاول العلماء تصنيفها لم يتمكنوا من خفض عددها أقل من مائة عائلة لغوية. تطوُّر الكلام قديم وبطيء بينما تطور اللغات حديث وسريع، لأن العقل يتطور أسرع كثيرا من تطور اللحم والعظام. كلما تطورت اللغات وتقدمت كلما تطور الإنسان وتقدم، وتوسع فى هذه الحياة الدنيا، فالمتطورون هم الذين ينتشرون فى الأرض. وهم الذين يمتلكون القدرات الزائدة عن غيرهم ولديهم الأفكار التى يستطيعون التعبير عنها بالكلام ويفهمونها بالعقل أى هم الأذكياء.

اختلفت خصائص الأقوام المختلفين الذين قطنوا مختلف مناطق الأرض. اختلفت خصائص الناس الذين انتشروا فى الأمكنة الفسيحة عن أولئك الذين قصرت إقامتهم على مناطق صغيرة. اختلفوا فى مظهرهم الخارجى كما اختلفوا فى سلوكهم. لاحظ داروين هذه الفروق وأرجعها إلى الانتخاب الطبيعى، وترجع الاختلافات أساسا إلى اختلاف البيئة والمناخ. اختلف الناس – عند بدء تشتتهم منذ عشرة آلاف سنة فى بعض الصفات الوراثية: كلون الشعر، لون الجلد، شكل الأنف والفم والحواجب، تركيب سقف الحلق والأسنان، وكثير جدا من الصفات التى كيفتهم على الحياة فى المناطق المختلفة. فى عام ١٩٠٠ تم الكشف عن فصائل الدم ووجد أن بلازما البشر تحتوى على بروتينات تضبطها جينات وراثية محددة. يرث الفرد نوعا من فصائل الدم من أبيه ونوعا من أمه، ولذا فأصناف الفصائل العظمى هى AA, AB, AO, BB, BO, OO فى العصر الحالى عرف ملايين الناس فصائل دمهم وسجلت هذه البيانات فى بطاقاتهم الشخصية (كما سجلت كثير من صفاتهم الشخصية)، وتبين من دراسة هذه الصفات الحقائق التالية:

* جميع البشر، وحتى مستوى عائلاتهم هجن، وحدث خلط كبير بينهم فى جيناتهم.
* كل جين موروث وثابت، وكثير من هذه الجينات مرتبط بجينات متماثلة فى القرود والنسانيس.
* هذا الخلط بين الجينات فى كل مجموعة محافظ عليها للميزة التى يكسبها الهجين (مثل فصيلة AB) للشخص عن الجين النقى (مثل AA أو BB).
* تختلف نسب هذه الجينات بين الأشخاص فى الأماكن الجغرافية المختلفة (وتحكى هذه الاختلافات قصة ترحال الآدميين من مكان لآخر).
* بعض هذه الجينات مميزة لأجناس معينة (مثل فصائل الدم ABO، ريسيس، MN، لها توزيع خاصة فى الزنوج الأفارقة، يختلف عن توزيعها فى الأوروبيين، وقد يكون هذا التوزيع مستمدا من أسلافهم البوش مان).

هكذا تزودنا فصائل الدم ومورثاتها (وجيناتها) بشجرة النسب الوراثية وتساعدنا فى دراسة تحركات الإنسان، كما تساعدنا مجموعة أخرى من الجينات المسئولة عن تركيب الهيموجلوبين فى الكريات الحمر فى تتبع حركة الإنسان على الكرة الأرضية. وفى دم النوع الغالب من أسلافنا الهيموجلوبين الموجود هو من نوع A (وفى الجنين من النوع F)، ولكن ظهرت أنواع أخرى فى بعض الأجناس التى نشأت فى أماكن مختلفة من العالم القديم، كل نوع يرجع إلى تحول مفاجىء فى الجين. معظمها يسبب فقر دم شديد قد يؤدى إلى الموت فى الصنف النقى، أما فى الهُجُن فينشأ الوليد وفى دمه هيموجلوبين مختلط من النوعين فيكون فقر الدم بسيطا وغير مميت. هذه الجينات المتحولة قاصرة على المناطق الاستوائية من العالم القديم، حيث ظهرت الملاريا الخبيثة منذ حوالى ٣٠٠٠ سنة عندما انتقلت من القرود للإنسان فى غرب إفريقيا أو فى جنوب شرق أسيا وبدأت فى الانتشار فى القادمين الجدد. تمكن الأفراد الهجن ذوى الدم الذى يحتوى على صنفى الهيموجلوبين من مقاومة هذا النوع من الملاريا (لأن طفيلى الملاريا لايمكنه هضم الهيموجلوبين المختلف) ولايتمكن من البقاء، وهكذا انتشرت الجينات المتحولة انتقائيا لأن من يحملونها ظلوا أحياء فى المناطق المزدحمة بالسكان والمبوءة بالملاريا الخبيثة لأنهم اكتسبوا مناعة ضد الإصابة بها. وفى البداية كانت هذه الأنواع المختلفة من الهيموجلوبين مميزة لبعض الأجناس (وظلت هكذا لعهد طويل). مثلا هيموجلوبين S المسئول عن فقر الدم المنجلى – لبعض فصائل الدم – كان مميزا للزنوج الأفارقة، وأخذوا معهم هذه الصفة الوراثية بعد عبورهم المحيط الأطلنطى وانتقالهم إلى أمريكا. أما فى جنوب شرق آسيا فإن هيموجلوبين E (المسئول عن نوع من فقر الدم أقل شدة من

فقر الدم المنجلى) قد حل تدريجيا محل هيموجلوبين S وأزاحه (وانتشر على مدى واسع من أسبانيا إلى الصين). هكذا تطور الهيموجلوبين الآدمى وصارت هناك أنواع كثيرة من البشر (نظرا لاتساع رقعة الأرض التى تواجد فيها الإنسان ولازدحام الدنيا بالبشر وتعرضهم للأوبئة وللأمراض المختلفة).

كلما انتشر الإنسان على ظهر البسيطة كلما قابل أعداء جدد ففى الأماكن المختلفة حشرات: كالقمل والقرادة وديدان ومثقبات، وميكروبات جديدة: بكتريا وفيروسات، أو كل هذه معا. البعوض نقل للإنسان طفيلى الملاريا، والجرذ نقل البرغوث الذى نقل بدوره عصويات الطاعون. زادت مصادر الأمراض كلما إزداد الزحام وزاد نجاح الإنسان وثرائه، كلما زاد تشتت البشر وكذلك زاد تشتت الأمراض واختلفت. كما استجابت أنواع الهيموجلوبين وفصائل الدم للطفيليات بطرق مختلفة، جاء الكشف عن أمريكا وانتقال الإنسان إليها من العالم القديم (بميكروباته) كاختبار جديد لنظرية تطور الأمراض. تطورت الأجناس والأمراض فى العالمين القديم والجديد بطرق مختلفة عن بعضها البعض كلية. أثبتت هذه التجربة الفريدة أن الطفيليات الكبيرة كانت أقل إيذاء للإنسان الجديد الذى وفد إليه عن الإنسان القديم الذى كان يعيش فى تلك البلاد، أما الكائنات الدقيقة: كالطفيليات وحيدة الخلية، والبكتيريا والفيروسات فكانت أشد إيذاء له وأعظم خطرا. فتكت الحصبة والجدرى بسكان أمريكا الأصليين بينما حطم الزهرى الوافدين الجدد من العالم القديم.

خلال سنوات الانتشار الطويلة فى العالم تميزت مجموعات البشر إلى مجتمعات مختلفة: إلى الصيادين وصائدى الأسماك وجامعى الطعام، وتكيف الإنسان مع بيئته سواء كانت غابات أم صحارى، جبال أو شواطىء بحار. تميز سكان البلاد الباردة بالبنية الضخمة بينما امتاز سكان المناطق الحارة بضئالة الجسم. ظهر الأقزام الصيادون فى أماكن متفرقة من البلدان الحارة، ومعظمهم كانوا يقطنون الغابات: جزر الهند الشرقية، الملايو، غابات أفريقيا الاستوائية وبعضهم كانوا من قاطنى الجزر وبعضهم من قاطنى الصحارى. قاطنو قمم الجبال: الأنديز والهيمالايا صاروا ضخام القلوب واكتسبت دماؤهم كميات من الهيموجلوبين فوق المستوى المعتاد، وهكذا تمكنوا من العمل والحياة فى الأجواء مخلخلة الأكسجين. سكان البلاد شديدة البرودة كالإسكيمو وسكان صحارى أستراليا الباردة (الذين ينامون عرايا فى الظل فى الليل البارد) سريان الدم ضئيل للغاية فى أطرافهم ليحتفظوا بالدفء فى أحشائهم الداخلية. هذا نوع من التكيف البيئى الذى فرضته عليهم الحياة، مثله مثل الفرد - من قبائل الدنكا والواتوتس أطول وأنحف آدمى العالم قاطبة الذين تكيفوا مع ارتفاع الحرارة الشديدة فى بيئتهم - مع كفاية الغذاء - بزيادة مساحة أجسامهم، أما فى حالة

البوش مان فعليه التكيف لتحمل درجات قصوى ودرجات دنيا من الحرارة ودرجات شديدة من الفقر والعوز. سبق للبوش مان اكتساب بنية صغيرة فى تكيف مع معيشة الصحراء التى هرب إليها ممن تتبعوه من ضخام الأجسام، تكيفه حدث مع تجاعيد الجلد المبكرة التى تجعل شكله مختلفا أشد الاختلاف عن قزم الغابات «البيجمى» وفير الغذاء، واكتسبت امرأته تكيفها من زيادة الشحوم فى أردافها (كما يفعل الجمل بسنامه). تتضح هذه الفروق بشدة فى الاختلاف الشديد فى البنية بين الجيران الذى فرقتهم المرتفعات العالية مثل أهالى سكيم والبنغاليين، وأهالى إيران والعراق، والسودانيين والأحباش، وبين من يقطنون أعالى جبال الألب وسكان شمال إيطاليا فى السهول والوديان. هناك فرق بين كل هذه الأقوام فى البنية وفى الطبع، وفروق ترجع إلى اختلاف نباتات وحيوانات البيئة وتؤكد التكيف مع الطبيعة.

تعاقب عصور الجليد مع عصور الدفء على سطح الكرة كان له العواقب التى دفعت الإنسان للانتقال إلى قمم الجبال وإلى قاع الوديان، ورحيلهم إلى الشمال وإلى الجنوب، مما كان له أكبر الأثر فى سنوات التاريخ التكوينى للإنسان. بعض الأجناس، فى أمكنة معينة كانوا دائمى الترحال، بينما رسخ بعضهم فى بيئتهم ولم يغيروها كالجزر الثابتة فى عالم من البحار. يختلف الناس الحاليون فى لون بشرتهم التى تتراوح من الأبيض للأسود. تلون الجلد يخفض إنتاج فيتامين «د» فيه، وهذا الفيتامين ذو أهمية كبرى فى الأماكن المرتفعة، ولكنه فى المناطق الاستوائية يقلل من حرارة الجسم ويقى الجلد من الدمار الذى تحدثه أشعة الشمس. سرطان الجلد - مثلا - أكثر شيوعا فى ذوى البشرة الفاتحة الذين يقطنون فى الأماكن المشمسة (خاصة النوع المسمى بالقرحة القارضة). ربما كان اللون الأصلى للإنسان هو اللون البنى الفاتح، وحدث تحول فى موروثات اللون فصار أبيضا فى أوروبا (الجنس القوقازى) وأصبح بنيا قاتما فى جنوب آسيا (الجنس الأوسترالويد) وصار أسودا فى أفريقيا (الزنوج). حدث هذا التحول الجينى (وتبعه تغير اللون) على مدى نصف مليون سنة، واكتسب الزنوج والأوسترالويد ألوانهم متفرقين (كما حدث فى تحولات الهيموجلوبين لديهم)، مثال آخر لتكيف الإنسان مع الطقس هو انطواء الجفن لدى المتجولين فى شرق آسيا. هذه الصفة هى تكيف للجو شديد البرودة وتناسب تماما الإسكيمو وتقل أو تفقد فى هنود أمريكا الحمر.

من المناسب أن نتساءل الآن عن أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين تطور الإنسان وتطور بقية الحيوانات. حدثت اختلافات تبعا للتزاوج ثم حدث انتقاء للذرية قائم على أساس أن البقاء للأصلح. إلا أنه فى حالة الإنسان فقد كان له قول فى التزاوج وفى الانتقاء الطبيعى، وأدى هذا إلى التسارع فى عملية تطور الإنسان. سمح اختلاف الموروثات فى لون البشرة للإنسان أن يمتد من مكان محدود فى البداية إلى أن يغطى سطح الأرض فى خطوات ثلاثة على مدى نصف مليون سنة.

للإنسان ٢٣ زوجا من الكروموزومات (لكل من الغوريلا والشمبانزى ٢٤ زوجا، ولنسناس الجيبون ٢٢ زوجا من الكروموزومات، ويتراوح عدد الكروموزومات فى باقى أنواع النسانيس بين ١٨ زوجا و٣٠ زوجا). ظل هذا العدد ثابتا فى الإنسان والقرود على مدى ٢٠ مليون سنة، ولكن محتوى الكرموزومات وتركيبها هو الذى تغير عبر هذه السنين. يتحدد جنس الكائن بكروموزومين يدعيان X و Y، فالنساء لهن XX والرجال لديهم XY وتتحدد أعداء النساء والرجال بأعداد الحيوانات المنوية التى تحتوى على X والتى تحتوى Y. هناك اختلاف فى السلوك الجنسى لدى الحيوانات المختلفة. فى الغوريلا وفى الشمبانزى يحدث التزاوج فقط فى الأوقات المحددة القصيرة التى تكون فيها الأنثى راغبة (وتحدث عند التبويض) مرة كل شهر، أما فى نسانيس الجيبون فلدى الأنثى الاستعداد فى التزاوج فى أى وقت. هناك اختلاف جذرى فى أسلوب معيشة الغوريلا والشمبانزى من جهة وأسلوب حياة الجيبون من جهة أخرى. الأولان يعيشان فى مجموعات من الإناث مع أبنائهن ويسودهن ذكر واحد، يظل متحكما فيهن ومستمتعا بهن جميعا حتى تضعف قواه ويحل محله منافس آخر من الذكور الأكثر شبابا، أما الجيبون فتعيش فى أسرات تتكون من أب واحد وأم واحدة مع أطفالهما. وهكذا يتضح أن أسلوب معيشة الإنسان قد تطور من أمد سحيق ليشابه أسلوب معيشة الجيبون، واكتسب الإنسان الحديث أسلوب الحياة الجنسية المستمرة مع تمكنه من التزاوج فى أى وقت يشاء، واشترك الأب فى رعاية أطفاله، خاصة فى تلك الأقوام الذين يعيشون على الصيد والقنص ويتنقلون باستمرار إلى مسافات طويلة. فى القرود (وفى غالبية الثدييات) تقتصر رغبة الإناث فى التزاوج على يوم أو يومين كل شهر، ويكفى لقاء واحد أو اثنين لحدوث الحمل. ويكفى لقاء واحد لإنتاج مجموعة كبيرة من الأبناء، أما فى الإنسان فقد يتم الحمل بعد عشرة لقاءات أو مائة لقاء، لإنتاج طفل واحد (وفى بعض الأحيان النادرة قد لايكفى لقاء مستمر بين الزوجين على مدى مدة الإخصاب فى عمرها على إنتاج طفل وحيد). لدى الإنسان ينتج الرجل حوالى مائة ضعف عدد الحيوانات المنوية ويمارس التزاوج أكثر من مائة ضعف مرات تزواج الحيوانات لاستمرار النوع. وفى الإنسان تطور الجماع من كونه وسيلة للإنجاب واستمرار النوع فحسب إلى غاية لذاتها، مع حفظه للنوع والمجتمع. اختلف أسلوب الحياة العائلية للإنسان اختلافا كبيرا بين فرد وفرد. كان استعداد الإنسان لمزاولة الجنس فى أى وقت سببا فى اتخاذه حياة الأسرة والزواج من واحدة كالأسلوب الأغلب. ولكن استمر الزواج المتعدد فى بعض المجتمعات، بينما مارس كثير من الأفراد تعدد الزوجات أو تعدد الأزواج (كما يمارس شباب القرود) ومارس شباب الأدمين وشباب القردة (لفترة فى مرحلة بلوغهم الجنسى) اللواط أو السحاق. وتعتبر الممارسة الجنسية المستمرة للإنسان أول تجديد عظيم فى نظام التكاثر، تبعتها أزمة ثم لحقتها تجديدات أخرى.

درس علماء الانثروبولوجى سلوك الإنسان الجنسى فى مبدأ نشأته (منذ حوالى ٣٠ ألف سنة) من سلوك الآدميين الجنسى ممن يعيشون بيننا حاليا من الأقوام شديدة التخلف والذين تقارب تصرفاتهم تصرفات آدمى العصر الحجرى (مثل الأبنوريجينى الاسترالى، ونجريتوس جزر أندمان، ويجمى غابات الكونجو، ويوش مان صحارى كالاهارى، وأهالى تسمانيا الأصليين «قبل القضاء عليهم»، وكثير من المجموعات التى يكاد لايعرفها أحد من أهالى غينيا الجديدة وأمريكا الجنوبية) يعيش هؤلاء الناس فى قبائل تضم بضع مئات العائلات (كما عاش أسلافهم من الحيوانات)، ثم تتقلص القبيلة تدريجيا حتى تختفى أو تتسع تدريجيا حتى تنقسم. أهم ما يميز أفراد هذه القبائل هو تساويهم فى القدرات والمهن والعادات والمعتقدات، كل ما يفرق الأفراد هو اختلاف الجنس والسن. فى أول الأمر لم يكن للقبيلة رئيس، صحيح أن كبار السن من الرجال كانوا ناصحى القبيلة، بدون أن يكون لهم السلطة أو السيطرة ولم يكن لهم إصدار الأوامر لأفراد القبيلة. كان نوع العمل هو الذى يفرق الصغار من الكبار، كما كان يفرق الأفراد أماكن معيشتهم. ما الذى كان يجمع أفراد القبيلة سويا ويوحد بينهم؟ كان هناك نظام واحد يتبع عند الزواج وارتباط الانثى بالرجل. أولا: كان لابد أن يكون الارتباط من داخل القبيلة ولكن من خارج الأسرة،. هكذا كان الجميع من أصل واحد يوحد بينهم نفس العادات والتقاليد ويصبحون متماسكين يساند الواحد منهم الآخر (مع قبول الجماعة لتبنى الأغراب). يمكن للفرد أن يتزوج ابنة عمه أو ابنة خالته، ولكن يمتنع عليه أن يتزوج والدته أو أخواته أو بناته. (وامتد هذه المنع من غشيان المحارم إلى تحريم تناول الغذاء معا للأجيال المتعاقبة). عملت كل المجتمعات الآدمية على تحريم غشيان المحارم، وشجعت الزواج من خارج الأسرة المباشرة. فى زمن لاحق – فى تطور المجتمعات البشرية – عندما اعتُرِف بالتملك، صار النسب عن طريق الأم هو أساس الميراث، وصار أبناء الأخت هم الوارثون للأب (رغم أن له أولادا)، وكان الآباء يرعون شئون أبناء أخواتهم البنات وليس شئون أبنائهم وكان الأبناء يعيشون مع أمهاتهم فى البيت الكبير وليس فى بيت الأب. عندما يسود نظام اجتماعى يكون للأمهات فيه حق توريث النسب والممتلكات والإدارة، يرتفع فيه قدر النساء ويكون نفوذهن عظيما (كما فى ملابار)، فى حين أن المجتمعات التى يتسيد فيها الرجال (كما فى بلاد العرب) تكون سطوة النساء فى الحضيض. لما كان دور الرجل فى التكاثر أقل وضوحا من دور المرأة، ظهرت المجتمعات التى تتسيد فيها النساء قبل المجتمعات التى يتسيد فيها الرجال وسبقتها فى التطور، حتى فهم مربو الماشية والأغنام دور الذكور فى الإنجاب.

تحريم غشيان المحارم كان أساسا ثابتا فى عملية التناسل فى الإنسان منذ ظهور الإنسان على وجه الأرض منذ حوالى نصف مليون سنة (وقبل هذا لابد أن الإنسان كان يزاول الجنس مع عشيرته

الأقربين كما تفعل القردة أو الكلاب وجميع أنواع الحيوانات الأخرى). لماذا ابتدع الإنسان هذا السلوك حتى صار مقدسا وصار قانونا أخلاقيا واستمر هكذا حتى عصرنا الحاضر طوال تاريخ الإنسان؟ كل كائن حى - نباتا كان أم حيوانا - يمكنه أن يتوالد داخليا، مع أفراد تجمعها قرابة وثيقة ويستمتع بنجاح دائم وينشأ بذلك مجتمع ثابت. النتيجة هى إنتاج نوع واحد متماثل من الأفراد وجنس مناسب تماما للبيئة التى يعيش فيها (وقد تمكن الإنسان بهذه الوسيلة من إنتاج حيوانات متميزة للسباق).

ولكن فى عالم متغير يؤدى إنتاج الجنس المتماثل من الأفراد إلى مصيبة، لأنه لايستطيع الصمود أمام أى تغير يحدث فى البيئة أو فى الظروف ويحل محله سريعا أى جنس آخر أو نوع آخر له القدرة علي التكيف مع الظروف الجديدة. ماذا حدث للإنسان - مخالفا لأسلافه - لَمّا اكتسب تدريجيا: حياة الأسرة، ونفاذ البصيرة، واتسعت مداركه الحسية، تعمقت ذاكرته، وابتدأ يتعرف على أسرته، فأطلق أسماء على أمه وولده، وبدأ يتذكر الأشخاص ويذكرهم تبعا لعواطفه الشخصية نحوهم! قد تكون الغريزة قادته إلى غشيان المحارم أو أبعدته عن هذا السلوك. وتمخضت المجتمعات التى بعدت عن إتيان الأقارب المقربين - بعد مئات الأجيال - إلى ميزة أكيدة عن المجتمعات التى حضت أو وافقت على غشيانهم. المجتمعات الأولى صارت أكثر اختلافا وأكثر تكيفا، يفعلون أشياء جديدة، ويفكرون بطرق جديدة، ويلائمون تحديات المستقبل أكثر من غيرهم، ويحلون تدريجيا محل غيرهم من منافسيهم ويملئون العالم من أصنافهم. وهكذا نشأت أجناس متعددة من بنى البشر وسرعان ماتكيفوا مع الأماكن المختلفة من العالم واختلفوا اختلافا كبيرا عن بعضهم البعض. نشأت قبائل بدأت تهتم اهتماما بالغا بأسلافها وذوى القربى منها، وبدأت تعزو تصرفاتها الغريزية وعاداتها إلى عوامل عقلانية مشرفة، وبدأت تطور مجتمعاتها إلى أنماط مختلفة من المجتمعات التى ترفض كلها غشيان الأقارب المقربين وتمنع الإتيان بهذا العمل. مثل هذا النظام المتطور الذى يسمح بتبادل الجينات بين البشر هو الذى أنقذ البشرية من محنة الفناء. كلما كانت الجينات متقلبة بين البشر وتؤدى إلى الامتزاج المستمر وتبعد عن الركود - كلما ساد الأمان المجتمع وتفتحت له كل آفاق المستقبل، أما إذا ركدت الجينات وتجمدت فى مواضعها فإن المجتمع يصير فى خطر - ويصبح مستقبله مظلما ومحدودا.

فى نفس الوقت الذى رفض الإنسان رفضا باتا غشيان الأقارب المقربين ابتدع الجماع راقدا (وليس واقفا كالحيوانات)، والذكر والانثى متواجهين وليسوا متخالفين (مؤخرة الحيوان الأمامى فى بطن الحيوان الخلفى) - أخذ الإنسان الوضع الآدمى للجماع (الوجه مقابل الوجه، حقيقة أن بعض الآدميين يمارسون الجماع أحيانا واقفين، ويمارسونه أحيانا الوجه - للظهر، ولكن الغالبية العظمى

من البشر، فى معظم الأحيان يمارسون الجماع والوجه للوجه). ظهر شعر العانة فى الجنسين (متخلفا عن كل أنواع الحيوان الأخرى)، وأصبح لازما لتفادى الضرر الناتج من الاحتكاك أثناء عملية الجماع، كما نشأ شعر الإبط (الذى لم تعرف حكمة نشوئه حتى الآن). نشأت أشياء أخرى مع الجماع والوجه للوجه. نشأت هزة الجماع لدى الإناث، ونشأت زيادة احتمال اغتصابهن، ونشأت زيادة أهمية الانتقاء للجنس. زاد التركيز على الوجه، وعلى أثداء النساء بعد تغير وضع المباشرة الجنسية، وصارت الجميلات فى عيون الرجال ليست ذات العجز الشحمى السمين بل التى تشبه فينوس.

أول من نادى بأهمية الانتقاء الجنسى هو داروين فى كتابه «نزول الإنسان» وتقول نظريته أن أفراد كلا الجنسين يختلفون عن بعضهم لزيادة الجاذبية والفتنه للجنس الآخر، وأولئك الذين يتمتعون بجاذبية أكثر، والأشد عدوانية هم الذين يكون نسلهم وفيرا، وعلى هذا يحاول كل جنس أن يكون أكثر جمالا وجاذبية للجنس الآخر. فى التطور الآدمى هناك أمثلة عديدة تؤيد نظرية الانتقاء الجنسى (مثل اللحية للرجال ومثل نعومة بشرة المرأة وخلوها من الشعر)، أما أن الرجال عادة أطول من النساء وأشد قوة منهن فيرجع إلى - النظريتين معا (البقاء للأصلح مع الانتقاء الجنسى). ابتدأ الرقص من النسانيس والقرود، وابتدأت المداعبة والعشق والضحك والغناء مع الإنسان، وكلها عملية مستمرة فى إطار زيادة الجاذبية الجنسية.

فى وجود أعداد ضئيلة من السكان - فى العصر الباليوليثى الوسيط أيام الصيد والقنص وجمع الطعام - كان حجم الجماعة مناسبا لضمان استمرار الحياة، وكانت الجماعة أيضا هى وحدة التوالد، وكان الأليف من داخل الجماعة، ولكن لما زاد عدد السكان فى العصر الباليوليثى المتأخر بدأت الوحدات - أو القبائل فى مواجهة البعض وبدأت فى التناحر والعراك، امتد التوالد بين الأفراد المختلفين فى القبيلة الواحدة ولكنه ظل قاصرا داخل القبيلة. فى عالم الحيوان يتم التناسل فى أغلب الأحيان بين أفراد الفصيلة الواحدة، ولكنه قد يحدث بين أفراد الفصيلة الواحدة إلى فروق وراثية بين مختلف الأفراد من الفصائل المختلفة (مثل الرائحة المميزة لكل فصيلة والتى تثير اشمئزاز باقى الفصائل وتمنع التهجين على نطاق واسع، بين الصينين والأوروبيين أو بين الزنوج والبيجمى على سبيل المثال) تبلغ هذه الفروق الوراثية المبنية على الرائحة أشدها فى الثدييات وفى الحشرات، أما فى الإنسان - (مع تلاشى الدورة النزوية واضمحلال قوة الشم) - فإن عوامل أخرى هى التى تؤثر غالبا فى إقلال التناسل بين أفراد الأجناس المختلفة (مثل العادات والتقاليد الاجتماعية، والاحتياجات الضرورية للفرد، وقوانين الجماعة)، هى التى تقوم حائلا بين تزواج الأفراد من الجماعات أو القبائل

المختلفة. تشاهد هذه الظاهرة بوضوح بين الجماعات البدائية والمتخلفة فى عصرنا الحاضر. فالرجال – مثل الطيور – لهم شعائر تقليدية يزاولونها فى مناسبات تجمعهم، فى هذه الاجتماعات تمارس طقوس ابتدعوها تحت تأثير الانتخاب الطبيعى، كجزء من نظام التناسل الذى وضعوه واحترموه. بهذا النظام تتآلف العشائر المختلفة من القبيلة الواحدة – بعيدا عن القبائل الأخرى – وتوضع القواعد لما هو مسموح به من الناحية الجنسية. (فى هذه الاحتفالات تقام حفلات الطهارة ويتم تشريط الوجه والوشم وتصفيف الشعر بالطرق التقليدية وثقب اللسان والخد والأنف وغيرها من التقاليد المميزة لكل قبيلة) – بهذه الاجراءات يتم تثبيت وحدة القبيلة. من أبرز معالم توحيد أفراد القبيلة الواحدة هى وحدة لغة الكلام. كل مجموعة إنسانية تختلف عن المجموعات البشرية الأخرى فى لغتها – ولهجتها – وإن توحدت اللغة. واختلاف اللغات بين الأفراد المختلفين من أهم عوامل التفرقة (كما تفرق أناشيد الغرام والتزاوج بين الطيور المختلفة). فى الشعوب المتقدمة فإن القيم التى يؤمن بها الشعب، والأخلاق التى يتمسك بها الناس بالاضافة إلى كيفية اللبس، مع المخاوف والرغبات التى تسود الأمة، كلها تساعد على الوحدة بين أفراد الشعب الواحد وتُفَرِّقهُ من أفراد الشعوب الأخرى، مع تبجيل الأسلاف من الآدميين واحترام التقاليد ووحدة الأعياد والمناسبات والالتزام بالأصول المرعية، التى تجمع بينهم. نفس هذه العوامل هى التى تجعلهم مختلفين عمن غيرهم (وتجعلهم مختلفين عن أسلافهم من الحيوانات). من أهم عوامل وحدة القبيلة هو الارتباط بالأرض، كما فى كثير من الحيوانات، والتضحية فى سبيله بكل غال ومرتخص. كل هذه العوامل فعالة كحواجز بين القبائل فى الأحوال الثابتة، ولكنها تصير غير ذات فاعلية إذا قتل الرجال وسبيت النساء وتغيرت الأحوال، عندما تتقلص القبائل أو تمتد أو تتلاحم لتنشأ القبائل المزدوجة. نشأ تنظيم القبائل لضمان استمرار الازدهار، ولكن عندما تحل المحن فإن هذا التنظيم ينبغى أن يعاد بناؤه، والاستقرار يؤدى إلى التقدم ويبدأ المجتمع بداية جديدة.

نشأت فكرة الانتخاب الطبيعى من مصدرين يوحى كليهما باستبعاد غير الجدير بالبقاء (داروين ومالثوس)، ولكن أضافت العلوم الحديثة عوامل جديدة. من قديم الزمن حرص الإنسان على تحديد النسل وضبطه بوسائل مختلفة: الاجهاض، قتل الأطفال، تحديد أوقات الجماع، ثم حديثا باستعمال الطرق المختلفة لتحديد النسل بغرض تقليل عدد المواليد، للوصول إلى العدد الأمثل لكثافة السكان بدلا من زيادة عددهم بلا ضابط أو رابط. وقد تكون الوسيلة التى يبتدعها المجتمع هو تأخير سن الزواج (وقد يدفعهم هذا إلى ممارسة الشذوذ الجنسى)، أو ترك المسنين لحتفهم أو أكل الأطفال (فى أوقات المحن الشديدة). نحت القبائل والمجتمعات مناح مختلفة فى وسيلتها لضبط النسل لضمان الازدهار والتكاثر السلمى لأعدادها (قبل الهجرة إلى أراضى جديدة واستعمار بلدان شاغرة أو

مأهولة – بعد استبعاد أهلها أو القضاء عليهم). أثبتت الأبحاث الحديثة فى الكائنات الحية الأخرى – أن الازدحام الشديد عامل هام فى ضبط التكاثر (مع توفر الطعام)، بتأثيره على إفراز الهورمونات الجنسية. ويلعب التوازن البيئى دورا هاما فى هذا المضمار، آكلات العشب ينبغى عليها أن تحافظ على مراعيها، والحيوانات الضارية يجب ألا تفترس جميع ما يؤكل من الحيوانات وتقضى عليها، وإلا هلكت جميعا. (وقد أدرك الإنسان هذا المبدأ بعد أن تم القضاء على كثير من أنواع الحيوانات والطيور وأصدر القوانين بتحريم صيدها). والآن لنسأل أنفسنا هذا السؤال: ماذا يحدث عند التقاء جنسين من البشر، الأول وضع ضوابط قوية لتحديد نسله والآخر ترك التكاثر يحدث فى أبنائه بدون قيود! الإجابة واضحة سيكسب الجنس الثانى إن عاجلا أو آجلا (إلا إذا قضى الجنس الأول تماما على كل أبنائه). من الواضح أن الجنس البشرى أصبح قادرا على احتمال كثرة السكان والازدحام أكثر من أى مخلوق آخر على وجه الأرض، ولعل هذا ما يفسر التكاثر الرهيب الذى حدث للنوع الإنسانى الذي تكاثر ٢٠ ألف مرة خلال المليون سنة الأخيرة، وانتشر فى كل أنحاء العالم وكون أجناسا عديدة ولم يصب بالعقم أبدا. لماذا! أولا لأن الهجين المسخ يتخلص منه تباعا بالإجهاض وان وُلد فهو عقيم، ثانيا يقل تماما أو ينعدم مولد الأصناف النقية لتحريم الإنسان على نفسه غشيان المحارم، وثالثا قدرة الإنسان العجيبة على التكيف باستمرار وتخطى كافة العقبات. ولعل أهم هذه العوامل هو تحريم إتيان المحارم الذى حافظ قديما على القبائل وحافظ دائما على النوع الإنسانى بأسره.

الباب الثاني

العالم القديم

قسم العلماء تاريخ الإنسان إلى العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الجديد، وسمى العصر الأول العصر الباليوليثى وسمى الثانى العصر النيوليثى. يمثل هذا العصران خطوتين فى تطور الإنسان على سطح الأرض وأهم ما يفرقهما هو بداية كشف الإنسان للزراعة (التى كشفها فى عهود مختلفة فى مختلف الأماكن فى هذا العالم) ومنذ اتخذها الإنسان وسيلة لإنتاج حاجياته من الطعام والشراب والكساء.

سمى العلماء هذا الحدث بالثورة النيوليثية. أثبتت حفريات رجال الآثار، المدعمة بإثبات التواريخ بالدراسات الإشعاعية وبالفحص المجهرى لبقايا النباتات والحيوانات، بتواريخ حدوث هذا الحدث ومكانه، كما تبين لنا أول النباتات التى زرعها الإنسان وأول الحيوانات التى استأنسها. أثبتت الحفريات أن أول نشاط قام به الإنسان بعد مغادرته الكهوف كان زراعة الأرض، وحدث هذا أولا فى منطقتين من العالم. الأولى هى منطقة الهلال الخصيب وهى حوضى نهرى دجلة والفرات وأراضى سوريا وفلسطين وكردستان ولوريستان. والمنطقة الثانية تقع بين نيومكسيكو وجواتيمالا والإكوادور. الاحتمال الأكبر أن الإنسان استقر فى هاتين المنطقتين مع كشفه للزراعة. أول المحصولات التى زرعها الإنسان كانت القمح والشعير ثم البسلة والعدس والكتان فى آسيا، وكان الفول والقرع فى أمريكا، وكان تاريخ أقدم ما عثر عليه حوالى سنة ٧٠٠٠ قبل الميلاد (وقد يكون استقرار الإنسان فى هذه المناطق قد حدث حوالى ٢٠٠٠ سنة قبل هذا التاريخ). بدأت الزراعة أول ما بدأت على سفوح التلال غزيرة المياه (وليس فى قاع الأودية). فى هذا العصر حسّن الإنسان كثيرا من أدواته ومصنوعاته الحجرية والخشبية وصنع فؤوسا لحفر الأرض ومناجل من الفلنت لحش المحصول ورحيات من الحجر لطحن الحبوب. وسرعان ما انتشر الإنسان إلى بلاد الفرس وإلى البلقان، ثم نشأت مجتمعات إنسانية فى قرى تعتمد فى حياتها على الزراعة حوالى سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد، ثم نشأ فن صناعة الأوانى الفخارية والخشبية لتحل محل السلال لتخزين الحبوب (وقد وصل الإنسان لهذه المخترعات متأخرا فى نيومكسيكو «حوالى سنة ٢٠٠٠ قل الميلاد» وفى بيرو «حوالى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد»).

لماذا توصل الإنسان إلى هذه المخترعات فى العالم القديم والعالم الجديد فى نفس الوقت تقريبا – مع عدم وجود اتصال بينهما؟ فى هذا الوقت كان الإنسان قد وصل إلى أقصى درجة من التطور العقلى والجسدى، وإلى التنظيم القبلى، وإلى درجة كبيرة من الاختلاف الجينى والثقافى فى ظل الحياة القائمة على جمع الطعام والصيد والقنص. استنفذ الإنسان كل إمكانية الاستفادة مما جمعه من المعادن والطعام والحيوانات، وكل إمكانية صنع الأدوات والأسلحة والملابس والقوارب وأوانى حفظ الطعام. عرف الإنسان فى هذه المرحلة الأولية معظم أنواع السموم والعقاقير الهامة التى مازلنا نستخدمها حاليا، وعرف كيف يحصل عليها ويستخرجها ويستخدمها. كشف أيضا عن أسرار النسج (ولو أنه لم يعرف بعد أسرار الغزل)، وصنع النبيذ (ولكن لم يتوصل بعد إلى صنع البيرة والتقطير). طحن الحبوب وصنع الخبز، واستخرج الذهب والنحاس من المناجم وعرف كثيرا من الأحجار الكريمة. وضع هذا الإنسان الأول مبادىء فن الرسم والتلوين والموسيقى. كل هذه الإنجازات كانت متفرقة بين القبائل المختلفة ولم تعرف القبيلة ماتوصلت إليه باقى القبائل، ولكن الزمن علم الجميع مابدعته كل قبيلة. تغير جو الدنيا فى نهاية عصر الجليد الأخير – ما بين ١٠٠٠٠ – ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد أحدث هذا التغير أكبر أثر مر بالإنسان فى التاريخ. توقف انتقال الإنسان إلى كل أنحاء الأرض، ولم يعد ممكنا تناسل كل بنى البشر من بعضهم البعض وإمكانية إنتاج هذه الوفر من أنواع الإنسان المختلفة. ظهر الأثر الأكبر فى جنوب غرب آسيا – فى الهلال الخصيب وفى وسط الأمريكتين. صار الإنسان الآن قادرا – ليس على مجرد الحفر لاستخراج الجذور – ولكن صار قادرا على زراعتها، وليس مكتفيا بجمع البذور ولكن صار يخزنها ليزرعها والبقاء فى انتظار المحصول، ثم الاحتفاظ بالبذور مرة أخرى وزراعتها وهكذا دواليك. تعلم الإنسان هذا الدرس بذكاء فى منطقتين مختلفتين، وكانت المحاصيل تكفيه لمعظم متطلبات الحياة وتغنيه عن نشاطاته السابقة فى الصيد والقنص وجمع الطعام. كانت المحاصيل أكثر تنوعا فى جنوب غرب آسيا عنها فى وسط أمريكا، وكذلك كان الناس. كان اختلاف الخصائص الجغرافية ووسائل الاتصال واختلاف المناخ بين الجبال والوديان والصحارى والبحار القريبة، سببا فى تنوع المحاصيل فى العالم القديم وفى اختلاف نوعية البشر، الذين زاد تنوعهم وكثر ترحالهم وغزوهم لمناطق جديدة. فى هذه المناطق التى بدأ فيها استقرار الإنسان تعددت أنواع الحيوانات التى استأنسها الإنسان ليأكل لحمها ويستفيد من عظامها وجلودها. بدأ باستئناس الماعز والغنم والخنزير والماشية، وبدأت هذه الحيوانات تظهر فى مناطق الاستقرار الزراعية، ومعها الكلاب التى كثرت فى تلك الأمكان، كفت المحاصيل المنتجة غذاء البشر والحيوانات المستأنسة فى العالم القديم، أما فى العالم الجديد – فى

أمريكا – فقد زرع الإنسان الأرض ولكنه لم يستأنس الحيوانات (ماعدا غنم بيرو المعروف باسم «ألباكا»)، ولهذا كان تطور الإنسان في العالم القديم أسرع خلال الثمانية آلاف سنة التي مرت حتى هاجر إنسان العالم القديم وتعرف على العالم الجديد.

أول المحاصيل التي بذرها الإنسان ثم حصدها كانت أنواع القمح المختلفة وأنواع الشعير المتباينة (مازالت أسلاف هذه الأنواع تنمو في الأناضول تلقائيا، وفي الوديان بين الصحاري والتلال في كردستان وفلسطين) تغيرت خصائص هذه النباتات تدريجيا بزراعتها. في الأنواع البرية تتناثر الحبوب الناضجة من السنابل تلقائيا وهي مازالت محتفظة بقشرها، ولها أشواك حادة طويلة، تعطي للسنابل شكل لحية الإنسان وتشتبك بفراوي الحيوانات المارة بينها (مثل الحشائش البرية التي تحمي فيها الأشواك الحبوب)، ثم تنثرها الحيوانات في الأرض بعيدا عن النبات الأم، ثم تخترق الأرض وتنمو من جديد بعد أن تنبت. تغيرت هذه الخصائص في الأنواع التي زرعت، فقد حملت السنبلة ستة صفوف من الحبوب بدلا من صفين اثنين فقط، ونشأ نوع جديد من القمح في الأناضول وبلاد فارس وصار يصنع منه الخبز. في هذا النوع الجديد – قمح الخبز – تحمل الخلايا ٢١ زوجا من الكروموزومات – بدلا من سبعة أزواج أو من ١٤ زوجا كما في الأنواع البرية – وهذا النوع الجديد هو هجين جديد يعطي غلة وافرة عند زراعته. عندما بدأ الإنسان يحرث الزرع ثم يبذر البذور، بدأت الأشواك التي كانت متواجدة في السنابل الأصلية في الضمور. بعض سلالات الحشائش الجديدة سببت نقص المحصول إذ كانت الحبوب تنتشر في الأرض ويجد الفلاح صعوبة في التقاطها، وبعضها الآخر يقتضي بذل جهد أكثر في الدرس، وهكذا أخذ الفلاح ينتقي السلالات المناسبة حتى توصل إلى الأنواع الحديثة «وحنطة الخبز»، وبالتدريج انقرضت الأصناف القديمة لأن الفلاح أخذ يزرع ويكثر من «حنطة الخبز»، بنفس هذه الطريقة أخذت أنواع الحبوب الأخرى تتطور، وانقرضت الأصناف البرية وبقيت الأصناف الصالحة للزراعة والتي لها عائد اقتصادي وفير: الشعير والشوفان والشيلم والدخن والأرز والذرة. حدث هذا التطور في نباتات أخرى بعيدة كل البعد عن الحنطة مثل الحنطة السوداء (التي تقدم علفا للحيوانات)، والقنب، والخشخاش التي تختلف في أشكالها وتركيبها، ولكن ظل المبدأ واحدا. بدأ التطور في النباتات بالانتقاء الطبيعي ثم بالانتقاء غير الواعي (الذي أحدثته طرق بذر البذور وحراثة الأرض وجمع المحصول)، ثم بالانتقاء الإنساني الواعي الذي يفعله إنسان العصر الحديث. بعد القمح حدث انتقاء لنباتات مثل القرع والطماطم التي نمت في أكوام الروث من بقايا حبوب ما أكله الإنسان، وحدث الانتقاء أخيرا لمحاصيل لوثت المحاصيل الأولى التي انتقاها الإنسان وكانت تنمو وسطها في الحقول، ومن أهم هذه المحاصيل نبات الدخن، الذي تعددت أصنافه ولكن اشتهر منها:

الدخن الهندى:	زرعه الفلاح حوالى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد فى حوض نهر الأنديس
الدخن الصينى:	زرعه الفلاحون فى التركستان والصين سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد
الدخن الإصبعى:	زرعه الفلاح فى الحبشة سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد
الدخن العظيم:	وقد زرع فى أواسط أفريقيا سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ثم انتقل إلى الهند حوالى سنة ٩٠٠ قبل الميلاد، ومن ثم انتقل شرقا للصين وغربا إلى بابل ووصل إلى مصر فى زمن البيزنطيين.

ووصلت باقى أنواع الدخن إلى حوض البحر الأبيض المتوسط فى العصر الرومانى ثم انتشرت فى كافة البلاد الاستوائية.

أحدث الانتقاء غير الواعى تغيرات عميقة فى النباتات وأنتج محاصيل جديدة تبعا لتغير نوع التربة والمناخ والنباتات المشاركة لها فى النمو. لما نزل الزارعون من أعلى التلال إلى أحواض الأنهار حيث الأرض الأكثر خصوبة نمت النباتات أشد قوة وأوفر محصولا وبدأت تترعرع. مثلا كما نزل الإنسان من سفوح التلال إلى أعماق الوديان وزرعوا نبات الكتان، أنتج – بالإضافة إلى ألياف الكتان – حبوبا كبيرة غزيرة الزيت، عصرها الإنسان وحصل على زيتها بالإضافة إلى أليافها. نفس هذا حدث مع نبات القنب، ووجد له استخداما آخر عندما شم الدخان الذى ينبعث منه عندما طالته نيران المعسكر ووجد له تأثيرا مخدرا (ومازال يستعمل للآن بهذه الوسيلة فى التركستان). بهذه الطريقة تمكن الإنسان من معرفة الاستعمالات المختلفة للنباتات المختلفة واختار منها مايناسب حاجياته، وهكذا توسع الاقتصاد وتنوع فى عالم المزارعين. انقرضت الأصناف البرية لكثير من نباتاتنا الحالية بعد الكشف عن الزراعة (لأن الإنسان زرع أصنافا بديلة محلها)، وتغيرت خصائص كثير منها عندما استنبطت أصنافا جديدة لتحل محلها (كما حدث بعد إنتاج حنطة الخبز) وإنتاج الذرة الحالية (التى نتجت أصلا من نبات برى فى المكسيك). تبدلت أسلاف معظم النباتات حاليا وصار من الصعب عليها أن تنمو بريا بعد أن تعهدها الإنسان، وصارت معتمدة على الزراع (كما أصبح الزراع معتمدين عليها).

أول ما استأنس الإنسان من الحيوانات – قبل سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد – كانت الغنم والماعز من تلال بلاد الفرس والأناضول. ثم استأنس الإنسان الماشية من وديان بلاد ما بين النهرين ثم الخنزير من غابات جبال زاجروس وتاوروس. كانت هذه الحيوانات من البداية من عديد من الفصائل

والأجناس ثم تهجنت عند الاستئناس: كانت البقرة المستأنسة تزوج من الثور البرى (كما تزوج الكلبة القوية من الذئب) - وأخيرا تم استئناس الحصان فى أواسط آسيا والجمل فى شبه الجزيرة العربية. تم استئناس الحيوانات بنفس طريقة استئناس النباتات وزراعتها، بعد أن تبين الإنسان منافعها - عندما كانت تحل عليه فى أماكن سكنه أيام الجفاف والمجاعات وضمها إلى زرائبه، ثم تبينت أن الإنسان صار حاميا لها من المخاطر وطاعما لها من الجوع ثم يقوم بذبحها عند الأوان. يوضح الجدول رقم (١) استئناس الحيوانات فى العالم القديم. ثم وجدت الحيوانات التى استأنسها الإنسان أنه بدأ يربيها، وهكذا إنتقل إلى مرحلة الانتقاء الواعى، وصار يستبقى أجودها للتكاثر ويذبح أردأها، وهكذا تحسنت أصناف هذه الحيوانات جيلا بعد جيل. صارت النعاج والأبقار تدر عليه لبنها، وعملت حيوانات أخرى للفلاح: تجر عرباته ومحاريثه وتدرس قمحه وتدير سواقيه، ولم تبخل عليه بأصوافها وشعورها. استمتع الفلاح بتكاثر أولاده وتكاثر ماشيته عن جيرانه، واكتسب ثروة وافرة من هذا التكاثر، طالما كان ناصحا واعيا هو وأولاده بميزات العمل الجاد الدؤوب وبإستثمار كل الرزق الذى يأتيه ويستغله أحسن استغلال. زاد العمل فى المراعى من ذكاء الإنسان عن العمل الرتيب فى المزارع: وازداد ثراء الرعاة وعائلاتهم وقبائلهم عن سواهم من الناس.

مع وفرة محاصيل الفلاحين الجدد وحيواناتهم، تكاثروا وتفرقوا وزادت معرفتهم باستخدامات جديدة لمنتجاتهم، وكما حدث لنباتهم وحيواناتهم، حدث انتقاء لهم أنفسهم. تقلب الأجواء وصعوبات الأماكن الجديدة التى رحلوا إليها والمشاكل التى صادفتهم مع جيرانهم الجدد كانت اختبار لجلدهم وجدارتهم وذكائهم. نشأ من هذا الاختبار صنفين من البشر: صنف يعيش فى أماكن مستقرة يزرع ويقلع ويحصد ولكنه أيضا يربى الحيوانات - كما يفعل الأكراد حتى عصرنا هذا، وصنف آخر من الرعاة الرحل الذين يعتمدون اعتمادا كليا على حيوانات المرعى، وينتقلون معهم من مكان لآخر حسب تواجد المراعى - تبعا لفصول السنة، حيث يصعدون إلى قمم الجبال فى الصيف حيث تتوفر الرطوبة والمناخ البارد. بدأ هاذان الصنفان من البشر يظهرون صفات اختلاف عن بعضهما البعض، نفس معالم الاختلاف التى حكتها الكتب السماوية فى الفرق بين قابيل - زارع الأرض، وهابيل - راعى الغنم. كلا الرجلين كانا مختلفين عن انكيدو الذى جاء ذكره فى ملحمة «جيلجاميش» الصياد، الذى اختفى من المسرح فى الكتابات العبرية اللاحقة. تعلم الزراع الصبر والمثابرة التى لم يعرفها الصياد، اكتسب الحصافة والتدبر فى عواقب الأمور، وتوقع الأحداث قبل حدوثها، وبعض الجشع. تعلم أن يعرف أرضه ويحب ما يعرفه. كان يتحرك قليلا ويكون مجتمعا صغيرا يتكون من بضع مئات من البشر. وكان الصيادون كثيرو التنقل، يحضرون الصخور البركانية من الجبال الذى تبعد مئات الأميال شمالا، والقواقع من الخليج البعيد جنوبيا، مما دل على أنهم كانوا يزاولون التجارة. تزاوج الصنفان ونشأ من هذا التزاوج أبناء نقلوا الإنسان من العصر الباليوليثى.

جدول رقم (١)

استئناس الحيوانات فى العالم القديم

	اسم الحيوان	أماكن تواجده	مكان وتاريخ استئناسه	أماكن توسعه	فائدته	التهجين
١	الكلب	هو والذئب فى شمال أوروبا	فى كثير من الأماكن حوالى سنة ١٥٠٠٠ق.م.	لجميع أنحاء العالم	١- الصيد ٢- جر العربات ٣- رعى الأغنام ٤- الحراسة	مازال يهجن مع الذئب (لكل منهما نفس عدد الكروموزومات)
٢	الماعز	أواسط آسيا وجنوب شرق أوروبا	بلاد الفرس والأناضول سنة ٧٠٠٠ ق.م.	جميع الأراضى الزراعية وجميع المراعى أزاحته الأغنام	١- اللحم ٢- اللبن ٣- الجلد ٤- الشعر	جميع الأصناف البرية هجنت
٣	الأغنام	أواسط آسيا وجنوب شرق أوروبا	حول بحر قزوين سنة ٦٥٠٠ ق.م.	جميع المراعى فى العالم القديم	١- اللحم ٢- اللبن ٣- الصوف	جميع الأصناف البرية هجنت
٤	الماشية	فارس - جنوب أوروبا - شرق الهند	١- الأناضول سنة ٦٠٠٠ ق.م. ٢- وادى نهر الانديس سنة ٢٥٠٠ ق.م. (مستقلين)	جميع الأراضى الزراعية وجميع المراعى	١- اللحم (الا فى الهند) ٢- اللبن (الا فى الصين) ٣- جر العربات ٤- درس القمح	الهجين الأوروبى الهندى استعمر أفريقيا وجنوب شرق آسيا
٥	الجاموس	الهند جنوب الصين	١- وادى نهر الانديس سنة ٢٠٠٠ ق.م. ٢- الصين سنة ١٠٠٠ ق.م.	إندونيسيا أوروبا - وادى النيل - البرازيل (مع الزراعة)	١- اللبن ٢- اللحم ٣- جر العربات ٤- درس القمح	يهجن مع الأبقار والهجين عقيم فى الجنسين

تكملة جدول رقم (١)

استئناس الحيوانات فى العالم القديم

م	اسم الحيوان	أماكن تواجده	مكان وتاريخ استئناسه	أماكن توسعه	فائدته	التهجين
٦	الخنزير	الخنزير البرى يمتد من أوروبا إلى الصين	١- الأناضول سنة ٦٠٠٠ ق.م. ٢- الصين سنة ٢٠٠٠ ق.م. (مستقلين)	إلى جميع الغابات ثم فى جميع أنحاء العالم مع الزراعة	١- اللحم ٢- الجلد	تم تهجين جميع الأصناف
٧	الحمار	شمال أفريقيا	مصر سنة ٤٠٠٠ ق.م.	انتشر مع المراعى ووصل بابل سنة ٢٠٠٠ ق.م.	١- حمل الأثقال ٢- الركوب ٣- اللبن	مع الحصان ينتج البغل حوالى سنة ١٥٠٠ق.م.
٨	الحصان	أوروبا وآسيا	حول بحر قزوين حوالى سنة ٢٢٥٠ ق.م.	انتشر مع المراعى ووصل إلى مصر سنة ١٦٠٠ ق.م. وإلى الصين سنة ١٥٠٠ ق.م.	١- اللحم ٢- جر العربات ٣- الركوب بخاصة فى الحروب ٤- اللبن	تم تهجين أصناف كثيرة للانتقاء
٩	الجمل	ذو السنام الواحد فى شبه جزيرة العرب ذو السنامين فى وسط آسيا	سنة ١٢٠٠ ق.م. سنة ٥٠٠ ق.م.	شمال أفريقيا وجنوب الهند الأناضول وشمال مونجوليا	١- جر العربات ٢- الركوب ٣- اللبن ٤- اللحم	تنتج جمال عقيمة من تهجين الصنفين فى الأناضول
١٠	الفيل	الهندى سوريا، الهند، الصين الأفريقى شمال أفريقيا	فى وادى الانديس سنة ٢٥٠٠ ق.م. فى مصر سنة ٢٨٠ ق.م.	جنوب آسيا وايطاليا (جلبه القائد هانيبال)	١- جر العربات في الأحراش ٢- المعارك	يتم صيده عادة ولايربى فى الأسر

بدأ المزارعون الجدد يعتادون على المحاصيل الجديدة كما بدأت المحاصيل تعتاد على الرجال الجدد، وكون الجميع نظاما جديدا التحموا فيه معا فى تطور واحد وصار الواحد مكتفيا مع الآخر. حدثت فى هذا المجتمع البدائى للمزارعين الأول علاقات جديدة بين النساء والرجال. فى شاتال هيوك فى البداية نشأ مجتمع كانت السيادة فيه للنساء (وكانت أسرّتهن أكبر حجما من أسرّة الرجال). ثم تم اختراع المحراث الخشبى الذى يجره الثور وتديره يد تتحكم فيه حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م.، انقلبت الآية وصار الرجل هو السيد، كما صار بين الرعاة، وصارت القوة وليست الخصوبة هى معيار التفوق.

اختلف الصياد القديم عن الراعى الحديث. كان الصياد يمر بنوبات من النشاط الثائر يعقبها كسل واستكانة وانغماس فى الملذات، أما الراعى فإن يقضى شبابه وكهولته فى العناية بغنمه ومواشيه، يمضى نهاره وظهيرته وأمسياته فى عمل مستمر دؤوب للعناية بحيواناته، وفى هذا اختلفت رعاية الحيوانات عن العناية بالمزروعات، وهكذا تطور المزارعون إلى مربى أغنام وماشية لأن تربية الحيوانات تستلزم جهدا يفوق بكثير زراعة الأرض. كان المزارعون بطبعهم كسالى ولا ينجحون فى القيام بالأعمال الشاقة المجهدة، بعكس الرعاة الذين من الممكن أن يعهد إليهم بالمسئولية، ويرتبط الرعاة ارتباطا وثيقا بحيواناتهم، ويتقن كل فريق من الرعاة العناية بنوع معين من الحيوانات: أهالى لابلاند بغزال الرنة، البدو بجمالهم، زنوج الماساى بالماشية (ليس للحمها ولكن للبنها ودمائها)، السكيثانيون والمغول بخيولهم، ويكتسب كل أولئك البشر طباع خاصة مرتبطة بحيواناتهم. اختلف الرعاة تدريجيا عن بعضهم البعض وعن المزارعين (الذين لجأوا لاستخدام الحيوانات فى الزراعة لحرث الأرض وجر العربات فى تاريخ لاحق) واكتسبوا ذكاء وطباعا تؤهلهم للنجاح فى العمل الذى تعتمد حياتهم عليه. بعد استئناس الحيوانات بدأ رحيل الرعاة وهجرتهم عبر آسيا وأوروبا وخلال رحلاتهم تزاوجت الحيوانات والبشر مع الحيوانات البرية والأجناس البدائية غير المتحضرة، ولكن فى أفريقيا ظل التهجين بسيطا. هاجر الجنس الحامى إلى جنوب القارة وغربها ولم يحدث التزاوج إلا فى وقت لاحق عندما دخلت الماشية ذات السنام ورعيانها الآتين من الهند إلى اليمن والحبشة. كان استنباط أجناس جديدة من الحيوانات للتهجين بين الأنواع البرية والمستأنسة مشابها لما حدث فى عالم النبات، ولكن لم يحدث إزاحة نوع بنوع آخر كما حدث فى النبات. كانت الحيوانات الهجينة تستأنس مباشرة بواسطة الإنسان (كما حدث للخيول والجمال بأيدى الرعاة)، ولكن المزارعون هم الذين أحلوا حيوانات أخرى محل حيواناتهم التى فقدوها واستأنسوا ماشية الهند وبورما والجاموس على وجه الخصوص.

حدث اتساع شديد فى الرقعة المسكونة بالبشر من مكان ظهور الإنسان الحديث فى جنوب غرب آسيا ابتداء من سنة ٦٠٠٠ ق.م. فى جميع الجهات. أهّل الجو المعتدل والأرض الخصبة والنباتات المناسبة للحياة للإنسان أن يسكن فى وديان الأنهار وفى مناطق الاستبس وفى الغابات، وفرضت عليه محاصيل جديدة. بدأ جيران الإنسان الحديث من البشر الذين ينتمون إلى العصر الباليوليثى والحيوانات البرية فى التطور بعد أن واجه الإنسان أخطارا جديدة واختيارات جديدة، وحدثت تغيرات عظمى فى طرق الزراعة مازالت آثارها معنا حتى الآن. نشأ من جراء هذه التغيرات – التى حدثت فى الإنسان والحيوان والنبات – خمسة أصناف من المجتمعات:

١– المجتمع الزراعى البدائى حيث يزرع الفلاح الحبوب ولايربى الحيوانات. فى هذا المجتمع يستهلك الفلاح الأرض فتنخفض خصوبتها تدريجيا حتى تبور، ثم ينتقل الفلاحون إلى مكان آخر.

٢– المجتمع الزراعى الذى يزرع فيه الفلاح الحبوب ويربى الحيوانات. تتغذى الحيوانات على ما يزرعه الفلاح، وتعاونه فى الزراعة.

يختلف هاذان المجتمعان اختلافا كبيرا عن بعضهما. الفلاحون من الصنف الثانى يحتفظون بالمياه التى تزيد عن حاجة المزروعات ويعاودون رى الأرض ويحافظون على التربة ويستقرون فيها، الفلاحون من الصنف الثانى بعيدو النظر ويزداد بعد نظرهم تدريجيا جيلا بعد جيل.

٣– مجتمع الرعاة الذين يعيشون على رعى الحيوانات ولايزرعون. بعضهم يتخصص فى تربية نوع واحد من الحيوانات وبعضهم يربى كل ما يصادفه من حيوان.

٤– استمرت هذه المجتمعات الثلاثة، وتزاوج بعضها من بعض وتناسلوا وخرج من نسلهم هجائن مختلفة استطاعت بعد مدة طويلة من الزمن (أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة) من التطور المستمر والانتقاء. خرجت نوعيات أخرى من البشر انتشرت فى جنوب غرب آسيا أيضا، زرعوا أنواعا مختلفة من المحاصيل وربوا أنواعا متباينة من الحيوانات وعاشوا على الجبال وفى الوديان وعلى مشارف الغابات وفى الصحراء. تاجر هؤلاء الأقوام فى المعادن وفى بقية منتجات القبائل المختلفة المتخصصة وحصلوا من التجارة على الربح الوفير.

٥– ثم ظهر الإنسان المخترع الذى دفعته الحاجة إلى الابتكار. أول ما اخترعه الإنسان كان صنع الخبز. كان هناك أنواع عدة منه أهمها:

أ– الخبز المصنوع من القمح: وكان الإنسان مضطرا لطحنه ثم خبزه مع استخدام الحجر الساخن أولا ثم ابتدع الإنسان الأفران، وكان يحتاج فى هذه الصناعة إلى الخميرة لتخمير العجين.

ب- الخبز المصنوع من الشعير: وكان الإنسان يخمره فى الماء وينتج عن تخميره البيرة ثم خميرة البيرة اللازمة لصناعة الخبز.

جـ- خبز الشوفان والأرز والدخن: وكلها تحتاج فى صناعتها إلى الغليان، مما اقتضى اختراع الأوانى الفخارية التى تطلب ابتكارها استخدام الأفران.

د- زراعة الفاكهة ثم تخميرها بالخميرة وصنع النبيذ، الذى تتطلب استخدام القرع وليس الأوانى الفخارية.

نشاهد بقايا الأوانى الفخارية أولا فى شمالى منطقة الهلال الخصيب حيث كان يزرع حنطة القمح. وانتشرت من هذه المنطقة الأوانى الفخارية إلى باقى الأنحاء متقدمة عن زراعة القمح نفسها. استغرقت تلك الفترة الخاملة عدة آلاف من السنين قبل أن ينتقل هذا الإنسان المتحضر ليستقر فى مصر وشمال الهند وأوروبا حوالى سنة ٥٠٠٠ ق.م. وصل الإنسان إلى وادى نهر الانديس وإلى جبال الحبشة وإلى الجزر البريطانية قبل عام ٣٠٠٠ ق.م. بدأت باستقرار الفلاحين والرعاة فى بداية تقدم الإنسان النيلويثى، وبتأقلم البشر على الجو الجديد بالتناسل مع السكان الأصليين من جامعى الطعام والصيادين الذين قابلهم البشر الجدد بالصداقة والعلاقات الاجتماعية والجنسية قبل استعمار بلادهم والتوطن فيها. ولعل هذه هى المرة الأولى فى التاريخ التى قابلت فيها قبائل أو أجناس من البشر أناسا آخرين وتعايشوا معهم وصار الجميع متعاونين مع بعضهم البعض. نشأ من هذا الاختلاط نوعية أخرى من الناس فى الصفوف الأولى من القبائل القادمة. عمد بعضهم على حرق الغابات وإحلال المزروعات محلها (مما أدى إلى تدهور التربة)، وعاش آخرون - مع قطعانهم من الماشية - على المراعى التى يتنقلون بينها حسب فصول السنة. وكان اختطاف النساء من بين القبائل القادمة وانتقالهن إلى القبائل التى تنتمى للعصر الباليوليثى يعنى نقل المعرفة والمهارات إلى هذه الشعوب المتخلفة، وإلى نسل أبناء تعلموا من كلتا القبيلتين. هيأتهم المهارات والذكاء والقيود التى ورثها أولئك الأبناء من الجهتين إلى عالمهم الجديد. هذا النسل الجديد الذى ينتمى إلى إنسان عصرى الباليوليثى والنيوليثى كان عاملا هاما فى التطور والتحضر وفى انتقال المعارف والمهارات والأفكار والقدرات الذى قد يكون راجعا إلى انتقال الموروثات (الجينات). كانت الأحوال البيئية التى لاقاها المتقدمون الأول أبعد ماتكون عن الترحيب بهم، وقد قابلوها بابتداع وسائل معيشية مبتكرة (مثل السكنى فى البحيرات التى انتشرت فى وسط أوروبا). المعتقد أن سكان الجزر البريطانية الأصليين أتوا إليها من شمال أفريقيا عبر فرنسا (وكان هؤلاء قد اتقنوا سابقا مهارة البناء ومهارة الملاحة وقيادة السفن فى البحار الواسعة) ولم يأتوا إليها من حوض نهر الدانوب (مثل أهالى وسط

أوروبا) الذين لم يكونوا قد تعلموا بعد هاتين المهارتين (من القرائن التى تشير إلى اختلاف الأصل أن أهالى وسط أوروبا تغلب عليهم فصيلة الدم B فى حين أن أهالى أطراف أوروبا تغلب عليهم فصيلة الدم O).

مع مقدم الزراعة احتاج الفلاح الأول إلى قطع أشجار الغابات التى كانت تحيط بأرضه ليتمكن من امتداد رقعة الأرض التى يزرعها، ولكنه احتفظ بعينات من الأشجار التى أدرك فائدتها مثل أشجار الزيتون والتين والجوز واللوز والكريز وأشجار العنب كما حدث فى الأناضول، ولكّن فى بعض الأحيان كان قليل البصيرة وانتزع كافة أشجار الغابة أو حرقها (ومازال بعض المزارعين حتى الآن يزيلون الغابات أو يحرقونها مع ما فى هذا من ضرر أكيد بالبيئة). كان الفلاحون يقطعون أشجار الغابات عندما يحتاجون لخشب لبناء مساكنهم أو سفنهم أو يحتاجون لوقود للتدفئة أو الطهو أو حرق الفخار أو صهر المعادن. وهكذا تقلصت غابات البحر المتوسط خلال ستة آلاف عام من حوالى مليون ميل مربع إلى عشر هذا القدر، وبذلك تقلص تدريجيا – وإلى الأبد – العامل الذى كان يمنع تغير الجو. كان أثر نزع الغابات عظيما. أصبحت البلاد الحارة والجافة صحارى، وضاعت تربة البلدان التى تتميز بالتلال وجرفتها الأنهار، وغرقت البلاد الباردة كثيرة المطر لانعدام صرف المياه. أما منطقة الهلال الخصيب وما حولها من بلدان فقد استمرت فى التحضر والتقدم: هلك الأغبياء الذين غيروا فى البيئة من حولهم بدون حساب للدمار الذى سيعقب أفعالهم وتقدم الأذكياء الذين أزالوا العشب والحشائش من أرضهم ثم حرثوها وزرعوها. هؤلاء الفلاحون كانوا يسوون الأرض ثم يقيمون فيها المصاطب (التى كانت تحتاج لحجارة لتسندها)، ثم يحفرون فيها المساقى لتحمل الماء إلى الزرع (كما مازال الفلاحون يصنعونه فى بلاد الشرق إلى الآن). كانت إقامة المصاطب على سفوح الجبال تحتفظ بالتربة من أن تجرفها المياه وتقلل من سرعة فقد الماء. زرعت الأجناس السامية الأولى الكروم فى تلك المصاطب حوالى ستة آلاف عام ق.م. وسبقوا المزراعين الذين زرعوا قاع الوديان. انتشر الزرع بطريقة المصاطب كلما حاول المزارعون زرع سفوح التلال (كما يشاهد حتى الآن فى سفوح التلال حول نهر الراين)، مع حفر القنوات والتحكم فى جريان الماء. بدأت نظم الرى أول ما بدأت فى بلاد ما بين النهرين وفى مصر، وفيما بعد (مع الكشف عن الأرز) فى دلتا نهر الجانج، ومنها امتدت نظم رى الحياض فى جنوب شرق آسيا وفى الفلبيين. بدأ بناء مصاطب حجرية على نطاق واسع ابتداءا من سنة ٧٠٠ ق.م. ومكنت هذ الحوائط الحجرية من اختزان المياه حتى ارتفاع ١٨ قدما، مع جلب الطين من الوديان المنخفضة فى السلال. بدأ بناء سدود من الحجارة فى هولندا حوالى هذا التاريخ وتم تدريجيا استقطاع الأراضى الواطئة من بحر الشمال. مكنت طريقة رى الحياض الأهالى من حماية أنفسهم من الغزاة فى مصر القديمة وفى جنوب شرق آسيا عندما

بدأ فيها الرى بهذه الوسيلة لزراعة الأرز، أما فى بلاد ما بين النهرين كثيرا ما دمر الغزاة قنوات الرى وأعاد الأهالى المثابرون بناءها وصيانتها. ترسب الطمى فى الأرض، ومع تبخر المياه إزدادت ملوحة الأرض (مما لم يدركه الفلاحون الأوائل مما قلل من خصوبة الأرض ثم بورّها).

هكذا كان تأثير الزراعة على الأرض مختلفا، كان فى أحيان نافعا ومفيدا وفى أحيان أخرى ضارا ومدمرا حسب المناخ السائد والمحصول الذى تمت زراعته ونوع التربة ونوعية الأهالى وتفاعلتهم المتشابكة. أما الرعيان فقد توسعوا فى أراضيهم وزادت معها حريتهم وازدادت سرعتهم عن زملائهم المزارعين. احتلوا أحيانا الأراضى التى أفسدتها الزراعة وأحيانا أخرى دمروها بأنفسهم. كانوا يتنقلون بين الصحارى والأراضى المبنورة، وكانت عنزاتهم، وفيما بعد جمالهم، تقضى على أى مزروعات فى الأرض وتمهد لزحف الصحراء الرملية عليها.توسع الصحراء الكبرى خلال الأربعة آلاف سنة السابقة يرجع فى معظمه إلى التآكل بالاحتكاك ومازال مستمرا فى الجنوب والشرق وفى شمال إفريقيا. ولم يكتف الرعاة بترك حيواناتهم تدمر كلأ المراعى بل حرقوا الغابات (فى ايطاليا) ليمكنوا عنزاتهم من أكل جذور الأشجار.

فى هذه المرحلة من تطور الإنسان دخلت قوى جديدة - عقلانية ومنطقية - لتتحكم فى حياته بدلا من ترك الأمور على علاتها لعملية الانتقاءالطبيعى. بدأ الفلاح والراعى يخطط مسبقا لعام كامل، وظهر أفراد يستطيعون التخطيط لأعوام طويلة فى المستقبل (مثل ماحدث فى قصة يوسف التى وردت فى الكتب السماوية والذي خطط لسبع سنوات قادمة)، واستطاع الإنسان أن يتنبأ بالدورة القمرية لثمانية عشر عاما. استمرت الحقبة التى توسعت فيها الزراعة توسعا هائلا وغطى النشاط الزراعى على الحياة حوالى ٩٠٠٠ سنة، وكانت فى بدايتها مرحلة شاقة استبدل فيها الإنسان العمليات الغريزية بالعمليات العقلانية، عمليات جرت على مدى مليون سنة، ولكنها تسارعت إلى حد ملحوظ فى مرحلة نمو الزراعة وكادت تؤدى إلى الهلاك عندما تعارض القرار العقلانى مع الغريزة.

حوالى سبعة آلاف عام ق.م. انتشر المزارعون مع حنطتهم وسائر حبوبهم فى جميع الاتجاهات (سوى اتجاه الشمال). انتشروا إلى الغرب حتى مقدونيا وعبروا البحر إلى جزيرة قبرص، وانتشروا إلى الجنوب إلى سوريا والأردن حتى واحة الفيوم فى مصر، وانتشروا شرقا حتى هضبة بلاد الفرس، وبدءوا ينشئون مستوطنات فى تلك الأماكن. دلت فؤسهم ومناجلهم ومجارشهم اليدوية وحفر خزينهم التى تم العثور عليها أنهم كانوا متفوقين فى الزراعة، كما دلت عظام الماعز والغنم والماشية التى عثر عليها أنهم مستأنسو هذه الحيوانات لطعامهم. بدأت الحضارات الإنسانية الأولى تظهر فى هذه الأماكن (من سنة ٦٥٠٠ إلى سنة ٥٠٠٠ ق.م.).

بدع الإنسان غزل الخيوط، أولا من الصوف ثم من الكتان فى الأناضول، ثم تبع الغزل النسيج (الذى كان معروفا من قبل فى عمل السلال للإنسان الباليوليثى). ثم ابتكر الإنسان صناعة الفخار (فى جنوب الأناضول)، ثم تشكيل الحجر وحرق الطوب وبناء المساكن. انتشرت هذه الصناعات فى العالم الزراعى – ببطء – على مدى ألف عام (انتشر الفخار لمسافة ١٠٠٠ ميل على مدى مايزيد عن الألف عام). بدأ الإنسان يتعلم صهر النحاس (فى جبال الأناضول) حوالى ٦٠٠٠ سنة ق.م. وانتشر هذا النشاط بسرعة إلى جزيرة قبرص (ومازالت قبرص تشتهر بالمصنوعات النحاسية حتى الآن)، وكشف الإنسان عن تلوين الأوانى الفخارية وانتشر التلوين إلى جميع المناطق فى بضع مئات من السنين، وقد تطور القائم بالتلوين فيما بعد وصار الكاتب بعد بدع رموز الكتابة التى نقلت الإنسان نقلة كبرى من سحر الماضى إلى ثقافة المستقبل.

دلت هذه التحركات السريعة على أن القبائل الباليوليثية التى كانت تعيش على التجارة فى المصنوعات من حجر الصوان والزجاج البركانى الأسود بدأت الآن فى إتقان مهارات جديدة متخصصة، وضع هؤلاء الأفراد الرحل خدمتهم فى متناول المجتمعات النيوليثية المستقرة التى تنوعت أجناسها واستقلت مجتمعاتها ولكن مازال اقتصادها مترابطا. استقرت المجتمعات الجديدة فى جارمو (كردستان) حوالى سنة ٧٠٠٠ ق.م.، وفى شاتال هويوك (فى كابا دوشيا بالأناضول) حوالى سنة ٦٠٠٠ ق.م.، وفى أريحا (فلسطين) حوالى سنة ٦٠٠٠ ق.م.، وفى قبرص (حوالى ٥٥٠٠ ق.م.) وفى أور (سوماريا) حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م. وفى جرجام (سوريا) حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م. وأخيرا فى نينوى وبابل (الأشوريون والبابليون) حوالى سنة ٦٠٠ ق.م. بدأ هؤلاء الأقوام – بعد حين من استقرارهم – فى بناء التحصينات حول مستوطناتهم (فى أريحا وفى مرسن بالأناضول) مما يعنى بأن القتال والحروب بدأت تنشب بينهم (وبعد كل معركة يختلط الأقوام وتختلط الأنساب). لم يبدأ استيطان الإنسان فى الأراضى الخصبة، فى أودية الأنهار، إلا بعد أن تمكن من ضبط مياهها وتوجيهها للرى، ثم بناء مصاطب للزراعة وبناء خزانات لحفظ المياه للرى وهكذا أمكن الإنسان القديم من الحفاظ على التربة والماء، عاون الإنسان فى جهده هذا استئناس الثور لحرث الأرض ومن بعدها لحمل التربة، عمل السبائك من البرونزوتم صناعة الآلات من هذا المعدن الجديد، تم كشف الكتابة. انتشرت هذه المكتشفات الجديدة وتعرضت للانتقاء الطبيعى، كما تعرض الأناس الجدد للانتقاء تبعا لمقدرتهم العقلية. احتلت كل هذه التطورات، الألف سنة الخامسة والرابعة قبل الميلاد. لأول مرة فى التاريخ عاش الانسان فى مجتمعات كبيرة، ووضع هذا الازدحام قيودا على الخصوبة وزيادة التعرض للمرض. اكتسب الفلاحون المستقرون عادات جديدة مثل النظافة (والفلاحون أنظف عادة من الرعاة) وحرصوا على عدم تلويث الماء، وجاءت التعليمات الدينية فيما بعد لتحض على النظافة وعى الحرص

على نقاء الماء. وكان يعلم الوالدان أبناءهما على اتباع تلك العادات. اكتسب البشر الجدد تدريجيا المناعة الموروثة نحو الطفيليات الجديدة والأمراض الجديدة وكان الانتقاء الطبيعى يظهر أثره فى هذه المحن. نزل أهالى التلال تدريجيا إلى وادى نهرى دجلة والفرات حتى وصلوا إلى دلتا النهرين واحتلوا مساحات أكبر فاكبر من هاذين الواديين كلما حسنت وسائلهم الهندسية زادت محاصيلهم الزراعية وكثرت حيواناتهم خلال الألف سنة الخامسة ق.م. حوالى منتصف الألف سنة الرابعة ق.م. بدأ بناء المدن فى أرض المستنقعات المعروفة باسم سومر. وجد السكان الجدد قنوات طبيعية عديدة متشابكة وحقولا شاسعة تم حرثها بواسطة الثيران، وكمية هائلة من البوص الذى استخدموه فى البناء، وثروة غزيرة من الأسماك ومقدارا لاحد له من أشجار النخيل الذى استخدموا تمره كغذاء وغرسوه فى الأراضى الجديدة الجافة. حدث مع هذه الإنجازات الحياتية خلق مجتمع جديد تم تقسيمه إلى طبقات.

حضارات أرض الجزيرة (بلاد ما بين النهرين):

احتلت مدن سومر الاثنتى عشرة أماكن مختلفة فى دلتا نهرى الفرات ودجلة قبل أن يصبا فى الخليج الفارسى، وكبر حجمها وتعاظم شأنها وازداد ثراؤها خلال الألف سنة الرابعة ق.م. لمهارة أهلها وكفاءتهم فى حرث الأرض وريها. أول ما ظهر من هذه المدن مدينة «عبيد» التى بقى من آثارها أدوات مصنوعة من حجر الصوان وأوانى فخارية يدوية، ثانى هذه المدن مدينة «أوروك» (مدينة «اريك» فى العهد القديم ومدينة «ورقة» الحالية) وأهم منجزاتها اختراع العجلة التى تهيىء لصانع الفخار الدوران السريع، وعمل سبائك البرونز. أتى سكان هاتين المدينتين من الجبال، وسلكوا طرقا متعددة، ثم التحموا سويا وكونوا شعبا واحد تحكمه حكومة واحدة يحكمها الكهنة، تكلم هؤلاء الأقوام اللغة السومرية، لغة لم يكن لها سلف ولم ينشأ بعدها خلف، وهى اللغة الأولى التى تمت كتابتها فى العالم. الاستقرار الثالث الذى حدث فى تلك المنطقة كان من الرعاة المحاربين الذين هزموا أهل البلاد المستقرين واستعمروهم. تحكى الأساطير أن هؤلاء الأقوام جاءوا من الجنوب وتنسج حولهم أنهم أول من بدع الفنون. عند طرد هؤلاء الغزاة فى الألف سنة الثالثة ق.م. كانت البلاد قد تغيرات تغيرا عظيما. بدلا من حكمة الكهنة صار الملوك المقاتلون هم الحكام وكان بيدهم السلطة والثراء وشاركوا الآلهة ثم أزاحوهم. استقرت الكتابة فى هذا العهد وبدأ كتابة التاريخ. كثر بناء المعابد فى مدن سوماريا، وكانت المعابد تبنى فى المدن الجديدة فى نفس مكان بناء المعابد فى المدن القديمة (وهو تقليد طالما اتبعه رجال الدين). بدأت الصور تظهر فى الكتابات، كما عرفت الأرقام (التى كانت تمثل بصورة الآلهة) حوالى سنة ٣٥٠٠ ق.م. ثم ظهرت التماثيل الكبيرة والصغيرة على هيئة الآلهة

والكهنة، والملوك، والجنود، والأسرى، والحيوانات البرية والمستأنسة. كانت الرسوم تمثل الاحتفالات الدينية والحربية والمدنية، وكانت تقام فى الهواء الطلق بصحبة العربات التى تجرها أو تقام الاحتفالات فى المعابد أو المساكن. بدأت المبانى تقام أولا من الطوب الطينى ثم تطورت إلى الطوب المحروق، وخلال ألف عام زودوا المساكن تدريجيا بأفخر الأثاث. تدل كل هذه المنجزات المجهود الضخم الذى بذل فى تنظيم المدن الجديدة، ويتضح هذا من حجمها الضخم وبقائها لمدد طويلة. كان الجهد الأكبر يبذل فى التنظم الإدارى فى الحكومة وفى التعليم وفى الشئون الدينية، وكان الكهنة هم قادة المجتمع، وهم الذين يتم تعلمهم بواسطة الطبقة المثقفة والذكية. لأول مرة ترينا الوثائق أن المجتمع كان مقسما إلى طبقات قبل هذا العصر بحوالى ألفين من السنين (بدون أن يكتب فى وثائق وصلت إلينا). اعترف الكهنة بالسلطة العليا فى البلاد فى سومر ولكنهم أقاموا لهم سلطة دينية عليا فى مدينة نيبور المقدسة. كان الدين يجمع حوله كافة مدن البلاد (رغم قيام الحروب بينها ثم تفككها فى النهاية)، بسبب الحروب التى كانت تنشب بين حكام المدن العسكريين المختلفين. كان رجال الدين والكهنة يساندون فريقا من المتحاربين وينصرونه على باقى الفرقاء (وهذا ما جعل من مدينة سومر عاصمة البلاد)، ولابد أن الكهنة قد تراضوا مع المحاربين كما تراضت الآلهة مع الملوك. وقد تكرر هذا الموقف مرة ومرارا على طول التاريخ الإنسانى لأن الجميع يودون خطب ود السلطة الدينية والسلطة العسكرية. مع نمو الحروب «والرجال العظام» الذين قادوا الجيوش فى تلك الحروب تغيرت مظاهر حياة المدن. بدأت تظهر التحصينات وبدأت تشاهد علامات نشاط الجنود فى النصر والهزيمة. بدأنا نلاحظ مشاهد الأسرى وهم يساقون إلى الملك، وما كان يحدث لهم. فى البداية كان يتم ذبحهم ثم تبين لبعضهم أن الشعب المهزوم قد يكون ذا فائدة للمنتصر فتم إبقائهم على قيد الحياة بدلا من قتلهم، ونشأت طبقة اجتماعية جديدة – طبقة العبيد. وزاد تعداد هذه الطائفة عندما بدأت عمليات خطف الرجال والنساء من الرعاة فى الجبال. وقد بينت الكتابات التى تم العثور عليها أن تجارة الرقيق ازدهرت بعد عام ٣٠٠٠ ق.م. بنشأة طبقة العبيد حدثت تطورات هامة فى شكل المجتمع. فى البداية انتعشت تلك الأنشطة بوجود الزراعة ثم بنشأة مجتمعات المدن فيما بعد واتساع نطاق الأعمال فيها. من أبرز الأعمال التى احتاجت لخدمات العبيد كانت بناية المعابد وشق الترع وحفر القنوات ثم تلى ذلك استخراج المعادن وشق الطرق. يتضح من كتابات الكهنة السومريين نوعية الأعمال المختلفة التى كان يقوم بها الناس: قطع الأخشاب والأعمال الخشبية المختلفة، استخراج المعادن وجلبها فى نهر الفرات الهادىء من الأناضول (الذى سمى «نهر النحاس») فى مقايضة مع الحنطة. ظهر فى المدن التى نشأت على نهر الفرات بالقرب من البحر الأبيض المتوسط مهارة الحرفين السومرين. انتشرت صناعة بناء المدن من سومر أولا إلى أعالى الفرات، ثم انتشرت

فى بلاد فارس. كان انتشار البناء عملية بطيئة لم تنتشر بسرعة انتشار الزراعة والصناعات الفخارية، وشابهت فى انتشارها انتشار الفنون الجميلة بين الطبقات الراقية: صار السكان يختلفون حسب طبقتهم الاجتماعية، فالفلاحون مستقرون فى أماكنهم وسكان المدن يتحركون. انتشار السكان فى عصر السومريين هو مثال لانتشار السكان فى العصور اللاحقة (والعصور السابقة). كان عدد المهاجرين أولا قليلا جدا ولكن تبعتهم أعداد غفيرة. هاجر أولا الفلاحون ومعهم فؤسهم من سومر إلى غرب الأناضول (إلى طروادة) ومهدوا الطريق إلى هجرة كبيرة بعد مئات السنين إلى حوض نهر الدانوب، كما مهدوا الطريق إلى قطع الأشجار وبناء السفن التى شوهدت بعد قليل فى المياه المصرية ومياه جزيرة كريت وفى الخليج الفارسى وفى نهر الانديس العظيم. أول من درس علم الفلك كان السومريون، وأول من وضع التقويم كان السومريون (ومنهم أخذها كهنة المصريين القدامى والتجار الفينيقيون). أول من وضع تصويرات الكتابة كان السوميرون – وكان عدد الصور ٢٠٠٠ صورة سنة ٣٢٠٠ ق.م. –، تم إنقاص عددها إلى ٥٠٠ صورة ذات نطق معين سنة ٢٩٠٠ ق.م. (وكانت خطوطا مسمارية على الطوب النى). الكتابة الهيروغلوفية فى لوحة الملك نارمر سنة ٣١٠٠ ق.م. كانت تعتبر مقدسة، ثم تكيفت وتغيرت واختلفت وانتقلت من سومر بواسطة مجموعة من الكهنة كذلك انتقلت العجلة السريعة لصناعة الفخار إلى الهند شرقا وإلى مصر غربا ومن ثم انتقلت إلى بلاد الإغريق، ثم صنعت باقى العجلات الأكبر حجما من هذا النموذج البدائى. لم يكن هذا الانتشار نتيجة نصر عسكرى وتأسيس امبراطورية شاسعة ولكنه كان نتيجة انتشار الصناع المهرة والكتبة وعلماء الرياضيات والحساب فى زمن كان هؤلاء يلتصقون بالكهنة ويعاونوهم فى بناء المعابد، وجاء من نسل هؤلاء الفنانون والحرفيون والمثقفون الذين غزوا العالم بعد ذلك بعلمهم وفنونهم وصناعاتهم.

هكذا تدلنا الحفريات أن سومر كانت مهد الحضارة فى العالم ويمثل الكاهن جيلجامش – الذى تولى الملك – أسطورة مازالت تتردد بعد آلاف السنين فى الأدب السومرى ومن بعده فى الأدب البابلى، ومازالت تعيش إلى الآن. تحكى لنا تلك الأسطورة عن الخلاف الذى نشأ بين سكان المدن (المتحضرين) وسكان الجبال والصحراء (المتوحشين)، كما تقص علينا الخلاف الذى نشأ بين الإنسان والآلهة (آلهة بلاد ما بين النهرين)، وبين الإنسان وقوى الطبيعة، خاصة الفيضان، الذى كانت الآلهة تحذر أتباعها المخلصين منه فيتقوا شره. كانت هذه الأسطورة وغيرها من الأساطير تشابه الحكايات التى ورثناها من اليهود والإغريق والتى كانت تحتوى على مصائب مؤقتة وحوادث مؤلمة كما تحتوى على مبادىء أخلاقية وتحتوى على الثواب والعقاب، وتمثل كلها كيف انتقلت الحياة من البدائية المتوحشة إلى الحياة المدنية المستقرة الهادئة. يلاحظ فى قصة الطوفان العظيم فى كتابات السومرين (قصة نوح) كيف أن نوح عند السومرين وضع من ضمن من وضع فى سفينته –

العمال المهرة (الذين كانوا لازمين للحياة المدنية) بعكس نوح فى الكتابات العبرانية الذى لم يذكر هذه الفئة فيمن وضعهم فى سفينته. ومن ضمن ما عثر عليه من حفريات السومرين هذه العبارة. «كان هذا أيضا من أعمال جيلجامش، الملك، الذى كان يعرف كل بلاد العالم. كان حكيما، يعرف الأسرار ويدرى بالمُخبأ. قص علينا قصص ما قبل الطوفان. ذهب فى رحلة طويلة وكان متعبا، متطلعا، صابرا ومجاهدا، وعقب عودته نقش على الحجر القصة بأكملها».

تحركت الحضارة التى نشأت فى أرض سومر إلى الشمال، ثم تحولت لغة السومرين إلى اللغات السامية التى كان يتحدث بها أهل الصحراء وأهل الأدغال، ثم توحدت المدن الكبرى فى امبراطوريات عظمى حكمها حكام عسكريون متعاقبون. استقرت المعتقدات وتأكدت المهارات وتهذبت اللغات ثم وضع نظام متين للمجتمع – اتبع فيما بعد فى آسيا وفى أوروبا. بعد حوالى ١٠٠٠ سنة من رى أراضى سومر، بدأت تعانى من زيادة الملوحة فى الأرض. بدأت ملاقاة هذه المصيبة أولا باستبدال زراعة الشعير (المحصول الفقير الضعيف) محل زراعة القمح (المحصول الثمين القوى)، ثم اضطر الفلاحون للهجرة نحو الشمال وصارت أراضى بابل القوية الجديدة هى مصدر الثروة. فى نفس الوقت تم الكشف عن الثروة المعدنية فى الأناضول وأرمينيا وبلاد الفرس وبدأ استخدام المعادن فى صناعة الأسلحة وأدوات الحرب، وأدى هذا إلى زيادة قوة سكان التلال الشمالية (فى آشور) ثم فى الام (وعاصمتها صوصة العاصمة الأولى لامبراطورية الفرس). الكشف الأعظم بعد صناعة الفخار كان استخدام الأفران لاستخلاص المعادن: البداية كانت للنحاس ثم البرونز ثم الحديد ثم تصنيع الصلب من الحديد بإضافة الكربون. كل هذا كان من بدع الإنسان الذى وجد خامات المعادن فى جبال أرمينيا وجبال فارس، ووصلت منجزاتهم إلى بلاد ما بين النهرين تباعا فى أعوام ٣٠٠٠ ، ٢٦٠٠ ، ١٣٠٠ ق.م.، فى نفس الوقت بدأت صناعة الزجاج حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. ثم انتقلت إلى مصر بعد حوالى ١٠٠٠ سنة أيام المملكة الحديثة من ممالك قدماء المصريين. ونظرا لندرة الحديد فى بلاد ما بين النهرين بلغت قيمته بالنسبة للمعادن الأخرى عام ١٧٦٠ ق.م.

الرصاص = ١	الفضة = ١٥
الذهب = ٦٠	الحديد = ١٢٠

أعطى تصنيع المعادن لشعوب الشمال ميزة على سائر الشعوب، وكان الصلب الذى بدعوه من الحديد هو الذى أعطى للأشوريين بعد نحو ألف سنة القوة والغلبة لكتائبها ووضع أساس امبراطوريتها، ومكن نفس الصلب تحسين نوعية المحاريث وصار الفلاحون قادرين على حرث الأرض الأشد صلابة على التلال ومكنهم من زراعتها. التحسن الذى طرأ على أدوات القنص مكن الرعاة

أيضا من جز صوف الغنم. أمكن صناعة آلات قطع ذات كفاءة من حجر الصوان وبدأ الإنسان يخصى حملان الأغنام (لتزداد سمنة) ثم طبق نفس هذا الفعل على الغلمان والرجال الأسرى والذين تحولوا إلى العبودية (وقد كان لخصى الرجال آثارا بعيدة على تطور المجتمعات الإنسانية مازلنا نشاهدها حتى عصرنا الحاضر). فضل بلاد ما بين النهرين هو تحسين وتطوير وتطبيق إبداعات كثيرة ابتدعها البشر فى مختلف الأماكن، وخلال تطور أرض الجزيرة كان إبداع المهارات وإتقانها من أشرف المهن التى يحترمها المجتمع ويقدرها أحسن تقدير. كان الكهنة والملوك قريبين من مشاكل الزراعة وتقنياتها، كما كانوا قريبين من متطلبات الحروب والمهارات اللازمة لها حتى نهاية الإمبراطورية البابلية وكان سناشريب ملك آشور يفخر بمنجزاته فى تطوير التعدين والصناعات المعدنية وطرق الرى وكان آخر الملوك القدامى الذى افتخر بالإبداعات العلمية. وهكذا كان بُعد جنوب بلاد ما بين النهرين عن مصادر المعادن وتدهور تربتها الزراعية سببا فى انتقال الثروة والسلطة من الجنوب إلى الشمال وسببا فى هجرة أهالى الجنوب إلى الشمال، وزادت خصوبة أرض أهل الشمال بينما انخفضت الخصوبة فى الجنوب. أول من هاجر كان الكهنة وأرباب الحرف ثم الإداريون والحكام. العباقرة هم أول من يهاجر من البلاد الفقيرة إلى حيث توجد الثروة، ومعهم تنتقل الحضارة التى بدأها السومريون (مازالت تنتقل إلى عصرنا الحاضر).

هاجمت قبائل من الرعاة المدن السومرية مع هجرة حيواناتهم من مراعى الصيف إلى مراعى الشتاء (كما استمر شأنهم إلى الآن). وأكلت حيواناتهم الكلاء والعشب وحولتها إلى مايقرب صحراء العرب. كانت أهالى هذه القبائل هم المتكلمون الأوائل للغات السامية وسموا بلاد ما بين النهرين «العراق» أو عند حافة الصحراء. كان سلاحهم القوس والسهم المزود بالحجارة وكان عددهم ثابتا وثروتهم ثابتة من جراء الحروب الكثيرة التى تنشب بينهم. ومن الإغارة المتكررة على حيوانات القبائل الأخرى. عندما حاربت القبائل أهالى المدن المستقرة نهبوا الطعام والبضائع والثروات، وعند انتصار أهالى المدن كانوا يستعبدون الأسرى من رجال القبائل (وتحول هؤلاء العبيد أحيانا إلى سادة). وهكذا كان مجتمع المدن يتجدد باستمرار بدم جديد، ذو مواهب جديدة، خاصة فى القتال. وبالتدريج تحول الغزاة الجدد (عند الحدود الشمالية) والدخلاء الجدد، واللغات الجديدة وخاصة الحكام الجدد إلى سادة للبلاد واستولوا على حكمها. كان الحاكم يدعى شاروم - كن أو كما نسميه «سارجون العظيم». حوّل هذا الحاكم الجديد عاصمة ملكه إلى «أكاد» بالقرب من بابل، شمال سومر، وكانت ثورة سارجون فى عام ٢٣٧١ ق.م. وهى بداية الإمبراطورية الأكادية. هاجم ملك أكاد الجديد - بتحريض من التجار - الأناضول فى الشمال واستولى على سومر فى الجنوب واستولى على جميع الأراضي من البحر المتوسط شمالا إلى الخليج الفارسى جنوبا، وهكذا تُحْكَم بلاد شاسعة - لأول

مرة فى تاريخ البشرية – بواسطة حاكم واحد من عاصمته – من مدينة واحدة. نشأت طبقة جديدة من الحكام – رجال محاربون يتكلمون لغة الرعاة السامية التى فرضوها على كل بلاد ما بين النهرين. استمر حكم عائلة ساراجون ١٣٠ سنة ثم سقطت من هجمات البرابرة الرعاة الآخرين، الذين عرفوا باسم «الأموريين» الذين استولوا على بلاد الأكاديين وأعادوا انتعاش مدن السومريين. نشأت دولة جديدة من مقاتلين جدد يتكلمون لغة سامية، يتنقلون ويتوسعون ويتعاونون ويديرون شئون الحكم وقامت على أنقاض دولة الأكاديين وأنشأوا لهم عاصمة جديدة، «بابل» ومعناها «ساحة اجتماع الآلهة». استمر حكم الدولة البابلية الأولى ٣٠٠ سنة وأشهر ملوكها الملك «حامورابى» جدول رقم (٢).

جدول رقم (٢)

تتابع نظم الحكم فى بلاد ما بين النهرين

نظـــــــام الحكـــــم	أشهر الحكام	السنة
بدء ظهور المدن من نينوى إلى أور		٤٠٠٠ ق.م.
الدولة السومرية		٢٩٠٠ – ٢٤٠٠ ق.م.
الدولة الأكادية	ساراجون الأول	٢٣٧١ – ١٩٠٠ ق.م.
الدولة البابلية الأولى	حامورابى	١٨٩٤ – ١٥٩٥ ق.م.
الدولة البابلية الثانية		١٥٩٥ – ١١٠٠ ق.م.
الدولة الأشورية	شالما نصر	٨٥٠ – ٦١٢ ق.م.
	سناشريب	
	اسارهادون	
الدولة البابلية الثالثة	نبوختا نصر	٦١٢ – ٥٣٩ ق.م.
الحكم الفارسى	قوروش العظيم	٥٢٥ – ٣٣١ ق.م.

كان حامورابى ملكا عظيما – ليس بسبب اتساع رقعة مملكته فى عهده، والتى لم تتعد جزءا من أجزاء مملكة ساراجون، ولكن بسبب حسن إدارته للملكة الذى تمخض عن ثراء بالغ لها. سقطت الإمبراطورية البابلية الأولى تحت هجمات غزاة من الجبال، مزودين بأسلحة جديدة ويركبون الخيل

والعربات الحربية وأسلحتهم من الحديد. من التحام الغزاة الجدد مع السكان الأصليين نشأت الدولة الأشورية ووصلت إلى قمتها فى القرن التاسع ق.م. واحتلت جميع بلاد ما بين النهرين بالإضافة إلى سوريا وفلسطين وأغارت على حدود مصر. كان الآشوريون يتكلمون لغة سامية ولكنهم أتوا من الشمال وزحفوا نحو الجنوب بعرباتهم الحربية وأسلحتهم وكانوا آخر الامبراطوريات التى حكمت بلاد ما بين النهرين قبل انهيارها أمام الفرس. اعتمدت دولة الأشوريين على مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية الخصبة فى بلاد ما بين النهرين ذات طرق مواصلات ميسرة بواسطة البغال والخيول مع نظام حكم إدارى كفء. كان يتولى الدفاع عن الدولة جيش متعدد الأجناس، يكثر فيه الجنود المرتزقة والمهندسون وتتميز فيه وسائل النقل والاتصال، وتؤازر الدولة طبقة مخلصة من رجال الدين أخصلت لخدمة الملك.

الكاهن والكاتب

كان إنسان العصر الباليوليثى يفسر المشاكل الكونية، كالخلق والولادة والوفاة والخصوبة، كما يفسر الأحداث العارضة كالمرض والوقاية منه، وطرد الأرواح الشريرة التي أعتبرها مسئولة عن الأمراض، والتنبؤ بأحداث المستقبل، بالتفاعل الذى يحدث بين الآلهة وأرواح الشر، وكانت وسيلته فى الاهتمام بهذه الأمور وتتبعها تأتى عن طريق الكهنة السحرة والأطباء المشعوذين. كان هؤلاء الناس يستخدمون علمهم بالطبيعة وأحداثها – الذى يفوق علم عامة الناس – فى توجيههم إلى أو صرفهم عما يريدون لهؤلاء أن يفعلوه، وهكذا نشأت تدريجيا مهن الكهانة فى المجتمعات. كانت الأرباب متعددة ولها أسماء كثيرة، ووظائف شتى، فى القبائل المختلفة. عندما نشأت المدن الجديدة فى أرض الجزيرة من اندماج أناس مختلفين فى كيان واحد حدث إما التقاء أو تنافر بين معتقداتهم المختلفة، وكانت المدينة تستمر فى الازدهار عندما تلتقى المعتقدات وتتحد. بدأت مهنة الكهانة فى المدن الجديدة من تراث السحر والقوة التى تميز بها السحرة السابقون. اندمجت الأساطير وتصالحت آلهة القبائل السابقة وتكونت منها عائلة مقدسة جديدة ذات أسلاف وأبناء، لكل منها وظيفة معينة ومهنة بذاتها يؤديها الإله الجديد فى المجتمع الجديد المتشابك. تعقدت الطقوس ولائمت الطبقات الجديدة الناشئة، ارتباط طبقة الكهنة الجدد المزودين بعلوم السحر واستعانتهم بالتعاويذ، ومراقبة النجوم أعطى لهم قدسية فى أعين العامة. زاد رصد الكهنة للنجوم وابتدأ علم الفلك فى الظهور، وكانت دراستهم للماضى تهيؤهم لتوقع أحداث المستقبل ومكنت هذه الخدمات إلى ظهور طبقة من الكهنة ورجال الدين واستعانوا بخبرة المهنيين، مما احتاج إليه المجتمع الجديد. كان لابد أن يوضع تقويم دقيق يضع فى حسبانه الأحد عشر يوما التى تزيد فيها السنة الشمسية عن الاثنى عشر شهرا

القمرية السابق العمل بها، ثم جاء الأسبوع ذو الأيام السبعة. كان لابد من وجود أناس يمسحون الأرض ويصممون حفر الآبار ويحددون مواقع القنوات التى تشق، ويصممون مواقع التصحينات. كان لابد لأحد أن يعد السكان ويقدر حجم المنتجات ويحدد الاحتياجات ويصنع التوقعات ويسجل كل هذه كإنجازات للملوك.

قابلت المدن – من أريحا إلى بابل – كل هذه الاحتياجات الجديدة المتغيرة إلى انتقاء أشخاص بعينهم مؤهلين للقيام بتلك الأعمال من مجموع البشر المختلفين الذين اجتمعوا سويا فى المدن الجديدة، والذين ظلوا محتفظين بأصولهم ولم يتم اندماجهم سويا بعد الاختلاط. ظهرت فئات ثلاثة من الناس: الكهنة الذين ظلوا مرتبطين بمعابدهم، والمحاربون والإداريون الذين التصقوا بالقصر أو قلعة البلد، والتجار والحرفيون والصناع المهرة والفنانون الذين ظلوا يتنقلون بين المدن المختلفة وظلوا دائما غرباء عن المجتمع. كان هؤلاء يتجمعون فى الطرقات حسب نوع تجارتهم أو صنعتهم (كما هو الحال فى معظم المدن الحالية). كان أفراد كل قبيلة يتجمعون فى مكان واحد بالقرب من أفراد القبائل الأخرى لتتم المقايضة بينهم. كان أفراد كل طائفة يتزوجون من ذرية طائفتهم وهكذا يتبع أبناءهم نفس مهنة أو تجارة الآباء. كان هذا أوضح مايكون بين صفوف الكهنة ورجال الدين، الذين كانوا يؤكدون مرارا ودائما على وجوب أن يتزوج أبناؤهم من بعضهم البعض ليحافظوا على قدسية وسرية تعليماتهم.

بعد حين بدأ الناس يتعلمون الكتابة فى المدن السومرية. تم إنشاء المدارس حيث كان الدارسون يتعلمون جميع الفنون والعلوم مع تعلم الكتابة والكلام، وهكذا نشأت طبقة مثقفة وقسم المجتمع إلى المثقفين والجهلة. كان التعليم من حظ الملوك والطبقة الحاكمة والكهنة ورجال الدين والإداريين والمهندسين والمحاربين والكتبة (الذين يكتبون للتجار وغيرهم)، ونال هؤلاء جميعا قسطا يسيرا أو وفيرا من التعليم. كان كل الغزاة فى – مبدأ أمرهم من الجهال ولكن اكتسبت ذريتهم – بعد بضعة أجيال – صفة المثقفين من تعلمهم ومن زواجهم من بنات المتعلمين، وبدؤا يتخذون صفات المتحضرين. كان اختراع الكتابة مصدر قوة للكُتّاب. التصق الكتاب ببعضهم البعض، وبجميع المتعلمين، وزادهم هذا التجمع قوة فوق قوتهم، ونشأت طبقة الكتاب، وظهر لهم إله هو الإله «نابو» بعد أن أزاح اياه الإله «ماردوك» وجعله الإله الأكبر للسماوات. صار الإله «نابو» هو إله ملوك الأشوريين الذين سرعان ما تعلموا القراءة والكتابة، والذى أنشأ مليكهم «أشور بانيبال» مكتبة نينوى، المصدر الرئيسى الحالى لدراسة تاريخ الأشوريين وأحوالهم. كان الكهنة هم أول من تعلم الكتابة وأول من استفاد منهم، وكان تفوقهم فى الكتابة وفى تطبيقها هو الذى مكن لهم تلك المكانة الرفيعة فى التاريخ السومرى، وكان تيسيرهم لقواعدها هو الذى أزال الحائل بينهم وبين باقى أفراد المجتمع

– بعكس ما حدث فى مصر – فقد اقتصر الكهنة وحدهم على معرفة الكتابة ولم يزيلوا الثقافية بينهم وبين سائر الطبقات والأفراد.

عندما استولى الأكاديون على المدن السومرية بدأت اللغة السامية للحكام الجدد تنتش أنحاء الامبراطورية وتصير اللغة الرسمية، ولكنها كانت لغة حديث ولم تكن تكتب بعد. كان ملكا لطبقة الكهنة ومن أسرارهم هم والكتاب السومريون، كانت الكتابة لغة الدين والتجارة الأكاديون على حكم البلاد ولكن استولى الكهنة السومريون على حضارة الدولة الأكادية و الحضارات التالية فى أرض الجزيرة باحتكارهم لفن الكتابة. استمرت اللغة السومرية الم التي يكتب بها دين الأكاديون واستمرت الحروف السومرية هى حروف الكتابة: تطورت حرو من أشكال الصور إلى حروف منطوقة فى الحروف المسمارية (واستمرت هذه العملية، ملاء الكتابة القديمة وتكيفها مع اللغة الجديدة عملية متكررة حتى عهدنا الحالى)، ثم وضع الأبجدية – والتى اقتضت تقليص عدد الحروف إلى درجة كبيرة – وضعها التجار الفينيقيو التطور يحدث فى حروف الكتابة حتى وصلنا فى العصر الحديث إلى حروف الكتابة الحا الكلمات السومرية تسربت إلى لغاتنا الحالية مثل كلما أوكس «ثور»، آكس «فأس»، كوير تسربت إلى اللغة الانجليزية، ومثل كلمة نجار التى تسربت إلى اللغة العربية).

تدل مدينة بابل – بمعبدها العظيم – إلى قوة طبقة الكهنة وسطوتهم. كان بمدينة باب كبيران بالإضافة إلى ٤٠٠ مذبح وحوالى ١٠٠٠ مقام مقدس. كان مخصصا للإنفاق عل متلكات شاسعة من الأراضي الزراعية يعمل بها خدامها من العبيد. كان الكهنة يكونون - دائما – دولة داخل الدولة، أفرادها يتولون مناصبهم بالوراثة (شأن طبقة العسكريين وطبة ويتمتعون بالسطوة والسيطرة على هؤلاء. كان الحكام يتغيرون، وتتلو أسرة حاكمة غازية أسرة حاكمة مكسورة ومنهزمة، ولكن الكهنة كانوا دائما ثابتين فى مواضعهم يسيطرون ع الحكام معتمدين على قدسيتهم فى أعين الشعب وعلى تحكمهم فى مصادر الرزق وفى إنتا لحسن تعلمهم وجودة إدارتهم وإتقانهم لفنون الهندسة. برزت سلطتهم فى عهد السومريون نيبور وفى العهد البابيلونى فى مدينة بابل نفسها، المدينة التى بناها الكهنة وجعلوها م الإمبراطورية بأسرها، وعندما هزم الأشوريون البابليين استمروا يعظمون مدينة بابل ويقد قدرها. وبعد فتوحات الاسكندر الأكبر الشاسعة قرر أن تكون مدينة بابل هى عاصمة اما الواسعة (وهى نفس المدينة التى توفى فيها الإسكندر الأكبر).

كانت هناك معالم أخرى لهذه الطائفة من الكهنة، فقد كانت لهم – فى أعين عامة قدسية، لمظاهر القوة التى أحاطوا بها أنفسهم، فقد أحاطوا أنفسهم بقدسية الآلهة ذات

الشارحين للمعتقدات الدينية والمفسرين لها طوال الثلاثة آلاف عام التى استغرقتها حضارة بلاد ما بين النهرين. كانوا يشرحون لخدامهم ويفسرون لتابعيهم ما استعصى عليهم فهمه من أسرار الدين، وكان أتباعهم هم الفنانون وذوى الحرف (الذين بقيت منجزاتهم الفنية المبهرة على مر الزمن حتى وصلت إلينا). بينت هذه الأعمال الفنية أهوال الحروب والتسامح فى أيام السلم، واتساع رقعة المجتمع بدخول أجناس جديدة إليه واندماجهم فيه فى عصور الامبراطوريات العظيمة وكان من آثار الكهنة قبول المجتمع المنتصر على استيعاب الشعوب المنهزمة واندماجها فى المجتمع. استوعبت الشعوب المنتصرة آلهة الشعوب المهزومة وضمتها إلى أسرة الآلهة المقدسة – التى حوت فى عصر حامورابى (على سبيل المثال) عشرين إلاها: آلهة البابلين والعموريين والأشوريين بالإضافة إلى آلهة السومريين، وكان يلقب نفسه باسم «حامى حمى الدين» (نفس هذا الاتجاه أخذه فيما بعد قوروش العظيم ملك الامبراطورية الفارسية والاسكندر الأكبر مؤسس الامبراطورية الاغريقية عن ديانات أرض الجزيرة). وهكذا كان الدين تابعا للسياسة وغير متمسك بمعتقدات خاصة، إذا أراد الحاكم المنتصر التصالح مع الشعب المنهزم فلا حرج على الكهنة أن يضموا آلهة المهزومين إلى آلهتهم، ويتعاون الجميع. وبهذا حدث التعاون بين الجميع ودخلت المنجزات العقلية والمكتشفات العلمية إلى الحضارة الجديدة، سواء كانت فلكية أو وراثية، صحية أو طبية، ولكن اضطر الكهنة إلى قبول التسفيرات السومرية لكسوف الشمس وخسوف القمر حتى مع الكشف عن قرائن لأسبابها الطبيعية ومعرفة هذه الأسباب. اضطر الكهنة للتظاهر بأنهم مدّعون (حتى ولو لم يكونوا) لإرضاء السلطة الحاكمة، كان الثراء الذى تمتع به الكهنة – خاصة فى الألف الثالثة ق.م. – والقوة التى اكتسبوها دافعا للكهنة بأن يظلوا رجعيين لايريدون تغير الأحوال (هذا التغير الذى بدأ فى المجتمعات الصغيرة البدائية الفقيرة، وتعاظم مع زيادة العلم والمعرفة وأدى إلى الصراع بين التفسيرات العلمية والتغسيرات السحرية وأدى ظهور المنهج التجريبى فى الحياة).

دستور حامورابى

كتب حامورابى، على عمود من حجر الديوريت، فى آخر أيام حكمه، عام ١٧٥١ ق.م.، لائحة من ٢٨٢ بندا، فى مدينة بابل، ظلت شامخة لمدة ٨٠٠ سنة كاملة، قبل أن يسرقها ملك إلام وينقلها إلى عاصمة ملكه فى صوصة، وحدث بها بعض التشوهات. كان هدف حامورابى أن تظل قوانينه التى وضعها سارية إلى الأبد. كانت هذه القوانين تُفَصِّل القواعد الجنائية والمدنية التى كانت سائدة فى بابل طوال فترة بقاء الدولة البابلية وتعتبر من أهم منجزات تلك الدولة، وعادت بالفخار على ملوكها وكهنتها فى التاريخ. ادعى هذا الدستور أنه حصل على تأييد جميع آلهة البلاد، ولكنه لم يكن من عمل

مجموعة الكهنة. هذا الدستور هو تنقيح لما سبقه من قوانين وبذل جهد فائق فى تحضيره، وكان - فى الأرجح - من عمل ملك البلاد العظيم، ويوضح الجدول رقم (٣) أهم محتويات دستور حامورابى.

جدول رقم (٣)

أهم محتويات دستور حامورابى

الباب	عدد الفصول
١- العلاقات الأسرية والجنسية : ويحوى قوانين الزواج والميراث والخيانة والطلاق والهجر والتبنى	٦٨
٢- الأراضى: ويحوى قوانين الإدارة والرى والإيجار	٥٠
٣- التجارة والمقايضة والفوائد والدين	٣٨
٤- المواشى والزراعة والحدائق	٢٧
٥- الاستئجار والإيجار والأجور والمرتبات	٢٦
٦- السرقة والعدوان: الادعاءات والعقوبات	٤٠
٧- واجبات العبيد وتملكهم: الدائم (٣٢) والمؤقت (٤)	٣٦
٨- الجنود من الأعداء: العاملون والأسرى	١٩
٩- الكاهنات الزواج والوراثة	٧
١٠- الأطباء والجراحون الحقوق والعقوبات	١٠
١١- إجراءات التقاضى والشهادة	٥

أول ما نلاحظه فى دستور حامورابى أن اهتمامه الأول لم يكن بالممتلكات ولكن بالإنسان وعلاقاته الاجتماعية والجنسية. يشجب إتيان المحارم ويحمى الطفولة يعاقب على الإيذاء على أساس أن العين بالعين، وهكذا نرى أنه يدخل إلى ساحة الأخلاقيات والسلوك. ترك الكهنة البابليون هذه

الأمور للسلطة المدنية ولم يفرضوا قواعد دينية لها، وهذه الأمور نفسها هى التى اهتم بها أحبار اليهود وضمنوها في كتبهم الدينية بعد ذلك بألف عام. من الواضح أن البابليين لم يشجبوا كافة العلاقات الجنسية (سوى إتيان المحارم)، وكان المألوف أن يتخذ الشخص زوجة واحدة (كان التعدد يحدث فى العشيقات، خاصة مع الجوارى). كان البغاء مسموحا به، بين النساء والرجال (من الخصيان)، كما كان هناك البغاء المقدس، ولم يكن الشذوذ الجنسى محرما أو ممنوعا. كانت الحياة الإنسانية غالية وكانت تقدر حسب العمر وحسب الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها الشخص. كان

الإجهاض وقتل الأطفال الرضع والشذوذ الجنسى مباحا، وكانت هذه هى الوسائل المتبعة للحد من التكاثر غير المنضبط، كما ورثوها من العصر الباليوليثى. بعد التفصيل فى هذه الأمور والإسهاب فى قوانينها تأتى المحاكمة بالتعذيب عند محاكمة المشعوذين عندما تقتصر القرائن عن إثبات الصحة، ثم يلى ذلك القوانين التى تعمل على ثبات الحالة الاقتصادية فى الزراعة وفى الحياة المدنية. كانت الأسعار محددة فى الإيجار كما كانت الأجور ثابتة، والغرامات ثابتة عند التعرض للإصابة أو للسرقة، وكانت الغرامات تختلف بحسب الوضع الاجتماعى للمصاب وشدة الإصابة، وكانت إصابة العبيد تقدر كأنها إصابة لمالك العبد. هذه القوانين المفصلة تم الاستعانة بها ونقلها فى القوانين العبرانية. كان العبيد – الذين كانوا يعاملون كالسلع المنقولة – عادة من الأغراب، وكانوا أو كان أسلافهم عادة من أسرى الحروب. كانت القوات المتحاربة تخسر لأعدائها جموعا غفيرة من الأسرى، الذين كانوا عادة لا يستبدلون ولايعادون إلى أهاليهم وأوطانهم. كان مجتمع العبيد الذى يتكاثر بالتناسل المستمر، من أثمن ما تتملكه طبقات المجتمع المختلفة، وكان مصير العبد يتحدد بسلوكه وأخلاقه، وكانت تختلف معاملاتهم من أسيادهم. كان يسمح لبعض الرجال من تملك الممتلكات، وكان يتم تحرير بعض النساء والرجال. وكان يسمح بزواجهم من الأحرار ويكون نسلهم حرا. وهكذا كان العبد ليس له حقوق ولكن قد تسنح أمامه فرصا كثيرة للتحرر، وكانت هذه الفرص من أكثر فرص الاختلاط بين الأجناس المختلفة والإنسال بين شعوب العالم القديم. يمكن للرجل الحر أن يحكم عليه بالعبودية إثر ارتكابه جريمة، ويمكن له أن يبيع زوجته وأولاده سدادا للدين، أو فى نهاية الأمر يمكنه أن يبيع نفسه، ولكن فى كل هذه الأحوال فإن الرق لايدوم على المواطن من أهل البلد، وبإمكانه أن يتحرر متى سدد لسيده ثمنه، استمر هذا الفرق فى مجتمع الرقيق بين الأرقاء الأغراب وبين الأرقاء من مواطنى البلد فى جميع أنحاء العالم طوال سنوات التاريخ، كان مواطن البلد يخدم فترة من الزمن – لاتدوم – ولا تقلل من مركزه الاجتماعى، أما الرق للأجانب فكان قيدا دائما ويحط من قدره. ولعل أعقد مواد قانون حامورابى كانت المبالغ التى تدفع عند الزواج أو الطلاق أو الميراث، مبالغ تقدر

بأوزان من فضة تختلف من مجتمع لمجتمع، المجتمعات الزراعية ومجتمعات المراعى ومجتمعات المدن، المجتمعات الثلاثة الذى أدى اندماجها إلى نشأة الدولة البابلية ذاتها.

انقسم الناس فى الدولتين البابلية والأشورية إلى ثلاث طبقات:الطبقة العسكرية وطبقة رجال الدين أو الكهنة وطبقة المدنيين والتى تشمل الفلاحين والعمال والموظفين والتجار وغيرهم. كان هذا التقسيم يسمح بالزواج المتبادل بين أفراد كل طبقة. شملت طبقة العسكريين العائلات المالكة، التى تزاوجت فى أول الأمر مع طبقة الكهنة، ثم مع الملكيات الخارجية، وشملت طبقة رجال الدين الكهنة وخدام المعابد وحرفييها وفنانيها. وشملت طبقة المدنيين حكام المدن وإدارييها وعامة الناس ممن يمتلكون العبيد والفنانين والحرفيين المتنقلين الذين لايمتلكون خدما أو عبيدا أو مساعدين. كان التنقل من طبقة إلى طبقة ممكنا متى زاد ثراء الشخص وملك للرقيق أو افتقر وتنازل عن العبيد. وكانت الطبقة الرابعة هى طبقة العبيد، وكانوا يتنقلون بين العائلات بالبيع أو من المعابد إلى التجار الأثرياء. كان حكام المدن يتم انتخابهم بواسطة الأهالى ثم يعرض اسم من اختاره الناس إلى الملك ليصدق على تعيينه، وكان التفاوض والموازنات تجرى للحصول على هذه التصديقات. هذه الإجراءات التى كانت تتم فى بابل القديمة تشابه إلي حد كبير ما كانت تفعله المجتمعات الجديدة إلى وقت قريب (ومازال متبعا فى بعضها الآخر إلى وقتنا هذا). كان الغرباء دائما مواطنين من الدرجة الثانية لأهالى البلاد الأصليين إلا عندما يكونون محاربين، فقد كانت لهم العزة وكانوا كثيرا ما يقلبون نظم الحكم ويستولوا عليها وينشئون أسرا حاكمة جديدة.

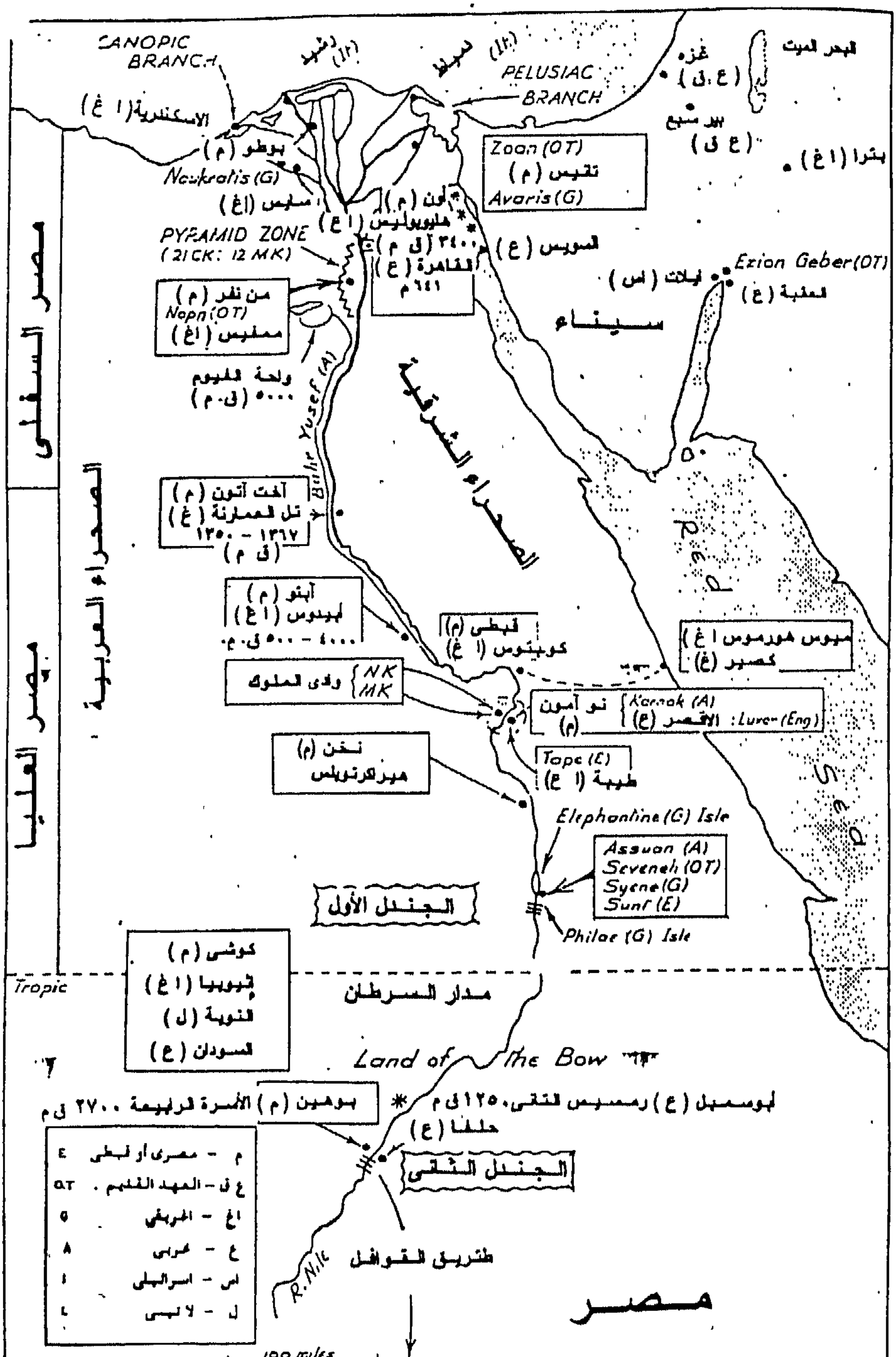
عند استعراض حضارات أرض الجزيرة القديمة يتضح أن الأراضى الجديدة أشد خصوبة من القديمة، والمدن الجديدة أحسن موقعا من المدن التى بادت، والتقنيات الجديدة أفضل من السالفة، وأن قوس الصحراء هو الذى يتغلب على رمح المدنية والعربات الحربية التى تجرها الخيول هى التى يكتب لها النصر على حساب الجيوش الراجلة. ولكن كل هذه الميزات ليس لها إلا تأثير وقتى وأن النصر الباقى فى النهاية هو للمهارة فى إدارة الحكم وللحكمة فى تدبر الأمور. كان الحاكم الحكيم هو الذى يستفيد من المهارات الثقافية لمواطنيه والذى يستخدم الأذكياء من مواطنى الشعوب التى انتصر عليها. عندما انتصر ساراجون أدمج فن السومريين فى الدولة البابلية، وعندما وضع حامورابى دستوره فقد استغل الدين فى خدمة القانون وخفف الوطأ عن الرقيق. ثالث هذه الأمثلة نراه فى مبدأ النفى. ابتدع الحكماء من حكام بلاد ما بين النهرين الأقدمين فكرة النفى. تبين المنتصرون الجدد المهارات الكامنة فى الشعب المهزوم: كان منهم الكتبة، وكان منهم الموسيقيون وكثير من الحرفيين المهرة فى شتى الأعمال وكان هؤلاء المهزومين يتقنون أعمالا لايجيدها أبناء

المنتصرين. بنقل هؤلاء المبدعين إلى بلادهم فقد عملوا – القادة المنتصرون – بضربة واحدة ما تعمله قوانين الوراثة البيولوجية بعد مضى أجيال كثيرة. كانوا يريدون أن يروا هذه المهارات تترعرع فى عواصمهم ويتعلمها مواطنوهم (وهو مازال يجرى فى عصرنا الحاضر من تشجيع هجرة العقول من البلاد الفقيرة إلى المجتمعات الغنية). يظل المهاجرون الجدد، إلى وقت طويل محتفظين بكياناتهم وتقاليدهم ودينهم مادامت هذه العوامل تعود بميزة اقتصادية لهم، قبل أن يذوبوا تدريجيا فى المجتمعات الجديدة. فى الدولة الأشورية كان النفى يتخذ طابع سيطرة الدولة على التنقل بين مواطنيها والتحكم فى تركيب المجتمع. كان الملوك حريصين على توافر العمالة بكفاءة كما كانوا حريصين على تشتيت الجماعات المنشقة عليهم والمشاكسة لهم وتفتيت حركات المقاومة. عندما دخل الملك الأشورى إسارهدون مصر فى عام ٦٧١ ق.م. نقل العبيد الزنوج (ذوى الأصل الحبشى) منها إلى نينوى وفى نفس الوقت نقل السوريين المهرة (الذين يتكلمون اللغة الأرامية) إلى مصر حيث عملوا فيها مديرين للإدارات المختلفة. وبعد مائة سنة نقل نبوختنصر الثانى اليهود المثقفين إلى بابل من بيت المقدس، لإتمام إخضاع تلك المدينة تحت سيطرته وكذلك لتزويد مواطنيه فى عاصمته بالمهارات والتقنيات والثقافات التى كان يمتلكها اليهود (وعندما اقترح جيرميا خطط التوطين الاجتماعى لهم فى بلدهم الجديدة، رفض أغلبيتهم العودة من منفاهم بعد أن سنحت لهم الفرصة بذلك وبعد استقرارهم فى مجتمعهم الجديد). وصلت الدولة البابلية بعد حين إلى الصدارة فى العالم الجديد، وكان التشابك بين أفرادها واضحا: التشابك الجينى، والتقنى والثقافى. كان الاندماج الكلى لأجزائها المختلفة هو سبيلها لبلوغ قمة الحضارة فى ذلك العصر. بعد حين انفرط العقد وزالت الدولة ولكن مازالت أجزاؤها المختلفة حية، تم احتلالها بواسطة الفرس ثم بواسطة الإغريق، ورفض المنتصرون الجدد الخضوع لسيطرة كهنة بابل واتباع دينها. أحضر هؤلاء الغزاة معهم كهنتهم وآلهتهم ومعتقداتهم، ولكن ظلت الثقافة البابلية والتقنية البابلية هى القوة الخلاقة فى كلتا الامبراطوريتين. تبعثر الكيان وتحطم، وتفرق البشر وتناثرت عناصر اللغة، ولكن سرعان ما تجمعت الأجزاء المبعثرة على الجانبين الشرقى والغربى وظلت العناصر الثمينة من تلك الحضارة باقية.

الحضارة المصرية القديمة

الخريطة رقم (١)

دفن طمى دلتا النيل تحته آثار تلك اللحظة الخالدة فى تاريخ البشرية التى تحضر فيها الإنسان والتى جاءت حوالى سنة ٦٠٠٠ ق.م. عندما دخل مصر أناس قدموا من فلسطين على ساحل البحر الأبيض المتوسط. كان هؤلاء البشر من الجنس الحامى وكانوا رعيان وزراعى أرض، يتحدثون بلغات اندثرت كما اندثرت اللغة السومرية. وجد القادمون نهر النيل يجرى خلال أحراش السافانا التى تحوى حياة حيوانية غنية. كانت المستنقعات تحيط بجانبى النهر، وكانت الغابات تملأ الواحات فى الأراضى حول النهر (التى تدهورت أحوالها عبر الزمن وأن بقيت فيها بعض المزروعات الثمينة). انشغل هؤلاء القادمون الجدد بالصيد والقنص واستئناس الماشية والحمر البرية ووجدوا سباعا وعجول بحر ونعام، وانتشروا فى الأرض وانقسموا إلى مجموعتين. بعضهم رحل غربا واستوطن فى شمال إفريقيا على ساحل البحر المتوسط، وهؤلاء كانوا الرعيان وهم أسلاف البربر، والبعض الآخر إتجه إلى الجنوب وهم أسلاف الهوتنتوت وغيرهم وهم أيضا من الرعيان، واستقر آخرون فى الصحراء الشرقية وهم البدجيون الحاليون. أول الآثار التى عُثر عليها فى مصر ترجع إلى ٥٠٠٠ سنة ق.م. (منذ حوالى ٧٠٠٠ سنة) فى أجزاء متفرقة على طول نهر النيل وتشمل أوان غير ملونة ثم أوان ملونة (بعد أن جاءت اليهم هذه التقنية من الأناضول حوالى سنة ٣٦٠٠ ق.م)، ثم تهذبت المصنوعات ورق الذوق تدريجيا. تشمل الآثار التى عثر عيها أيضا بقايا القمح والشعير (كقرينة على الخبز)، وآلات لحش الحشيش ومناجل لقطع أعواد القمح والشعير وبقايا للغنم والماعز والخنازير ومعدن النحاس. استقر الوافدون حول نهر النيل (ولكنهم لم يقتصروا على هذا المكان). علمهم فيضان نهر النيل الذى يفد فى شهر سبتمبر من كل عام، أن يستفيدوا منه فى زراعاتهم. انتشرت قبائل الزراع فى الدلتا وعلى ضفاف النهر حتى الجندل الأول جنوبى أسوان على بعد ١٠٠٠ كم جنوبا. كان المواصلات طوال هذه المسافة متعسرة في مبدأ الأمر، وكان نهر النيل – بالمستنقعات المحيطة به – فاصلا بين الشرق والغرب، ولكن أمكن استغلال القوارب فى الرحلة مع التيار من الجنوب إلى الشمال وأمكن استغلال الرياح الشمالية – التى تهب على مصر فى فصل الشتاء – فى الإبحار ضد التيار من الشمال إلى الجنوب. سرعان ما توحدت مصر: الشمال مع الجنوب والشرق


CANOPIC BRANCH
PELUSIAC BRANCH
البحر الميت
غزه (ع.ق)
بير سبع (ع ق)
بترا (اغ)
الاسكندرية (اغ)
بوطو (م)
Naukratis (G)
سايس (اغ)
Zoan (OT)
تنيس (م)
Avaris (G)
أون (م)
هليوبوليس (اغ)
PYRAMID ZONE
(21 CK: 12 MK)
٣٤٠٠ (ق م)
القاهرة (ع)
٦٤١ م
السويس (ع)
Ezion Geber (OT)
ايلات (اس)
العقبة (ع)
سيناء
من نفر (م)
Nopn (OT)
ممفيس (اغ)
واحة الفيوم
٥٠٠٠ (ق.م)
Bahr Yusef (A)
الصحراء الشرقية
مصر السفلى
الصحراء الغربية
مصر العليا
آخت آتون (م)
تل العمارنة (غ)
١٣٦٧ - ١٣٥٠
(ق م)
Red Sea
آبتو (م)
ابيدوس (اغ)
٤٠٠٠ - ٥٠٠ ق.م
قبطى (م)
كوبتوس (اغ)
ميوس هورموس (اغ)
كصير (غ)
NK MK وادى الملوك
نو آمون (م)
Karnak (A)
الاقصر (ع) : Luxor (Eng)
نخن (م)
هيراكنوبلس
Tape (E)
طيبة (اغ)
Elephantine (G) Isle
Assuan (A)
Seveneh (OT)
Syene (G)
Sunt (E)
Philae (G) Isle
الجندل الأول
كوشى (م)
إثيوبيا (اغ)
النوبة (ل)
السودان (ع)
Tropic
مدار السرطان
Land of the Bow
بوهين (م) الأسرة الرابعة ٢٧٠٠ ق م
أبوسمبل (ع) رمسيس الثانى ١٢٥٠ ق م
حلفا (ع)
الجندل الثانى
طريق القوافل
R. Nile
م - مصرى او قبطى E
ع ق - العهد القديم . OT
اغ - الاغريقى G
ع - عربى A
اس - اسرائيلى I
ل - لاتينى L
100 miles
مصر

مع الغرب. فى فترة التاريخ غير المسجل، كان الزراع يقودهم الكهنة ويوجهونهم، وكان الكهنة يتمركزون فى مدينة أون، في معبد الشمس، أو كما سماها الإغريق هليوبوليس (وتقع حاليا فى منطقة عرب الحصن بالقرب من المطرية، إحدى ضواحي القاهرة). فسر الكهنة فيضان النيل أنه من عمل الأرواح السماوية، وغيروا تدريجيا التقويم القمرى بالتقويم الشمسى وأصبحوا بذلك المرشدين الناصحين للمزارعين، الذين صاروا لايستغنون عنهم وعن خدماتهم، واعتنقوا المعتقدات التى جاء بها هؤلاء. نشأ الاحترام المتبادل بين هاتين الطائفتين واتبعه التعاون الوثيق بينهما لبناء المجتمع وارتقائه. يتزامن هذا العصر مع بداية دخول الزراع فى وادى نهر الفرات أو قد يكون متأخرا قليلا عنه. فى النصف الأخير من الألف سنة الرابع قبل الميلاد تظهر شواهد أن هذا البلد المسالم قد تعرض لموجات متتالية من الغزو، من محاربين مسلحين. بعض هذه القرائن مكتوب وبعضها يتضح من المخلفات التى تركها الغزاة والتى تدلنا على أصلهم ومن أين أتوا، كما تدلنا على طباعهم وسلوكهم ومنجزاتهم. حدث الغزو فى موجات متتالية ومن طرق عدة. بعض الغزاة جاءوا من الطريق الساحلى من الشمال الشرقى، وبعضهم حملتهم القوارب من البحر الأحمر ونزلوا فى خليج العقبة وساروا فى طريق التجارة عبر وادى الحمامات (الذى كانت تغرقه المياه فى ذلك العهد). وصل هؤلاء الغزاة إلى قرية «كوبتوس» على النيل (مدينة قنا المعتقد أنها مهد أقباط مصر أو المصريين). تشكلت حكومتان من الغزاة، حكومة فى الدلتا في بوتو (قريبة من مدينة دسوق)، وحكومة فى الصعيد فى هيراكونبوليس، (الاسم الإغريقى، قريبة من مدينة إدفو). أظهرت بقايا العظام التى عُثر عليها أن الحكام الجدد كانوا أكبر حجما من السكان الأصليين وكانوا من جنس مختلف عنهم، واستمرا منفصلين عن سكان البلاد الأصليين لاختلافهم فى الطبع وفى السلوك وفى اللغة لعدة أجيال. أدخل هؤلاء الغزاة الجدد العناصر السامية إلى لغة المصريين وتولد عنها اللغة الهيروغليفية، التى ظلت سائدة فى البلاد حوالى ٣٠٠٠ سنة حتى احتل الاسكندر الأكبر مصر ودخلت إلى لغة المصريين بعض الألفاظ الإغريقية. حكم البلاد أسرات مالكة حفظت الأمن وجلبت الثراء إلى البلاد وتحول المجتمع إلى مجتمع إقطاعى مع وجود قوة عاملة قومية كبيرة. شغل الفلاحون - أيام فترات الكسل والخمول - بأعمال أخرى نتج عنها الأعمال الكبرى التى أدت إلى التحكم فى مياه النهر لمقابلة موسم الفيضان، وأعقب ذلك شغل الفلاحين فى بناء المقابر العظمى الخالدة لملوكهم التى سجل فيها تاريخ مصر العظيم والتى حفظته من الضياع. هؤلاء المصريون العظماء الذين بنوا الأهرام الشاهقة، وحفروا وزينوا المقابر العظيمة فى باطن الأرض، هم أسلاف من حفروا قناة السويس فى القرن التاسع عشر بعد الميلاد. أهل الشمال وأهل الجنوب الذين حكمهم أصحاب التيجان الحمراء والبيضاء توحدوا فى مملكة واحدة حوالى سنة ٣٢٠٠ ق.م. على يد ملك الجنوب، الملك نارمر، الذى

احتل مملكة الشمال ووحدها مع مملكة الجنوب تحت حكمه (ومازالت مصر دولة واحدة على مر التاريخ منذ ذلك العهد). ربما يكون الملك نارمر – الذى جاء ذكره فى لوحة نارمر الشهيرة – هو نفس الشخص الذى اعتبر الفرعون الأول والذي وصفه المؤرخ مانيتو فى عصر البطالمة تحت اسم الملك مينا. دعم الملك نارمر حكمه بالزواج من الأميرة نيثرتب، من الأسرة المالكة لإقليم الشمال (كما دأب الحكام على فعله طوال عصور التاريخ). ولكن لم يستقر الأمر للحكام الجدد طوال ٤٠٠ عام حتى نهاية الأسرة الثانية، عندما تزوج آخر ملوكها من أميرة من البيت المالك الشمالى وانتهى تماما الخلاف والصراع بين ملوك الشمال وملوك الجنوب، وتدعم هذا الاندماج بابتداع تاج الوجهين الأحمر والأبيض ودمجهما فى تاج واحد، وكان هذا مقدمة للاندماج الشامل بين الشعبين. تمخضت هذه الوحدة الشاملة بإقامة عاصمة جديدة بين المملكتين (وإن كانت أكثر قربا لمملكة الشمال) مدينة ممفيس، التى صارت العاصمة الموحدة لكل المصريين طوال ٢٠٠٠ عام. دب نزاع أكثر خطورة من نزاع الحكام بين الملوك والرعية فى منتصف الأسرة الثانية. اعتبر الملوك أنفسهم من أتباع «حورس» بينما عبد الشعب الإله «ست»، ولكن انتهى هذا النزاع عندما اتخذ الملك شعارا جمع فيه شعار الصقر (المعبر عن حورس) مع اسم «ست». ماحدث تحت حكم الأسرتين الأولى والثانية هو أحد أهم أحداث التاريخ القديم. نشأ مجتمع جديد من اندماج جماعتين من البشر، مختلفتين فى الأصل ومتباينتين فى الجنس: الجماعة الأولى زراع محليون والمجموعة الثانية غزاة وافدون، ربما من سومر أو من سوريا أو من جنوبى الأناضول. جاء بناءون وحرفيون وفنانون من سومر بين سنوات ٣٤٠٠ – ٣٢٠٠ ق.م. وقد تسلل هؤلاء إلى مصر وأعادوا بطولاتهم فى التماسك والصراع مع الأسود، وجر السفن، والإمساك بأعناق الحيوانات وجدل شعرها، وأدخلوا إلى مصر الأختام التى تحمل التصميمات السومرية. وجدت هذه المخلفات التى تحمل آثارا سومرية فى كل أماكن الحفريات من ممفيس إلى هيراكونبوليس، ولكن بعد عدة أجيال انقرضت واختفت عن الوجود ولم تبق إلا الحفريات التى تحمل طابعا مصريا خالصا والتى بقيت على مر الزمان. لم يحدث أبدا عبر التاريخ أن حدثت هجرة عكسية – من مصر إلى سومر – لأن تعداد شعب مصر لم يتزايد عن إمكانياتها. لم يهاجر المصريون ولم يستقروا فى أو يستعمروا بلادا أخرى، لم يغادر المصريون بلادهم إلا مطرودين أو منفيين، حتى فى أمور التجارة، التى تركوها فى أيدى الفينيقيين ومن بعدهم الإغريق، لأن بلادهم كانت فى أعينهم – كما استمرت فى أعين خلفائهم – هى أم الدنيا وليس لها مثيل فى كافة بلاد العالم. أظهر المصريون مقدرتهم وعلمهم وفنهم فى آلاف المقابر التى خلفوها، والتى أظهرت نقوشها طريقة حياة المصريين واعتناقهم وشدة تمسكهم بمعتقدهم بعودة الحياة بعد الممات. قد يكونوا قد ورثوا أسلوبهم فى التعبير وتقنيتهم في التنفيذ من سومر، واكتسبوا مقدرتهم الإدارية

من جيرانهم الأسيويين، وقد يكون مدينين بجلدهم وصبرهم على العمل إلى المزارعين الوافدين إليهم من آسيا فى مبدأ الأمر، ولكن الحقيقة أن كل منجزاتهم التالية طوال مايزيد عن ألفى عام هى من صنع أيديهم، ومعالمها مصرية خالصة، توحى بالبهجة والتعاطف، على خلاف بقية آثار العالم القديم. هذه البهجة التى ورثتها الحضارة المينوية، ومن بعدها الحضارة الإغريقية، والتى تعطى طابع البساطة والسذاجة والعزلة والخصوصية لساكنى القبور للاستعداد لعودة الحياة إليهم عند انتقالهم للعالم الآخر، كما توحى النقوش بأنها من عمل الفنانين الذين اجتذبهم ثراء ملوك مصر وحكامها من جبال الأطلس حتى صحراء كالهارى، كما اجتذبتهم حصافتهم وحسن تمييزهم فى المعاملة. هكذا اجتمع فى مصر القديمة أجناس شتى، سرعان ما اندمجوا فى مجتمع واحد وتعايشوا وتناسلوا فى مصر بلد النيل وأزهروا حضارة المملكة القديمة تحت لواء الأسرتين الثالثة والرابعة التى أنجبت بناة الأهرام العظماء الخالدون.

بدأت الأسرة الثالثة فى مصر حوالى سنة ٢٨٠٠ ق.م. (بعد ١٢ جيلا من توحيد مصر على يد نارمر)، وأحدثت هذه الأسرة التغيير الثانى العظيم فى التاريخ المصرى. أهم معالم هذه الأسرة هو التبشير بدين جديد، أو بالأحرى، انتقاء أحد الديانات المتعددة للمصريين وإحيائها ونشرها والتمسك بها – بدلا من المذهب القديم الذى قتل فيه الإله «ست» الإله «أوزوريس» ونشأ ابنه «حورس» مكانه. بشر الدين الجديد بإله الشمس «رع» وسَيَّدَه على جميع الآلهة. كان الإله «رع» هو إله كهنة «أون»، ثم اصطفاه الملك، وعبده الفرعون نفسه، ثم تبعته الطبقة الحاكمة فى البلاد. أدخل كهنة «رع» تقليد حفظ جثمان المتوفى وتحنيطه ثم دفنه فى مقبرة تحفظه وتحميه، خاصة جثمان الملك، ومن ثَمّ بدأ عصر بناة الأهرام. استغل كهنة «رع» معرفتهم بالشمس وحركتها وقسموا العام وبدعوا التقويم الشمسى وتنبأوا بفيضان النيل، وأنه سيقع فى شهر سبتمبر من كل عام، وبدءوا فى ضبط مياه الفيضان لرى الأراضى الزراعية، وكان الدين الجديد الذى أتوا به ما هو إلا استغلال معلوماتهم الرياضية والفلكية والهندسية لأغراضهم السياسية واكتساب السلطة، وتطورت مع تغير الظروف فى الألف سنة القادمة. كانت الفكرة الأساسية أن الفرعون التالي، الذى استمر فى عبادة إله الشمس «رع»، إله آبائه وأسرته وطبقته، كان يُعبد هو شخصيا من قبل الشعب، لأنه تجسيد للإله، أولا «كحورس» ثم فيما بعد «كأوزوريس». من الواضح أن هذا الدين الجديد كان من عمل وتعاون أسرة واحدة (أو مجموعة من الحكام العسكرين) من مجموعة أخرى من أسرة أخرى (أو مجموعة من الكهنة)، مع أتباعهم من المثقفين والتقنيين، ومازال هذا التعاون واضحا خلال مسيرة التاريخ المصرى القديم بأسره (كما نلاحظ استمرار هذا التعاون – بوسيلة أو أخرى، مستترا أو ظاهرا ومبالغا فيه – خلال التاريخ الإنسانى بأكمله). أول ثمرات هذا التعاون كان بناء الأهرامات. انتشرت الأهرام على امتداد مائة كيلو متر فى غربى نهر النيل من عهد الأسرة الثالثة حتى الأسرة الثانية

عشرة (وكان بعض هذه الأهرامات – مثل أهرامات الأسرة الحادية عشرة – يمتد جنوبا حتى بالقرب من طيبة). كانت هذه الأهرام تعبير عن العظمة (للملوك) والطاعة (للمحكومين)، كما دلت على معان أخرى. هؤلاء الناس ضبطوا مياه النهر وهذبوه فى عصر المملكة القديمة واستصلحوا أراضي الفيوم وزرعوها فى عهد الأسرة الثانية عشر، أرادوا اظهار تمكنهم من علوم الهندسة والتشييد، وقوة حكومتهم وسيطرتها وعظمتها لتابعيهم وخلفائهم، وقد نجحوا فى هذا المقصد. الرجل الذي صمم ودبر بناء هرم سقارة المدرج للملك زوسر (الأسرة الثالثة) هو إمحتب، والذى يعتبر أبا لعلم الفلك وأبو الطب، والرجل الذى بنى هرم خفرع (الأسرة الرابعة) بعد قرن من الزمان هو هيمون ابن عم الفرعون، ولكل منهما تماثيل باقية إلى الآن. هكذا نرى – للمرة الأولى فى التاريخ – نعرف أسماء شخصيات – بجوار الملوك والحكام – يطورون الحياة ويبدعون الحضارة ويوجهون اهتماماتهم إلى مصالح الشعب وشئونه. نعرف أسماءهم ونرى وجوههم ونلم بمنجزاتهم وتبلغ شهرتهم آفاقا بعيدة حتى تصل إلينا. هؤلاء الرجال كانوا أناسا منتقين من الطبقة الحاكمة، رجال لهم إحساس بالتاريخ كما أن لديهم إدراك بموقعهم فيه، رجال كان اعتقادهم فى الخلود دافعا لهم للإنجاز، وكان عظماء المصريين هؤلاء يركزون أعينهم على خلفائهم وليس على أسلافهم، وعلى حضارة المستقبل وليس على بقايا الماضى.

يأتى تقسيمنا للأسر المالكة في مصر القديمة من الكاهن مانيتو الذى اتبع الفكرة الإغريقية، ويوضح الجدول رقم (٤) هذه الأسرات تبعا لتقسيمات مانيتو. كثيرا ما كانت تبتدأ الأسرات الجديدة بزواج الملك الذى أنشأ الأسرة الجديدة من ابنة آخر ملوك الأسرة السابقة، وبعض هذه الأسرات منفصلة تماما عن الأسرات التالية لها. بعد غزو الهكسوس، انتقل الحكم إلى أسرة حاكم طيبة الذى طردهم من البلاد، بعض الأسرات الأخيرة كانت من غزاة من ليبيا أو أثيوبيا (وقد تزوج هؤلاء من أميرات من البيت المالك المصرى وثبتوا حكمهم بهذا الزواج). وهكذا يتضح لنا أنه لايوجد ارتباط مستمر بين فرعون الأسرة الأولى وآخر الفراعين، ولكن نظرا للزواج المستمر بين أفراد الأسر الحاكمة (وبينهم وبين الأسر الحاكمة فى ليبيا والنوبة) وبينهم وبين كبراء الكهان فإن استمرارية الحكم فى طبقة واحدة عليا كان هو المألوف. تاريخ الأسرة الثامنة عشر على وجه الخصوص جدير بالذكر. هذه الأسرة من أعظم أسرات التاريخ المصرى القديم (إن لم تكن أعظمها)، وفى تاريخها حادثان فى غاية الأهمية. أولهما هو تولى الملكة حتشبسوت عرش مصر – وبهذا تعتبر أول امرأة فى التاريخ تتولى حكم امبراطورية شاسعة – هذه المرأة الحديدية، شديدة المراس، العاقر، هى المرأة الوحيدة التى تعتلى عرش فرعون، وتظل فيه لمدة طويلة، كانت تلبس ملابس الرجال وجعلت لها لحية (صناعية): وبعد موتها دفنت فى وادى الملوك مع أسلافها من الرجال. كانت تحكم مع أبيها ثم مع زوجها ثم بعده مع ابن زوجها، وخلال فترة حياتها كانت هى الحاكمة الفعلية للبلاد. أرسلت بعثة

جمعت النباتات والحيوانات من بلاد بُنت (الصومال) وأزاحت ابن زوجها عن السلطة الحقيقية طوال عشرين عاما، التى لم يتسلمها فعلا إلا عقب وفاتها، وبعد ذلك فى السنوات التالية، أخضع النوبة وفلسطين وسوريا تحت حكمه وأنشأ أول امبراطورية فى التاريخ. الحدث الثانى العظيم هو حركة الإصلاح الدينى التى أتى بها أمينوفيس الرابع. بدأت أفكار هذا الملك غير التقليدية بتقليد لأبيه، بزواجه من امرأة أجنبية من خلال العائلة المالكة، فقد تزوج نفرتيتى (التى يقال أنها تنتمى للعائلة الحاكمة فى النوبة). حركة الإصلاح التى قادها أمينوفيس الرابع سببت تدمير المركز الدينى والسلطة السياسية لكهنة آمون فى طيبة. كان يهدف إلى استبدال عبادة آمون بعبادة قرص الشمس آتون، الذى يشع على الناس أجمعين ولايختص كهنة آمون وحدهم بالنور والإشعاع.

جدول رقم (٤)

الأسرات الحاكمة فى مصر القديمة تبعا لتقسيم مانيتو

	رقم الأسرة	زمن الحكم	متوسط فترة حكم الأسرة[1]	أهم الأحداث
الزمن العتيق المملكة القديمة	١ ، ٢ ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦	٣٢٠٠ – ٢٨٠٠ ق.م. ٢٨٠٠ – ٢٣٠٠ ق.م.	٢٠٠ سنة ١٢٥ سنة	توحيد البلاد بناء الأهرامات
فترة خلو العرش الأولى المملكة الوسطى	٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ١١ ، ١٢ ، ١٣	٢٣٠٠ – ٢١٠٠ ق.م. ٢١٠٠ – ١٧٠٠ ق.م.	٥٠ سنة ١٣٠ سنة	الحروب الداخلية والفوضى. ازدهار البلاد
فترة خلو العرش الثانية المملكة الحديثة	١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤	١٧٠٠ – ١٥٥٠ ق.م. ١٥٥٠ – ٧١٢ ق.م.	٤٠ سنة ١٢٠ سنه	غزو الهكسوس الامبراطورية المصرية
الزمن المتأخر الحكم الفارسى[3] حكم الاسكندر الأكبر والبطالمة	٢٥ ، ٢٦[2] ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ٣١	٧١٢ – ٥٢٥ ق.م. ٥٢٥ – ٣٣٢ ق.م. ٣٣٢ – ٣٠ ق.م.	٩٥ سنه ٥٠ سنه ٣٠٠ سنة	تدهور البلاد

ملحوظات: ١– يلاحظ أن مانيتو قصر فى مدد الممالك القديمة والوسطى والحديثة وأطال فى مدة حكم أسرة البطالمة.

٢– فى الزمن المتأخر غزا الأشوريون مصر مرتين. غزاها اسارهادون (٦٨٠ – ٦٦٩ ق.م.)، وغزاها أشور بانيبال (٦٦٨ – ٦٣٠ ق.م.) ونهب مدينة طيبة.

٣– كان الحكم للفرس والإدارة للآراميين.

بنى عاصمة جديدة له وسماها «آخت آتون»، وغير اسمه إلى إخناتون وكذا غير أسماء أبنائه لتعظيم إلهه، إله الشمس. يعتبر هذا الحدث أعظم أحداث التاريخ المصرى القديم، وكان بداية لخلاف طويل فى كافة عصور التاريخ: الفصل أو الوصل بين السلطة الدينية والنظام السياسى والاجتماعى للأمة. فى هذه الجولة انهزم الملك وسقط الرأى الذى كان ينادى به، الرأى التقدمى فى المعترك السياسى. وخلفه ابنه الطفل الذى غير اسمه ثانية من توت عنخ آتون «إلى توت عنخ آمون» تبعا لتحكم كهنة آمون ثانية على البلاد وسيطرتهم على مقاليدها، وتمت إزالة أعمال إخناتون وإنجازاته وتم حذف اسمه - كلما أمكن ذلك - من سجلات التاريخ. ربما كان من أسباب فشل دعوة إخناتون هو أن من كان يعيش من ذريته هن البنات فقط، أما الأبناء فكانوا يموتون الواحد تلو الآخر وهم مازالوا صغارا، فتشجع القائد العسكرى «حورمحب» وقفز إلى الحكم وأنهى حكم الأسرة الثامنة عشرة وأعاد السلطة إلى كهنة آمون. كانت وسوسة إخناتون - السياسية والجينية - هى السبب فى القضاء على الأسرة الثامنة عشر. يبين لنا تاريخ هذه الأسرة صفات معينة علينا أن نلاحظها فى تاريخ جميع الأسرات الملكية والأسرات الحاكمة على مدى التاريخ. تواجه جميع الأسرات الحاكمة ضغوطا سياسية كما ترفل فى مزايا الحكم مما يجعلها تزدرى بأصول التربية المتفق عليها وبهذا تنتج هذه الأسرات أحيانا أفرادا أفذاذا عظماء - بكل ما تعنى هذه الكلمة - وتنتج أحيانا مصائب فى ذراريها، وتوضح نتائج هذا الإنجاب الأدوار التى يعلبها الأفراد فى تاريخ الأمم والشعوب. ظلت العظمة والتقدم التى جاءت بها الأسرة الثامنة عشر هى الشعاع الذى يمتد على كل المنطقة من مضيق البوسفور إلى وادى نهر الأنديس لمدة ٦٠٠ عام حتى تمكنت الأجناس القادمة من الشمال والمزودة بالحديد الصلب، والتى اتقنت ترويض الخيول وركوبها من السيطرة على العالم القديم. يوضح تاريخ إخناتون صفة واضحة امتدت عبر التاريخ وامتدت عبر البحار. بعد سقوط إخناتون وانتهاء ملكه، هاجر من بقى من أتباعه من مصر إلى اليونان، حاملين معهم تقاليدهم وأساطيرهم، وبنوا المدن (ومنها مدينة طيبة الإغريقيــة التى تحمل نفس اسـم طيبة المصرية)، وهكذا يتضح التأثير المصرى القديم على الحضارات التالية، ومنها حضارة الإغريق التى تعتبر أساس جميع الحضارات الغربية.

قمة التقدم التقنى فى الحضارة المصرية القديمة يتضح فى بناء الأهرام، وقمة السيطرة السياسية على المنطقة وبناء الإمبراطورية حدث فى الأسرة الثامنة عشر، وقمة التقدم الفنى يمتد على طول عشرين أسرة حاكمة، ولكن قمة التفكير والعقلانية والذكاء حدث فى الأسرة الأولى، فثارت التساؤلات عن أصل الكون (كما لاتزال تثار من علمائنا المعاصرين). جاء المجتمع المصرى نتيجة اختلاط الأجناس المختلفة. فى البداية كانت هناك سيولة شديدة فى الحركة وكانت الفرص متاحة

للجميع وكانت الإثارة والتطلع مباحة لكافة الأفراد. وفى النهاية – نهاية التاريخ المصرى القديم – حل الجمود الشديد فى تركيب المجتمع وفى سلوكه ومعتقداته. انقسم المجتمع إلى عدة طبقات، تعلو إحداها الأخرى (خمس طبقات تبعا لأفلاطون، وست طبقات تبعا لديودورس، وسبع طبقات تبعا لهيرودوت «استخدم هيرودوت لفظ أنواع وهى لفظة أكثر دلالة عن انفصال تلك الطبقات تماما عن بعضها البعض»). هذه الطبقات كانت طبقة الكهنة، المحاربين، المحاربين المرتزقة (الذين كان يمنح كل واحد منهم ١٢ فدانا ولايسمح لهم بامتهان المهن)، رعاة الماشية والخنازير، الحرفيون والفنانون، ملاحو القوارب. بالإضافة إلى تلك الطبقات كان هناك رقيق المعابد (الذين تكاثروا حتى وصلوا إلى ١٠٧ ألفا فى عهد الأسرة العشرين. بالإضافة إلى هذه الطبقات كانت هناك طبقة الفلاحين، الذين كانوا ملك صاحب الأرض والذين ينتقلون مع أراضيهم من مالك إلى الذى يليه. كذلك كان هناك الخصيان الأحباش (الذين لايتكاثرون) والذين كان يجلبهم تجار الرقيق من بلاد النوبة سنويا. وأخيرا كانت هناك مستعمرات أجنبية من التجار الإغريق والمرتزقة اليهود وعمال مناجم النحاس من الأناضول.

تحول المجتمع من السيولة والإنسانية إلى الجمود والتصلب، نمط مألوف فى جميع الحضارات على مر التاريخ. كانت البداية حرية الشخص فى اختيار العمل الذى يناسبه، ثم تغيرت – بالزواج المنتقى – إلى تكوين طبقات بعينها تورث فيها الأعمال والمهن (فى غياب الاضطرابات وفقدان التجديد التقنى والانقلابات السياسية). هذا النظام يؤدى إلى الاستقرار السياسى والإدارى الذى يحافظ بدوره على النظام. كانت مصر تشجع على الاستقرار. كانت الجماهير تكره الأجانب وتحول دون دخولهم واستقرارهم فى البلاد. سنت القوانين فى أيام حكم المملكة الوسطى لتمنع هجرة الزنوج من النوبة (ولم يكن يسمح بدخولهم إلى مصر إلا كعبيد)، وربما كان الحماس الذى أبداه أحد الفراعين التاليين دافعا لاستثارة جموع الشعوب لطرد الغزاة الهكسوس وكانت الكراهية الشعبية للأجانب دافعا لاحتقارهم من المصريين (كان المصريون يتناولون غذائهم بعيدين عن اليهود).

اختلفت حياة العائلات المالكة والنبلاء عن حياة جماهير الشعب. فى عهد المملكة الحديثة. كثر زواج هؤلاء من زوجات أجنبيات من أميرات البيوت المالكة المجاورة، وهكذا تكونت طبقة من الأمراء والأميرات الدوليين يتم الزواج المتبادل من بينهم. علاوة على ذلك، عندما تزوج أمينوفيس الثالث من أميرة ميتانية، واتخذها زوجة رابعة، أحضرت معها ٣١٧ فتاة لم يسبق لهن الزواج (وتم زواجهن تباعا فى مصر)، وهكذا تمكن نظام الحكم المستقر فى مصر من تزويد نسله بدم أجنبى قوى من أجناس أخرى. كلما تقدمت الأمم تتبين حاجتها ليتعاون أهلها مع أفراد من بلاد أخرى مزودين بالكفاءات والمهارات التى تنقصها، وإذا ازدهر حالهم سرعان ما يجتذبون آخرين. هكذا كان الحال

فى مصر، إذ حالما ما استقدمت جنودا من ليبيا وسردينيا وفلسطين، واجتذبت بناة السفن والملاحين من فينيقيا، واستقطبت عمال المناجم من الكنعانيين ومن بلدان الشمال التى تم الكشف فيها عن المعادن فى أول الأمر. وأخيرا قصد إليها التجار الإغريق، وفى أثرهم جاء هيرودوت وأفلاطون. فى هذا الشأن لم تختلف مصر عما حدث فى بلاد ما بين النهرين أو بلاد الفرس أو الأناضول. البلاد الأخرى امتصت الأجانب وتمثلتهم أما مصر فقد ظلت مبعدة عن إدماج الأجانب فيها نظرا لارتفاع شأن حضارتها وتفرد أهلها وانعزالهم واستمرت لعهود طويلة رافضة لإدماج كافة الجنسيات فيها، لم تقبل آلهتهم ولم تساويهم بآلهة المصريين حتى سقطت فى النهاية فى براثن تلك الامبراطوريات.

كان الكهنة ومجتمعات المعابد يعيشون حياة معقدة. كان المعبد الأكبر فى المركز يرأسه الكاهن الأعظم، وصار يورث منصبه لأسلافه. تنقسم مجتمعات المعابد إلى عدة طبقات، فيتولى الذكور مهام القراءة والكتابة وأعمال التطهير والتضحية، ويتولى الإناث مهام العزف والموسيقى والغناء ويصرن بغيات الإله، ويتعاون الجميع مع الحكومة القائمة (ولكن المجتمع الكهنوتى كان يتنافس مع الحكومة عل اقتسام السلطة). كان الملك يستخدم الكهنة لحسابه الخاص، وكان الكهنة يستخدمون الحكومة لتنفيذ مآربهم (كما يحدث دائما فى نظم الحكم). كثيرا ما لجأ الحاكم لاستغلال كهنة آمون ضد كهنة رع (أو بالعكس)، وكثيرا ما نقل عاصمته من مكان لآخر كى يهرب من الوقوع فى براثن الكهنة - أوضح مثال لهذا ما فعله إخناتون عندما نقل عاصمة ملكه من طيبة إلى آتون، عندما ازداد ثراء كهنة آمون وصار من المستحيل على الملك أن يتحمل سطوتهم وتدخلهم المستمر فى شئون الحكم (لما كانوا يشيعونه بين الناس من النبوءات المقدسة)، وكان الصراع المستمر بين الملوك والكهنة كثيرا ما ينتهى بقيام الثورات. كان الارتباط بالزواج كثيرا ما يتم بين طبقة الكهنة والعائلة المالكة، وكان زواج كاهن من ابنة الملك تؤدى فى بعض الأحيان إلى اعتلائه العرش (كما حدث مع آى). كان هبوط قوة الملوك وسطوتهم - بعد انتهاء حكم رمسيس الثانى فى أواخر الأسرة التاسعة عشر - مع ازدياد سطوة كهنة آمون - بعد أن صار منصب الكاهن الأعظم يورث للابن من أبيه - وصار زواج الكهنة من أميرات البيت المالك شيئا مألوفا ومتبعا (وكانت تسمى الزوجات العشيقات الرئيسات «لملك الآلهة») ولما استولى الأمراء المحاربون الليبيون على الحكم فى الشمال واتخذوا عاصمة لهم فى تانيس، كالأسرة الحادية والعشرين، انفرد كهنة آمون بحكم الجنوب كوزراء وقواد عسكريين وكانوا الحكام الحقيقيين للبلاد.

كان الحرفيون المصريون طبقة بذاتها فى الحضارة المصرية القديمة. كانوا - كالفلاحين - طبقة منعزلة ومحمية، لايختلطون ببقية أفراد الشعب ولا بالأجانب. كانوا يؤمنون بعظمة مصر وتفوقها

على سائر البلدان فى جنسها وفى ثقافتها وحضارتها، وفى جوها وثرائها، وفى دينها. استمرت تقاليد الحرفيين على مدى أجيال طويلة. كان الحرفى يتمتع بمزايا عديدة: الحرية والأمان، وحرية الحركة والتنقل من مكان لمكان، وكان حرا طليقا لاتقع عليه أية ضغوط من الحكام، حتى جاء الحكم الفارسى. كانت مصر على الدوام بلدا آمنا، تحميها صحاريها من الجانبين ويوحد نهر النيل والملاحة الحرة فيه بين أجزائها. وتعاقب على حكمها حكومات سلمية نادرا ما احتاجت لتحصين مدنها ضد الثورات الداخلية أو العدوان الخارجى. منذ الأسرة الأولى كان هناك طابع خاص لكل إناء أو أداة أو ختم من ممفيس إلى أبيدوس. كانت حرية الحركة المتاحة فى مصر القديمة هى التى أعطت الطابع الموحد للثقافة، كما أدت إلى تماسك البلاد وقوة حكومتها، لأنها كانت تعنى أن هناك اختلاطا مستمرا فى الأنساب للسكان التى تعيش فى البلاد وتديرها وتحكمها. هذه الوحدة كانت قوة لمصر على امتداد ألفى عام. اهتز النظام بعنف بغزو الهكسوس الذين دخلوا البلاد بخيلهم وعرباتهم الحربية التى تجرها الخيول وأسلحتهم المصنوعة من البرونز حوالى سنة ١٨٠٠ ق.م. وبعد طرد الهكسوس من البلاد تركوا الخيل والعربات الحربية والبرونز خلفهم، ولكنهم تركوا أيضا الرجال الذين يربون الخيول ويعتنون بها، والصناع الذين يصنعون العربات والعمال الذى يسكبون البرونز. فى أيام المملكة القديمة كانت الخنازير وافرة فى البلاد وكانت توجد فى الدلتا وفى معابد أوزيريس، ولكن فى المملكة الحديثة، بعد خروج الهكسوس من مصر كان أكل لحم الخنزير محرما (خاصة على الخاصة وعليه القوم)، مما يدل على حدوث اختلاط وتزواج بين الهكسوس الغازين وبين أهل البلاد الأصليين، وهكذا ترك الهكسوس بضعا من دمهم فى عروق المصريين. استمر الاستقرار فى ربوع وادى النيل، الذى كان يفتقد إلى خام الحديد ولم تنشأ فيه الصناعات الحديدية، حتى وفد إليه غزاة جدد امتلكوا ناصية الصلب والصناعات والأسلحة المصنوعة منه. سقطت مصر تحت هجوم الأشوريين والفرس والإغريــق، وظلت مصر خاضعة من يومها للغــزاة الأجانــب الذين تتابعــوا عليها. عاشــت مصر تحــت حكم حكام أجانب يتكلمون الآرامية والإغريقية واللاتينية والعربية والتركية والفرنسية والإنـجليزية، ولكن ظلت لغتها - بعد احتلال العرب لها - هى اللغة العربية. ذابت هذه الشعوب كلها فى المصريين ونشأ منهم جميعا شعب جديد وإن كان قد اختفظ ببقايا من لغته ودِّينه وفنه.

كان امتهان مهنة الكتابة حاسما فى بقاء المجتمع المصرى واستمراره. لم يسبق لمجتمع قبل المجتمع المصرى أن اعتمد على الكتابة اعتماد المصريين عليها. تطورت الكتابة المصرية بابتداع رموز تعبر عن المعلومات وابتكار مواد تحمل هذه الرموز. مخترعو هذه الإبداعات حصلوا على مراكز ممتازة فى المجتمع المصرى، اتبعوه بامتهانهم مهنة التعليم، وكان أول من علمه هؤلاء المعلمون

الأوائل هم أبناؤهم، الذى كانوا يرثون المركز الرفيع الذى كان لآبائهم. كانت الكتابة الأولى – كما كانت لدى السومريين – صورا ونقوشا على الأوانى الفخارية. ثم أضيفت إليها علامات لتدل على مقاطع الكلمات، وعلاقة الكلمات ببعضها البعض. ثم تطور كل النظام إلي ما نعرفه اليوم بالكتابة الهيروغليفية، والتى تطورت وتحسنت وتيسرت من جيل إلى جيل (حتى صارت الكتابات القديمة غير مفهومة للكتاب المحدثين) وبهذا ضاعت كثيرا من أحداث التاريخ (حيث أن عين المصريين كانت دائمة متوجهة للمستقبل وليس إلى الماضى). كانت أعواد الغاب تستعمل كطعام يُؤكل، وينسج كملابس تُرتدى، ويصنع منها القوارب والسفن. ولكن المصريين كشفوا عن استعمال آخر لها – منذ عهد الأسرة الأولى، فصنعوا الورق من أعواد البردى، واستمر الورق المصنوع من نبات البردى يستخدم للكتابة على مدى ثلاثة آلاف عام، يحتفظ لنا بتاريخ المصريين واليهود والإغريق (حتى تم استنزاف نبات البردى تماما من مصر إلى أن أعيد ثانية بقدر محدود للغاية فى السنوات الأخيرة).
كان رخص ثمن نبات البردى، وسهولة استعماله كمادة للكتابة (أسهل كثيرا من النقش على الحجر) هو الذي دفع المصريين لتدوين معظم كتاباتهم عليه، فى جميع شئون الحياة. كان مبتدعو الكتابة هم المصريون ومبتدعون الورق هم المصريون وأول من امتهن مهنة الكتابة فى التاريخ هم المصريون.
طور المصرين الكتابة الهيروغليفية إلى الكتابة الهيراطية (المستمدة من الهيروغليفية) بداية من الأسرة الأولى وكتبوا بها على ورق البردى وظلوا يكتبون بها طوال ألف عام. بعد غزو الهكسوس بدأت تظهر كتابات أخرى، خاصة بعد دخول أجناس أخرى إلي مصر خاصة بدخول أهالى بعلبك وجرش إلى مصر (الذين ولدت على أيديهم الحروف الأبجدية). لم يطور المصريون أنفسهم أى أبجدية للغتهم. كل ما فعلوه أن طوروا الكلمات حسب طريقة نطقها وابتدعوا الكتابة الديموطية فى الأسرة الثانية والعشرين (وورثوها للإغريق). هذه الكتابة كانت تستخدم فى الشئون اليومية والمعاملات التجارية، وسرعان ما اختفت تحت حكم البطالمة وحلت محلها العبرية والإغريقية، حتى فى كتابة الشئون المصرية. حافظ دين مصر وكهنتها على الكتابة حتى نهاية القرن الرابع بعد الميلاد، وهذا الاستقرار للكتابة المصرية القديمة كان عاملا فى استقرار التفكير المصرى. هذا الاستقرار فى الكتابة يرجع إلى ثبات المواد المستخدمة فى الكتابة من ثبات طبع المصريين. وظيفة الكاتب المصرى صارت وظيفة يورثها الآباء للأبناء، وترجع الكتابات المصرية القديمة الثلاثة: الهيروغليفية والهيراتية والديموطيقية إلى أصناف ثلاثة من الكتبة، الذين استخدمهم الكهنة ومديرو الإدارات والتجار. ويعكس هذا روح المحافظة الى انعكست على المصريين فى طول تاريخهم.

اختلف المصريون من سكان الريف عن المصريين من ساكنى المدن. اعتنق الفلاحون الإسلام سريعا وتكلموا اللغة العربية بعيد دخول العرب مصر فى القرن السابع الميلادى – ولكن ظل بعض

الفلاحين متمسكين بالمسيحية – ومازال جميع المصريين – مسيحيين ومسلمين – يحتفلون بوفاء النيل فى سبتمبر من كل عام – وهو عيد أوزوريس من عهد قدماء المصريين. ومازال أهالى الأقصر يحتفلون بأعياد آمون بموكب القوارب ثلاثة مرات فى السنة، وان اتخذ الإحتفال طابعا إسلاميا كإحتفال بمولد الشيخ أبو الحجاج. استمر الفلاح المصرى محتفظا بميزاته التى جعلت منه فلاحا ماهرا منذ عهد قدماء المصريين، ومازال الفلاحون المصريون محتفظين بسحنتهم وأشكالهم المميزة منذ عهد الفراعنة. دخل أسلاف الفلاحين المصريين البلاد منذ سبعة آلاف عام كرجال أحرار وسادة، وتسيدوا بعد قليل العالم القديم. ولكن منذ خمسة آلاف عام وهم فى قاع المجتمع، عبيد من يملك مصر. أما ساكنو المدن فهم جنس آخر واختطلوا بغيرهم من الأجناس. احتفظ أقباط مصر بلغتهم القبطية – وهى مشتقة من لغة قدماء المصريين – وتزاوجوا مع الإغريق ومع اليهود طوال العشرة قرون التى سبقت دخول الإسلام إلى مصر. وتزاوج من أسلم منهم من العرب بعد احتلال مصر، وهكذا اختلف سكان المدن فى أصولهم العرقية عن سكان الريف. تفرق سكان مصر الأوائل: حكامها وكهنتها وفنانوها وصناعها المهرة إلى مراكز جديدة تحت حكم الامبراطورية الفارسية والإغريقية والرومانية. أما اليهود فكانت هجرتهم من مصر أول عهود الشتات لهم حيث تفرقوا فى جميع أنحاء الدنيا.

والآن آن لنا أن نتساءل عما شعه المصريون خارج بلادهم. أول ما نلاحظهُ أن المصريين لم يستعمروا أى بلد لمدة طويلة من الزمن وهكذا تكون الدول التابعة لهم والسائرة فى فلكهم لم تخضع لاستعمار عسكرى أو لهجرة واسعة من أبناء مصر إلى تلك الدول. شكل المصريون أسرات حاكمة فى النوبة وفى ليبيا على شاكلتهم وتركوا آثارا باقية فيهما، كما تركوا آثارهم فى فلسطين وفى سوريا. تاجر الفينيقيون مع مصر وسخروا أسطولهم لخدمة المصريين طوال ألفى عام، وباعوا الخشب والسفن للمصريين ولكنهم اكتسبوا منهم مبادىء الكتابة الأولية فحسب. لم ينشر المصريون لغتهم فى بلاد أخرى. لم تظهر فى مصر طبقة عسكرية داهمة تسعى للتوسع وفرض السطرة على جيرانها، كان المصريون يستقدمون إلى بلادهم الرعاة من الصحارى المجاورة لهم ثم بدءوا يستقدمون مربى الماشية من النوبة ابتداء من الأسرة السادسة. ثم بدأنا نرى حرسا من الكوشيين ومن أهالى سردينيا فى عهد رمسيس الثانى، ثم وفد النوبيون وأهالى آسيا الصغرى واليونان وأهالى من جزر البحر الأيونى، حتى استولى قادة هؤلاء الوافدين على مقاليد الحكم: الليبيون فى القرن العاشر ق.م.، والنوبيون فى القرن الثامن ق.م. جذبت مصر إليها كل أولئك الخلق واستقروا فيها – كما استقر فيها أهلوها – بسبب ثرائها وغلاتها الزراعية الوافرة من القمح ومعادنها من ذهب النوبة. كان امتداد تأثير مصر وانتشاره فيما حولها من ممالك يعود إلى فنانيها وصناعها المهرة، فقد افتخر

داريوس الفارسى بما فعله الحرفيون المصريون لتزيين عاصمته (ولو أن انجازاتهم لم يتم تسجيلها فى التاريخ لأنهم رحلوا منفردين بدون الكتاب المصريين الذين كانوا يسجلون كل ما فعلوه فى مصر). هجرة الحرفيين كانت منفردة. كانت هجرة أفراد أو عائلات ولم تكن هجرة جماعية. هاجر أبناء الطبقة الراقية وقواد الجيش المنفيين إلى جزر بحر إيجة بعد انتصار الأجانب عليهم، وهاجر كهنة مصر وفنانوها إلى جزيرة كريت ثم إلى آراضى اليونان نفسها وإلى ايطاليا، وهاجر عمال المعادن، أولا النحاس ثم البرونز وأخيرا الحديد (الذى جلبه الآشوريون) جنوبا على امتداد نهر النيل وفى طريق القوافل القديم إلى مروى ببلاد النوبة، ومن ثم انتشرت الصناعات المعدنية فى كافة أنحاء أفريقيا. انتشرت المقابر الضخمة والمعابد العظيمة فى أوروبا وشمال أفريقيا (حيثما انتشر اسطول الفينيقيين الذى حمل معه أحفاد بناة الأهرام) إلى ميسينى وإلى مالطة وإلى شواطىء أوروبا الغربية وإلى الهند، وهكذا عم إشعاع نور مصر وضيائها على العوالم الخارجية حالكة الظلام.

الباب الثاني

انتشار البشر على سطح الأرض

بعد انتشار الزراع إلى أراض جديدة قابلة للزراعة، تبعهم عمال المناجم والعاملون فى الصناعات المعدنية والتجار ورجال الدين والملاحون والمحاربون، إلى عمق بلاد العالم، ونشأت عنهم أجناس جديدة بالتزاوج. انتشرت اللغات الآرية واللغات السامية إلى تلك البلدان الجديدة التى استوطن فيها البشر، وكان من أبرز من حقق الإنجازات طائفتى اليهود والإغريق، الذين كتبوا التاريخ وغيروا مساره.

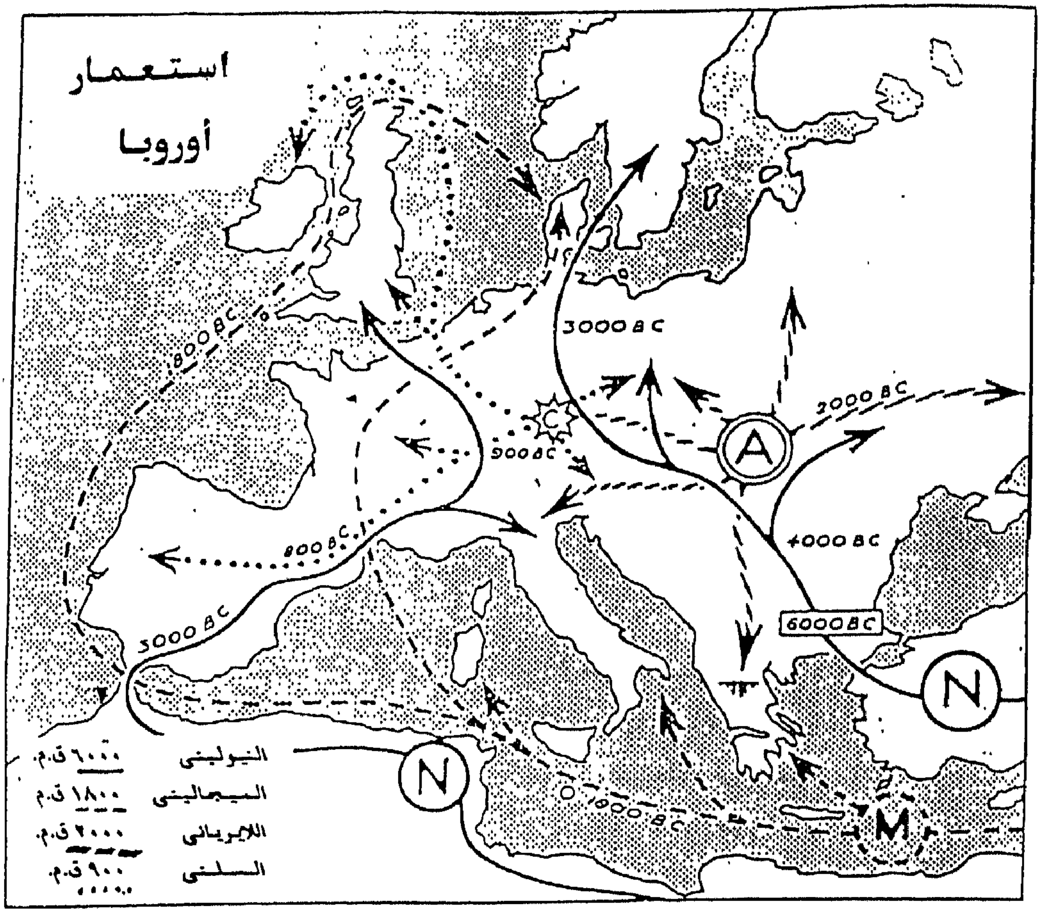
بدايــــة أوروبــــا

فى الوقت الذى ازدهرت فيه الحضارات القديمة العظيمة، فى بلاد مابين النهرين وفى وادى النيل، وغطت بعظمتها على التقدم الحثيث الذى كان يحدث فيما حولهما من البلدان، بدأت الحضارة بداية متواضعة فى أوروبا. بدأت بالزراعة فى وديان الأنهار حوالى ٤٠٠٠ سنة ق.م. وأثرت ببطء على حياة الناس الذين كانوا يعيشون فى آسيا وأفريقيا وأوروبا بالقرب من تلك الحضارات المزدهرة. زاد الطلب على الأحجار الصلدة، كحجر الصوان والزجاج البركانى الأسود، وعلى الأحجار الكريمة، وأدى هذا إلى تزايد النشاط فى المناطق الجبلية التى كانت تتواجد فيها هذه المواد. بدأت صناعة الفؤوس ووجدت لها سوقا عالمية، ولكن حدث الازدهار السريع حوالى ٣٠٠٠ سنة ق.م. عندما دخل هذه البلاد مهاجرون جدد، حملوا معهم منجزات حضارية كالمصابيح والسلالم (من الخشب أو الحبال أو الحجارة أو المعدن) والمعاول من قرون الوعل التى مكنتهم من حفر مهادى المناجم إلى عمق ثلاثين قدما. حدث التقدم أساسا من نشاط من حفروا المناجم وفهموا أنواع الصخور وكيف يستفيدون منها: النحاس الفطرى، ورواسب الذهب، والحديد النيزكى. كشفوا عن هذه المعادن وتعلموا كيف يُصنّعونها، يصهرونها ويدقونها ويسكبونها ويستخدمونها كحلى. بدأت طرق التجارة تجد سبيلها لنقل هذه المنتجات إلى أماكن طلبها البعيدة ولحمل المصنوعات من تلك الأمكنة بدلا

منها. فى نفس الوقت أدت الحاجة المتزايدة إلى خبز الطحين فى المستعمرات الزراعية المتقدمة إلى استبدال المواقد المفتوحة بأفران الفحم ثم إلى حرق الفخار في التنور. تم الكشف أن رفع درجات الحرارة يؤدى إلى ازدياد صلابة الفخار، وأن النحاس يمكن استخراجه من الملاكيت، وأن الرصاص والفضة من الغالينة، والقصدير من حجر القصدير. وتبين أن اشتعال الفحم يمكنهم من تحويل الخامات إلى معادن، ثم كشفوا أن طرق النحاس يزيد من صلابته، وأن بامكانهم عمل السبائك منه (مع القصدير، المعتقد أن كشف البرونز حدث فى أوروبا أولا فى بوهيميا حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م.، وفى آسيا الغربية وفى مصر قبل ذلك بحوالى خمسمائة عام). تم الكشف عن تنقية المعادن بالصهر ثم عن سقى الفولاذ حوالى ١٥٠٠ سنة ق.م. بواسطة قبائل من صناع الحديد فى جبال طوروس بالأناضول. وهكذا جاء الكشف عن البرونز وعن الحديد الصلب كتتويج لسلسلة متعاقبة من الكشوف العلمية، كلا منها كان جديدا فى زمانه ومبتكرا فى بدايته وأدى إلى تطور فى الفكر ومهارة فى الأداء لعمال المناجم وصناع المعادن وتمخض عن بحث وتعليم وتطبيق لألف سنة. كان برنامجا طويلا ومتكاملا ومرتبطا بعضه ببعضه الآخر. فى جميع المجتمعات البدائية التى بدأت فيها صنعة المعادن ابتدأت فى قبائل منفصلة أو فى مجتمعات بعينها أو فى طبقات بذاتها كانوا يتواجدون بجوار الحرفيين ولكن لم يكونوا يتزاوجون منهم. وعندما بدأوا رحلتهم حوالى سنة ١٥٠٠ ق.م. فى وسط أوروبا كانوا يعيشون منفصلين عن الهمج فى تلك البلاد (وكانت مدافنهم منفصلة). وعلى العموم كان صناع المعادن يتكونون من مجموعات متنقلة تبيع مصنوعاتها أثناء تجوالها (ومازالت بقاياهم فى أوروبا متمثلة فى السمكرية والغجر المتجولين). يتميز الحدادون القدماء بصفتين، أولاهما الذكاء والمهارة اليدوية والثانية هو السحر المتوارث وهذا يعكس التفرقة بين أولئك الذين فهموا «سر الصنعة وأولئك الذين خدعوا بها، وأولئك الداخلين فيها والخارجين عنها، بين أهل البلاد الأصليين وبين الأغراب والعبيد» ويلاحظ أن هذا التفرقة مازالت تمارس على مر العهود (بين الماسونيين وغيرهم، بين رجال الدين وعامة الناس). بقيت هذه المكتشفات التى طورت استخراج المعادن وتصنيعها سرا مغلقا على أسر بعينها، لقيمتها العظيمة، ولأن العائلات احتفظت بأسرارها واقتصرت تعليم هذه الأسرار على أبنائها. لم ينتشر صناع المعادن بل بقوا فى أماكنهم: ظل صناع الحديد فى الأناضول، وكانوا يصهرونه فى شهور الشتاء وكان ملك الحيثيين يحافظ على أسرارهم فى نظير تزويدهم له بالحديد. ولكن بعد سقوط دولة الحيثيين حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م. تفرق صناع الحديد من موطنهم الأصلى إلى بلاد الدنيا كافة. زودوا الأشوريين بالفولاذ، الذى حقق انتصاراتهم لمدة قصيرة من الزمن، ثم تسرب صناع الحديد من الأناضول إلى وسط أوروبا، وهناك، فى كارينتيا، حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. كشفوا عن خامات أخرى بالامكان صناعة الفولاذ منها مباشرة، وهكذا قامت

اسس بناء الدولة الأترورية (بلاد قديمة فى غرب ايطاليا) والامبراطورية الرومانية. كما قامت فئة منهم بالهجرة شرقا وأقاموا صناعات الحديد في الصين، كما قام الأشوريين بنقل هذه الصناعة جنوبا إلى مصر حتى وصلت إلى النوبة. في القرن الخامس ق.م. كانت النوبة تابعة لمصر، تستغلها مصر لتزويدها بالذهب، ثم استقطبت عددا كافيا من المحاربين الأشداء، كبلاد تصنع الحديد، وكونت دولة مستقلة، عاصمتها مروى، لمدة ٨٠٠ سنة. وأخيرا بعد سقوط مروى، تفرق صناع الحديد جنوبا وجلبوا عصر الحديد إلى أفريقيا (التى لم تشهد عصر البرونز إطلاقا).

أطلق كريستيان تومسن سنة ١٨٣٦ تعبيرات العصر الحجرى، عصر البرونز وعصر الحديد على مختلف العصور - تعبيرا عن أهمية صناعة الآلات - فى التطور الحضارى، ولكن كل عصر يحمل صفات أخرى بخلاف صناعة الأدوات والآلات المختلفة. أول ما حدث فى تطور الشعوب هو إحلال النحاس محل الحجر، ثم استبدال النحاس بمعادن أكثر صلابة، والتى انتشرت من أمكنة اختراعها ببطء إلى باقى أنحاء العالم، ومعها التحسينات المتتالية التى تطورت إليها الصناعة. كثير من الصناعات الجديدة لم تصل إلى أطراف العالم الذى يسكنه الجنس البشرى. أعاقت البحار والجبال والصحارى والأوبئة انتشار الانسان على سطح الأرض ولم تستوعب المجتمعات المختلفة كافة التقدمات التى أدخلت فى الصناعات المختلفة ولم تدخلها الحرف المتباينة. أدخلت المجتمعات الحديد والبرونز فى صناعة السيوف وفى صناعة المحاريث وتخلت عن النحاس (الأقل صلابة) لأعمال النساء (استمر النحاس يستعمل فى أوانى وأدوات الطهو حتى عهد قريب جدا، ومازال النحاس يستخدم فى الأسواق الشعبية والبازرات القديمة من مشهد إلى مراكش). كل اختراع جديد له تأثير مفاجىء بالغ الأثر. عندما دخلت المعادن الجديدة فى صناعة الأسلحة صارت لها تجارة واشتد الطلب عليها فى كل أسواق العالم. عندما اشتد الطلب على الخشب للوقود بدأ الإنسان يقطع أشجار الغابات ومن ثم زاد الطلب على صناعة الفؤوس والمحاريث (لزراعة الأراضى التى خلت بقطع الأشجار). مع استخدام المعادن فى الحياة تغير شكل الإنسان وتطور إلى إنسان جديد. تغير الإنسان إلى قبائل جديدة ثم ارتفع إلى طبقات جديدة ثم تكونت أجناس جديدة من هذا الإنسان المتطور. هؤلاء البشر الجدد، الذين كشفوا عن معادن جديدة وآلات جديدة وأسلحة جديدة خلقوا مناخا يسمح بظهور إنسان جديد، ومهدوا الفرص ليقوم هذا الإنسان الجديد باستخدام الأسلحة الجديدة والآلات الجديدة للسيطرة على مجتمعات أشد ثراء من مجتمعه وأشد ذكاء منه. صاروا جميعا محاربين أشداء وصلوا إلى السلطة فى عصر البرونز ثم فى عصر الحديد، واعتبروا أنفسهم أبطالا، وأعتقد آخرون أنهم آلهة. اخترقوا أولا الشرق القديم واختلط هؤلاء الهمج بشعوب غاية فى



التوسع المتتابع فى أوروبا بين الأعوام ٦٠٠٠ ق.م. الى ٨٠٠ ق.م.

- النيوليتى من ٦٠٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م. **N**
- المجاليتى حولى ١٨٠٠ ق.م. عن طريق البحر أساسا **M**
- الاريانى الأولى من عام ٢٠٠٠ ق.م. **A**
- الاريانى الثانوى (السلتى – عصر الحديد) **C**

عن طريق البحر جزئيا من ٩٠٠ ق.م.

التقدم وقضوا معهم ألفى سنة واتحدوا مع تلك الأجناس القديمة واستوعبوا حضاراتهم حتى صار لهم شأن في تطور الحضارة.

بدأت المستعمرات الزراعية تنشأ فى أوروبا، على شواطىء بحر إيجة حوالى سنة ٧٠٠٠ ق.م.، وظلت حوالى ٢٠٠٠ سنة قبل اختراق المزارعين إلى أعماق أوروبا فى البلدان الشديدة البرودة، الغزيرة الأمطار فى الشمال. قد يكون الانتظار الطويل لتلطف الجو قليلا، وكان عاملا أكيدا فى تحسن الخبرات التقنية التى بدعها الإنسان خاصة فى أعمال الخشب والخزف وفى ابتداع محاصيل جديدة واستئناس الحيوانات التى تتحمل صقيع وسط أوروبا فى أيام الشتاء، وكان استخدام الثيران فى حراثة الأرض أحد المنجزات الهامة فى ذلك العهد. اختلط القادمون الجدد من فلاحين وصائدين للحيوانات مع جيرانهم، وأنتج هذا الاختلاط نوعية جديدة من البشر. اختطف القادمون الجدد النساء أو تبادلوهن بالمقايضة مع ما كانوا يحملون من تجارة، خاصة أيام المجاعات التى كثيرا ما كانت تحدث فى تلك الأزمنة. تغلغل القادمون الجدد ونشروا الحضارة فى حوض نهر الدانوب وعلى سواحل البحر الأسود وفى وديان الأنهار التى تصب فيه، ووصل الإنسان المتحضر - الزارع للأرض - حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م. - إلى بحر الشمال وبحر البلطيق. فى نفس الوقت وصل المزارعون عن طريق شمال أفريقيا ثم أسبانيا ففرنسا إلى وسط أوروبا، وعبروا بحر المانش إلي الجزر البريطانية، وحدث مثل هذا التوسع الحضارى فى أفريقيا وفى آسيا. فى البداية، تفرق المزارعون القادمون كلما تقدموا فى البلاد، وخفت زراعتهم. عند تقدمهم إلى الشمال فقدوا مهارة زراعة الكتان (وبالتالى نسجه) وتحولوا إلى ارتداء جلود الحيوانات وفراويها (وهكذا كان التقدم الجغرافى مصحوبا بتأخر حضارى)، ولكن اكتسب الإنسان مهارات جديدة (كالمهارات التى اكتسبها سكان البحيرات الذين أنشأوا القرى فى حوالى ٣٠٠ موضعا في وسط أوروبا واحتفظوا بهذه المهارات لأنفسهم من سنة ٣٠٠٠ ق.م. إلى سنة ١٥٠٠ ق.م.). أهم ما بدعه المزارعون المتقدمون هو تحول بعضهم إلى رعيان للماشية والغنم وبذا صاروا أحرارا فى التقدم فى ربوع البلاد حتى وصلوا سريعا إلى شمال أوروبا، قبل اخوانهم المزارعين الذين استقروا فى الأراضي التى فلحوها. تعلم سكان أوروبا من البشر الجدد بعض صناعاتهم، كتربية الماشية وصنع الأوانى الفخارية (مثل ما فعله سكان الدانمرك) بدون أن يتعلموا الزراعة.

حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. حدثت موجة أخرى من الهجرة فى أوروبا الغربية. ابتدأ البشر ينتشرون فى جزر غربى البحر المتوسط، وتركوا آثارهم فى جزيرة مالطا وفى صقلية. بنى السكان القلاع فى سردينيا على مدى ١٥٠٠ سنة (بين سنة ٢٥٠٠ ق.م. إلى ١٠٠٠ ق.م.) ثم رحلوا غربا سالكين عدة طرق. وصلوا إلى أيرلندة وسكوتلاندة وجزر الأوركين والدانمرك عن طريق جنوب أسبانيا والبرتغال،

وعن طريق بريتاني وصلوا إلى غرب انجلترا، وعن طريق فرنسا وصلوا إلى بحر الشمال ثم إلى جنوب السويد. تكيف الأقوام مع طرق المعيشة المحلية ولم يسهموا بأى ثراء للشعوب التى وفدوا إليها. قدموا لهم نظاما جديدا للحكومة وللعلاقات التى تربط الفرد بالمجتمع. من أين جاءت هذه الأقوام «الميجاليثية»؟ لم ينتمى هؤلاء البشر إلى قبيلة واحدة ولا إلى جنس واحد ولا لأمة واحدة. كانوا بعثات تتكون من عديد من الأقوام. جاء أولا الكهنة الذين سعوا لنشر معتقداتهم وتدريسها لأداء طقوسهم وتمكينهم من السيطرة على باقى الخلق. ثم جاء الحرفيون، البناؤون والمهندسون، ثم جاء بناة السفن والملاحون. جاء هؤلاء جميعا من الشرق القديم، ومعهم أفكارهم وتقنياتهم التى أبدعتها بلادهم. أتى الكهنة والبناؤون والمهندسون من مصر أو من مكان قريب من مصر (حيث أقام المصريون الهرم الأول سنة ٢٧٥٠ ق.م.) فى وقت قريب من بدء الهجرة. جاء بناة السفن من فينيقيا ومن بحر إيجة. عرفت مصر الملاحين، وربما التقى الجميع: الكهنة والبناؤون ورجال البحر فى بعلبك. نقل «الميجاليثيون» دياناتهم إلى أوروبا، ومع انتشار تلك الديانات نلاحظ أنه لم تحدث هجرة جماعية، ولا اختراق لهم لاحدى الطبقات، بل تغلغل تدريجى منظم سبق التخطيط له. ومازلنا - حتى عصرنا الحاضر - نلاحظ إرسال بعثات تبشيرية تمارس هذا النوع من النشاط. يرجع تنظيم هذه البعثات إلى النشاط الفردى للأشخاص. لم يكن هؤلاء المبشرون الأوائل من الكتبة (إذ لم يتركوا مخطوطات أو برديات تدل عليهم)، فالكتبة كانوا من أرقى طبقات الأمة، وكانوا متيسرى الحال ومن المستبعد أن يكونوا قد هاجروا فى مغامرات محفوفة بالمخاطر (إلا إذا كانت بعثات يمولها الفرعون مع وعود بالترقى فى المناصب) كما حدث بعد ذلك بألفى عام حين بعث الفرعون نيخو بملاحيه الفينيقيين وداروا حول أفريقيا وسجلوا رحلتهم هذه بالكتابة). عندما وصل هؤلاء المبشرون إلي القبائل البدائية لشواطىء بلاد الغرب، جلبوا إليها ديانتهم وصاروا المعلمين والسحرة، ولكن عندما تغلغلوا فيما بعد فى حوض نهر السين وجدوا أقواما خاضوا الحروب وحققوا انتصارا عقب انتصار، وتولى أمورهم القواد العسكريون الذين صاروا أصحاب السلطة والنفوذ ووجدوا طبقة راقية ثرية، وصار الكهنة فى وسط هذه الطبقة الغنية وتمتعوا بشتى الامتيازات. هذا التشابك الجديد كان ناجحا غاية النجاح وامتد فى كافة الاتجاهات. كانت أفكار الكهنة ذات أربعة عمد: اجتماعية وتقنية ودينية وسحرية، وانتشرت تلك الأفكار بين أفراد بدائيين. تعلموا زراعة القمح وبناء السفن وسبك البرونز (ولكن اقتصر تعلم هذه التقنية واقتصر اكتساب تلك المهارات على طبقة بعينها من الفنيين، الذين توارثوها أبا عن جد)، لعدة أجيال طويلة فى حكم الزمن.

بعد حوالى ألف سنة من تعليم الكهنة لهؤلاء الأقوام البدائية بدأت المبانى العظيمة تظهر فى تلك البلدان المُستعمرة، فى فرنسا وفى بريطانيا. من أوضح الدلائل على هذا هو بناء معبد الكرنك من

الحجر (الذى بلغ ارتفاعه ٦٠ قدما ووزنه ٣٥٠ طنا وهو إنجاز لم يسبق له مثيل من قبل)، ونقل ٨٠ حجرا من الأحجار الزرقاء - وزن كل حجر منها أربعة أطنان - بطريق البحر من جبال بريسلى فى بمبروك إلى ولتشاير. قد يكون لهذه المجتمعات صلة بديانة المصريين القدامى، ولكن من المؤكد أن البنائين والتقنيين والمهندسين الذى بنوها، أو أشرفوا على بنائها، كانوا من المصريين (بعض تلك الحجارة التى استخدمت فى بناء المعابد أخذت شكل المسلات المصرية القديمة) وعند استكمال المبنى ثم حفر خنجر ليدلنا على أن البناء جاء من بلاد المايسين. يرجع الفضل إلى اتكينسون فى الكشف عن خبايا ما دار بين عامى ١٩٠٠ - ١٤٠٠ ق.م.، وهى الأعوام الحاسمة فى تكوين الأمم الأوروبية والتى تجمع بين مفهومي الاستمرارية والاندماج. وجدت آثار تدل على مهارة فى الفلك وفى الرياضيات مما يدل دلالة قاطعة على أنها جاءت من بلاد الشرق القديمة، وغالبا من مصر، وقد زودتهم تلك المعلومات بسلطة طبيعية وفوقية على المزارعين الذين خدموهم وحكموهم. كانت السلطة نتاج توحد العلم مع الدين، وظلت سائدة لألف عام حتى بددها الإغريق الذين عاشوا فى أيونيا بعد نحو ألف عام. المعابد الضخمة هى مأثرة عصر البرونز التى نقلتها الحضارة السائدة إلى العالم الخارجي الهمجي والجاهل. ولكن هناك معالم أخرى نقلها الملاحون المغامرون إلى تلك البلاد. النقش على الحجارة من السويد إلى جزر الكناريا، وتبين تلك التصاوير السفن. السفن ومجاديفها التى استخدموها فى رحلاتهم العظيمة وكانت وسيلتهم للكشف والفتح (والتى سلكتها ذراريهم من الفايكنج). توضح هذه النقوش أصل بناة السفن من أهل الشمال وكثير من مخترعاتهم ومغامراتهم. استقر هؤلاء الفاتحون فى بلاد الشمال، وبعد استقرارهم توالدوا وتكاثر جنسهم (ويمكن الاستدلال عليهم من نسب فصائل الدم لديهم). استقر أهالى البحر المتوسط على ساحل المحيط الأطلنطى فى أوروبا واختلفت حياتهم فى هذه الأماكن عنها فى بلادهم الأصلية المتوسطية. اختلفت طريقة بنائهم للمباني. وتغيرت عاداتهم فى الترحال، وتغيرت تركيبتهم الاجتماعية. ولكن استمر امتهانهم للتجارة والاتصالات. استمر الفينيقيون الذين كانوا يزورون الجزر البريطانية بعد ألفى سنة من إقامة مستعمراتهم فيها، يزاولون التجارة بعد تدهور الحضارة التى نقولها إليهم. تدهورت الحضارة لارتفاع شأن الحديد وتدهور القصدير، وتدهورت الحضارة لقوة الامبراطوريات الجديدة الناشئة وتماسكها. لم تظل سلامة عصر البرونز أمدا طويلا. بدأ البحث عن المعادن التى تستخدم فى سبك البرونز، وعن السفن التى تحملها من أماكن تواجدها والتى تنقل المنقبون عنها إلى تلك الأماكن. كانت الأراضى شاسعة، والخلاء عظيما يدعو الى استعمار تلك الأراضى الخالية من السكان. كان الحماس الدينى غالبا، مما دفع المستعمرون للتقدم لتحقيق رسالتهم ولنشر دعوتهم بين الأناس الذين استقروا فيها مما أنتج أفرادا عظماء من ذراريهم.

حوالى ألفين سنة قبل الميلاد حدثت هجرات متعددة فى كثير من بلدان أوروبا ونشأ اهتمام جديد بالكشف عن خامات النحاس والقصدير. استخدمت الأنهار (مثل نهر الإلب) وممرات الجبال (مثل ممر برينر) كطرق للتجارة، تحمل العنبر والذهب وتصل بين المستعمرات الزراعية المختلفة. ثم ظهرت طائفة من صناع البرونز والمعادن فى جنوبى أسبانيا حيث يوجد النحاس والقصدير بوفرة ثم تفرقوا من جنوب اسبانيا بمصنوعاتهم من البرونز إلى غرب أوروبا، وتحركوا ضد تيار قدوم الحرفيين، شرقا، حتى وصلوا إلى جزيرة صقلية. صنعوا الأكواب من المعدن (وخمروا البيرة فى تلك الأكواب). كانت الأكواب المعدنية صناعة غالية الثمن وتباع للأثرياء، ولكنهم صنعوا أيضا رؤوس لأسهم وغيرها من المصنوعات المعدنية، وهكذا ربط صانعو الأكواب المعدنية أجزاء أوروبا ببعضها البعض ونقلوا الحضارة إلى أطرافها النائية، وظلوا مبتعدين عن الزواج مع بقية السكان. كما ربط صانعو الأكواب المعدنية بلدان أوروبا عن طريق التجارة، ارتبطت هذه البلدان ببعضها أيضا عن طريق الحرب. كانت أسلحتهم من الفؤوس ذات الرؤوس المصنوعة من الحجر المصقول الذى صنع على شكل قرن الوعل تقليدا لفؤوس الصيادين الباليوليثيين، ولكن فى تفاصيلها كانت مشابهة للفؤوس النحاسية التى يصنعها حرفيو الأناضول المعاصرين. كانت تلك الأقوام من الرعاة (كما كان الحال دائما مع المحاربين المنتصرين) عندما وصلوا إلى جنوب روسيا حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. كانوا يعتمدون على الماشية، ثم استخدموا الخيول تقليدا لجيرانهم فى الشرق وعن طريقهم انتقل استخدام الحصان فى جر العربات إلى وسط أوروبا، وبهذه الوسيلة أيضا تفرقوا فى الأناضول وفى بلاد الفرس وعرفوا فى التاريخ باسم الحيثيين والميتانيين: كانت لغتهم تنتمى إلى ما يعرف باللغات الآرية. (الهكسوس الذين أعقبوا يوسف يظن أنهم من الساميين، ولكن استخدامهم للعربات الحربية التى تجرها الخيول عام ١٨٠٠ ق.م. عندما دخلوا مصر يؤكد أن قادتهم على الأقل كانوا من الجنس الآرى).

كان الناس يتحدثون فى أوروبا حوالى ٣٠٠٠ سنة ق.م. لغات عديدة (كما هو الحال الآن)، ولكنها كانت أكثر اختلافا فى الايتومولوجية وفى قواعدها اللغوية وفى طريقة نطقها عما هو الحال الآن. ما هى اللغات المختلفة التى كان يتكلمها أهل أوروبا؟ بعض تلك اللغات مازال يتحدث بها أهل اللابلاند، وبعضها الآخر يتحدث بها أهل القوقاز. بعض هذه اللغات - كلغة الباسك - يتقلص انتشارها تدريجيا على مر السنين، فقد وصلت لذروتها فى الألف الثالثة قبل الميلاد، حيث انتشرت من ليجوريا إلى لشبونة، وتقتصر الآن على سكان الجبال فى شمال إسبانيا بالقرب من فرنسا.

كما سبق أن لاحظنا مع انتشار أهالى الصحراء اختلطت اللغات الحامية مع اللغات السامية وحلت محل اللغات السابقة فى أرض الجزيرة وفى وادى النيل ومن ثم انتشرت فى أفريقيا. لم تنتشر

هذه اللغات بسبب القضاء على الأهالى الأصليين. ولكنها حلت محلها بسبب التزواج الذى حدث بين القادمين الجدد وأهالى البلاد الأصليين وبسبب تغير شكل المجتمع وحلول طبقات جديدة فيه. أحيانا وجدت الأمم المهزومة نفسها فى قاع المجتمع ومعها اللغات السالفة البائدة. وفى أحيان أخرى - كما حدث مع الكهنة السومريين - وجدوا أنفسهم على مقربة من قمة المجتمع، وهكذا تمكنوا من العيش والنفاذ إلى أعمال البلاد الجديدة فى العصور التالية.

لغة الهنود - السانسكريت - تشابه إلى حد بعيد اللاتينية والإغريقية واللغات الحديثة فى أوروبا. تسمى هذه اللغات - فى مجموعها - اللغات الآرية، وترجع إلى أصل واحد، نشأت فى المنطقة الواقعة بين نهرى الدانوب والدون (بجنوب غرب روسيا) فى وقت ما قبل نهاية الألف الثالثة ق.م. تمكنت الشعوب المتحدثة باللغة الآرية من غزو أراضى تقطن فيها مجتمعات أكثر تعليما وأعمق حضارة وأشد ثقافة منها. ظهر الحيثيون بالأناضول حوالى سنة ١٩٠٠ ق.م. بين جبال كارپاثيا (برومانيا) وجبال القوقاز (بجنوب روسيا) وبعد قليل دخل الميتانيون والهوريون إلى ايران، وغزت قبائل أخرى من الآريين حوض نهر الأنديس (بشمال الهند). فى منتصف الألف الثانية ق.م. دخل الأغريق إلى ميسنى حوالى سنة ١٧٠٠ ق.م. ووصلوا إلى جزيرة كريت حوالى سنة ١٥٠٠ ق.م.، ووصل اللاتين إلى ايطاليا بعد ذلك بعدة قرون (وهذا هو أثر الإريان المثقفين المتحضرين على أوروبا). نشأ الكلت فى ألمانيا فى القرن الثامن ق.م.، وعُرف التيتونيون والصقالبة بعد ذلك الحين. سببت هذه التحركات للبشر انتشار اللغات الآرية. لم تكن تحركات هذه الأقوام على شكل امتداد مستمر بل كانت على شكل انطلاقات تنقل مراكز النشاط والانتشار، خلق كل منها مراكز جديدة لمزيد من الانطلاق ومزيد من الانتشار. ما سبب هذه الانطلاقات؟ ماذا كان تأثير هذا الانتشار وأثر هذه التحركات على الأقوام وعلى لغاتهم؟ فى البداية كان اختراع بلطة الحرب له بعض الأثر. قبيلة الرعيان ذات المقدرة الحربية العالية، التى تتحدث باللغة الآرية الأم ظلت هى الحاكمة لعدة أجيال، وأنشأت طبقة عليا من أبنائها، وتكاثرت وأمتدت لمساحات واسعة. عند بداية نشأة الآريين صادفوا واستوعبوا الأفراد المنهمرين عليهم من أراضى الجزيرة والذين جلبوا معهم بعض الفنون وأدوات الحضارة. أحضر أهل الجزيرة الماشية معهم وجلبوا البرونز. وبعد عدة أجيال قابلت هذه الأقوام الآرية الأناس القادمين من الشرق ومعهم خيلهم، كما قابلوا أقوام جاءت إليهم من الغرب حاملة لهم الدين والفن والتقنية. فى أى مكان حدث هذا اللقاء بين تلك الأقوام؟ بعد تمام اللقيا وحدوث التزواج بين الأقوام المختلفة نشأ جيل جديد يحمل تقنيات جديدة وأفكارا جديدة، وبدأ هذا الجيل فى التوسع والانتشار فى أنحاء المعمورة. لاندرى أين حدث اللقاء الذى تمخض عنه ولادة الجنس الآرى، ولكن

الذى نعلمه أن الأقوام الآريون الجدد تحركوا وهزموا وغزوا كل ما صادفهم من بشر وفتحوا كل ما قابلهم من بلدان، من غرب أوروبا حتى الهند خلال الألفى سنة ق.م. كانوا يتكونون من أسر حاكمة صغيرة، سريعة الحركة، كثيرة التنقل من مكان لمكان، يستخدمون الخيل. كان تحركهم شرقا خلال الاستبس أيسر من تحركهم غربا خلال الغابات. حكموا أقواما من المزارعين المستقرين فى أراضيهم الذين استمروا فى تمسكهم بالأرض ولم يتنقلوا معهم. رغم حدوث بعض من التزواج المختلط، ظلت الأسر الحاكمة تحمل سمات مشتركة واحتفظت بهذه السمات لألف سنة أو ما يزيد. نذكر من بين ما نذكر أبطال هوميروس من الإغريق، والملوك الأبطال من أيرلندة أو الهند، أو شرفاء الرومان. يظهر هؤلاء جميعا كنكور محاربين أقوياء، آلهة، فرضوا بسالتهم الحربية وحكموا بحكومات من شرفاء القوم ونبلائهم.

الحيثيـــون

هم أقوام جاءوا من قبائل غزت وسط الأناضول الجبلى، وأنشأوا اتحادا ثم امبراطورية على الحدود الشمالية للدولة البابلية، وحكمت لألف سنة. نشأت فى هذه الإمبراطورية أقدم مستوطنات زراعية فى العالم، وتغلغل فيها الحرفيون القادمون من بلاد ما بين النهرين وتجار أرض الجزيرة وسرعان ما نشأ مجتمع جديد يحمل كل خصائص هذه الأقوام. فى أسفل السلم الاجتماعى، فى الأساس كان هناك المزارعون (كما كانوا في أرض الجزيرة وفى مصر)، كانوا عبيد الأرض يعملون فى خدمة أسيادهم، وملتصقون بالأرض. وكانت هناك فوقهم طبقة من العبيد المحميين – تبعا لقانون حامورابى – بالقانون وبالملك. فوق أولئك توجد طبقة من سكان المدن من التجار ومن الحرفيين القادمين دائما من الخارج – خاصة من بلاد ما بين النهرين، لأن التجار البابليين والأشوريين كانوا يتاجرون دائما مع الحيثيين. وهكذا نشأت الطبقات فى المجتمع تبعا للوظيفة التى يؤديها الفرد وتبعا لجنسه. بالإضافة إلى هؤلاء كان هناك الأفراد القادمون من الشرق جالبين معهم الخيل، يربونها ويعتنون بها ويدربونها للحرب، وعلى القمة كان الملك يحيط به أهل البلاد الأصليين الذين يعملون فى المناجم، الذين يستخرجون المعادن ويصهرونها وينقونها ويصنعونها، والذين كانوا ينتجون الأسلحة من الحديد للقوات الحربية. اجتمع هؤلاء الأقوام كلهم تحت راية الانتصارات العسكرية التى حققتها تلاحم الرجال الأشداء مع الأسلحة. إلى جانب هؤلاء وجد الكهنة، وهى طبقة تراكبية (يعلو بعضها فوق بعض)، اختلفوا من حيث منطقتهم الجغرافية، واختلفوا بلغاتهم المختلفة وبأجناسهم المتباينة، يقدسون آلاف الآلهة، الذين يكونون اتحادا لابد منه لتوحيد الأمة (كما حدث فى بابل). من مئات

اللغات التى كان يتحدث بها الناس، بقيت تسع لغات، جميعها لغات وافدة قضت على بقية اللغات (وهى نفسها اندثرت باللغات الوافدة الجديدة). تفرقت القبائل الآرية المختلفة (التى تتحدث بلغات مختلفة) فى الأناضول وصاروا حكاما فى الأراضى التى غزوها. سرعان ما تسيدت قبيلة الحثيين على ما عداها من قبائل الآريين وفرضت لغتها على الجميع. تمكنت قبيلة أخرى من فرض إلاهها على الجميع وصار أفرادها هم الكهنة. سيطرت ثلاثة قبائل أخرى على مناطق مختلفة من البلاد، وتمكنت إحدى هذه القبائل – الطاباليك – من استعارة لغة الأقوام التى سيطرت عليهم واختلطت بهم وتناسلت معهم واتخذت كتابتهم الهيروغليفية مع شعار محراث الثور – ونشرت الكتابة التى سميت بالكتابة البوستروفيدونية. اللغة التى غلبت على قبائل الحثيين كلها هى اللغة الحيثية – لغة الكهنة – المقاربة للغة المحلية فى أرض الجزيرة، اللغة الجوريانية (وكلاهما يختلف عن عائلة اللغات السامية وعائلة اللغات الآرية). اللغة الأكادية (وهى من اللغات السامية) هى اللغة الشائعة في أرض الجزيرة. اللغة الأكادية هى اللغة الرسمية للدولة وتستعمل فى الاتصالات الدبوماسية مع البلدان المجاورة، وهى لغة التجارة أما اللغة السومرية وكانت لغة المثقفين والكتبة (الذين صاروا يكتبونها بالحروف المسمارية مثل اللغة الأكادية). أدمجت اللغة الاريانية – داخل بوتقة الصهر هذه – جذور اللغات المحلية وغيرت من أصواتها لتناسب ألسنة الأمم التى كونتها اسم «تابرانز»، هو لقب جميع ملوكهم الذى اشتقوه من اسم مليكهم الأول «لابرانز»، هذا الملك نفسه كان على رأس الطبقة الحاكمة التى تكونت من اتحاد رؤساء الدول الخمسة. كانت العائلة الكبرى مكونة من أفراد العائلات المالكة لهذه الدول، وكان هؤلاء يشغلون المناصب العليا فى المملكة بأسرها ويتزاوجون فيما بينهم، فى زمن الأسرة المصرية الثامنة عشر. وهكذا تكونت طبقة من الأسر المالكة فى ذلك العصر. وصلت إلينا أحداث هذه الحضارة العظمى لأن رؤسائها الأوائل، الذين غزوا الأناضول، قابلوا رجالا مهرة فى قطع الأحجار ويبنون مبانيهم منها. بنى هؤلاء الرجال القلاع التى مازلنا نشاهدها فى عاصمة الحثيين «هاتوساس» أو «بوغازكوى»، كما بنى الإغريق فيما بعد قلعة فى ماى سينى ومعبدا فى أثينا. كرر الآريون هذا النمط فيما بعد، كلما وصلوا إلى حدود توسعاتهم (نشاهد هذا المثال فيما حدث بينهم من منازعات فيما بعد مثل قلعة دبلن والقلعة التى أقيمت فى الكرملين في موسكو). كلما تمثل الآريون بالشعوب التى أخضعوها لسيطرتهم، اختلفت طباعهم وتغير لغاتهم وأنشأوا هم أنفسهم أمما جديدة سعت نحو السيطرة. كانت القلعة الحربية التى ينشئونها هى المركز المتكرر التى يتمثل فيها الغزاة الشعوب الخاضعة لسيطرتهم، بدءا بالمحاربين والإداريين، ومن حولهم أصحاب الحرف والمهن، ثم التجار والمسافرين، وأخيرا المزارعين في الريف المحيط بالقلعة، الذين ضمنوا لهم

الاحتفاظ بأراضيهم التى عشقوها نظير القيام بالخدمات للحاكمين وتزودهم بالمنتجات مقابل التعهد بحمايتهم. من القلعة انتشرت لغة الآريين فيما حولها (سواء أكانت اللغة الحيثية أو اللغة الإغريقية) إلى الشعب الخاضع لسيطرتهم والمعتمد عليهم، والذى تحول تدريجيا إلى أمة جديدة ذات لغة واحد، وديانة واحدة.

الكلت

تعطينا الامبراطورية الحيثية مثالا لجمع مجتمع تكون من مختلف الأجناس، فى أمة واحدة، ذات أثر ناجح ومستمر أدى إلى توسع الشعوب الآرية وامتدادها. من الواضح أن الزمان والمكان والنشاط المتسبب فى هذا الجمع كانت له أسبابه كما كانت له آثاره، وكان له طابع خاص لكل من المجموعات التى توسعت وانتشرت فى الأرض. قابلت القبائل التى غزت الهند مجموعة من البشر يختلفون عرقيا تماما عن الغزاة. ووجدت القبائل التى رحلت شمالا تجاه بحر البلطيق نفسها فى أراضى تكاد أن تكون خالية من البشر، سكانها من العهد الباليوليثى، يرفضون التناسل معهم كما يرفضون التطور، مما أدى إلى نقاء الجنسى الآرى الذى غزا هذه الأماكن وأدى إلى استقرار لغتهم (وعدم تغيرها بالعوامل الدخيلة). أما الصقالبة (الذين نتجوا فيما بعد) فقد تغيرت لغاتهم إلى حد ما قبل رحيلهم إلى الشمال والشرق. كانت الأراضى التى غزوها أراضى منبسطة، ذات مواصلات متيسرة وطرق إتصال سهلة، فاحتفظوا أيضا بوحدة لغاتهم التى غطت مساحة شاسعة من الأراضى (خلافا لبقية الأمم الآرية).

كانت هجرة الكلت (من الشعوب الآرية) أوسع هذه الهجرات وكان انتصارهم أكبر الانتصارات. رحلوا إلى غرب أوروبا بأسرها وتسيدوها، وهاجروا أيضا إلى الشرق وتركوا أسماءهم على أنهار الدانوب والدى والدون (من روسيا إلى انجلترا)، وعلى أقليم الغال، غالاثيا، غاليشيا (من بولندا إلى أسبانيا)، وعلى جبال أبينين (فى إيطاليا)، وجبال ويلز. وتركوا آثارا من مقابرهم فى وسط أوروبا (ألف مقبرة فى هالستات، يرجع عهدها إلى ١٠٠٠ سنة ق.م.)، بالقرب من مصادر الحديد والملح (التى تسمت مدن سالزبورج وهالستات بأسمائها)، وبالقرب من طرق المواصلات التى توصل إلى حوض نهر الدانوب. نشأت فى هذه المنطقة مجتمعات غنية كانت تستورد الحلى ـ البرونز ـ وتلك التى من صنع الفنانين، وقوية بسطت نفوذها على مناطق شاسعة لأن أسلحتها التى كانت مصنوعة من الحديد سهلت عليها التقدم إلى بلاد الشمال. هؤلاء هم الكلت الذى بدعوا الفن الذى عرف باسم التين، والذي نشروه فى بلاد كثيرة، والذين نشروا لغتهم أيضا فى معظم أنحاء أوروبا. جاء هؤلاء الكلت أصلا من الأناضول إلي أعالى نهر الدانوب كتجار وحرفيين وعمال مناجم ثم إلى وسط أوروبا،

حيث وجدوا خام الحديد. اجتمع العمال الذين استخرجوا الحديد من خاماته وصنعوا منه الأسلحة مع المحاربين. وفى القرن الخامس ق.م. توصلوا إلى صنع حدوة الحصان وتبينوا آثارها وأثبتوا قدراتهم الحربية وتوسعوا إلى حين فى الأراضى المجاورة. احتلوا روما سنة ٣٨٧ ق.م.، وانتصروا على ملك مقدونيا بعد مائة سنة واستقروا فى الأناضول فى منطقة جالاتيا ولكن الكلت ظلوا مشهورين بالإنجازات التى حققوها فى الغرب، بنشاطاتهم الزراعية والعسكرية والدينية والفنية. نشأت هذه النشاطات فيما بعد من التحام الطبقات والقبائل ذوات الأصل المختلف الذين خضعوا لقيادة واحدة. كون الكلت مجتمعات عدة انتشرت فى غرب أوروبا وكانت لهم لغات واحدة وصفات واحدة ومعتقدات وديانات واحدة. احتل الحدادون المراكز المرموقة فى هذه المجتمعات، لأن أعمالهم كانت أساس الانتصارات. تغيرت الأقوام الآرية كلما امتدت وكان تغيرها كبيرا كلما اتسعت حركتها. جاءوا بعصر الحديد إلى الغرب، وصلوا إلى أقصى الغرب متأخرين (وقد عاشت لغاتهم حتى الآن فى أقصى الغرب).

أدى رحيل الأقوام إلى اختلاط الأفكار والأنساب، وإلى امتزاج الثقافات والجينات، وإلى سرعة تقسيم المجتمعات إلى طبقات تحيط حكامها من الآريين. أدى هذا الترحال أيضا إلى تعدد اللغات واختلافها لتناسب التطور الذى لحق بالأقوام التى تتحدث بها. يعتبر الآريون هم أول من جلب الحضارة إلى أوروبا من آسيا ومن أفريقيا.

اختلفت اللغات التى تتحدث بها المجتمعات الآرية المختلفة اختلافا يعوق اختلاف تواريخ تلك المجتمعات، وصاحبتها رغبة فائقة باندماج كل لغة من مجتمعها. كانت المجتمعات الباليوليثية – فى أول الأمر – مجتمعات بدائية، لا طبقية، متماثل أفرادها، ومستقرة. لم يكن هناك انقسامات ولا فوارق بين أبنائها، وكانت غير مختلطة بغيرها من المجتمعات، والتوالد فيها مقتصر على بنيها، بدأت لغاتها مستقرة، يستطيع كل فرد أن يتحدث بها بإتقان. ولكن بتقسيم المجتمع إلى طبقات – كما حدث مع الحيثيين – كانت كل طبقة فى مبدأ الأمر تتكلم بلغة مختلفة عن لغات بقية الطبقات، ثم تعلم الجميع تدريجيا الحديث بلغة واحدة. صارت اللغة الجديدة تحت ضغوط متباينة وتحركت نحو توحيد طريقة النطق وتوحيد قواعد اللغة للأمة بأسرها. ولكن استمرت الفروق الطبقية والفروق تبعا لأجناس الأفراد المختلفين داخل نفس الأمة واضحة فى سلوك الأفراد وفى طريقة نطقهم للكلمات وفى أسلوب حديثهم، وهكذا تكونت اللهجات المختلفة لكل جماعة من الناس فى نفس المجتمع. حدث اندماج بطىء لطبقات المجتمع داخل الأمة الجديدة، وهكذا نشأت لغة حوت جذورا جديدة، وبدأت فى حذف أو تبسيط قواعد اللغة، ولكن الشىء الملحوظ كان اختلاف النطق ليناسب أسنان وألسنة الأفراد من

مختلف الأجناس. فُقدت بعض الأصوات، وقل عدد التحويرات التى أصابت الكلمات فى اللغات الآرية الحديثة (كما يتبين من الدراسة العميقة لخريطة أوروبا، حيث تتطابق حدود الهجرة الأخذة فى الاتساع مع حدود فصائل الدم فى البلدان المختلفة). ثبتت لغات الشعوب المتقدمة من التغيير نتيجة دخول الأجانب إليها، ولكن التطور المستمر للغات الآريين واختلافها من منطقة لأخرى فى أوروبا يعكس عدم إستقرار هذه المجتمعات لمدة طويلة.

علمنا مما سبق أن الزراعة بدأت فى جنوب غرب آسيا، وبعد خمسة آلاف سنة كانت التحركات والهجرات فى أوروبا. حدثت هذه التحركات نظرا لثراء الغابات بخامات المعادن، ولكونها مختلفة الأراضى الزراعية، خالية من الأمراض الخطيرة التى تصيب الإنسان، وصارت بعد تراجع الثلوج – صالحة – للوصول إليها عن طريق البحر والأنهار، وأصبح استعمارها ممكنا عن طريق مراكز الحضارة القريبة منها. كان أثر الشعوب المتقدمة واضحا على شعوب أوروبا المتخلفة، الذى حدث عن طريق الهجرة والاختلاط والتزواج، وبالتالي خلق أجناس جديدة، التى تولد عنها مجتمعات جديدة ولغات جديدة، وكان بوسع هؤلاء البشر الجدد الإتيان بتقدمات تقنية فى العالم الهمجى الذين كانوا يعيشون فيه. ما حدث حتى الآن كان الأثر الأولى للعالم المتحضر على العالم الهمجي، ولكن أعقبه ثانيا إغارات الهمج المتوحشين على الدول المتحضرة التى أتت لهم بالحضارة إلى ربوع أوروبا. استمرت أوروبا لمدة ثلاثة آلاف عام عرضة لغارات من الغزو المتكرر، وقد تسببت هذه الاعتداءات المتتالية إلى استمرار حدوث التقدم والتطور فى أوروبا – الشىء الذى لم يحدث فى بقية القارات؛ وهكذا توقف التطور الحضارى لها على ما هو عليه.

الإغـــريـق

وصل المزارعون الأوائل إلى بلاد اليونان واستقروا فى سهول تسالى فى الألف السابعة ق.م.، ولايعرف إن كانوا قد التفوا حول شواطىء تركيا من الأناضول أو عبروا بحر إيجة بالقوارب. ظهر المستعمرون الأوائل أول ما ظهروا فى شرقى جزيرة كريت ثم توغلوا فى الداخل إلى كنوسوس حيث بدءوا بناء منازلهم من اللّبن مرارا وتكرارا لآلاف السنين (وعملت بقايا هذه المساكن تلا من الطمى يبلغ عمقه ثلاثون قدما تحت أساس أول قصور مينوس الذى يرجع إلى ٢٠٠٠ سنة ق.م.). السكان الذين استعمروا جزيرة كريت للمرة الأولى لهم ارتباطات بالأناضول، وكانوا يشترون المحاصيل منها ويستوردون الحيوانات، كما استوردوا إلاهاتهم منها. كما كانت لهم ارتباطات بفلسطين وتعلموا من أهاليها صناعة الفخار، وكان اتصالهم بأرض اليونان قليلا ومتقطعا. بعد تحسن صناعة السفن، وبدء

بنايتها بواسطة الفينيقيين بعد مجيء البرونز، صارت السفن الجيدة تبني بوفرة خاصة فى مدينة أوجاريت – على الساحل اللبناني. جلبت هذه السفن أعدادا متزايدة من البشر إلى شواطىء جزيرة كريت. أول من حضر كان بناءو السفن الذين اجتذبهم الغابات فى الجزيرة (أشجار السرو والأرز التى غطت الجبال) وكان ثانى الوافدين هم الملاحون الذين اجتذبهم أمن الموانى الشمالية والجنوبية بالجزيرة. مكن هؤلاء المستعمرون الجدد من تزايد الروابط بين كريت وبين موانى أوروبا وآسيا وأفريقيا. بعد قليل تحولت كنوسوس إلى زهرة مدائن البحر المتوسط. ارتبطت كريت بمصر خاصة، وتبادلت معها التجارة، وتتضح آثار هذا بالارتباط فى الحفريات التى كشفها سير أرثر إيفانز والتى تدل على أن الآثار المينوية القديمة والمتوسطة والحديثة تقابل المملكة القديمة والمتوسطة والحديثة فى مصر. تركت جميع الغارات التى ارتبطت بكريت، وجميع البلدان التى اتصلت بها آثارها على الحياة والثقافة والحضارة وعلى السكان بكريت. عمل الكاريانيون (من جزر بحرإيجة) كملاحين على السفن الكريتية، وأرسل أهالى بعلبك النجارون والكتبة إليها، وزودهم أهالى ليبيا بالرجال الأشداء كمحاربين (كما فعلوا مع مصر). نستطيع أن نشاهد التأثير الأفريقى الذى حدث فى النساء عاريات الصدور وفى أغماد الأسلحة الليبية كما نستطيع أن نشاهد فى الفن، بروحه المرحة، التى لم تشهدها أوروبا ثانية إلا في عصر الباروك. جلبت الحضارات العظيمة المجاورة لكريت حكامها وكهنتها. أولى هذه الحضارات كانت من اللاجئين المصريين، الذين فروا من مصر بعد الحرب الأهلية إبان عهد إخناتون. إتى هؤلاء اللاجئون بأسماء آلهة المصريين (الذين استقروا بعد ذلك فى اليونان) وطقوس العبادات وأساليبها التى سادت العصور الكلاسيكية فى العالم بعد ذلك. الأسر الحاكمة التى أعقبت ذلك لها ارتباطات بالفينيقيين وبأهل الأناضول. فى قاع المجتمع قبع الفلاحون والرعاة، أول من استعمر جزيرة كريت (الاتيوكريتانز فى الأودية والبيريوكوى كما سماهم أرسطو فى السياسة). اختلفت اللغات التى يتحدث بها أهالى كريت لمدة طويلة حسب الطبقة التى ينتمى إليها أفراد كل طبقة (كما حدث فى امبراطورية الحيثيين). كان لإنجازات الحضارة المينوية فى بداية الألف سنة الثانية ق.م. أثرا فى تطور جزيرة كويت وفى تطور باقى دول حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد وصلت آثار هذه الحضارة إلى المحيط الأطلنطى حتى جزر الكناريا فى الجنوب وحتى الجزر البريطانية فى الشمال. تحول البحر الذى كان عائقا للاتصالات إلى وسيلة للاتصالات، وصار البحر أسهل طريق لتنقل البشر. لم يعد البحر حاميا من الغزو، بل صار ينقل الغزاة إلى ضحاياهم.

لعبت أشجار الزيتون دورا فعالا فى تطور البحر الأبيض المتوسط. شجرة الزيتون البرية هى شجيرة صغيرة ذات أشواك، كانت تنمو على شواطىء سوريا والأناضول فى الألف سة السادسة ق.م. لاحظها فى أول الأمر المزارعون النيلوثيون، ثم تبين بعضهم – ممن يجمعون ثمارها – أن هذه

الثمار غنية بالزيت، وأنه يمكن الإكثار منها بغرس العقل من فروعها. بدأت القبيلة التى كشفت عن هذه الظواهر فى زرع أعداد كبيرة من أشجار الزيتون الضخمة ذات الثمار الكبيرة. ثم غرس هذه الأشجار بصورة جماعية وبدءوا بنشر زراعتها على نطاق واسع، وحصلوا بالتدريج على الأشجار الباسقة، الخالية من الأشواك ثم تنوعت أصناف أشجار الزيتون إلى مئات الأصناف التى يجرى زرعها حاليا فى البلدان المختلفة فى حوض البحر الأبيض المتوسط. حوالى الألف سنة الرابعة ق.م. حمل أهالى بعلبك هذه الشجرة – مصدر الرزق الوفير والتقدم الحضارى الممتد – إلى جزيرة كريت، التى تناسب أراضيها الكلسية وهواؤها المالح ازدهار زراعتها، وساعدت تجارة كريت الواسعة على انتشار زراعتها وتحسين سلالتها (وتشهد أوانى قصرى كنوسوس وفايستوس على انتشارها فى الألف سنة الثانية ق.م.) تم قطع أشجار غابات البحر المتوسط وتحولت أراضى الوديان الخصبة إلى أراضى زراعية، ولكن أشجار الزيتون غرست على سفوح الجبال (ومازالت حتى عصرنا الحالى مغروسة فى تلك الأراضى التى لاتصلح لزراعة المحاصيل الزراعية). كان زارعو تلك الأشجار فرحين لعدم احتياجها إلا لأقل القليل من المياه، وهكذا كان شجر الزيتون يعتبر هدية من الآلهة للبشر. لمدة ألف عام، من ٢٥٠٠ – ١٥٠٠ ق.م. كانت الحضارة مزدهرة فى كريت. كانت جزيرة ثرية، مستقرة (إلا من حدوث بعض الزلازل بها)، تصدر الأخشاب وزيت الزيتون إلى مصر: بقطع أشجار الغابات وإحلال غرس أشجار الزيتون محلها. صارت جزيرة كريت أهلة بالسكان، فى الألف سنة الثانية ق.م.، وكانت تعتمد على أرباح التجارة فى العبيد الأفارقة، والنحاس من قبرص والذهب من النوبة، وصارت تستورد الطعام عبر البحار الآمنة لكفاية حاجة سكانها. انتقلت الحضارة تدريجيا، متتبعة خطوات الفأس ثم المحراث ثم الزيتون نحو الغرب ووصلت أولا إلى بلاد اليونان.

فى نهاية أيامها خلت جزيرة كريت من الأخشاب المحلية، وعندما أتى الغزاة إليها، أخضعوها أولا لحكمهم ثم نهبوا ثروتها قبل تحطيمها، ولم تقم لها قائمة بعدها فى التاريخ. هرب الأمراء وحل محلهم القرصان. بقى الأهالى الأتيوكريتانز، منتظرين قدوم الغزاة الجدد. وهكذا صار مركز الحضارة فى العالم القديم ليس له محل فى زمن الحروب التالية. صار مركزا فقيرا لاحول له ولاطول. فر المثقفون – كما سبق أن فروا من سومر وفر الكهنة والفنانون والملاحون إلى أماكن أخرى فيها متسع من العيش لهم وإلى حيث يجدون المأوى. وإلى الآن تجد أحفاد أهالى كريت العظماء فى أمكنة كثيرة من العالم يتحدثون باللغة اليونانية أو التركية أو العربية أو غيرها من اللغات.

بعض القبائل الإيرانية تحركت نحو الجنوب فى بداية الألف سنة الثانية ق.م. ودخلت للأناضول وكونت ممالك الحيثيين واللاويين وغيرها من الممالك. بعض اللاويين تركوا الأناضول واخترقوا سهول تسالى إلى وسط الأراضى اليونانية وتركوا لنا بعض الأسماء الشهيرة مثل كورينث وبارناسوس

(بارنا فى لغة الحيثين تعنى بَيْتا). استقرت بعض القبائل الأخرى فى مناطق محددة مثل أتيكا وأيونيا وشبه جزيرة المورة وأركاديا وأيوليا، وخلال الألف سنة التالية كون المستعمرون دولا مختلفة وشعوبا مختلفة فى الأماكن التى استقروا بها، وكونوا طبقات مختلفة، واندمجوا بطريقة أو أخرى مع الفلاحين المحليين ومع المهاجرين الجدد الذين أتوا إليهم من الشرق والجنوب. وقد نشأ الخلاف بين أثينا وإسبرطه – فيما بعد – من تأثير هؤلاء الوافدين. وصل الغزاة الجدد إلى اليونان بالبحر من الشرق، وصلت جماعة بقيادة كادموس وأسست مدينة طيبة (المكان الذى ارتبطت به أسطورة أوديب). دخلت جماعة أخرى من الفينيقين وأحضرت معها أسماء فينيقية – أسماء آلهتها وأبطالها – وقطنت مدينة كورينث التى تم تأسيسها منذ ألف سنة من الزمان. ربما تكون أول الجماعات التى وصلت إلى بلاد اليونان هى التى دخلت إلى خليج نوبليا وأسست أول مدن اليونان، والتى عرفت باسم أرجوس لدى اليونانيين. هنا تم بناء قلعتى مايسينى وتايرينثوس فيما بعد لتشرفا على الوادى وتضمن خضوع اليونان لملوكها. يدعى مستعمرو أرجوس أنهم مصريون (وقد يكونوا من اللاجئين من الهكسوس بعد طردهم من مصر حوالى سنة ١٥٧٠ ق.م. عندما طردهم أحمس وحرر دلتا النيل وأسس الأسرة الثامنة عشر المصرية). قد يفسر هذا سرعة نمو الحضارة الحقيقية فى منطقة أرجوس فى حوالى ١٦٠٠ ق.م. دخلت نظم الإدارة، وبدأت الكتابة، وانتعش التجار والبناءون فى أرض اليونان الرئيسة فى المنطقة التى ترسو فيها السفن الآتية من الموانىء المصرية. كانت هذه المنطقة قد سبق سكناها بالمزارعين والمحاربين القادمين من الشمال (بتأمل الأسوار العالية لقلعة أجاممنون وبتأمل مبانى القبر يتضح كيف كان البناءون متقنين لصنعتهم). بعد نحو قرن أو قرنين من الزمان هدد الغزاة الآتون من هذه الممالك الميسينية حكام كريت وجزر بحر إيجة المينويين الذين أدخلوا لغة الإغريق الآرية للجزيرة، تلك اللغة التى كانت تتحدث بها الطبقة المالكة فى قصور كنوسوس فى كريت، وفى بيلوس فى شبه جزيرة المورة وفى طيبة وفى بيوتيا والتى كتبت بحروف جديدة. هذا التوحد الذى انتشر فيما بعد وأكده هوميروس. نمو الحضارة المسينية الذى حدث فى أراضى اليونان وفى جزيرة كريت يعاصر الحضارة التى ظهرت فى لبنان (ووجدت آثارها فى أوجاريت، تلك الميناء الخالدة على شاطئ الشام)، وهكذا نلاحظ للمرة بعد المرة أن الحضارات تنشأ من تزاوج مهارات مختلف الشعوب. نشأت الحضارة الإغريقية هذه المرة من تفاعل إنجازات التجار المينويين، مع الكتبة الميسينيين، والبنائين والحرفيين والفنانين المصريين، والملاحين من جزر بحر إيجة، وبناة السفن والكهنة الفينيقيين. أسهمت كل جماعة فى أصول تلك الحضارة الناشئة (وإن احتفظت لوقت ما بنقائها الجينى وبتقاليدها). تعلمت مختلف الجماعات من بعضها البعض (وإن احتفظت لوقت ما

بلسانها السامى والذي كان يعتمد عليه المجتمع فى اكتساب الثقافة والمعرفة). حكمت طبقة مسينية – أراضي اليونان نفسها، وكانت ذات أصل متفرع من الجذور العرقية، وإن كان أقل تفرعا من المينويين الذين أزاحوهم وحلوا محلهم. تغلغل الأشراف، والتجار، والحرفيون من الشرق القديم بلاد اليونان واختطلوا بالفلاحين اليونانيين (الذين جاءوا أصلا من الشرق القديم). الفرق الوحيد هو أن هؤلاء الغزاة الجدد كانوا من المحاربين من الجنس الآرى (بينما كان الأقدمون من المزارعين)، ولبثت الحضارة الإغريقية القديمة فى أرض اليونان لتسعة قرون فى الألف سنة الثانية ق.م.

الغزو الدوريانى

حدثت الغزوة الثانية الكبرى للجنس الآرى على مدى جيلين ابتداء من عام ١٢٥٠ ق.م.، وتوّجها غزو مصر عام ١١٩١ ق.م. اندفع الأريون الجدد بعنف لغزو الشرق القديم. أتى الغزاة الجدد من شمالى البلقان واندفعوا إلى البحر الأبيض المتوسط. اخترقوا الأناضول ودمروا دولة الحيثيين وكونوا دولتهم التى نعرفها باسم فريجيا ثم غزوا أواسط وجنوب بلاد اليونان وهاجموا مصر ودحرهم المصريون، ثم غزوا ساحل الشام الجنوبى واستقروا فى فلسطين (وأعطوها هذا الاسم)، ثم أنشأوا مستعمرات فى جزيرة كريت وفى ليبيا وصقلية وإيطاليا. كان هؤلاء الإريان، من بقايا أهالى الأناضول وأهالى جنوب البلقان الذين سبق وهزمهم الغزاة الآريون، ممن لهم معرفة بالبحر، وهكذا أمكنهم تحقيق هذه الإنجازات البحرية. شرذمة أخرى منهم – فى تاريخ لاحق – أسسوا حضارة تتكون من اتحاد لولايات في شمالى ايطاليا، تعرف باسم «الإتروسكان». يتضح مظهر هذه التحركات فى البر والبحر عند دراستنا للأقوام التى غزت اليونان. يطلق اسم «الدوريان» على المحاربين الذين استقروا فى شبه جزيرة المورة واحتلوا كورينث وأسسوا إسبرطة. دمروا مايسينيا ثم عبروا البحار وهزموا جزر كريت ورودس. استمرت هذه الأحداث العظيمة على مدى قرنين. هرب معظم المهزومين إلى أتيكا أولا ثم إلى خارج البلاد، ولكن تبنى بعض هؤلاء المحاربين بعضا من ذراريهم الذين كانوا من أصل ميسينى أو مينوى، والذين ترجع أصولهم البعيدة إلى الفينيقيين، كذلك تبنى المحاربون الغزاة كهنة أبولو فى دلفى كمرشدين لهم وناصحين. وهكذا تغير تركيب الغزاة الفاتحين من الدوريان بواسطة الشعوب التى انتصروا عليها، ويرجع تقدمهم فيما بعد إلى تلك التغيرات التى أحدثها فيهم من تبنوهم ومن استمعوا لنصحهم وإرشاداتهم. يرجع تقدمهم أولا إلى تفوق أسلحتهم وحسن تدريبهم لخوض الحروب، ولكن يعود استمرار تقدمهم فيما بعد إلى التهجين مع من غزوهم وإلى التعليم الذى تلقوه على أيدى الكهنة الذين – ترجع أصولهم إلى أقدم حضارات التاريخ. انقسم

مجتمع الدوريان إلى طبقة عبيد الأرض الذين أخضعوهم لسيادتهم فى سهول لاكونيا الخصيبة (والذين قسموهم إلى أرقاء الأرض وأرقاء الأسر)، وإلى طبقة الرعاة الذين كانوا يعيشون فى التلال، وإلى طبقة الأغراب الذين يقطنون المدن، إلى جانب الأرقاء الخصوصيين. وفوق هؤلاء جميعا الأمراء ومنهم كان يُختار الملوك.

أدى الغزو الدوريانى إلى احتلال معظم أراضى اليونان، وإلى هروب بعض المهزومين، بعضهم لجأ إلى الجبال وبعضهم هاجر إلى خارج البلاد. بعض الزعماء الميسينيين لجأوا إلى الصلح مع الغزاة الدوريان. بعضهم تولى الحكم فى اسبرطة (الهرقليون)، وبعضهم فر مع قومه إلى أتيكا (كودروس) ثم تحالف من الأثنيين لطرد الغزاة. بعض النبلاء أخذ على عاتقه تنظيم الهجرة عبر بحر إيجة. أول المهاجرون جاءوا من الأراضى التى تم احتلالها فى أول الأمر (جنوب شسالى)، الأليان. بدءوا رحلتهم سنة ١١٣٠ ق.م. إلى وجهة مجهولة، وبعد تجوال بين الجزر الشمالية للبحر حطوا فى شاطىء طراودة، ثانى المهاجرون جاءوا من أثينا – بعد أن هزم الأيثينيون بقيادة كودروس الغزاة، الأيونيون. شيد هؤلاء اثنا عشرة مدينة أشهرها إيفيس، ميليتس، وفوكيا. ثالث المهاجرون كانوا الدوريان أنفسهم الذين استقروا فى كريت وروِدس وكوس. ولكن الدوريان لم يكونوا ملاحين، ولم يكن لديهم سفن، وقد تكون مستعمراتهم الجديدة نتيجة جهد مشترك وحدثت بعد انتصارهم على اليونان ببضعة أجيال، بعد أن بدأوا يتعاونون مع البحارة من أهل البلاد الأصليين التى استعمروها.وهكذا عكست هذه الهجرات الثلاثة اتجاه الهجرة عبر بحر إيجة الذى حدث خلال الثلاثة آلاف سنة المنصرمة. حدثت موجات الهجرة هذه بعد تفسخ القوى العسكرية السابقة وتحطم دولتى الحيثيين والميسينيين. أخذت هذه الهجرات شكل غزو ثم احتلال الجزر ومن بعدها الشواطىء الساحلية، التى كان يسكنها الإغريق ومن قبلهم من الأقوام: الميسينيون والفينيقيون والكاريانيون والليديون. كان على الغزاة الجدد التعاون مع النبلاء الميسينيين وعلى أسلحتهم الحديثة والجيدة والفعالة: السيف الحديدى وشفرة المحراث الحديدية. نشأت حوالى عشرين مدينة جديدة بعضها نتيجة الصراع وبعضها ثمرة التعاون. نشأ كل مجتمع جديد من اندماج أجناس مختلفة، يتحدثون بألسنة متغايرة ويتعبدون لآلهة متباينة. كان لكل مدينة منشؤها، الذى توارث أبناؤه وذريته الحكم من بعده واتخذوا لأنفسهم ألقاب الملوك أو الكهنة، واستمرت هذه العائلات تتمتع بمراكزها ونفوذها لعشرين أو ثلاثين جيلا توحدت فيها تلك المدن تحت حكمهم. لم يأت الأيونيون بنساء معهم من أثينا، ولكنهم – بعد احتلالهم للبلاد وسيطرتهم على شئونها – تزوجوا من بنات الكاريانيون، الذين سبق لهم قتل أبائهم، ومن نسلهم جاء الملوك الجدد الذين تولوا حكم البلاد. صارت المستعمرات الجديدة التى انتشرت

على ساحل الأناضول هى أول مستعمرات إغريقية خارج أراضى اليونان. شملت تلك المستعمرات الثغور الفينيقية والميسينية السابقة التى كانت تستخدم كمراكز تجارية ذات الأسواق الزراعية الداخلية، التى جعلت تلك المستعمرات تكفى احتياجاتها ذاتيا. كانت كل مستعمرة تأخذ فى النماء المطرد حتى تكون لنفسها مستعمرة أخرى بعد جيلين أو أكثر وهكذا. ازدادت الهجرة تباعا وازداد استعمار الأراضى الزراعية المجاورة لتلك المستعمرات، ولكن استمر المزارعون متشبثين بالأرض ولا يغادرونها.

فى منتصف القرن الثامن ق.م. توقفت الحروب بين المدن اليونانية المختلفة فى أرض اليونان نفسها، وعلى أثر هذا عم الرخاء أرض اليونان والجزر اليونانية والمستعمرات اليونانية على الشواطىء الشرقية لبحر إيجة. ولكن قطع الأشجار على سفوح التلال كان له نفس الآثار التى حدثت فى جزيرة كريت فيما قبل. لم تقل الاستثمارات ولكن حدثت زيادة فى عدد السكان بعد التوقف عن الحروب وازدادت الهجرة للخارج، طواعية أوكرها. إزدادت القرصنة فى البحار، خاصة بين أهالى جزيرة كريت. تشير هذه الحقبة من التاريخ إلى انتعاش التجار (وهكذا انتشرت الأسواق الكبيرة فى الموانى خاصة فى الأناضول وفينيقيا وفيما بعد فى مصر) ونشأت فى تلك الموانى الأحياء الإغريقية، التى ارتبطت ببعضها البعض. اختلط الفنانون والحرفيون الإغريق - فى هذه الأسواق - مع نظرائهم من الفنانين والحرفيين المصريين والفينيقيين والبابليين والفرس. تبادل الجميع الأفكار والمهارات وتزاوجوا - لحد ما - مع بعضهم البعض. بدأ الفنانون والحرفيون من الشرق القديم فى الهجرة إلى بلاد الإغريق فى الغرب، وهكذا كان المد مستمرا فى كلا الاتجاهين. صار الإغريق «يستشرقون»، كما صار أهالى الشرق «يستغربون» بدءا بطبقات الحرفيين. كان ما يستقبله الإغريق من حضارات الشرق القديم، يصدرونه إلى بلاد الغرب البعيدة. رحل الإغريق إلى جميع موانى البحر المتوسط واستقروا فى سواحل البلدان المتخلفة فى غربى البحر الأبيض المتوسط. كان الرحل من الإغريق رجالا متقدمين متحضرين بوسعهم نقل جميع أسس الحضارة ومكوناتها إلى مجتمعاتهم الجديدة. كانوا يختارون الأماكن التى سبق لأسلافهم من الميسينيين أو من الفينيقيين استطلاعها والاستقرار بها، كما ذهبوا إلى أماكن قليلة السكان لاينازعهم فيها أحد. كان كاهن مدينة دلفى هو الذى يختار لهم تلك الأماكن، وكان المستعمرون ذاتهم يتم انتقاؤهم نتيجة النصح والمشورة. كان يقودهم النبلاء من المعاصرين مع حاشيتهم من المحاربين التى كانت تشمل البحارة والملاحون والتجار والفلاحون والحرفيون بنسب تحدد حسب المكان الذى سيتوجهون إليه. بعد استقرارهم ونجاحهم فى المستعمرات الجديدة، كان يتبعهم المديرون والمحامون والفنانون. كانت الهجرة تشتد إلى تلك المستعمرات الجديدة كلما صادفهم النجاح أو كلما حدثت مصيبة بأرض اليونان، كما حدث فى

القرن السادس ق.م. عندما وصل الفارسيون إلى بحر إيجة. كان مستقبل كل مستعمرة يعتمد على نمط التوالد بين المستعمرين الإغريق وأهالى البلاد الأصليين، وكان هذا يتوقف على صفات الإغريق وصفات أهل البلاد. كانت بعض المستعمرات خالصة من جنس واحد (مثل اسبرطة التى كانت خالصة للمحاربين الدوريان) بلا مزارعين ولا رعاة معهم. ولكن فى برقة اختلط الليبيون مع الإغريق وفى صقلية اختلط معهم الفلاحون.

يوضح احتلال برقة مثالا حيا لكيفية نشأة المستعمرات الإغريقية. بدأت أولا بهجرة الإغريق من إحدى الجزر التى ازدحمت بالسكان – جزيرة ثيرا التى كان يقطنها الدوريان، ثم تبعها غزو قاده ملك ميسينى بنصيحة من كاهن دلفى، مفادها أن الكهنة علمت أن المزارعين الإغريق سوف يلاقون نجاحا فى هذه المستعمرات الجديدة، وقد تحققت تلك النبوءة. كان الامتداد العمرانى قد حمل طرق الزراعة الحديثة إلى هذا المكان من شمال إفريقيا وامتد غربا، حيث اقتلع البربر الغابات من الجبال واستنفدوا مصادر المياه الشحيحة فى ليبيا، التى تحولت إلى أرض لرعى الغنم والماعز. عندما حضر الإغريق إلي ليبيا رحب بهم الليبيون، حيث أنهم قدموا للبلاد بلا غنم ولا ماعز معهم. أتى الإغريق إلى ليبيا بمهارات هندسية لخزن المياه وضبطها، نشأ عنها تحسن المحاصيل الزراعية، وأحضروا معهم الزيتون. تزوج المستعمرون الجدد فى أول الأمر زوجات ليبيات ونتج عن هذا الزواج جنس مختلط تأقلم مع الحياة فى تلك البلاد. وبعد قليل بدأ الدوريان يعاملون أهل البلاد كطبقة أقل منهم (كما يعاملون الرعاة فى بلاد اليونان نفسها). بعد حين تزوجت أميرة من البيت المالك فى ليبيا من الفرعون المصرى أمازيس، من الأسرة السادسة والعشرين. وبعد وقت طويل انتصر الفرس على هذه المستعمرة الإغريقية، التى انتعشت وزاد ازدهارها عام ٥١٥ ق.م. كثير من المدن اليونانية القديمة فى برقة ماتزال معنا حتى الان، رغم فقر البلاد الحالى وتدنى مستوى مصادرها الاقتصادية.
تم إنشاء مئات من المدن الإغريقية على الشاطىء الشمالى للبحر الأبيض المتوسط وعلى سواحل البحر الأسود ومازالت باقية حتى اليوم، ومنها مدينة نابولى والقسطنطينية (استامبول) التى مافتئت مكتظة بالسكان الآن كما كانت سابقا. بعضها كان مدنا صغيرة (مثل مدينة كيرازون التى اشتق من اسمها الكرز)، وبعضها نما وترعرع وبلغ شأوا عظيما مثل ماساليا (التى تعرف الآن باسم مارسيليا) فى أقصى الغرب من الساحل الشمالى للبحر المتوسط والتى تم إنشاؤها عام ٦٠٠ ق.م. كانت أول هذه المدن هى مدينة فوكيا (وهى مستعمرة أوليانية على الشاطىء الشمالى لسميرنا (والتى أدى تدميرها على يد الفرس عام ٥٣١ ق.م. إلى وقف حركة إنشاء المستعمرات الإغريقية) صارت مساليا بعد قليل مركز إشعاع لكثير من المستعمرات اليونانية التى أنشأت حولها، كما توغل التأثير الإغريقى عميقا داخل الأراضى الفرنسية ونشأت حضارة عميقة لم يتم الكشف عن أسرارها

حتى اليوم، حضارة نتج عنها اندماج فنون هالستات وفنون لاتين الهمجية مع فنون العالم المتحضر، وكانت النقلة الثانية من النقلات الخمسة الكبرى التى انتجت الشعب الفرنسى. فى كل هذه المستعمرات حدث تزاوج مشترك بين اليونانيين الوافدين وبين أهالى البلاد الأصليين. تزوج أفراد كل طبقة من أفراد الطبقة المماثلة لها. احتفظت تلك المستعمرات بنمطها وكيانها الإغريقى، ولكن - نتيجة لهذا التزواج - امتد التأثير الإغريقى إلى سائر الأقوام ومازال الدم اليونانى يجرى فى عروق أفراد الشعوب حتى الآن، فى مدنها، وفى بلادها، خاصة فى الموانى الممتدة على سواحل البحر الأبيض المتوسط التى تعتبر امتدادا لتلك المستعمرات الإغريقية القديمة. وهكذا وحد البحر بسفنه بين أعراق وثقافة تلك المجتمعات.

عندما يتلاقى مجتمعان، مقسمان إلى طبقات اجتماعية، نتيجة الاتصال التجارى أو النصر فى الحرب، تتفاعل طبقات المجتمع المختلفة، بطرق مختلفة مع الأحوال التى جدت ومع الظروف الحديثة التى نشأت من هذه اللقيا. تتنافس - فى التو واللحظة - مختلف الطبقات، ويؤدى هذا التنافس إلى غاية واحدة. يبلغ هذا التنافس أقصاه في قمة المجتمع، لأن عليه يعتمد الموت أو الحياة أو الزواج والاندماج. فى المعتاد يتم قتل الرجال من الطبقة العليا من المجتمع أو يتم طردهم خارج البلاد (فهؤلاء لايمكن أن يستعبدوا ويصيروا رقيقا). مثال ذلك بعل، ملك صور، الذى طرده الأشوريون بعد انتصارهم، فأبحر غربا مع ابنتيه ديدو وأنا عام ٦٦٦ ق.م. ليصل إلى مدينة قرطاجنة (أو لينشأها) ثم يصير حاكما لها. هكذا يتم طرد نساء هذه الطبقة أحيانا، ولكنهن غالبا ما يتخذن كزوجات للمنتصرين (أو كجوارى رقيق للمنتصرين ويصرن عشيقات لهم كما حدث مع نساء طراودة). تتكون الطبقة الثانية من المجتمع من الكهنة، حاملى الأسرار المقدسة وحافظى تلك الأسرار. بعد قليل يتزاوج أفراد هذه الطبقة مع أفراد العائلة المالكة ومع النبلاء الذين تشابكت مصالحهم معهم (كانت الدماء مختلطة تماما بين هاتين الطبقتين فى أصول الإغريق)، لأن الكهنة - مثلهم فى هذا مثل الملوك والنبلاء - كانوا يرجعون فى أصولهم إلى الدم الإريانى المختلط بالدماء الشرقية، وعندما عاون كاهن دلفى على دخول الدوريان - كما سنرى فيما بعد - كان هذا ضمن عملية الاندماج. الطبقة الثالثة من المجتمع كانت طبقة الكتبة، التى تسجل ما يعمله البشر عندما التقى الغزاة الشماليون الطبقة المثقفة من الشرقيين حدث صراع بينهما على المصالح. كان هناك الكهنة الميسينيين الذين، احتموا بالملوك الآريين وصاروا من أتباعهم، بينما الطبقة المثقفة من كريت من الكتاب والحرفيين المهرة صاروا في حماية كبار الموظفين الآتين من المشرق. لم يحدث صراع بين هاتين المجموعتين فى أول الأمر، ولكن فى نهاية تلك العصور المظلمة عندما ظهر شعراء مجيدون بين الشماليين، بدأوا فى كتابة أشعارهم على أوراق البردى التى يصنعها الجنوبيون (وهكذا وصلت

إلينا تلك الأشعار)، واختفت تدريجيا الأبجدية الفينيقية (أول من اخترع حروف الكتابة)، وازداد عدد الحروف المتحركة وظهرت حروف الكتابة الإغريقية التى مازلنا نعرفها حتى اليوم. كذلك عندما تفرق سابكو الحديد، بعد سقوط الحيثيين، استقبلتهم بالترحاب الأمم التى لم يكن لديها صناعة برونزية متقدمة، وصنعوا لهم أسلحة من الحديد، التى وضعت فى أيدى المحاربين الهمج غير المتحضرين، الغزاة القادمون من الجبال - من الأشوريين والفرس ـ هم الذين اجتاحوا البابلين الذين كانوا يحاربون بأسلحتهم القديمة. كذلك استطاع الدوريان القادمون من الشمال بسيوفهم الحديدة اجتياح الحضارة الميسينية بثرائها وثقافتها، وتركوا لنا تاريخ هذا الاجتياح فى بيلوس وكنوسوس، مكتوبا بيد الكتبة المثقفين، لابيد الشعراء الهمجين. الطبقة الرابعة من المجتمع هى طبقة الفنانين، المسئولين عن التصميمات، والحرفيين المسئولين عن تقنيات الصناعات. تلك الطبقة كانت هى الناقلة للأفكار من بلد إلى بلد، خاصة من مصر إلى فينيقيا وكريت وميسينيا. لم يلاقى أفراد هذه الطبقة أى مقاومة في البلاد التى رحلوا إليها. ولكنهم اضطروا إلى اتخاذ سادة جدد فى تلك البلاد، وصاروا لا يظهرون إلا الآراء والأفكار التى يرضى عنها أولئك السادة، الذين يقلون عنهم فى الثقافة وينخفضون عنهم فى مستوى الحضارة والمدنية. وهكذا كانت هجرة الفنانين تؤدى عادة إلى تدهور فى مستوى الفنون. كان تفكك المجتمع بعد الغزوات الكبيرة التى تعرضت لها البلاد يؤدى إلى تحرر الطبقة العاملة وهجرتها إلى كافة الأماكن التى نشأت فيها مجتمعات إغريقية، حيث كونوا «الأنتلجنسيا»، أو الطبقة المفكرة التى قادت تلك المجتمعات، وبعثرت الحضارة الميسينية فى بلاد العالم المختلفة. حدثت حركات من حرية التعبير فى القرنين الثامن والسابع ق.م.، ونشأت عشرات من المدن الإغريقية، لكل منها نظامها الخاص، وجرى الحكم فيها بالمناقشة الحرة وليس بتوارث العروش ابنا عن أب عن جد. كان المجتمع يحكم بواسطة ملك يحيط به الناصحون والمستشارون من النبلاء ويوافقهم (أو يعترض عليهم) عامة الناس، وكانوا فى هذا يختلفون عن كل نظم الحكم التى عرفها البشر فى البلاد السابقة أو المجاورة. ولكن أثبتت الحرية والاختلاف أنهما نظامان لايمكن لهما أن يدوما. فقد دفع التنافس الداخلى بين المدن المختلفة، وأدت الضغوط الخارجية إلى اهتزاز النظامين، السياسى والدستورى. تقدمت الكتابة وتناقصت الهجرة (وبالتالى الزواج المختلط بين الأجناس المختلفة) مما أدى إلى جمود السياسات والأوضاع الاجتماعية، والأفكار الدينية، والتطور العقلى. حدث كل هذا فى نفس الوقت وأدى إلى اختلاف سرعة التطور وتباين النتائج فى كل من إسبرطة وأثينا.

نشأت دولة إسبرطة حوالى سنة ٨٢٠ ق.م.، وخاضت حروبا طويلة فى شبه جزيرة المورة حتى عام ٤٠٤ ق.م.، عندما تحقق لها النصر فى النهاية وتسيدت على كافة بلاد اليونان. وضع دستور البلاد، بواسطة ليكارجاس، رجل القانون، وشرحه ارسطاطاليس فى كتابه السياسة. من المعتقد أن

أهل إسبرطة نسجوا قانونهم هذا على المبادىء التى وضعها المينويون فى كريت، ومن الواضح أن الدوريان قد أدمجوا أفكار الأمم التى غزوها فى ثقافتهم خلال سنوات الاحتلال التى بلغت مئتين من السنين. النظام الذى بدعوه قضى على الحروب التى لاتنتهى فى العهود السابقة. بنى النظام على السلطة المطلقة لطبقة المحاربين. لم يقم النظام على سلطات الأسرات المختلفة بل انتظم فى سلطة الدولة التى توغلت إلى كل طبقات المجتمع. كان المحاربون – وزوجاتهم – يتم انتقاؤهم منذ ولادتهم – بناء على قدراتهم الجسدية ثم على خلقهم الاجتماعى، وكان يتم مراقبتهم وتقويمهم من الناحية السياسية ويعاد انتقاؤهم سنويا. كان يحكم إسبرطة نظامان ملكيان: المحاربون والكهنة، ويدبرون حكمهم عن طريق مجلس من ٢٧ رئيسا للعائلات الكبيرة فى أول الأمر، ثم صار هذا المجلس ينتخب من المسنين والحكماء من الرجال بعد ذلك، ويقوم بالانتخاب جميع المواطنين كاملى الأهلية. كان هؤلاء هم الرجال الذين بلغوا سن الثلاثين وأتموا خدمتهم العسكرية الذين يستطيعون الاحتفاظ بمنزل، ويرتبطون بالزواج. كان هناك خضوع كامل وطاعة عمياء من المحاربين للدولة فى إسبرطة.

يعزى إلى أهل إسبرطة أنهم أول من كشف عن أسس النجاح فى القرنين التاسع والثامن ق.م. فى عصر الحديد، وطبقوا تلك الأسس فى حكمهم للبلاد (وقد حذا حذوهم فيما يلى من القرون الأشوريون والرومان). بناء على نصيحة حكيمهم – ليكارجاس – وبتوجيه من كاهن دلفى، قرر أهالى إسبرطة توحيد القبائل الخمسة، التى كانت تعيش فى قرى خمسة، فى القرن التاسع ق.م. لتنشأ من توحيدها دولة واحدة. اكتسبت تلك الدولة قوة عظمى بعد توحيدها وأمكنها فرض القانون والنظام ومنعت الفوضى التى ضربت أطنابها فى باقى مجتمعات اليونان، وكانت تلك القوة هى التى تسببت فى فقد ذلك المجتمع لحريته فى نهاية الأمر. امتد الخضوع للنظام العسكرى إلى سائر النواحى المدنية، الانتاج الزراعى والحياة المعيشية. كان السؤال المفروض دائما هو كيف تتوزع السلطة بين الطبقة العسكرية، وانتهى الأمر إلى وضع كافة السلطات فى يد الملك فى أوقات الحرب، ووضعها فى يد مجلس منتخب فى أيام السلم. فى البداية كانت الطبقة العليا فى إسبرطة قابلة للتفاهم. وفى القرن السابع ق.م. اكتسبت جميع الدول الدوريانية قدرا من الثراء وتمكنت من اتقان فنون السلم والحرب.

ولكن تفاعلت عدة عوامل، مع بعضها البعض لتشديد القوانين.. أولها كان النجاح الذى أحرزه العسكريون على جيرانهم، وثانيها كان إخماد كل من ينتقد الحكام واستئصالهم من المجتمع، أيا كان موقع المنتقد، سواء كان من الشعب أو من الطبقة العليا الحاكمة، وثالثها كان رفض النشاط التجارى بكافة صوره والاستعاضة عنه بالمساواة الجماعية الشعبية، وهكذا تم تثبيط النشاط الفنى أو التجارى ورفض الارتقاء بالمجيدين من رجال الأعمال أو الفنانين إلى الطبقة العليا، وهكذا تمت هجرة هؤلاء المبدعين إلى باقى الدويلات الدوريانية، إلى كورينث وميجارا ورودس. وكانت هذه

الهجرات (أوكما نسميها حاليا هجرة العقول) سببا فى افتقار إسبرطة إلى الأذكياء والمبدعين الذين يقيمون الحضارات ويتعهدونها بالارتقاء. وهكذا تحولت الطبقة الارستقراطية فى إسبرطة إلى «جنس نقى» لاتدخله دماء جديدة، وتراجع هذا الجنس النقى المتماثل إلى ما كانت عليه القبائل المنعزلة فى العالم. عندما كان المجتمع فى إسبرطة فى قوة مجده، كان يتكون من قبيلة كبرى، بها ٥٠٠٠ مقاتل و٤٠٠٠ من الاتباع (عندما انتصر على جيش زرزس فى عام ٧٩ ق.م.)، ولكن بعد أربعة أجيال فقط، بعد الحرب مع أثينا، تقلص عدد هذا المجتمع إلى أقل من الربع (وتحول بهذا العدد الضئيل إلى جنس نقى بكل أعراض الأجناس النقية وصعوبتها المدمرة فى آخر الأمر).

خلال سنوات الغزو الدوريانى، كان الملوك الميسينيون وملوك الغزاة هم قادة الجيوش فى الحروب، وكان الملوك الهرقليون والبنتليديون والكودريديون يقودون رجالا مختلفى الأجناس بين أفراد جيوشهم، وعند استقرار المدن الجديدة ورسم الحدود التى تفصل المستعمرات الجديدة تدهورت – مراكز الملوك. ورث الهيراقليون الحكم فى إسبرطة من نظام الميسينين، وتولى الحاكم الميسينى منصب رجل القضاء فى زمن السلم. وهكذا صار الحال أيضا فى أثينا وفى كورينث. وفى أفيسوس وفى ميلينس تدنى الملك الميسينى إلى درجة الكاهن. سرعان من ارتبطت الطبقة العليا فى جميع هذه الدويلات الإغريقية فى شبكة متصلة. كان هؤلاء الأرستقراط هم ملاك الأراضى وهم الخيالة وتعاونوا مع بعضهم البعض إلا فى كورينث، المدينة التجارية، التى غلبت فيها أسرة الهرقليين سائر الأسرات. كان الحل هو محو الدويلات التى تعتمد على مدينة واحدة، وقد منع هذا نشوء طبقة مالكة واحدة فى كافة البلاد اليونانية. كان النظام الارستقراطى نظاما مهتزا، فباستثناء إسبرطة – ذات النظام الشيوعى فى توزيع الثروات – اختلف مستوى الثراء بين دويلة وأخرى واندثرت الأسرات الحاكمة تباعا، وبعد عدة أجيال تقلص النظام إلى أقلية حاكمة، أى صار الحكم فى يد أسرة واحدة، يمثلها طاغية أوحد. تحت حكم الطغيان عادة ما تنتعش التجارة ويزداد الثراء، ويحلو النظام فى أعين الغرباء ليحاول طاغية آخر من جارة الدويلة اغتصابها، وفى أحيان أخرى يؤدى فرط الطغيان إلى قدر من التحرر وفى أحيان أخرى إلى مزيد من الطغيان. وهكذا يؤدى حكم الفرد أحيانا إلى الانتعاش ويؤدى فى غالب الأحيان إلى المصائب. فى قليل من الأحيان تتكاثر طبقات التجار وتزداد قوتها للحصول على المزيد من السلطات داخل الدويلة، فتشجع المخترعين وتدعم المبدعين وترعى الفنون وتحتضن أصحاب الحرف الراقية.

يرجع نجاح إسبرطة العسكرى فى القرن الثامن ق.م. إلى ملائمة نظامها وثباته واستقراره لدعم السلطة العسكرية. كان هذا ما يؤمن به أهل إسبرطة (وقد تحقق هذا الإيمان بانتصاراتهم العسكرية المتوالية). ويرجع نجاح أثينا فى الأمور التجارية والاقتصادية إلى ضعف نظامها السياسى وإلى

فشل نظامها الاجتماعى الذى تعرض مرارا إلى التفكك والانهيار. ولكن ازدهار أثينا وثرائها يرجع إلى عمل جماعة جديدة تتكون من أجناس مختلفة. بدأت المدينة حياتها بالترحيب باللاجئين الذين فروا أمام الغزو الدوريانى، واستمرت بعد ذلك لعهود طويلة مأوى للغرباء حتى جاء الغزو الفارسى الأول، فاعتصم أهل أثينا داخل أسوار مدينتهم. انتعشت التجارة، بداية فى الصناعات الفخارية الواردة من كورينث، ثم فى الفضة التى استخرجت من لاوريام، ثم فى منتجات الصيد البحرى. بدأت كل هذه النشاطات من مهارة الفنيين والحرفين الذين اجتذبتهم أثينا من حضارات العالم القديم ومن بقية أنحاء اليونان. لم يكن لديهم حماية لأشخاصهم ولا لممتلكاتهم، ولم يكن لهم الحق فى الحصول على وظائف الحكومة ولم يكن لهم الحق فى التصويت فى الانتخابات، وبالرغم من هذا كان مستقبل الأمة متعلقا بأيديهم. نشأ صراع بين فئتين من طبقة الارستقراط: أولئك الذين كان كل همهم ينصب على الاحتفاظ بكل السلطات لمصلحة طبقتهم وأولئك الذين كان يشغل بالهم مستقبل الأمة ككل. خاض المجتمع تباعا تجربتين متعارضتين، أولاهما الإصلاحات القانونية التى جاء بها أحد هؤلاء الارستوقراط، سولون بين أعوام ٥٩٤ – ٥٩١ ق.م. ثم جاء الحكم المطلق على يد عائلة ارستقراطية أخرى، ثروتها من استغلال المناجم، أسرة بيزيستراتوس، بين أعوام ٥٤٦ – ٥١٠ ق.م. فى هذه الفترة من الحكم التسلطى توقفت كل قوانين سولون. فى هذه الفترة أيضا وضعت قوانين للأغراب اللاجئين إلى أثينا، تختلف عن القوانين المطبقة على المواطنين الأصليين. (وهكذا جعلت من أثينا العاصمة الطبيعية لكل بلاد اليونان). ثم جاءت الحقبة الثالثة من الاصلاحات القانونية، على يد فرد آخر من الارستقراط، كليسثينس، عام ٥١٠ ق.م. ضمنت فترتى الحكم القانونى حقوق دافعى الضرائب الأساسية. صار للحرفين والفنانين حق التصويت فى الانتخابات وحق الجلوس فى مقاعد المحلفين فى المحاكمات، ولو أن النظام استمر بميل ناحية الأثرياء وأبناء الذوات – كما استمر يحدث فى جميع الديموقراطيات التالية، الذين يملكون الوقت الذى – يقضونه فى الشئون السياسية وفى حضور اجتماعات الجمعية العمومية وفى التلاعب بآليات الحكم فى نظر الفلاح الذى يعيش فى آتيكا وفى نظر أهل مدينة أثينا نفسها، لم يكن الصراع الدائر بين القبائل ولم يكن النزاع القائم بين الطبقات فى القرن السابع ق.م. سوى صراعا على حقوقهم. صاحب هذا الصراع بين الآلهة والأبطال والمقدسات. لم يصل هذا الصراع إلى الطبقة الارستقراطية ولا إلى طبقة الكهنة، لأنهم أصحاب مصلحة متوازنة فى البقاء على قمة السلطة. ولذا كان من العجب العجاب تلك الإصلاحات التى قام بها كل من سولون وكليسثيس التى أضفت الحماية على الحرفيين ومنحتهم الفرص، ومن ثم ازداد الجذب إلى أثينا من قبل الصناع والحرفيين والتجار من كافة أنحاء اليونان ومن خارج بلاد الإغريق.

حدث تيار من هجرة العقول ومن نوى الإبداع المنتقى إلى المجتمع الأثينى بتحرير أعداد كبيرة من العبيد فى المجتمع. توحد الفلاحون والصناع، نوى الأصل الأجنبى أو الذين جاءوا من تحرر العبيد

فى صعيد واحد، سرعان ما تغلب على أصحاب العائلات القديمة وأدى إلى انتهاء عهدهم. بقى الآلهة محتفظين بوضعهم ولكن تغيرت أعمالهم إلى ما فيه خير المدينة والمجتمع. ظل النظام الأثينى الجديد غير مستقر الوضع وتخللته دكتاتوريات وفوضى (من الجماهير التى مازال لديها الشك). ولكن التحول الأساسى الذى أحدثته الإصلاحات أنتج بعد جيلين أو ثلاثة، المجتمع الجديد الذى تمكن من هزيمة الفرس.

وحــدة الإغــــريــق

توحد الإغريق من استخدامهم لغة واحدة. كانت لغة الإغريق ذات عدة لهجات ولكنها كانت مفهومة لدى كل أهل اليونان نظرا لأن شعراء اليونان العظام كتبوا أشعارهم بهذه اللغة. أنف الشعراء أن يكتبوا أسماءهم على شعرهم وخلدهم التاريخ. جمع أولئك الشعراء الملحميون أغانى الشعب التى رددها فى تحية ملوكهم وزينوها، هؤلاء الأبطال الذين مازلنا نعرفهم إلى اليوم عن طريق الكلمات التى بدعوها. الأمراء منذ حوالى ٣٠٠٠ سنة، كانوا يحتقرون الكتابة (لأنهم نشئوا فى عهد لم تكن الكتابة معروفة فيه فى بلد لم يكن يقرأ ولايكتب) وكانوا يحفظون ما يقولونه ويرددونه تباعا (ككل الأمم السابقة). كانت مزية الحفظ مركزة فى بعض الأفراد، الذين يشكلون مجموعة الشعراء والمغنين والمؤرخين والكهنة. ظلت المعلومات محفوظة فى ذاكراتهم حتى جاء زمن الكتابة التى بدأت تتسلل إلى هذا العالم الأسطورى. كان شعراء الآريين يستقبلون بالترحاب فى بلاط ملوك الساميين (وقد يكونوا قد أسهموا ببعض ما جاء بالكتابات العبرية). ما تردد فى ذاكرة هؤلاء الشعراء، وما حفظوه من تاريخ تلك الأمم يختلف اختلافا كليا عن الطريقة التى دونت بها حضارات أرض الجزيرة وحضارة المصريين القدماء الذين اعتمدوا على كتابة أحداثهم على جدران المقابر والمعابد وفى البرديات وحفظوها من الضياع. هكذا لم تتم كتابة كتب الهندوس الدينية «الفيدا» بالسانسكريتية، ولاشعر هوميروس بالإغريقية ولا القصص الأيسلندية القديمة الزاخرة بالأعمال البطولية «الساغة» فى حينها، ولم يتم تسجيلها بالكتابة إلا بعد انتهاء العصر الذى نشأت فيه. لم يكن المؤسسون لتلك الحضارات لايقرؤن ولا يكتبون فحسب، بل كانوا ضد الكتابة نفسها. لم يتم حل هذا التناقض فى الحضارات القديمة إلا بعد احتلال البابليين المثقفين لإسرائيل، وفى العالم الإغريقى إلا بعد مقدم الحضارة والتعليم من أيونيا إلى أثينا. فى الوقت الذى كانت روائع هوميوس الشعرية غير مكتوبة، وكان يرددوها حفظا الهمجيون، كانت سجلات المطابخ تكتب فى بيلوس وفى كنوسوس، يكتبها الكتبة المثقفون ذو الأصل الفينيقى. حدثت حروب طروادة فى منتصف القرن الثالث عشر ق.م.، ووصلت إلينا وقائع تلك الأحداث فى الإلياذة والأوديسة. تصف لنا الأحداث البطولية فى العالم الميسينى، والتى ضخمها الوارثون لتلك الحضارة من الدوريان فى القرون التالية. ليس السؤال المطروح هو من

هو هوميروس! هل هو رجل واحد أو عدة رجال! هل ينتمى إلى أسرة واحدة أم إلى عديد من الأسرات! هل يعود إلى عصر واحد أم عدة عصور متتابعة! قد تكون الإجابة الصحيحة أن من كتب تلك الأشعار هى أسرة رحالة ممتدة ومتفرقة بين جزر بحر إيجة على مدى عدة عصور امتدت بين سنة ١٠٠٠ وسنة ٧٠٠ ق.م.، فالأشعار متلاحمة، مدمجة، متماسكة، وقد كتبت باللهجات الأيونية والأتيكية والأيولئية، وهناك اختلافات واضحة بين القصيدتين الطويلتين. وهكذا كانت اللغة الواحدة هى العامل الأول فى وحدة الشعوب الإغريقية، كما يظهر من أشعار هوميروس، وحدت بينهم أعمال عظيمة، صيغت بكلمات مبهرة وغناها الشعب بأسره، الذي وحد بينهم الشعراء الرحل بين الشعب المستقر فى مكانه، وأعطاهم نظرة واحدة نحو الطبيعة كما فهموها ونحو الآلهة كما عبدوهم.

عرف الإغريق آلهتهم من مصادر عدة: من حضارات الشرق القديمة، ومن العرافين، ومن الكهنة «الموحى إليهم»، وغير الموحى إليهم. جاء الآلهة مع الحكام القادمين إلى بلاد الإغريق من كريت وممن أنشأوا مختلف المدن الإغريقية. جاء هؤلاء الآلهة ومعهم تاريخهم وأساطيرهم التى جاءوا بها من بلادهم القديمة (من مصر كما بيّن هيرودوت، ومن إسرائيل). فى الزمن الغابر، شديد القدم، بدأت تعرف الآلهة بالناس وبالكهنة، وبدأ تعرفهم بالعلاقات بين القبائل المختلفة، وطبقات المجتمع، وبالعلاقات التى تربط المدن بعضها ببعض، ومن خلال هذا التعاون بدأ تكيف الإغريق مع حياتهم العائلية والقبلية وتحددت هذه العلاقات. جاءت الأفكار التى حددت هذا التكيف من الأناضول ومن فينيقيا ومن كريت ومن مصر. كان مركز تطور الديانات الإغريقية هو معبد أبوللو فى مدينة دلفى، حيث بدأت فى تلك المدينة قيادة كهنوتية على الطراز المصرى. من مدينة دلفى أتت النظم التى عملت على توحيد المجتمع الإغريقى. تقع هذه المدينة على سفوح التلال شمالى مضيق كورينيث وسط أشجار الغابات، حيث تنبعث أبخرة البراكين كل حين. قبل تقدم الإغريق سكن فى هذا المكان أقوام من أهل الجبال يدعون «برناسوس» وجعلوه موطنا لآلهتهم. فى هذا المكان تصالح بوسيدون (إله البحر) مع الحية (إلهة الأرض) كما اصطلح مع أثينا وأتين. بمرور الزمن قدم إلى هذا المكان مجموعة من الكهنة من جزيرة كريت يحملون صورة أبوللو (فى شكل الدرفيل) ولجأوا إلى هذا المكان، وتبعهم الميسينيون. وبعد صراع، لم يدم طويلا، تصالحت المجموعتان من رجال الدين، ثم بنوا معبدا للإله أبوللو وصار المكان يعرف باسم دلفى. بعد الغزو الدوريانى جاءت مجموعة ثالثة من الكهنة، يحملون معهم إلههم هرقل واجتمعوا بدلفى طالبين البركة. تم قبولهم (وإلههم) فى هذا المكان الذى دخل عصره الذهبى. أتى بعدهم كهنة اثنتا عشر قبيلة ووجدوا من المصلحة أن يضموا صفوفهم ويتوحدوا فى معبد دلفى ويقتسموا المغانم مع كهنة هذا المكان ثم تكون – من مختلف الكهنة – مجلس يشترك فى تصريف شئون المعبد، على أن يرأس إدارة المعبد كاهن كل شهر تباعا. بناء على نصيحة كهنة المعبد تم تنظيم الألعاب البيثية، مرة كل ثمان سنوات حتى عام ٥٩٠ ق.م.

عندما صارت تقام مرة كل أربعة أعوام. تمخضت هذه الألعاب عن المباريات الرياضية والاحتفالات الموسيقية فى أوليمبيا (وفيما بعد فى ديلوس). وهكذا توحد الإغريق برباط متين من الصلات الدينية والاجتماعية. كان عمل الكهنة هو إسداء النصح لكل من جاء من بعيد أو قريب (إن كان قادرا على دفع أجر النصيحة). أسدوا النصح إلى سولون عندما كان حاكما لمدينة أثينا (ووجهوا بذلك السبيل إلى الاصلاح الإدارى والتنظيم الداخلى للبلاد)، كما أسدوا النصيحة إلى ميداس حاكم فريجيا وأمازيس ملك مصر، وهكذا وجهوا إلى حد ما السياسات الخارجية. كانوا يوجهون السياسات الخارجية لكثير من المدن اليونانية والدويلات الإغريقية، وكلما علا شأن دلفى وكلما إزداد صيتها كلما كان تأثيرها عظيما على شئون الدين وأمور الأدب والسياسة والتجارة. وكانت وسيلة دلفى فى الحصول على المعلومات السرية وفى التجسس مشابهة لنفس الطرق المتعبة فى التاريخ الحديث، وكان يخشاها جميع من حكم البلاد فى ذلك الزمان بدءا من الامبراطورية الفارسية فى الشرق إلى الجمهورية الرومانية الوليدة فى الغرب. تعود هذه القوة الفائقة للإغريق إلى توحد الجنس واللغة والثقافة، واستخدمت القوة إلى التغلب على الفرقة وإلى زيادة دعم الوحدة بين الإغريق، ولكنها لم تستع التغلب تماما على الفروق والاختلافات.

تعلم الإغريق من أسلافهم سكان بحر إيجة ومن الكاريانيين والمينويين والفينيقيين حبهم للبحر ولشجر الزيتون ودرايتهم العميقة بالسفن، ولهذا كانوا يقطنون على سواحل البلاد التى استعمروها ولم يتوغلوا إلى الداخل. بلادهم تفصلها البحار والجبال ولكن وحدها الملوك المينويين ثم الميسينيين، الذين لموا شمل السكان القليلين من المزارعين والرعاة فى مجتمع اقطاع يخضع لسلطاتهم. بعد حين رفض سكان المدن والتجار سلطة الملوك وفضلوا أن يقوموا بحكم أنفسهم بأنفسهم، وقد زاد هذا من اختلاف الأودية والجزر وإزداد هذا من تباين الطباع بين المجتمعات المختلفة. نشأ لكل من هذه الأقوام طريقته فى حكم نفسه واتخذت كل جماعة دستورها الخاص بها الذى زاد تدريجيا من سلطات الأهالى وقلل تباعا من سلطات الملوك وأصحاب الأراضى. نشأ لكل مجتمع تجارته الخاصة به وفنونه المميزة له. أصبح كل مجتمع متحمسا لمقدساته ويقيم الاحتفالات لأعياده، ويقيم التقويم الخاص به (رغم محاولة كهان دلفى لتوحيد التقويم). اقتصر حق المواطن فى هذه المدن على أبناء المقيمين فيها وعلى المهاجرين الذين سمح لهم بالهجرة لها. (لم يسمح لهيرودوت المولود فى هاليكارناساس بحمل مواطنة مدينة أثينا، وكان يعامل كالأغراب فيها)، ولم يكن يسمح للأغراب بالزواج من أهالى المدينة (وهكذا كان المجتمع يتحول تدريجيا إلى التماثل الجينى). كان يدفع الإغريق للتفوق شعورهم الشديد بالتفرد. أوضح هوميروس فى أشعاره هذه الفرقة المدمرة وهذا الاعتزاز الشديد بالنفس، الذى عانى منه الإغريق (وكان حائلا لتوحدهم فيما بعد). فقد كان

غرور أخيليس سببا فى الهزيمة عندما تلاقى الإغـريق مع الفرس مثـالا، وكان الدمـار الذى حل بالبلاد من جراء حروب أثينـا مع إسـبرطة مـثالا آخـر.

كانت مستعمرات الإغريق الجديدة على بحر إيجة أبرز تلك المستعمرات فى مآثرها العقلية على كافة البلدان التى تتحدث باللغة اليونانية. أدخل هؤلاء أفكار الشرق القديم إلى كافة أنحاء أوروبا ووضعوا الأسس العلمية والفلسفية فى تلك الأفكار، ولكن مما يدعو إلى العجب أن الإغريق التالين – خاصة أهل أثينا – رفضوا معظم تلك الأفكار. ويوضح الجدول التالى (جدول رقم ٥) منشأ الفلاسفة الإغريق الأولين. يقال أن رخص ووفرة الرقيق فى العالم القديم هو السبب فى عدم تطور العلوم الحديثة، وكان لاختراع الميكروسكوب والتلسكوب والبوصلة والكرنومتر الأثر البالغ فى نمو العلوم وتطورها فيما بعد (مع أن هذه الأدوات لم تخفف من أعباء العمل اليدوى). ما كان ينقص الأقدمون هو الحرية، خاصة حرية الحركة والانتقال والاختلاط بكافة الناس، من مختلف الطبقات، وتبادل الخبرات والأفكار، والمخزون من المعلومات التى يسرها فيما بعد اختراع الورق ثم الطباعة. في بلاد اليونان القديمة كان الخلاف فى الرأى والحروب شيء لاغنى عنه. اتحدت الأقوام الإغريقية – لفترة ما – فى مواجهة الفرس، ولكن لم تدم هذه الوحدة، وسرعان ما تحطمت إلى مدن متفرقة قامت بينها الحروب، خاص بين أثيناء وإسبرطة، وصاروا قوما ينتظرون من يحكمهم.

جدول رقم (٥)

الفلاسفة اليونانيون الأقدمون

الاســم	مسقط رأسه	التاريخ
ثاليس	ميليتاس	٦٤٠–٥٤٦ ق.م. سافر إلى مصر وإلى بابل.
أناكسيماندر	ميليتاس	٦١٠–٥٤٧ ق.م.
أناكسيميناس	ميليتاس	حوالى ٥٤٥ ق.م.
بيتاغورس	ساموس	حوالى ٥٣٢ ق.م. هاجر إلى إيطاليا
هيراكليتاس	إيفيسوس	حوالى ٥٠١ ق.م.
بارمينيديس	ايليا (من مستعمرات فوكيا)	حوالى ٤٧٠ ق.م.
امبيدوكاليس	اكراجاس (من مستعمرات رودس)	حوالى ٤٤٠ ق.م.
أناكساجوراس	كلازومينى	٥٠٠–٤٢٨ ق.م. أول فيلسوف قطن فى أثينا.
ليسيباس	ميليتاس	حوالى ٤٥٠ ق.م.
ديمو قريتاس	ابدير (من مستعمرات كلازومينى)	حوالى ٤٢٠ ق.م.

الجنس السامى واليهود

خلال الألف سنة الرابعة قبل الميلاد، عندما كان المزراعون يستعمرون وادى الفرات، كان الرعاة، الذين اعتمدوا أولا على الغنم والماعز ينشرون فى أراضى الاستبس – الأكثر جفافا – فى الجنوب. هاجرت إحدى هذه الجماعات – التى كانت تتكلم بلغة حامية عتيقة – إلى أفريقيا، وانتشرت هذه الجماعة وذريتها فى طول وعرض القارة الإفريقية خلال الثلاثة آلاف سنة التالية. انتشرت جماعة أخرى – تتحدث بلغة سامية سلفية – خلال الألف سنة الثالثة قبل الميلاد فى شبه الجزيرة العربية وبدأت تتوغل داخل الأراضى المنزرعة على حدودها. غزا هؤلاء الأقوام أهالى سومر وبابل إلى الشرق منهم وأخضعوهم واحتلوا مدنهم الغنية. وإلي الغرب هاجموا الأقوام والمدن فى سوريا وفلسطين واتجهوا إلى الجنوب. فى الألف سنة الثانية قبل الميلاد وصل إليهم أصحاب الحضارات من سكان سوريا ومصر واخترقوا طرق المواصلات فى الحجاز حتى وصلوا إلى مملكة سبأ واليمن وحضرموت. تعتبر هذه التحركات أول توسعات الساميين، وقد نتج عنها تغير عميق فى تلك القبائل الرعوية. قابلوا لأول مرة صناع المعادن، صناع البرونز وغيرهم فى الألف سنة الثالثة قبل الميلاد، واستقروا فى بئر سبع حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م.، التى سكنها حرفيو المعادن مع الرعاة، جنبا إلى جنب، كانوا يسكنون فى أحياء متجاورة ولكن لم يتم التزاوج بينُم. ثم عرف هؤلاء الأقوام الخيل من وسط آسيا (حوالى سنة ١٦٠٠ ق.م.)، ثم كشفوا عن مزايا الإبل واستأنسوها(فى شبه الجزيرة العربية حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م.) وظلوا لأمد طويل محتفظين بنقائهم الجنسى، ولكن بعد حين، نتيجة لاستعباد الأسرى فى الحروب بينهم، حدث اختلاط بين مختلف القبائل. ثم انتخبوا الشيوخ لرئاستهم (وتحول هؤلاء إلى ما يشبه الملوك مع توارث الرياسات)، واختلطت الفئة الحاكمة من مخلف القبائل. ثم ظهرت مجموعات من الحرفيين والموسيقيين والكهان بينهم. حدث هذا التطور فى جميع القبائل السامية، حدث فى العبريين الذين ظلوا كقبائل رُحّل وفى قوم مؤاب، وزمون وأدوم الذين اندمجوا مع المزارعين وكونوا أمما يحكمها ملوك وفيها النبلاء وعليه القوم والأحرار والكهنة والأغراب. عاش بعض الساميين فى مدن فى بابل وفى أرض كنعان، وغلبت اللغات السامية، التى كانت أصلا لغة للأقوام الرعاة، على سائر اللغات فى البلدان التى عاش فيها الجنس السامى سواء كانت أصلا بلادا زراعية أو كانت مدنا.

يأتى الارتباك فى المعلومات عندما نتحدث عن الهكسوس أو الملوك الرعاة. لم يكن هؤلاء القوم من العبرانيين. ربما كانوا قوما أتوا بالخيل من منطقة بحر قزوين أو من أرمينيا واستعملوا العجلات الحربية واكتسحوا الجيوش أمامهم حتى وصلوا إلى سوريا، ثم بعد ثلاثة أو أربعة أجيال من اختراقهم للبلدان استقروا فى أرض كنعان وصاروا ملوكا للكنعانيين والعبرانيين، واستخدموا هؤلاء الأقوام فى غزو مصر. يعتبر غزوهم لمصر أوضح مثال لإخضاع الرعاة للفلاحين وسكان المدن وأقدمها فى التاريخ، وكان مقدمة لكثير من الغزوات التى تلت هذا الحدث، (ومازالت تحدث فى قارة أفريقيا إلى عصرنا الحاضر). حرية الحركة التى كان يتمتع بها الرعاة، بالإضافة إلى خشونتهم وروح المغامرة لديهم وبُعد نظرهم هيأهم لاستخدام كافة الطرق المعروفة لأعمال السلم فى الشئون الحربية، الوسائل التى ابتدعها جيرانهم الذين كانوا مستقرين وآمنين فى أراضيهم. كان الغزاة من الملوك الرعاة ينتصرون أولا. لم يستقر حكمهم ولم يدم، وذلك لأنهم لم يحافظوا على تفوقهم. كذلك كانت هذه المنطقة من البعد بمكان يجعل احتلالها عسيرا والسيطرة الدائمة عليها صعبة، وسرعان ما تتفتت إلى مجموعات صغيرة منعزلة عن بعضها البعض. كان تأثيرمصر وبابل ينصب على هذا الطريق ويتركز عليه، ولكن لم تستطع كلتا القوتان السيطرة الدائمة عليه. يتكون هذا الجزء من العالم من إقليمين: إقليم فينيقيا (تبعا للتسمية الهوميرية) وإقليم إسرائيل (تبعا للتسمية العبرية).

الفينيقيون

كان الشريط الساحلى الضيق القابل للزراعة بين ساحل البحر المتوسط وبين جبال لبنان هو من سكنه أولا أقوام سموا بالفينيقيين، ولكن كانت العوامل التى أضفت على هذه المنطقة أهمية بالغة فى تاريخ الحضارات هى:

١- موقع تلك المنطقة بين حضارتين عريقتين: حضارة أرض الجزيرة من جهة وحضارة مصر من الجهة الأخرى.

٢- امتلاك تلك المنطقة لعدة مرافىء طبيعية.

٣- ثروة المنطقة بالأخشاب التى تفتقدها الحضارتين المجاورتين.

كان احتلال المرافىء الهامة وتطويرها يتم تباعا من الشمال إلى الجنوب بدءا من طرابلس، أرودا، بيبلوس، بيروت، صيدا وصور. كانت المرافىء الفينيقية ثغور على ساحل البحر، وكانت تقع على جزر طبيعية أو رءوس من الأرض محصنة طبيعيا ضد أى غزو قد يأتى من الداخل. هكذا كان الفينيقيون (مثل الميناويون) محميين من أى هجمات عليهم من جيرانهم المحاربين، وكان نجاحهم فى

إنشاء الميناء الأولى حافزا لهم للبحث عن أماكن أخرى تصلح لاستخدامها مرافىء، وهكذا نما مجتمع أهل البحار. كان الأساس الثانى لتوفيقهم هو وجود جبال عالية خلف تلك الموانىء، التى حمت ظهورهم وأمدتهم بمواد لانهاية لها للتجارة، بنيت السفن من أخشابها، وحملت تلك السفن مزيدا من الأخشاب لجارتهم الغنية - مصر - التى تفتقد تماما للخشب، وكانت أشجار الأرز من لبنان (التى قاربت على النفاد حاليا) تمد فراعنة مصر ثم سليمان ثم سارجون ثم دارا مايحتاجونه من الخشب.

هكذا نشأت الحضارة فى فينيقيا وتضاعف سكانها وتزايد ثراؤها ببطء فى أول الأمر ثم بسرعة بعد ذلك عندما تجمعت براعة صناعها ومهارة أهلها ممن غزلوا الغزل ونسجوا النسيج وصنعوا الأقمشة وبرعوا فى التجارة والكتابة وإدارة الأعمال. نشأت المدن وإزداد حجمها وبلغت حضارة فينيقيا أوجها بسقوط الإمبراطوريتين المينوية والميسينية اللتين كانت الروابطبينهما وبين الفينيقيين شديدة والصلات دائمة والتجارة رائحة غادية. (ولابد أن اللاجئين من المنفيين المينويين وفدوا إلى فينيقيا ووجدوا فيها ملجأ وملاذا بعد سقوط دولتهم). بعد ارتفاع شأن صور، بدأت تلك الميناء فى زرع مستعمرات فى جميع سواحل البحر المتوسط: أتيكا، وقرطاجنة فى تونس، موتيا فى صقلية، فاليتا فى مالطا، قادس فى أسبانيا، موجادور فى المغرب. كانت تلك الموانىء مدن شيدت على نفس طراز المدينة الأم وظلت على اتصال بها، وبالعالم الفينيقى بالرغم من وجود بحار شاسعة تبلغ ألفى ميل بينها. صارت المرافىء الفينيقية ومستعمراتها على البحر المتوسط - بأساطيلها - هى عصب الملاحة والتجارة فى العالم. عندما حاول الفرعون المصرى نخاو الالتفاف حول أفريقيا عام ٦٠٠ ق.م. (كما روى هيرودوت)، كلف أسطولا فينيقيا للقيام بتلك المهمة وعندما احتل الإسكندر الأكبر فينيقيا بعد هذا التاريخ بثلاثمائة عام وسيطر على صور، تعلم من الفينيقيين بناء الأسوار حول المدن، وصناعة بناء السفن وتكوين الأساطيل وفنون الملاحة وأسرار قيادة السفن فى البحار، ومكنته فينيقيا من السيطرة على البحر المتوسط، ظلت فينيقيا على صلة مستمرة بمستعمراتها على البحر المتوسط طالما بقيت حرة مستقلة، ولكن بعد استيلاء الآشوريين على أراضيها ثم سيطرة الفرس عليها، انتقلت السيادة على الموانىء الفينيقية إلى قرطاجنة واستمرت تلك الثغور مرتبطة ببعضها (على عكس ما حدث فى المستعمرات الإغريقية)، واستمر تبادل التجارة بينها وفاقت أهمية هذا النشاط سائر الأنشطة. لعل مصدر هذا النشاط يعود جزئيا إلى تنوع السكان (فى طرابلس خاصة). لم يحدث فى أى مدينة أخرى فى ذلك الزمان تنوع السكان وتنوع اللغات المختلفة التى يتحدث بها الناس كما حدث فى طربلس. إزداد النشاط التجارى تباعا وبقى - ستة منه - مدونة على شطف من الفخار حتى عهدنا هذا. ومما يدل على تنوع التجارة واتساع مداها ماذكر فى الكتب المقدسة:

حملت سفنهم ألواح الخشب من خشب التنوب من سنير،

والصوارى من أرز لبنان،

والمجاديف من شجر البلوط من باشان،

والقلوع من كتان مصر، والنوتيون من صيدا وأراد والمهاميز من جبيل (بيبلوس)، ومرشدى السفن من صور والمعادن باختلاف أصنافها من تاركيش (باسبانيا)،

القمح والعسل والزيت والبلّسان من إسرائيل،

والنبيذ والصوف من دمشق، والجنود المحاربين من بلاد الفرس ومن ليبيا،

والحديد والقرفة والوجّ (نبات عَطِر الجذور) من دان وجاوة،

التوابل والذهب والأحجار الكريمة من سبأ (باليمن)،

الغنم والماعز من شبه جزير العرب ومن كيدار.

أدى هذا إلى اختلاط مختلف أنواع البشر، ونتج عن اكتساب مختلف أنواع المهارات فى المجتمع الفينيقى النجاح العظيم للممالك الفينيقية. كان المجتمع الفينيقى مختلف اللغات ومتعدد الألسنة وأدى هذا إلى وجوب توحد الحروف الهجائية وإلى ايجاد السبيل إلى ذلك الاختراع. تم الكشف عن أول حروف هجائية على تابوت من الحجر للملك أهيرام، ملك بيبلوس، وتبعه اختراعات تقنية متتالية.

كانت فينيقيا موطن جذب لمختلف البشر، لثرائها وتعدد فرص الكسب فيها. جذبت فينيقيا الملاحين وجذبت التجار الذين كانوا يطمحون لمزيد من الكسب. لم تكن أفكارهم مبتكرة ولم يكن فنهم رائعا. كان يجذبهم الربح وليس القيمة وكان يشدهم السعر وليس الفكر. لم يتبق شىء من آدابهم (لأنه لم يكن يستحق الحفظ)، ولم يحرص أحد على الحفاظ عليه. أما فى الدين فقد اختلفوا اختلافا بينا عن جيرانهم اليهود. عبدوا نفس الآلهة التى كان يعبدها أهل بابل وكان كهنتهم هم نفس كهنة بابل. كانوا ينفقون نقودهم على المومسات: مومسات المعبد، وعلى الغلمان. شرعوا قتل الأطفال كأحد الطقوس الدينية (كان قتل الأطفال مشروعا فى كل الديانات القديمة إلا عند المصريين). اتخذ قتل الأطفال فى فينيقيا شكل حرق الأطفال – أحيانا – كتضحية للأرباب.

هكذا كان الفينيقيون، ناجحون بحريا وتجاريا، وأدى نجاحهم هذا إلى تعدد جنسيات الأهالى بينهم. تم انتقال مواهب الشرق القديم وأفكاره إلى الغرب عبْرهم حملته مراكبهم خلال البحر المتوسط إلى اليونان وإلى إيطاليا. وكان اختراعهم لحروف الأبجدية هو أبرز آثارهم الثقافية، وقد نقلها كتابهم إلى الإغريق وإلى الاتروسكانيين. نقش حرفيوهم وصُنّاعهم قبور الاتروسكان وزينوها، وحمل بحارتهم وصياغهم صورة شمشون وهو يصارع الأسد إلى أليسيدا فى وادى تاجوس فى إسبانيا. كشفوا عن الثروات المعدنية فى جنوب إسبانيا، بنقلهم عمال المناجم وحرفيوها من الأناضول، كما أوصلوا هذه الصناعة إلى مناجم كورنويل فى جنوب بريطانيا، ونشر أحفادهم استغلال المناجم فى باقى أنحاء أوروبا. كان الفينيقيون رجالا عظماء، كثيرو الحركة والتنقل، نقلوا تراث الشرق إلى الغرب. كانوا ذوى صبغة عالمية، كثيرو الترحال وكثيرو الخروج والتناسل. لم يكونوا يؤمنون بقومية متفردة ولا ديانة مختلفة لمختلف البشر، بل كانوا يؤمنون بعالمية الإنسان. من بعدهم حدث الخلاف بين إسرائيل وكنعان وبين قرطاجنة وروما، ومازالت الخلافات والصراعات تحدث بين مختلف الأمم والشعوب إلى عصرنا هذا.

اليهـــود

نعرف من تاريخ اليهود أكثر مما نعرف عن أى أمة سامية أخرى، ومن مصادر متعددة، ومن أصول مختلفة. ارتبط اليهود منذ أول أمرهم بطبقة الكهنة واستخدم هؤلاء التاريخ لمنفعتهم ولتحقيق أغراضهم، وكان هذا عاملا للحفاظ عن جنسهم ولاستمرار ذراريهم من قبائلهم المختلفة. كان الدين هو الأساس الأول لبقائهم وكان سبيل وحدتهم وتوحيدهم وكان مخططهم هو استخدام تاريخ هؤلاء الأقوام فى هذا الشأن. حوى الكتاب المقدس بكتبه الستة عشر، العهد القديم والعهد الجديد، تاريخ اليهود الأولين. ينبغى مطابقة ما ورد فى هذا التاريخ مع ما تم الكشف عنه من برديات وآثار وكلام مأثور يتوارثه الناس جيلا بعد جيل من أبناء الشعوب التى جاورت اليهود ومن مأثورات كلام بنى إسرائيل، وينبغى تأويل هذه المعارف مع الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية التى عاصرتها تلك الأحداث. هناك اتفاق عريض بين مختلف تلك المصادر (ولو أن هناك خلافات جذرية فى بعض التفاصيل). كان أهالى إسرائيل الذين قطنوا فلسطين فى ذروة عظمتهم – أيام داوود وسليمان – من أصول شتى شديدة الاختلاف. أحد هذه الأصول كان من رعاة رُحّل ينتمون إلى قبائل تجوب شمال الجزيرة العربية (وقد سكنوا فى إيدوم ومؤاب). قبيلة أخرى سكنت فى مصر وتنتمى إلى يوسف. (قد تكون هذه القبيلة قد وفدت إلى مصر أيام الهكسوس، وسمح لها بالبقاء بعد ذلك نظير دفع جزية أيام الأسرة الثامنة عشر، ولكنهم سرعات ما اختلفوا مع فرعون البلاد واضطرهم لترك البلاد تحت قيادة موسى). خلال رحلتهم عبرصحارى سيناء تقابلوا مع أولاد عمومتهم من إيدوم ومؤاب وابتدؤا فى غزو

المدن واحتلالها وسيطروا على جزء من أرض كنعان. وَعَدهم كهنتهم بأرض تفيض لبنا وعسلا، والخبز فيها وفير، وأسلحتهم من حديد أو نحاس (بدلا من الحجارة). بعد موسى قادهم القائد العسكري يوشع إلى أرض فلسطين وجعلها لهم مستقرا ومقاما. وجدوا في فلسطين مدن الكنعانيين، يتخللها أراضي العبرانيين الزراعية وبعض القرى المهجورة. اقتلعوا الأشجار وزادوا من مساحة الأراضي الزراعية (حتى تم تجريد أرض فلسطين تماما من الأشجار). كانت قبائل أخرى من الرعاة تتغلغل في فلسطين. كانت سطوة اليهود الذين دخلوا أراضي فلسطين بشعة وكان تدميرهم لها بالغا:

- جميع مدن الحيثيين والأموريين والكنعانيين تم تدميرها عن بكرة أبيها.
- جميع المدن المتطرقفة خير أهلوها بين الاستعباد الكامل
- وإن رفضوا، يقتل كل رجل منهم وتستثنى النساء والأطفال والماشية

تم هذا التدمير على عدة أجيال. كانت من تُتخَذ زوجة من النساء يتم تحريريها ثم تندمج في المجتمع. ويبقى الكهنة والمحاربون من بنى اسرائيل هم الطبقة الحاكمة. تعددت حرف اليهود، وكانت تتوارث في العائلات. عمل بنوبنيامين في أحدى القرى في أعمال الخشب والمعادن، وازدهرت صناعة النسيج وصياغته في قرية أخرى. وفي أورشليم كان هناك شارع للخبازين وفناء لمقصرى النسيج الصوفي، وحي للصباغة، وهكذا نشأت تجمعات مختلفة للمهن: كان لكل حرفة أو تجارة طائفة أو ما يشبه النقابة التى تجمع أهليها، وكان لهم كبير يرأسهم، ثم أنشأت مخلتف الحرف فيما بعد مقابرها الخاصة. كان التجار في مبدأ الأمر من الأغراب - من الفينيقيين عادة - ثم اندمج التجار فيما بعد في الجنس اليهودي. بدأ هؤلاء التجار من رجال القوافل التى كانت تقطن خارج أورشليم وحدث الاندماج بعد امتصاص التجار في بابل وفي مصر الهيلينستية - عندما صارت التجارة عملا مشروعا في المجتمع. كان لهذه الأمة الجديدة توجهات مختلفة وكان إخلاصها لقوى عدة،اعتمدت في بقائها على وحدتها التى حققتها التعاليم الواحدة والطقوس الواحدة لدين واحد، الذى كان يعنى إلاها واحدا ومعبدا واحدا، أقيم في أول الأمر في خيمة في شيلوح. أول مقدساتهم كان صندوقا من الخشب سمي «بالتابوت»، ثم تحول ليعنى إلاها واحدا، الإله الأوحد،الفرد الصمد، ثم كان لهم دستورهم وقوانينهم التى تطبق على الجميع، ثم صار لهم تاريخهم الواحد. صدرت إليهم كل هذه التعليمات من المتحدث باسم الله - يهوه - أى من كبراء كهنتهم الذين ادعوا أنهم ينتمون في أصلهم إلى كبيرهم موسى.

اسم موسى، اسم مصرى، ينتمي إلى عائلة فرعون. بعد زواجه من امرأة حبشية، تزوج موسى من زيبوراه، إحدى بنات جترو السبعة، كاهن مدين، وقد شرح له كيف علم بنى اسرائيل وكيف صار

قائدا لهم. مدين تقع على طريق القوافل العربية التى تحمل التوابل والعطور. وكان أهل مدين هم أول من جلب الجمل إلى الإسرائليين. كان بعض أهل مدين من الحدادين الذين تولوا صنع السيوف وباقى الأسلحة للمحاربين العرب وكانوا يرحلون معهم فى تجوالهم. ينتمى كهنة بنى إسرائيل إلى أخيه هارون ويدعون أنهم من أبناء ليڤى أحد أولاد يعقوب (اللاويين) ولكن كثير من أسماء أولئك الكهنة أسماء مصرية (مثل اسم هوفنى واسم فينجاس من أحفاد إيلى)، مما يعنى أن كهنة اليهود كانوا على اتصال بكهنة الشعوب المجاورة، وتأثروا بهم (وإن حرصوا على إخفاء هذه الحقيقة). عمد كهنة بنى إسرائيل على نسج الأساطير وسكبها لتخدم أهدافا اجتماعية ودينية وسياسية.

خلال سبعة أو ثمانية أجيال بعد استقرار اليهود في فلسطين طوّر الكهنة اليهود، من ذرية ليڤى، أفكار قومهم، في غيبة ملكية تجمعهم، لتزيد من تماسك اليهود وتؤكد وحدتهم، وضعوا فى أذهانهم أنهم جميعا من ذرية يعقوب – إسرائيل – ولذا كلهم بنى إسرائيل، إسرائيل الذى أخذ عهدا من الله، وانتقل ذلك العهد من هذا الشيخ الجليل إلى ذريته من بعده وإلى جميع خدامهم المهتدين حديثا (داخل أسوار مدنهم). هؤلاء هم القوم الذين سموا «اليهود».

كان عدد قبائل إسرائيل اثنتا عشر (نفس عدد شهور السنة) وكانت كل قبيلة تتولى رعاية التابوت شهرا من شهور السنة، وتنتمى كل قبيلة إلى ابن من أبناء يعقوب. فقدت قبيلة روبين – وهى قبيلة من الرعاة – أثناء تجوالها فى الصحراء ولم يتم العثور عليها، وانضم جزء من قبيلة ليڤى وقبيلة سيمون إلى باقى القبائل وصاروا جزءا منها. أطلق بنوا إسرائيل لقب كوهين على كهنتهم من الكنعانيين (ومازال هذا اللقب معنا إلى الآن). وهكذا سارت القصص وصدقها الناس فى الأجيال اللاحقة. كانت المهمة التالية للكهنة هى تصنيف القوانين وتنسيقها وجمع التعليمات وعادات القبائل المختلفة وتقاليدها ووضع أسلوب السلوك الذى يقوى الجماعة ويحافظ عليها، ويقال أن هذه القوانين مما أوحى إلى موسى. ومن المؤكد أن تلك التعليمات تناقلها الناس شفهيا خلال أجيال متعددة قبل أن تتم كتابتها فى «الكتاب المقدس»، فى الكتب الخمسة الأولى منه. اهتمت تلك الأجيال بدراسة السلوك الاجتماعى للبشر وتحليل أسسه البيولوجية وآثاره على الناس.

نمت الأفكار الأولية لكهنة اليهود خلال ستة قرون قبل تدوينها بالشكل الذى نراها عليه الآن فى سفر تثنية الاشتراع. فى هذه الأثناء تطور الكهنوت بإدماج عناصر جديدة فى المجتمع الإسرائيلى وبالانتقاء المتتالى لكبراء جدد. حلت أسرة هارون محل ذرية موسى، ومسح زادوك داوود بالزيت لتكريسه وإحلاله بالقوة محل صغار اللاويين بعد استئصال شأفتهم. بعد احتلال داوود لأورشليم صار كهنتها الأعلون على باقى كهنة البلاد، وعند بقاء قبائل يهوذا وحدهم فى الأسر بعد هلاك بقية القبائل صاروا وحدهم المتكلمين باسم اليهود بدلا من العبرانيين أو بنى اسرائيل الذين جاءوا منهم.

كان تحول مسار كهنة اليهود يتبع أفكار موسى الأصلية وتعليمات أتباعه. كانت هذه الأفكار تحولا عن عادات الأقدمين وممارستهم وكانت انفصالا عن الماضى. كانت ديانات الشعوب الأخرى كلها، ذات أرباب متعددة ومصورة، وكان الكهنة يقدمون طقوسهم فى المعبد الذى يحوى صور الأرباب وتماثيلهم أمام جماهير المتعبدين. أما لدى اليهود فكان هناك إله واحد، غير مرئى ولا منظور، يطيعه الجميع ويقدسه الناس جميعا، وكهنتهم، بدون أن يراه أحد. تمت كتابة هذه الطقوس الدينية وتم تدوين تلك الشعائر الموسوية بعد فترة الأسر والعبودية، فى نفس توقيت تدوين تاريخ العبرانيين الموجود فى العهد القديم. يظهر هذا التاريخ أن اليهود يتحولون ليصبحوا بشرا غير سائر البشر. من الواضح أن هذه القوانين قد استنبطت من القوانين السابقة فى بابل وفى مصر بأسلاف هؤلاء الكهنة الذين حملوها إلى ذلك المجتمع البدائى. قوانين الزواج والطلاق وتعدد الزوجات والبغاء والعبودية جاءت كلها فى تلك القوانين، ولكن الجديد هو المساواة بين الفقراء والأغنياء فى ظل القانون. هناك حماية الغريب والرقيق. هناك السماح بدخول أى فرد للمجتمع اليهودى طالما كان مطيعا للقوانين ومرور عدة أجيال على قبوله فى المجتمع. التحول الثالث الذى أتى به الاسرائيليون – ويعتبر تحولا عن الماضى – هو رفض كل ممارسة للسحر. كل الاحتفالات الخرافية المقصود بها تغيير أحداث الطبيعة (إلا من خلال الكهنة) كانت ممنوعة. السحرة، والمشعوذون، والعرافون، ومستحضرو الأرواح، وطاردو الأرواح الشريرة بالرقى والتعاويذ، والبصارون، والمتنبئون، والمنجمون، والمتكهنون، ومفسرو الأحلام، وقارئو الطالع، والمُدّعون بالشفاء أو إلحاق الأذى بهذه الوسائل، الذين يفتنون الناس، كانوا ممنوعين بتاتا من ممارسة هذه الأفعال وإلا عوقبوا عقابا أليما أو حكم عليهم بالموت. كانت ممارسة السحر الأسود وادعاء المقدرة على الإتيان بالمستحيل مرفوضة تماما فى الشريعة اليهودية، حيث كان الإله الأوحد، هو الإله الأعظم، صاحب كل القوى، ولم يكن له شريك فى الملك. وكان يتولى تنفيذ القانون الكاهن الأعظم. غيرت هذه المبادىء ما كان متبعا فى الأمم السابقة والمعاصرة وهيأت للاستقامة الأخلاقية والفكرية فى مقابل الخرافات والنضوج الواعى بديلا عن الأفكار البدائية الطفولية. هكذا كان القانون الموسوى الذى كان شديدا وصارما على الخرافات والمجتمعات البدائية، ولذا قاومه الناس ورفضوه. بالرغم من هذا استخدم شاؤول الساحرة لاستحضار روح صموئيل، وحصل يوسف على مركزه وثروته من تأويل الأحلام. ما أحدثه القانون الموسوى كان بدء برنامج إصلاحى طموح، لم يتم تحقيقه بعد، رغم انقضاء ثلاثة آلاف عام.

أخضع القانون الأخلاقى للديانة اليهود غرائز الإنسان الفردية لمصلحة المجتمع ككل، المجتمع الذى تحول تدريجيا إلى مزيد من التعقيد، وحقق القانون العدالة بين مختلف البشر وساوى بينهم، حاول القانون تلطيف الألم وتخفيف الرعب الذى أصاب العالم بعد اختراع الأسلحة الحديدية، وحاول الإبقاء على مختلف المجتمعات التى ورثت العالم.

صاحب البرنامج الأخلاقى مجموعة من الطقوس ليس لها ارتباط مقبول بالمبادىء الأخلاقية السالفة. أول تلك الطقوس هو طهارة الأولاد. قد يكون مبدأ الطهارة لدى الأجناس السامية قد نشأ بديلا عن التضحية بالابن عندما أمر أبوه بذبحه. أو قد يكون لإحداث علامة مميزة بين الطبقات عند حكام مصر. وقد يكون لاحداث فروق بين القبائل المختلفة أو الطبقات المختلفة لمنع التزاوج بينها، ويكون هذا تطورا متقدما عن إحداث علامات مميزة فى الوجه كما يحدث بين القبائل الإفريقة: صارت عملية طهارة الأولاد - لدى اليهود - علامة لوحدتهم بدلا من فرقتهم، إذ كانت متبعة بين كافة القبائل اليهودية مهما اختلف أصلها، كما جاء فى الكتاب المقدس «إن الله أمر إبراهم بطهارة كل طفل ذكر يولد فى بيت إبراهيم أو يشترى بالمال» «ويمنع زواج كل من لم تتم طهارته» وهكذا صارت الطهارة التى بدأت كإحدى علامات القبيلة، أحد تعليمات الديانة، وبدلا من صنع تمثال ليعبر عن الوب، صار المعبود يسوِّمُ طاعة للرب، منعت تعاليم اليهود هذا الجنس من القرب من الآخرين، فى إسبرطة - مثلا - سمح لليهود بالاختلاط بالآخرين، والعمل معهم ولكن لم يسمح لهم بالتزاوج معهم. إلههم كان مختلفا عن باقى الآلهة ولم يسمح لإله اليهود أن ينضم فى مجتمع الآلهة إلى باقى الأرباب، حافظ القانون اليهودى على صحة الإنسان واهتم بلباسه وطعامه، وطرق إعداد الحيوانات للطعام. طابقت تلك القوانين - فى مبدئها - بين معتقدات الأقدمين وتقاليدهم: العبرانيين والكنعانيين وأهل مدين وغيرهم. تناول الطعام بعيدا عن الآخرين معناه المعيشة بعيدا عنهم ومن ثَمّ التزاوج بعيدا عنهم وعدم الاختلاط بهم. الذى تنشأ عنه العزلة الجينية. رفض المصريون صحبة الرعاة من اليهود - كما عمدت باقى الأمم - وساعد هذا على توحيد جينات اليهود وانفصالها عن بقية البشر. العامل الثالث فى القانون اليهودى عمل على النشر المنتقى لتلك الاقوام، أى على بذرة إبراهيم وبنى إسرائيل، بزيادة الخصوبة والحفاظ على الذرية، وفى هذا الشأن يتغلب العلم على الخرافة. منع القانون اليهودى - ما كان متبعا فى المجتمعات الإنسانية السابقة - من حرمان غشيان المحارم. ثم تدرج فى هذا الشأن من أنْصَاف الأخوات: عندما اغتصب أمنون ابن داوود اخته نصف الشقيقة تامار، انتقم شقيقها لها ولم ينتظر عقاب الكاهن. يشجع القانون الموسوى على الإنجاب بكافة الطرق والوسائل - على عكس ما كان متبعا فى كافة الأمم السابقة فى الشرق القديم فيحرم اللواط (مضاجعة الذكور) والعلاقات الجنسية الشاذة بين الإنسان والحيوان، والإنماء الذاتى (العادة السرية) ويشجب قتل الأطفال، والبغاء للنساء لليهوديات، والتشبه بالجنس الآخر، ويرفض تماما وبكل قوة الإتيان بهذه المحرمات فى أماكن العبادة، منع كل هذه الأشياء يشجع على النسل، كما يشجع عليه مبادىء النظافة التى تحض عليها التعليمات اليهودية. يعفى القانون المتزوج حديثا من الخدمة العسكرية لمدة عام لضمان أن تحمل زوجته ويحكم بأشد العقوبات والتشويه على المرأة التى تقتلع خصى الرجل الذى يشتبك مع

زوجها (بقصد مساعدة ذلك الزوج فى معركته). يحتم القانون اعتزال الأزواج لنسائهم عند الحـ (لاتقاء الأمراض التناسلية)، ويحبذ للرجل أن يتزوج من أرملة أخيه بعد وفاته ليحفظ ميراثه د العائلة.

باختصار يحبذ القانون الموسوى كل من يطيعه، وتدعم الفقرات الجنسية من هذه التعليم تكاثر الأفراد وتحض على نمو الجنس اليهودى وإزدياد أعداده (ولا تفعل ذلك بالنسبة للأجن الأخرى التى تعبد أربابا مختلفين عن رب اليهود). تنتقى تلك التعليمات الكهنة فى المقام الأول من يتبعون أوامرهم ويتجنبون نواهيهم فى المقام الثانى، وهكذا ضمنت هذه التعليمات بقاء الجـ اليهودى على مر العصور: بقوا فى عهود الأسر وفى عصور الشتات وفى أزمنة الاضطهاد.

ولكن اليهود – دائما – لم يكونوا جنسا واحدا متماثلا، بل ضم أجناسا مختلفة وتتطور دا ويوضح الجدول رقم (٦) تطور اليهود فى العصور القديمة وأهم الأحداث التى مرت بهم.

جدول رقم (٦)

تطور اليهود منذ عام ١٧٢٠ ق.م.

الحـــــــدث	الأعـــوام
الهكسوس فى مصر	١٧٢٠ – ١٥٥٠ ق.م.
الغزوة العبرية (يوسف)	حوالى ١٦٠٠ ق.م.
خروج العبريين من مصر (موسى)	١٣٠٠ ق.م.
احتلال الإسرائيليين لفلسطين (يوشع)	١٢٥٠ ق.م.
نشأة الملكية (صموئيل وشاؤل)	١١٠٠ – ١٠٠٥ ق.م.
مملكة داود وسليمان	١٠٠٥ ق.م.
أورشليم تصير بيت المقدس – ظهور الكتابات المقدسة الأولى	٩٢٥ ق.م.
مملكتى اسرائيل ويهوذا (أنبياء بنى اسرائيل) – التهديد الأشورى.	٩٢٥ – ٧٢٢ ق.م.
سقوط ساماريا (نفى إسرائيل إلى نينوى)	٧٢٢ ق.م.
سقوط بيت المقدس (نفى يهوذا إلى بابل – نبوختنصر)	٥٨٦ ق.م.
الأسر البابلى	٥٨٦ – ٤٥٢ ق.م.
قورش يفك أسر اليهود وبداية العودة إلى بيت المقدس وإعادة بناء المعبد.	٥٣٩ ق.م.
انتشار المستعمرات الإسرائيلية فى أنحاء الإمبراطورية الفارسية	٤٥٠ ق.م.
بناء مدينة الأسكندرية مع ضمان الامتيازات اليهودية	حوالى ٣٣٠ ق.م.
ترجمة كتب موسى إلى الإغريقية (أسفار موسى الخمسة الأولى من العهد القديم).	٢٨٠ ق.م.

هناك أربعة أحداث هامة مرت بفلسطين فى العصر القديم. أولها انشاء مملكة موحدة عاصمتها أورشليم بواسطة الملك داوود. ثانيها تقسيم تلك المملكة إلى مملكتين، اختصت قبيلتان بمملكة يهوذا واختصت القبائل العشرة الأخرى بمملكة اسرائيل واتخذت لها عاصمة فى سماريا. الحدث الثالث هو ترحيل أهالى إسرائيل إلى نينوى وأهالى يهوذا إلى بابل، ورابع هذه الأحداث كان عودة اليهود من بابل بعد فك أسرهم والإفراج عنهم في منفاهم. بدأ الملك داوود كقائد للمرتزقة الفلسطينيين (الذى جاءوا للبلاد عن طريق البحر وكانوا يتقنون صناعة السيوف والرماح من الحديد واحتفظوا بسر الصنعة لأنفسهم ولم يعلموها لليهود). لايعرف بدقة أصل داوود ولا منشؤه، ولكنه حاز على التأييد الحربى للقبائل وعلى مباركة اللاويين لتنفيذ خطة متكاملة، عسكرية وسياسية. انقلب على زعماء الفلسطينيين وطردهم ثم استولى على المقام المقدس فى أورشليم ثم عين طائفة أخرى من الكهنة (من بيت زادوك) فى عاصمته الجديدة. عزز داوود مركزه بالزواج من بنات عدد كبير من صغار الملوك، ومن ثم وحد أراضى فلسطين كلها تحت حكمه. وسع ابنه سليمان من بعده مملكته وجعلها امبراطورية تمتد من نهر أورونتس إلى خليج العقبة وشملت مناجم النحاس الشهيرة. عقد سليمان المعاهدات مع عظماء الملوك وتزوج بناتهم ووسع التجارة في جميع أنحاء فلسطين بشكل لم يعهد من قبل. تحققت هذه الانتصارات من جمع القوة العسكرية والأسلحة المتقدمة للفلسطينين مع الكثرة العددية لليهود، والحكمة السياسية التى تمتع بها. كانت النتائج تفوق مقدرة الأهالى على استيعابها وتتعدى تقاليدهم الدينية. لم يكن الزواج السياسى مع الأجانب مقبولا لديهم ولم يكن استيراد آلهة أغراب عن إلههم الواحد شيئا يمكن السكوت عليه. كان استخدام جنود مرتزقة من الأجانب يحمل آثارا مدمرة على كيانها وعلى قوانينهم التى حرصوا على تطبيقها بكل دقة. فقد نقاء معتقداتهم وضاعت هيبة كهانهم، ونشأ الخلاف بين الملوك والأحبار. قلل الكهنة من شأن المكاسب المادية الدنيوية وأثاروا الجماهير لتغلغل الأجانب فى مجتمعهم. ظهر داوود فى التاريخ كبطل مقدام له سلوك مشين وسطع سليمان لحكمته وحسن إدارته للأمور، وعزى ثراؤه الشديد لتصريفه الحكيم لشئون المملكة، تنسب بعض عيون الأدب اليهودى لكل منهما، ويعاب عليهما الاستهانة بتعاليم كهنة اليهود (وينسب لكل منهما أنه أطلق على أحد أبنائه الاسم البغيض «بعل» وهو اسم لأحد آلهة الفينيقيين أو الكنعانيين). من الطبيعى أن يتمخض هذا الصراع بين الدين والدولة عن انحلال الإمبراطورية، وتقسيمها إلى مملكتين. احتفظت المملكة الجنوبية بالمقام المقدس فى عاصمتها، الذى تم وضعه فى معبد بناه الفنانون الكنعانيون طبقا لتصميم مصرى. أما المملكة الشمالية فقد دب فيها الفساد لصلاتها المشبوهة بملكات فينيقيا وكهنة بعل، وسقطت تباعا تحت النهب المتتالى للغزاة الشماليين.

استمر الصراع بين التعليمات الدينية وبين الغزاة من الأجانب مستمرا فى كلتا المملكتين لعدة أجيال، حتى انتهى بسقوط الجميع ووقوعهم فى الأسر ونفيهم من أرض كنعان.

قبض نبوختنصر على معظم أفراد العائلة المالكة في أورشليم، وعلى خلاصة المحاربين والحرفيين، وعين محلهم ملوك خونة اشتركوا فى حكومات دمية، ولم يتبق هناك سوى أفقر الخلق. فر بعضهم إلى مصر (وإلى غيرها من البلاد) وبعد العودة من المنفى وُجِد قلائل من نبلاء يهوذا لاستلام الحكم. اختفت قبائل إسرائيل كما ضاع ٢٧٢٩٠ أسيرا من ساماريا (بعد أن فقدوا دينهم) وتم امتصاصهم مع باقى الأفراد فى الديانات الأخرى فى الامبراطورية الأشورية. لم يتبق سوى حكام يهوذا (وكهنتها)، ولم يحتفظ غيرهم بالديانة اليهودية. وهكذا بقوا على مر الزمن كمجتمع وكجنس. بعد العودة من المنفى انقسم اليهود لأقسام عدة: بعضهم ظل في بابل وبعضهم عاد إلى أورشليم وبعضهم تشتت فى جميع أنحاء الإمبراطورية الفارسية، مكونين مستعمرات من التجار (الذين ظلوا تجارا)، أو صاروا جنودا (فى إلفنتين بمصر، ثم اختفوا) أو أقامو بالأسكندرية ورحبوا بمقدم الاسكندر الأكبر عند بدايه العهد الجديد. اليهود الذين أقاموا فى الأجزاء الغربية من الإمبراطورية الفارسية هم وحدهم الذين ظلوا على قيد الحياة وأمكن تتبعهم منذ فجر التاريخ. كان دينهم في أيديهم (أو فى أيدى معلميهم)، وظل محفوظا وغير قابل للتدمير. كان لهم وضع فريد فى المجتمعات التى أقاموا بينها. لم يكونوا أمة، ولم يكونوا طبقة، بل كانوا جماعة تميزت بالمهارة اليدوية والعقلية الذكية، اختلفت عن باقى الجماعات فى نقطتين. أولهما أنهم انعزلوا عن التزاوج مع كل مادونهم من الجماعات، وثانيهما أنهم تحرروا تماما من سيطرة أقرانهم من الحكام العسكريين. كان مفكرو اليهود أحرارا تماما، وسخروا هذه الحرية لخدمة أبناء جنسهم. أعادوا كتابة تاريخهم واستخدموه لتطوير قوانينهم. أعادوا تنظيم أيام الأسبوع السبعة (وكان هذا من عمل الكاتب عزرا حوالى سنة ٤٤٥ ق.م.)، وكان هذا العمل من أكثر إنجازات اليهود خلودا. استعار عزرا من البابليين اسم «شاباتو»، يوم القمر البدر، يوم الفرحة والبهجة وجعله اليوم العبرى «الشبت»، وجعله يوما للراحة والعبادة يحل كل أسبوع بغض النظر عن كونه يوما مقمرا أو معتما، ثم أكمل عمله واستخرج من سفر التكوين قصة الخليقة، ومن سفر الخروج الوصايا العشر لموسى ووضع ناموسا لايمكن الرجوع عنه (الآن بعد مرور ١٣٠ ألف أسبوع ومن الصعب التفوق عليه حتى نهاية العالم). فى نفس الوقت، فى البلاط الفارسى، تم انتقاء المفكرين اليهود فى الحال، ولعبوا دورا هاما فى التاريخ، دورا قدره الملوك وحسدهم عليه بقية الخلق. لكى يتمكن اليهود من بلوغ هذه الدرجة من النجاح كان عليهم أن

يغيروا من اتجاهاتهم. كان عليهم الحفاظ على دينهم ورفض كل الأديان الأخرى للبقاء، ولكنهم قبلوا الغرباء وتعايشوا معهم. وتوضح كتابات أنبياء اليهود كيف وصلوا إلى هذا التكيف، خاصة كتابات النبى حزيقل.

عمل اللاويون على حفظ مقدسات اليهود وكتابة قوانينهم وحفظها فى السجلات. بعد نشأة الملكية صار لهم المركز الرفيع وكانوا صنيعة الملك ومن الموالين له، وهكذا صار الكهنة مؤسسة من مؤسسات الدولة، ولذا عندما تولى جيروباوم اضطر لتبديل الكهنة فى مملكته، واتخذ هؤلاء مقدسات جديدة لليهود، وتغيرت معها خصائص الشعب اليهودى، وبدأ الاحتجاج فى جميع طبقات المجتمع على أخطاء الحكم وعلى خيانة تراث الشعب اليهودى. ظهرت الأصولية اليهودية كأشد ماتكون: ظهرت جماعة – تعود في أصلها إلى الرعيان – ترفض المعيشة فى المنازل وفلاحة الحقول وشرب الخمر. وكان الداعون لهذه المبادىء هم من أطلق الناس عليهم اسم «أنبياء بنى إسرائيل» وكانوا مقدمة لآخرين من المعلمين الذين ظهروا بينهم. جاء هؤلاء – الأنبياء – من جميع فصائل المجتمع. كان بعضهم من الفلاحين الأثرياء (مثل إليشا) وبعضهم من الفلاحين الفقراء (مثل مكياح)، بعضهم من الفلاحين وبعضهم ن الرعاة (مثل آموس). جيرمياح وحزيقل كانوا من اللاويين، وكان أسياح من سكان مدينة أورشليم. كان كل من هؤلاء يؤمن برسالة ويدعو لفكرة ويحاول إقناع الناس باتباعها. ما فعله هؤلاء الناس كان فريدا فى هذا الزمن القديم. كان الأنبياء يتحدثون بحديث ويكتبون أفكارا مخالفة للمؤسسة الحاكمة، وقد بقيت كتاباتهم على مر الزمن. حفظها أتباعهم لأنها كانت شعرا رفيعا، يحوى أفكارا اجتماعية عميقة ذا مغزى تاريخى عظيم. أحدث هؤلاء الدعاة انقساما عميقا بين الحكام والمحكومين، وكان أساس الهوة هو الصراع بين القوة السياسية والوحدة الدينية. قطع إليا التحالف مع فينيقيا (وفقدت الدولتان استقلالهما)، وتم وضع جير مياه فى السجن لأنه تنبأ بالمصيبة القادمة، وتم قتل عدد كبير من هؤلاء الأنبياء. إزداد شأن الأنبياءواليهود فى الأسر، بعد أن تحرروا من جبروت السلطة الحاكمة: اتسعت أفاقهم – كما يظهر فى كتابات حزيقل وأسياح الثانى – وظهر العمق فى أفكارهم، وظهر للعيان ما كان مستترا من منجزاتهم. أهم ما جاء به أنبياء بنى إسرائيل هو رفض الآثار العاجلة للسياسيين فى سبيل المصلحة الدائمة والآجلة للشعب، مع شجب كل صنوف الفساد. ما أكده أولئك الفلاسفة فى المنفى هو أن الحفاظ على الدين والطقوس والقوانين والتعليمات هو السبيل للحفاظ على الشعب اليهودى بأكثر مما تستطيع قوة الدولة البابلية، الحفاظ على عظمة الامبراطورية. كانت هذه دعوة للعمل بالإضافة إلى أبعادها الروحية، وقد نجحت وثبتت صحتها فقد سقطت الدولة البابلية وبقى اليهود. حافظ أنبياء بنى إسرائيل على الأمة اليهودية، وحافظت الأمة اليهودية على أنبياء بنى اسرائيل.

تزعم الأساطير اليهودية أن اليهود ينتمون مباشرة إلى آدم، ويختصرون سبعة آلاف عام إلى نصف هذه المدة ليثبتوا الصلة المباشرة بآدم. يحيل اليهود كل التاريخ إلى صراعات ثنائية: بين قابيل وهابيل، بين إبراهيم ولوط، بين إسحاق وإسماعيل، بين التوأم يعقوب وأساو، وأخيرا بين يوسف وأخواته. كذلك فهناك أنتقاء بين أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافت، ومازالت أسماء أبناء سام: آشور، إلام، وآرام تستخدم حتى يومنا هذا (وتعبر عن الاضطهاد أو العبودية).تعبر هذه التقسيمات عن تصنيفات عرقية بين إخوة، وبين القبائل التى نشأت منهم وبينها فروق فى طريقة الحياة وفى العادات والتقاليد مع استقرار الناس أو تفرقهم، بين الحياة المستقرة فى الزراعة والحياة المتنقلة فى الرعى. يحمل تاريخ اليهود كله انتقاء ثم تكاثر فى أحد الفروع. ضمرت ذرية موسى واختفت بينما ازدهرت ذرية هارون وتولت القيادة الدينية لليهود، ثم أحل حزيقل نفسه فرع زادوك محل اللاويين العاديين وهكذا. كان أسياخ الأول، ومن بعده حزيقل هو الذى نادى بمبدأ «البقاء للبقايا» (وفى هذا يشابه المبدأ البيولوجى الذى يقرر أن «البقاء للاصلح». وأثبتت الأحداث التاريخية المتتالية صحة هذا المبدأ (مثل بقاء مملكة يهوذا بعد فناء مملكة إسرائيل). أكدت طريقة معيشة اليهود فى الأسر قاعدة «الغربلة» لإلقاء ما يسقط فى الطريق والحفاظ على ما يستحق البقاء. الحفاظ على القوانين اليهودية والتمسك بها بكل قوة وحزم، كما وضعها الأحبار - حافظت على جماعة من اليهود داخل الممالك المختلفة ومنعتها من الذوبان فيها وابتلاعها حتى عهدنا الحاضر (كما يلاحظ الزائرون لقبر عزرا فى حمدان). تأتى هذه القواعد - كما وضعها جيرمياه - هو محاولة المعيشة فى سلام فى المدن التى يتشتتون فيها، أى يتعودون على الحياة فى المجتمعات التى يغلب عليها غير اليهود ويتكيفون معها ويتعلمون الإسهام تدريجيا فى رخاء تلك المجتمعات التى يتعاقب على حكمها الغرباء. يعنى هذا إحراز النجاح لطائفة من الأمة فضلت التعاون بدلا من التصادم والعودة إلى أورشليم. هذه القاعدة كانت «غربلة»، بطريق ما انتقت اليهود الذين يريدون العودة من اليهود الذين يفضلون البقاء فى الغربة. استمر اليهود - هكذا - فى حالة تغير مستمرة، يفقدون بعض عناصرهم القديمة ويكتسبون عناصر أخرى جديدة. نشأت طبقة جديدة من الكهنة - تحت الحكم الفارسى - وتولوا القيادة فى أورشليم، ثم نشأت فئة من المفكرين تحت تأثير الفلاسفة الإغريق، وحل الأحبار الفاريز بين محل الكهنة البدائيين الذين اختفوا بعد تحطيم الرومان لمعبدهم سنة ٧٠ ب.م.

كان انتصار الشعب اليهود فى أثناء الأسر البابلى والفارسى نتيجة للتطور الجينى الذى يمكن ملاحظته وتتبعه. إذا طالعنا تقريرا عن غزو يوشع للأرض الموعودة لانجده مختلفا عما يفعله أى جبار عند انتصاراته من قتل الأعداء وتدميرهم واستبعادهم، أما إذا قرأنا الدستور الذى جاء به سفرتثنية الاشتراع وطالعنا قواعد معاملة العبيد لرأينا المبادىء الرحيمة البابلية القديمة قد عاودت

الظهور، وشاهدنا التحسينات التى دخلت على قوانين حامورابى. بالإمكان اتخاذ الأمة الأجنبية عشيقة، ولكن ذريتها تقبل فى المجتمع اليهودى، وهكذا تتسع الحلقة اليهودية ويحدث التهجين الذى يعقبه التطور. التطور الذى يخضع للتقاليد (أو بالرجوع إلى أصول التوراه)، وللقانون وللتنوير (كما أفاد عزرا). اختفت قبائل اليهود العشرة التى لم تخضع للأصول، من التاريخ، ولكن جدت أمور أخرى وقامت الثورات. نشأ عن محنة الأسر ازدياد تمسك اليهود بتعاليمهم الدينية وظهرت الأهمية التطبيقية لهذه التعليمات. عندما أعاد عزرا الكتب إلى أورشليم فى منتصف القرن الخامس ق.م.، تمت قراءتها فى معابد أقيمت خصيصا لهذا العرض، وارتفع مستوى التدريس، وزادت الثقافة وحل التنوير، وظهر اتجاه عقلانى جديد للدين. استبدلت الطقوس التى تمارس فى المعابد، وحل محل الكهنة التقليديين المدرسون العالمون الذين بإمكانهم تبادل الحوار مع جمهور المصلين، وتحول الناس – لأول مرة – إلى دارسين للتاريخ والدين ومكارم الأخلاق. نتيجة لهذه الممارسات، والرجال الذين قاموا بهذا التعليم بأنفسهم، تمت الخطوة التالية فى خلق الأمة اليهودية، وبدأ الإسرائيليون يشكلون تاريخهم ويدفعونه للأمام دفعا. تتضح ذروة هذا الاندفاع فى كتاب أيوب (الذى كتب بعد انتصارات الاسكندر الأكبر)، ثم فى بعثة عيسى وفى كتابات بولس. هكذا تمت كتابة الكتاب المقدس، الذى يعتبر تحفة أدبية رائعة وقمة من قمم الإنسانية. حوى الكتاب المقدس كل صنوف الأدب (باستثناء الكوميديا التى غطتها الآداب الإغريقية المعاصرة لكتاب أيوب).

الباب الرابع

نشــأة الامبراطــوريات

الامبراطورية الفارسية

نشأت في الهضبة الكبرى شمال وشرق أرض الرافدين أقدم المستعمرات الزراعية. خلال الألف سنة الرابعة قبل الميلاد، تبادل سكانها مع أثرياء أرض الجزيرة مصنوعاتهم وتجارتهم، وعلمهم الكتاب القادمون من سومر مبادىء الكتابة في الألف سنة الثالثة ق.م.، ثم بدأت الحروف التصويرية تستبدل بالحروف المسمارية، وربما تكون عجلة الفخراني وفرنه لحرق الفخار قد بدأت في إيلام. أتت الألف الثانية ق.م. بالأسلحة البرونزية بديلا عن التجارة كوسيلة لاختلاط الناس وتبادل الأفكار والأنساب. بدأت الحرب أولا بين بابل وإيلام ثم انتشرت شمالا وتبادلت الأسر الحاكمة بين المرتفعات والسهول الانتصارات في الحروب ثم التزاوج لإقرار السلام. في هذا الوقت بدأت التحركات الكبرى للجنس الآرى من شرقى بحر قزوين نحو الجنوب، التحركات التى أعطت اسم إيران للمنطقة بأسرها. استمرت هذه الهجرات على مدى ألف عام واشتركت عدة قبائل فيها. شكلت القبائل الشرقية الهند وتسللت أعداد كبيرة إلى إيران. كان الغزاة الأولون سلميين في تغلغلهم، ثم كثرت أعدادهم وصاروا محاربين – مثل جماعات الميديين والفارسيين خلال القرن الثامن ق.م. توغلت قوات خفيفة وسريعة من الكيثين والكيميرين حتى وصلت إلى مصر. يعزى النجاح العظيم الذى حققته تلك القوات السالفة إلى خيلهم القوية وإلى رماتهم البارعين. كانت هذه القوات هي أول من بدع سلاح الفرسان، ومن بعدهم قلدهم الأشوريون وحذا حذوهم الإغريق ثم الرومان، وثبت أن الجنود الراكبين على ظهور الخيل هم العامل الحاسم في الحروب، يحول أولئك الغزاة قرى المزارعين القديمة إلى معسكرات حصينة يحكمها طبقة من العسكرين الإريانيين تولوا إخضاع البلاد والدفاع عنها. نتج عن التهجين الذى حدث بين الإريان الغزاة الفاتحين وبين أهل البلاد الأصليين من المزارعين ومن زاولوا الصيد والقنص آثار بعيدة المدى، وحيوية فائقة، على المستويين الاقتصادى والعسكرى، وكذلك على مستوى الحرف والفنون، فقد ظهرت في القرن الثامن ق.م. مصنوعات من البرونز تبين مهارة الحرفيين من الأشوريين الذين عملوا تحت توجيه الرؤساء السكيثيانيين. كان انتصار سارجون الأشورى على

مملكة الميدين هو النجاح الأخير الذى أحرزته حضارة بلاد الرافدين ضد القوى المتعاظمة للوافدين الجدد. بعد قرن من الزمان كان ما تعلمه الميديـون من الآشـوريين، وما اكتسبوه ممن تغلبوا عليهم – ومنهم كثير من النسـاء – كافيا ليقلبوا عليهم المائدة. فى عام ٦١٢ ق.م. تحالف الميديون مع البابليين. تغلبوا على نينوى، وسرعان ما ضموا إليها الأجزاء المجاورة من أرمينيا ومن بلاد فارس واخضعوها لحكمهم، وجعلوا عاصمتهم فى إكيتانا (مدينة حمدان اليوم) حيث كان موضع قصر اجتماعات الميدين، على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، الذى حصنوه ليقاوم أى عدوان من الأشوريين في المستقبل، وكان بعيدا عن خط مرور القوافل التجارية وتحركات القوات العسكرية. كانت مملكة الميدين هى العمل التمهيدى ومقدمة للامبراطورية الفارسية والتى تبعت تلك المملكة بعد ستين عاما.

حوالى سنة ٧٠٠ ق.م.، نشأ حاكم قبيلة فى واد بعيد معروف لديهم باسم «بارسوماش» (ويعرف الآن باسم لوريستان) وأطلق على قومه اسم «الفرس». وكان اسمه «أخامينين» (كما نقله لنا الإغريق). كان حفيد هذا الرجل يدعى «أريارامنس»، وهو أول من ترك لنا أول ما خطه إنسان باللغة الفارسية من ملك الفرس، وكان وصفه لبلاده «بلاد بها خيل جميلة وبشر أفاضل طيبون»، وسرعان ما تأكدت هذه العبارة. كتبت هذه العبارات بالأبجدية الفارسية، بالخط المسمارى، الذى كان جديدا على بلاد فارس. من الواضح أن حاكما فارسيا قد التقى أحد الكتبة البابلين وفى الحال اتخذ القرار بكتابة لغته، واستخدام أحدث الخطوط فى كتابتها، وهكذا كان حسمه السريع فى هذا القرار مؤشرا لنجاح أسرته فى بلوغ شأنا عظيما بعد أجيال قليلة. بعد أربعة أجيال تزوج ابن أخ أريارامنس، قمبيز الأول، من ابنة ملك الميديين، وهكذا توحدت الأسرتان المليكتان، ونشأ عن هذه الوحدة آثار بالغة الأثر (حسب قول هيرودوت). أنتجت الوحدة حيوية فائقة فى الأسرة المالكة مع ضمان الملك والحفاظ عليه مستقرا. بعد ستة أعوام من اعتلاء عرش الإمارة، كون قورش، الأمير الجديد، اتحادا يضم سبعة أقاليم ثم ثار على جده واستولى على العرش. لم يدمر قورش مدينة اكبتانا ولم يقتل سكانها، بل عاملهم كأصدقاء واستخدمهم كمعاونين، وجعل من المدينة عاصمة لمملكته وصار ملكا لشعبين متساويين، الميديين والفارسين. أعقب هذا النجاح الأولى سلسلة متتالية من الانتصارات. هزم وقبض على كروسس، ملك ليديا، ثم حرره، ثم استولى على الامبراطورية البابلية، واتخذ من بابل عاصمة لبلاده. لحماية حدوده الشرقية أخضع بارثيا وتغلغل حتى سمرقند. ثم أضاف عاصمة ثالثة لمملكته، مدينة سوسة، عاصمة إيلام القديمة التى تقع على بعد ثلاثين ميلا جنوب غرب مدينة ديزفول الحالية، حيث تلتقى الجبال مع السهول وحيث تجرى أربعة أنهار لتصب فى الخليج الفارسى. صار المكان – الذى ظل طوال ثلاثة آلاف عام – السوق التى تشترى منها الجيوش احتياجاتها، وتدخل منه الأفكار إلى بلاد الفرس، صار هذا المكان مركز التقاء اتحاد عظيم من البشر اتحدوا تحت قيادة

حاكم واحد. يرجع نجاح قورش إلى مهارته الحربية ودبلوماسيته الحكيمة، لم يجاريه فى حذقه محاربو ليديا ولافرسان الإغريق، ولم تتفوق الجيوش المختلفة على ركبانه سريعة التحرك ولا على فرق جماله الحربية. كلما صادف المنتصر نجاحا عدل من خططه لاستغلال إمكانيته الجديدة التى صارت فى حوزته. سقطت المستعمرات الإغريقية فى الأناضول واحدة تلو الأخرى فى معارك حربية أو نتيجة الرشوة والفساد (خاصة الذى أصاب كهنة دلفى) أو من المعلومات السرية التى جمعها التجار ويلغوها لقائد فارس (التى صارت أكبر سوق حرة فى العالم). مات قوروش وهو يحارب على الحدود الشرقية لامبراطوريته، تاركا مُلكا عظيما وامبراطورية شاسعة لخلفائه. احتل خليفته قبميز الثانى (الذى بدأ حكمه باغتيال أخيه) مصر، ثم تزوج أخته. بعد وفاة قمبيز ووفاة شقيقه، انتقل الحكم إلى ابن عمه (الحفيد الأكبر لأريارامنس)، دارا العظيم.

أثبت دارا أنه حاكم بارع وعظيم مثل قوروش العظيم مؤسس الأسرة الحاكمة الفارسية. كان حازما فى إدارته لشئون الحكم وفى حسن تصريفه للأمور. نعرف تاريخ هذا الملك أساسا من النقش المكتوب بلغات ثلاثة فى بسيتون، التى تقع فى منتصف المسافة على الطريق الرئيسية لكباتانا وبابل (أو فى منتصف المسافة بين الصين وساحل البحر المتوسط)، يعلن هذا النقش: ليكن معلوما لجميع أهالى بابل وايلامايت وفارس منجزات ملك الملوك، وكيف أنقذ مملكته من التفكك وكيف أعاد الضبط والربط إليها وصارت ثانية خاضعة لملكه بعد أن هزم ثمانية ملوك فى ستة عشر معركة. وقد أكدت هذه الوقائع جمع القرائن الأخرى. ما جعل دارا ملكا عظيما هو أنه عرف إمكانات الآخرين وكان لديه الاستعداد الكامل لاستخدامهم، كل فى موقعه وكل حسب مؤهلاته. استغل مهارة الآخرين واستفاد من إبداع كل شخص فى مملكته وجعله هذا باكورة لعهد جديد، ولإعادة بناء الإمبراطورية التى أنشأها جده العظيم قورش. حكم رجل واحد إمبراطورية مترامية الأطراف. كانت مشكلة دارا الأولى هى كيف يسيطر على دولة يبلغ اتساعها ألفى ميل من عواصم تبعد عن مراكزها الاستراتيجية والتجارية. الحلول التى بدعها – والتى تبعها من بعده حكام الامبراطوريات الشاسعة – تلخصت فى ثلاثة مبادىء : اللامركزية، وسهولة المواصلات ويسر الاتصالات، وقبول الآراء المختلفة وتحملها. كانت لديه من أول الأمر ثلاثة عواصم، ثم أضيفت لها عاصمة رابعة – تخت جمشيد – لتقام فيها الاحتفالات العظيمة. قسم دارا امبراطوريته إلى عشرين مقاطعة، وعين لها حكاما عسكرين فارسيين مع وضع ضباط فارسيين فى كل مدينة من مدن الإمبراطورية. أدار هؤلاء الحكام العسكريون إدارتهم بمعاونة المديرين السابقين الذين خدموا الممالك السابقة. استطاع هؤلاء الاستعانة بالأبجدية الفينيقية، واللغات الآرامية والإغرقية والقوانين البابلية وعملات ليديا والجنود المرتزقة من الإغريق، وكل ما هو متاح فى الساحة من التقنيات المتقدمة والتقنين لخدمة الإمبراطورية الفارسية.

لقد كان حسن تنسيقهم للاستفادة، من هؤلاء الأفراد المختلفين والطرق المتباينة والأفكار المتف
هو الذى مكن الفرس – كما حكى هيرودوت – من بلوغ النجاح الباهر. وضع دارا – داخل ولا
حكمه – عددا كبيرا من المديرين المساعدين. كان هناك الولايات المدنية والمجتمعات الق
والأبعديات الشخصية، ومناطق النفوذ الملكية (وتشكل منتزهات الصيد والقنص). ثم كانت ه
محافظات المدن، وتقع كلها فى غرب البلاد (أما الشرق فلم يحوى سوى القرى). لم تكن تلك ال
تحكم على نمط حكم المدن اليونانية فى أيام غلبة الديمقراطية، بل كانت تحكم بطغاة كانوا على د
وثيقة بأحوالها وكان يتم تعيينهم للالتزام بتطبيق سياسة الدولة ورغبات ملك الملوك. يسجل لنا
فى نقوش – بفخر شديد – قائمة بالأعمال التى أنجزها والعمال الذين استخدمهم للقيام بتلك الأ
فيذكر:

١ - الأعمال الخشبية:

كان خشب الأرز يستورد من لبنان – فى فينيقيا – ويصنع بواسطة الآشوريين والكنعا
والأيونيين. خشب الياك كان يجلب من جنذرة ومن كارمانيا وكان يقوم بشكيله وصناعته المصري

٢- الأعمال الحجرية:

الأعمدة من إيلام والقاطعات من أيونيا وساريا.

٣- الطوب:

كان يحرق فى بابل وكانت الحوائط تجمل بواسطة الميدين والمصريين.

٤ - الذهب:

كان يجلب من ساريا ومن بكتريا وكان صناع الذهب من الميدين والمصريين.

٥ - الأحجار الكريمة:

كانت تجلب من سوجديانا ومن خوارزم.

٦ - العاج:

من إثيوبيا ومن السند.

كان الملك مؤمنا بأن عظمته وقوته تنعكس فى كثرة الأمم التى تخضع له وتطيعه بنفس
الذى تخدمه وتصنع له مصنوعاته الباهرة. مما لاشك فيه أن تنوع الحرفيين قد أدى إلى اختلا

ولو أن كل جنس كان يحاول أن يحافظ على نقائه العرقى ما أمكنه ذلك، وساعدهم على ذلك اختلاف ألسنتهم واختلاف مناطق سكنهم وممارستهم لمهنهم، فقد كانت التعليمات الملكية أن يخصص شارع لكل صناعة (ومازال هذا متبعا لدرجة ما حتى عصرنا الحالى).

اختلف الفارسيون عمن سبقهم من الأمم فى اكتساب الحرف والصناعات من غيرهم. الحيثيون – على سبيل المثال – أخذوا أفكارهم فى النحت من البابليين والمصريين، ولكنهم لم يستوردوا نحاتين إذ كانوا يعتقدون أن بإمكانهم القيام بهذا العمل بأنفسهم، ولذا لم يبلغ فن النحت عندهم شأوا عظيما. أما الفارسيون فلم يكرروا هذا الخطأ، واستقدموا خيرة الحرفيين من بلادهم الأصلية وكلفوهم بالقيام بالحرف التى يتقنوها، وهكذا حصلنا على الروائع التى نشاهدها فى تخت جمشيد وفى صوصة.

أهم إنجازات ملوك الفرس كانت التسامح الذى ساد نظام حكمهم. بدلا من قطع رقاب الملوك الذين انتصروا عليهم (كما فعل الأشوريون قبلهم وفعل الرومان من بعدهم)، قاموا بحمايتهم وبعد العفو عنهم قاموا باستخدامهم. فعلوا نفس هذا الشىء مع آلهة أعدائهم: عفوا عنهم ثم استخدموهم. كان هناك عدد لايحصى من الأجناس المختلفة والديانات المتباينة فى الإمبراطورية الفارسية، كل دين ينتمى إلى جنسية مختلفة. لم يكن الفرس أنفسهم من عبدة الأصنام بل كانوا من عبدة الشمس والقمر والأرض والنار والماء. ولكن قورش، ومن بعده دارا، أعطوا الحرية للأجناس المختلفة الخاضعة لحكمهم فى الاستقلال بعبادتهم. سُمح لليهود – الذين كان لهم وضع خاص يتسم بالعطف والتأييد فى مملكة الفرس – بالعودة إلى أورشليم لإعادة بناء معبدهم. وسمح كذلك بإعادة بناء مدرسة الطب بمعبد سايس فى مصر. السبب فى هذه الحرية الثقافية التى سادت المجتمع هو قلة أعداد الطبقة الحاكمة العسكرية، الذين كانت لهم السلطة الكاملة بلا منازع. استطاعت الدولة الفارسية أن تحقق – خلال قرنين من الزمان – ثورة فى التفكير الدينى وفى التركيب الاجتماعى وصهرت كافة المواطنين فى بوتقة واحدة.

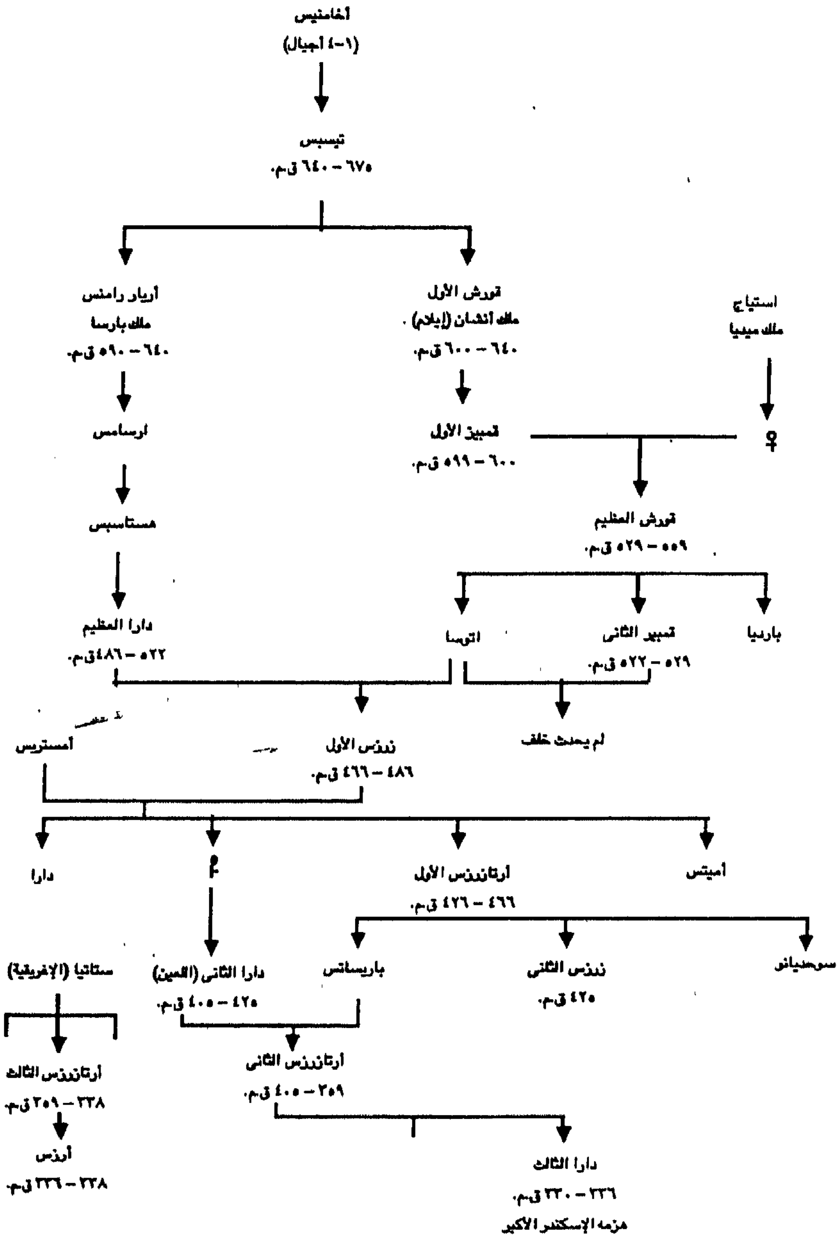
مشاكل خلافة العرش بعد قورش ودارا تركت بلا حل وكانت غاية فى التشابك، واستنعت جهود كبار العاملين فى الدولة الذين اكتسبوا سلطة ونفوذا ومركزا رفيعا. للخوف من طمع الطامعين حرص دارا وخلفاؤه على التزاوج من العائلة المالكة حتي لايخرج العرش منهم. وكما حدث فى أبناء الأسرة الثامنة عشر فى مصر، نشأ عن هذا التزاوج الأسرى، الذى لم يختلط بدم مغاير، ضعف متزايد فى النسل وإلى شذوذ فى الأخلاف مما جعل الحكام التالين يختلفون كلية عن أسلافهم العظام. كان الملكان العظيمان قورش ودارا نتاجا للتزاوج بين عائلات ملكية مختلفة. غير قورش نفسه من هذا

النظام وتزوج ابنة عمه التى ولدت له قمبيز، الذى قتل أخيه، وتزوج شقيقته أتوسا ثم انتحر تاركا العرش بلا وريث وهكذا اندثر هذا الفرع من العائلة. تزوجت شقيقته وأرملته من ابن عم ثالث لها دارا (أو داريوش). حُرم أولاد دارا من زيجات سابقة من توارث عرش أبيهم (لأن أمهاتهم كن من خارج العائلة المالكة)، وهكذا ظل التوارث داخل العائلة فى ذرية أخامينس. انتقل العرش بعد دارا العظيم إلى زرزس الأول نتاج زواج أولاد العمومة (مثل قمبيز). نظرا لقيام الثورات بين أتباعه من الإغريق الأيونيين أعلن الحرب على بقية الإغريق الذين يعيشون فى شبه جزيرة المورة. أخطأ فى إعلان الحرب عليهم التى استمرت عشرة سنوات من هزيمة أبيه – دارا فى معركة ماراثون البرية سنة ٤٩٠ ق.م. – فقد هزم شر هزيمة فى معرك سلاميس البحرية عام ٤٨٠ ق.م. فشل زرزس أيضا فى سياساته الداخلية – كما فشل فى مغامراته الحربية. اضطر زرزس للتضحية بسلام العالم فى سبيل الاعتداء على زوجة وعلى ابنة شقيقه المخلص الذى قتله، ثم قُتل هو نفسه بواسطة وزيره الأول الذى وضع خليفة على العرش مكانه. يروى المؤرخ الإغريقى هيرودوت تفاصيل تلك الأحداث، كما تذكر فى كتاب إستر (من العهد القديم)، ولكن لم يأت لها ذكر فى كتاب دانيال. يقال أن خليفة زرزس قتل أخواته وتزوج من أخته له. اغتال ثلاثة من أبنائه أسلافهم ولكن من بقى منهم – دارا الثانى، الملقب بدارا اللعين أنجب من زوجته – وهى أخته – ابنين. كان أرتاكزرزس الثانى وريثه فى العرش ووريث هذا الأخير ارتكزرزس الثالث (الذى قتل حفنة كبيرة من إخوته وأخواته). ضعفت المملكة ضعفا كبيرا من جراء القتل والاغتيال والمؤمرات حتى سقطت أخيرا فى عهد دارا الثالث على يد الاسكندر الأكبر (جدول رقم ٧).

هكذا نشهد صعود امبراطورية عظيمة من الأخيمينيين وامتلاكها لمعظم العالم القديم ونشهد حسن إدارتها للأمور وجودة حكمها فى أول الأمر، ثم نشهد هبوطا سريعا لتلك الامبراطورية ودمارها على يد أبنائها، الذين استمروا التزواج من بعضم البعض ولم يدخلوا دما أجنبيا عنهم يزيدهم قوة وصلابة ويكسبهم حكمة وعقلا. خدعتهم أنهم صاروا أكبر قوة فى التاريخ، قوة لم يسبقها مثيل، وأعتقدوا أن سفاح القربى والاستيلاد الداخلى وقصر التزواج بينهم فى أضيق الحدود، سيحفظ المُلك لهم، فى نطاق العائلة المالكة واعتقدوا أن اغتيال أقرب أقربائهم سيحفظ المُلك للمَلك، وان استخدماتهم للخصيان سيحفظ الاخلاص لأشخاصهم والتفانى غير المصحوب بالطموحات فى خدمتهم، وأنه سيكون عاصما لهم، ولكن خاب أملهم فى كل ما سعوا إليه. أثبتت تسعة أجيال متتالية أن الانتقاء عن طريق الاغتيالات كان مدمرا لتلك الأسرة المالكة فى حين أن الانتقاء من بين نسل وافر هو السبيل إلى الاحتفاظ بالحكم. ثبت أن الخصيان دائما يسعون إلى تملك السلطة وتجذبهم شهوة الحكم (كما ثبت مرارا وتكرارا فى سجلات التاريخ)، وأن مآزق الملوك والملكات قد تؤدى إلى نفس العواقب السيئة التى تؤدى إليها هجرة الملايين من مواطنيهم، وأن أخطاء الحكام قد تؤدى إلى هلاك الشعوب.

جدول رقم (٧)

شجرة عائلة الأخامينيين وسنوات حكم الملوك



لو سلك الفرس مسلك ملوكهم خلال قرنين من الزمان لتراجعت الإنسانية ثانية إلى الظلام وانتهت الحضارة التى بدأها الإنسان فى بلاد الرافدين وفى وادى النيل لأمد بعيد. معظم الناس عاشوا فى سلام واستمر تقدمهم حثيثا، كأسلافهم، بل وزادوا عليه. كان التركيب السياسى للدولة يتحطم ولكن الحياة الثقافية والاقتصادية للعالم القديم كانت مستمرة فى التقدم والازدهار، وساعد على هذا حرية الانتقال من مكان لآخر، خاصة فى حرية انتقال النساء. نقل دارا العظيم الدجاج والطاووس وقصب السكر إلى البحر الأبيض المتوسط من الهند، وانتقلت الحروف الأبجدية (الآرامية) بالعكس إلى شبه القارة الهندية. بناء على تعليمات دارا نفسه نقل الفرس السمسم إلى مصر والأرز إلى أرض الجزيرة، وانتقلت الزراعة على نطاق واسع إلى أوروبا وإلى الهند والصين (واستمرت هذه النقلات الحضارية تتم فى خطوات حاسمة حتى عصرنا الحاضر)، وفى كل خطوة يتوسع المحصول وتثرى موارد مختلف المناطق الطبيعية فى العالم. كان لانتقال الحيوانات أثر سريع وحاسم. أدخل الفرس خيل الركوب القوية، المحسنة من الميديين إلى جميع أرجاء الامبراطورية الفارسية، وإلى ماعداها، إلى أوروبا فى الغرب وإلى الهند والصين فى الشرق. بعد قليل أدخلوا زراعة البرسيم ليكون طعاما للخيل. أدخل استخدام الخيل فى الحروب قوة عسكرية رهيبة إلى قمم جبال لم يصل إليها الإنسان من قبل ولم يفرض سلطانه عليها. (بدخول هذا السلاح الجديد فى الحروب إلى مقدونيا أكسبوها قوة ومكنوها من الانتصار على الفرس أنفسهم فيما بعد). أكسب الحصان قوة لمن تمكن من السيطرة عليه واكتسبت الطبقة التى تمكنت من الاحتفاظ بالخيل سلطانا فوق سلطانها. انقسم الجيش إلى الخيالة، الراكبة، الثرية وإلى الجنود المشاة الفقراء وكانت هذه هى الخطوة الأولى لتقوية مركز الطبقات الحاكمة وتعزيزها ومد سلطانها على بقية الناس، الطبقات التى نشأت – منذ عصر البرونز – من قبائل الرعاة من السامين والإريان. فى البداية أدهش قورش العظيم الجميع بهزيمته لخيالة كورسس (وتمكن من هذا باستخدامه للجمال ذوات السنامين فى المعركة). ثم تمكن قمبيز من بعده من استخدام الجمل العربى (الذى قد تم استئناسُه منذ ستة قرون وكان يستخدم لنقل التجارة من اليمن إلى مدين فى طريق التوابل) وكان أهالى مدين هم الذين يقومون بقيادة الجمال. ثم تكاثرت الجمال وتكاثر مربوها فى شمال أفريقيا حتى بلاد البربر (وهناك لقيهم الإغريق وأطلقوا عليهم اسم «البدو» الهائمون على وجوههم فى البلاد). ومن شمال أفريقيا عبرت الجمال ومعها البدو الصحراء الكبرى إلى أفريقيا وبدأت تجارة الرقيق من الزنوج، ونشأ جنس جديد من الناس «الطوارق» الملثمون. انتشرت الجمال أيضا من شبه الجزيرة العربية إلى الحبشة وإلى الصومال، وأينما ذهبت الجمال تبعتها الخيل والماعز. نتج عن انتشار الماعز (على وجه الخصوص) فى الأرض قليلة المرعى الواقعة على حافة الصحارى كشط كل نباتات تلك المناطق (حيث أنها الحيوانات الوحيدة التى

يمكنها الرعى فى هذه الأماكن مهما قلت نباتاتها)، واتسعت الصحارى وتجردت الأراضى خلال الألفى عام التالية مما يعود بالمصائب على البشر من سكان تلك الأماكن.

كان التحرر الدينى أحد العلامات البارزة فى الحضارة الفارسية القديمة. كان على الكهنة، فى جميع مدن الإمبراطورية الفارسية، أن يواجهوا الجماهير وأن يعرضوا عليهم معتقداتهم وبعدئذ يقرر الناس أى دين يتبعون وأى مذهب يعتنقون وأى من هؤلاء الكهنة يؤيدون. وقد لعبت اللغات المختلفة دورا هاما فى اجتذاب المؤيدين للدين. لعب الكهنة دورا حاسما فى اجتذاب جماهير المؤيدين لدينهم، وصار التحول من دين لدين أحد ألاعيب السياسة. صارت لعبة السياسة لعبة جديدة فى مجتمع جديد وأثرت فى تركيب المجتمع ذاته. تقلصت لحد ما الارتباطات القبلية وأدى اختلاط الأجناس المختلفة لفترة ما إلى تقبل مختلف الأديان. ولكن لعب عاملان هامان فى استمرار تغلب دين على دين. عمل العامل الأول على ربط أفراد الدين بعضهم ببعض وبأسلافهم، وحفظ الصحة وتنظيم الغذاء وشئون الزواج والعلاقات الجنسية بين أفراده وزيادة النسل بين أتباعه مع تقبل التسامح الدينى والتعاون الاجتماعى. وعمل العامل الثانى على كسب مزيد من الأفراد لهذا الدين وإظهاره فى صورة جذابة لمتبعيه، وجذب المتحولين من أديان أخرى إليه، أتباع كثيرو العدد، عظيمو الشأن، ذوو سلطة ونفوذ ومركز اجتماعى مرموق. ظل التفاعل بين هذين العاملين هو المؤثر الأول فى المجتمعات الغربية وفى تطورها منذ عهد قورش وداريوش. حدثت تطورات حاسمة فى الحكومة الفارسية مع التسامح الدينى. لمت الإمبراطورية الجديدة عددا كبيرا من مختلف الأمم فى مجتمع واحد: الأرمن والإغريق والفينيقيين والمصريين واليهود. عاش الجميع معيشتهم الخاصة بهم واتبعوا التعليمات المفروضة عليهم وتناسلوا مع بنى جنسهم مع الاستفادة البالغة من الوحدة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع ككل والتعاون المثمر مع بعضهم البعض. هذا هو شأن الامبراطوريات العظمى فى جميع عصور التاريخ حتى عهدنا هذا. كان هذا التسامح الدينى عاملا على نشأة مذاهب جديدة فى المجتمع الفارسى. تزايد أتباع هذه المذاهب الجديدة سريعا – خاصة بالتحول من دين إلى دين – خصوصا بين أفراد الإدارة – المدنية والعسكرية – على السواء. من أهم تلك الأديان الناشئة كان دين زرادشت. الدين الزرادشتى – مثل الدين البوذى فى الهند – لم ينشأ من الغزاة الإريان، ولكن من الطوائف المحلية فى البلد. كلا الدينين يرفضان إراقة الدماء – كقربان، ويدعون إلى أخوة كافة البشر. نشأت تعاليم زرادشت فى أرض الميديين عندما هاجمها الأشوريون واحتلوها. طُرد زرادشت نفسه من موطنه وهاجر إلى الشرق، وحمى الحكام الأخيميون هذا الدين الجديد منذ بدايته وظل مزدهرا فى بداية حكمهم، ولكن بعد خمسة أجيال – مع انحلال الحكام الفرس وتدهورهم – بدأوا وبدأ كهنتهم يتجهون إلى عبادة الأصنام. ما حدث هو انقسام فى مذهب زرادشت بين مجموعتين،

اتجهت الأولى إلى النقاء بينما اهتمت الثانية بالانتشار. اعتنقت الأقلية - من المهنين والمفكرين واللاجئين من خارج البلاد - حركة النقاء الدينى (مثل حركة البارسى فى الهند). وتبنت قبيلة «ماجى» حركة الانتشار وتزعمها الكهان الذين ابتدعوا عبادة الأصنام. أشهر أولئك الأصنام كان «ميترا» الذى ظهر إبان حكم أرتازرزس الثانى، والذى كان يعتبر رسول الإله ثم تطور ليصير الإله نفسه (وهذا التطور فى المسيحية ذاتها). أثرت إحدى أفكار زرادشت تأثيرا كبيرا على كافة الأديان تحت حكم الدولة الفارسية (ولو أن تأثيرها كان ضعيفا للغاية على الأسرة المالكة)، فكرة الصراع بين الخير والشر. ابتدأت الفكرة فى فارس، ثم امتدت غربا وشملت كل الدولة الفارسية. هذا الصراع، هذا التناقض، الكامل وتلك الثنائية، امتد إلى الإيمان بالعالم الآخر. انقسم الآلهة (وانقسم البشر) إلى أولئك الطيبين وأولئك الخبيثين، وتخيل الناس مجموعات من الملائكة ترتفع فوق بعضها البعض حتى تصل فى نهايتها إلى الذات العلية، ومجموعات من الأشرار تنحدر تباعا حتى تصل إلى الشيطان. يتبع هذا التصور الإيمان بقطبية الحياة فى العالم الآخر حيث تكون الجنة هى مثوى الأبرار، وعلى قمتهم الله، وتكون الجحيم هى مستقر الأشرار وفى قاعها الشيطان، وتكون الجنة هى جائزة الأبرار والجحيم هى عقوبة الأشرار. منذ ظهور هذا الفكر فى الديانة الفارسية، وهو باق فى الديانات التالية: فى اليهودية ثم المسيحية وأخيرا فى الإسلام. ومازال هذا الفكر سائدا فى دين اليزديين، الذين مازالوا يتعايشون معنا إلى الآن، وهم أحد مذاهب الزرادشتيين، الذين استقر فكرهم على عبادة الشيطان، الذى مثلوه بالطاووس، ومازالوا يعيشون فى أعالى كردستان، ويمارسون طقوسهم فى سرية وصرامة. الفروق بين فكر الزرادشتيين واليهود والمسيحين والمسلمين، فروق طفيفة. عبر عمر الخيام عن تلك الفروق الطفيفة بِعَدِّه تسع وستين طائفة تتفق فى المبادىء العامة وتختلف فى التفصيلات اختلافا يجعلها كأنها قوات متحاربة. تختلف تلك الطوائف فى الأسماء التى تطلقها على الإله وعلى الشيطان وعلى المهن التى تمتهنها وعلى الأعمال التى تقوم بها فى المجتمع الفارسى الذى صار مجتمعا متكاملا بتعدد تلك الأعمال. هذا المجتمع الذى ظل حيا، تحت مختلف الديانات والأجناس العرقية على مدى ٢٥٠٠ عام، حيث عاشت مختلف الطوائف، تغذى المجتمع الأكبر بمهامها المتخصصة ومهاراتها المتباينة. من ضمن الطوائف التى كان لها شأن كبير فى المجتمع الفارسى طائفة اليهود، التى حافظت على نفسها نظرا لتشدد قوانين اليهود فيما يتعلق بالصحة والتناسل، ولانضباط معلميها الدينيين، ولحرص أفراد هذه الطائفة لفهم التعليمات وإطاعتها. تكاثرت هذه الطائفة ليس فى فلسطين وحدها ولكن فى سائر أنحاء الإمبراطورية الفارسية، وتزايد أعداد الطائفة بين زمن حكم قوروش إلى عهد المسيح من مائة ألف نسمة إلى حوالى ٥٠ مثل هذا العدد. (يقدر عدد اليهود فى عهد المسيح بأربعة ملايين ونصف المليون). فى ذات الوقت تزايد أعداد

الإغريق، الذين يتحدثون بلسان واحد ويمتلكون تراثا أدبيا واحدا، ويتعلمون بنفس الوسيلة ويتميزون بذكاء وافتخار شديد بجنسهم (بنفس درجة افتخار اليهود والفرس). انتشر الإغريق فى كافة أنحاء المعمورة طالما ساده السلام الذى كفله الفرس لهم. اندفع الفنانون الإغريق إلى تخت جمشيد كما تدفقت المومسات الإغريقيات وتدفق العبيد. حارب الجنود المرتزقة من الإغريق فى مصر تحت قيادة قمبيز (كما حاربوا ضده، وكان المرتزقة الإغريق يحاربون على الجانبين فى كل الحروب الفارسية) وتغلغل التجار الإغريق إلى أعماق بلاد فارس، ومعهم المستكشفون، حتى وصلوا إلى الهند.

وهكذا فتحت الإمبراطورية الفارسية الطريق لشعوب أخرى بينما كانت هى نفسها تتهاوى. السبب الأساسى فى دمار الإمبراطورية الفارسية كان هو تسامحها. أبقوا على ديانتهم الآرية وهو عبادة أهورامازدا، الإله الأوحد، وكان هذا دين طبقة الحكام والعسكريين، ولكنهم احترموا حرية العقيدة وكفلوا الحماية لكافة الأديان واستفادوا من جميع رجال الدين. لم ينصروا دينا على دين (كما فعل خلفاءهم الساسانيون فى انتصارهم لدين قبيلة ماجى) ولم يربطوا العقيدة الزرادشتية بحكمهم، بل ساعدوا على ظهور مختلف النحل فيها، وقد أدى هذا التفرق – فيما بعد – إلى سقوط الدولة الفارسية. من عوامل سقوط الدولة الفارسية هو أنهم لم يتمكنوا من توحيد لغات شعوبها المختلفة – إذ كان كل شعب يتحدث بلسان خاص به. ففى الغرب استخدم البابليون حروفهم الآرامية، فى الولايات الإغريقية استخدمت الحروف الإغريقية، وفى فارس نفسها، ربما كان المثقفون الفرس يكتبون لغتهم الفارسية بحروف أرامية. فى خضم اختلاف الأديان واللغات والآداب، عكست الإمبراطورية طبيعتها فى انعدام طبقة وسطى تجمع بينها، طبقة المهنيين والتقنيين والحرفيين والفنانين المبدعين. تكونت الإمبراطورية من طبقة عليا، من عباقرة عسكريين فتحوا البلاد وضموها إلى ملكهم، ولكن لم يتم توحيد الشعوب التى حكموها. استطاع الحكام، من الملوك العظام، فتح البلاد وحكمها، ولكن لم يبدعوا تقاليد أخلاقية يتبعها الجميع ولا فكر خلاق يربط الجميع برباط متين، ولا فى لغة واحدة يتحدث بها الجميع فى مجتمع كبير. كان حجم الإنجازات الفارسية التى جمع جميع شعوب الإمبراطورية هو نفسه العامل الذى أدى إلى تفرق تلك الشعوب وساعد على تدمير الإمبراطورية العظيمة، ولكنه علّم الفرس تجنب تلك العوامل المفرقة فى الإمبراطورية الفارسية التالية من حضارات العالم القديم.

الإمبراطورية المقدونية

كان الرد على الغزوات الفارسية هو التوسع السريع لكافة المدن الإغريقية، وعلى رأسها أثينا. بسرعة تبوأت أثينا مكان الصدارة فى مجموعة من المدن الإغريقية البحرية، التى سرعان ما توحدت فى امبراطورية. كانت هذه أثينا فى عصرها الذهبى الذى استغرق نصف قرن من الزمان، تبنت فيها البارثينون، ورحبت بقدوم الإغريق من المستعمرات الإغريقية ومن الشرق الأدنى، لجأ إليها الإغريق وغيرهم من سائر البلاد التى هاجمتها الحروب وسرعان ما توحد الجميع فى المجتمع الإغريقى فى أثينا. هذه هى اليونان التى صفقت لمسرحيات اسكيليس وسفوكليس ويوريبيديس، والتي تجرأ أسطولها على مهاجمة الفرس فى ممفيس وكاد أن يطردهم من مصر. ولكن بعد نصف قرن وقعت الكارثة حين حدث الصراع مع إسبرطة، وجاءت حرب شبه جزيرة المورة بالدمار على كلتا الولايتين.

فى القرن السادس قبل الميلاد حدث انشقاق بين الدويلتين، واستمر هذا الشق فى الاتساع. فى البداية قام الشقاق على أساس عرقى، بسبب الاختلاف العرقى بين الفئات الحاكمة. إحدى الدويلتين كانت منعزلة فى أراضيها، منغلقة على نفسها، بينما كانت الأخرى مفتوحة على البحار، تتاجر مع الأجانب وتستقبل المهاجرين من الشرق الأدنى، وهكذا زاد الشق اتساعا. كان جيش إسبرطة أكثر تنظيما وكان العسكريون فى إسبرطة أكثر حنكة ومهارة بينما كانت السفن فى أثينا أكثر حركة، وسمحت حرية الحركة بدخول الأجانب إلى أثينا وتقصلت إلى حد كبير الفروق بين الطبقات فى أثينا. ولكن حدث فى أثينا صراع بين المحافظين والمجددين، وعندما انتصر المجددون لجأ المحافظون من أثينا إلى إسبرطة التى رحبت بمقدمهم، وعندما كان ينهزم المجددون كانوا يلجأون إلى الإمبراطورية الفارسية وإلى مقدونيا وإلى إيطاليا.

كان تحرر أثينا بطيئا ومنقوصا، وتراجع هذا التحرر فى نهاية الأمر. جعل الشك المتبادل بين الفئات الاجتماعية المختلفة تلك الفئات لتفضيل قوة بوليسية مشكلة من العبيد على قوة شرطة من بنى جلدتهم من الفقراء، وكانت الهجرة المتتالية للإغريق الفقراء إلى أثينا تزيد من أعداد المطحونين الذين كانوا فى وضع المواطنين من الدرجة الثانية. ثيميستوكليس، القائد المغوار الذى قاد الأثينين إلى النصر فى سلاميس كاد أن يطرد من حلبة السياسة لأن والدته لم تكن إغريقية، والمؤرخ العظيم

هيرودوت – رغم السماح له بدخول أثينا – لم يمنح حق أن يكون من مواطنيها، الحق الذى كان يمنح للأثرياء الذين كانوا يمنحون حق المواطنة إذا ما جهزوا سفينة حربية وأهدوها للدولة. حدث انقضاض فظيع على قوانين كليستينيس الإصلاحية بعد ثلاثين عاما فحسب، ففى عام ٤٥١ ق.م. صدرت القوانين التى تحتم أن يكون آباء وأمهات الأفراد من مواطنى أثينا لكى يمنحوا الجنسية، بدلا من العبارة السابقة «من مواطنى أثينا وحلفائها»، أولئك الحلفاء الذين كانوا يهدون إليها السفن والأموال. استمر هذا التناحر فى الحقوق المدنية طالما بقيت أثينا. حتى أفلاطون – ذلك الأرستقراطى الأعزب – كان يدعو إلى التفرقة بين المهاجرين والمواطنين الأصليين فى حقوقهم، وكان يشجب العبيد الذين يتطاولون على سادتهم ويسيئون استخدام الحقوق التى منحها إياهم هؤلاء السادة، كما يشجب الشبان الذين يجادلون المسنين. لكل تلك الأسباب لم يحدث تزاوج بين الطبقات الحاكمة فى أثينا واسبرطة. وكان اختلاف الجنس والثقافة والاهتمامات بين المدينتين باقيا على حاله ولايتلاشى، وتعلم الفرس أن يستغلوا هذا الخلاف بين الإغريق ليجعلوا فريقا يحارب الفريق الآخر ولا يتحدون ضدهم. تصاعد هذا الخلاف ووصل إلى أوجه فى حرب المورة الطويلة التى فرقت الإغريق بين مؤيد لأثينا ومناصر لإسبرطة، وكان تعادل القوتين سببا فى طول فترة القتال بينهما الذى استغرق سنوات طويلة. بدأ القتال عام ٤٣١ ق.م. واستمر لمدة سبع وعشرين سنة. وصف القائد الأثينى توكيديدس الأحداث المؤسفة التى صاحبت النزاع. قابل الأثينيون المرة تلو المرة مشاكل لم يعهدوها فى حربهم ضد الفرس. كان حصار الأثينين لإسبرطة واقيا لها من دخول مرض الطاعون الذى هاجم أثينا لسنوات ثلاث من اللاجئين القادمين من مصر. هرب ٢٠ ألف من العبيد من عمال المناجم بجبل لوريون إلى إسبرطة وانقطع مورد الفضة التى كان الأثينيون يصكون بها عملاتهم. استطاعت جيوش إسبرطة، بمعاونة الفرس والسفن التى زودتها بهم جزيرة صقلية، من كسر احتكار البحار الذى كانت تتمتع به أثينا، وتحطمت جيوش وسفن أثينا التى توجهت لغزو جزيرة صقلية فى سيراكوز. وهكذا تدهور حال أثينا تدريجيا حتى انتهت الحروب. لم تحدث مذابح كثيرة فى تلك الحروب ولكن الدمار كان كثيرا. عندما استولى الإسبرطيون على أسطول أثينا وأسروا ٤٠٠٠ من رجالها تم ذبحهم جميعا بأمر الجنرال الإسبرطى ليساندر، وكانت هذه اللحظة هى الوقت التى وصلت فيه الحرب إلى قمة شراستها. انتهت الحرب عام ٤٠٤ ق.م. عندما استسلمت أثينا، ولكن لم يحقق هذا النصر لإسبرطة النصر للإغريق. لم يتم توحيد مختلف المجتمعات ولم يتم التوصل إلى الحلول الوسط فى أى مكان من الأرض الصخرية التى تتكون منها شبه الجزيرة وحكم بالموت على الفيلسوف سقراط بعد انتهاء الحرب بخمس سنوات بتهمة سب الدين (بأغلبية ٢٨١ صوتا ضد ٢٢٠)، وكان الهجوم على الآلهة يعتبر هجوما على الطبقة الحاكمة.

استمرت إسبرطة فى عاداتها العدوانية على جيرانها بعد انتهاء الحرب مع أثينا، واستمرت الطبقة الأرستقراطية الحاكمة تتناسل مع بعضها البعض ولاتسمح بدخول دم غريب إليها، مما أدى إلى تزايد ضعفها ثم إلى زوالها وزوال حلفائها الذين ظلوا يؤيدون الحكام ويحاربون معهم طوال عشرين جيلا..

سقوط إسبرطة فى النهاية يرجع فى المقام الأولى إلى النقود الفارسية التى أنفقت ببذخ وإلى جيوش المرتزقة التى حاربت نظير أجر معلوم. والتى نتج عنها مقتل العديد من رجال الطبقة الحاكمة، التى لم يسمح لها بالتزاوج من الأغراب، كما لم يسمح بقبول المهاجرين إلى إسبرطة حتى تدنت قوتهم فى نهاية الأمر إلى ١٢٠٠ مقاتل فحسب، وعندما فقدت إسبطرة منهم ٤٠٠ مقاتلا فى معركة لوكترا فى عام ٣٧١ ق.م. سقطت إسبرطة إلى الأبد. ترجع الهزيمة فى لوكترا إلى التكتيكات الجديدة التى بدعها *ايبامينونداس - القائد الآتى من طيبة*. وبعد تسع سنوات هزمت قوة جديدة جاءت أيضا من طيبة ما بقى من جيش إسبرطة فى معركة مانتينيا. كان من أثر الحروب المتتالية إهمال الزراعة وتسارع قطع الأشجار وإزالة ما تبقى من الغابات وانعدام الصرف، مما أدى إلى تفاقم الأمراض وانتشار الأوبئة، خاصة وباء الملاريا التى استقر لمدة الألف عام التالية فى الأراضى الواطئة فى حوض البحر المتوسط، ووباء الطاعون الذى هاجم المدن. لم تندثر حضارة الإغريق بفضل مستعمراتها. لجأ إليها المنفيون من المدن الإغريقية المنهزمة، وكان لهذه المستعمرات الفضل فى نشر ثقافة الإغريق والحفاظ على حضارتها وزيادتها. وهكذا أدرك اللاجئون أن حضارة الإغريق لم تعد باقية فى مدنها فى شبه الجزيرة بل سيكون فى الأراضى الجديدة التى تحيط بها.

ما هى عواقب العدوان؟ الغزاة الذى أصبحوا الطبقة الحاكمة من الجنس الآرى فى بلاد الفرس وفى اليونان، ومن الجنس السامى فى الإمبراطورية البابلية ومن جنس مختلط بين الساميين والآريين فى الإمبراطورية الأشورية، إزاداد ثراؤهم وتكاثروا بدرجة تفوق انتصاراتهم العسكرية، وبدرجة لم تحد من رغبتهم فى زيادة العدوان. فى البداية كان النصر حليف من يهاجم أولا ويشتد فى القتل. كان هؤلاء يخلفون ذرية كثيرة، ولكن دارت الدائرة عليهم فى نهاية الأمر. لماذا حدث الإنهيار النهائى وما هى عوامل الدمار؟ تبدأ الأسر الحاكمة، فى كل من الإمبراطورية الفارسية ولدى الإغريق بشخص أو وحدة حاكمة، سرعان ما يتسرب إليها الخونة والطغاة ثم يستولون على الحكم، مع اختلاف بيِّن بين الفرس والإغريق. فى فارس ظهر الصراع على أشده بين أفراد العائلة المالكة. قتل الإخوة أخوتهم من الرجال والنساء للصراع على العرش. كذلك تم إخصاء عدد كبير من الرجال حتى لا ينجبوا ذرية ترث العرش من بعدهم. كان الخصى باجواس حاكما أشد حنكة فى أمور الحكم عن كلا

الملكين اللذين سممهما ومن الملك الثالث الذى سممه. كان الشك القطيع بين أفراد الأسرة الحاكمة وكان طغيانهم الذى فاق كل الحدود السبب فى ارتفاع أسرة الأخيميين فى بادىء الأمر ثم أدى إلى انهيارهم وزوال ملكهم. نفس هذا السلوك أدى إلى ارتفاع شأن المدن الإغريقية فى بادىء الأمر: العدوان مع الطغيان، ثم أدى إلى أن تحارب المدن بعضها البعض حتى تنهار جميعا. كان الشك يعود إلى مجتمع كل مدينة بذاتها، ويسبب فى البداية اتساعها وعلو شأنها، بعدوانها على جاراتها من المدن. دمرت أثينا الميتيليين: المخصلين لها والثائرين عليها، وحدث نفس هذا السلوك مع مدينة طيبة، وكان انتصار العدوان يبلغ أشده عند تحطيم المدن وهزيمتها. انتهى الأمر بالدولة الفارسية إلى دمار الأسرة الحاكمة وانهيارها، وانتهى الأمر فى المدن الإغريقية إلى إنيهار النظام السياسى برمته الذى قام على حكم المدن وتصارعها. كان الشعب يتمتع بالحرية فى المدن الإغريقية بينما كان عرضة للتسلط تحت الحكم الفارسى، ولكن كان الشعب حرا فى الانتقال من مكان إلى مكان، وحرا فى الارتفاع من طبقته التى نشأ فيها متى ظهرت على الفرد علامات النبوغ والتفوق، ولكن حرية الانتقال من مكان لمكان ومن طبقة لطبقة لم يكن متاحا فى المدن الإغريقية. هكذا كانت هناك حريات متاحة وحريات مقيدة فى كلا النظامين، وهكذا كان الصدام محتما بين نظامين يختلفان اختلافا جذريا عن بعضهما.

فى شمال بلاد الإغريق كانت توجد بلاد أشد فقرا وأكثر بردا وأشد تخلفا وأقل ارتباطا ببعضها البعض عن المدن الإغريقية. كان هناك مجتمعات سكان فى إبيرس وإليريا ومقدونيا وبيونيا وثريس. غزا المزارعون القادمون من الأناضول تلك البلاد فى الألف سنة السابعة والسادسة قبل الميلاد عند دخولهم إلى أوروبا. بعد ثلاثة آلاف سنة قدمت لهذه البلاد الموجات المتتالية عن الغزاة الآريون الذين اتجهوا جنوبا. كانت القبائل التى استقرت فى الشمال تتحدث باللهجات الإغريقية والايليرية (التى تعتبر أصلا للغات المقدونية والألبانية الحالية). ولكن فى الألف سنة ق.م. حدثت هجرة عكسية، من الجنوب إلى الشمال، مما أدى إلى ازدياد الاختلاط بين مختلف الأجناس والطبقات. كان المهاجرون إلى الشمال من الإغريق الذين كونوا المستعمرات على سواحل بحر إيجة، مع مجموعات أخرى من البشر الذين تسللوا إلى تلك المستعمرات بدون أن يكونوا من المستعمرين لها ولا من الغزاة، حاملين معهم فنهم وحرفهم وطريقة معيشتهم المتحضرة إلى ربوع تلك الأماكن التى كان يسكنها الهمجيون. بدأت هذه الهجرات الحاضرة إلى تلك البلدان التى استمرت طوال ثلاثة آلاف عام. كان تغلغل البشر إلى تلك الأماكن منتقى واعتمد على اختيار أفضل العناصر التى تمتلك الموهبة والمقدرة والذكاء والاستعداد الفطرى. أبرز الهجرات التى رحلت للشمال كانت تلك التى حدثت فى القرن الثامن والسابع ق.م. وجاءت من المدن الأيونية وغيرها. ولكن الهجرات توالت من جميع شواطىء وجزر بحر

إيجة وأتت إلى المناطق الخلفية قليلة السكان. كان معظم المهاجرين من تجار الخشب والمعادن ولكنهم كانوا أيضا من المغامرين وعمال المناجم والإداريين. جاء المهاجرون من كل مكان فى حوض البحر المتوسط حيثما وقع اضطراب سياسى أو دينى وأعقبه لجوء المجاميع الغفيرة إلى المنفى حيث يستقر أبناء الحكومات التى تمت قلبها أو ينشىء هؤلاء لهم مستعمرة. تزاوج هؤلاء القادمون الجدد مع أبناء البلاد الأصلية التى استقروا فيها أو عينوا أنفسهم ملوكا على السكان الهمجيين على الحدود. نشأت من ذراريهم الكثيرين طبقة من النبلاء على حدود ابيبرس ومقدونيا وثريس وكونوا ممالك فى تلك البلاد على نمط الممالك التى أتوا منها وكانوا يتحدثون باللغة الإغريقية - التى تختلف عن لسان أهل البلاد الأصليين - وكانوا يحفظون أشعار هوميروس ويعروفون تاريخهم وينتسبون إلى ملوك أرجوسس وميسينى وهرقل وأهيليس. ينتسب هؤلاء الملوك إلى الملوك الإغريق والمينوبيين والفينيقيين والمصريين ومن أبرزهم الاسكندر الأول - حاكم مقدونيا - الذى زوج أخته - كما يروى المؤرخ هيرودوت - إلى أحد حكام الولايات الفارسية القديمة. يروى هيرودوت أيضا أن حكام مقدونيا - فى عصر دارا ملك الفرس العظيم كانوا فى شدة الفقر بحيث لم يتملكوا العبيد وبحيث أن الملكة كانت تطهو طعامها بنفسها. كانت جيوشهم من فلاحيهم، فلم يكن لديهم المقدرة لتجنيد جيوش من المرتزقة، وكان قادة هذه الجيوش من نبلائهم وأصدقائهم وحلفائهم. كان حكام تلك البلاد يتزايد ثراؤهم عاما بعد عام من أعمال التجارة واستخراج الثروات من المناجم ومن استقبال المهاجرين من اليونان - الذين كانت تجتذبهم تلك الثروات. كانوا يشجعون استخراج الذهب والفضة من المناجم وكانوا يصكون عملتهم، ويشقون الطرق ويصدرون الخشب ويشجعون على قدوم الموهوبين. ازدادت قوتهم بالزواج من بنات العائلات القوية والعدوانية من جيرانهم فى أوروبا وآسيا وكانوا يبيعون ولاءهم ومساعدتهم لملوك الفرس الغازين لأثينا أو لجمهورية أثينا فى حروبها مع إسبرطة، وهكذا تعاظمت قوتهم وازداد نفوذهم. أثناء الصراعات المريرة والدامية التى اجتاحت شبه جزيرة المورة فى القرن الخامس ق.م. خسر الإغريق المال والبنون وضعفت قوتهم وزال ملكهم، وبارت أراضيهم ولم يعد من الممكن إصلاحها. صارت السفن الأثينية تبنى من أخشاب مقدونية، وظلت مقدونيا قوية، غنية، تزداد قوة وثراء جيلا بعد جيل. كانت مقدونيا دولة جديدة لم تمتد إليها يد الفساد. كان نظامها السياسى وعلاقات أهلها الاجتماعية متقدمة، اكتسبت كثيرا من جيرانها المتحضرين، وكان تقدم الجيوش الفارسية الغازية لليونان تحمل أخطارا بالغة على المدن الإغريقية الثرية، المقاومة للغزو ولكنها كانت تحمل منافع للولاية الناشئة الفقيرة المتعاونة مع تلك الجيوش.

جاءت اللحظة الحاسمة فى عام ٣٥٩ ق.م. بعد سنوات من الاضطراب، عندما تولى فيليب، ابن أمينتاس، عرش مقدونيا، كان عرش مقدونيا يخُتار حاكمه بالانتخاب، من بين ذرية نبلاء البلاد،

بشرط أن تكون أم الحاكم الجديد من العائلة المالكة. كان حسن السمعة والأقدمية من العوامل التى تحترم عند الاختيار، وقد يصاحبها بعض العنف. كان الملوك كثيرو الزواج من فتيات من أسر مالكة ومن فتيات من عامة الشعوب، وكان لهم زوجات إغريقيات وغير إغريقيات، وكان لهم عديد من الخلائل. وهكذا كان يحيط بالملك الشاب عشرات من أنصاف الإخوة وأولاد العمومة والخئولة وأنصاف الأعمام والأخوال وزوجات الأب، ويحاول الجميع التدخل فى شئون الحكم بالنصائح المساعدة أو المعيقة لحسن الإدارة وجودة الحكم. كان تميز الأمير فيليب فى شئون الحكم والإدارة هو العامل الأكبر فى إختياره لمنصب الملك بدون معارضة من أحد وبدون استخدام القوة. كان هذا النظام - اختيار الحاكم من مجموعة من الناس بواسطة النبلاء والأعوان - له ميزات كثيرة فى اختيار الأصلح لشئون الحكم. كان الانتخاب يعنى اختيار الأصلح (كما فى قوانين البيولوجيا)، وكان لهذه الوسيلة الأثر الأكبر فى نشأة الإمبراطورية المقدونية (بعكس ما حدث فى انهيار الإمبراطورية الفارسية). تلقى فيليب فى بداية حياته تدريبا حسنا، وقداستثمر بحذق وكفاءة. ففى عام ٣٧٦ ق.م.، وهو صبى يناهز عمره الخمسة عشر ربيعا وضعه زوج أخته رهينة فى يد إيبامينونداس القائد الطيبى، ومكث فى طيبة ثلاث سنوات، ففرغ نفسه لدراسة فنون الحرب، متلقيا دروسه من إيبامينونداس شخصيا كان القائد الطيبى يطبق أفكارا جديدة فى المعارك التى كانت قد أخذت طابعا واحدا منذ النجاحات التى حققها الاسبرطيون والأثينيون فى حروبهم الطويلة. تبين القائد الطيبى أن بإمكانه استخدام فيصل صغير من مشاته للهجوم من الجانب بدلا من تصادم القوات كلها بالرأس قبال بعضها. وتبين إيبامينونداس كيف يستخدم قوات الفرسان مع قوات المشاة معا وينسق بين حركة الجميع وكيف يستغل تلك القوات لتقابل الفرص المتاحة فى الوقت المناسب. ونظرا للنجاح المتتالى لهذا القائد الحربى العظيم فى المعارك التى قاد فيها جيوش طيبة، تربعت تلك المدينة - للمرة الأولى فى تاريخ الإغريق - على قمة المدن الإغريقية. كان ما فعله هذا القائد لتطوير حركة الجيش فى ميادين الحرب دافعا لفيليب لإعادة تركيب الجيش وتدريبه فى وقت السلم. وعندما تولى حكم مقدونيا بدأ بالإعداد لتنظيم قوته العسكرية لتماثل تنظيم المجتمع والدولة التى يحكمها. كان يريد إعداد جيش محترف مع تصاعد الرئاسات وتتابع القيادات تبعا لهيراركية المجتمع. أسقط فى دولته الفروق بين المقدونيين والإغريق بين التراسين والإليريان، وقد اكتسب من الفرس هذا الإتجاه الجديد. فى جيشه الجديد تمكنت الخيول الثقيلة من ثريس ومن ثسالى من حمل الرجال المسلحين بأسلحة ثقيلة بدلا من الخيول الخفيفة التى جاءت إليهم من آسيا. تسلح مشاته أيضا بأسلحة ثقيلة وكان فرسانه يجيدون ركوب الخيل والصيد والقنص. استقطب الجميع للخدمة فى جيشه وصار ولاؤهم لهذا الجيش بدلا من الولاء لقبائلهم المختلفة ووحدوا، مهاراتهم الحربية المختلفة فى جيش

واحد حسن التنظيم، جيد التدريب، وسرعان ما أثبت هذا الجيش كفاءته. كان النجاح الذى حققه جيش فيليب عظيما وساحقا (ومازالت التجديدات التى بدعها فيليب سارية إلى عصرنا الحالى). تؤتى الحروب بإنجازاتها سريعا وتحقق أهدافها فى التقدم والرقى أسرع كثيرا من الإنجاز البطىء الذى يتم فى زمن السلم. اجتمع البشر من مختلف الأجناس وكافة الطبقات ومن متعددى الأصول العرقية والجينية حول هدف واحد تعاونوا جميعا فى تحقيقه وتنافسوا فى إنجازه. كان لهذا التعاون المثمر والتنافس الشريف، الذى أدركه الحكام العظام من قديم الأزل، أكبر الأثر فى زيادة قوة الأمم وسرعة تقدمها. منذ عهد فيليب، وخاصة منذ عهد خلفائه، خاصة فى البلدان المتخلفة أو فى عصور الاضطراب، قدمت الجيوش التركيب الاجتماعى المنظم والنظام والكفء الذى يستحوذ على قبول كافة طبقات المجتمع لتكوين حكومة مستقرة أو نظام حكم ثابت. فى نفس الوقت كانت الجيوش تشكل تهديدا للحكومات المدنية وتكون بدلا لاستمرار الحكومات عندما تفشل الإدارات المدنية فى حكم البلاد.

منذ عهد إيبيمينونداس وفيليب دب التجديد فى العكسرية اليونانية ودخلت المبادرات فى الشئون الحربية (بعد نحو قرن من الزمان من تبشير الشعراء والفلاسفة والسياسين الإغريق بوجوب دخولها)، ولكن بعد دخول تلك التجديدات والمبادرات استطاع الفرد الإغريقى أن يضم إليها ثقافة الإغريق الأقدمين وحضارتهم ويستفيد منها جميعا فى بسط نفوذه ونشر حضارته على العالم أجمع، وكان هذا – بالضبط – ماسعى فيليب لتحقيقه. كانت للخبرات التى اكتسبها فى طيبة أكبر الأثر على فكره، لم يتعلم من القائد الحربى إيبامينونداس فحسب، الذى راقبه عن كثب وتعلم منه الكثير، ولكنه تعلم أيضا من اللاجئين الإبرطيين والكتاب والفلاسفة الأثينيين والسفراء من فارس والسياسيين المحلين، وكل من قابلهم فى تلك الفترة. وضح فى ذهن فيليب ضرورة توحيد الإغريق جميعا وتبين فى فكره أسلوب هذا التوحيد، بعد ما وضح له من الدمار الذى يمكن أن يحيق بالإغريق جميعا من فرقتهم. كان توحيد الإغريق يستلزم حسن الإدارة فى الداخل وحسن السياسة الخارجية والمهارة فى الحرب. واستغل فيليب هذه الوسائل جميعا. وضح له أيضا أهمية استخدام التراجيديا الإغريقية، كما كتبها كتاب أثينا، وتبين له أهمية إزالة الشكوك من أذهان السياسيين، وكانت جائزته الكبرى نجاحه فى إزالة تلك الشكوك. وأخيرا، وليس آخرا اتضح له أهمية وحدة الهدف الذى يسعى إليه الجميع لتتم وحدتهم وجند الإغريق جميعا فى سبيل هدف إلحاق الهزيمة بالإمبراطورية الفارسية. استغرق فيليب طوال اثنتين وعشرين سنة من الحروب والدبلوماسية حتى تم توحيد مملكته، وحتى أخضع جاراتها من الشعوب الهمجية، وحتى ملك السيطرة على جميع المدن الإغريقية تحت قيادته. تغلب فيليب على الأثينين وحلفائهم عام ٣٣٨ ق.م. بالقرب من طيبة، ثم تم انتخابه ملكا عاما على

مجمع الدويلات الإغريقية، وفى الحال أعلن فيليب الحرب على الإمبراطورية الفارسية. فى العام التالى مباشرة تقدمت طليعة من القوات الإغريقية عددها عشرة آلاف مقاتل وعبرت البحار إلى آسيا. فى هذه اللحظة حدث انقلاب داخلى فى بلاده. كان أبوه، وله زوجتان، قد أنجبا ستة أبناء، بينما فيليب وله ست زوجات قد أنجب وريثين شرعيين له من زوجته الملكة أوليمبياس. أحد هذين الولدين كان يعانى من الصرع، أما الآخر، الإسكندر، فكان الوحيد الصالح لوراثة عرش أبيه، قبل أن يبدأ فيليب معركته الكبرى مع الفرس أغرى بالزواج من زوجة سابعة حتى يضمن إنجاب خليفة له فى العرش إذا تعرض الإسكندر للخطر. نتج عن هذه النصيحة خلاف مرير بينه وبين زوجته الملكة أوليمبياس، والدة الإسكندر، وتم تسوية هذا الخلاف بزواج ابنته من أوليمبياس وشقيقها ملك أبيراس، وتم قتل فيليب بطعنة غادرة أثناء حفل الزواج (ظهرت نظريات كثيرة عن كنة القاتل، يقال أنه صنيعة مؤامرة تمت بين الأثينيين والفرس، ويقال أن المؤامرة دبرتها الملكة أوليمبياس وابنها الإسكندر الذى أراد أن يكون النصر على جيوش تحت قيادته ولا يشترك أبوه فى هذا الفخار). لم يحدث اضطراب بعد مقتل أقوى شخصية فى بلاد الإغريق بسبب قوة شخصية ابنه، الحازم، وريثه الإسكندر. كان هذا الشاب يبلغ العشرين من عمره عندما ورث ملك أبيه، ولكنه كان واثقا من نفسه، قادرا على تسيير أمور الدولة وقيادة الجيوش، وفى الحال تولى زمام الأمور وأشاع الضبط والنظام، وسرعان ما أبعد ثلاثة من الطامعين فى عرش فيليب وظهر بنفسه البديل الكامل للملك العظيم فيليب. على مدى عامين كان قد سيطر على البلقان جميعا، من الدانوب حتى برزخ كورينت. كان أبرز الأحداث التى وقعت فى تلك المدة هو العصيان الذى حدث فى طيبة وفى أثينا. قضى الاسكندر إلى التمرد الذى حدث فى طيبة وسوى مبانيها بالأرض وقضى ببيع الرجال والنساء والأطفال جميعا فى سوق العبيد (ولم يغفر له أعداؤه أبدا تلك الفعلة، إذ كانوا معتادين على الحكم بالقتل على من يتمرد على نظام الحكم ولم يعهدوا أبدا على بيع الأحرار فى سوق الرقيق). كلفته هذه الفعلة الكراهية الدائمة من شعبه رغم أن الملك كان إغريقيا، تعهد بتحرير الإغريق من ربقة الغازى الأجنبى. لذا، عندما خرج الإسكندر لحرب الفرس، اضطر أن يترك نصف قواته المقدونية فى اليونان للحفاظ على الأمن الداخلى من تمرد الإغريق عامة وأهالى أثينا خاصة.

بعد عامين من تولى الحكم، سيطر الاسكندر على البلاد وبدأ يعد للهجوم على الإمبراطورية الفارسية، وأعد جيشا قوامه ٤٠ ألف مقاتل وستة آلاف فرس. كانت قواته المقدونية هى أساس هذا الجيش وكان قوات الفرسان من ثراسيا وثيسيليا وكان الرماة من بيونيا ومن كريت من القوات المعاونة ذات الشأن العظيم، وكان إسهام الولايات الإغريقية ضئيلا للغاية. كانت قواته من أجناس مختلفة، ذات تدريب متغاير ولها عادات متباينة. ولكن كان يوحد تلك القوات أنها تتكلم بلسان واحد

(اللغة الإغريقية)، وكان يجمعها دين واحد، وتزاول نفس الرياضات (الألعاب الإغريقية)، وتجمع شملها الدراما الإغريقية، وهكذا كانت تلك القوات تمثل جيشا قوميا فى قبال جيش الفرس المختلف تماما. كانت وحدة الدين ووحدة الأصل العرقى سلاحا استغله الإسكندر - كما استثمره أبوه - لزيادة قوة ذلك الجيش. فى البداية كان للإسكندر أهداف أخرى غير مجرد الانتصار فى المعارك وكان الفضل فى تلك الأهداف لتعليم أرسطاطاليس - معلم الإسكندر - فى التاريخ والدين والعلوم. كان يرافقه فى معيته طائفة من أهل الفكر والعلم وكُتّاب التاريخ وعلماء النبات وعلماء الجغرافيا، وكان يضع تحت وسادته عند نومه - بجوار خنجره، نسخة من الإلياذة بشرح معلمه أرسطو. بعد عبوره للمضيق تحول غربا إلى مكان طراودة وهناك أهدى روحه وسلاحه لآلهة الإغريق، ثم بدأ حملته: كان يستحوذ حينئذ على طعام يكفى جيشه لمدة شهر وعلى قليل من النقود المقترضة، وسرعان ما هاجم عدوه على بعد خمسين ميلا إلى الشرق من نهر حرانيكلس. كان جيشه مساويا فى العدد لجيش أعدائه ولكن كان الفرسان من الفرس، وبعد معركة عنيفة تمكن الفرسان من الهروب، أما المشاة الذين كانوا يحاربون مع الجيش الفارسى فكانوا من الجنود الإغريق المرتزقة الذين كانوا يحاربون فى صفوف الفرس. وقد اعتبرهم الإسكندر من الخونه وتم قتلهم جميعا بلا شفقة ولا رحمة (وكانوا يبلغون عشرين ألف مقاتل). احتل الاسكندر بعد ذلك ساردس (النهاية الغربية للطريق إلى صوصة)، ثم حرر إيفيسوس وميليتاس، هاليكارناساس وبقية المستعمرات الإغريقية فى أيوليا وأيونيا ودوريا، التى خضعت للفرس طوال مائة وخمسين عاما. كان التحرير يعنى تغير أوضاع السلطة والثراء والنفوذ والطبقات بين السكان. بدلا من معيشة الإغريق فى الأحياء الإغريقية (الفقيرة) فى المدن الأناضولية، صاروا يعيشون فى الأحياء الراقية، المنتعشة، وصار الإغريق هم التجار الأثرياء والحرفيون المبدعون، وأصبح الإغريق هم رجال الجيش وهم يتولون السلطات الإدارية. ولكن أدخل الاسكندر مبدأ تحريم الانتقام، وأدخل فكرة التعايش السلمى بدلا من التناحر، وصار هذا مبدأ امبراطوريته. لم يتعلم الإسكندر هذا المبدأ من معلمه أرسطو ولم يتعلمه من الإغريق، ولم يتعلمه من آلهة الإغريق ولكن تعلمه من أعدائه الفرس. طبق الفرس هذا المبدأ على مدار ستة أجيال منذ عصر قورش العظيم. وتعلم الإسكندر هذا المبدأ أيضا من أبيه الذى مارس تلك السياسة طوال حياته فى صراعه مع السياسيين والخطباء من أثينا. استغرق الإسكندر عاما كاملا ليدعم سلطته فى الأناضول، وعندما حل فصل الشتاء تحرك إلى الجنوب، غير آبه لجيش الفرس إلى جانبه. شق الاسكندر طريقه إلى فينيقيا فقطع دارا خطوط إمداده (فى المكان الذي أنشئت فيه مدينة الإسكندرونه تخليدا لهذا الحدث)، فتحول الإسكندر قافلا حيث دارت معركة عنيفة. كانت قوات الفرس هائلة ولكنها حوصرت فى سهل ساحلى ضيق ولم تستطع الحركة بحرية. هاجم الإسكندر أولا،

وكانت قوة الفرس الغالبة من الجنود المرتزقة الإغريق، المدعمة بالأسلحة الثقيلة. للمرة الثانية، هرب الفرس قبل أن تتم هزيمتهم في المعركة وكان الملك على رأس الهاربين، وهرب معه الجنود المرتزقة الإغريق - قبل أن يتم ذبحهم كما حدث مع زملائهم في المعركة السابقة. هرب دارا ولكنه ترك في يد الإسكندر المنتصر، زوجته والدة أبنائه ووالدته وأطفاله. اتجه الإسكندر نحو الجنوب . وبعد حصار مرير سقطت صور. دمر الإسكندر المدينة وباع ٣٠ ألف من أهلها كرقيق. بهذا الانتصار صار الإسكندر سيد البحر الأبيض المتوسط، لأن أسطول الفرس كان يتكون من بحارة فينيقيين وسفن فينيقية. الآن، تملك الإسكندر هؤلاء الملاحين وتلك السفن وصار سيد البحار. تلقى الإسكندر عرضا من دارا أثناء حصاره لصور يعرض فيه عليه السلام مع الإمبراطورية الفارسية في مقابل زواج الإسكندر من ابنته وتنازُل دارا عن حكم الأناضول وسوريا ومصر للإسكندر. كان العرض مغريا وفي منتهى السخاء وقد أشار قواد الإسكندر عليه بالمسارعة بقبول هذا العرض (قواده الأسن منه والذين تركوا زوجاتهم وأطفالهم في اليونان) لأنه يعطي الإسكندر حكم نصف العالم، ولكن الإسكندر، الشاب، الأعزب، الذي لم يكتف بنصف العالم بل كان حلمه بالاستيلاء على كل العالم، رفض هذا العرض، وكان هذا القرار من أكبر القرارات الحاسمة في التاريخ.

بعد شهور قليلة دخل الإسكندر مصر، كمحرر لها من الاستعمار الفارسي. رحب به المصريون ورفعوه إلى عرش فرعون. زار الاسكندر المزارات الدينية، وزار كاهن آمون في واحة سيوه وزعم أنه ابن آمون، وهكذا ثبت عرشه بادعائه أنه الإله الأكبر، (وهكذا اكتسب الاسكندر رضا جميع الشعوب بادعائه أنه الاله ملكارات في صور، وآمون في مصر (ملكارات في فينيقيا سمي هرقل، آمون في مصر سمي زيوس وماردوك في بابل كان عليه الدور ليسمي باسم أحد آله الإغريق، ولم يزر الاسكندر بيت المقدس وإلا لكان من المحتمل أن يسمي إله اليهود، ياهوه، باسم أحد آله الإغريق). عاد الإسكندر في صيف العام التالي إلى آسيا واخترق أشور بهدف احتلال أرض الجزيرة، وعبر نهر دجلة مع أسراه الملكين. كان دارا يعد له جيشا عظيما قوامه ربع مليون مقاتل أو مايزيد في أربيل، ولم يكن معه سوى ما تبقى من الجنود المرتزقة الإغريق (ستة آلاف)، ولكن كان لديه الفرسان المزودين بالرماح الطويلة، والفخاخ، والعربات الحربية الحديثة وكثير من مخترعات الحرب المستحدثه. وفي صباح أول أكتوبر عام ٣٣١ ق.م. بدأ الإسكندر الهجوم، وحدثت واقعة أربيل الحاسمة التي تعتبر من أشهر معارك التاريخ، والتي كان لها أبعد الآثار. تعتبر هذه المعركة قمة التطور الذي وصل إليه الجيش المقدوني بقيادة الإسكندر. استطاع الإسكندر في تلك المعركة أن يهزم جيشا يبلغ تعداده ستة أمثال جيشه على الأقل، على أرضه التي استعد فيها للقتال، مما يدل على مقدرة الجيش المقدوني وحسن تدريبه وعبقرية قيادته. يرجع هذا النصر إلى حنكة الإسكندر،

مع حسن الضبط والربط فى الجيش، وإلى شجاعة القائد والجنود ومهارتهما. كما هو المعتاد أدرك دارا وقوع المصيبة بعد وقت قليل من بدء المعركة، فقد أعصابه وقفز إلى عربته الحربية وفر هاربا. تخلخل الجيش بعد هروب قائده. لم يتعقب الإسكندر قائد الفرس الهارب وتركه يبتعد إلى أقصى مدى وتحول إلى الجنوب ليتم البرنامج الذى وضعه لنفسه واحتل مدينة بابل والإمبراطورية البابلية القديمة، ثم استدار ليحتل صوصة ويستولى على كنوز دارا فى إكبتانا، وحرق فى طريقة تخت جمشيد (كما فعل زرزس فى أثينا منذ مائة وخمسين عاما). وفى أغسطس التالى وصل الإسكندر إلى الرى (طهران الحالية) واخترق جبال ألبرز حيث وجد دارا - آخر الملوك الأخيمين مقتولا بين رفاقه.

مكث الإسكندر الثلاث سنوات التالية مع جيشه لبناء الحكومة فى بلاد فارس وفى باكتريا، وتعقب فلول المحاربين على حدود الإمبراطورية، وظهرت عظمة انتصاراته فى مكاتب الحكومة فى القصور العظيمة (فى سمرقند على سبيل المثال)، عندما وضع السياسات لنظام حكمه. راح الإسكندر إلى أبعد من المصالحة والاتفاق مع أعدائه وبدأ يكتسب طباعهم وأخلاقياتهم وطرق لبسهم. واستخدم نبلاءهم ليكونوا حرسا له، وليكون منهم جيشا إضافيا لجيشه، وطلب من رفاقه أن يبجلوه - لاكما يبجلون حاكما مقدونيا - بل كما يحترمون ويوقرون ملكا فارسيا. تحول القائد - الذى كان يصافح رفقاؤه باليد قبل معركة إيسوس - إلى ملك عظيم له الهيبة والجلال والاحترام بعد فتح صوصة. صار ملكا عنيفا، جمع بين سوء طباع والدته وإدمان أبيه للخمر، مما أثار معاونيه عليه وبدأت المؤامرات حوله. حكم على صديقه المخلص بارمينيو وعلى ولده بالقتل، وقتل رفيقه كليتس فى عراك وهو تحت تأثير الخمر، وبدأ بذلك فى القضاء على الرجال الذين أخلصوا له والذين قادوا جيشه من نصر إلى نصر وسبق لهم إنقاذ حياته. تغير الإسكندر تماما فى السنوات الثلاث التى قضاها فى فارس بعد موت دارا وبعد النصر الساحق الذي حالفه. كتب المؤرخ الخالد هيرودوت قبل مائة عام إن الحاكم الذى يحوز على السلطة المطلقة يتحول إلى الفساد المطلق (فيما كتب عن قمبيز)، وكان التاريخ يعيد نفسه فى ما حدث للإسكندر. وقد حدث تماما ما توقعه الإسكندر حينما أخبر دارا أنه سيصير الملك الأوحد على آسيا، وأن مملكته ستصير العالم كله، وسيصير المحيط هو حدها.

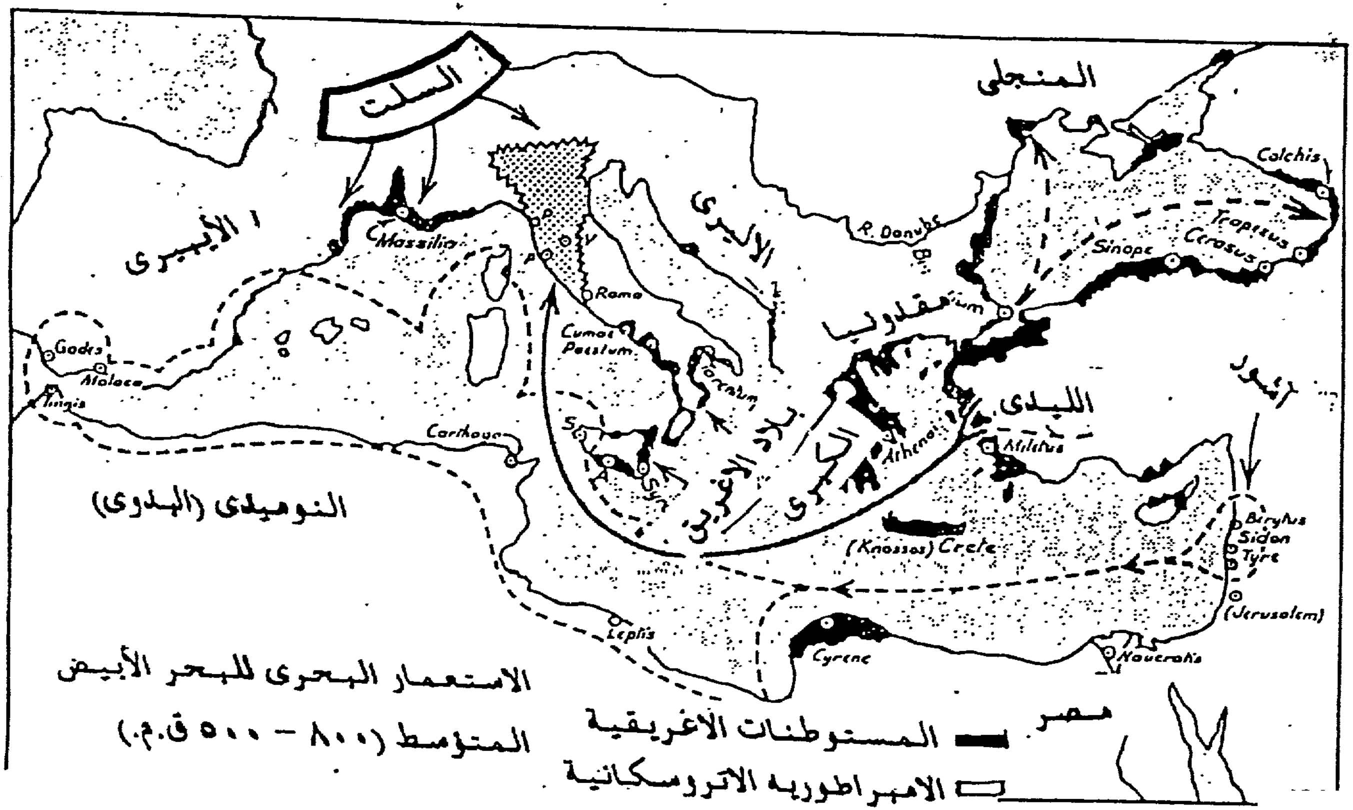
استمر الاسكندر فى حملته وكان فتح الهند هو هدفه التالى. قابل ملك الهند على ضفاف نهر يولم، وهناك قابل أعند أعدائه. كان الجيش الهندى يستخدم الأفيال والجنود المرتزقة الأشداء. انتصر الاسكندر بصعوبة بالغة على هذا الجيش، وبعد رفض المقدونيون التقدم إلى أبعد مما وصلوا إليه. كان مصب نهر الجانج قاب قوسين أو أدنى من الإسكندر، ولكن كان هذا المكان أشد البعد في نظر المحاربين. كان فخر الجيش المقدونى وشجاعته تتمثل فى استقلاليته حتى أمام قائد عظيم.

أطاع الجيش أوامر قائده بتخاذل واستمروا فى طريقهم إلى مصب نهر الإندس، وأنشئوا مدينة فى هذا المكان. حول الاسكندر فريقا من جيشه إلى قوات بحرية وعهد بقيادة الأسطول إلى أمير البحر الكريتى نيرخاس الذى عاد بهذا الفريق من الجيش إلى الخليج الفارسى، بينما قاد الاسكندر نفسه غالبية الجيش عائدا إلى إكباتانا، مع هرب أعداد كبيرة من الجيش فى رحلة العودة. فى العام التالى، عام ٣٢٤ ق.م. عاد هو وجيشه إلى صوصة حيث أقام حفل زواج عظيم. شمل حفل الزواج هذا الإسكندر نفسه مع ثمانين من قادة الجيش، تم زواجهن مع أميرات من البيت المالك الفارسى. تزوج الاسكندر ورفيقه هيفاستيون من ابنتى الملك دارا (يروى لنا التاريخ أن عشرة آلاف مقاتل مقدونى من جيش الإسكندر تزوجوا، أثناء الحروب من نسوة من البلاد التى فتحوها، وكان القائد يبارك تلك الزيجات بهبات مالية مع تسجيل هذا الزواج)، وقد أقيم جناح عظيم فى تلك المناسبة للاحتفال بهذا الزواج الجماعى. بهذا العمل العبقرى حقق الإسكندر توحيدا دائما للمجتمع الجديد، بتوحيد الأجناس وتوحيد الطبقات، فقد وحد بين الإغريق والمقدونيين والفرس فى إمبراطوريته الجديدة، وهكذا تم تهجين الأجناس المختلفة فى مجتمعه الجديد. عاد الإسكندر بعد ذلك إلى بابل وبدأ يخطط لإحكام السيطرة على الأنهار العظمى فى إمبراطوريته الشاسعة، ولبناء أسطول عظيم، ورسم خرائط لسواحل البلدان العربية، والاستعداد للهجوم على قرطاجنة فى أقصى الغرب، وكان ينوى أن يجعل بابل عاصمة ملكه، ولكنه سقط صريع حمى هاجمته لمدة أسبوع واحد، قضى نحبه بعدها فى ٢٨ يونيو عام ٣٢٣ ق.م. بالغا من العمر ثلاثة وثلاثين ربيعا.

وتُركت كل تلك الطموحات لخلفائه من بعده لمحاولة تحقيقها. فى حياته اتفق كهنة زيوس (الإله الأكبر للإغريق)، وآمون (كبير آلهة المصريين) واهورا مازدا (إله الفرس)، وكهنة آلهة بابل المختلفين، اتفقوا جميعا على تأليه الإسكندر. وفى عصر الإمبراطورية الرومانية أصدر أغسطس قيصر مرسوما بأن الإسكندر هو الإله الثالث عشر على قمة جبل أوليمبوس. عبده الأسيويون والمصريون بمجرد وفاته وانتشرت الأساطير والخرافات فى جميع الأماكن التى وَطِئَها. يقال أن بطليموس قد أخرج جثمانه من بابل - حيث توفى - ونقله إلى الإسكندرية (ومازال المغامرون يبحثون كل حين وآخر عن هذا الجثمان الذى لاتقدر قيمته التاريخية بمال إن وجد). حياة الاسكندر تعتبر العامل الحاسم فى نقطة ارتكاز التاريخ الإنسانى. يعتبر الإسكندر فى المنتصف الهندسى للتطور الإنسانى، والحياة الإنسانية بعده تختلف اختلافا بينا عن الحياة الإنسانية قبله، فكأنه يقع فى منتصف رحلة الإنسانية (كما أن مجال نشاطه يقع فى قلب العالم، كما تخيله). إذا نظرنا إلى خريطة العالم فإننا نتبين للوهلة الأولى المسافات الشاسعة التى اخترقها بجيشه (كما فعل من قبله قورش العظيم ودارا العظيم). ثم نتبين الهدف الذى أخذ نفسه بتحقيقه ومقدار من تحقق من هذا الهدف. لم

يكن هدفه تحقيق الفتوحات فحسب، بل كان من أهدافه استكشاف المناطق تم استعمارها والاستقرار فيها، وحقق هذه الأهداف وتشابك الغزو العسكرى مع السياسة السليمة والفن والتجارة والتقدم التقنى والعلمى، وفى هذا الشأن فاق الاسكندر كل من سبقوه. فاقهم بالاستفادة الكاملة مما تركوه له ومما ورثه عن الحضارة الإغريقية. لم يرتفع الإسكندر إلى مرتبة الآلهه – كما حلى لعاشقيه من المؤرخين أن يصوروه، بل كانَ إنسانا فيه كل فضائل الإنسان ونقائصه. هو رجل قتل أصدقاءه عندما غاب عقله بفعل الخمر، كما كان يقتل أعداءه بالآلاف وهو فى كامل عقله. سواء اشترك فى مؤامرة لقتل والده أم لم يشترك فى تلك المؤامرة لايغير شيئا من حكمنا عليه. كان يتأسف كثيرا على جرائمه ويندم على أفعاله الخاطئة ولكنه لم يغير من طباعه ولم يقومها. كان شديد التدين ولكنه لم يمتنع أن يُنَصب إلاها، كان بانى ملْك عظيم ولكنه لم يتزوج لينجب وريثا للعرش إلا فى آخر الأمر. رغم كل هذه التناقضات فى حياته، فإن حياته كانت ذات معنى عظيم. ورث نبوغه من أبيه وحدة طبعه من أمه. تعلم من أبيه كيف يبنى ملكا عظيما وكيف ينتصر فى المعارك ويقود الجيوش من نصر إلى نصر. درس هوميروس وتعلم على يد أرسطاطاليس ولكنه كان أحكم من هومر وأرسطو، فقد علّم نفسه كيف يصفح عند المقدرة وكيف يوحد محكوميه وينشر الحب المتبادل بينهم. بدأ أبوه بهذه السياسة واستثمرها ولده إلى نهايتها. يعتبر فيليب نتاج عدة أجيال تم تهجينها حتى تولد عنها بالانتقاء – الرجل العظيم الذى قاد بلاده إلى النصر، ويعتبر الإسكندر المكمل لأبيه فى طريق النصر الطويل وطريق السياسة والحكم.

توضح الخريطة رقم (٣) أستعمار البحر المتوسط بالفينيقيين والإغريق والأتروسكان.



استعمار البحر المتوسط
بالفينيقيين والاغريق والاتروسكان

خلفاء الاسكندر الاكبر

كان عشق الاسكندر لرفيقه هيفناستيون السبب فى تأخير زواجه، وعندما تحقق هذا الزواج فى آخر الأمر من الأميرة روكسانا، لم تنجب له أولادا حتى وفاته بعد أربع سنوات. عند وفاته قتلت روكسانا زوجة الاسكندر الثانية، ابنة دارا، ثم أنجبت طفلها، ابن الاسكندر، وسرعان ما قتلهما كاسندر أحد خلفائه. وهكذا انتهى ملك أسرتى قورش والإسكندر فى نفس الوقت. بعد ذلك حكم الجنرالات (وزوجاتهم) تلك البلاد الشاسعة. تصارع الجنرالات صراعا مريرا، يذكرنا بصراع المدن الإغريقية، مع الفارق. كانت الجيوش المتصارعة جلها من المرتزقة، وكانت أقلية فى التعداد بالنسبة لكثرة الشعوب. لم تدمر المدن ولم يسبى أهلها - كلما كان الحال فى حروب المدن الإغريقية. كان الدمار يحيق بالقيادات والرؤوس ولم تكن الجماهير تعانى من تلك الحروب. كان الزواج والقتل هى الأسلحة الرئيسة التى يستخدمها القواد المتحاربون. بعد صراع مرير تمكن ثلاثة جنرالات من قواد جيش الاسكندر الأكبر تقسيم إمبراطوريته العظيمة:

١- أنتيجونس الأعور الذى وضع أسرته على رأس القسم الأوروبى من الإمبراطورية، مقدونيا وبلاد الإغريق، لقرن ونصف من الزمان.

٢- بطليموس سوتر الذى حكم وأسرته مصر لقرنين ونصف.

٣- سليوسس نيكاتور الذى وضع أسرته على رأس الجزء الأسيوى من الإمبراطورية، التى عانت من التقلص المتتابع، لقرنين من الزمان.

سرعان ما أزاح القواد الذين حكموا الجزء الأوروبى والذين حكموا مصر زوجاتهم الفارسيات من الحكم، الذى استمر المقدونيون والإغريق هم المتحكمون فيه فى شئون الحكم، أما فى منطقة حكم القائد الثالث سليوسس فكان الحال مغايرا لهذا الأسلوب.

السليوسيون

درب سليوسس النبلاء الفرس لقيادة الجيش الجديد المهجن الذى كونه الإسكندر الأكبر، واستبقى هو شخصيا زوجته الأميرة الأخيمية التى صارت الملكة الأم للأسرة التى كونها. تزوجت

ابنة سليوسس شاندراجوبتا مؤسس الأسرة المورية، وبهذا الزواج توحدت الأسر المالكة المقدونية والفارسية والهندية، ونشأت طبقة جديدة من الأمراء العالميين الذين يمتد أصلهم عبر القارات وعبر الأجناس. وقد لعبت هذه الزيجات، وهذا الخلف المتشابك الأصول، دورا هاما فى ثبات علاقات الحكومات المختلفة وتحاب الشعوب المختلفة منذ عهد الاسكندر الأكبر. أنجب الجيل الثانى من هذا الزواج المختلط الأمير أسوكا، الذى صار إمبراطورا هنديا عظيما والذى كون أعظم الإمبراطوريات الهندية قاطبة، وتعاون مع الكهنة البوذيين لكسر تقسيم المجتمع الهندى إلى طبقات، الذى أنشأه الكهنة البراهيميون (ليظلوا على قمة المجتمع). بالرغم من فشل ثورة أسوكا (كما فشلت من قبل ثورة إخناتون الدينية المتحررة فى مصر)، إلا أنها تركت آثارا عميقة فى العالم. بسبب فشل هذه الدعوة انتقلت البوذية من الهند إلى الصين واليابان وجزيرة سيلان وجنوب شرق آسيا ومازالت حية، وتؤثر على النظام الطبقى الهندى للآن.

كان غزو الإسكندر للهند هو الغزو الأول لشبه القارة الهندية فى التاريخ (وظل الغزو الوحيد لها حتى العصر الحديث)، ولم تستطع الكلمة المكتوبة للإغريق من أن تمحو التعليمات البراهيمية الشفهية، ولكن امتد الأثر العرقى والاجتماعى لهذا الغزو بعيدا.

البطالمة

أهم خلفاء الاسكندر وأكثرهم أثرا فى التاريخ كان رفيقه المثقف بطليموس ابن لاجوس الذى كانت مذكراته عن الإسكندر هى أول مذكرات فى التاريخ عن حياته وأعماله. احتفظ بطليموس لنفسه - بذكاء ومكر شديدين - أغنى مقاطعات الإمبراطورية، مصر. كانت مصر مقاطعة صغيرة يسهل حكمها ويتيسر الدفاع عنها ويمكن الاستقلال بحكمها. كان بعيد النظر وقرر الاحتفاظ بجثمان الإسكندر ليدفن فى المدينة التى بناها الإسكندر - الإسكندرية - التى جعلها عاصمة لمُلْكِه، ولكن بعد نظره بلغ قمته فى فهمه للثقافة الإغريقية وحفظه لها وتنميته لأصولها وفروعها.

قرر بطليموس الحفاظ على علماء الإغريق ومفكريها، وعلى الكتابات الإغريقية وآدابها، وارتفع شأنه وخلد ذكره فى التاريخ بهذا العمل الحضارى، وصار علماء الإغريق ومفكريها هم الثمرة الخالدة والأساسية لأسرة بطليموس فى تاريخ العالم.

صارت الإسكندرية حاضرة بلد يحكمه حاكم مقدونى وجيشه، يساعدهم مصريون محليون يديرون البلاد، وكهنة مصريون اتقنوا اللغة الإغريقية وتمثلوا الأفكار الإغريقية، والتجارة والهندسة والتقنية الإغريقية. تحولت الإسكندرية إلى جنة للسلام والحضارة فى عالم مزقته الحروب وشغلت

انتباهه. أنشأ بطليموس وخلفاؤه مكتبة ومتحفا في الإسكندرية، جذبت المثقفين والمفكرين من جميع أنحاء الدنيا، وصارت الإسكندرية مهبط كتاب المسرح والفلاسفة من جميع أنحاء إمبراطورية الإسكندر الأكبر، وخاصة من أثينا. أصبحت الإسكندرية عاصمة النور والثقافة في العالم وحاضرة الدنيا بلا منازع، وظلت هكذا، تتمتع بهذه الشهرة طوال خمسة أجيال من حكم أسرة مستنيرة، ثرية، تحكم بلادا مستقرة لاتقوم فيها الثورات ولا الصراعات. استمرت أسرة بطليموس الحاكمة في اتباع نفس أساليب العصر، التي كان تتبعها الأسر المالكة في اليونان وبلاد فارس وفي مصر من قبلهما وهي: غشيان المحارم، والاتصالات الجنسية غير الشرعية، وتعدد الزيجات (والأزواج)، واللواطة. ولكن وضع نظام لحماية الأسرة من هذه الأفعال المدمرة بتنظيم من الخصيان، في الحريم وفي القصر، عليه مراقبة من يتولى الملك من الأسرة.

كانت الأجيال الخمسة الأولى من أسرة البطالمة من زيجات ملكية بين الأسر المالكة الإغريقية – المقدونية، أجيالا عظيمة، أنتجت ملوكا عظاما واحتفظت للإسكندرية بحق الصدارة في العالم لمدة مئتي عام، ونقلت الحضارة الإغريقية – بعد أن زادت عليها وتوسعت فيها إلى العالم. وينبغي علينا أن نقارن ما حدث للحضارة الإغريقية في الإسكندرية – التي حافظت عليها ونمتها، وبين ما حدث للحضارة الإغريقية في فارس وفي الهند، التي فتر تأثيرها حتى ضاع تدريجيا ولم يحتفظ التاريخ الإنساني بها.

الثورة الهيلينية

كان من مخطط الإسكندر الأكبر للسيطرة على العالم كله هو إثرائه وتنويره وربطه ببعض ببناء المدن (كان في ذهنه بلاشك المستعمرات الإغريقية السابقة في حوض البحر الأبيض المتوسط). صار التخطيط الجديد لبناء هذه المدن أبعد كثيرا من المستعمرات الإغريقية الأصلية. بنيت تلك المدن لتحوي أناسا من أجناس مختلفة، يصممها الفرس ولكن ينفذها الإغريق بما يملكوه من المهارات الحديثة. تبنى تلك المدن في بلاد الشرق القديم، التي عاش فيها الإغريق كتابعين لمدد طويلة، ولكن صاروا الآن سادتها. الهدف من إنشاء تلك المدن هو أن تكون مكان لقاء للحضارات وتجمع للشعوب والثقافات. لم يكن القصد منها أن تكون مجرد لقاء بين الريف والحضر، ولا تجمع لذوي الحرف، ولا اجتماع لمختلف البشر الذي يعبدون آلهة مختلفة ويتكلمون لغة واحدة (كأثينا على سبيل المثال). الهدف أن تكون مكان استقرار دائم لمختلف أنواع التجارة وصنوف الصناعة وارباب الحرف الذين جاءوا من بلاد عدة ويتكلمون بألسنة مختلفة وينتمون لجنسيات متفرقة. عندما يأتي

هؤلاء الناس لتلك المدن للاستقرار الدائم، يعاملون نفس المعاملة ولا يتميز واحد عن الآخر بجنسه أو عرقه أو دينه. وهكذا تتقدم الحضارة إلى مستوى جديد أكثر تشابكا وأشد تعقيدا، وتصير تلك المدن منظمات للإنتاج الوفير والتعليم الرفيع والثقافة العالية وللمجتمع الجديد.

تم بناء نحو مائة مدينة جديدة بواسطة الإسكندر وخلفائه، فى مواضع استراتيجية على طريق القوافل، فى الطرق الداخلية (مثل كاندهار وكابول) أو الطرق الساحلية (مثل كراتشى). اختفى عدد كبير منها، ولكن ما تبقى مثل (انطاكية)، صار مراكز عظمى للتنوير والحضارة، وصار مركز جذب للسكان. لعل أعظم هذه المدن وأبقاها على مر التاريخ هى مدينة الإسكندرية. خطط الإسكندر بنفسه مدينة الإسكندرية، وانتقى موقعها فى شتاء عام ٣٣٣ -٣٣٢ ق.م. بالقرب من أبى قير غرب مصب نهر النيل، مواجهة لليونان، وتعتبر مدينة الإسكندرية هى باكورة التخطيط لبناء المدن على الطراز الغربى. خططت المدينة لتحتوى:

أولا : على الحى الإغريقى أو الملكى ليحوى قصور الحكام والمعابد ومساكن رجال الدين والمبانى الحكومية، وميدان السوق، الذى بنى على الطراز الإغريقى، ليقيم حوله السكان من الإغريق والتجار وعبيدهم (الذين كان يزداد عددهم بعد كل معركة ينتصر فيها الجيش وبعد كل مدينة يتم تدميرها). فى هذا الحى أيضا كانت توجد مكتبة الإسكندرية العظيمة، التى جمع فيها البطالمة نصف مليون مخطوط، وتعتبر التراث الخالد للثقافة الإغريقية. (تم تدمير هذه المكتبة أثناء حصار يوليوس قيصر لمدينة الإسكندرية عام ٤٨ ق.م.، وزودت ثانية واستكملت جزئيا بواسطة أنطونيو عام ٢٥ ق.م. ثم نهبها المسيحيون فى عهد حكم ثيودوسيوس، «ولم يقم أى دليل مادى على صحة هذه الحكايات كلها»). ولكن مما لاشك فيه أن هذه المكتبة، وما تبعها من مكتبات التى جمعها الملوك فى العصر الهلينستى فى برجامون وفى مقدونيا، كانت هى الأساس فى زرع الثقافة والأدب فى العالم القديم، ثم فى نمو العلم والمعرفة فى المسيحية والإسلام.

ثانيا : كان هناك الحى اليهودى فى المدينة. رحب اليهود بمقدم الإسكندر، فكافأهم بسخاء، ويقال إنه سمح لهم بتلقيب أنفسهم كمقدونيين فى تلك الأحياء، حافظ اليهود على عاداتهم وتقاليدهم واحتفظوا بمجتمعاتهم سالمة. تكوّن فى الاسكندرية، لهذا السبب، أكبر تجمع لليهود فى العالم، يهود يتحدثون ويقرأون ويكتبون بلغة الإغريق.

ثالثا : كان هناك حى المصريين، وهو أفقر الأحياء الثلاثة ثراء وثقافة، رغم أن المصريين أعمق تلك الجنسيات حضارة، ساعدت الممارسات الخفية للطبقة الحاكمة المصرية مع قصر التعليمات والمعلومات الدينية على فئة قليلة دون غيرها على انتقال معظم المبادرات الثقافية – حتى قبل عهد

الاسكندر – إلى طائفة اليهود. وقد ساعد هذا على تحول فئة كبيرة من المغامرين المصريين إلى اليهودية، وقد أبعدهم هذا أيضا عن المستعمرة الإغريقية الحاكمة. ولكنه لم يقطع الصلة تماما بمجريات الأمور، فقد قاموا بالثورة ضد الأسرة الحاكمة عندما عانت تلك الأسرة تحت حكم بطليموس «فيسيكون» كذلك ظلوا أقوياء وغير مستسلمين وحافظوا على لغتهم حية حتى نهاية البطالمة (ويقال أن الملكة كليوباترة آخر ملوك البطالمة كانت تتحدث باللغة المصرية)، وفى النهاية تحول الوثنيون المصريون، ومعهم كثير من اليهود، إلى المسيحية وحافظوا على المجتمع المصرى القديم وعلى لغته كالأقباط واللغة القبطية.

يعتبر انتشار الثقافة الإغريقية، بعد انتصارات الإسكندر الأكبر، من أوضح الأمثلة فى التاريخ. هنا نرى اجتماع عدد من البشر، حققوا إنجازات حاسمة فى اللغة والأدب والفن والعلم والتاريخ والفلسفة والدين وفى الإدارة الحكومية وفى الحرب، كمنجزين. لم يقتصروا على فرد واحد ولا طبقة واحدة ولا مجموعة عرقية أو جغرافية واحدة، بل كانوا متفرقين، منتشرين. هل حدث تشجيع لهم أو إحباط لعقولهم فى الجَيَشَان الذى أعقب انتصارات الإسكندر؟ قد يبدو للوهلة الأولى أن الاضطراب العظيم الذى أصاب العالم الهيلينستي – الذى كان مركز الحضارة بعد الإسكندر – قد أصبح مُرْبكا للأذهان ومحيرا للعقول بلا أمل – صار التعاقب السريع للحرب والسلم، والتغير المستمر فى السياسة، والهجرة المتتالية للبشر، والانتقال السريع للفكر، وتغير الدين واللغة، وثورات الطبقات والأجناس، يجل عن الوصف ويستعصى على الفهم. ولكن إذا ربطنا بين جميع العناصر القابلة للربط صارت تلك الروابط ذات مغزى يسهل فهمه ويتيسر إدراكه. فقد وضع الإسكندر تنظيما لإدارة إمبراطورية يعتمد على أن يحتل المقدونيين والإغريق القمة، كما نرى من تشكيل الأسر الحاكمة التى خلفته. كانت تلك الأسر إغريقية بالكامل فى غرب الإمبراطورية وفى مصر لعدة أجيال، وقد ساعدت تلك الأسر الإغريقية على استمرار الثقافة الإغريقية وعلى صيانتها، ونشرت الأفكار الإغريقية والتقنية الإغريقية وأصول الإدارة والحكم والقانون وطرق الاستعمار ووسائل التجارة، كما بدعها الإغريق وطوروها. حافظوا على كل تلك المنجزات حتى جاء الوقت الذى أورثوها فيه إلى خلفائهم، أى إلى المجتمعات الأخرى التى أعقبتهم. تحت انتشار الحكام والفلاسفة والفنانين الإغريق فى أنحاء الإمبراطورية، حدث انتشار أوسع مدى لسكان المدن الإغريقية. كان جدب الأراضى اليونانية عامل طرد منذ قديم الأزل لليونانيين للهجرة إلى خارج بلاد اليونان. اتجهوا غربا كمعلمين وسادة، واتجهوا شرقا كتلاميذ وخدم. والآن حدثت طفرة قوية من الهجرة للشرق، بأراضيه الخصيبة مع تبدل المواقع. صار الإغريق هم المعلمون والسادة، وأهل البلاد الأصليين هم التابعين. كان الانتصار الساحق السريع الذى حققه الاسكندر الأكبر والمعاملة الحسنة التى أبداها لتلك الشعوب عاملا لها لعدم

معارضته، وكان تعظيمه لدياناتها عنصرا أساسيا للترحيب به. وفى نفس الوقت اكتسب الإغريق مكانة وسلطة فى تلك المجتمعات الجديدة. بدأت الأسماء الإغريقية تنتشر بين الشعب، كما انتشر اللسان الإغريقى ثم الفن الإغريقى. حدث هذا سريعا فى الجزء الغربى من الإمبراطورية وسارع سكان المدن فى غرب إمبراطورية الاسكندر إلى التشبه بالإغريق – أى تحولوا إلى الهيلينية. ويشابه هذا التبدل السريع لما حدث فى العصور التالية من التحول السريع من دين إلى دين، فى أسبابه وآثاره. السبب فى هذا التغير السريع كان رغبة الناس الشديدة للتطور الاجتماعى والتقدم الثقافى، وكان من آثاره التزواج والمختلط بين الشعوب، خاصة بين أبناء الطبقات المحظوظة. تزوج الإغريق من غير الإغريق، ونشأ شعب جديد جمع بين التراث الثقافى والعرقى لكلا الجنسين، بين الإغريق المحدثين وبين الشعوب ذات الحضارات العريقة من بابل وآشور ومصر.

ظلت شبه جزيرة المورة، لسبعة قرون، مهدا لتجمع الجنس الآرى، حيث تناسلوا مع المهاجرين من بلاد الشرق ذات الحضارات القديمة، ونتج عن هذا التزاوج جنس فريد فى نوعه، فريد فى ثقافته. الآن تفرق هذا الجنس الجديد، ذو الصفات الفريدة، حاملا معه ثقافته إلى عالم فسيح مستعد لاستقبال الفاتحين المحملين بالثقافة والحضارة، لينشرها ويزيد عليها. فى خلال ذلك الانتشار، انتشر الرقيق الجدد، من الحرفيين والمفكرين، المملوكين للسادة الإغريق إلى كافة المدن الإغريقية الجديدة التى تم إنشاؤها. بعد كل معركة انتصر فيها الغزاة، وبعد سقوط كل مدينة فى يد الفاتحين، تم أسر عدد كبير من العبيد الذين بيعوا فى أسواق المدن الجديدة، فى الأماكن التى كانت الحاجة إليهم أشد ما تكون. بعد سقوط صور وقع ٣٠ ألف من أهله فى الأسر، وتم بيعهم فى موانىء البحار، خاصة فى الحى الإغريقى من الاسكندرية. كون هؤلاء الناس أساس الأسطول البحرى العظيم للدولة الجديدة التى صارت الإسكندرية عاصمتها ونظرا لمهارة هؤلاء الملاحين وكفائتهم، تم تحريرهم تباعا وصاروا مواطنين يتحدثون بالإغريقية ويقرأون الأدب الإغريقى وصاروا نواة «للإغريق الجدد». تزوج هؤلاء تباعا من الإغريق القدامى ونشأ منهم شعب هجين، هو الشعب السكندرى الذى حقق العجائب فى العلم، مثل ما حدث من قبل فى صقلية وجنوب ايطاليا. مثال هذا حدث أيضا فى أنطاكية وطرسوس، وفى قبرص وفى سوريا وفلسطين. بين جبال زاجروس من الشرق وساحل البحر المتوسط من الغرب، تحدث المثقفون بلسان واحد، هو اللغة الإغريقية، وهكذا أضيف إلى التجار الإغريق القدامى والحرفيين الإغريق الذين سبق قدومهم إلى تلك البلاد من تبقى من القوات المحارية من المقدونيين ومن الإغريق، ومن سلك فى خدمتهم وتعاون معهم وتعلم على أيديهم من الإغريق الجدد. صار الجميع يودون التحدث بالإغريقية، ويتخذ لنفسه اسما إغريقيا، ولو كان من اليهود. وصار الجميع يعبدون آلهة إغريقية (أو ذات أسماء إغريقية)، ماعدا اليهود. تعرض اليهود فى هذا

العالم الجديد المختلط إلى ضغوط عدة على عاداتهم التقليدية ومعتقداتهم الموروثة. تحول بعضهم إلى شيعة تتحدث بالإغريقية بعد أن فقدت اللسان العبرى، فى الإسكندرية، لم يتعلم هؤلاء اللغة الآرامية، واضطروا ليترجموا كتبهم القديمة إلى اللغة الإغريقية. وهكذا كتب المثقفون اليهود (وعددهم ٧٢ عالما)، نتاج فكرهم بالإغريقية، وكتاباتهم الدينية بالإغريقية، وهكذا ظهروا أمام بطليموس الثانى، المنقب العميق عن الثقافة والفكر، ثم توالت معرفة الإغريق بهم. بهذا العمل - الذى استغرق ثلاثة قرون - ساعدوا على نشر العقيدة اليهودية، وخليفتها المسيحية، بين الناس. وسرعان ما حدث العكس، وبدأت الألفاظ الإغريقية تظهر فى الكتابات اليهودية الصرفة، كالتلمود العبرى. وهكذا حدث الاتصال ثم التواصل بين الإغريق واليهود واستمرت كفيضان غزير طوال ثلاثة قرون. ولعل هذا هو أهم إنجازات العصر الهيلينستى. الهيلينستية هى أثر من آثار الهجرة الإغريقية إلى المدن، خارج أرض اليونان ذاتها. كانت تلك الهجرة أشد ماتكون فى شبه جزيرة الأناضول حيث اختفت اللغات المحلية ولم يوجد لها أثر فى السجلات المكتوبة لثلاثة قرون. ولكن مما لاشك فيه، أن الفلاحين والرعاة ظلوا محتفظين بنقاء جنسهم وكان تزواجهم مع الإغريق نادرا للغاية وكان تأثرهم بالأفكار الجديدة يكاد يكون منعدما، وكان أثر الإغريق واليهود (وفيما بعد المسيحين) أقل ما يكون فى الريف، وبعكس الحال فى المدن، الذى نتج فيها أرقى شعوب العالم قاطبة.

تطورت اللغة الإغريقية تباعا باستخدامها المتوالى على مدى ثلاثين جيلا، وباستخدامها فى الاستعمالات الحضارية والثقافية، وهكذا كانت مداد الهيلينستية، ودافعا لنموها فى الوقت ذاته. كانت فى مقدرتها على التعبير المجرد تختلف جذريا عن اللغات السامية، وقد ساعد هذا على نمو الأفكار المجردة وفى نقل تلك الأفكار إلى كل من يتعلم اللغة الإغريقية. وقد أسهمت الألفاظ والتعبيرات الإغريقية - بعد دخولها إلى الآداب العبرية ومن ثَمَّ إلى الكتاب المقدس للمسيحين، فى إضفاء القوة والوضوح والسمة الشاعرية إليه. لأول مرة فى التاريخ يقترب بشر يتحدثون بألسنة مختلفة، ويتكلمون بلغات قد تطورت حتى اكتملت، من بعضهم لهذه الدرجة. اللغة هى ابتكار المجتمع لذاته، من نتاج أناس ذوى أصل مشترك، وقربى، ولهم تطلعات مشتركة وأهداف واحدة. ليست اللغة هى أداة لنقل الصوت والفكر فحسب، بل هى جزء أساسى من الفكر والثقافة. اللغة هى نتاج نشاط البشر فى عالم تكيف فيه الإنسان مع التطور. اللغة الأجنبية هى نتاج جنس مغاير من البشر، يعيشون حياة مختلفة وينطقون لغتهم بطريقة مختلفة، ولهم أجرومية مختلفة وأسلوب مختلف فى تكوين الجمل وفى التفكير. يبدو أن استخدام اللغة الإغريقية بواسطة شعوب أجنبية كان من عوامل تقدم الحضارة فى العالم الهيلينستى (كما كان لاستخدام اللغة العبرية من أثر فى الأزمان التالية). أضيف هذا العامل على

عوامل التهجين، وإعادة توحيد الشعوب، والهجرة المنتقاة، فى تكوين الشعوب الجديدة، وفى تطورها وتقدمها.

أول مظاهر التوسع الإغريقى كان خلق مجموعة من المفكرين من نتاج التزاوج المختلط القادرين على فهم ثقافات العالم القديم وعلى استيعاب الثقافات التى جدت. وثانى هذه المظاهر كان إنتاجهم لأفكار جديدة وحضارة جديدة من إبداعهم. حوى الفكر الجديد كثيرا من الإنجازات العلمية العقلية التى أضيفت إلى حصيلة الفكر الإنسانى، كما تضمنت إبداعات فنية فريدة، يفخر بها الإنسان. أهم تلك الإنجازات حدثت فى مجالات الفلسفة والدين، وكانت البذرة التى أثمرت فيما بعد تغيرات هائلة فى المجتمع. قبل الاسكندر الأكبر كانت أثينا هى مركز جذب المفكرين من الإغريق وكان أرسطاطاليس هو المفكر الأعظم فى العالم. جاء أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م.) من ستاجيرا، على حدود مقدونيا، وعاد إلى عاصمة الملك فيليب ليصير معلما لابنه الإسكندر (٣٤٢ – ٣٣٥ ق.م.)، إلا أن أثينا كانت موطن إنجازاته العلمية والفلسفية. حضر إلى أثينا فى شبابه ليتتلمذ على أفلاطون، كما جاء إليها ديوجينيس الكلبى (من فلاسفة اليونان الذين آمنوا بأن الفضيلة هى الخير الأوحد وبأن جوهرها ضبط النفس ٤١٣ – ٣٢٣ ق.م.) من سينوب، حيث تبادل الحديث مع الإسكندر. جاء إلى أثينا أيضا ابيكيوراس (٣٤١ – ٢٧٠ ق.م.) من ساموس الأيونية ومعه مادية ديموقريطس وأحضر معه أيضا النظرية الذرية للوراثة (التى يعتبر إعادة الكشف عنها أحد مقومات تطور الإنسانية كما يبدو فى صفحات هذا الكتاب). بعد عهد الإسكندر استمرت أثينا هى مركز استقطاب العلماء لعدة أجيال. أتى زينون إلى أثينا (٣٥٠ – ٢٦٤ ق.م.) وعلم فيها رؤية للحياة، ظلت هى الرؤية السائدة فى العالم القديم لعدة قرون وهى المعروفة باسم «الرواقية» (وهى المذهب الفلسفى الذى قال بأن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح أو الترح وأن يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة). زينون هذا كان من أصل فينيقى وثلاثة من تابعيه كانوا من طرسوس. هنا نرى رجال من مبدعى الأفكار الإغريقية، باللغة الإغريقية، ولكنهم يبنون هذه الأفكار على تراث الشرق القديم. ونرى رجال يرحلون إلى مراكز النور لينشروا أفكارهم وثمرات عقولهم. حيث السوق المفتوحة، كانت أثينا هى منارة الفلسفة، التى بدعها سقراط وزاد عليها كل من أفلاطون وأرسطو. أما منارة العلم فكانت الإسكندرية، التى تعهدها البطالمة وأقاموا فيها المتحف والمكتبة. هناك تناقض واضح بين الاتجاه الأخلاقى والفلسفى الذى ساد أثينا التقليدية والمحافظة، وبين العمل التجريبى والعلمى الذى صار ميسرا للإغريق فى الإسكندرية، من أمثلة هذه المقولة ما حدث لأريستاكس الآتى من ساموس. عالم الفلك هذا كان من أصل أيونى وكان أول من اقترح أن الأرض

تدور فى فلك حول الشمس الثابتة. فقدت كتابات هذه العالم ولكن عرفنا به لأنه شجُب لعقوقه من كبير الرواقيين فى آثينا، ودفنت نظريته هذه لألفى عام حتى أعيد الكشف عنها فى العصر الحديث وثبتت صحتها. كانت حركة هؤلاء الناس دليلا على الهيلنيستية وكانوا هم بأنفسهم أدوات إبداعها. لم يحدث من قبل، فى تاريخ الإنسانية أن تحولت أمم بأسرها بتلك السرعة فى أجناسها وفى ثقافتها. وكان الاستعداد للتحول السريع هو خلق فئة متوسطة فى المجتمع فى المدن الإغريقية. كانت تلك الطبقة تتكون فى غالبيتها (ولكن لم تكن كلها) من أصل إغريقى. بواسطة لسانها الإغريقى وثقافتها الإغريقية ربطت المجتمعات معا برباط وثيق وجعلت أى تغيير مستقبلى لها، فيما بعد، من العسير حدوثه. ولكنها أوجدت أيضا مشكلة العلاقة بين الطبقات وأوجدت القلق من استمرار العبيد ومن تكرار الحروب ومن مفاهيم الأديان، مما لم يسبق للمجتمعات المختلفة أن قابلته من قبل. لم تسبب الهيلينية تباعدا بين المدينة والريف ولا بين الطبقات المتعلمة وغير المتعلمة أكثر مما كان موجودا من قبل. ولكن حدث التباعد فى الأفكار الدينية والمعتقدات. كان الدين فيما سبق هو الوسيلة التى يرتبط بها الناس وتوحد بينهم. الآن صار الدين مصدر توتر مستمر وشديد نظرا للتغيرات الجديدة التى جدت على المجتمع. صارت هناك تواترات بين من يحبون الحرب ومن يكرهونها، وبين من يعبدون الأصنام ومن يسترضون آلهتهم بإراقة الدم وتقديم الأضاحى، ومن يرفض الإتيان بهذه الطقوس (كالرواقيين)، كما كان هناك اختلاف بين من يحبون نظام الرقيق ومن يمقتونه ويستهجنونه. كانت الأخوة ممكنة بين الفئات المختلفة تحت حكم ملك مستنير مثل أنتيجونس جوناتس وصار التلاقى بين الأجناس المختلفة تاما. صار بالإمكان التعبير المجرد باستخدام اللغة الإغريقية (الذى يختلف تماما عما هو متاح فى اللغات السامية القديمة)، وهكذا تحررت أفكرار سائر الأمم بعد تعلمها الإغريقية فى العالم الهيلينستى ولكن لم يتم التلاقى بين طبقات المجتمع المختلفة التى انقسمت إليها الأجناس. كان لانتشار الهيلينستية الأثر فى تحرير أفكارالبشر من القيود السابقة، ويتضح هذا أكثر ما يتضح فى الجانب الأخلاقى الذى جلس الرواقيون على قمته ومازال يغذى أفكارنا إلى عصرنا الحاضر. كان من أبرز أفكار الرواقيين، أفكار جمهورية زينون، التى تؤمن بأن العدل طبيعى ومن الفطرة التى فُطر الإنسان عليها. كذلك نظرة الرواقيين إلى الحرية، وأن الحرية لاتتناقض مع الطاعة، بخضوع كافة الأفراد لحاجة المجتمع. (فى الواقع أن التمييز بين التعاون والخضوع هى عملية تكيف مستمر ينميها الانتقاء الطبيعى). لانزعم أن الفروق الوراثية بين مختلف الأجناس وبين الطبقات: بين العبيد والأحرار، بين الرجال والنساء، ستنمحى تماما، ولكن ما ندعيه أن تلك الفروق لاتمنع الأخوة بين البشر. كان هذا هو مبدأ الرواقيين الذين أتوا من طرسوس. لم تظهر تلك الآراء أيام الإسكندر الأكبر فى ساحات الحروب العنيفة التى صاحبت هذا العصر، ولكنها ظهرت فى عهود أسلافه، حتى أيام

حروبهم. هذه الأفكار، أفكار المثقفين الأذكياء، وليست أفكار الحكام، وترجع إلى طرسوس وتشأت منذ حوالى ثلاثة قرون قبل ظهورها وانتشارها فى المذهب الأبيقورى (نسبة لأبيقور، الفيلسوف الإغريقى الذى قال بأن المتعة هى الخير الأسمى والفضلية وحدها هى مصدر المتعة). ليس للآلهة أى شأن بشئون البشر وأن مبدأ الرواقيين أن الصلوات وتقديم القرابين للأصنام والمزارات بغير ذى جدوى. تقبل المستنيرون هذا الرأى بالتدريج فى جميع أنحاء العالم الهيلينستى. فى هذا العالم ظهر اليهود، وكان لهم تأثير شديد ضد كافة أنواع الوثنية، وانتشر أثرهم وتعليمهم سريعا، وتحول عدد كبير من المثقفين ومن جماهير الشعب إلى الديانة اليهودية. هكذا، ظهر فى المجتمع الهيليتستى حركات مختلفة، تبغى كلها لتغير فى الأفكار الدينية السائدة منذ القدم، أثارت بالنقاش الذى أثارته بين كافة طبقات المجتمع، وعلى الأخص بين المثقفين من كافة الأجناس، إلى الوحدة بين أفكارهم وسببت تباعدا بينهم وبين غير المثقفين الذين ظلوا على عبادة التصاوير والتماثيل وظلوا على تقديم القرابين والتضحية بالدم لها. منذ قديم الأزل أدرك الناس الفروق الواضحة، فى القدرة العقلية وفى القوة العضلية، بين مختلف البشر، ولكن فى العصر الهيلينستى جاء الإغريق واليهود بالأفكار التى تدعو لقبول تلك الفروق ومحاولة المساواة بين البشر، وجاءت المسيحية ثم الإسلام بعدها لتدعيم مبدأ المساواة، ولكن كانت الهيلينستية هى التربة التى أثمرت تلك المساواة بين البشر.

الباب الخامس

الامبراطورية الرومانية

استعمرت ايطاليا - مثل باقى البلدن الأوروبية - بواسطة موجات متتالية من الناس، لانتشار الزراعة، وانتشار الأعمال المعدنية، وانتشار التجار، وبناء المدن. استعمرتها موجات متتالية جاءت من آسيا ومن بلاد الإغريق. حدث التقدم سريعا، وجاء التنوير عقب عصور ما قبل التاريخ مباشرة، كما يوضح الجدول رقم (٨):

جدول رقم (٨)

استيطان ايطاليا من سنة ٣٠٠٠ - ٣٠٠ ق.م.

قبل نشأة الكتابة

العصر الباليوليثى	من إفريقيا وأوروبا	حتى عام ٣٠٠٠ ق.م.
العصر النيوليثى	عصر الزراعة والرعى	من ٣٠٠٠ - ٢٠٠ ق.م.
العصر الميجاليثى	من أبوليا ومن الجزر	من ٢٥٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م.
العصر البرونزى	الإريان، جاءت موجات متتابعة منهم من وسط أوروبا كغزاة فاتحين	من ١٨٠٠ ق.م. ومابعدها.
عصر الحديد	١- جاءت مجموعات من التجار الحدادين من البلقان عبر البحر الادرياتيكى	حوالى ٨٠٠ ق.م.
	٢- جاءت قبائل من الكلت من أواسط أوروبا.	حوالى ٤٠٠ ق.م.
	الغال.	

المتحدثون بالإغريقية	من المدن الساحلية باليونان والأناضول وأنشأوا مدنا ساحلية فى الجنوب ثم تغلغلوا فى البلاد.	من ٨٠٠ - ٣٢٠ ق.م.
المتحثون بالإتروسكية	من داخل ليديا، أنشأوا مدنا فى توسكانيا ثم انتشروا منها.	٧٥٠ ق.م.

أدخل السكان فى العصرين النيوليثى والبرونزى الزراعة إلى إيطاليا فى الأراضى الشمالية الخصبة، وكان عدد السكان قليلا فى أخصب الأراضى الخالية من الغابات فى شبه الجزيرة. كان السكأن من المزارعين ومن الرعاة. كان المهاجرون، من غير السكان الأصليين، يتحدثون بألسنة مختلفة، اختفت جميعا (ماعدا لغة الباسك التى مازال يتحدث بها الناس فى شمال إسبانيا وعلى حدود فرنسا). جاء الإريان أول ما جاءوا فى العصر البرونزى من وسط أوروبا، ونظرا لشراستهم وسرعة تحركهم وانتقالهم من مكان لمكان سعيا وراء الكلاء لمواشيهم لم يستقروا تماما فى البلاد. ربما كان المستعمرون فى العصر الميجاليثى هم أول من جاء من المستنيرين إلى إيطاليا، إذ كانت لهم علاقة بحضارات الشرق القديمة. استقر هؤلاء فى الجزر، استقروا فى مالطا وفى سردينيا، كما استقروا فى أبوليا، وكان لهم تأثير ضعيف على نمو الحضارة فى إيطاليا فى القرن الثامن ق.م. بدأ استعمار القادمون من الشرق فى إيطاليا واستيطانها. حضر الفينيقيون وأنشئوا الموانىء (كما أنشأوها على سواحل إفريقيا وإسبانيا)، كما جاء آخرون من بحر إيجة، من جزر اليونان ومن أرض اليونان الأصلية، وبدأوا فى الاستقرار فى مستعمرات أنشأوها على السواحل الجنوبية والغربية لشبه الجزيرة الإيطالية. ويمكن التعرف على المستعمرات الإغريقية، بالكتابات الإغريقية التى تم العثور عليها فى تلك الأماكن على سبيل المثال عرفنا أن كوما (على الساحل بالقرب من نابولى) أنشئت فى عام ٧٥٧ ق.م.، أنشأها سكان المدينة الأيونية الأصلية كايم. استمرت المستعمرات الإغريقية الجديدة تتحدث باللسان الإغريقى، وتتبع العادات والتقاليد الإغريقية، وكان اتجاه الإغريق إنشاء موانيهم على سواحل البحار، ولم تكن لديهم الرغبة فى الاختلاط بالهمج الذين يعيشون فى داخل البلاد. تكونت مستعمرات أخرى فى شمال البلاد على الساحل من أناس ذوى أصول ترجع لبحر إيجة ولكنهم لايتحدثون بالإغريقية، وكان لديهم الاستعداد للتغلغل إلى داخل البلاد وعدم الاقتصار على المستعمرات الساحلية هؤلاء هم من سيطروا على البلاد بمرور الوقت خلال قرنين من الزمان

وكانت إقامتهم الأولى فى الأراضى بين نهرى التيبر والأرنو. هؤلاء هم الإتروسكان (من الاسم اللاتينى إتروسكى أو توسكى)، وكانو معروفين لدى قدماء المصريين فى القرن الثالث عشر ق.م. باسم تورسا.

لما كتب المؤرخون الإغريق والرومان فيما بعد عن أصل الإتروسكان الذين لم يفهموا لغتهم، جاءوا بمعلومات متناقضة وغير واضحة. وصفهم هيرودوت، بعد ٣٠٠ سنة بعد استقرارهم، أنهم جاءوا من ليديا وأنهم رحلوا من سميرنا لإنشاء مستعمرات فى إيطاليا بقيادة ابن الملك، تيريناس، ولكن ديونيساس من هاليكارناسس الذى كتب عنهم بعد ٥٠٠ سنة أخرى رجح أنهم أهل البلاد الأصليين ولم يأتوا من أى مكان آخر. اعتنق المؤرخون الرومان، فيرجيل وهوراس وأوفيد، نظرية هيرودوت وسموا نهر التيبر النهر الليدى. كتب الإتروسكان لغتهم بحروف إغريقية (ومن هنا أمكن حل شفرتها جزئيا)، وقد وجدت نقوش من هذه اللغة فى جزيرة لنموس (قبل احتلال الاثينيين لتلك الجزيرة سنة ٥١٠ ق.م.)، وقد تعتبر لغة هذه الجزيرة أصلا للغة الإتروسكانية. بدأ الإتروسكان كفئات محاربة من داخل الأناضول. أحضروا معهم عمال مناجم وحدادين واستقروا فى جزيرة إليا (الغنية بالحديد) وفى داخل البلاد (حيث يكثر النحاس). سرعان ما أضفى عمل أولئك الرجال، وتزويدهم المدن بالأسلحة، القوة على المستعمرين الجدد. كان معهم ملاحون وبحارة الأسطول الإغريق فى ماسيليا، وفتحوا جزيرة كورسيكا (بالإضافة لجزيرة إلبا) ورحلوا فى أعقاب الفينيقيين المستوطنين فى قرطاجنة وتحالفوا معهم. ولابد أنهم أحضروا معهم البنائين (غالبا من الميسنيين) لأنهم تفوقوا على الإغريق (من البداية) فى بناء القباب والأقواس والقنوات والمصارف. نشر من أعقبهم هذه المخترعات إلى بلاد عديدة. وأخيرا جاء معهم رجال الدين الذين أدخلوا عبادة أرباب الشرق إلى الأراضى الإيطالية(واتبعوا خاصة الطقوس البابلية). يقص لنا تاريخ الإتروسكان فيما تركوه من مقابر أظهرت الخبىء من أسرارهم. كان اهتمامهم شديدا بحفظ الموتى (الأغنياء منهم)، كما كان المصريون، وبقيت لنا مقابر فى المدن الاثنا عشر التى بنوها. توضح تلك المقابر خط السير الذى اتبعوه ونمو طبقتهم الحاكمة من القرن الثامن إلى القرن الثانى ق.م. أول موضع استقر فيه الإتروسكان على الساحل فى تاركينا. وجدوا فى هذا المكان موضعا محصنا طبيعيا يمكن الدفاع عنه بسهولة، فبنوا فيه مدينتهم، بعد دحر رجال القبائل التى كانت تقطن هذا المكان، وأسسوا ولاية تحت حكم أمير من الكهنة. ومن هنا يتبين لنا أن استيطان الإتروسكان كان مخالفا للأسلوب الذى كان يتبعه الإغريق، فقد استوطن الإغريق المستعمرات كتجار بينما استوطن الأتروسكان المستعمرات كغزاة منتصرين ومحاربين أشداء. تحرك الإتروسكان شمالا كلما قويت شوكتهم وكلما زادت أعدادهم وكانوا يختارون الإقامة على التلال (التى يمكن الدفاع عنها) وليس فى الوديان (سكنوافى فيسول وليس فى فلورنسا). أقاموا ١٢ مدينة كونت اتحادا فيما بينها، وكانوا يقيمون

احتفالا سنويا لهذا الاتحاد، يذكرنا باحتفال الشرقيين من العرب والإسرائيليين. ثم تبعهم فى إقامة اللقاء السنوى الإغريق (ومن بعدهم اللاتين). كان اللقاء السنوى يعقد فى موضع مقدس (بالقرب من أورفيتو الحديثة)، قدمه من قبلهم السكان النيوليثيون والسكان الباليوليثيون الذين سرعان ما تم امتصاصهم تماما من المستعمرين الجدد. كانت تتغير طبائعهم وعاداتهم كلما رحلوا شمالا، أقلعوا عن دفن موتاهم وصاروا يحرقون الجثث. تبدلت الروح الشرقية المميزة فى فنونهم مع استخدام الطرق الحديثة والمواد الجديدة التى وجدوها فى كل مدينة شيدوها. كان التغير من عمل المغيرين الجدد والحكام الجدد، الذين سرعان ما تم اختلاطهم بكبار أهالى القبائل التى أخضعوها (وتكرر هذا العمل فى كل التاريخ الرومانى). ظلت كل مدينة محتفظة بطابعها المحلى (كما كان الحال فى المدن الإغريقية القديمة)، كما استمر على هذه الحال أهالى توسكانيا إلى اليوم. الأهالى يفضلون أن تقسم بلادهم إلى ولايات مستقلة ليسهل الدفاع عن كل ولاية، وليحتفظ الأهالى بعاداتهم وتقاليدهم الموروثة من بلادهم الأصلية. ولكن تقسيم البلد يعنى صعوبة المواصلات بين أجزائها وتعنى تربية مختلفة لأهاليها (حتى بين الطبقة الحاكمة). ظلت إيطاليا لمدة طويلة مقسمة سياسيا وظلت فنونها ذات طابع محلى لدرجة كبيرة. وتميز كل اقليم بالإستقرار التام. عندما دخلت إيطاليا إلى القرنين السادس والخامس ق.م. كانت توسكانيا تتربع فى الصدارة بين مختلف الأقاليم الإيطالية. كانت أكثرها حضارة، ولذا كانت الروابط بينها وبين اليونان أشدها قربا. احتفظ الإتروسكان بمعبد لهم فى دلفى، واستوردوا الفخار من أتيكا بكميات كبيرة (حتى أن الأوانى افخارية ذات الطابع اليونانى عثر عليها بوفرة أكثر فى ذلك الجزء من إيطاليا عنها فى أتيكا). وهكذا جمع الإتروسكان بين تراث الحيثيين – من حيث أتوا، وبين تراث اليونان الذين ارتبطوا بهم. أسد فالشى على سبيل المثال لايشبه الأسود المعاصرة ولكنه قريب الشبه بأسود الحيثيين الذين وجدوا قبل ألف سنة، تمثال الذئبة الذى عمل فى قينى يشابه تماما ذئبة الكابتول اليونانى، كما لعب المسرح الإغريقى دورا هائلا لدى الإتروسكان. ترعرعت الثقافة الإتروسكانية وازدهرت ازدهارا عميقا فى تلك الفترة التى كانت الأبواب مفتوحة على مصراعيها تجاه الشرق. بدأت الإمبراطورية الإتروسكانية فى ذلك العهد وانتشرت. اتجهوا جنوبا واحتلوا روما وأنشأوا كابوا فى القرن السادس قبل الميلاد، وبعد طردهم من روما اتجهوا شمالا واستوطنوا فى حوض نهر البو فى القرن الخامس ق.م.، وأنشأوا المدن التى تعرف حاليا باسم بولونيا، مانتوا ومودينا. فى نفس الوقت الذى كان المستعمرون يصلون فيه إلى شبه الجزيرة الإيطالية عن طريق البحر جاءت موجات متتالية من الهجرات من الأناضول عن طريق البر، متتبعين طرق التوسع النيوليثى، وآخذين معهم الإنجازات الحضارية الحديثة من طرق الكشف عن خام الحديد واستخراجه وصناعته من خاماته. قابلت هذه الموجات قبائل إيرانية فى حوض الدانوب

الأعلى، القبائل التى رحلت غربا من أقرباء تلك القبائل التى رحلت إلى الشرق. كشفت تلك القبائل عن مزيد من خام الحديد بالنمسا، حديد أشد صلابة يصلح لصنع الأسلحة والآلات، فتكاثر عددهم وتوسعت أراضيهم. كونوا (كما سبق أن ذكرنا) هالستات (أو سالزبرج) وحضارة لاتين (لدى علماء الآثار)، أو الكلت (لدى علماء اللغة والمؤرخين). غزوا البلاد التى أطلقوا عليها اسم الغال (فرنسا) إلى الغرب والولايات التى سميت بغاليسيا (فى إسبانيا، وفى بولندا) ونسبت هذه الولايات إلى جالاتيا بالأناضول. استفاد هؤلاء القوم من أنواع الخيول المحسنة التى أدخلها الفرس إلى أوروبا فى حروبهم، كما استفادوا من هجرة واستطيان الحرفيين الآتين من العالم المتحضر إلى بلادهم، ومن ضمنهم الإتروسكان نفسهم. كان للاختلاط فوائد جمة وعاد عليهم بمخترعات جديدة عظيمة الفائدة، لعل من أهمها حداوى الحديد لخيلهم، التى جعلت عرباتهم الحربية أشد سطوة وأفعل أثرا. غزا الغاليون شمال ايطاليا عند نهاية القرن الخامس ق.م. انهمروا عبر جبال الإلب ونهبوا المدن الغنية فى شمال إيطاليا وحاصروا روما وتركوها نظير فدية دفعها أهل روما. لم يهاجر الإتروسكان جنوبا إلى لاتيام فى مقابلة هذا الغزو، وانتقل مركز القوة من الأتروسكان إلى روما.

هناك عدة أسباب تفسر هزيمة الإتروسكان أمام الغزاة من الغال. أولها أنهم كانوا يؤمنون بالخرافات الدينية (أشد من إيمان البابليين أنفسهم). كانوا يستطلعون المستقبل بفحص أكباد الطيور (ومازال بعض البشر، حتى عصرنا الحاضر، يؤمنون بمثل هذه الخزعبلات). أما الفلسفة الأيونية والإغريقية - التى كانت نتاج التفكير العقلى - فقد بدأت تؤثر على عقول الحكام والجوالات فى العالم القديم وبدأت هذه الخرافات تزول من أذهانهم. ربما كان لرجال الدين عند الإتروسكان من القوة ما استطاعوا به أن يسيطروا بأفكارهم على الحكام - ليبقى لهم نفوذهم. كذلك عمد رجال الدين الإتروسكانيون على عزلة بلادهم عن العالم وكان من أثر هذه العزلة افتقاد المجتمع الإتروسكانى للتطور وتوقفه على حاله. عملت التلال والجبال الموجودة فى توسكانيا - التى كانت حاميا منيعا للإتروسكان فى مبدأ أمرهم حتى اعتبروا أنفسهم واعتبرهم الآخرون أمة عظيمة - كانت نفس تلك الجبال والتلال عائقا لطرق التجارة وعزلتهم عن الاتصال بالعالم عن طريق البر والبحر. عزلتهم عن الأفكار الجديدة وعزلتهم عن البشر الجدد وقسمتهم أنفسهم إلى شطف معزولة عن بعضها البعض يصعب الاتصال بينها، كما كان حال المدن الإغريقية المتفرقة والمتحاربة التى لم تقم لها قائمة حتى وحدها فيليب المقدونى وجعل منها أمة عظمى. كانت العزلة من الشدة بحيث لم تخمد الخلافات بين طبقاتها المختلفة، بين الحكام ورجال الدين وعامة الجماهير الرقيق. لو وصلت إلى هؤلاء الناس الأفكار التقدمية التى جاء بها فلاسفة الإغريق وأحبار اليهود لانفتح العالم أمام الإتروسكان. ولكن لغتهم كانت لغة بائدة لايتحدث أحد بها غيرهم، وكان كهنتهم وجمودهم عائقا

إضافيا لهم. بعد عدة قرون من الإستعمال اختفت لغة الإتروسكان تماما من الوجود، حتى فى روما ذاتها. ذبلت اللغة لأنه لم يوجد المستنيرون من أهلها - كما وجد لدى الإغريق واللاتين - الذين يطورونها كلما تطورت الحضارة وتقدمت الأفكار. تشابه مدن الإتروسكان فى مصيرها مدينة قرطاجنة، ومثل أهل قرطاجنة خضعوا لروما، التى ابتلعت كثيرا من أفرادهم الموهوبين وذوى الكفاءات حتى مسحوا تماما ذكرى أمة كانت عظيمة فى يوم من الأيام.

مدينة روما هى أول مدينة عرف أصلها من الحفريات التى تم حفرها ومن الكتابات التى كتبت عنها، كما توضح قرائن دينية وأدبية عن تلك الأصول. اجتذبت المستوطنين الأوائل من الإغريق ومن الإتروسكان، للاستقرار فى المنطقة جنوبى نهر التيبر، ربما لفقرها فى المعادن، ربما لكثرة براكينها. ثم سكنها عدد قليل ممن يتحدثون باللاتينية حوالى القرن التاسع ق.م.، وسكن الفلاحون فى السهول والرعاة على التلال، قرى قامت على النظام الأبوى القائم على حكم العشيرة. اتصلت القرى ببعضها البعض وكونت قبائل. كانت تشترك فى احتفالاتها الدينية وفى أماكنها المقدسة. كان الخوف من مهاجمة قرى الإتروسكان لها وفرص التجارة مع المستعمرين الإتروسكان والاستعانة بهم فى بناء المدن، وهم على خبرة ببنائها، دافعا للقرى الرومانية للتقارب والاندماج، وتبنى الأسوار، وتنتخب قادة عسكريين، وتنظم احتفالات جماعية، ونظام تجارى مشترك، وتبدأ بتكوين المدن ذاتها. إحدى تلك المدن كانت روما، التى ظهرت فى القرن الثامن ق.م.، كان وضعها منذ البداية مفتاح حياتها بنيت روما على التلال، أولا على تل واحد، ثم الذى يليه، وكانت تحميها فى البداية المستنقعات، أما الأراضى الزراعية التى كانت تكفل الحياة لها فكانت مكشوفة تماما وعرضة للغاصبين. كانت مدن الإتروسكان تقع على بعد ١٢ ميلا شمالى روما، حيث تقع أقرب مدينة لها، مدينة فيى، التى كانت كثيرا ما تتحدى روما حتى استولى عليها كاميلوس أخيرا عام ٣٩٦ ق.م. اكتسب نبلاء روما مراكزهم (مثل كل النبلاء فى العالم القديم) من مقدرتهم على الدفاع عن المدينة ومهاجمة أعدائها. كانت مدينة روما الواقعة على الحدود بين الإتروسكان واللاتين، على تلال منخفضة، فى سهل فسيح مدينة مكشوفة لأعدائها، الذين يمكنهم الإغارة عليها فى أى لحظة (كما فعل أهل الغال فى وقتما)، ولذا كان من العجيب أن تبقى هذه المدينة على مر التاريخ مدينة مستقلة. كانت كل محنة تمر بها المدينة تكسب نبلاءها مزيدا من القوة (عند الانتصار) أو تخزيهم وتضعف من شأنهم (عند الهزيمة). بعد كل محنة كان يحدث تعديل فى حقوق وواجبات الطبقة الحاكمة والمحكومين على السواء، مما أدى تدريجيا إلى نشأة دستور للبلاد وقوانين تنظم حركتها. كانت مدينة روما تقع عند التقاء طريقين أساسيين، الطريق إلى الجنوب الذى يصل المدينة بالمستوطنات الإغريقية، والطريق الذى يحمل الملح من البحر من مصب نهر التيبر إلى القاطنين على التلال. وهكذا كانت المدينة مكان إلتقاء عدة فئات من البشر: أولا اللاتين والسابين ثم الإتروسكان. كانت القرى هناك تنقسم لتبعيتها لتلك الفئات:

قرى اللاتين : أميلى ، كورنيللى ، مانلى.

قرى السابين : كلاودى ، فاليرى ، فابى.

قرى الإتروسكان : ليشينى.

وفيما بعد نشأت قرى لفئة أليالونجا وهى : جولى، سيرفيلى. كان الحكام يتم انتخابهم بواسطة ممثلى تلك العشائر: اللاتين والسابين والإتروسكان. للتمتع بحماية مدينة روما، اجتذبت المدينة طوائف شتى من الرجال، كان بعضهم تجارا وبعضهم حرفيين وبعضهم عبيدا تم أسرهم من المراكز القديمة الإتروسكانية والإغريقية. تلك الطوائف كونت الطبقة العاملة والمهنيين وجماهير الشعب. كان هؤلاء العاملون يدعمون سادتهم ويحملون أسماءهم ويطيعون أوامرهم وقوانينهم، ويدفعون الضرائب. تعلم هؤلاء التحدث بلسان سادتهم وفى نهاية الأمر سمح لهم بعبادة آلهتهم.ازداد تعداد العبيد بمرور الزمن من الأسر فى الحروب ومن التكاثر لدى سادتهم. كان من يتمكنون من سداد ديونهم يسجنون (ولا يستعبدون)، وكان أسرى الحروب فى البداية يتم الإفراج عنهم بعد أن تضع الحرب أوزارها. كان العبيد يهربون من سادتهم عندما تحيط الكوارث بروما. ولكن منذ عام ٤٣٠ ق.م. صار الرومان يحولون أسرى الحرب إلى رقيق دائمين ولا يفرجون عنهم، عندما قويت شوكتهم وازداد ثراؤهم وصار بإمكانهم الاحتفاظ بأعداد كبيرة من العبيد. أدخل الرومان تحسينات عن نظم البلاد الشرقية لأسواق العبيد. فقد أنشأوا مدارس لتعليمهم الصراع والنزال ليصيروا محاربين أشداء محترفين كما استغلوهم فى أعمال المناجم وفى الحقول، وأنزول أقصى العقوبات على الهاربين، وقد قامت عدة ثورات للعبيد على سادتهم فى العصر الرومانى.

كانت العلاقة بين روما والإتروسكان تختلف من الناحية السياسية عنها فى العلاقات الاجتماعية. استمرت الخلافات السياسية نحوا من مائة عام، بينما استمرت فى الناحية الاجتماعية نيفا وألف عام. تُظهر روما بوضوح تاريخ المدن الغربية كلها. فقد بنيت هذه المدن بأيدى رجال جاءوا من الشرق القديم (ومما لاشك فيه أن المستوطنين الإتروسكان قد عاونوا فى بناء مدينة روما فى أول الأمر) فقد بنوا المساكن وأنشأوا المصارف ورصفوا الشوارع وبنوا الأسوار حول روما كما كانوا يفعلون فى مدنهم. وشيد تاركويناس العظيم المعالم الدينية والمدنية الكبرى. فقد أنشأ السرك الكبير ومعبد الآلهة الثلاثة، جوبيتر وجونو ومنرفا على الكابيتول والمزار المقدس الجماعى للرومانيين والسابين والإتروسكان، وبنى المجارى الضخمة لمدينة روما (وقد جمع لهذه الأعمال كلها المهندسين من بلاد الإتروسكان) أما خلفه، سيرفيوس فكان هو بانى القوات الحربية الرومانية، فقد أنشأ الجيوش، ودرب الخيالة، ووضع الخطط، ونسق بين مواضع قوات المشاة الخفيفة والثقيلة. كذلك

وضع نظام التعداد للسكان وللممتلكات بهدف حصرها لفرض الضرائب وتجهيزها للخدمة العسكرية. قسم السكان إلى خمس طبقات حسب نوع الأسلحة التى تسمح لهم ثرواتهم باقتنائها. ووضع كذلك طرق الانتخاب عن طريق الوحدات الانتخابية المئوية، الذى سمح للطبقتين الثريتين قليلتى العدد بالحصول على غالبية الأصوات. كانت مساحة الولاية الرومانية تبلغ ٥٠٠ ميلا مربعا، ولكنها استطاعت (بنظم الصرف التى أنشأت وبالتحسينات التى أدخلت على الحياة المدنية، والتى كان الفضل الأكبر فيها للإتروسكان) من أن تهيء الحياة الرغدة لمئات الآلاف وأن تتملك جيشا كان تعداده ٢٠ ألف رجل. كان هؤلاء الملوك من أصول إغريقية وإيطالية، تزاوجوا من عشائر النبلاء الرومانيين واستخدموا أسماء الأسَرّ الإتروسكانية، وهكذا تداخلت الجنسيات حتى اختفت. لم ينشأ الخلاف بين الإتروسكان والرومان بسبب اختلافات عرقية ولكن بسبب أن الملوك لم يقدروا النبلاء المحاربين حق قدرهم، إذ كان عامة الشعب أكثر فائدة لهم من النبلاء. كانت النتيجة انتصار النبلاء وطرد الملوك، مما يعنى فقدان الأرض والتجارة والحضارة. وقد أدى هذا أيضا إلى نشأة حكومات القلة من النبلاء، التى تهيمن عليها جماعات صغيرة همها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية، حكومات عسكرية، تدافع عن نفسها بكل قوة ضد من يحاول قلبها وترفض التدخل الأجنبى فى شئونها. استمرت الجمهورية الرومانية الجديدة فى ارتداء كل زخارف الحضارة الإتروسكانية. استخدموا الموظفين التى تنحصر مهمتهم فى إفساح الطريق للحاكم فى الاحتفالات العامة، وشعارات القانون والعقاب، والأثواب الفضفاضة التى اشتهر بها الرومان وشعارات السلطة والانتصارات الحربية. كانوا يؤمنون بالرجم بالغيب. اتخذوا لهم آلهة البحر المتوسط وإله الإريان، جوبيتر (بعد تحوير أسمائهم)، واستخدموا لغة الدين ولغة المسرح وغيرها مما يوحى بتراث الإتروسكان. نزال المصارعين، الذى صار من معالم الحياة الرومانية، هو أيضا من تراث الإتروسكان. فى تاريخ الثقافات الإنسانية نذكر أن الأضحية الإنسانية عرفت أول ما عرفت لدى السومريين، وكانت من طقوس الدفن الملكى. أما لدى الرومان فكانت رياضة يلهون بمشاهدتها (كما هو الحال فى الإعدام العلنى أمام الجماهير، وفى لعبة مصارعة الثيران فى عصرنا الحالى). أسرى الحروب الشجعان والأقوياء الذين لايتمكنون من فرض الرق عليهم، الجامحون المتطرفون الهائجون الذين لايمكن السيطرة عليهم وفى نفس الوقت لايمكن الافراج عنهم وإطلاق سبيلهم لخطورتهم، كانوا يختارون ويدربون ليكونوا مجالدو روما القديمة، الذين يقاتلون حتى الموت أمام النظارة لامتاع الناس. (كان هذا الفعل، الذى استمر لقرون عديدة من أسباب انهيار الإمبراطورية الرومانية).

وجدت آثار فى الدولة الرومانية – بعد أربعة قرون من إنشاء مدينة روما – تؤكد أن الحرفيين من حوض البحر المتوسط، الآتين من الحضارات القديمة كان لهم أكبر الأثر على حرفيى وفنانى الدولة

الرومانية. ففى المدينة اللاتينية المسماة بالسترينا وجدت أعمال ذات طراز إتروسكاني عليها تصاوير إغريقية ونقوش بالهيروغليفية المصرية وعليها أسماء فينيقية لأصحابها. هكذا كان فنانو البحر المتوسط وصنّاعهُ وحرفيوه فى ذلك العصر، يتنقلون بين جميع بلدانه، بفنهم وصناعاتهم وحرفتهم. كذلك بدأت اللغة اللاتينية فى هضم وتمثل الألفاظ التى جاءتها من الثقافة الإغريقية. عبر الفنانون والحرفيون الحدود بين الولايات المتحاربة ولم يعبأوا بالحرب، وأكدوا بانتقالهم هذا وحدة ايطاليا وارتباط روما الوثيق بالشرق منذ نشأتها. حدث الاندماج بين الأفكار الإتروسكانية وبين الأفكار الرومانية بارتباط رجال الدين من كلتا الحضارتين بالتزاوج مع نبلاء أقوامهم. فقد اتضح لأسلاف الإتروسكان – منذ البداية – أهمية الارتباط برجال الدين – ذوى السلطة الطاغية على الجماهير. فى أوروك فى جيلجاش كان المعبد والقصر متجاورين، وفى مصر كان الفرعون هوالإله، ولكن كان العسكريون ورجال الدين طبقات منفصلة عن بعضها، كذلك كان الحال فى إسرائيل. ولكن لدى الإريان ظهرت الفكرة بأن يكون النبلاء هم مصدر السلطة الدينية والسلطة العسكرية معا، وغلبت هذه الفكرة وتحققت على يد الرومان أكثر من كونها فكرة مستحبة فى الحضارة الإغريقية. فى العصر الرومانى كان النبلاء هم من يعينون رجال الدين وكانوا يختارونهم من أسرتهم ومن طبقتهم، وهكذا ثبتت السلطة الدينية فى جميع أنحاء الأمة بينهم. وصارت السلطة الحاكمة والسلطة الدينية واحدة. أضفى هذا وحدة فى الهدف وتحجرا فى القلب وقسوة لامثيل لها للسلطة الحاكمة. وقد سبب هذا الإجراء تطور الطبقة الحاكمة ومبادئها الأخلاقية وقواعدها القانونية. سيطر على الرومان مبادىء السلطة العليا فى الحرب، والفضيلة العظمى فى الشجاعة لدى الجنود، والطاعة الكاملة لدى الزوجات والأبناء والعبيد. كان هذا لازما لأمة تبغى الحياة مع ظروفها الصعبة، وشعب ينشىء إمبراطورية شاسعة عن طريق الفتوحات. كانت تلك الوحدة، بين الحاكم ورجل الدين، مصدر قوة واستمرارية فى عصور صعود نجم الإمبراطورية الرومانية، ولكنها عرضت الدولة لأخطار لايمكن الخلاص منها إلا بثورة دينية، حدثت واقتلعت الإمبراطورية من جذورها. كان غياب أى توازن للقوى وانعدام وجود سلطة قضائية عليا يتوجه إليها الناس عند ضياع حقوقهم أو حدوث أى خلاف بين الطبقات أو بين العائلات حقيقة ولكن كان اختلاط الدم الإتروسكانى والدم الإغريقى، ودماء باقى الأجانب مع دم النبلاء والجماهير الرومانية هو مصدر القوة للمجتمع الرومانى، والذى أعطاه المقدرة فى القرن الخامس ق.م. ليصير مجتمعا عدوانيا، طموحا، وتوصل فى النهاية إلى أن يسيطر على العالم.

تذكر لنا الأسطورة أن روميولوس، فى البداية، اختار مائة من رؤس الأسر الريفية وكون منهم مجلس شورى للحاكم من الشيوخ. (وهذا مشابه لما فعلته مجتمعات إيريانية سابقة من تكوين

مجالس تُعين الحاكم وتنصح له. فقد حدث في إسبرطة وحدث في أثينا وحدث مع ملوك الإتروسكان). عندما طُرد الملوك - بعد تزاعهم مع النبلاء - ظلت للملوك السلطة في مدينة روما وظل النبلاء محتفظين بها في الأرياف المحيطة بمدينة روما، مصدر الثراء للمجتمع. وهكذا تقلصت تدريجيا سلطة الملك وازدادت سلطة النبلاء. ولكن قابل النبلاء مشكلة صعوبة واستحالة ضبط مختلف الطبقات والطوائف، الذين يتكونون من إغريق وإتروسكان، ومخلطين، ومن تجار وحرفيين، الذين كانوا يحتاجون للحكام لحمايتهم والدفاع عنهم. توصل النبلاء إلى صيغة استبعاد تلك الطبقات والطوائف من مجلس «السينيت» ومن الطوائف الحكومية، وقصر مجلس الشورى على مائة زعيم من زعماء الريف وشيوخه. استمر الحكام الرومانيون في فصل تلك الطبقات (ولم يحاولوا دمجها) بتخصيص أماكن مختلفة لسكنى الجماهير عن الحكام. لم يحدث تزاوج مشترك بين هاتين الطائفتين، وكانت كل طائفة تقيم احتفالاتها الدينية بمعزل عن الطائفة الأخرى. لم يصرح بتاتا بالزواج المختلط. أمكن تثبيت الحكم بالسلطة المطلقة التي منحت للرجال. فقد كان بيد الرجل حق منح الحياة أو ازهاقها لأفراد عائلته، وكان لرب الأسرة حق الحكم المطلق على أسرته، حتى أن الابن لم يستطع أن يشغل منصبا عاما في حياة أبيه. المشكلة الثانية التي واجهوها هي كيف لايسمحون لفرد واحد أن يحصل على السلطة المطلقة بعيدا عنهم، حتى لايعيد للملكية سابق عهدها ولايسمح للطغيان أن يرتد (كما كان الشأن في المدن الإغريقية). حلت هذه المشكلة مؤقتا بجعل كل الوظائف العامة مزدوجة، كل قائم على منصب ما ينبغي أن يكون له رفيق. كانت المناصب العامة في مبدأ الأمر مرتبطة بالعائلات التي نتج عن التقائها الدولة الرومانية. كان الالتقاء في مبدأ الأمر التقاء عسكريا، لأن العائلة كانت تشكيلا عسكريا ذو مهام عسكرية. أول هذه المناصب كان منصب القاضي، وبعد طرد الملك كان هناك قاضيان، سمي كل منهما «قنصلا» كانت مدة شغلهما لهذا المنصب عاما واحدا، يبدأ في الخامس عشر من شهر مارس. كان يتم الانتخاب للمناصب بالتصويت المفتوح لعامة الناس، من الأحرار، الذين كانوا يجتمعون في لجان المائة العسكرية. كان المرشحون يختارون من بين النبلاء (أي رؤس العائلات). ثم يختار هؤلاء القناصل أعضاء «السينيت» أو مجلس الشورى، ويكونون جميعا من رؤساء العائلات. كان يشرف على الانتخابات ضباط منتخبين خصيصا لأداء تلك المهمة. كان عملهم يقتضي إجراء التعداد للسكان ولممتلكاتهم، على نفس النمط الذي وضعه الملك سيرفيوس توليوس، بعد إدخال التحسينات عليه في عصر الجمهورية. قسم السكان إلى طبقات، حسب تملكهم للأراضي والعقارات وحسب مهاراتهم. كان هناك الخيالة، والحرفيون، والمشاة من الجنود بأسلحتهم الثقيلة أو الخفيفة. كانت هذه الطبقات تعطي أصواتها الانتخابية في مجتمعات المائة، والتي كانت تميل بثقلها نحو النبلاء ونحو الطبقات العليا بوجه عام. وهكذا كان تقسيم الناس

تبعا لقدراتهم العسكرية وللضرائب التى يدفعونها، عاملا فى ضبط أصواتهم فى انتخاب القضاة والقناصل والحكام والمشرعين ورجال الدين. أتاح هذه النظام للناس أن يعارضوا (بالقول) ولكن لم يتح لهم الفرصة لتغيير نظام الحكم (بالفعل). كان النبلاء يسيطرون على مقاليد الأمور، وكانت الثورة (الكلامية) نوعا من الدواء لبعض العلل. كانت الجماهير تقوم بالمظاهرات وتسير فى الطرقات بدون عنف أو قتال. حدثت هذه المظاهرات خمس مرات فى الأعوام ٤٩٤ ، ٤٤٩ ، ٤٤٥ ، ٣٤٢ ، ٢٨٧ ق.م.، وكان «السينيت يستجيب لمطالبهم فى كل مرة ويخضع النبلاء لرغبات الجماهير.

سمح لجماهير الشعب أن تتقدم بالترشيح لمنصب «القنصل» عام ٣٦٧ ق.م. ولمنصب القاضى عام ٣٢٧ ق.م.، ولكن لم يحدث أن انتخب فرد من العامة لأى من هذين المنصبين قبل عام ١٧٢ ق.م. عندما انتخب قنصلان من الجماهير. أنشأ منصب المسئول عن إحصاء السكان فى عام ٤٤٣ ق.م. وفى عام ٣١٢ ق.م. عهد لمسئول الإحصاء هذا مسئولية رعاية الوثائق الرسمية «للسينيت» وحفظها ومسئولية استدعاء أعضاء مجلس الشيوخ: فتح الباب أمام عامة الشعب لتولى هذا المنصب عام ٣٥١ ق.م. فى عام ٣٣٩ ق.م. كان أحد المسئولين من العامة وفى عام ١٣١ ق.م. كان كلا المسئولين من عامة الشعب. كان مسئولو الإدارة المالية يرشحون من قبل القناصل حتى عام ٤٤٩ ق.م.، ولكن بعد ذلك التاريخ كان يتم انتخابهم من بين رجال القبائل. فتح هذا المنصب للعوام من عام ٤٢١ ق.م. وارتفع عددهم من اثنين إلى أربعة أما المناصب التى كانت متاحة لعامة الشعب من البداية فكانت منصب «التريبون» (المدافع عن حقوق العامة ومصالحها) الذى أنشأ عام ٤٩٠ ق.م. وفى عام ٤٤٩ ق.م. إزداد عددهم إلى عشرة كانوا ينتخبون من عامة الشعب ويدافعون عن حقوق العامة لدى النبلاء، وكان لهم الحق فى نقض أحكام القضاة إذا أجمعوا على رأى واحد. كان لهم دور معترف به، إيجابى وبنّاء، فى حكومة المدينة والجمهورية ولكنهم تحولوا تدريجيا إلى المتكلمين باسم «السينيت» إلى الشعب، وليسوا المتحدثين باسم الشعب إلى «السينيتت». أخر أعضاء مجلس الشورى من العوام كان عضوان يمثلان ديانة الشعب، الذى كان يدين بالقدسية للإلاهة «زِسريس»، إلهة الخصب والحياة فى الأراض. ورثت الجماهير هذه الديانة من الفلاحين، الذين نقلوها بدورهم عن الإغريق، وبدأت فى عام ٤٩٣ ق.م. بمجرد طرد الإتروسكان. تولى المحتسب هذه الوظيفة (الموظف الرومانى الذى كان مكلفا بالإشراف على الأشغال العامة والألعاب والشرطة والتموين). فى عام ٣٦٧ ق.م. صار محتسبان ينتخبان سنويا «للسينيت».

وهكذا من القرن الثالث ق.م.، أصبح مجلس الشورى الذى بدأ بالقضاة السابقين ويمثل النبلاء، يتكون نصف أعضائه من عامة الشعب، الذين تحول اهتمامهم تدريجيا من أمور التجارة إلى الأعمال

الحكومية والمدنية والعسكرية. تبنى رجال الدين بدهاء، ما سبق أن تبناه القضاة والنبلاء، من الوصول إلى حلول وسط مع العامة. طوال الخمسة قرون التى عاشتها الجمهورية كان رجال الدين يتم انتخابهم بالتصويت الشعبى. كانوا يختارون أولا من أسر النبلاء. لم يتبعوا نظام التعيين فى الوظائف المدنية التى كانت مزدوجة، وظائف المستشارين والقضاة، والقناصل، والمسئولون الماليون، بل كانت وظائف رجال الدين مفردة. كان الموظفون المدنيون يعينون لعام واحد، بينما يتم تعيين رجال الدين لمدى الحياة وكانوا يحملون ألقابا ملكية، وكان رؤساؤهم يتوارثون مناصبهم. كان الكاهن الأعظم يلقب باسم «الملك المقدس»، وكان كبيرهم يدعى باسم «البرنس السناتور» كانت أسرة السابين هى التى تتولى المناصب الكهنية، وكانت تلك المناصب تنتقل من الأب إلى الابن فى مبدأ الأمر.

فى البداية كان العوام يحمدون الله أن مكنهم من المعيشة – فى ألم وشقاء بلا اعتراض منهم ولكن فى سلام. كانت الأرض ملك النبلاء والقانون قانونهم واللغة لغتهم، كذلك كانت الآلهة آلهتهم، وهم وحدهم القادرون على التكهن بما قررته الآلهة للمدينة وللمجتمع. كان العوام من أجناس شتى، أناس بلا أسلاف ولا قوانين ولا آلهة جديرة بالاحترام.كان هذا القول صحيحا فى أصل العوام وزادت صحته بعد خمسة أو عشر أجيال من تواجد المجتمع الرومانى. فى هذه الأجيال كان مسموحا بتزاوج النبلاء، بعضهم من بعض ولكن لم يكن من المسموح به أن يختلط بهم آخرون. لم يصبح النبلاء جنسا نقيا ولكنهم صاروا مجتمعا متناسقا. شغلوا أنفسهم بالحرب مع جيرانهم بلا انقطاع. كانت البسالة الحربية هى الفضيلة الوحيدة التى يعتد بها فى هذا المجتمع. كان يتم تعريض الأطفال منذ صغرهم للحروب ويستمر هذا طوال مدة حياتهم. كان ارستقراطيو الرومان – شأنهم فى هذا شأن أرستقراط إسبرطة من قبل – يتم انتقاؤهم بصرامة دقيقة – ليُعَدوا ليكونوا حكاما عسكريين (وكان هذا الإعداد أبعد ما يطلب لمن سبقوم بالخدمة فى الحقل أو المدينة، وهى الأعمال التى تقوم المجتمعات على أكتافها). ككل الطبقات الحاكمة كان نبلاء روما يحتقرون عامة الناس (كما كان يحدث بين الارستقراط فى أثينا وفى المجتمع الهندوسى) ولكن كان العوام في نفس الوقت يتطورون. كانوا كثيرى الزواج من الأغراب وهكذا تحسن نسلهم تباعا بعكس الطبقة الارستقراطية التى اقتصرت على الأستيلاد الداخلى (وما يحمله من عيوب وراثية). منذ القدم كانوا يتزاوجون مع القادمين من الخارج عن طريق البحر من بلاد بعيدة. كان البناؤن والمهندسون يقصدون إترويا، وكان العرافون من الإتروسكان (وبعد الحرب معها) من دلفى (كانت روما تتطلع دائما نحو الكاهن الأعظم لدلفى). رغم أن النبلاء لم يكن يسمح لهم بالزوج من العوام، إلا أنهم كانوا كثيرا ما يغتصبون بناتهم (وكان النسل منهن يضاف إلى مجموع العوام). وهكذا إزداد ثراء العوام الجينى بهذا الإنسال

المختلط. بعد حين ابتدأ العوام فى المطالبة بحقوقهم من حماتهم، وبدأ إنشاء وظائف المدافعين عن حقوق العامة، ثم بدأوا يطالبون بالاعتراف بالزواج المختلط. قاومهم النبلاء كثيرا فى هذا المطلب، واستعانوا برجال الدين، ولكنهم سلموا لهم بهذا الأمر فى النهاية. كان المطلب الثالث للعوام هو أن يصير منهم قناصل، وتم زيادة عدد القناصل وخصص بعضها لطبقة العوام. أخيرا طلب العوام أن يكون لهم نصيب من الأرض التى حاربوا بشأنها، وأخيرا تم التسليم بجهد بهذا المطلب الأخير. إزدادت روما حجما وإزدادت الحياة فيها تعقيدا وتنوعت أعمال الجماهير وإزدادوا ثراء، وصارت الجماهير وأصبح سادتها يشعرون بالتغيير الذى حدث فى المجتمع. الشيء الوحيد الذى ظل النبلاء يتمتعون به هو تميزهم بألقابهم وجاههم وطبقتهم الاجتماعية ومقامهم الرفيع فى الذكور من نسلهم. صار النبلاء الفقراء مستعدين لتزويج بناتهم من عامة الشعب الأغنياء، ليتمتع الأولون بالثراء ويكتسب الآخرون المركز الرفيع. ارتفع العوام تدريجيا إلى المراكز العليا فى المجتمع الرومانى. قاوم أصحاب الأملاك طويلا هذا الاتجاه: أصحاب الأملاك المادية وأصحاب الألقاب وذوى الجنس الرفيع – الغزو الطبقى لهم، ولكن بالتدريج، نظرا للقوة المتزايدة للعوام تم لهم تحقيق هذا التسرب للطبقات العليا. بعد حوالى عشرين جيلا تم التسرب الاجتماعى وتكيف المجتمع الرومانى مع الأوضاع الجديدة وظهر شعور بالوحدة القومية، وامتد من روما إلى حلفائها. لم تسلم روما من الصراعات المدمرة ومن الحروب الأهلية وصراع الطبقات، ولكنها – بظهور الوحدة القومية اكتسبت مناعة ضد الغزو الأجنبى لها، ومازال العالم يذكر هذه الوحدة القومية ويعبر عنها باسم الرومانية.

فى نفس الوقت الذى كان يتم فيه التغيير فى المجتمع الرومانى، كانت هناك تغيرات جذرية فى المجتمعات المجاورة وعلاقات روما بجيرانها الذين أخضعتهم روما بالتحالف معهم أو بغزوهم. أولى هذه العلاقات تشمل العلاقات الحرفية والتجارية مع دول حوض البحر المتوسط. قصد التجار والحرفيون من تلك الدول روما، التى ازداد تعدادها بورود تلك الأجناس إليها (وتركوا آثارا تدل عليهم)، وثانى هذه العلاقات تتصل بالقوانين والآداب فى المنطقة ومدى تأثرها بروما. أثرت روما بقوانينها فى جيرانها، تأثرت بجيرانها من الناحية القانونية. صار اتصال الدول المجاورة لروما فى أول الأمر خضوعا لها ثم تطور إلى حماية من روما ودفاعا عن تلك الدول. المدن التى حاربت روما في البداية طلبا للاستقلال عنها، صارت تحارب للانضمام إليها فى النهاية. بانتهاء حرب اللاتين فى عام ٣٣٠ ق.م.، حدث اتحاد بين روما وحلفائها: اللاتين، الإتروسكان، كامبانيان، ساميت. سمح لكل من تلك الأقوام بالتزاوج مع الرومان، ولكن لم يسمح لهم بالتزواج من بعضهم البعض وهكذا وضعت روما نفسها فى المركز أو المحور الذى يلتف الجميع حوله، ويدورون فى فلكه بدأ هذا المبدأ منذ عهد المملكة القديمة فى مصر، مبدأ الزواج من الأسر المالكة الأجنبية، ولكنه الآن بدأ يطبق على

جميع فئات المجتمع وليس على الأسرة المالكة فحسب. حققت تلك الزيجات الملكية أهدافا سياسية للطرفين، وتحسنا جينيا (وراثيا) للعائلتين. كل الأسماء اللامعة فى تاريخ الجمهورية الرومانية أتت من هذه الزيجات، وكل العبقريات التى ظهرت فى التاريخ الروماني حدثت من هذا التهجين. فى هذا الشأن تختلف الحضارة الرومانية عن الحضارة اليونانية. شجع الرومان على توسيع دائرة الزواج، وحصلوا بذلك على أفضل النسل، بينما حد الإغريق دائرة زواجهم فضعف نسلهم. (ربما كانت سهولة المواصلات فى إيطاليا عاملا مساعدا بينما كانت جغرافية اليونان وصعوبة الاتصال عائقا). بدأ المجتمع فى الاتساع، بعد أن كان قاصرا على المجتمع الرومانى، اتسع فشمل إيطاليا كلها، ثم زاد اتساعا فصار العالم بأسره. كان الدفع المستمر من الرومان لهذا الاتجاه، وكان التزايد السريع لإعداد الرومان، وتصاعد القوة العسكرية الرومانية والنفوذ السياسى وزيادة الاتصالات التجارية من أسباب تيسير السير فى هذا الطريق. مع اتساع الرقعة الجغرافية للإمبراطورية الرومانية، وتعدد الأجناس المختلفة التى تشملها تلك الإمبراطورية صار من السهل الاختلاط والتهجين. كان الجنود السابقون فى الجيش الرومانى يشجعون على الاستقرار فى البلدان الجديدة التى فتحوها، وبقائهم فى مستعمرات زراعية بإعطائهم مميزات تشجعهم على الاستيطان. زادت طرق المواصلات فى الإمبراطورية الرومانية وشقت الطرق لتربط روما بالمدن الأخرى التى تدور فى فلكها ولتيسير انتقال الجيوش خلالها. ولكن هذه الطرق استخدمت بعد قليل فى نقل البضائع وانتقال الحرفيين وتحقق الشعور بأن الجميع ينتمون لدولة واحدة. امتد التزاوج المتبادل واتسع نطاقه بين الجميع: داخل الطبقات وداخل المهن، وامتد التقسيم الطبقى للرومان إلى سائر الأماكن فى الدولة الرومانية. هكذا صار وضع روما داخل إيطاليا فى القرن الثالث ق.م.: كل الطرق تؤدى إلى روما، كل التجارة تصل إلى روما، كل فرص الزواج تحدث فى روما، وضع لم تصل إليه أى مدينة أخرى فى العالم فى ذلك الوقت، مركز لم تصل إليه قرطاجنة ولا كابوا. هكذا تطور حال رجال القبائل المحاربين الأشداء، خلال القرن الرابع ق.م. أخضعوا سائر المدن الإيطالية، ووحدوا بين أجزاء إيطاليا، وبين أقوام إيطاليا حتى صاروا قوة يحسب حسابها فى السلم والحرب، بالإضافة إلى ثروتهم البشرية والزراعية والخشبية والمعدنية. بالرغم من هذا فإن سيطرة روما على إيطاليا لم تكن بلا صعوبات، فقد كانت هناك ردة كل حين وآخر (ولكن الردة أمر معهود فى الإمبراطوريات، فقد حدثت ردة على الإسكندر الأكبر، وحدثت ردة على دارا العظيم). ولكن فى الدولة الرومانية، استمر الاتساع واستمرت قوة الدولة تتصاعد جيلا بعد جيل. كانت هناك استمرارية وكانت هناك وحدة دمجت كل طبقات المجتمع، وبلغت القمة فى العاصمة وفى الطبقة الحاكمة التى كانت تنتقى من أفضل العناصر ومن أشد الأسر فى جميع أنحاء إيطاليا ومن أبسلها.

بصعود روما إلى قمة المدن الإيطالية وسيطرتها على كافة أجزاء إيطاليا، دخلت فى صراع مرير مع قوة صاعدة أخرى فى الجهة المقابلة مع البحر الأبيض المتوسط، مع قرطاجنة. بدأت قرطاجنة كمستوطنة فينيقية أنشأها ديدو عام ٨١٤ ق.م. كمستعمرة كنعانية باسم كارت هداشت. تأثرت بالإغريق قليلا فى العصر الهيلينستى ولم تتأثر باليهود مطلقا، ومعظم ما عرف عن حضارة قرطاجنة – جاء من مصادر لاتينية. عندما سقطت صور تحت حكم البابليين عام ٥٧٣ ق.م. صارت قرطاجنة هى كبرى المدن الفينيقية الباقية، وكان عليها حماية باقى المستعمرات الفينيقية. إزداد ثراء المدينة فى هذا الزمن، حتى صارت أول مدينة فى العالم تخلق إمبراطورية وتقودها، امبراطورية تتكون من الملاحين من أجناس شتى. إزداد عدد سكان المدينة ووصل إلى نصف مليون نسمة فى القرن الثالث ق.م. يتكون أهالي قرطاجنة من ثلاثة أجناس أساسية يقومون بثلاثة أصناف من العمل وينقسمون إلى ثلاث طبقات. أولا طبقة الأرستوقراط، التجار، الأثرياء وذريتهم فى سائر المستعمرات (أناس من أصل فينيقى ثم تزوجوا مع الإغريق أو المصريين ثم بعد حين مع رؤساء الليبين والبربر والأيبريين). وثانيا الأغنياء، من المزارعين في الولايات المختلفة فى تونس. جاء هؤلاء من بلاد فى شرقى البحر المتوسط وتزاوجوا مع الأهالى المحليين من الرعاة، هؤلاء الناس كانوا ينتشرون ببطء تجاه الغرب على الساحل الجزائرى والمغربى وينشرون الزراعة ويبنون المدن. كانوا يتحدثون بلسان فينيقى حديث (واستمرت هذه اللغة فى الوجود حتى القرن الثالث الميلادى) وسميت باللغة الليبية – الفينيقية، ولم ينظر إليهم أرستقراط قرطاجنة نظرة احترام. ثالثا كان هناك الرعاة من البربر الذين يتكلمون بلغتهم البربرية، كان أولئك قبائل من المحاربين، المهرة فى ركوب الخيل وحلفاء شديدى المراس ولكن غير مضمونين. كانت أسرهم الحاكمة تتزوج من بعضها البعض ومن أهالى قرطاجنة. كانت هناك صلات وثيقة بين كل هؤلاء الأقوام وبين رجال الحكم الفينيقيين. كان القرطاجيون (مثل نبلاء روما) قد أزاحوا ملوكهم. فى قرطاجنة كان الثراء يعود من الأعمال التجارية، وكان هناك الكثير منها. كان أهل قرطاجنة يستخدمون أموالهم لإستئجار الجنود المرتزقة، ونظرا لقدراتهم البحرية ومهاراتهم الملاحية كانت لهم الفرصة الكبيرة للتزواج مع الأغراب، وكانت الفرص مهيأة بشدة لهم لأنهم كانوا لايقتصرون على الزواج مع الأسر المالكة (كما كان يفعل نبلاء روما). عرف أن زوجة هانيبال كانت ذات أصول إغريقية إسبانية، ولم يكن وحده فريدا فى هذا الشأن، بل كان يتبع ما يفعله جميع أهل قرطاجنة. كان لأهل قرطاجنة ميزة على الرومانيين من حيث معرفتهم بالعالم، ولكنهم لم يأبهوا بتعاظم قوة الإغريق فى العصر الهيلينيستى (كمالم يأبه الرومان بتعاظم قوة الإتروسكان)، ورفضوا الثقافة الإغريقية، كما رفضوا لغة وديانات الإغريق واليهود (وهذا مثال يظهر كيف أن رفض الدين يكون عائقا لإختلاط الأجناس). تروى الأساطير اليهودية والإغريقية كيف أن إبراهيم كاد أن

يضحى بولده وجفتاح بابنته، كما تحكى أسطورة افيجينيا أن التضحية بالأبناء طاعة لأوامر الرب كان شيئا مقبولا لدى اليهود والإغريق (لولا أن الأضحية الإنسانية قد استبدلت بأضحية حيوانية مع ظهور حضارة المدن). كان الإغريق والرومان من بعدهم يتركون أطفالهم عرايا فى الخلاء كنوع من ضبط التكاثر وليس إطاعة لطقوس دينية، وعند الفينيقيين صار قتل الأطفال حرقا طقسا دينيا فى ساعات الأزمات، وكان يمارسه الأغنياء بدون حماس، بينما أخذ شكل الجنون لدى العوام. كان رجال الدين يشجعون هذا الفعل اللاإنسانى وهذه الخرافة البدائية لدعم سلطاتهم وفى وجه عقلانية الأرستقراط ومصالحهم. كان تأثير هذا العمل مدمرا على الناحية الوراثية وكان أسوأ فعل مارسه أى مجتمع. كان الإغريق لا يمانعون فى ذبح سجنائهم عند الضرورة، ولم تأخذهم بهم رحمة أو شفقة. بعد هزيمة الكنعانيين، كان الرومان يدفنون البشر أزواجا (رجل وامرأة) أحياء فى التراب (كما كانت تتطلب منهم كتبهم المقدسة). ولكن لدى الرومان ولدى الإغريق لم يتطلب الكهنة أبدا قتل الأطفال (خاصة أطفال عليه القوم). أثار عمل رجال الدين فى قرطاجنة كبار رجال القوم واكتسبوا عداوتهم. استطاع أهل قرطاجنة التزود من بلادهم الأصلية فى أسيا، بالتجارة عن طريق البحر وعن طريق الطرق الصحراوية. صار الجمل، حديث التواجد فى تلك البلاد، وهو سفينة الصحراء (وقد استفاد منه أسلاف الطوارق). حمل الذهب والعاج والعبيد من الزنوج (كما هو الحال حتى عصرنا الحاضر). كان التزود عن تلك السبل، البحرية والبرية هو الذى أهّل القرطاجيون على تكوين جيش من المحاربين المرتزقة من أفريقيا ومن إسبانيا، ثم فيما بعد من بلاد الغال (فرنسا) ومن إيطاليا ذاتها. هيأت هذه الجيوش الحماية لقرطاجنة – عندما كانت تتقاضى أجورها، ولكنها صارت خطيرة عليها عندما تنفد الموارد. المصدر الثانى للخطورة جاء من نقص التسليح لأهل قرطاجنة. كان أسطولهم يتكون من سفن تم بناؤها من أخشاب وافرة فى جبال لبنان. شمال إفريقيا كانت فقيرة فى الأشجار، التى يقل عددها تدريجيا وكان نوع خشبها رديئا. عندما قطع الإسكندر خطوط الاتصال بفينيقيا بعد فتوحاته، عوض احتلال جزيرة صقلية هذا النقص فى الخشب، وبعد فقد صقلية فى حربهم الأولى، اتجهوا إلى جنوبى إسبانيا فى الحصول على الأخشاب. ولكن إسبانيا الغنية بالمعادن، لم تعوض فقد الأخشاب اللازمة لبناء السفن. فى نفس الوقت اتجه بناة السفن والبحارة من صقلية وإيطاليا واليونان والإتروسكان لتجهيز أسطول هائل للدولة الرومانية. وفى الحرب الثانية أعارت اليونان موانيها (مثل ميناء ماسيليا) أساطيلها إلى روما. كان جز الأشجار الشديد (فى أيام الحرب) له نفس آثار الرعى الزائد للماشية (وللجمال فى أيام السلم) فى التعجيل بحدوث الكارثة. أعقب تعرية التربة وعدم استعادة الغابات والمراعى، أن امتلأت الأرض بالبرك والمستنقعات، سيئة التصريف فى القرن الثالث ق.م. نمت أعداد هائلة من البعوض على تلك المياه، وانتشرت الملاريا بين الجنود (الذين

نقلوها بدورهم إلى أوروبا عند غزوها). هكذا شاء القدر، بعد خراب وإقفار جزيرة كريت واليونان تبعتهما شمال إفريقيا ثم جزيرة صقلية، بتعرية الأرض ثم بالأوبئة التى أهلكت البشر، وسارعت الحروب بحدوث هذا الدمار، (واستمر فيما بعد لتصاب به إيطاليا).

فى هذه الظروف صار حال حكام قرطاجنة مقلقلا وغير مستقر. كانت لهم طموحات حربية واهتمامات بحرية، وكانت هناك اختلافات بين العائلات القديمة فى مجلس الشورى والقرطاجنيون الجدد (كما هو الحال فى الدولة الرومانية)، ولكن كانت هناك خطورة أخرى من الجيش ينبغى أن يحسب حسابها. الجيش فى قرطاجنة كان من المرتزقة والمحترفين وكان يشكل عنصرا ثالثا هاما من عناصر الدولة. كان الجيش يختار قائده، الذى كان فى نفس الوقت قنصلا مدنيا ودبلوماسيا متعدد التوجهات. تمرد الجيش القرطاجنى الذى حدث فى عام ٢٣٧ ق.م. نتج عنه تسليم جزيرة ساردينيا لروما، ولكن نفس هذا الجيش هو الذى اختار هاميلكار، القائد المحنك، ومن بعده ولده هانيبال، العبقرية العسكرية، ليقوده إلى النصر فى حربه الثانية مع روما.

فى عام ٢٢١ ق.م. قُتل هاسدوبال، حاكم إسبانيا القرطجانية فانتخب الجيش هانيبال، شقيق زوجته وابن القائد هاميلكار ليحل محله، واعتمد المجلس هذا الاختيار. كان هذا يعنى انتصار الحزب العسكرى ويعنى قرار إعلان الحرب على روما. كان هانيبال يبلغ من العمر حينئذ ٢٦ عاما (فقد ولد فى جزيرة مايوركا عام ٢٤٧ ق.م.، (ومن العجب أن نفس تلك الجزيرة كانت أصل عائلة بونابرت الكورسيكية). كان هانيبال قد قرر - برغبة أبيه ونصحه - شن الحرب على روما. فى حربهما الأولى فقدت قرطاجنة جزر صقلية وسردينيا وكورسيكا، وكان هدف هانيبال إستردادهما وتحطيم القوة المنافسة لبلده. كانت روما تمثل لهانيبال مدينة فقيرة، فى نصف حجم مدينة قرطاجنة، يقيد حركتها نظام انتخابى للقناصل وكبار الموظفين، وتغيير سنوى لقادة الجيش، وجيشها جيش غير محترف ويعتبر مجرد ميليشيا حربية يتم تجديد أفراده كل عام، وجنود الجيش من الطبقة الدنيا للمجتمع المتخلفة ثقافيا. لم يتفهم هانيبال أن جنود الجيش الرومانى، ولو أنهم أقل كفاءة من الناحية العسكرية وأسوأ تدريبا، إلا أنهم أكثر تجانسا من جيشه وأشد حماسا من رجاله. كان هانيبال على معرفة بالإغريقة، كان يفهم لغتهم ويعرف تاريخهم وعلى دراية بطرقهم الحربية. كان يعرف كيف استطاع الإسكندر أن يذل مدنهم وأن يخضع ولاياتهم لسيطرته. كان معجبا بالإسكندر الاكبر ولكنه لم يدرى أن الرومان أيضا معجبون به وبقواته المقدونية. تماما كما تمكن الإسكندر من استخدام خطط أبيه فيليب لدحر أعداء قومه، واستخدم قواته البرية للسير على شواطىء البحر المتوسط - لضعف قواته البحرية، سار هانيبال على سواحل البحار للالتفاف على عدوه. كانت انتصارات روما

فى حربها الأولى مع قرطاجنة قد حولتها إلى قوة بحرية عظمى وحرم قرطاجنة من السيطرة على البحار، لذا سار هانيبال بقواته البرية عبر إسبانيا وبلاد الغال (فرنسا) عام ٢١٨ ق.م. صارت قواته من الجنسيات المتعددة الإفريقية، والإسبانية وغيرها، المدربون تدريبا حسنا والذين يقودهم قائد محنك متحمس – هانيبال، جيشا قويا يعتد به. زادت قوة هذا الجيش بتسليحه بالأفيال الإفريقية. اخترق هانيبال جبال الألب بجيشه وأخذ الرومان على حين غرة من حيث لا يحتسبون. فى سلسلة متتالية من المعارك، التى استغرقت ١٢ سنة فى كل أنحاء ايطاليا، تم لهانيبال تحطيم الجيوش الإيطالية، الواحد تلو الآخر. كلما تحطم جيش سرعان ما يظهر غيره فيتعقبه هانيبال من مدينة إلى المدينة التى تليها. لم يستطع هانيبال دخول روما، والجيشان اللذان طلبهما هانيبال لمعاونته، وكان يقودهما شقيقاه هزما فى الطريق إليه. بعد استرداد صقلية تم للرومان استعادتها، كما استعاد الرومان إسبانيا. فى النهاية قرر مجلس الأعيان فى قرطاجنة استدعاء هانيبال من ميدان القتال وسلم بالهزيمة. حل السلم أخيرا بعد أن فقدت قرطاجنة مستعمراتها، وأسطولها وأفيالها وحقها فى شن الحرب، حتى للدفاع عن النفس.

صاحب أزمة الحرب فى روما أزمة فى الإيمان. كان هناك صراع – تحت السطح – بين المؤمنين وغير المؤمنين، بين الخرافات والشك، وكان هذا الصراع ذو علاقة بطبقات الناس الاجتماعية وعرقهم الجنسى. فى الأيام العصيبة من عام ٢١٢ ق.م. بعد فقد إسبانيا وضياع صقلية، وكشف باقى أنحاء إيطاليا للغزاة، لاحظ أهالى روما أن الأجانب يقومون بطقوس غير معتادة ولا يحاولون إخفاء ما يقومون به. بدأ المهاجرون الأجانب يظهرون عقائدهم فى العلن ويمارسون طقوسهم أمام الجميع، وخضع الحكام لتلك الظروف الجديدة واعتُرف بالحقوق الدينية للإغريق من السماح لهم بتقديم القرابين وجمع النقود. بعد ثمان سنوات حدثت أزمة أخرى، فقد جاء ماجو – شقيق هانيبال إلى أتروريا في وقت كانت فيه روما تعانى من أزمة اقتصادية عنيفة. سببت الحرب الطويلة كسادا اقتصاديا، كما بدأ المحتسبون فى إنفاق – المال القليل – ببذخ على إقامة مقام – الأم الكبرى – إلاهة الخصب لدى الشرقيين. كانت هذه تنازلات من الطبقة الحاكمة الرومانية لكسب إخلاص الأجانب الذين وفدوا إلى روما من الشرق. استمر هذا الاتجاه لخمسة قرون بعد ذلك التاريخ، كما استمر الصراع بين الدين والخرافات، وبين التقاليد المحلية والتجديدات الأجنبية لتحدث شرخا فى المجتمع بعد الحرب الثانية. كان هناك ثائر واحد، قام بثورة جذرية ضد النظام الحاكم، القنصل جايش فلامينياس الذى تم انتخابه عام ٢١٧ ق.م. والذى طالب بالحد من النشاط التجارى والاقتصادى لأعضاء مجلس «السينيت». كان هذا الرجل شديد الثورة على الخرافات التى يمارسها أفراد الطبقة العليا، ولم ينتظر حتى تظهر نتائج التحقيقات للشكاوي التى تقدم بها ضدهم وثار على

كافة الطقوس التى يزاولها هؤلاء السادة. أيده جنود الجيش، بينما ساند الضباط السادة. فى إثر هذا التمرد تم تعيين دكتاتور – كوينتاس فابياس ماكسيماس كونكتاتور – وتجنب معركة بين طوائف الأمة وطبقاتها المختلفة.

كان لتلك الحرب تأثيرا شديدا على الأجيال التالية، لتعادل القوة العسكرية لكلا الجانبين. تعادل المهارة والعبقرية والثراء، الكلى والفردى بين أكبر قوتين فى العالم الغربى فى ذلك الوقت. أوحى غزو هانيبال لإيطاليا فى البداية أنه صراع عسكرى بين قوتين عظيمتين ولكنه، بالتدريج أخذ شكلا آخر، أكثر اتساعا وأعمق أثراً. القوتان المتصارعتان كانتا كل المجتمعات المتحضرة والهمجية فى غربى البحر الأبيض المتوسط، وكانت إسبانيا وإيطاليا هما المسرح الرئيسى الذى جرت عليه المعارك، ولكن ملك مقدونيا وجدها فرصة سانحة ليجر رجل هانيبال فى صراعه من المدن الإغريقية. كانت سيطرة الرومان على البحار وإمساكها بسفنه وبعثاته يعوقه فى السيطرة على أعدائه. كان المدن الإيطالية منقسمة بين الأحزاب الشعبية وحلفاء السادة، وقد حدثت مؤمرات فى روما وفى قرطاجنة بين تلك الفئات المتنافسة، التى كانت تنتهز الفرص للحصول على التأييد من القوتين العسكريتين، وكانت تلك القوى فى نفس الوقت تدبر المؤامرات لتأييد أو لإحباط الأحزاب المختلفة. كان الأسرى من العبيد كثيرا ما يسلحون ويدربون ويبعثون إلى بلدهم لحرب سادتهم طلبا للتحرر من الرق. كان يتم تبادل الأسرى أو الافراج عنهم نظير فدية. كانت روما تستشير كبير كهان دلفى، وكان الرومان يعرضون (فى خفية عن «السينيت») المواطنة الرومانية على حلفاء روما. كان عامة الناس ينتخبون كقناصل لاستخدام جيوشهم فى الحرب (حتى يفقدوها ويفقدون حياتهم). أخذت الحرب شكل الحرب العالمية، وجمعت الحرب الشق المتواجد فى المجتمعات المختلفة (والتأمت الشقوق فى بعض الأحيان)، وكان هذا اختبارا لتماسك المجتمعات أو انفراطها. كذلك كانت الحرب اختبارا لعبقرية كبار القواد من الجانبين. قادة القرطاجيون ينتمون لأسرة واحدة، أسرة هاميلكار باركا (وكان أبرزهم هانيبال). أما فى الناحية الرومانية، فلم يكن لأى قائد قوة هانيبال وسلطته، ولايمكن مقارنة أى منهم بهانيبال. بالرغم من هذا حقق سكيبيو النصر على هانيبال فى النهاية، وكان انتصاره هذا هو ذروة تسع سنوات من التدريب والإدارة والسياسة بالإضافة إلى خوض المعارك (يتشابه التاريخ هنا مع ما حدث فى الحرب العالمية الثانية عندما انتصر مونتجمورى قائد الحلفاء على العبقرية العسكرية الألمانية روميل فى معركة العلمين). لم تضع الطبقة الحاكمة فى قرطاجنة سلطتها فى أيدى العسكريين. كان أهل الريف وأهل المدينة من المسالمين الذين يكرهون الحروب وكانت الدولة كذلك لاتسعى لقيام حرب ثانية بينها وبين روما، ولم تعد مواطنيها على التدريب لخوض الحرب بل كانت تعتمد استئجار الجنود المترتقة للحرب من أجلها. كان الجنود من الإغريق والخيالة من

النوميديين، ولكن القادة كانوا من القرطاجينين، وكان هؤلاء من ذوى اليسار والمنشأ الكريم. كل قادتهم كانوا ينتمون لأسرة واحدة، أسر هاميلكار باركا. صار صيته ذائعا بعد الحرب الأولى مع الرومان: تزوج ابنه – القائد العظيم هانيبال – من أميليس – الأميرة الإغريقية – الإسبانية (وكان يعرف اللغة الإغريقية). بعد ست سنوات من هزيمته، ثم انتخابه قنصلا فى قرطاجنة – وقد قوبل هذا الانتخاب بحماس شديد من الجماهير. أدخل هانيبال – بعد انتخابه الفكرة الإغريقية بانتخاب القضاة سنويا. بعد نفيه من قرطاجنة لجأ إلى ملك برجامون، وكان هانيبال فريدا بين أقرانه فى ذكائه وفى تعليمه. كانت الحرب الثانية ضد روما من تدبير العصبة العسكرية فى قرطاجنة، وترجع فى جزء منها أن العسكريين كانوا فى غالبيتهم من الأجانب الذين ضاق صدرهم بالسادة التجارة فى قرطاجنة والذين يشكلون الطبقة الحاكمة. أما فى روما فكانت طبقة السادة الأرستقراط هم الذين يعملون على استمرار الحرب ولايقبلون بالهزيمة التى حدثت لهم فى السنوات الأولى من الحرب، وكانت تساندهم الجماهير فى حماستهم هذه. كان امتلاك روما لأسطول عظيم سندا قويا لهم وكان قادته هم الشباب من طبقة العوام بينما كان القادة الأوائل هم الأرستقراط قواد الجيش. كادت الهزيمة أن تحل بروما عندما انسلخت عنها المستعمرات الاثنتا عشر القريبة منها فى أحلك أيام الأزمة، كذلك كان هانيبال يرى تعاطفا من العوام معه. كان قادة الرومان فى موقف أضعف من موقف هانيبال. كان لكل فرقة رومانية قنصلان يتم انتخابهما لمدة عام وكان يضعان الخطة سويا أو يقسمان المسئولية بينهما فى المعركة. وعندما كانت تحل الهزيمة بهما يفضلان الموت فى ميدان القتال، وهكذا مات تسعة من قواد روما فى الحرب. وهكذا لم يكتسب قواد روما خبرة فى المعارك، ولم ينج من القواد إلا من تفادى لقاء هانيبال حتى يكتسب الخبرة. كان قرار سكيبيو الأصغر، الذى انتصر أخيرا، وهكذا تحدد مصير الدولة الرومانية، هو القرار الحكيم. انحدر هذا القائد صغير السن من أسرة عريقة فى الخدمة العسكرية فى الدولة الرومانية. سبق لهانيبال أن هزم أبيه فى المعارك. فكان رد فعله ليس أن يواجه هانيبال فى إيطاليا، بل أن يتوجه، وهو فى السادسة والعشرين، إلى إسبانيا حيث قتل أبوه. هناك تدرب على القتال وتعلم من هانيبال حتى تفوق عليه فى الاستراتيجية وفى الدبلوماسية. كذلك تعلم من الإسكندر الأكبر العلاقات العامة وإدارة المعارك فى الميدان، وبهذا يكون قد اكتسب فنون الحرب والسياسة من كلّ من القائدين العظيمين. كانت أسرة سكيبيو (مثل أسرة هانيبال) تهتم اهتماما خاصا بالثقافة والفن والأدب. عندما أتت للرومان كنوز سيراكوز بعد احتلالها عام ٢١٢ ق.م. كانت عائلة سكيبيو هى التى احتضنتها ثم زودت الرومان بآداب الإغريق وبعلمائهم ومثقفيهم وهكذا كانت أسرة سكيبيو هى المسئولة عن فتح بلاد الإغريق عسكريا وعن فتح بلاد الرومان للإغريق ثقافيا وفنيا.

بعد خمسين عاما من هزيمتها، ودفعها سنويا للفدية المفروضة عليها تم إفلاسها وضعف شأنها وصارت نسيا منسيا أمام الرومان، الذين صاروا سادة العالم بعد انتصارهم فى تلك الحرب العظمى. بعد حصار دام ثلاث سنوات تم فتح قرطاجنة وتم تدميرها وأسر أهلها وتحويلهم إلى عبيد للرومان. صارت ولاية «إفريقيا» بأسرها مستعمرة رومانية ويجانبها جارتها وحليفتها نوميديا. وهكذا ماتت إمبراطورية عظيمة وتوسعت الإمبراطورية الرومانية إلى ما وراء البحار. انمحت مدينة قرطاجنة كما زالت الدولة من الوجود، ولكن تبقت شراذم من أهلها من قادس (بإسبانيا) إلى قرطاجنة (تونس) وحتى موريتانيا. احتفظوا بلغتهم فى تلك الأماكن كما احتفظوا بدينهم وجنسهم وطباعهم. استفادت روما - فيما بعد - من هؤلاء الناس فقد نشأ منهم كتاب عظماء وأباطرة وسيناتورز وقديسين. (من أمثال أوجستين من هيبو ودوناناوس مؤلف «الشقاق المسيحى»).

هكذا بدأ فتح الرومان للعالم (ضد رغبتهم). بعد هانيبال استمر الرومان - كعهدهم - منشقين على أنفسهم ومختلفين تمام الاختلاف. كانوا منقسمين تبعا لاهتماماتهم الطبقية ولتغير وظائفهم الاجتماعية وحقوقهم تباعا، كما تغير بنيانهم العرقى. فى الطبقة الحاكمة - على سبيل المثال - كانت مقدرتهم العسكرية وقدرتهم على الحكم المدنى ثابتة ومنتقاة منذ تكون الجمهورية الرومانية. كانت شجاعتهم ومهارتهم وطلاقة حركتهم هى عوامل استمرار حربهم ضد هانيبال - الحرب التى توجت فى النهاية بانتصارهم. استمرت الحروب بعد ذلك باندفاعهم لهزيمة جميع شعوب البحر الأبيض المتوسط على التوالى: أفريقيا (تونس) فإسبانيا ثم اليونان فالأناضول، وقعت تحت سيطرتهم. أضيفت الدبلوماسية والخداع إلى أسلحتهم فى تلك الفتوحات. كان الرومان يتغيرون وصاروا متكيفين لتحقيق إنجازات كبرى - تفوق ما كان مطلوبا من دويلة صغيرة قائمة على مدينة واحدة. تغيرت القوانين وصارت الجماهير - بالتدريج - مؤهلة لشغل وظائف الحكومة وللتزاوج مع علية القوم. أما مجلس «السينيت» فظل باقيا على عهده فى انتقاء الأسماء التى تُعرض للانتخاب. هكذا بقى «السينيت» مجتمعا مغلقا على نفسه يضم مجموعة من النبلاء التى اقتصر التزاوج بينها على أبنائها. فى داخل طبقة الارستقراط نفسها نشأت الطبقية، وصار بعضها يعلو على بعضها الآخر وصار بعضها شديد الثراء بينما كان بعض تلك الطبقة أقل ثراء ونفوذا. بالتدريج قبل الفقراء من طبقة النبلاء أن يزوجوا بناتهم من الأغنياء من عامة الناس، الذين ليس لهم توجهات ولا مراكز سياسية رفيعة. كانت سياسة الطبقة الحاكمة تتأثر كثيرا ليس بكفاءة الشخص وقدراته التى أظهرها فى تناوله للأمور فحسب ولكن كانت تتأثر إلى حد كبير بجاهه وحسبه ونسبه الذى يرجع عادة إلى مركز أسلافه فى المجتمع. كان الاحترام يعود إلي الأسلاف من الأصلاب (أبناء البنين) وليس إلى أبناء البنات.

كثيرا ما كانت تتغير الأسماء بناء على التبنى، مما يزيد الأمر صعوبة ويجعله غير منطقى البتة. استمر مجتمع «السينيت» مغلقا على نفسه ولا ينفتح للتزاوج مع العامة. أدى هذا السلوك مع تعدد الكفاءات فى أبناء العامة، إلى شق عميق فى المجتمع الرومانى. مع توسع الإمبراطورية الرومانية، تفرق الرومان فى أنحاء العالم ولم يستطع أى نظام يوضع فى روما أن يجد له التطبيق السليم فى إيطاليا كلها، ما بالك بالمستعمرات. فى تلك الظروف نشأت طبقة جديدة سميت «الفرسان» الذين صار لهم شأن عظيم. بدأت هذه الطبقة بتكوين ثلاثة فرق، ازدادوا إلى ستة، ثم صاروا اثنتا عشر فرقة، تم اختيارهم من عوام الرومان الأثرياء، من أعرق الأسر وأقدمها. منحهم الملوك منح سنوية للانفاق على خيولهم ولإمدادهم بالسلاح والعتاد. كان يتم إحصاء سنوى لعددهم، كما كانوا يخضعون للتفتيش الدورى (لم يكن للفرسان هؤلاء أثر يذكر فى المعارك الحربية حيث أن خيالة القبائل الهمجية كانت أكثر كفاءة وكثيرا ما انتصرت عليهم). سرعان ما اكتسب فرسان روما وضعا يختلف عن الهدف من إنشائهم فى أول الأمر – لم يصيروا قوة حربية تسهم فى الدفاع عن الدولة، بل صاروا طبقة لها أثرها المحسوس فى إدارة شئون الدولة. سرعان ما تزاوج الفرسان مع بنات الطبقة الراقية، واختلطوا يهم حتى صاروا جزءا منهم، وأصبحوا طبقة ثرية، ذات قدرة اقتصادية واجتماعية معترف بها. بالتدريج أزاحوا رجال السياسة المحترفين من صفوفهم وحلوا محلهم فى التجارة وفى «السينيت» وفى إدارة الحكم فى البلاد وسيطروا على الفساد الذى دبت أطنابه فى أوصال الدولة، وأخذوا على عاتقهم أساسا مهام جمع الضرائب والشئون المالية والإدارية. بعد أن صار للرومان إمبراطورية عظمى وجدوا أنفسهم تحت حكم فئتين مختلفتين، فى ظل دستور يرفض النظام الملكى (الذى كان وحده قادرا على جمع هاتين الفئتين تحت مظلة واحدة). كان دستور البلاد قائما على حكم الشعب (الذى لم يوجد قط)، مما كان يحتاج إلى تعديل إثر تعديل لمسايرة المتغيرات من الأمور. حققت التعديلات السابقة نجاحا لعدة قرون، ولكن الآن، بعد تكوين إمبراطورية شاسعة فى مدى جيلين اثنين، صارت الأحوال فى منتهى الصعوبة. إزداد الثراء بسرعة فائقة وتعاظمت القوة بشدة، مما قلب الأمور فى المجتمع. بعد فتح قرطاجنة وكورينث تزايد التنافس بين الأقاليم المختلفة مما أثار الذعر فى عقول الحكماء وفى قلوبهم، الذين رأوا الأخطار الشديدة التى لا حدود لها التى قد تعود على الأمة التى صارت فى منتهى القوة وفى غاية الثراء بينما لم يستعد شعبها بعد لاستيعاب تلك التغيرات. جاء الثراء من الاستيلاء على بلاد غنية، ومن الجزية التى فرضت على الشعوب المهزومة، ومن استعباد البشر ومن بيع بعض الرقيق. فاض الثراء على إيطاليا إذ حصلت على معادن إسبانيا وعلى ضرائب برجامون وعلى رشاوى ملك نوميديا. ولكن هذه الثروة الطائلة لم توزع بالتساوى على أبناء الشعب، بل وجدت طريقها إلى جيوب الأقلية. كانت هناك أرصدة للانفاق على

الانتخابات وعلى الميليشيات والجيوش الخاصة (ويأتى كل من هاذين النشاطين بمزيد من الثراء على صاحبها، أو يشترى بها مزيدا من العبيد الذين يزرعون له الأراضى التى استولى عليها غصبا). كل هذا الثراء الفائض والقوة المكتسبة كان يسير فى سبيلين، لا ثالث لهما، كان يسير فى طريق النبلاء، أصحاب الانتصارات والحكام، وفى طريق الفرسان التجار الذين يشترون ويبيعون. بعد انتهاء الحرب مع قرطاجنة وتدميرها وبلوغ الامبراطورية الرومانية إلى ذروتها والاستيلاء على اليونان وبرجامون، بعد ١٢ سنة فحسب، حدث أول تمرد شعبى، تمرد العبيد فى جزيرة صقلية. تمرد كان يهدف إلى العدالة فى توزيع الأراضى وإلى تقليص نفوذ «السينيت» وسطوته، وإلى منع قتل أصحاب الرأى فى الطريق العام بواسطة قوى الأرستقراط المنظمة. كانت ثورة العبيد هى المقدمة إلى الكفاح المدنى ونضال الجماهير.

بدأ النزاع بنشاط اثنين من المدافعين عن الحقوق المدنية من العوام. كان «السينيت» قد أخذ الخط بالابتعاد عن النشاط التجاري، لكى يضمن ابتعاد «الفرسان» عن السياسة والتدخل فى شئون الحكم. حدث شق فى صفوف النبلاء بين الأغلبية المحافظة والأقلية المتحررة، واستمر هذا النزاع بينهما لقرن من الزمان. كان الخلاف بين المحافظين والمتحررين منصباً على نقطتين، إحداهما دستورية وتتلخص فى الحقوق النسبية لمجلس «السينيت» ومجلس «الشعب» الذى كان يتكون من الإيطاليين والذين صاروا يقيمون بعيدا عن إيطاليا ولايتمكنون من الإدلاء بأصواتهم. والنقطة الثانية كانت اقتصادية وهى لمن يكون العائد الوفير من المستعمرات، هل يعود إلى الوطن الأم – إيطاليا – أو ينفق معظمه على امتدادات إيطاليا فى العالم الغربى. كان الحكم فى إيطاليا حكما تسلطيا عنيفا، لم يشهد العالم مثله من قبل ولا من بعد، وإزداد هذا العنف بتدفق الثروة على إيطاليا وامتلاكها لتلك الثروة. وهكذا اختلت ميكانزمات الحكم، التى قصد بها إدارة مدينة صغيرة بعد أن صارت دولة عظمى. بدأ القتلة المأجورون فى الظهور، وبدأ السرك الذى يصارع فيه الإنسان الوحوش فى الانتشار، وصارت شجاعة الجنود تحت إمرة من يحكم البلاد ويتحكم فيها. فى هذه اللحظة بدأ الصراع بين ماريوس، وسينا، وسولا، وبومبى، ويوليوس قيصر، وأكتافيوس لأخذ ناصية الحكم والسيطرة على الأمور. كان مصير من يخسر فى الصراع هو التصفية الجسدية والقتل ومصادرة أملاكه. كان من آثار الحروب الداخلية تدمير الأراضي الزراعية فى وسط إيطاليا وحرمان الماشية والأغنام وبقية الحيوانات ممن كانوا يتولون رعايتها والعناية بها، ولم يستطع قلب الإمبراطورية من استرجاع سابق عهدها أبدا. نشأ من هذا الصراع دستور جديد يؤهل روما لحكم العالم، وطبقة تقوم على تنفيذ هذا الدستور. جاء التغيير بهذا الشكل، فى السنوات التى امتدت من ٩٠ إلى ٨٠ ق.م. حاولت الطبقات المطحونة أن تثور على سادتها، الجماهير التى كان لقوتها

وإخلاصها فضل انتصار روما على هانيبال، حاولت أن تزيح السادة عن الاستمرار فى مقاليد السلطة. استفادت الجماهير من تفرق السادة وكادوا أن يصبحوا سادة روما (والإمبراطورية بأسرها)، أنقذ روما من هذا التصدع الطبقة العليا فى إتروريا وأومبريا الذين كانت لهم العلاقات الاقتصادية مع السادة والذين ارتبطوا بالزواج معهم. ولكن فى إثر تلك الثورة حدث تعديلان جذريان – بقيا على مر الزمن. ففى الناحية السياسية امتدت الحقوق الدستورية (وبخاصة حق الانتخاب) إلى جميع الإيطاليين جنوبى نهر البو وبهذا امتص الغضب وهدأ التمرد فى المدن. ومن الناحية الحربية كان لتدمير القادة وانتقال ملكية أراضيهم إلى المواطنين الرومانيين، وزرع مائة ألف من المحاربين القدماء فى الأراضى المختلفة، فضل امتصاص مقاومة القبائل الجبلية لسلطان روما. حدثت تلك التغيرات لتقابل الاحتياجات العاجلة، ولكنها أحدثت تغييرا طال انتظاره فى شكل المجتمع الإيطالى. صارت الطبقة الحاكمة طبقة متسقة ومتماثلة فى كافة أنحاء إيطاليا، تتحدث باللاتينية وتنظر كلها إلى روما كمركز للفخار القومى. فى ذات الوقت صارت روما على مكان الحكومة لكافة أنحاء إيطاليا، واستمرت الحكومة ممثلة للطبقة الإيطالية الحاكمة. إزداد عدد أفراد «السينيت» (الذى تناقص بالإبعاد) بواسطة سولا إلى ٥٠٠ فرد ثم بواسطة يوليوس قيصر إلى ٩٠٠. كانت الزيادة لاترجع فى الأساس إلى الحقوق الوراثية للارستقراط ولا إلى محاولة الاستجابة إلى المطالب المحلية فحسب، بل كانت ترجع فى المقام الأول للدكتاتور الحاكم وإلى احتواء المخلصين له. وهكذا تغيرت الأصول الوراثية للطبقة واتسعت بسرعة، وكان لهذا التحول آثار مباشرة. ففى كل أزمة لاحقة كانت السلطة تتركز فى يد الشخص الذى يستطيع السيطرة العسكرية على الموقف ويسيطر على السلطة الإدارية للدولة، (وكان هذا الشخص أحيانا من السياسيين). استمرت الحروب المدنية حتى أتت على كبار ملاك الأراضى السابقين من أعضاء «السينيت» وحل محلهم أفراد تمتعوا بالعبقرية. كان أصل هؤلاء القوم مجهولا أو مختلطا، وكانوا يقعون خارج الدائرة المغلقة للطبقة الحاكمة من غير أفراد الأسر العريقة. لم يحمل من هؤلاء الرجال أسماء شهيرة سوى سولا وقيصر. كان ماريوس (الذى أعاد تشكيل الجيش)، وسيسيرو – الذى أعاد صياغة اللغة وكان له أكبر الأثر فى فكر روما الجديد – رجالا جددا من أربينام، بينما جاء بومبى (الذى ساد البحار وفتح الشرق) من بيسينام. هل كان من أصل إتروسكانى أو اليرى؟ لم يعد هذا أمرا يشغل بال أحد. كان أوكتافيوس (ابن شقيقة قيصر وابنه بالتبنى) نتاج زواج من بين نبلاء روما الفقراء وبين أحد الأغنياء المحليين – الجنس الجديد المهجن. كان لأصله العريق ولثرائه الجديد، ولمطامعه وعمله الدؤوب، الفضل فى ارتفاع شأنه، وشأن كل من جمع تلك الصفات.

يوضحالجدول رقم (٩) التتابع الزمنى لتطور الدولة الرومانية وتصاعدها من قرية صغيرة إلى دولة عظمى.

جدول رقم (٩)

تطور نشأة وصعود روما والدولة الرومانية

تأسيس المدينة بواسطة روملي	٧٥٣ ق.م.
احتلال الإتروسكان لها	٥٧٥ – ٥٠٩ ق.م.
الصراع لامتلاك إيطاليا	٥٠٩ – ٢٦٥ ق.م.
التحالف مع اللاتين وإخضاع القبائل الجبيلة	٥٠٠ – ٣٠٠ ق.م.
تأسيس رابطة اللاتين	٣٨٠ – ٣٤٠ ق.م.
احتال الغال لروما ثم الانسحاب منها نظير فدية مالية	٣٩٠ ق.م.
إخضاع المدن الإتروسكانية	٣٩٦ – ٢٨٠ ق.م.
إخضاع ولاية كابو (من السمنيين)	٣٤١ ق.م.
الصراع الاجتماعي الأول	٤٩٠ – ٢٨٧ ق.م.
تأسيس المدافعين عن الحقوق المدنية (للدفاع عن الشعب)	٤٩٠ ق.م.
كتابة الدستور الروماني (من ١٢ مادة) القوانين اللاتينية	٤٥٠ ق.م.
حق العوام في التزواج مع النبلاء	٣٦٧ ق.م.
إنشاء مجلس للشعب ومنحه حق إصدار القوانين	٢٨٧ ق.م.
الصراع لإنشاء الإمبراطورية	٢٦٤ – ٣٠ ق.م.
مع قرطاجنة	
أسر ٧٥ ألف واتخاذهم رقيقا واحتلال صقلية	٢٦٤ – ٢٤١ ق.م.
احتلال جزيرتي كورسيكا وساردينيا	٢٣٩ ق.م.
الحرب القرطاجية الثانية (هانيبال) احتلال إسبانيا	٢١٨ – ٢٠١ ق.م.
الحرب القرطاجية الثالثة – تدمير قرطاجنة واحتلال أفريقيا	١٤٩ – ١٤٦ ق.م.
مع القوى الهيلينستية	
هزيمة السليوسيديين في ماجنيزيا	١٨٩ ق.م.
احتلال مقدونيا واليونان	١٤٨ – ١٤٦ ق.م.
احتلال برجامون	١٣٣ ق.م.

إتمام الامبراطورية

بومبى يضم سوريا وفلسطين وأرمينيا	٦٤ – ٦٢ ق.م.
يوليوس قيصر يحتل بلاد الغال	٥٨ – ٥٢ ق.م.
أكتافيوس يضم مصر	٣٠ ق.م.

الصراع الإجتماعي الثاني

	١٣٥ – ٣٠ ق.م.
ثورة العبيد فى صقلية مرتين	١٣٥ – ١٣١ ق.م.
	١٠٤ – ١٠٠ ق.م.
محاولة الاصلاح الاجتماعى وتملك الأراضى	١٣١ – ١٢١ ق.م.
الحروب الداخلية وبدء الدكتاتورية	٩٥ – ٣٠ ق.م.

كان أكتافيوس يقضى عطلة الشتاء فى اليونان عندما علم باغتيال يوليوس قيصر، فأدرك فى الحال، أنه وحده الجدير بالاستيلاء على الحكم. كان مثل الإسكندر الأكبر، وهو فى سنه الوريث الشرعى لحاكم عظيم، ولكن الحكم كان عظيما والمتنافسون عليه متعددون وأقوياء. كان هدف قيصر من احتلال بلاد الغال منع تكرار مهاجمة القبائل الهمجية للحدود الشمالية لإمبراطوريته الشاسعة، وقد نجح فيما قصد إليه، واستمرت الدولة التى كونها تشع بحضارة الرومان على مدى ألفى عام، وصاراسم قيصر يسمى بعظيم العظماء (وملك الموت مثل لقب الشاهنشاه لدى الفرس) وكان اسم أكتافيوس عند بداية صعوده للسلطة «يوليوس قيصر أكتافيوس»، وبدأ بتوحيد كل المعترضين على اغتيال قيصر والثائرين على تلك الفعلة بدأ بالتحالف مع انطونيو (لتقاسم الإمبراطورية معه ثم للإطاحة به). بدأ أكتافيوس حياته السياسية فى سن العشرين – كقنصل – ثم صار حاكما لأعظم إمبراطورية فى سن الثالثة والثلاثين. وصل إلى هذا المنصب بدهائه وتنافيه للحرب مع منافسيه (بعكس قيصر الذى كثيرا ما كان يتصارع مع أعدائه)، ورفض فى المبدأ أن يتخذ شكل الدكتاتور أو مظهر الملك (الذى حصل عليه قيصر بجهده وانتصاراته). ساعد أكتافيوس فى بلوغ مراميه عظمة يوليوس قيصر ومأساة مقتله فى أوج عظمته. كان عدد قتلى قيصر فى المعارك التى دامت خمسين عاما حوالى المليون، نصفهم من الإيطاليين. يضاف إلى هذا العدد الرهيب من تم عزلهم بواسطة أوكتافيوس وأنطونيو (وعدد من سجله التاريخ ٣٠٠ سناتور و ٢٠٠٠ من الفرسان، ويقدر من تم ذبحهم بنصف تلك الأعداد). من بين هؤلاء سيسيرو (الذى كان أكتافيوس يدعوه بالأب). تم استبعاد الرؤساء ليخلو الجو للسيطرة على إيطاليا، والاتباع لدفع مستحقات الجيوش من حصيلة مصادر

الممتلكات. كان القتل قد بلغ مداه بين قادة المجتمع الرومانى العسكريين حتى ملوا الصراع وصاروا يفضلون السلام، وبدأت تستهويهم المنح التى أغدق بها عليهم أكتافيوس (المنح التى لم يقدرها الزعماء السابقون فى روما الذين ينتمون حقيقة إلى طبقة الارستقراط).

شهدت أوروبا مرارا هذا التحول، وكما خمدت الحروب الأهلية فى الداخل، هدأت الحروب فى خارج البلاد. صارت الجيوش العظمى والقادة العظام (الذين لم يعودوا ينتمون إلى الأسر العريقة)، مهمتها الدفاع عن حدود البلاد وحمايتها ممن يحاول الاقتراب منها للقرون التالية. وهكذا كان الامتداد العظيم للإمبراطورية الرومانية إلى وسط أوروبا صار عبئا ثقيلا عليها. اتجه الرومان لعملية بسيطة – وهى احتلال الجزر البريطانية، بديلا عن الخيار الصعب وهو محاولة فتح ألمانيا (ولم يكن هذا ممكنا فى عصر سيطرة الأرستقراط وكبار العائلات على الحكم وعلى الجيش).

هكذا وجد أكتافيوس نفسه على رأس دولة، تريد الحياة، لأول مرة فى تاريخها الطويل ولاتريد مزيدا من الحروب، ولكنها لاتريد تغيير شكل الحياة. مافتىء المتعلمون وغير المتعلمين، الأغنياء والفقراء على السواء لايريدون أى تبديل فى شكل الحياة التى نشأوا عليها فى تلك الدولة. بعد إخماد الحروب الداخلية بقسوة بواسطة أوكتافيوس واستيلائه على السلطة الكاملة بلا منازع (عين ٣٠٠ سناتورا جديدا من أتباعه وألفين فارسا جديدا وتم ذبح نصف هذه الأعداد ممن نازعوه السلطان ومنهم سيسرو الذى كان أوكتافيوس يدعوه أباه) بدأت حمية الفتوحات الخارجية فى التداعى، وصارت مهمة الجيوش العظيمة والقواد العظام الذين يقودون تلك الجيوش، هى الدفاع عن حدود الدولة الشاسعة فى القرن المقبلة، وكم كان العبء عليها عظيما. توقف الزحف لإخضاع أواسط أوروبا واكتفت الإمبراطورية الرومانية بزهو إخضاع الجزر البريطانية ولم تحاول إخضاع ألمانيا. هكذا وجد أكتافيوس على رأس دولة يريد أهلوها المعيشة فى سلام والتمتع بثمرات الحروب الطويلة والانتصارات المتتالية بدون مزيد من الحروب وبدون محاولة تغيير بناء المجتمع الذى نشأوا فيه، أغنياء أو فقراء، وصاروا فيه عظماء. صار أوكتافيوس وحده هو الذى يعين القناصل الجدد وهو الذى يشكل لجان مجلس «السينيت» التى تشرع القوانين المطلوبة، وعين نفسه المشرع الأكبر ورجل الدين الأعظم للتصرف فى جميع القوانين والتشريعات الدينية، وسرعان ما اتخذ لنفسه لقب أغسطس. ولكن القوة الحقيقية كانت فى يد الجنود ومن يملك الأموال لدفع أجورهم، ولرجال الإعلام والدعاية ولرجال الدين. تحكم أغسطس فى حرية الحركة لأعضاء «السينيت» ولم يسمح لأى منهم بمغادرة إيطاليا إلا بإذن منه شخصيا. عبده الشعب كابن الإله فى معابدهم كما كانوا يدعونه

أباهم. فى مصر اعتبره الشعب خليفة الفراعنة والبطالمة، الملك الأعظم، والإله الذى ليس له منافس. ومازلنا حتى عصرنا الحالى نطلق اسم يوليو وأغسطس على أطول شهور السنة المتتابعين. اكتسب أغسطس هذه القوة والجبروت من مركزه السياسى وموقعه الدينى قوته العسكرية ومركزه الاقتصادى المتين والمشاعر العاطفية التى أتاحها له اسم عائلته العريقة. أضفى عليه كرم المحتد وتواضع العوام حبا شديدا فى أعين الجماهير. كان أغسطس يعهد لسواه – ممن يفوقونه خبرة ومعرفة بالأمور – بسلطات لم تعرفها حكومات روما فيما قبل، وكان هذا شيئا جديدا لم يألفه الرومان، الذى كان الحكم فيه لايخرج عن دائرة النبلاء أو عن فردية يوليوس قيصر. بهذا التشكيل الجديد لنظام الحكم تم اختيار أكفأ الناس ليصيروا رؤساء لأنشطة الحكومة المختلفة. لم يكن أغسطس قائدا حربيا محنكا ولهذا فقد عهد بقيادة القوات المسلحة لأجريبا (الذى بنى البانثيون وقناة نيمس). كان أجريبا من عامة الشعب وكان مجهول الأصل ولكن تبين يوليوس قيصر قدراته الفذة أيام الشباب وعهد إليه الأعمال التى نسبت بعد نجاحها لسيده. كذلك لم يكن أغسطس من خبراء الفنون، وكان ذوقه ومعرفته بها هو ذوق ومعرفة العوام، ولكنه وجد فى ماسينا الإتروسكانى، الأرستقراطى، الرجل القدير على تخديم العلم والأدب فى تقدم الأمة، وفى استثمار الدعاية والدبلوماسية فى سبيل رفعتها. كذلك استطاع فيرجيل وهوراس وليفى فيما بينهم إقناع العالم أن حكم أغسطس ضرورة حتمية لتطور التاريخ ونبوءة دينية تتحقق على يديه. كان هؤلاء الرجال ألصق الناس بالحاكم. كذلك كان هناك أناس آخرون من بطانته المقربة – من غير أعضاء «السينيت» ذوو إبداعات مختلفة وعبقريات متباينة، اختارهم لمعاونة أجريبا لوضع نظم الضرائب وصك النقود واستغلال المناجم وبناء الطرق والقنوات والموانىء، ومساعدة أغسطس فى الإشراف على رجال الدين وتطوير التقويم والقوانين. ووجد أوكتافيوس هؤلاء المعاونين فى كل مكان فى امبراطوريته إلا فى روما نفسها. كان كبار الكتاب فى عهده من أصل إغريقى أو إتروسكانى أو أسبانى أو من شمال أفريقيا ومن غيرها. أما كبار موظفيه فكانوا من أسرى الحرب الذين أتوا إلى روما كعبيد من بلاد الشرق المتحدثين بالإغريقية (كان يقطن روما فى عهده مليون نسمة، نصفهم من العبيد)، نقل إليه هؤلاء الرجال العلم والحضارة وأصول الإدارة الهيلينستية بفضل نشأتهم وتعلمهم وخبرتهم السابقة. وضع هؤلاء الرجال أسس المجتمع الجديد بدون الالتفات إلى مساوىء هذا العهد وتعسفاته المرعبة فى هذه الحقبة من حقب التطور.

في عهد الجمهورية كان الشخص الذى يطمح أن يكون سنتاورا هو الشخص الذى له ارتباطات بأحد السنتارون، ولابد أن يكون من النبلاء أو الأشراف. تحطمت هذه القاعدة أيام الحروب الأهلية،

ولكنها ظهرت من جديد فى عهد أغسطس واتخذت صورة جديدة. أتيح لكل شخص فرصة الترقى ولكن فى حدود النظم التى وضعت للأفراد ولعائلاتهم. كان عدد العبيد الذى يسمح به للعالك أن يعتقهم محدودا. بعد العتق كان يسمح للعبدالسابق أن يلتحق بالخدمة فى الشرطة أو فى وظائف الحكومة، ويمكنه بعد حين أن يصير رئيسا، وهكذا يمكن لابنائه أن يصيروا من أعضاء «السينيت». كذلك بإمكان أبناء العبد العتيق أن يلتحقوا بالجيش ومن ثم يمكن لأبنائهم أن يصيروا ستتاروز. شددت تلك القوانين فى عهد تيبيريوس وكلاوديوس ولم يكن يسمح لابناء العبد العتيق أن يلتحق «بالسينيت» قبل مرور خمسة أجيال على العتق. أما فى عهد أغسطس فقد قيدت تلك القوانين ويسرت. فرض أغسطس الضرائب على العزاب وفرض الغرامات على الخيانة الزوجية - إذا حدث هذا بين أفراد الطبقات العليا. وكان الفرد يرقى ويمنح مكافئات مالية إذا رزق بأبناء شرعيين (عشر قطع ذهبية عن كل مولود شرعى). وفى نفس الوقت قيد العتق من الرق وقيد حقوق المعتقين (منع زواج الجوارى المعتقات من السناتورز). كان هدفه من هذا زيادة تعداد الشعب الإيطالى والحد من تعداد أبناء العبيد، وأعاد فى خطابه «للسينيت» ما سبق أن قاله أحد المفكرين عام ١٤٣ ق.م. بوجوب جعل الزواج إجباريا لتشجيع زيادة النسل بين الإيطاليين مع ما تحمله زيادة السكان من خير عميم على الأمة. استمرت هذه السياسة الحكيمة طالما بقيت الإمبراطورية، والآن بعد امتداد رقعة الإمبراطورية واتساعها واختلاف المجتمع الرومانى من مكان لآخر سنحت فرصة نادرة لاختلاط الأجناس المختلفة وتبادل الأعراق والجينات. بالرغم من هذا لم تكلل هذه السياسة بالنجاح المأمول ولم توت ثمرتها المرجوة للأسباب التالية:

أولا: كانت الطبقة الحاكمة الرومانية مؤهلة لمعالجة العالم الذي بدعوه بأنفسهم ولكن أحوال ذلك العالم تغيرت تحت سمعهم وبصرهم. حل التعايش السلمى بين الشعوب محل التوسع العسكرى واستبدلت دولة صغيرة باتحاد مترامى الأطراف. كانت الوحدة العرقية والقيم المتماسكة هى عنوان تلك الدولة الصغيرة ولكن حل محلها إختلاف فى الطبع وتباين فى الأهداف وتعدد فى الطموحات، ظل كامنا لفترة ما من أثر الإرهاق ونتيجة التعب وحل محل الاختلافات سلم مؤقت. لم يكن لدى الطبقة الحاكمة الرومانية - بعد بلوغ آمالها - أى تطلعات أخرى، ففقدت هدفها المعلن، أساس تزاوجها من بعضها، ففقدت تماسكها الاجتماعى، واختفت سريعا كطبقة متميزة.

ثانياً: لم تلاحظ الدولة ما حدث من تعارض بين مركز الرومان والإيطاليين فى الإمبراطورية الجديدة المترامية الأطراف. بينما ظل الرومان والإيطاليين هم المثقفون وذوو السلطة السياسية فى الإمبراطورية، كانوا فى الحقيقة الأقلية العددية فيها وكانوا كذلك الأقلية العرقية. وكانت الكثرة والغلبة دافعا للاستقلال بعد عدة أجيال.

كانت حكومة أغسطس غير قادرة على تنظيم دخول الثروات إلى روما. بينما كان الإمبراطور يزهو بالعزة والفخامة والأبهة وبينما كان يتمتع بالقوة والجبروت إلا أن الخوف كان يسيطر عليه ويتحكم فى سياساته. كان له حرس من تسع فرق، من إيطاليين مولودين فى إيطاليا، يحمونه. وكان حرسه الخصوصيين يتكون من ألمان ولدوا فى ايطاليا. كان يرشو الجماهير ليضمن سكوتها وكان يغدق الألقاب على الأثرياء. لم يكن أغسطس قادرا على التحكم فى سلوك أفراد عائلته الذين دفعه طموحه إلى تكوينها بهذا الشكل.

كانت طباع أغسطس الشخصية وأعماله العامة يحكمها تاريخ أسلافه وزيجاته المتعددة. كان أول حاكم لروما يجمع بين أسلاف من النبلاء وأسلاف من العوام. كان نقيا، مؤمنا بالخرافات، وكان مؤمنا بأحقيته فى تولى الحكم وقد جاء هذا من أصله النبيل، وكان يتفهم رغبات الجماهير ويحرص على أداء أعماله والقيام بواجباته، وكان ماهرا في الأمور المالية ولكن كان ينقصه خلق الفرسان، وقد جاءت كل هذه الصفات من أصله العامى. كان الجمع بين تلك الصفات يناسب احتياجات العصر الحاضر والمستقبل. بدأ حياته كاكتفيان القنصل وعمره عشرون عاما وتزوج من سيرفيليا. ثم تزوج كلوديا لإرضاء جنوده (كانت كلوديا ابنة زوجه حليفه ومنافسه انطونيو، الذى تزوج هو نفسه من شقيقته أوكتافيا ورزق منها بعدة أبناء). ثم تزوج أكتافيان للمرة الثالثة من سكريبونيا (وكان هو زوجها الثالث). لم يكن أكتافيان يحب سكريبونيا (كما لم يحبها زوجاها السابقان)، وطلقها فى نفس يوم ولادتها لابنته جوليا (الطفلة الوحيدة التى أعترف بها أكتافيوس)، تزوج للمرة الرابعة من ليفيادروسيلا (وهى حامل فى ستة أشهر من زوجها السابق الذى اضطر لتطليقها) واحتضنها أوكافيوس مع ولديها دروسوس وتيبريوس. كان أوكتافيوس قد بلغ من العمر أربعة وعشرين عاما وظل مع حبيبته ليفيا السنوات الثلاثة وخمسين الباقية من حياته ومن حكمه، ولكنه لم ينجب منها، كان هذا الزواج زواجا ناجحا سياسيا واجتماعيا. كان كليهما من ذوى الأصل المختلط (فقد كانت أمها من العوام كما كان أبيه) بينما كان أبوها من كبار النبلاء كما كانت أمه. تشير القرائن أن تعدد زيجات أغسطس وخيانته لزوجاته الثلاثة الأول واخلاصه لزوجته الرابعة ليفيا كانت لها كلها أسباب سياسية. كان فى مبدأ حياته مترفا منغمسا فى الملذات حتى التقى بزوجته الرابعة وصار نقيا، طاهرا فقد كانت له نعم الناصح والمرشد وكانت له فيلسوفة وصديقة. كان انفعاليا، عديم القلب، عديم الذرية من الذكور لكى يرثوا عرشه. توجه إلى مصر، إلى كليوباترة المرأة الجميلة الثرية التى تملك دولة غنية والتى أنجبت من قبل طفلا من يوليوس قيصر وطفلا من أنطونيو. قتل ولديها حتى لايترك طامعا فى عرش الإمبراطورية. أرغم أوكتافيوس أجريبا على تطليق زوجته المحبة (وكانا يعيشان فى

سعادة) وأرغمه على الزواج من ابنته جوليا، ولما توفى عنها أجريبا طلب من تيبيريوس الزواج منها بعد طلاق زوجته وأم ولده دروسوس (وكانت ابنة لأجريبا من زواج سابق). وهكذا سلك أغسطس طرقا ملتوية لارحمة فيها لتعويض حرمانه من وريث يرث عرشه ويحافظ على إمبراطوريته العظيمة. كانت ابنته جوليا الأولى وحفيدته (ابنتها) جوليا الثانية طليقات وأحرارا من ناحية العلاقات الجنسية (إذ كانتا ترفضان التقيد برجل واحد فرضه عليهما سيدهما). هل لعدم إنجابه رغم كثرة زيجاته يكون له الحق فى نصحهما بالعفة والفضيلة! وهو الذى كان يسخو على رفقائه من اللوطيين وينزلهم أحسن المنازل وأفخرها. كانت سيرته الشخصية وسلوكه الخاص أسوأ مثال لأسرته ولمجلس السينيت ولشعبه. كانت سابق الأسرات الحاكمة فى التاريخ تلجأ للارتباط بملك أو ملكة أجنبية وتضعه على عرشها، عندما يحتاج الأمر. فرض المقدونيين شبكتهم على جميع العالم الهيلينستى وارتبطوا عند الضرورة بالأخيميين، أما الرومان فقد كان ينبغى أن يكون الحاكم منهم شخصيا، نبيل، يرث النبل عن طريق الأب وكان أخوف ما يخيف أغسطس قائمة العشاق الذين كانوا يحيطون بابنته جوليا. لذلك لم يكن هناك سوى حل واحد هو أن تتزوج جوليا من أحد ذرية أغسطس نفسه أو أحد ذرية شقيقته أوكتافيا وهكذا تنحصر وراثة العرش داخل روما بالاستيلاد الداخلى. أخيرا أقنع أغسطس نفسه على مضض أن يتولى العرش بعده تيبيريوس (ابن زوجته). تبعت وراثة العرش لدى الرومان نفس النمط الذى حدث فى النهاية لدى الأخيميين ولدى البطالمة ولدى فراعنة الأسرة الثامنة عشر المصرية. بعد بداية عظيمة بدأها رجل عبقرى نشأ عن تزواج بين الأباعد ثم أغدق على منصبه من موهبته، انتهت أسرة الحاكمة – لخشيتها من فقدان ملكها باللجوء إلى التزواج بين الأقارب والمحارم والاستيلاد الداخلى الذي أدى إلى الإخفاق والتخلف وضياع الملك. كان نجاح القياصرة الثلاثة الأوائل يعود إلى مواهبهم، وساعدها فى القيصر الثانى والثالث ارتباطهم بالقيصر الأول. دعمت قدرات تيبيريوس أغسطس على مدى عشرين عاما ثم انطفأت فى النهاية بانهيار عصبى، حدثٌ لم يكن فى حسبان أغسطس ولم تعمل له المؤسسة الحاكمة أى حساب. كان القيصر الخامس – كلاوديوس – شاذا منغمسا فى ملذاته مع حريمه. ولكن كان القيصر الرابع كاليجولا والسادس نيرون – نتاج زواج أبناء عمومة – من المجانين الذين قضوا تماما على الأسرة المالكة. بالإضافة إلى الآثار المدمرة للاستيلاد الداخلي هناك المصائب التى تنشأ عند تعدد الزوجات (والأزواج) التى لاقاها الأخيميون والبطالمة، فكل وريث للعرش يسارع بقتل كل منافسيه حالما يرث السلطان. فقد قتل أغسطس أبناء يوليوس قيصر وأنطونيو، وقتل تيبيريوس ابن جوليا من أجريبا، وتزايد القتل تباعا حتى وصل الحال إلى عدم وجود أى وريث للعرش من سلالة أغسطس بوفاة نيرون. لم يتبق سوى

سلالات جوليا الأولى وجوليا الثانية وأميليا وجوليا كلافينا. بعد انقضاء أربعة أجيال متتالية من وراثة العرش عن طريق خلفاء النساء كان الدم الملكى قد خف إلى درجة كبيرة فلم يعد هناك أى داع للاستمرار فى قتل الرجال فقد ذابوا فى المجتمع الرومانى (أو المجتمع العالمى).

توسعت أسس الحكم أولا فى عهد يوليوس قيصر ثم فى عهد أغسطس ولكن تزايد الاهتمام بسلالة الامبراطور. زعم فى أول الأمر أن الحكام من نسل الملوك ثم زعم أنهم من نسل الله. طالما ظل الحاكم من سلالة يوليوس قيصر كان مقدسا وتقام له الطقوس الدينية، ولكن بزوال هذه السلالة، ذاب الحاكم فى روما وذابت روما فى الامبراطورية. بعد نيرون اتخذ كل حاكم جديد لنفسه لقب قيصر، ليربط نفسه بالأسرة الحاكمة المندثرة (ولكن لم يعد هناك رباط وراثى بها). تولى الفلافيون الحكم (وهم من أسرة سابين، ومثل قيصر من دم يختلط فيه دم النبلاء مع دم العوام) تولى الحاكمان الأولان سلطانهما من كونهما قادة للجيش ولكن دالت دولتهم بفشل الحاكم الثالث. بعد دوميتيان جاءت سلسلة من الأباطرة كانوا من القوة بحيث كان يعهد كل منهم بولاية العهد ويسمي خليفته بنفسه أثناءحياته وكانوا من الحكمة بحيث ينتقى كل امبراطور أنسب الخلفاء وأصلحهم للحكم. حتى تولى ماركوس أوريلياس، الذي تزوج ابنة عمه واختار وريثه من نتاج هذا الزواج، كومودوس، الذى سرعان ما اغتيل. كان الحكام الأربعة تراجان وهارديان وانطونينوس بيوس وماركس اوريليوس من الرومان، الذين عاشوالفترة ما فى الولايات الإسبانية أو الغالية (الفرنسية) وتزوجوا من الفتيات المحليات فى تلك الولايات وكانوا جميعا من أقدر الحكام وأبرعهم بعد أغسطس، وكانوا أول أباطرة يرون الإمبراطورية الرومانية من خارج روما (كما نراها نحن الآن). بعد ماركوس أوريليوس تطورت الإمبراطورية لدرجة كان من المستحيل أن يستمر إدارتها بحكم مركزى دائم. كان الجيش وحده هو مصدر السلطة الدائمة، وقد انفرط عقد الجيش وصار جيوشا متعددة، مرتبطة بالأقاليم المختلفة، وتحدث إمرة جنرالات متعددين وكانوا يسعون دائما (فى هذا العهد – القرن الثالث بعدالميلاد) لتولى السلطة، ودخلوافى حروب أهلية متكررة. فى غياب طبقة حاكمة، تستمد سلطانها من أسرة حاكمة أو من سلطة دينية، تولت فئة عسكرية الحكم وحاولت توريث العرش. هذا هوالحل المتكرر الذي زاولته جميع الشعوب (ومازالت تزاوله حتى عصرنا الحاضر)، خاصة تلك الشعوب التى اتسعت رقعتها عن إمكان ضبط النظام والسيادة فيها. بلغ اتساع الإمبراطورية الرومانية حدا بالغا عن إمكانية ضبطه، وظهر الشقاق بين أقاليمه المختلفة، وساءت أحوال المركز فى إيطاليا ولم يعد أكبر الأقاليم ثراء، وهاجمت القبائل الهمجية أطراف الإمبراطورية بلا هوادة وعاودت الإغارة عليها بلا إنقطاع، حتى صار انهيار الإمبراطورية أمرا محتما، أخّره إلى حين براعة ديوكليتيان ومهارة قنسطنطين والموارد التى كانت بين أيديهما.

كان يقطن إمبراطورية أغسطس حوالى ٦٠ مليون نسمة، ازدادوا إلى حوالى ١٠٠ مليون عندما حل وباء الطاعون الأول عام ١٦٨ ب.م. تعدد لغات سكان الإمبراطورية واختلفت أعراقهم وأصولهم الجغرافية وتنوعت وظائفهم وطبقاتهم الاجتماعية، واختلفوا فى معتقداتهم الدينية وفى عاداتهم وفى لغة الحديث بينهم. كانت هناك مجموعتان رئيستان من اللغات يتحدث بها السكان فى الإمبراطورية الرومانية. اللغة الأولى تتحدث بها الأقوام السابق لها التحضر والمدنية، يتحدث بها المتعلمون واللغات الثانية تتحدث بها القبائل المتخلفة، وهذه تنحو نحو الاندثار، كما يوضح الجدول رقم (١٠).

جدول رقم (١٠)

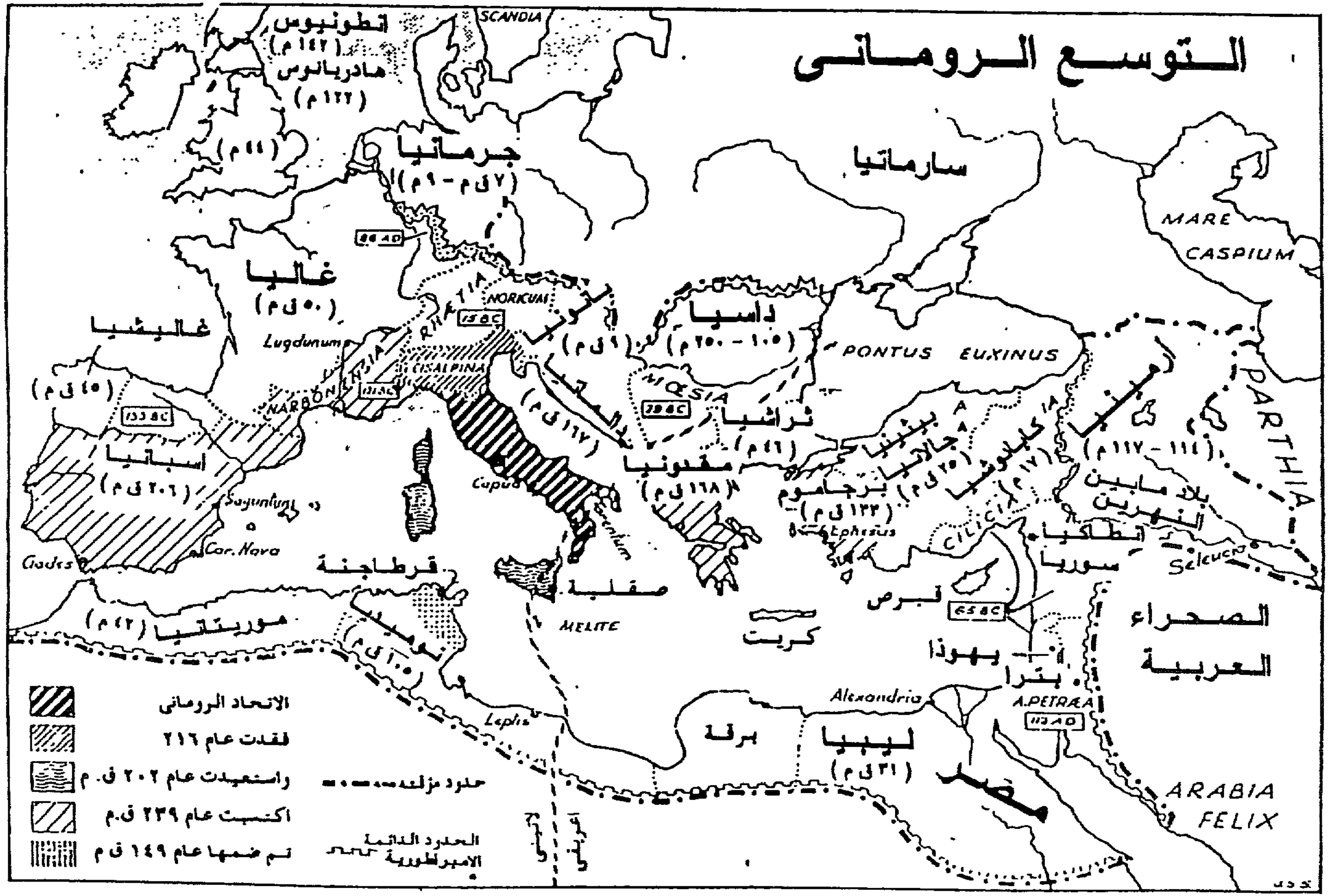
اللغات الرئيسية فى الإمبراطورية الرومانية حسب عدد من يتحدث بها:

المتعلمون	غير المتعلمين
(المتحضرون)	(الهمج)
الإغريقية	الغالية
اللاتينية	الألمانية
المصرية	الكيلتية – الأيبيرية ولغةالباسك
الأرامية	الاليورية
العبرية	البربرية
القرطاجية	النوبية

تحت الإدارة الرومانية، المدنية والدينية والعسكرية، حلت لغة اللاتين محل كافة اللغات فى مدن الغرب فى القرون الثلاثة الأولى من الحكم الرومانى، وفيما تلى من القرون – بعد دخول المسيحية – تغلبت اللغة اللاتينية تماما وانتشرت فى الريف (ولكنها لم تتمكن تماما من الرعاة من أهالى بريتانى والباسك والبربر). بينما فى الشرق انتشرت اللغة الإغريقية على حساب اللهجات المحلية فى الأناضول وعلى حساب اللغة الأرامية، بينما اختفت اللغة المصرية بكيانها فى مدن مصر وفى ريفها فى الشكل الذى نعرفه حاليا باللغة القبطية.

تكاثر اليهود عشرين مثلا منذنفيهم وتشتتهم على يد البابليين. بلغ تعدادهم فى بلاد الفرس وفى بابل وفى شبه الجزيرة العربية وفى الحبشة حوالى مليونى نسمة، وبلغ تعدادهم فى بقية أنحاء الإمبراطورية الرومانية حوالى ٤-٦ مليون نسمة. كان ثلاثة أرباع اليهودفى ذلك العصر يتحدثون باللغة الإغريقية (فى مصر وفى الأناضول)، بينما من قطنوا فلسطين وسوريا فكانوا من المتحدثين بالارامية. وبعدسحق ثورتى اليهود على يد تيتوس وهارديان، تم تدمير معظم هذا الجمع الأخير من اليهود أو استعبدوا أو تشتتوا فى أنحاء المعمورة، فى عوالم تتحدث بالإغريقية أو اللاتينية. تعرض اليهود فى فترات للاضطهاد أو الطرد. طـردت المستعمرة الأولى لهم من رومـا عام ١٣٩ ق.م.، وأمر تيبيريوس بطـرد مجموعة أخرى منهم من إيطاليا. هاجر بعضهم إلى بلاد فى غرب ايطاليا (إلى جزيرتى سردينيا ومايوركا وإلى اسبانيا). كون آخرون المستعمرة اليهودية الأولى فى كولونيا (التى استمرت لتنتـج اليهـود فى ألمانيا والتى نشـأ منها اليهـود الذين يتحدثون بلغة اليديش)، ولكن بقى اليهود الآخرون فى ايطاليا إلي عصرنا الحالى. فى كل تحركاتهم هذه حمل اليهود معهم حرفهم وتجارتهم وديانتهم وتعليمهم. ظلوا حتى القرن الثالث الميلادى يتحدثون باللغة الإغريقية. توضح الخريطة رقم (٤) الحد الفاصل بين المتحدثين باللغة اللاتنية فى الغرب والمتحدثين بالإغريقية فى الشرق.

كان أهم آثار السلم الذى حققه أغسطس هو إتاحة حرية التنقل للبشر فى إمبراطوريته الشاسعة، وفى استيطانهم فى مجتمعات جديدة. كانت حرية التنقل متاحة فيما قبل فى إيطاليا لمدة قرنين من الزمان، فتوسعت هذه الحرية لمساحة لتعدل مساحة إيطاليا اثنتى عشر مثلا فى الإمبراطورية كلها. فى نفس الوقت أمكن للرومان التجارة فى آسيا، فجلبوا الحرير من الصين عبر المحيط الهندى وجلبوا القرفة من الهند، وجلبوا العاج من النيجر عبر أفريقيا وجلبوا العنبر من بحر البلطيق عبر أوروبا. صارت التجارة أكثر يسرا عندما شق الجيش الطرق إلى روما من كافة أنحاء الإمبراطورية لتتصل العاصمة بجميع الحدود، وصارت التجارة أكثر أمانا بعد القضاء على قرصنة بحار العبيد فى جزيرتى كريت وصقلية، الذين صارت لهم الحرية فى البحر المتوسط بعد انهيار صيدا وقرطاجنة وفى اثر فوضى الحروب الأهلية. كذلك كانت الجيوش ذاتها تمثل بشرا فى حركة مستمرة. فى بداية حكمه رأى تيبيريوس أن يحرك كتائب الجيش من الأراضى الجديدة المستعمرة والتى جاء منها أفراد الجيش. كانت الجيوش يجند لها الفلاحون ويضم إليهم مواطنون محليون. فى مبدأ الأمر كان عليهم حماية أراضيهم من هجمات القبائل المتبربرة. وبعد قليل صار تلك الجيوش محترفة. وكان تكوينها في أول الأمر مختلطا، وكانت كل جنسية متخصصة فى شأن من شئون


التوسع الرومانى
تطونيوس (١٤٢ م)
هادريانوس (١٢٢ م)
(٤٤ م)
جرمانيا (٧ ق م - ٩ م)
سارماتيا
MARE
CASPIUM
SCANDIA
غاليا (٥٠ ق م)
غاليقيا
(١٩ ق م)
داسيا (١٠٥ - ٢٥٠ م)
PONTUS EUXINUS
NORICUM
RHAETIA
CISALPINA
NARBONENSIA
Lugdunum
MOESIA
ثراشيا (٤٦ م)
مقدونيا (١٦٨ ق م)
(١٦٧ ق م)
(٤٥ ق م)
اسبانيا (٢٠٦ ق م)
Saguntum
Cor. Nova
Gades
Capua
Tarentum
Ephesus
برجاموم (١٣٣ ق م)
جالاتيا (٢٥ ق م)
كبادوشيا (١٧ م)
ارمينيا (١١٤ - ١١٧ م)
PARTHIA
بلاد ما بين النهرين
انطاكيا
سوريا
CILICIA
Seleucia
قرطاجنة
صقلية
MELITE
قبرص
كريت
يهوذا
بترا
الصحراء العربية
موريتانيا (٤٢ م)
نوميديا (١٠٥ ق م)
Leptis
Alexandria
A.PETRAEA
برقة
ليبيا (٣١ ق م)
مصر
ARABIA
FELIX
الاتحاد الرومانى
فقدت عام ٢١٦
واستعيدت عام ٢٠٢ ق. م
اكتسبت عام ٢٣٩ ق.م
تم ضمها عام ١٤٩ ق م
حدود مزلعه
الحدود الدائمة الامبراطورية
لاتينى
اغريقى

الحرب. كان هناك القذافون من باليارى ورماة السهام من كريت والفرسان من نوميديا (الذين ورثوا الفروسية من هانيبال والحروب القرطاجية) ولكن عندما استحدث سكيبيو السيف الإسبانى اختفى هذا الاختلاف فى تسلح الجيش وصار كله مسلحا تسليحا واحدا واستقروا كمستعمرين فى الأراضى الجديدة، واستقروا - حسب رغباتهم - فى أراضى يفلحونها واتخذوا لأنفسهم زوجات من القبائل المتبررة أسوة بمليكهم هادريان. بعد استقرار الرومان كمستعمرين ابتدعوا طرقا جديدة للصرف واستخدموا وسائل مستحدثة للرى، مستعينين فى ذلك بمهندسين إيطاليين أو قرطاجيين. أخذت مختلف المحاصيل الجديدة والسلالات المستحدثة من الحيوانات من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى البلدان الشمالية لتكفل احتياجات القوات المسلحة الآتية من الجنوب. زرعت الكروم فى شمال بلاد الغال وفى وادى الراين، واستفادت بلادغربى البحر المتوسط من الفاكهة المستوردة من الشرق العتيق. انتقلت أشجار الزيتون من اليونان كما انتقلت أشجار الجوز والكرز من الأناضول. استفادت تلك البلدان من طرق الزراعة الحديثة (الزراعة بالعقل)، ومكنت هذه الطريقة من انتشار أصناف الفاكهة المحسنة من أشجار قليلة إلى مساحات واسعة تحوى أصنافا برية، وقد أمكن بتلك الوسيلة نشر الزراعة المتطورة إلى كافة أنحاء الإمبراطورية فى سنوات قليلة. نشر الرومان تلك المحاصيل الجديدة والحيوانات وطرق الزراعة المتطورة فى تلك البلاد بعد أن استقر فيها المستعمرون الجدد. أقام الجيش الرومانى مراكز عسكرية، سرعان ما تسرب إليها التجار كما تسربوا إلى العواصم القبلية. بدأ ثراة القوم فى إنشاء فيلاتهم فى الريف وبدأوا يستخدمون العمالة المحلية فى زراعة أراضيهم وفى التنمية الصناعية. استقر المحاربون القدماء على الأخص فى وادى الدانوب ووادى الراين، حيث مكنت نظم الصرف مع اقتلاع الغابات على جعل زراعة الأراضى ميسرة. كانت المجتمعات الجديدة التى سكنت فى تلك الأماكن من البشر المهجنين. كان بسطاء القوم يقطنون قرب الحدود وكانوا عادة ممن يعملون بالتجارة، ولكن بقى على القمة الإداريون الرومان الذين تزوجوا مع العائلات المحلية، خاصة من بنات رجال الدين. من سلالة هؤلاء نشأ أفراد أفذاذ سرعان ما انتقلوا إلى روما نفسها أو تم تعيينهم كحكام للولايات أو قادة للجيوش أو صاروا من كبار الكتاب، كالكتاب الذين أتوا من إسبانيا أو كالأباطرة من بلاد الغال، ربما كانت تجرى فى دماء هؤلاء جميعا مزيج من الدم القرطاجى أو الإغريقى. ويوضح الجدول رقم (١١) تعاقب الأباطرة على عرش الامبراطورية الرومانية وأهم الأحداث التى صاحبت حكم كل منهم.

جدول رقم (١١)

تعاقب الأباطرة الرومان وأهم الأحداث التى صاحبت حكمهم

أولاً: الأسرة اليوليبية الكلاودية:

إغتيال يوليوس قيصر	٤٤ ق.م.	
أوكتافيوس يعلن نفسه إمبراطوراً	٣٨ ق.م.	ابن أخت يوليوس قيصر وربيبه
أوكتافيوس يتخذ لنفسه اسم أغسطس	٢٧ ق.م. – ١٤ ق.م.	
تيبيريوس	١٤ ق.م. – ٣٧ ق.م.	ابن زوجة أغسطس
كاليجولا (أغتيل)	٣٧ – ٤١ م	
كلاوديوس (ماتا مسموماً)	٤١ – و٥٤ م	بدء المد المسيحى الأول
نيرون (إنتحر)	٥٤ – ٦٨ م	الإضطهاد المسيحى الأول

فوضى

ثانيا: الأسرة الفلاقية:

ڤيسپاسيان	٦٩ – ٧٩م	حرب اليهود الأولى
تيتوس	٧٩ – ٨١ م	بناء الكولوسيوم
دوميتيان (أغتيل)	٨١ – ٩٦ م	تعيين مجلس السينيت من الشرق والغرب

ثالثا: أباطرة من أصل إسبانى – غالى:

نيرفا	٩٦ – ٩٧ م	
تراجان (من أسرة رومانية إسبانية)	٩٧ – ١١٧ م	المد المسيحى الثانى
هارديان	١١٧ – ١٣٨ م	حرب اليهود الثانية
أنطونيوس بيوس (من أسرة رومانية غالية)	١٣٨ – ١٦١ م	
ماركوس أوريليوس	١٦١ – ١٨٠ م	الإضطهاد المسيحى الثالث – الطاعون
كومودوس (أغتيل)	١٨٠ – ١٩٣	

فوضى

رابعاً: الحكم العسكري:

سبتيمياس سيفيروس	١٩٣ – ٢١١ م	من أصل قرطاجي – الإضطهاد المسيحى الرابع فى إفريقيا وفى سوريا
كاراكلاّ (أغتيل)	٢١١ – ٢١٧ م	منح المواطن الشرقية للأحرار فى كافة الولايات ليزيد من الضرائب

فوضى

إلاجا بالوس (سورى)	٢١٨ – ٢٢٢ م	بداية المد المسيحى الثالث
ألكسندر سيفيروس	٢٢٢ – ٢٣٥ م	السماح بالكنائس وإتخاذ الأساقفة كناصحين
ماكسيميناس (من العوام)	٢٣٥ – ٢٣٨ م	الإضطهاد المسيحى الخامس

فوضى

ستة من الطغاة	٢٣٨ – ٢٤٩ م
بداية غزو الإمبراطورية – الغزو الألمانى	٢٣٥ – ٢٨٤ م

القوطيون يبدأون فى الاستقرار بالإمبراطورية – الشهداء القبارصة – الفوضى الشاملة وإنفصال بلاد الغال وسوريا – قبائل الفرانك الجرمانية تحتل بلاد الغال وتصل إلى إسبانيا – ثورة البربر – الطاعون – إقامة ٤٠ كنيسة فى روما وتعيين حكام من المسيحيين فى الولايات – تزايد الغزو الألمانى – الواندال (قبيلة جرمانية) يتسربون للداخل ويحتلون مزيداً من البلاد – القوطيون يزعجون اليونان والأناضول بغارات بحرية متكررة – إحاطة روما (ومدن أخرى) بالأسوار.

خامساً: إنقسام الإمبراطورية:

إلى الإمبراطورية الرومانية الغربية والإمبراطورية الرومانية الشرقية	٢٨٤ – ٣٠٤ م	
الإضطهاد المسيحى الأخير. فى الغــرب	٣٠٤ – ٣٠٥ م	
وفى الشرق	٣٠٣ – ٣١١ م	
الحروب الأهلية	٣٠٦ – ٣٢٤ م	
قنسطنطين الأكبر	٣٠٦ – ٣٢٤ م	إعتنق المسيحية (٣١٣ – ٣٢٧ م)
	٣٢٧ م	أنشأ القسطنطينية (٣٢٧ – ٣٣٠ م)
قتل ولداه اللذان توليا بعده قنسطنطينوس ثم قنسطنطين		
جوليان الرسول	٣٦١ – ٣٦٣ م	

خلال هذه الأحداث والتغيرات السياسية، حدثت تحولات عميقة فى المجتمع الرومانى. لم يعد أعضاء السينيت من الإيطاليين فحسب، وبدأ الأجانب (خاصة من إسبانيا ومن بلاد الغال) يدخلون السينيت مع تعاظم ثروتهم وزيادة نفوذهم: كان من دخل إلى السينيت هم أبناء الزيجات المختلطة بين رومان وأفراد محليين (كما حدث فى الأباطرة الذين تولوا عرش روما). ثم بدأ يدخل المجلس سناتورز من أفريقيا وآسيا، ذوى أصول محلية تماما أو من نتاج تفرق الرومان إلى تلك الأماكن وتوطينهم فيها. ثانى هذه التغيرات الاجتماعية هو رفع مزيد من العبيد إلى مرتبة الأحرار، وهؤلاء هم أساس من عملوا بالتجارة وفى شتى الحرف. أتى معظم هؤلاء الرقيق من البلاد التى تتحدث بالإغريقية: أتوا من الشرق، من بابل ومن بلادالفرس ومن فينيقيا وكان بينهم عدد من اليهود. حمل كل هؤلاء مهارات الشرق القديم وكانوا يصلون إلى روما مرورا بالأسكندرية. أدخل هؤلاء الصناع المهرة صناعة نفخ الزجاج من صيدا إلى كامبانيا، وفيما بعد إلى بلاد الغال، كما أدخلوا صناعة غزل الصوف ونسجه إلى لومبارديا (ومنها انتقل إلى فلاندرز، وبعد عشرين جيلا نشأ من هؤلاء البشر جنس جديد جنس الفلمنك). تحول قسم آخر، منتقى، إلى الزراعة،فى إيطاليا وغيرها من البلدان.بدلا من تعريض العبيد الأسرى إلى الأخصاء، مع توقف حروب التوسع وشح عدد العبيد المأسورين، استفاد الرومان منهم كقوة عاملة، وقد أثرى هؤلاء الأجناس البشرية المتواجدة بعد اتاحة الفرصة أمامهم للتناسل. عمل معظم هؤلاء فى فلاحة الأرض والعناية بها وتحول أغلبهم فيما بعد إلى ملاك للأراضى الزراعية. كانت أربعة أخماس أراضي الإمبراطورية الرومانية أراضي زراعية، وظل من يعمل بالزراعة ملتصقا بأرضه، واستمر من انتقل إلى مكان آخر، يعمل أيضا بالزراعة. كانت المدن تكون خمس مساحة الإمبراطورية، وكان لانتقال بعض السكان من مدن الشرق إلى مدن الغرب أثر عميق فى تغيير بنية تلك المدن وطبيعتها وتبديل خصائصها لحد أصاب الرومان الأصليين بالذعر.وبنى هؤلاء السكان الجدد الآتون من الشرق، فى مبدأ الأمر المدن الإغريقية والإتروسكانية فى الأراضى الإيطالية. جلبوا معهم ثقافة عريقة (تقدمت الآن ٧٠٠ سنة إضافية) لم يعودوا ينتمون إلى الطبقة العسكرية بل صاروا من التجار، والمهنيين وذوى الثقافة والعلم. فقدوا قدرتهم على الحرب (ليس على شن الغارات على أعدائهم فحسب، بل حتى للدفاع عن أنفسهم). جاءوا بأعداد كبيرة جالبين معهم طقوسهم الدينية، ذوات الأصول المختلفة (الإغريقية، والمصرية، والفارسية واليهودية)، الديانات ذات الأصول الغيبية، كما جلبوا معهم ثقافاتهم الراقية. تكرر فى الإمبراطورية الرومانية، نفس ما حدث فى اليونان منذ ٧٠٠ سنة ومنذ ١٧٠٠ سنة (فى شكله لافى نوعيته)، وتغيرت طبيعة الإمبراطورية وقدرها. تبدلت الخاصية الحربية للأقوام – خاصة فى إيطاليا – كما تحولت النظرية الاجتماعية. هذا بلد فى منتصف البحر الأبيض المتوسط، هزم جميع البلدان

المحيطة به، وتوفق أهلها فى كل تلك البلدان. ولكنه تحول إلى بلد استعمرته حضارات البحر المتوسط وثقافاته واستقر فيه شعب لا يريد مزيدا من الانتصارات الحربية والفتوحات العسكرية، وتبدل - بفضل المهاجرين إليه - إلى بلد أشد تعلقا بالحضارة وساعيا لنشرها فى كافة البلدان. هذا البلد، الذى يقع فى مركز الإمبرطورية، حولته الهجره المنتقاة وخلقت فيه الثقافات المكتسبة، إلى مجتمع مقسم إلى طبقات اجتماعية متوازنة، ذى أصول عرقية متباينة. صارت كل منطقة مستقلة بنفسها اقتصاديا وتستطيع كفاية نفسها بنفسها، فقلت هجرة السكان وتقصلت حركتهم وانتقالهم من مكان لآخر. وهكذا تحولت الجمهورية المحاربة الصارمة، التى كانت مصدر العدوان على جيرانها إلى أغنى تلك البلاد وأوفرها ثراء وأكثرها تعرضا للغزو فى العالم الغربى.

تحولت الإمبراطورية العظمى إلى بوتقة كبرى، ضمت أناسا من أصول عرقية مختلفة ومن أماكن جغرافية متباينة على نطاق لم يحدث قط من قبل فى التاريخ. ولكن امتزاج بالناس كان دائما منتقى، فى اتجاه حركة البشر، فى تخير الأعمال، فى اختيار الزيجات، وفى بقاء الذرية على قيد الحياة. استمرت كل هذه التغيرات وأحدثت آثارا بعيدة. تغير البنيان الاقتصادى للإمبراطورية وصار كل إقليم مكتفيا ذاتيا بمنتجاته، وقل التبادل التجارى بين الأقاليم، ومن بينها تجارة الرقيق وازداد الاستيلاد المحلى،ونتج عن ذلك - بعد مرور عشرة أجيال - ظهور صفات مختلفة مميزة للبشر فى كل إقليم (أو بالأحرى عادت تلك الصفات للظهور). بتطور المدن، حدثت أزمة جديدة. زادت الفروق العنصرية والعقائدية والسلوكية بين سكان الريف وسكان الحضر، ونشأ عن هذه الاختلافات مشاكل سياسية. سادت الأفكار المتقدمة بين سكان المدن، خاصة الأفكار الإغريقية العقلانية (وساهم فى تلك الأفكار ما جاء به الإتروسكان والفينيقيون والإغريق)، خاصة فى تلك المدن - التى عاشت الفئات المختلفة والطبقات المختلفة التى يتكون منها المجتمع - فى تعاون وثيق، الجنود والإداريون والتجار والصناع. أما باقى الإمبراطورية فكانت تتطور نحونظام اجتماعى جديد، نظام الإقطاع، الذى يتكون من أبعاديات شاسعة بدون أى تعامل تجارى ولا حياة ثقافية ولا أفكار عقلانية، مع الأمية المطبقة فى صفوف سكان الأبعادية. كان سكان الريف مستقرين فى الأراضى ولايغادرونها إلى المدن، مما أبقى على الفروق بين المجتمع الريفى ومجتمع الحضر. كانت هناك فروق كبيرة فى الثقافة وفى اللغة، أكدها اختلاف الدين واختلاف العقيدة. وصلت هذه الاختلافات إلى ذروتها فى أزمان الفوضى فى القرن الثالث الميلادى، فى العصر الذى نهبت فيه المدن الكبرى فى أوتون وفى ليون وفى أنطاكيا وفى الإسكندرية وفى بيزنطة، بواسطة جيوش من الفلاحين المتمردين. ساعد على تثبيت تقسيم الإمبراطورية إلى وحدات شبه مستقلة منح الجنود القدماء أراضى يملكونها فى المناطق التى كانوا يعسكرون فيها ويدافعون عنها أثناء خدمتهم العسكرية، منذ عهد سفيروس. صارامتلاك الأراضى

يورث بعد وفاة الأب لأبنائه، مع توريث شرط القيام بالخدمة العسكرية للوريث (وهذاهو باكورة النظام الاقطاعى) وهكذا تطورت الإمبراطورية، التى بدأت كنظام إقطاعى، ثم صارت إمبراطورية مترامية الأطراف، وانتهت إلى نظام إقطاعى آخر، فرقها بعد توحد. تفرق العالم إلى الدول التى كانت موجودة قبل أن يوحده قورش العظيم ثم الإسكندر الأكبر من بعده. أولى الولايات المتحدة التى انفصلت واستعادت كيانها القديم كانت مصر بإحياء اللغة القبطية. فى الغرب بدأت لهجات مختلفة منشقة من اللغة اللاتينية فى الانبعاث، فنشأت اللغات الإيطالية والفرنسية والإسبانية، وأكدت الاختلافات المحلية بين المناطق والانشقاق الحادث بين مختلف المجتمعات فى الإمبراطورية. وهكذا عملت عوامل جينية واقتصادية وإدارية مختلفة على انقسام الإمبراطورية العظمى وتفرقها إلى دويلات متناثرة.بعد خمسة قرون من الزمان انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى نصفين، انفصلا عن بعضهما البعض. وبعد ذلك تناثرت الإمبراطورية الرومانية الغربية إلى شظايا متباعدة، واستمرت الإمبراطورية الرومانية الشرقية متماكسة إلى حين. ظلت الإمبراطورية الغربية تستخدم اللغة اللاتينية (بلهجاتها المختلفة)، بينما تمسكت الإمبراطورية الشرقية باللغة الإغريقية. إلى أن انفصلت عنها جزيئاتها، الواحدة بعد الأخرى، تعبيرا عن الفروق العرقية لأمم كان اندماجها وقتيا خلال الثلاثة آلاف سنة السابقة.

الباب السادس

المسيحية - الاسلام - الهندوسية

أولا: المسيحية

لم ينمو الدين ويزداد نشاطه فى القرون الثلاثة الأولى بعد ميلاد المسيح ولكن بدأ قادة هذا الدين الجديد فى الاهتمام بأموره عندما بدأت الدولة الرومانية فى التفسخ، وعندما أحسوا بضرورة أن يكون لهم باع فى وراثة الإمبراطورية الرومانية، وعندما بدأت القوى المختلفة فى محاولة تغيير المجتمع. لكى نستطع فهم هذا النشاط المتأخر للمسيحين فلنرجع إلى الوراء ونرى كيف نبعت أصول المسيحية بين اليهود فى فلسطين وكيف تحركت تلك الأقوام، وكيف انتقلت الأفكار والمعتقدات والطقوس غربا إلى أوروبا وإلى الجنوب الغربى فى أفريقيا.

كانت هناك فورة ونشاط مشددين بين اليهود فى القرون التى سبقت ظهور المسيحية فى العالم. كان هجوم الملكيات الهلنستية المتداعية وادعاءاتها الدينية، وتسلطها على الأقوام بدعوى الدين سببا فى ثورة المكابى. كانت ولاية يهودية قد أنشأت وبعد تداعيها وضعها الرومان تحت إدارة هيرود العظيم وفى نفس الوقت كانت الديانة اليهودية قد توسعت وانتشرت جموع اليهود - الذين بلغوا فى ذلك الوقت أربعة ملايين نسمة - فى ربوع القارات الثلاثة بين الوثنيين وصاروا مصدر إزعاج للسلطات . يرجع هذا التوسع جزئيا إلى صفات اليهود وممارستهم: تماسكهم الدينى والعرقى، نظافتهم، إخلاصهم وتفانيهم فى الأسرة، طاعتهم لربهم واتباعهم لتعاليم التوراة، ونص القانون وروحه، وتمسكهم بالكتاب، وشدة تعصبهم لما يؤمنون به. أضافت كل تلك الخصال والعادات لهم - ما كان مأمولا - أن تجعل منهم جنسا فريدا في نوعه ونجاحا كبيرا . كذلك نجح اليهود فى تحويل الناس لاعتناق دينهم كما وفقوا فى ضم الأراضى بالفتح. فقد انتصر الأمير المكابى هيركانوس الأول (١٣٤ - ١٠٤ ق.م.) وفتح ساماريا فى الشمال وأيدوم فى الجنوب (وكان يتم ختان من ينتصر عليهم فى الحرب). وكان لتعدد الزوجية الفضل فى تحسين النسل وفى استيعاب الجماهير المقهورة، وبهذا تكاثر عدد اليهود وتوسعت الديانة. كلما انتشر اليهودى فى الأرض كلما زادت الهجن، كما يتضح من تتبع الأسر المالكة. اندفع المكابيون فى العالم الهيلينستى كيهود متعصبين وأصوليين (مثل ماتياس ويهوذا وسيمون)، ولكنهم بعد جيلين فقط من المزاوجة بين الأباعد صار أبناؤهم يدعون

هيركانوس وأريسطيولوس، رجالا أبعد ما يكنون عن تعصب أجدادهم العبريين. كان هيرود العظيم - كبيرهم نصف عربى (من عرب الأنباط) ونصف أيدومى. وكما يحدث لدى كل مغتصبى العروش تزوج من الوريثة الأخيرة من أسرة الهازمونيين، ورفع ثم حطم الفقسة الأخيرة التى انهت الملكية فى إسرائيل. فى ذلك الزمان المتقلب وصل اختلاف الخواص إلى ذروته بين الناس وكذلك بين حكامهم، وصاحبه اختلاف المعتقدات - كما لم يحدث قط فى التاريخ اليهودى. كان اختلافا عبر عن نفسه بفيضان غزير من الأفكار الدينية والاجتماعية والسياسية. بعض هذه الأفكار كان ضحلا ومثيرا للجنون، وبعضه كان عميقا وخلاقا. صارت ممارسات اليهود - بعد عودتهم من سنوات الأسر - تشجع على تدفق الأفكار وتدعمها. بدلا من شعيرة التضحية التى يجريها رجال الدين صارت تقرأ قطع من الكتاب المقدس فى المعبد اليهودى (أو فى أماكن اللقاء). أصبحت العادة أن يفكر الناس لأنفسهم، فى بلد منفتح على حرية التفكير وتلقى أفكار الحضارات وآرائها، يحيط بهم أفراد ينتمون إلى تلك الحضارات الراقية خاصة الحضارة الهيلينستية، التى جمعت ثمرات الحضارات الإغريقية والمصرية والآشورية والفينيقية والبابلية، بالإضافة إلى حضارة الفرس - لم يكن العسكريون ورجال الحرب هم الذين يحيطون باليهود - أولئك الرجال الذين بنوا الإمبراطوريات القديمة - بل كان يحيط بهم المهنيون والمثقفون ورجال الإدارة، الذين صاوا أثرياء، وكونوا مجتمعات حضارية تحت السطح البراق للدول الحديثة. تفهمنا جيدا - مما حدث فى الماضى البعيد والماضى القريب - كيف يتم رفض رجال الدين وسيطرتهم على المجتمع عندما يبدأ أناس مختلفى الخواص فى التفكير لأنفسهم. يحدث بعد ذلك انشقاق الطوائف، ليصير بعضها أشد بدائية وبعضها الآخر أكثر تقدما من الشعب الأصلى فى الممارسة المألوفة، تبدأ كل طائفة منشقة فى الدعوة لمبادئها وفى اكتساب المزيد من الناس حتى تصبح مكتفية ذتيا ولا تعتمد على أحد، وتحتد الخلافات بينها ويتصاعد الجدل. هكذا صار حال اليهود. نشأت طائفة الصدوقيين (التى أنكرت الحشر ووجود الملائكة وخلافه)، ممثلة للطبقات المستغلة من المجتمع ومرتبطة بالكاهن الأعظم وتدعى أنها من نسل زادوك. يقف على طرف النقيض من هؤلاء العزيزيون، طائفة المثقفين الأحرار، الذين يحاولون تبسيط القوانين اليهودية الجامدة، البدائية، الدموية، القاسية التى لاترحم، وتيسرها إلى قوانين إنسانية عملية يمكن تطبيقها بلا مشقة. بخلاف تلك الانقسامات بين سكان المدن، تفرق سكان الريف إلى فئات شديدة التحمس تطالب بحلول فورية وجذرية. ترجع جذور بعض هؤلاء إلي أصحاب التعاليم النقية والأفكار الطاهرة (فى سفر الملوك الثانى وفى جيرمياه). بعضهم الآخر مثل الأبيونيتين والناصرين دفعوا دفعا للمعركة بقوى الظلام للصراخ ليكون لهم رأى معارض، كما يحدث فى الحياة الآخرة من وجود الجنة والنار. آخرون كالمانيين (الذين مازالوا معنا حتى الآن)، صار لديهم

وسواس قهرى للنظافة الدائمة وسنوا سنة العماد للتطهر من كل الخطايا والأوزار. فى الخلفية كانت هناك الديانات الغامضة لأهالى الأناضول وآثار الزرادشتية الفارسية، أناس كانوا يعتقدون أن الإله سيموت ثم يبعث، وأن فى بعثه استعادة الحياة لكل الطبيعة فى الربيع من كل عام.

مرت خمسة قرون من العذاب والكرب على اليهود ومعلميهم بعد عودتهم إلى يهوذا، قرون كانوا فيها تحت سيطرة قوى أجنبية، وكان ما فيها من القمع والاضطهاد، قوى من الإغريق ثم من الرومان، من معالمها الصراعات بين الملوك والكهنة الذين كانوا ينتمون إلى جنسهم وعرقهم أو من الذين غيروا ديانتهم الأصلية واعتنقوا اليهودية مثل هيرود. لم يكن من المستغرب - تحت كل تلك الظروف والملابسات - أن تتسلل الأفكار البابلية والمعتقدات الفارسية وتترك انطباعات - ذات آثار عميقة - على كيان أولئك القوم المعذبين الحالمين. إزدهرت طوائف عدة تحت أمل تقديم مهرب من البؤس والحياة الضنكة إلى عالم يقطن فيه الذئب - حقيقة - مع الحَمَل. فى ذلك العصر ظهرت كتابات فى فلسطين وفى مصر، بالعبرية والآرامية والإغريقية، مما يمكن تسميتها بالرؤية النبوئية. أبرز تلك الكتابات تمتد إلى قرنين من الزمان قبل وإلى القرن التالى بعد ظهور المسيحية. هناك على سبيل المثال «كتاب إينوخ» (الذى كتب جزء منه فى إقليم الجليل الأعلى). تذكر تلك الكتابات أن «شخصا مكرسا»، «مسيحا» سوف ينقذ الجنس البشرى أو سوف ينقذ أولئك الذين - يستحقون الإنقاذ من بؤسهم الحاضر. أحيانا تكون المكافأة فى هذه الحياة مكافأة سريعة ومجزية (مثل مكافأة الرجل الصالح المستقيم بفرصة إنجاب ألف من الولدان قبل وفاته). أحيانا يكون الجزاء روحيا فى العالم الآخر، ذلك العالم الذى تقطنه الملائكة والشياطين (من المتعقدات الفارسية والذى ترك كهنة اليهود هذا المعتقد عند بسطاء العقول ليتفرغوا هم للتبشير بالإله الأوحد). فى هذه الكتابات نرى مفهوم السماوات السبع ورسل الإله الأربعة (ملائكة الطبقات العلى: ميخائيل وجبرائيل وعزرائيل وإسرافيل). فقدت هذه الأسماء كونها إشارات ذات مدلول معنوى لهداية الجنس البشرى منذ وقت طويل، وتوهم الناس أنها حقيقة واقعة واستغلها الشعراء فى نظم قصائدهم والرسامون فى رسم لوحاتهم والمثالون فى إبداع تماثيلهم وأشبع رجال الدين رغباتهم بالانغماس فى رواية القصص حولها. ابتعدت طائفة الأسينيين، المتزمتة، المتقشفة، عميقة التفكير عن كل تلك الأفكار، تلك الطائفة التى عرفنا عنها الكثير حديثا بعد الكشف عن برديات كوموان. استخلصت طائفة الأسينيين تعاليمها من النصوص اليهودية الأصلية غير المحرفة، واعتبروا أنفسهم الطائفة الوحيدة، المخلصة، المختارة من بين المختارين، التى اختصها الإله بحمل الديانة الجديدة كما جاء فى وعده على لسان جيرمياه. كان مقدرا لهم - إذا بلغوا حد الكمال - أن تكتب لهم النجاة فى الوقت المنتظر لأيام المسيح الأخيرة - ذلك الرسول المكرس من قبل الإله. فتح لهم الباب لإدخال الناس جميعا وهدايتهم - اليهود وغير

اليهود إلى الدين الجديد – وتعميدهم بالماء ثم اختبارهم بالقوانين شديدة الصرامة، مع عقاب المذنبين بالكفارة أو الطرد من ذلك الدين. كان المجتمع شاغلا نفسه دائما وأبدا بالصراع بين الخير والشر، وكانت تتحكم فيه طائفتان من اليهود. الطائفة الأولى هم الكهنة الذين لايأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم، أبناء «زادوك» (الحقيقيين أو المدعين)، وأعوانهم من اللاويين. تم اختيار رئيس من الكهنة، معلم الاستقامة، وهو الذي صاغ القوانين للمجتمع، والذى كان يدعو إلى الفضيلة والعمل الطيب بديلا عن التضحية بالحيوان (تبعا للمزمورين الخمسين والحادى والخمسين). هذا المعلم تم اضطهاده ونفيه بألاعيب بقية كبار الكهنة والملوك فى ذلك العصر. الطائفة الثانية كانت طائفة الأسينيين، ومنهم تلك التى عثر على بعض كتاباتها فى برديات كومران. من بين هؤلاء كانت هناك طائفة فضلت العزوبية والتبتل، ولكن الغالبية كانوا يتزاوجون ويتناسلون ويحملون أفكارا ثورية. أولى هذه الأفكار أنهم كانوا يدعون للاكتفاء بزوجة واحدة وامتناع الأعمام والأخوال عن الزواج من بنات أخواتهم. كان فى هذه التعليمات احتراما للنساء مما لم تكن تتبعه المحاربون من اليهود (بل كان مقتصرا على اليهود من الطبقات العليا)، كما لم يكن يتبعه مجتمعات الرعاة من الجنسين السامى الآرى. ثانى تلك التعليمات، فرض الأسينيون واجبات عليهم اتباعها نحو الفقراء والغرباء والخدم. ثالث هذه التعليمات كانت القوانين التى تزيد الرابطة بين المؤمنين كالتطهر من النجاسة والملك الشائع بين أفراد المجتمع وتناول الطعام معا ورفض تناول الطعام مع الأغراب (ومن ثَمَّ رفض الزواج منهم). ساعدهم على أتباع تلك التعليمات الحرص فى تقويمهم على بيان أيام الأعياد (مما كان يباعد بينهم وبين باقى طوائف اليهود وبقية البشر فى العالم). آمنوا بأن الكلمات التى يدعون بها ربهم أثناء الصلوات ويثنون بها عليه أكثر قربا من الله من الأضاحى وترجع إلى الاصحاح الثانى من سفر أشعياء (وتعبر عَن الفكر التقدمى لليهود وللإغريق سواء بسواء)، ولكنها كانت تعنى خروجا عما ينادى به الكهنة والعسكريون فى العالم القديم وكانت تعنى إحلال رموز أبسط وأيسر تطبيقا من الممارسات السابقة. أولاها كانت الاجتماعات المقدسة وتناول الطعام معا والاحتفالات الجماعية وما يتلى فيها من كلمات تزيد من وحدة المجتمع مع الله ومع بعضهم البعض، وثانيها الواجبات التى فرضت عليهم تجاه الفقراء منهم واعتبارها تقربا لله، تحولت إلى ممارسات تدفع لازدهار المجتمع وتزيد من قوته وعافيته.

وُجد جوهر المعتقدات المسيحية فى بدايتها فى عدد من الكتب تزعم أنها سجلت حياة منشىء المجتمع المسيحى. منشىء المسيحية كان معلما يهوديا يدعى عيسى ولقب بالمسيح (يسوع المسيح). تجرى الأحداث التى وردت فى الكتب حوالى سنة ٣٠ ب.م. بين اليهود الذين يتحدثون

بالآرامية فى يهوذا وفى الجليل. كتبت تلك الكتب أولا باللغة الإغريقية بعد ما يزيد عن أربعين عاما بعد حصار بيت المقدس وتدمير معبدها سنة ٧٠ بعد الميلاد. أشهر هذه الكتب أربعة سميت باسم كتب «الإنجيل» وتعنى «كلمات الرب»، تم انتقاؤها من عديد من الكتب التى كتبت فى هذا الموضوع (الكتب التى تتحدث عن حياة المسيح وموته وانبعاثه). وتم استبعاد الكتب الأبوكريفية الأربعة عشر التى لايعترف بها المسيحيون بحجة أنها كتابات مشكوك فى صحتها أو فى صحة نسبتها إلى من تعزى إليهم من المؤلفين. وهكذا تثور الريبة ويتسرب الشك إلى موضوعية الوثائق التى تكون أساس المسيحية. وتثار هذه التساؤلات:

هل كان هناك شخص أصيل يعرف بيسوع؟

وإذا كان موجودا حقيقة فهل تعكس الأناجيل تسجيلا حقيقيا وصادقا لنشاطاته؟

وإذا كان هذا صحيحا فهل تعليمه أصيل وفريد؟

هناك إجابات متعارضة لكل هذه الأسئلة وسوف يستمر هذا التعارض. يمكننا أن نفترض فى المقام الأول أن عيسى قد وجد فعلا وأنه عَلَمٌ وأنه توفى فى الزمان والمكان المذكور فى الأناجيل، زمن الملك هيرود وبيلاطس البونتى وقيافا كبير الكهنة اليهود، ولكن المعجزات المذكورة فى تلك القصص قد تكون من وضع من روى هذه القصص أو من كتبها، وقد يكون الدافع لها شدة حماس المعتنقين للمسيحية فى أيامها الأولى. قد تدفع تلك القصص الخارقة لإيمان جماهير الناس فى ذاك الزمان ولكنها قد تصد كثير من الناس عن تصديقها فى هذه الأيام، بعد نمو العلم واتساع المعرفة وانتشارها. ومنذ الأيام الأولى كتبت مختلف الأناجيل موجهة لإقناع طوائف مختلفة من الناس. فقد كتب مرقص - كاتب بطرس - قصة مبسطة لتجار روما البسطاء العمليين بأسلوب بسيط قليل الزخارف. وكتب لوقا للإغريق، وزين كتاباته بالشعر العبرى بلغة غير معهودة وراقية. أما يوحنا فقد كتب للأقوام من بعد، في العصر الهيلينستى فى إفسوس بلغة يكتنفها الغموض وتحكى عن غيبيات كثيرة. ولكنهم جميعا يذكرون معجزتى البرء والإطعام - الذين لايستغنى عنهما قوم أصابتهم الأمراض وخربتهم المجاعات. أما متى فقد كتب ليهود يهوذا العارفين، كتابا تاريخيا يحكى بالتفصيل تاريخ مسيح يهودى، مع البعث والصعود. كان النزول إلى الأرض عن طريق أب من بيت داوود، وتم الحمل لعذراء بدون واسطة من أب من البشر، (الحمل لأم عذراء هى خاصية مميزة لكل بطل من أبطال التاريخ السابقين، فقد نسبت للإسكندر الأكبر من قبل، كما نسبت ليسوع). بالإضافة لتلك القرائن التى تشير إلى التلفيق، فإن تعليم يسوع لم يكن أصيلا ولا جديدا أو مبكرا. وهكذا يتضح أن المسيحية كانت ذات بداية سيئة السمعة، لما تحويه من زيف بجانب الحقيقة. بالرغم هذا

فان المبادئ الأخلاقية والأصول الاجتماعية التى حواها التعليم المسيحى كانت مصدر القوة فيه ودافعا للوحدة والشجاعة فى تناول الأمور، وهى التى دعت الحواريون والرسل لنشر الدعوة ولتعليم أولى الألباب. وهكذا يظهر أنه بالرغم من أن العناصر الأولية والمتفرقة لتلك الدعوة لم يكن بها جديد إلا أن الكل كان شيئا جديدا على الناس. جمعت الدعوة الجديدة جميع الآراء المتحررة لمختلف طوائف اليهود فى ذلك العهد فى اطار عملى وكتبت بلغة شاعرية، وجمعت جميع مصادر القوة فى النبوءة اليهودية. لم تكن تاريخا فى البداية ولكنها - بعد الإيمان بها - صارت تاريخا فى النهاية. وقد زاد من تماسك الناس الحالة الدراماتيكية التى صاحبت محاكمة يسوع ثم صلبه، ورأى منها الناس تحقيق نبوءات أشعياه وجيرمياه وأدت إلى عقيدة الكفارة المسيحية عن خطايا البشر. أرضت هذه القصة أولئك الذين قرأوا وصدقوا وآمنوا بتلك الكتابات التى تبشر أن موتا واحدا سيكفر - لأبد الدهر - عن خطايا كل العصاة، وهكذا ألحقت تلك الكتابات بالعقيدة المسيحية، وتم نشرها على اتساع الإمبراطورية الرومانية، من روما إلى بلاد الإغريق فى ترجمة التوراة السبعوينة (وهى ترجمة يونانية للعهد القديم قام بها ٧٢ عالما يهوديا فى ٧٢ يوما). ربما ظن مؤسس المسيحية أن نهاية العالم قد قاربت وأن يوم الحساب قريب، ولكن بولس الرسول تصرف على أن لديه متسع من الوقت لهداية اليهود وجميع البشر فى العالم لهذا الدين الجديد. كان أول من رأى أن المسيح لم يبعث لليهود خاصة، بل للعالم أجمع. وقد وجدها بولس، فرصة سانحة لتعليم غير اليهود، تعاليم عيسى وكذلك كُتب اليهود كلها، وهذا ما كان يسعى لعمله ملوك اليهود الأقدمين فى نطاق اللغة الآرامية فى الأراضى المحدودة التى كان أهلها يتحدثون بتلك اللغة. ولكن بولس كان يهوديا، يتحدث بالإغريقية وقد تسلح بترجمة التوراة السبعونية وبتعليم عيسى، وقد آمنه السلام المخيم على الإمبراطورية الرومانية فرأى إمكانية توحيد العالم كله فى عقيدة واحدة. بإسقاط حذلقة القانون والتخلى عنها، وبتبنى عقيدة الافتداء بواسطة المُخَلِّص، استطاع بولس أن يحول الدين من الدفاع إلى الهجوم. أمكنه توحيد أفكار الإغريق واليهود والفرس، وعبر الفجوة بين الأنبياء والرواقيين وقاد الناس جميعا إلى قبول معتقد واحد. وقد كانت هذه نظرة رؤيوية.

طالما بقيت المدينة اليهودية، بقى الأساقفة المسيحيون يعرفون باليهود فقد كانوا أساقفة تم ختانهم وتم تعميدهم، ولكن بعد الانشقاق الذى أحدثه بولس، انقسم مجتمع اليهود إلى شقين فى جميع أنحاء العالم الرومانى. حتى فى عهد الإمبراطور كلاوديوس - ذلك العهد المبكر - أحدث الشقاق فتنة فى روما بين الجماهير. سرعان ما انقسم الناس فى كل مدينة إلى شقين ينكرون إخلاصهم لليهود، طائفتين يتنافسان ويزداد عدد كل منهما، تتحولان بالهداية أو الدعاية. سرعان ما أدركت الطائفتان أن تنافسهما سوف يؤثر على الجانب المسيحى. كان المسيحيون قوما اتصفوا

بالمرونة، لأن تعاليمهم لم تكن قد استقرت بعد ولم تكن قد كتبت فى هذا العهد، ولأنهم كانوا أناسا ذوى أصول أكثر اختلاطا، يندمج فيهم تباعا غير اليهود من ذوى الأصول المختلفة والعروق المتباينة. كان يتم تحويل غير اليهود للعقيدة الجديدة بمجرد تعميدهم، مما لا يقبله اليهود المتزمتون، الذين كانوا يصرون على ختان الشخص اليهودى وعلى الامتناع عن أصناف محددة من الطعام، وهذا جعل التنافس فى غير مصلحة اليهود. وقد زاد مرور الزمن من هذا التباين. ففى ذلك المجتمع الهيلينستى الذى ضم جميع الجنسيات - سوى اليهود - سنحت الفرصة أخيرا بضم اليهود تحت مسمى المهتدين إلى المسيحية من بين صفوف اليهود. بعد هذا الثراء الجينى الذى اكتسبه المسيحيون بدأ يظهر القادة العقلانيون فى المسيحية - فى نفس الوقت الذى استمر فيه اليهود فى التنافس أمام هذا التحدى المسيحى الجديد. وقد استمر يهود الأناضول فى استقطاب كبار العقلانيين من العالم الهيلنستى إلى صفوفهم. كما كان النزاع بين اليهود صراعا طويلا يعكس روح الشعب اليهودى فى تقسيم الكتابات، كذلك استمر الصراع طويلا بين المسيحيين حول قصة مريم العذراء وولادتها للمسيح التى وضعها متى فى إنجيله ليؤكد نبوءة أشعياه. بعد دراسات عميقة، تمت فيها مقارنة النصوص وموازنتها، تخير كل من المسيحيين واليهود القراءة التى تناسبه والتفسير الذى يهواه ورفض كل ما عداه. وهكذا تباعدت العقيدتان فى القرون الثلاثة الأولى للمسيحية على تلك النقاط اللازمة لإثبات اختلافهما المذهبى.

كانت الخطوات المذهبية التى اتبعها معلمو المسيحية فى تلك السنوات الأولى من التنافس، لها أكثر الأثر على مستقبل المسيحين واليهود على السواء. كانت هناك قضايا عدة محل خلاف أهما مسألة النظافة والزواج والتكاثر، تلك النقاط التى تتعلق بالحفاظ على حياة الإنسان، وكلها مسائل حيوية لضبط أعداد وصفات ونوعيات السكان. كانت آراء المسيحين تعتبر تخلفا عما يراه السكان المتمدنون، سواء من الوثنيين أو اليهود. عندما وفد جيروم إلى روما كمهاجر ألورى وجد مدينة بها ٩٠٠ حمام عمومى، ولكنه فضل أن يتم تبديل تلك الأمكنة - التى تدنس الفضيلة - إلى أماكن مقدسة بهدف التعميد «فالرجل الذي يغتسل بالمسيح لايحتاج للاغتسال مرة ثانية». استمر رفض المسيحية للاغتسال وتقبلها للقذارة حتى يومنا الحاضر. كان أثر تلك العادات انتشار أوبئة كالطاعون المميت فى المدن المسيحية جيلا بعد جيل. بدأت تلك الأوبئة بصورة بسيطة فى روما أيام ماركوس أوريليوس ولكنها عمت القسطنطينية فى عهد جوستينيان، واستمر وباء يعقب وباءا فى أوروبا حتى نهاية القرن التاسع عشر. كان الوباء يكتسح المسيحيين - دون اليهود - فى المدن الأوروبية، كما ابتعد لحد كبير عن المدن غير المسيحية - مثل المدن الإسلامية. كانت الآثار بعيدة الأثر. فحتى عصر قريب كانت مبادىء الصحة العامة من طقوس الديانات وكانت معارضة المسيحية للعرى

والنظافة إحدى التعليمات الأساسية للكنيسة. النظافة من أساسيات الصحة العامة فى البلدان الحارة ذات الكثافة السكانية العالية. ولعل هذا ما يفسر لماذا قل انتشار المسيحية فى تلك البلدان التى انتشرت فيها بقية الأديان. ثانى نقاط الخلاف كانت فى مسألة الزواج كنظام اجتماعى. عندما بدأت الكنيسة فى الاهتمام بالزواج فعلت ذلك بفرض السيطرة على المجتمع وفرض القيود عليه. جعل الزواج شيئا مقدسا، وطقسا يضبطه القساوسة، وبدأت الكنيسةفى وضع قوانينها التى تحد من إباحته وتنظم احتفالاته وتحدد أهدافه الاجتماعية والتزاماته وتضع الشروط لبطلانه. وجد الأساقفة أن العهد القديم كان مرشدا مفصلا لهم عن العهد الجديد إلا فى نقطتين حيويتين، فقد استرشدوا بتعاليم العهد الجديد. فقد توسعوا فى القيود المفروضة على الاستيلاد الداخلى وضيقوا إلى حد بعيد احتمالات تعدد الزوجات. حبذت الكنيسة كلتا النقطتين لأنهما زادتا من سيطرة الكنيسة على التدخل فى المسائل الشخصية لأفراد المجتمع. كان لتلك المسألتين أثر بالغ على المجتمعات المسيحية، فقد تم ضبط وتوجيه التناسل فى المجتمع والسيطرة عليه، ضبطا لم يتبعه الوثنيون (أو الديانات الأخرى) بل يسرته مما أثمر تكاثرا غير محدود لباقى المجتمعات وأدى إلى زيادة أعدادهم زيادة كبيرة عن المسيحيين، وهكذا جنوا ثمرة ما فرضته الكنيسة لتزداد قوة وسيطرة على المجتمع. النقطة الثالثة هى فى التكاثر. انقسم آباء المسيحية الأولون وتفرق أتباعهم عن كيفية التوافق بين مطلبى العفة وحاجة الإنسان إلى الحب. انتصرت الكنيسة فى قرارها بأن يكون هدف الزواج هو الإنجاب، وزيادة عدد المسيحيين فى العالم (وعندما رفض العلامة أوريجين السكندرى هذا المبدأ وأخصى نفسه حوالى سنة ٢٠٥ طردته الكنيسة ولم يُرفع لدرجة القديسين) ولهذا رفضت الكنيسة السماح بأى علاقة جنسية خارج الزواج الموثق والمعترف به، تبعا للقوانين التى وضعتها الكنيسة.

امتد اهتمام الكنيسة بكافة وسائل الإنسال، بعد سيطرته على موضوع الزواج وكان اهتماما نابعا من المبدأ أن تكاثر المؤمنين ضرورة لامتداد العقيدة وانتشارها، وهو نفس مبدأ واضعى القوانين من اليهود. إذا كان التكاثر من أسس الكنيسة فإن الاقتصار على زوجة واحدة هو المسموح به فحسب. هذا المبدأ يتعارض من أساسه مع التقاليد اليهودية، التى مارستها على اتساع لملء أوروبا باليهود، التى كانت تمارس الاقتصار على زوجة واحدة. لم يطع ملوك أوروبا المعتنقين حديثا للمسيحية – مثل شارلمان – تلك التعليمات، ولكنهم فرضوها على شعوبهم، من الناحية الاجتماعية حافظت تلك التعليمات على ثبات تركيب الطبقات الحاكمة التى حافظت على نقائها الجينى وعدم تلويثة بدم الجماهير. وهكذا حدث اختلاف بين النسل الشرعى (النظيف) وبين الذرية غير الشرعية التى تأتى من اختلاط أفراد الطبقة الحاكمة بعامة الشعب، مما أدى إلى ظهور عيوب وراثية فى الأسرات المالكة، لم تظهر فى الأبناء غير الشرعيين. أعاد تقليد الاقتصار على زوجة واحدة فى

العالم المسيحى ما كان متبعا فى الجمهورية الرومانية قبل تكوين الإمبراطورية، ولكنه حمل تكريما للنساء، كما كان متبعا فى الحضارات القديمة (لدى ملوك طيبة وحكام كنوسس قبل ظهور عصر الحديد الذى أتى به الإريان المحاربون والرعاة الساميون فى الألف سنة الأولى قبل الميلاد). وهكذا ارتفع شأن الأقوام المهزومة وأعيدت التقاليد العتيقة التى كانوا يتبعونها بعد نمو المسيحية وعلى عزوبة رجال الكنيسة وعلى عادات اليهود الأوروبيين، مثل الأسينيين. كان المسيحيون الأوائل ممزقين بين المزايا قصيرة الأمد للعفة وبين الفوائد التى يجنونها من كثرة النسل على الأمد البعيد، ومثل الأسينيين أيضا اضطروا للتسليم بالشق الذى حدث فى المجتمع بين أولئك الذين يرغبون فى كثرة النسل وهؤلاء الذين يدعون إلى الحد من التكاثر. بدأ الناس يذركون قيمة الرهبنة. وقد نشأت هذه العقيدة بعد تحطيم نظام الطبقات فى الهند على يد أسوكا الذى دفع العقيدة البوذية دفعا للأمام. يقال أنه أرسل البعثات إلى مصر لتتعلم الرهبنة فى عهد البطالمة (وقد انتقلت تعاليمهم وممارساتهم فيما بعد إلى المسيحيين والمسلمين). ليس للرهينة أى ذكر فى الكتابات اليهودية (وليس هناك داع لوجودها)، فالدافع للرهبنة ينشأ عندما تكون هناك جسور للطبقات فى المجتمعات الطبقية ويحدث كثير من التوالد بين الأغراب، ولكن يتبقى عدد من أفراد المجتمع – أقل من العشر – من الرجال ومن النساء لايتزوجون أو لا يستطيعون الإنجاب. بينما تظل الغالبية العظمى من أفراد المجتمع قادرة على الإنجاب، تظل أقلية من المجتمعات المسيحية – من الداخلين حديثا فى تلك المجتمعات – مبعدة عن التزاوج، وتُكوِّن بهذا تدفقا مستمرا من البشر الذين يتجهون للتبتل والعزوبية ويصيرون صالحين للرهبنة. وهكذا توحد حياة الرهبنة بينهم وتحميهم وتصونهم وتجعل لحياتهم معنى ويصير لهم نفع وفائدة للمجتمع، بينما يحمى الزواج باقى أفراد المجتمع الذى يودون الإنجاب. وبهذا تصير مريم العذراء – التى اجتمعت فيها العفة مع الإنجاب – مثلا ظاهرا يعبده المجتمع. حرمت المجتمعات المسيحية منذ نشأتها عن إتيان المحارم وابتعدت عن زواج ذى القربى، باستبعاد الأقربين من المسموح لهم بالتزواج، وأدى إلى حرمان البعض من الزواج وبالتالى إلى تشجيع الرهبنة. تكونت أديار الرهبنة تحت حكم بندكت فى أواخر أيام الإمبراطورية الرومانية، وصار كل دير مستكفيا بنفسه اقتصاديا وفكريا، وصارت هذه الأديار الوسيلة التى حفظت بذور حضارات البحر المتوسط القديمة إلى جميع العالم المسيحى – من أيرلندة إلى إثيوبيا. خارج نطاق المحرمات اتبع المسيحيون – بحماسة شديدة – نظام الزواج الأزلى القاضى بأن الرجال والنساء خلقوا للتزواج وأن هدف الزواج هو إنجاب الأطفال. وتعلم المسيحيون أيضا أن كل روح جديدة مقدسة لأنها وهبت – بالتعميد – إلى يسوع. تحت هذا الشعار جاءت سلسلة طويلة من المحرمات: الجماع الناقص – بالقذف خارجا – ممنوع، اللواط ممنوع، غشيان المحارم ممنوع، الإخصاء ممنوع (ولو الإخصاء

الذاتى)، الإجهاض ممنوع، قتل الأطفال ممنوع، الانتحار ممنوع، قتل الآخرين ممنوع، التخلى عن الأطفال بتركهم فى العراء ممنوع. بالإضافة إلى هذا تعدد الزوجات ممنوع. لهذا، لم يكن أمام المسيحيين سوى أن يتكاثروا بطريقة شرعية، وحرمت عليهم جميع الوسائل التى كانت تتبعها المجتمعات الوثنية لضبط النسل، الوسائل التقليدية (وكذلك الوسائل المستحدثة). بهذه الطرائق استمر اليهود والمسيحيون فى التكاثر (بينما قل تكاثر المجتمعات الوثنية المجاورة لهم) وزالت تلك المجتمعات التى كانت تمارس الشذوذ الجنسى (بالانقراض). وهكذا انتصر المسيحيون نهائيا فى مدن الدولة الرومانية الشرقية وعمروا تلك الإمبراطورية – لو أنهم كانوا أقل نظافة من سكانها الأصليين، وأكثر تعرضا لأوبئة الطاعون. هكذا صار العالم أكثر إزدحاما بالناس مما كان عليه العالم (فى الغرب) على مدى التاريخ.

انتشرت الحمية المسيحية غربا بين الطبقات المهنية فى العالم الرومانى، وتحركت شعوب الشرق القديمة أيضا إلى الغرب، وأدى هذا إلى تعديل آراء الشعوب الوثنية، وإلى تهذيب أخلاقيتها، وإلى ارتفاعها إلى مرتبة العقلانية. كان تحرير عقول تلك الشعوب مصاحبا لدخول المسيحية بالرغم من أن محررى العقول كانوا معارضين للمسيحية (وللديانات كلها). كان هؤلاء هم الفلاسفة الوثنيون الذين انعكست أفكارهم المتغيرة فى القوانين التى سنها الأباطرة الوثنيون. استمرت حركة التحرر هذه والعقلانية منذ عهد أرسطو والإسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد حتى عهد قنسطنطين وأوجستين فى القرن الرابع بعد الميلاد. كان أبرز علامات تلك النظرة الإنسانية هو ميناندر الإغريقى ثم تيرنس القرطاجى إلى سيسرو الرومانى وأتباعه من الرواقيين، ثم تسربت إلى المسيحية فى مختلف البلاد من أصولها اليهودية. كُتِمَ التعبير عن تلك الأفكار فى عصور التوسع الرومانى والإمتداد لإنشاء الإمبراطورية الرومانية، حيث لم يسمح بدخول تلك الأفكار الإنسانية فى القوانين الرومانية أو فى أخلاقيات المجتمع، حين كان الرومان يذبحون أنفسهم فى المعارك ويقتلون أبطال أعدائهم، كما لم يكن ممكنا تطبيق هذه الأفكار الإنسانية فى عهد سينيكا الذى مورس فيه «تنقية المجتمع من الضعفاء وفصل الصالحين عن القذرين». جاءت هذه الأفكار الفلسفية من الشرق كما جاءت المبادىء التحررية منه، خاصة من قبرص، التى كانت مكان التقاء الإغريق واليهود. جاءت من تعليم زينو الذى أفتى بأن «كل بنى البشر متساوون وأن الفضيلة وحدها هى التى تميز الفرد عن الآخر». دخل هذا المبدأ إلى الرومان على يد سيسيرو الذى قرر فى القانون الرومانى أن «كل البشر ولدوا أحرارا، ما لم يثبت عكس ذلك». نتج عن ذلك امتداد المواطنة الرومانية إلى الجميع بعد أن كانت مقتصرة على الأقلية من النبلاء وكبار رجال القوم. أظهر ما أتى به هذا المبدأ هو تقييد استعباد المالك لعبيده تدريجيا، ورفع يد الأب عن أبنائه والزوج عن زوجته. لم تعنى إنسانية الفلاسفة

ولا الحكام شيئا لجماهير الشعب الذين كانوا يستعذبون مشاهدة صراع العبيد والأسرى بوحشية، الذين كانوا يقاتلون حتى الموت لامتاع الناس فى روما القديمة. كان الهدف من ذلك القتال إثارة الروح العسكرية والحمية الحربية لدى المواطنين، تلك الحمية التى تبخرت بين جماهير الشعب، فتبنى تيتوس الكوليسيوم لإحياء تلك الروح. شاهد ٨٠ ألف متفرج - الذين لم يكونوا مستعدين للقتال بين بعضهم البعض مطلقا - ذبح المساجين اليهود. بعد ثلاثين عاما من هذا الحدث احتفل تراجان بإنتصاراته بقتل خمسة آلاف زوج من المصارعين أثناء النزال. يقدر عدد الرجال الذين قتلوا فى تلك الصراعات بأكثر من عدد الرجال الذين قتلوا أثناء المعارك الحربية التى أحدثت الامتداد العظيم للإمبراطورية الرومانية فى عصر يوليوس قيصر. كان هؤلاء الرجال يموتون لتسلية الرومان بينما كانت ذريتهم تموت للدفاع عن روما. فى هذا التقليد يتضح الفرق ساطعا بين المتنورين من أبناء حضارات الشرق وبين المتوحشين من أهل الغرب، فلم يكن إهدار الدم وسفكه أبدا مطلبا للشرقيين حتى عهد الإغريق والحضارات الهيلينستية. لم يحاول الرومان - فى عهد الوثنية - أن يروضوا أنفسهم على الإقلاع عن تلك الوحشية تبعا لوصايا الفلاسفة وإذعانا لتعاليمهم الأخلاقية. ولكن المسيحيون - الذين تبنوا اتقاد اليهود وحماستهم - كانوا يصرون على حمل كل الناس أن يعتقدوا بمعتقداتهم وأن يتصرفوا بتصرفاتهم. أخذوا على أنفسهم أن يضبطوا المجتمع بأخلاقيات منشىء المسيحية (التى كانت نفس الأخلاقيات التى ينادى بها الفلاسفة). ساعدهم على تحقيق أهدافهم أنهم كانوا يتبعون نفس نظام التناسل الذى اتبعه اليهود، مع استفادتهم من النظام الإدارى الذى بدعه الرومان. مكنهم من اتباع هذا النظام مهارة تيرتوليان وآخرين الذين طبقوا النظم الإدارية بكفاءة واقتدار واتخذوا مظاهر أخرى للاحتفالات تنبعث من كتاباتهم المقدسة، وأضيف إليها الكثير بتعاقب الأجيال. كان الخوف من عذاب جهنم والخشية من الحَرْم الكنسى أشد ضبطا للناس من طرق التعذيب هذه أحيانا ليغير الناس عقائدهم ويدينوا بعقيدتهم، ولكن متى اعتنق الفرد المسيحية كان عليه اتباع آدابها والسلوك بسلوكها. ورغم أن هذا السلاح كان يدعو أحيانا للنفاق إلا أنه ثبت أنه أكثر الأسلحة التى اخترعها الإنسان لضبط سلوك الجماهير والمحافظة على أخلاقياتها. رغم التعليمات التى فرضت على الزواج المسيحى، لم يتم خضوع الجماهير له تماما، وزاول الأفراد كثير من الأمور المنهى عنها. كانوا يظهرون دائما بمظهر المطيع، الخاضع لتلك النواهى فى العلن، ولكنهم فى الحقيقة كثيرا ما كانوا ينطلقون على سجيتهم فى السر. ساعدت النظم الموضوعة للزواج على بقاء المسيحية على قيد الحياة والمحافظة عليها من الزوال والانقراض فى أول الأمر، وعملت كذلك على تطور المدنية فى المجتمعات الأوروبية بعد ذلك. خلال القرن الثالث الميلادى وصلت آراء المثقفين من الجمهورية الوثنية إلى معلمى المسيحية، وهنا وقعت الطامة الكبرى وظهرت الأزمة العظمى وبدأ الاضطهاد الكبير.

فى بداية العصر المسيحى كان ثلثا عدد السكان من الرقيق أو عبيد الأراضى، وبعد ثلاثة قرون – عندما اعتنق الإمبراطور نفسه المسيحية لم يكن عدد المسيحين فى الإمبراطورية قد تجاوز النصف من عدد السكان. كان أكثر ما يغيظ الحكومة الإمبراطورية أن الأثرياء، الذين باستطاعتهم تقديم القرابين فى المعابد، صاروا – بعد تحولهم للمسيحية – يمتنعون عن أداء هذا الواجب. فى الأيام الأولى للمسيحية فى روما – حيث كان اجتماع المؤمنين للقراءة ولقائهم للنقاش أمرا لاغنى عنه – كانت هذه اللقاءات تتم فى الجبانة (لأن الرومان كان من عادتهم احترام القبور وتبجيل الموتى). نظم المسيحيون أنفسهم فى جماعات لدفن الموتى، وهكذا لم تناصبهم السلطة العداء فى أيامهم الأولى. بعد زيادة عدد المسيحين أبتدأوا يكتسبون مزيدا من الثقة فى أنفسهم، وهكذا بدأوا يتعرضون للاضطهاد، الذى أتى عليهم فى شكل موجات، حتى حلول القرن الثالث بعد الميلاد حين تعرضوا لموجة من الاضطهاد العنيف، فى عهد ديكيوس، حين تعرضت مقابرهم للسلب والنهب، وانتهكت قدسيتها للمرة الأولى، رأى الإمبراطور أن المسيحين يعارضونه فى كثير من الأمور: رفضهم جميعا لتقديم القرابين للإمبراطور (كاليهود)، إيمانهم بالشيطان (وكان هذا أمرا مزعجا للوثنيين ومغضبا لهم)، اندفاعهم المتوهج لهداية باقى الخلق (وقد زاد هذا من عددهم وأكثر من خطرهم، بابتعادهم عن الخضوع للمبادىء الأساسية للإمبراطورية الرومانية). وجد بعض الأباطرة فى المسيحين عونا لهم أو ضدهم، فقد كان ألكسندر سيرفيروس وجالينوس يرون أن الأساقفة المسيحيين، قادة جموع الطوائف المسيحية، قد يكونون عونا لهم كناصحين ومرشدين ومدبرين. ولكن رفض غالبية الأباطرة معتقداتهم الخرافية غير المألوفة، مثل ماركوس أوريليوس. وهكذا تذبذبت السياسة بين حاكم وآخر، ولكن ضعفت بالتدريج سلطة الحكومة لضبط الأمور. مع إزدياد عدد المسيحين إزدادت ثقتهم بأنفسهم وزادت غطرستهم حتى صاروا لايطاقون. سبَّبَ هذا موجات متتالية لاضطهادهم، ووصلت الموجتان الأخيرتان إلى حد الحرب الأهلية (وكان الوثنيون هم المنتصرون فى كل معركة). ولكن كان الاضطهاد نفسه عاملا على تقوية العقيدة، فقد كان دم الشهداء هو الذى يروى الكنيسة.

انتشرت المسيحية فى أوروبا فحسب بين مثقفى المدن، حيث ارتبطت بالراشدين، قويمى الرأى والمعتقد من رجال الكنيسة. كانت النساء المتعلمات من أشد المعاونين لهم، فأعطاهم الدين الجديد مركزا مرموقا واعتبارا وزادت أهميتهن حتى وصلن إلى تخوم القصر. أما فى الولايات الآسيوية والأفريقية للإمبراطورية الرومانية، حيث كانت الضرائب عالية والحكم قاسيا، فقد وجدت المسيحية طريقها فى طبقة أخرى من الناس. كان الكتاب فى العهدين القديم والجديد، يبرزون الشفقة والحنو على محنة اليهود وآلامهم. صار المسيحيون فى تلك الربوع يمثلون صوت المُخلصين للشعب من

جبروت الحكام الوثنيين والمنجزين لوعد إعتاق الجماهير وتحريرها. كانوا بذلك صوت الثورة ضد الحكم الوثنى والكهنة الوثنيين الواقعين تحت سيطرة حكام من الأجانب، البعيد كل البعد عن روح الشعب وعواطفه، الذين يخلو نظام حكمهم من أى محتوى اجتماعى أو فكرى. هكذا كان تمزق الإمبراطورية الرومانية بين مختلف الأجناس العرقية، دافعا لنمو التعليم المسيحى الممتلىء بالمعانى الضمنية والفرصة الذهبية التى أتيحت لإشباع الحاجات المحلية وإحياء المعتقدات المحلية. انقسمت الكنيسة إلى فرق تمثل الصفات القديمة للسوريين والمصريين والقرطاجيين، فرق تتحدث باللغات القديمة لهذه الشيع، الآرامية والقبطية والقرطاجية. انشقت الكنيسة بالهرطقات التى أدخلتها تلك الشيع فى المسيحية وفرضتها على جماهيرها (المستمدة من عقائدها القديمة)، إلى مسيحية معارضة لسلطان كنيسة روما على المسيحية، ومعارضة لبعضها البعض. أدخلت المسيحية عدة معتقدات لايمكن تصديقها، وسمحت بذلك لظهور عدد لايحصى من التفسيرات – من أظهر تلك الاختلافات ماهية المسيح، هل هو إله أم إنسان؟ أو كليهما معا؟ أو لاشىء من هذا؟ ساعد على نمو تلك الاختلافات الفروق العرقية وبعض الاختلافات الجينية بين مختلف الشعوب. كانت تلك الاختلافات حصينة ومنيعة، منعة لايمكن اختراقها، وتعلقت تلك الاختلافات بتباعد الاهتمامات القومية، وكانت لها آثار سياسية طويلة الأمد.

تعرضت الإمبراطورية الرومانية لأعداء من الخارج وانقسامات من الداخل قبل اختيار إمبراطور ليحكمها، داريا بالخطوات الثورية والأطوار الرجعية لمقاومة القوى التى تسعى لتدميرها. لم يعد المحاربون الأشداء فى إيطاليا ولكنهم تمركزوا فى الولايات على الحدود. من الناحية الاجتماعية، قاوم النبلاء وجماهير الشعب على السواء أن تتولى الحكم حكومة عسكرية. لذلك اتخذ الإمبراطور قراره أن ينشأ – إلى جانب روما – عدة عواصم عسكرية، لكل منها حاكم عسكرى (أو امبراطور) ليقاوم هجمات المتبربرين على الحدود الشمالية. أُنشأت ميلان وترير فى الغرب، وسيريميوم فى الوسط وميكوميديا فى الشرق كقلاع لحماية الدولة. صار للإمبراطورية أربعة أباطرة: الإثنان الأعلى مقاما يدعوان أغسطس، والإثنان ذوى المرتبة الأدنى يدعوان قيصر. بهذه الوسيلة تمكنت الإمبراطورية من صد المهاجمين على مدى ثلاثة أجيال. تم تمكن ديوكليتيان أن يخلق ملكية مطلقة، استبدادية، غير مقيدة بدستور، ولكن شاركه فيها أباطرة آخرون، وعادت روما إلى تقليدها العتيق، مبدأ الحكم الجماعى الذى اعتمد على الطبقات الإدارية والعسكرية، التى تدعمت سلطاتها بالتزاوج – فصارت عنيفة أشد العنف وتوارثت الحكم وحدها. بهذا الشكل الجديد، الحكم المطلق، تبعت الإمبراطورية النظم الشرقية فى الحكم. أدخل ديوكليتيان إصلاحا دينيا ليصاحب نظام الحكم الجديد. فحص الإمبراطور مختلف الأديان الشرقية بنظرة مدققة – كما يفعل رجل العدالة المستنير–

ورأى أولا أن جيوشه تتكون من خليط من البشر. فضل أن يدعم جماعة الفرس (من طائفة ميثرا) التى تعتبر حامية الحقيقة وعدوة قوى الظلام، المتعطشة للدم والشواذ جنسيا وشديدة التمسك بالعسكرية العنيفة. ورفض تماما المسالمة المسيحية، المتمسكة بالكتاب والمتخنثة، كما كانت تظهر. كان هذا القرار خاطئا، لأن الطوائف العسكرية الشديدة، التى كانت قريبة من الجيش، كانت بعيدة كل البعد عن عواطف الشعب ورغباته، ولم توحد القوى المدنية، وجماهير الشعب حول نظام الحكم. كان هذا القرار من رأى الشريك الأصغر فى الحكومة - جاليريوس - وقد أدى هذا إلى الاضطهاد الأخير - غير الفعال - للمسيحين. فى هذه اللحظة دُعى قنسطنطين إلى فراش موت والده فى مدينة يورك - وكان لم يبلغ من العمر إلا ثمانية عشر عاما - وسلمه والده الحكم، كالإمبراطور الأكبر، وطلب مبايعة الجيش له كأغسطس عام ٣٠٦م. وكان تقسيم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام، الذى فعله ديوكليتيان، وحافظ عليها لثلاثة أجيال، هو سبب انقسامها بعد هذا الترشيح لقنسطنطين، ودخول الأقسام الأربعة فى حرب أهلية بعد هذه الولاية الأولية لقنسطنطين، وانتهت الحروب الأهلية، بعد عدة معارك، إلي انتصار كامل لقنسطنطين، الذى صارت له السلطة المطلقة بعد هزيمة كافة أعدائه وذبحهم، بعد ثمانية عشر عاما. لم يكن لتلك الحرب الأهلية أى مثال سابق. فى مرحلة سابقة من تلك الحرب - عام ٣١٢ - أعلن قنسطنطين بوضوح نيته فى مساندة رب المسيحين الذى سانده فى إحراز الانتصارات، وكان هذا التحول سببا فى تغيير مسار التاريخ. بمساندته للكنيسة، ساعدته الكنيسة لاعتلاء العرش. توقع الإمبراطور المسيحى أن يكون الدين خادما له لاسيدا. اتخذ شعار الرسول، المسيح، ورفعه كراية له بعد تنصره، وتوقع أن تحارب معه الكنيسة، وأن ينصره رب المسيحيين. ولكن لم يكن هذا يعنى - بالنسبة له - أن يتنازل عن عقيدته الوثنية ولا أن يمحو الشعارات الوثنية عن النقود التى يصكها. كل ما كان يرجوه أن يدعم بهذا العمل انتصاراته العسكرية. لم يكن يقبل أن تمنعه الملاينة المسيحية عن عدالته الصارمة. لم يتردد أن يحكم بالموت على ابنه البكرى - كريسبس ولاعلى زوجته فاوستا، أم أطفاله الخمسة الصغار وعلى أبوها ماكسيميان. كما لم يتورع أبناؤه المسيحيون عن أن يقتل الواحد منهم الآخر. هكذا كانت علاقة الحكام المسيحيين مع إله المسيحيين، التحالف معه لا الخضوع له. وكلما زادت قوة الحاكم كلما قل خضوعه. هكذا كانت الحال مع قنسطنطين. كان يوجهه فهمه لتعاليم زعماء المسيحية من خلال المبادىء التى يلقنونها لجماهير الشعب، والكتابات التى يعتمدون عليها، والاحتفالات التى يدعوها ونظم الإدارة التى ابتكروها، واستفاد من كل ذلك فى حكم إمبراطوريته. كان هذا هو كل ما يتطلبه الرجال فى ذلك الوقت، لأنهم كانوا قديرين على تعميق الصلات بين مختلف طوائف الشعب وزيادة الروابط بين مختلف الطبقات وبينهم وبين كافة العرقيات التى يتكون منها سكان الإمبراطورية

الرومانية تحت حكم إمبراطور يتخذ المسيحية شعارا له بدلا من حكم إمبراطور وثنى. كان تحوله هذا – الذى أعطى الفرصة سانحة للكنيسة – هو ما جعله قنسطنطين العظيم فى عين الكنيسة وفى نظر الشعب أيضا. بعد أن جمع قنسطنطين خيوط الحكم فى يده وحده، بعد أن صار الإمبراطور الأوحد، بدأ يفكر فى بناء عاصمة جديدة له، روما جديدة. ينبغى أن تكون تلك العاصمة فى مكان مركزى، للتجارة وللحكم. يجب أن تكون قلعة يستحيل على الأعداء اختراقها وحصينة ضد هجمات المغيرين، يتعين أن تكون مدينة مقدسة لتأوى القديسين ولتقام فيها الاحتفالات الدينية المسيحية. اختار مكانا فريدا – المستعمرة الإغريقية القديمة، بيزنطة، التى وجدت منذ حوالى ألف عام، لتكون موضعا لهذه العاصمة. كان قرارا خطيرا. كان المكان رائعا، يقع على ملتقى قارات عريقة، وبحار هامة، وكان مجمعا لأجناس عدة. هكذا عاد الإغريق ثانية إلى الشرق، بعد رحيلهم غربا لألف عام التقى – ربما للمرة الأولى – الإغريق، والرومان (المتحولين منهم للمسيحية)، واليهود. اختلطت أعراقهم (بالمسيحية)، كما توحدت سياستهم (تحت قنسطنطين). كان توحد هؤلاء الناس جميعا السبب فى إبداع حضارة جديدة، استمرت فى التاريخ لألف عام آخر.

كان أمام قنسطنطين، للوهلة الأولى، مهمة توحيد الكنيسة، التى رأى أنها ستكون مصدر السلطة على شعبه ومركز الوحدة بين مختلف طوائف هذا الشعب. عندما اقترح أن يتنازل عن ألوهيته (جزئيا) ليقيم ألوهية المسيح كان هناك أمامه مثالا يحتذيه. فى عام ٣١٢ أرسل أسقف كابادوشيا رجلا يدعى جريجورى إلى أرمينيا (وقد دعى فيما بعد باسم المنير). عَمَّد هذا الرجل تيراداتس – وهو شاب كان صديقا لقنسطنطين – كأول ملك مسيحى. وقد حاول ذاك الملك – مع البعثة التبشيرية التى صاحبته – أن يحول الأمة جمعاء إلى المسيحية، فقاومه رجال الدين المحليون الذين يتوارثون مهنة الكهنوت، خوفا من ضياع نصيبهم من الأضاحى الحيوانية – التى كان لهم منها نصيب وافر – فى العقيدة الوثنية. فطمأنهم الأسقف والملك أنه تحت العقيدة المسيحية الجديدة، سيتم عقد احتفالات الحب، ويقدم فيها مالذ وطاب من لحوم الأضاحى وأن نصيبهم من تلك اللحوم محفوظ لهم وسيصير نصيبا مقدسا. بهذه الشروط، قبل الكهنة الوثنيون أن يتحولوا إلى المسيحية، وعلى رأسهم الأسقف جريجورى، وهذا تم تبديل عقيدة المملكة بأسرها بعد سنوات قليلة، تم اختراع أبجدية أرمينية وظهر إنجيل أرمينى، وهكذ صارت اللغة الأرمينية لغة باقية على مر العصور. تكونت كنيسة أرمينية، ولكنها سرعان ما انقسمت إلى عقائد مختلفة وانفصلت عن أصلها. ولكن الكنيسة الأرمينية ظلت باقية إلى عصرنا الحالى، وحفظت الشعب الأرمينى من أن يبيد (كما تكونت فيما بعد مجتمعات مسيحية مختلفة)، وظل التزواج محصورا بين أبناء هذا الشعب، مما كون جنسا أرمينيا موحدا، ذو صفات محدودة، سرعان ما تفرق فى جميع أنحاء العالم حتى عصرنا الحاضر.

اتبع حكام الأقاليم المختلفة، ورؤساء الشعوب فى كافة أنحاء الإمبراطورية نفس النسق الذى اتبعته أرمينيا. وقع ملوك أيبريا وجورجيا وإثيوبيا تحت الإغراء الشديد لتسمية أنفسهم بالمسيحيين، وهكذا يصيروا رومانا للتزاوج من الرومانيين. لم يكن تحول الشعوب إلى المسيحية أو التزاوج من الرومان هو المشكلة التى واجهت قنسطنطين، إنما كانت العقبة الحقيقية هى فى توحد الشعوب التى تم اعتناقها للمسيحية، لأن جنسيات مختلفة بدأت فى الظهور وفى الوحدة بين أفرادها، فى مختلف أنحاء الإمبراطورية. واجه تمرد الأفارقة فى الغرب (كما واجهه قيصر)، وقابل اختلاف العقائد المسيحية فى الشرق (كما لاقاه أغسطس من قبل). نشأت عشرات الصيغ، فى العقيدة المسيحية، طوائف فى غالبيتها كانت محلية، اختلفت مع بعضها البعض، ودخلت فى صراعات مشتعلة. كانت الطوائف المختلفة عادة ما تنتمى لأعراق مختلفة، وتقودها مدارس فكر مرتبطة برجال دين مختلفين. كان على الإمبراطور – فى وسط هذا الاضطراب العنيف – أن ينحو ناحية، ويميل إلى جانب، فقد كان بحكم وضعه نائب الرئيس، للإله على سطح الأرض.

كان هذا وضعا شائكا. فقد بدأت المسيحية كثورة ضد دين اليهود الإقليمى، وتطورت لتصبح ثورة ضد عقيدة الرومان السياسية، وكل من هاتين العقيدتين كان لها مركز قوى ثابت، يعارض تحرر من يثور عليه أو يحاول تغيير نظم المجتمع الثابتة. فى هذا الشأن نافست المسيحية – فى رفضها للتعليمات التقليدية الصارمة – البيانات الهيلينستية الغامضة التى وعدت بالخلاص لأولئك المؤمنين، ويغفران خطاياهم بتضحية بديل عنهم. انتصرت المسيحية فى هذه المنافسة فى النهاية عندما أصبحت الدين الرسمى للدولة، ولكنها تعرضت فى تلك اللحظة لمشكلاتها الداخلية. كان على المسيحية أن تتحول لتصير مذهبها سياسيا. لهذا السبب كان عليها أن تصير دينا غامضا، يخضع لمختلف التفسيرات، إلى الحد الذى يصل إلى درجة النفاق فى المعتقدات. مبدأ رفض اليهودية قد يتحول لتصير المسيحية امتدادا لها. الحماس المبدئى والفورة العقائدية من الممكن أن توجه للبعثات التبشرية. الثورة ضد الإمبراطورية ينبغى أن ترفض تماما لتصير تحالفا معها. لضبط هذه الثورة واحتوائها كان من الضرورى ابتداع التنظيمات ونظم الإدارة المختلفة، ومن حسن الطالع أن رؤساء الكنيسة كان لديهم الاستعداد الكامل للقيام بهذا الدور ولتبنى تطور العلاقة مع الدولة. عندما تدخل قنسطنطين فى شئون الكنيسة وجد منظمة سابقة الإعداد والاستعداد لهذا التدخل. كانت الكنيسة تتكون من أساقفة فى الأقاليم المختلفة. كان اختيار هؤلاء الأساقفة وآرائهم تخضع لقرارات مجمعهم، إلا أنهم زعموا أن اختيارهم تدرج تباعا من الحواريين، رفقاء المسيح. كان من عاداتهم عقد المجالس لمناقشة النقاط الشائكة فى مبادئهم وتنظيماتهم. كان هدف تلك المجالس الحفاظ على وحدتهم وتماسكهم اللفظى والتشريعى. كان تنظيمهم يدعو إلى رفض تآكلهم أو انقسامهم فى تبنى

معتقدات غامضة، لذا صار المتبع عقد مؤتمر عالمى (المجمع المسكونى)، يناسب رغبات الإمبراطورية ويتبنى أهداف الكنيسة (ويضم اللاتين والإغريق) لضمان وحدة الكنيسة والدولة. صار الإمبراطور يدعو ثلاثمائة أسقف، ويدفع نفقات سفرهم، ويرأس اجتماعاتهم، ويعد جدول أعمالهم، ويعد باصدار المراسيم الإمبراطورية اللازمة لوضع قراراتهم موضع التنفيذ، تلك القرارات التى تلبى حاجة الإمبراطور. كان قد اجتمع عدد من الأساقفة المحليين فى أنطاكية عام ٣٢٤ وأخذوا مقاليد الأمور بأيديهم وشجعوا الرأى القائل بطبيعة المسيح الغيبية التى عبر عنها القس أريوس من الإسكندرية. أخذ الإمبراطور الأمور بين يديه فى الحال ودعا إلى اجتماع المجلس المسكونى العالمى لوضع حد نهائى للخلاف العقائدى بين رؤساء الكنيسة، وعقد هذا الاجتماع فى فينيقيا عام ٣٢٤، وهنا بدأ الصراع، الذى استمر حتى هذه اللحظة. هل خلق الابن مع الأب أو خلق منه أم لم يخلق أبدا! كان الأساقفة الذين جاءوا من الغرب أربعة أو خمسة وكان أحدهم صديق شخصى للإمبراطور (هوسيوس أسقف قرطبة). وتحدث هذا الأسقف برأى الإمبراطور، فأثار هائجة كل الحضور، قائلا لِمَ لا نقبل بأن دم المسيح وجسده متحدان فى طبيعة مشتركة هى الأب والابن معا. أسكتت هذه العبارة الغالبية العظمى من المجادلين، سوى بعض القلة من المعارضين، الذين حرموا من الكنيسة، ووافق الباقون. كانت وحدة الكنيسة خادعة وكان قبولها لهذا الرأى بالإجماع مضللا - لم يمتد قبول هذا الرأى خارج المجتمعات التى تتحدث بالإغريقية، ومن تبعهم من الهمج. بدلا من توحيد الإمبراطورية فى رأى واحد، عمقت الكنيسة الانقسامات القومية داخل الإمبراطورية وزادت من اختلاف الطبقات والقوميات وتصعدت كراهية الجميع لبعضهم البعض. ولكن لوقت قصير ظهر أن الشقوق قد التأمت وأن الإمبراطور - بصفته رئيسا للكنيسة قد وحد الخلافات العقائدية، وبهذا يستطيع معاودة التزاماته الأخرى الإدارية والتنظيمية، من توزيع العقوبات على المعارضين والجوائز على المطيعين. كانت العقوبات تبدأ بمصادرة الممتلكات والكنوز من الكنائس المعارضة له كما كانت تهدم المعابد الوثنية. كان يهدى تلك الكنوز على الكنائس الأرثوذكسية وعلى القصور الذى بدأ بناؤها فى عاصمته الجديدة - القسطنطينية. بهذه المكافئات تمكن من إكساب الكنيسة مزيدا من الثروة والسلطة، التى صارت وقفا على الكنائس والأديرة، واستمرت تلك الثروة فى التزايد تباعا (بالرغم من انقطاعها أحيانا) حتى جيلنا الحاضر. زادت قوة الأساقفة بإعطائهم سلطة النظر فى الدعاوى والفصل فيها، فى القضايا التى تحول لهم من المحاكم المدنية لاستئناف أحكامها (بالرغم من الاعتراض الدائم على تلك السلطة فإنها لم تضع تماما منهم)؛ وأخيرا بدأ قنسطنطين بتعديل القوانين ونظم الإدارة تبعا للمبادىء المسيحية الاجتماعية وللتعاليم الدينية كما فهمها. ففى عام ٣٢٠ ألغى الإمبراطور المسيحى القوانين التى فرضها أغسطس على العزاب، وقيد الطلاق واعتبر الزنا عملا غير شرعى يقع تحت طائلة القانون. أوقف قنسطنطين ألعاب مصارعة الوحوش ومنح الفقراء

مبالغ من المال لتثبيطهم عن قتل أطفالهم بتركهم فى العراء. من أهم ما فعله الإمبراطور فى ذلك الحين هو منع تحول العبيد لليهودية. كان من عادات اليهود وممارساتهم أنهم يختنون العبيد، ففرض قنسطنين عقوبة الموت على من يزاول تلك الفعلة، وهكذا – لمدة ١٥٠٠ عاما التالية – تناقص عدد اليهود فى أوروبا المسيحية لعدم دخول أفراد جدد إلى ديانتهم، ولاضطهادهم المتكرر فى حين بعد الآخر، وهكذ صار اليهود أقلية منغلقة على نفسها فى العالم. وهكذا بكل تلك التغيرات (باستثناء الأخيرة منها) عمل قنسطنطين، كما عمل خليفته – تيودوسيوس العظيم – على إتمام تحويل الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية وعلى فرض السلوك الإنسانى على ممارساتها بالقوانين التى كانت تسير حثيثة فى القرون الثلاثة السابقة. ولكن استمر تركيب المجتمع الرومانى قائما على العبودية المتوارثة. أصبح عتق العبيد – كالزواج – فرضا فرضته الديانة المسيحية، ولكن استمرت التجارة فى الرقيق: رجالا ونساء، أطفالا وخصيانا. استمر الحظر على زواج العبيد من الأحرار وأصبحت ممارسة الجنس بين العبد والمرأة التى تمتلكه جرما عقوبته الموت لكليهما. وهكذا لم تؤثر الديانة المسيحية التى انتشرت فى المجتمع فى القضاء على نظام الرق ولا فى تضاؤل الحروب، ولكنها ساعدت إلى درجة كبيرة على الحد من الإملاق بنشأة الأديرة وانتشارها فى ربوع البلاد. أهم آثار انتشار المسيحية فى البلاد كانت رفض القتل والإجهاض وتعدد الزوجات وإتيان المحارم واللواطة، ولكنها شجعت الحروب والرقيق والإخصاء واتخاذ الخليلات والبغاء.

استمرت الحكومة فى أيدى الأغنياء، وكانت تدار لمصلحة الأغنياء. لم يُعدّل نظام الضرائب للتفرقة بين الفقير الذى لايتمكن من دفع ضرائبه وبين الغنى الذى يستطيع الالتزم بتلك الواجبات. لم يتواجد ذلك النظام الذى يؤكد على مساندة الغنى للفقير لصالح المجتمع ككل. كان على الصناع فى المدن، وعلى الفلاحين فى الريف، أن يتحملوا عبء الإمبراطورية بأسرها رغم أن ما ينالهم من خيراتها كان أقل القليل. هكذا وجد الكثير منهم أن الهرب والهجرة من ذلك المجتمع هى أفضل السبل له للخلاص بنفسه وبأسرته. لهذا لجأ ثيودوسيوس وجستنيان من بعده إلى فرض بقاء الأفراد فى أماكنهم وتثبيتهم فى المهن التى بدأوها. ارتبط المزارعون بحقولهم (تحت إمرة ملاك الأراضى)، واستمر الصناع فى طوائفهم تحت سيطرة كبير الطائفة (واستمر هذا النظام لقرون طويلة بعد انهيار الإمبراطورية – تحت هجمات القبائل المتبربرة – فى العصور الوسطى فى نظام الاقطاع الذى ساد أوروبا).

بعد مؤتمر نيقيا بمائة عام انهار الجزء الغربى من الإمبراطورية تحت هجمات الهمج من القوطيين والونداليين (القبائل الجرمانية التى اجتاحت فرنسا وإسبانيا وشمالى أفريقيا فى القرن

الخامس الميلادى واحتلت روما ونهبتها فى عام ٤٥٥). تحولت تلك القبائل للمسيحية ولكنها لم تتبع أريوس الذى تمت إدانته فى مجمع نيقيا المسكونى. سقطت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب، ولكن الإمبراطورية الشرقية مازالت محتفظة بكيانها ومازالت مدينة القسطنطينية تتوهج كالمدينة الكبرى التى تزينها كبريات الكنائس والأضرحة المزينة بالفسيفساء برسم المسيح (الذى تحول من شكل الشاب الحليق المضطهد على هيئة الإسكندر إلي الرجل الناضج الكامل الرجولة، الخيّر، المفكر الذى صار رمزا للأزمنة المقبلة). على الرغم من استمرار انتشار العقيدة المسيحية فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية، إلا أن التحول لم يكن كاملا، بل بقيت أعداد كبيرة من الجماهير مازالت وثنية، تجتمع فى مجموعات صغيرة لتقديم الولاء لآلهتها القديمة. أخطر ما كان يهدد الدولة فى ذلك الزمان هو حيرة الجماهير بين الانقسام الذى طرأ على مختلف الطوائف والشيع داخل الكنيسة المسيحية ذاتها. بلغ الانقسام أشده بين المقوقس – عظيم القبط فى الإسكندرية وبين منافسه نسطوريوس فى القسطنطينية. يؤكد الأول أن مريم العذراء هى أم الإله بينما ينكرالثانى هذا الادعاء. تقرر عقد مجمع مسكونى فى مدينة إفسوس (المدينة التى كانت تقدس الإلاهة ديانا وصارت الآن تقدس مريم العذراء التى حلت محلها) للوصول إلى حل لهذا الخلاف فى المعتقد. دعا الإمبراطور تيودوسيوس الثانى – وكان رجل تقوى وقد شغله هذا الأمر كثيرا – إلى عقد هذا المؤتمر، (هذا الإمبراطور ألغى أحكام الإعدام تماما أيام حكمه). كان الإمبراطور جبانا، رعديدا، يخضع لآراء زوجته وأخته، فقرر ألا يحضر بنفسه المؤتمر. استعد بطريرك الاسكندرية لحضور هذا المؤتمر وأعد له بكافة الوسائل وسلك مختلف السبل لترجيح وجهة نظره. كان الأعداء يحيطون بالإمبراطورية شرقا وغربا، وكانت تقسمها الفرقة والتنافس، وكانت خزائنها خاوية. إلا كنيسة مصر، فقد كانت فى غاية الثراء – لم يعتمد بابا الاسكندرية على الإمبراطور فى تدبير نفقات سفره، بل تشير الوثائق إلى أنه وزع طنا من الذهب (وغير ذلك من الهدايا والأحمال الثمينة) على رجال القصر ذوى السلطة والمهابة والنفوذ، وحصل بهذا على شرف رئاسة المؤتمر ووضع جدول أعماله. انتصرت آراء بطريرك الأسكندرية وأعلنت القرار. رفضت الهرطقة وأدين المهرطقون وطردوا من الكنيسة، وحلت الوحدة والسلام فى النهاية. نُفى البطريرك (السابق) نسطوريوس إلى أطراف الإمبراطورية ومنع تداول تعليمه وما كان ينادى به، وهرب أتباعه من أنطاكية إلى خارج حدود الإمبراطورية أو إلى الصحارى فى أطراف الإمبراطورية، هناك نجحوا فى الانتشار وفى نشر آرائهم. مازلنا نلقى إلى الآن، مسيحيين من أتباع النسطوريين، فى بلاد فارس وفى الصين وفى الهند من الطائفة المسيحية الآشورية (وهم من معتنقى العقائد النسطورية) يكوّن هؤلاء المسيحيون أقلية فى الديانة المسيحية، ويتوالدون بين أنفسهم ويكوّنون جنسا عرقيا خاصا، له لغته الخاصة ويعمل أفراده فى مهن متميزة عن بقية مهن المجتمع. كان

لتعليم نسطوريوس ولمعاناته آثار مثمرة لأتباعه. الدروس المستفادة من انشقاق تلك الطائفة من المسيحين عن تيار المسيحية الأعظم، دروس بالغة الأهمية، وعظيمة الخطر. أثبت هؤلاء المنشقون من المسيحيين فى نيقيا وفى إفسوس أنهم إذا اختلفوا عن الحكام عرقيا أو سياسيا يمكنهم أن يكشفوا عن خلافاتهم باعتناقهم مذهبا آخر. عندما أراد الحكام وقسطنطين أن يفرض رأيه وأن يستغل سلطاته ويوحد الأمة فى رأى واحد، فإن من لايقبل هذا التسلط ويرفض رأى الحاكم (مثل أريوس ومثل نسطوريوس) يمكنهم الفكاك باعتناق مذهب دينى مختلف. الدرس الثانى هو الاضطهاد الدينى. ورث المسيحيون الاضطهاد الدينى من أسلافهم اليهود، ثم نشروه على اتساع العالم المسيحى بآثاره المدمرة. تصاعد الجدل الذى أثير فى تلك المجامع وتبع الاضطهاد الذى تلاها نفس النمط الذى أثير فى نقيا وفى إفسوس، واستمر الخلاف مستعرا ولم تتوحد العقائد. ما أحدثه ذلك الجدل هو حرية التعبير التى تمخض عن حاجيات مجتمعات توحدت لغاتها وتوحدت سياساتها. فى الزمن الحديث يعتبر التسامح الدينى فضيلة، ولكن في ذلك الزمان كان التعصب الدينى – مثله مثل الحرية الشخصية – عنصرا بناء فى التطور الاجتماعى. كان تفرق المجتمعات المختلف فى الإمبراطورية عاملا على نمو حضاراتها ودافعا لبقائها. اختفت اللغة الغالية، كما اختفى غيرها من اللغات، لأن المتحدثين بها لم يعتنقوا المسيحية. أما أهالى أرمينيا وسورية ومصر، فقد ساعدهم اعتناق المسيحية وكتابة الكتاب المقدس بلغاتهم على الاحتفاظ بتلك اللغات وعلى الحفاظ على كياناتهم العرقية وعلى طباعهم، وأدى إلى زيادة تماسكهم. أدى اعتناقهم لدين واحد وتحدثهم بلغة واحدة وتوالدهم إلى ظهور مقومات لجنسية واحدة وتمتعهم بقومية متماسكة. اتخذ كل منهم لنفسه طريقا مستقلا ونقض كل منهم خضوعه لإمبراطور الدولة الرومانية الشرقية، متى سنحت لهم الفرصة لاتخاذ هذا الموقف. نفس تلك العوامل والفروق فى اللغة والأصل العرقى هى التى فرقت بين روما والقسطنطينية. بالإضافة إلى هذه العوامل كان هناك فرق آخر حاسم. وجد أساقفة الدولة الرومانية الغربية أنفسهم فى قلب إمبراطورية غربية تتفسخ وتتآكل وتنهار يوما بعد يوم، فعملت الكنيسة فى روما أن تظل محتفظة بتماسكها وبكيانها حرصا علي بقائها، حتى بعد انهيار الكيانات السياسية فى الولايات الغربية المختلفة. تبينت الكنيسة أن عليها أن تصير سلطة فوقية، تنبع من ثقافتها ومن جنسها المرتبط باسم المدينة التي سقطت تحت جحافل الواندال والقوطيين. حاولت الكنيسة جاهدة الحفاظ علي استقلاليتها، وبعد حوالى سبعمائة عام نجحت فى الفكاك من تبعيتها للدولة، الأمر الذى كان ثابتا فى الكنيسة الرومانية الشرقية. توقع أوجستين (القرطاجى) أن سقوط روما فى أيدى القوطيين، سيتبعه تصاعد نفوذ كنيسة روما لتصير المهيمنة على أقدار الإمبراطورية. لم يحدث هذا التحول فى الحال، ولكنه حدث بعد أجيال عدة من نبوءة أوجستين العجيبة. عملت عوامل عدة على

تحقيق النبوءة: انفضت الكفاءات المهنية المرتبطة بالكنيسة عن خدمة الدولة، تحول الغزاة من البرابرة إلى المسيحية، تطور المجتمع السابق إلى مجتمع جديد يجمع بين الأصول الرومانية والأصول الألمانية. سبق لأوجستين ملاحظة تطور الأحوال واندثار المؤسسة الرومانية. استبدل نبلاء الجمهورية بالإدارات الهيلينستية، التى استُبدلت نفسُها بطبقة العسكريين من جيوش الولايات. لاحظ أيضا انشقاق الحكومتين العسكرية والمدنية فى عهد ديوكليتيان. ولاحظ أخيرا نمو الذراع الثالث للدولة فى صورة الكنيسة وارتباطاتها، والمخلصين لها، وكفاءاتها، ومقنناتها السلوكية. كان هذا النظام الجديد، المختلف جينيا والمتوازن سياسيا هو أساس كل النظم التالية لحكومات أوروبا الغربية.

هاجم البرابرة أول دفاعات الإمبراطورية الرومانية، وكانوا ينقسمون إلى طائفتين: الكلت والألمان. كانوا قد انتشروا فى كل أنحاء أوروبا فى انفجارين متتالين من الانفجارات السكانية التى حدثت فى مكان ما إلى الغرب من المركز الإريانى الأول. غمر مد الكلت إسبانيا وإيطاليا واليونان والأناضول فى القرنين الرابع والثالث ق.م. وأوقفه انتصار يوليوس قيصر فى بلاد الغال وفى إسبانيا، وباحتلاله لبريطانيا ثم ببناء سور هادريان. ثم تم إخماد هجوم مشترك من قبائل الكلت والقبائل الألمانية بين أعوام ١١٣ - ١١٠ ق.م.، وتم وقف هجوم آخر - إلى حين - باحتلال تراجان لداسيا. ثم ببناء هادريان لأجراف شاهقة شديدة التحدر. ترك أورليان داسيا فى عام ٢٧٢ وبدأ ببناء سور حول مدينة روما والمدن الأخرى الكبيرة، وسرعان ما حوصرت هذه الأسوار وهوجمت واخترقت.

يرجع علماء التاريخ هذه التحركات البشرية الكبرى للمجاعات. ولكننا سبق أن لاحظنا أن الامتداد النيوليثى والسامى والآرى قد تبع زيادة إنتاج الغذاء ولم يعقب نقصانه، وأعقب زيادة المحاصيل الزراعية والانتاج الحيوانى والتحسن فى تقنية الأدوات التى يستخدمها الإنسان، ومن المؤكد أن انتشار الكلت والجرمان قد تبع زيادة إنتاجهم. كانت لهم مصادر من الحديد، صنعوا منها فؤسا حديدية وقطعوا بها الأشجار للوقود واستخدموا أخشابها فى صنع الأدوات. وكانت لهم محاريث ثقيلة من الحديد فلحوا بها الأرض وهيئوها للزراعة، وقد يكون من أهم آثار الجرمان الحضارية هو إزالة الغابات الأوروبية الشمالية، وهى عملية استمرت بلا انقطاع، حتى عهدنا الحاضر، وقام بها الألمان والصقالبة، وخاصة فى انجلترا. سواء تغير الطقس إلى الأحسن أو إلى الأسوأ فى شمال أوروبا بعملية إزالة الغابات هذه، فإن السكان تزايدوا. كان حوض البحر المتوسط قد تم استغلاله وتجرد وتآكل، بينما كانت الأخشاب فى منطقة القبائل الهمجية فى شمال أوروبا مازالت وافرة ومازالت الأراضى بخيرها. كانت مدن الشمال خلوا من الملاريا ومن الطاعون

وانتشرت بين ربوعه الصناعات الريفية، وانتعشت فى أراضى صارت تنتج الحنطة وتتربى عليها الماشية، كما تنتج فراء الحيوانات والمعادن والخشب للوقود. وهكذا كان الألمان يزيلون الغابات ليزرعوا الأراضى، كما كانوا يزيلونها ليشقوا الطرق فى أواسط أوروبا ليهيئوا الطريق لمجموعة عظيمة من الغزاة الجدد، من راكبى الخيل وحملة الأقواس ورماة السهام الذين اخترقوا الأراضى فى القرن الرابع بعد الميلاد. تبعت القبائل الجرمانية قبائل أخرى أتت من الشرق، من آسيا، من الهُوْن (وهم شعب مغولى مترحل سيطر على جزء كبير من أوروبا الشرقية والوسطى بقيادة أتيلاً حوالى عام ٤٥٠ ب.م.)، وتبعهم إخوانهم من التتار والمغول، والترك، والكازاك. كان ضغط هذه الأقوام المحاربة على الجرمان هو من أهم الدوافع التى دفعتهم إلى الغرب واستمرت تدفعهم غربا طوال خمسمائة عام. خلال القرون الطويلة تغيرت طبائع هؤلاء الأقوام على عدة مستويات بالانتصار أو بالأسر فى الحروب، فصار ملك إحدى القبائل ملكا على مجموعة كبيرة منها بينما صار رجال إحدى القبائل أسرى لقبيلة أخرى، ونساؤها جوارى لغيرهم. أدى هذا إلى التوسع المفاجىء لقبيلة من الهمج أو إلى تحرك قبيلة أخرى بحاكمها وقومها ومحاربيها من مكان لمكان. من أمثلة هذه التحركات الواسعة أن ملكا لإحدى تلك القبائل الذى ولد على شواطىء البحر الأسود كانت وفاته فى جزيرة صقلية. تكاثر التزاوج بين القبائل الهمجية الأوروبية وكثر بينهم الاختلاط بذوى الحرف وبالتجار الإغريق والقرطاجيين والإتروسكان والرومان، وتم امتصاص هؤلاء الأقوام تماما فى الشعوب الشمالية مما كان له الفضل فى إدخال فنون الحضارة بينهم، كما تم إدخال بعض الطبقية الاجتماعية فيهم. كانوا كثيرا ما يتبادلون الأسرى والجنود المرتزقة والمغامرين مع الإمبراطورية الرومانية، خاصة فى أمور الرياضة مما كان يعود بالفائدة دائمـا على الهمج. وهكذا صار قواد الرومان – فى العصور المتأخرة – من ذوى الأصل الهمجى، كما كان قواد تلك القبائل أيضا من ذوى الأصول الرومانية. كان هذا التبادل يتم غالبا فى أعلى طبقات المجتمع. من أهم آثار هذا التهجين هو تجنيد الهمج فى الجيش الروماني. أول من استخدمهم كجنود فى جيشه كان الإمبراطور ماركوس أوريليوس، ثم صاروا يستخدمون كضباط وأخيرا كقادة أكفاء فى جيوش الرومان. ومن الآثار الأخرى لهذا التهجين هو اختلاط الأسماء وانتشارها بين القبائل الهمجية وبين الرومان. فى زمان سرعة التحركات للأقوام المختلفة كثر التبادل الجينى وتغيرت ولاءات الرجال المحاربين بسرعة وتوسعت إحدى الممالك – سواء كانت قوطية أو فرانكية – على حساب المملكة الأخرى. يظن العلماء أن الغاليين والبلجيك هم أصلا من الكلت وأن الواندال والقوطيين والألمان والفرنسيين واللومبارديين هم أصلا من القبائل الجرمانية، والهونيين والألانز ينتمون إلى أصول أسيوية ولكن أسماء الأفراد – التى تنبع من اللغات الأصلية ومن طريقة معيشة تلك الشعوب لاتتسق مع أصول تلك القبائل ولا مع أصول العبيد الذين

ضمتهم هذه القبائل. من أمثلة تلك الحقيقة أن القبائل الجرمانية التى قطنت بلجيكا فى القرن الخامس الميلادى كانت ذات أسماء كلتية، كما كان الحال فى زعماء القبائل فى سكسونيا الغربية الذين غزوا بريطانيا فى القرن اللاحق.

أيا كان الحال فيما سبق، فقد تغير نظام الإنسال تماما بعد نجاح الغزو. كان زعيم الهمج يتزوج من شقيقة الإمبراطور أو ابنته، وهكذا يقلده أبناء شعبه، وفى سرعة البرق يحدث التهجين بين الشعب الغازى والشعب المغلوب على أمره. كان تعداد مقاتلى القبائل الغازية يختلف من أفراد قلائل إلى جيوش عظيمة يبلغ تعدادها ٢٠ ألف مقاتل أو مايزيد. كان هدفهم هو الاستيلاء على مزيد من الأرض، بالإضافة إلى النهب والحصول على الزوجات من النساء وعلى العبيد من الرجال. طلب الأريك القوطى مايزيد عن مليون جنيه من الذهب والحرير والفلفل كفدية لمدينة روما، وكان ينوى الاستعمار (كما استعمر جينزيريك الواندالى أفريقيا). ولكنهم كانوا يقصدون أيضا سبى النساء، وما فعلوه فى هذا الشأن حدد مستقبلهم. اختفى الواندال تماما من أفريقيا، وكان عددهم حوالى ٨٠ ألفا، بعد ثلاثة أجيال، نتيجة للتزاوج غير المقيد. أما فى أوروبا فقد تزاوج زعماء القبائل الغازية من نساء الطبقة الحاكمة فحسب (الذين كانوا منتقين من المجتمعات الرومانية الحاكمة، واقتصر بعض زعماء الغزاة على التزاوج من أسرة الإمبراطور نفسه فحسب). اتبع نمط التزاوج هذا ما عهدناه فى السياق التاريخى من قبل. يرجع إلى هذا النمط التوازن الذى حدث بين المركز الاجتماعى والميزة السياسية التى حدثت بين الهمج والرومان وبين روما والقسطنطينية فى القرون الحرجة، ويرجع إليه الاحترام الذى تمتع به الإمبراطور فى القسطنطينية بينما كانت تتساقط الإمبراطورية الرومانية الغربية وتنهار. كان إمبراطور القسطنطينية يعتبر رأس الكنيسة المسيحية التى انتمى إليها القوطيون والوانداليون (ولكن لم ينتمى إليها الفرنسيون).

كيف اعتنق الهمج الديانة المسيحية؟ تم تحول القوطيون واللمبارديون إلى النمط الآرى للمسيحية قبل غزوهم للإمبراطورية، ولذا لم يتم اختلاطهم مع النبلاء الكاثوليك ولا مع الجماهير. لم تفلح أميرة بافارية كاثوليكية مطلقا – الأميرة ثيوديليندا – فى تحويل اللومبارديين إلى المعتقدات الكاثوليكية الرومانية. وبعد حين طرد الفرنسيون اللوبمارديين من بلادهم. فى الشمال لم يتحول الغزاة من الفرنسيين ومن الساكسونيين إلى الديانة المسيحية حتى تمكنت الكنيسة الرومانية من فرض سيطرتها السياسية بنهاية القرن الخامس الميلادى، حين تم دخول ملوكهم فى الديانة المسيحية – بجمودها وهرطقتها – بواسطة زوجاتهم من الكاثوليكيات، حيث حدثت موجة عارمة من التزاوج بينهن وبين زعماء الهمج – ناقلات الحضارة الرومانية من روما إلى عالم الهمج. بدأت هذه الموجة بنشاط من رجال الكنيسة وتم تدبيرها فى روما. من أشهر الخطوات التى اتخذت فى هذا الشأن كانت بعثة أوجستين التى أرسلها جريجورى العظيم إلى انجلترا، ثم البعثات التى أرسلت من

انجلترا لتحد من تغلغل الأيرلنديين والفرنسيين إلى ألمانيا ولتحض الألمان على اعتناق المسيحية. كانت النساء هى الأداة التى استخدمتها الكنيسة الرومانية واللاتى كن يرحلن مع الكنيسة. ففى عام ٤٩٦ ذهبت كلوتيلدا الكاثوليكية من برجاندى إلى الشمال للزواج ولدعوة الملك كلوفيس ملك الفرنسيين لاعتناق المسيحية، وبعد مائة سنة رحلت ابنة حفيدتهما - برتا الكاثوليكية - إلى الشمال لتتزوج الملك إيثيلبرت ملك كنت وتحوله إلى المسيحية، وبعد حين سنرى أميرة من كنت ترحل شمالا وتتزوج فى نورثمبريا. لم يكن هذا زواجا عاطفيا، ولكنه كان زواجا سياسيا، عمد إليه أزواجهن، وكان له أثر بالغ جينيا. كانت المرأة هى التى تدعو القسيس أحيانا ليتم الزواج وكان القسس هم من يرتبون عقد الزيجات فى أحيان أخرى. كان لزواج أمير كيف من شقيقة الإمبراطور بازيل الثانى، حاكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى القسطنطينية هو الدافع لاعتناق المسيحية هو وكل شعبه. كانت لهذه الزيجات، التى يتبعها اعتناق المسيحية كدين، بين أمراء ونبلاء أوروبا أثر كبير فى توجيه المجتمع الأوروبى. تجمع حكام أوروبا فى شبكة جينية تكون الطبقات الحاكمة لأوروبا وتطورت تلك الطبقة، بطريقة منتقاه لحوالى ألف عام. كانت علاقة تلك الطبقة بروما وبالقسطنطينية غامضة فى أحد وجوهها، وتقلبت تلك العلاقة، مثلها مثل نواح عدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية، بين التبعية والحماية، وبين التنافس والتعاون، ولكنها كانت فى منتهى الوضوح فى نواح أخرى. كان الملك الذى يتخلى عن أسلافه الوثنيين في سبيل أقرباء من المسيحيين، استبدل آلهة ميتين (أو فى سبيلهم للموت)، بملوك من الأحياء ومرتبطين بالثروات الوافرة والسلطات العظيمة، وبأبهة العاصمة الإمبراطورية، فى روما القديمة أو روما الحديثة. أثناء تعميدهم تم تسجيل أسمائهم المسيحية بواسطة رجال الكنيسة، وتم توثيق زيجاتهم ومباركتها بواسطة الباباوات، في أثناء احتفالات تتويجهم مسحوا بالزيت المقدس وكرسوا فى احتفالات على النمط العبرى القديم المقدس، وبهذا كفلت لهم الوثائق حق حكم أسرة حاكمة. فى مقابل كل تلك الخدمات كان على الحاكم أن يخضع لنصائح الكنيسة وأوامرها. من يتزوج؟ من يتوج؟ ومثل هذه الوصاياالتى أكسبت كنيسة روما القوة العظيمة التى تمتعت بها.

انقسم الناس بين واجب الزواج المقدس، وبين التبتل والعزوبية الأشد قدسية، وتأثرت أنواع السلوك هذه تبعا للعلاقة المتباعدة للأحوال الاجتماعية والسياسية فى الشرق والغرب. كان للقسس سلطة ضبط العلاقات الجنسية بين الناس بواسطة أبروشياتهم ثم بواسطة أساقفتهم. عدد رجال الدين الخطايا العديدة التى ترتكب فى هذا المجال وعرفوها ووضعت العقوبات فى أيدى رجال الدين، وسرعان ما تبينوا القوة المذهلة التى صارت بحوزتهم، قوة تصاعدت تباعا لألف عام. كانت تلك سلطة على الأفراد وعلى المجتمعات، مكتسبة من رفضهم لأى سلوك بعيد عن الخلق القويم، ورثوه عن أسلافهم اليهود. كان هذا السلوك فرضا من اليهود على أوروبا الوثنية، وكان لازما لنمو سلطة

رجال الكهنة المسيحيين وسيطرتها على الجماهير غير المنضبطة. إزدادت هذه السلطة بزيادة القوانين المفروضة على الخطايا، وبزيادة كسر هذه القوانين. كانت الكنيسة تعدل فى تلك القوانين حسب الحاجة. كان الخلاص يتم أولا من العقيدة ثم من الصلاة وأخيرا من دفع الغرامات، وهكذا صارت من سلطة الكنيسة ضمان دخل ظاهر للكنائس والأديرة وأمكنة الخدمة العامة، بخلاف الدخل المختفى غير الظاهر. كانت الكنيسة تسيطر على شئون الزواج. كان ارتكاب الفواحش والخطايا والمعاصى يمكن غفرانه بواسطة قس، بعد مباركته للمذنب، وهو القس الذى رسمه المسيح. وكان هذا شيئا مقبولا ومألوفا ومستحبا لدى عامة الناس، واعتبروه نصرا لهم.

فى مرحلة مبكرة، كان التبتل والعزوبية يضع بعض رجال الدين خارج النظام الاجتماعى، ولكن غالبيتهم كان يسمح لهم بالزواج. أيام مجمع إفسوس كان الأساقفة متزوجين. كانوا يتمتعون بالسلطة والقوة والثراء التى يضفيها عليهم وضعهم الدينى، بدون أن يضحوا بملذاتهم الحسية ورغباتهم الجنسية. صار المركز الدينى متوارثا. وكلما إزدا ثراء رجال الدين كلما إزداد عدد الكنائس التى يبنيها المسيحيون وكلما صار الأساقفة يسيطرون على أبروشيات تحوى عدد من الكنائس وصاروا بذلك حكاما أقوياء، وأصحاب ثروة شاسعة وثراء، بالإضافة إلى تمتعهم بالثقافة والعلم والمعرفة. كما كان من الضرورى أن يتكاثر الآباء الأوائل للمسيحيون بسرعة كبيرة لينتشر الدين الجديد وتعم الثقافة كافة أنحاء أوروبا. لم يكن نسل الباباوات الأول دائما مصدر دعم للكنيسة، ولكن من نسل البابا فيليكس الرابع جاء جريجورى العظيم، وجلس على مقعد الصدارة على قمة أوروبا المسيحية. كانت هذه المفاهيم أمام مجمع نيقيا عندما رفض فرض العزوبية على رجال الدين المسيحى. رجل الدين الأعزب، الذى ليس لديه أطفال هو وحده الذى يمكنه التفرغ لخدمة الكنيسة من كل قلبه، وهو وحده الذى يمكنه أن يضحى بكل مرتخص وغال ويترك الثروة الباهظة ملكا للكنيسة، ولذا كان الرهبان (وغير المتزوجين من القسس) هم الذين يرشحون للوظائف الأعلى فى السلك الكنسى، وبالتدريج صار الأساقفة كلهم من العزاب (أو لمن يطمح أن يصير أسقفا)، وصار التقليد – بعد قليل – هو منع زواج الأساقفة. تبع هذا قضايا عدة فى التاريخ المسيحى: تأخرت رسامة بعض عظماء الكنيسة المسيحية حتى انقضاء سنوات زواج طويلة وسعيدة لهم، وآخرون كانوا يمارسون الجنس بلا عائق (فى السر) – مثل أسقف لييج الذى تم عزله عام ١٢٧٤ – بعد رفع ٦٥ شكوى فى حقه وثبوتها عليه. وفى الحقيقة أن أفسد رجال الكنيسة من الأسر المالكة وأعظمهم شأنا، هم من كانوا يرسمون أساقفة، فى العصور الوسطى.

فى الإمبراطورية الشرقية كان الإمبراطور هو الذى يأخذ القرارات للكنيسة، بدون أن يصدر مرسوما بهذا الشأن. كان الإمبراطور يحيط نفسه بمجموعة من الخصيان، الذين كانوا يشغلون

المناصب العليا فى الدولة. فى روما اشتد الجدل طويلا بين أقطاب الكنيسة حتى توصلوا نهائيا – فى عهد هيلدبراند – إلى وجوب عزوبية رجال الكنيسة، وتحريم الزواج ومعاشرة النساء والخيانة، استمر أبناء رجال الدين فى الزيادة، بأعداد كبيرة – تحت مظلة آبائهم – واستمر باباوات روما – فى عصر النهضة – فى اكتساب مزيد من الثروة لكنائسهم بزيادة ثرائها، زادت سلطة الكنيسة وزاد تماسكهم فى وجه أى تجمع أسرى من النبلاء أو العائلات المالكة، واستمر الحال على هذا المنوال لقرون طويلة.

ما هى الفروق بين طبقة رجال الدين العزاب وبين الأسر المالكة؟ طبقة رجال الدين العزاب من الكنيسة الكاثوليكية التى لعبت دورا هاما فى تاريخ أوروبا الغربية. اختلفت تلك الطبقة عن عامة الناس بكونهم مخلصين تمام الاخلاص للكنيسة من جهة وبكونهم من الشواذ جنسيا أو من ذوى العنة من جهة أخرى، وبعضهم كان مفرطا فى علاقاته الجنسية. هذه الظواهر الجنسية الشاذة تظهر فى كل المجتمعات البشرية، ولكنها تتجمع وتبلغ ذروتها فى مجتمع رجال الدين العزاب المتماسيكن. الغالبية العظمى من الباباوات خرجوا من بين الطبقة الأرستقراطية الإيطالية، وفى أحيان نادرة صعد شخص من العوام – ممن يتميز بكفاءات نادرة – بمساعدة الكنيسة، إلى مرتبة الأسقف أو البابا. بدعت الكنيسة طرقها لضمان اكتساب المزيد من رجال الدين، من بين من يتطوعون لأداء أعمال الخير مثل: رعاية الأطفال اللقطاء (الذين كان يتم قتلهم أو نبذهم فى العراء أو يتم استبعادهم أو يدفعون للدعارة فى العالم الوثنية قبل مقدم المسيحية). أدى نظام المسيحية الكاثوليكية إلى نشوء السلوكين معا: العزوبية والعناية باللقطاء من الأطفال، موازيا للنظام الأسرى القويم الذى يشجع على الزواج وعلى إنجاب الأطفال الشرعيين. كانت الكنيسة تحتضن كلا النظامين. كان من المحتم أن يكون رجال الدين العزاب مجتمعا عديم الإنجاب (حيث أن العزوبية تحدد لهم سلوكا معينا فى الحياة، كما يحدث فى مجتمعات معينة من عالم الحشرات). فى الحشرات تتميز تلك المجتمعات بوجود غذاء معين، من يتناوله يكتسب خصوبة فائقة، أما فى الإنسان فإن العزوبية سلوك مفروض عليه (ولو أن له أصوله الوراثية)، ولا يورث إلى الجيل التالى. فى أيام الحضانة الطويلة الأولى للدين المسيحى، أمسكت الكنيسة بهذه الخاصية الوراثية واستثمرتها (بالرغم من مخالفتها للعقل ومن سخفها وبالرغم مما صاحبها أحيانا من سوء الاستخدام)، وصارت إحدى القوى الأساسية لتشكيل مجتمع أوروبى متوازن.

صممت الكنيسة تصميما تاما على تحريم غشيان المحارم (كما كان الحال فى القانون اليهودى). لم يكن اهتمام الكنيسة ينصب على العلاقات الجنسية عامة، مَن من الرجال يضاجع مَن مِن النساء، ولكنه انصب على الزواج، الذى كان محدودا بامرأة واحدة. وضعت قوانين جستنيان (ولائحته قائمة من ذى القربى والأنسباء)، شرحهاالفاتيكان بتخطيط مفصل، لمن لايصرح لهم

بالزواج من الشخص بعينه. امتد هذا التحريم إلى أقرباء الدرجة الخامسة. اشتد الجدل – فى القرون التالية – على تلك القائمة وتعرضت لكثير من المفاوضات وتخللها العنف والحروب. أصدر البابا جريجورى تعليماته أولا على تحريم زواج أبناء العمومة من الدرجة الأولى فحسب، ولكن بمرور السنين امتد التحريم إلى ما سوى هذه الفئة بكثير. من وقائع التاريخ الثابتة أن وليم الفاتح قد خالف تعليمات الكنيسة وتزوج من ابنه عم له من الدرجة الخامسة (ماتليدا)، وأن هنرى الثامن قد تزوج من آن بولين التى أنجبت له إليزابيث الأولى التى توجت ملكة على انجلترا. صار هذا التحريم سيفا مسلطا من قبل الكنيسة، ومصدرا لجمع المال الوفير. فقد كان من سلطة البابا أن يبيح ما حرمه القانون (نظير ما يطلبه من مكاسب سياسية أو مادية)، كما حدث عندما اتجه بعض الملوك للحصول على السماح من البابا الآخر المنافس، أو ماكان يفعله البابا عندما يختار واحدا من اثنين متنافسين على العرش. لذا حرص جميع الأمراء على توثيق زواجهم وعلى ضمان شرعية أبنائهم باتباع تعليمات الكنيسة والانصياع لأوامرها. كان لتلك التعليمات ما يبررها من الناحية الوراثية – لضمان جودة النسل وخلوه من العيوب والأمراض الوراثية. ولكن بعد استقرار الأسر المالكة فى أوروبا – بداية من القرن العاشر الميلادى – وجد الملوك صعوبات كبرى فى إيجاد الشخص المناسب لإتمام زواج أبنائهم وبناتهم من خارج الدرجة الخامسة من الأقرباء والأنسباء، ولذا إزداد توجه العائلات المالكة الأوروبية إلى أبعد فأبعد، وامتدت شبكة الزواج التى تجمعهم من أيرلاندة غربا حتى القسطنطينية وبيت المقدس شرقا، ومن قشتالة حتى نوفجورود (ودخل رغما عنهم فى شبكة زواجهم بعض من لهم صلات بالعرب أو التتار وبعض الرحالة من البندقية). كان هؤلاء المستقطبون للدخول فى زمرة العائلات المالكة منتقون لكفاءتهم العسكرية الشديدة أو لبراعتهم الفائقة فى شئون الحكم، مهارت استمروا فى إظهارها هم ومن خلفهم من الوارثين. انتشرت ذرية الملك شرلمان فى كافة أنحاء أوروبا (وفى معظم حقب التاريخ)، وعلى عكس ما حدث فى الأسر الحاكمة العظيمة السالفة (الأخيميون والبطالمة والقياصرة الذين تم اغتيال كثير منهم أو تاكلوا حتى اندثروا بالاستيلاد الداخلي)، استمرت الأسر الأوروبية المالكة فى عنفوانها وظلت قوية منيعة، تتميز بالخصوبة والاختلاف عن بعضها البعض، اتبعت تلك الأسر ما كان يتبعه نبلاء روما من الانتشار والاستيلاد الخارجي، وظلوا مثلهم طبقة فوقية – عن عامة الشعب – أقلية انتشرت فى كافة ربوع أوروبا. تجنبت الأسر الأوروبية المالكة الزواج الشرعى بأكثر من واحدة. من المؤكد أنهم جميعا كانوا يرزقون بأبناء غير شرعين، ولكن لم يكن لهؤلاء حق وراثة العرش (ولذا لم يمارس الأمراء عادة قتل بعضهم البعض لضمان الوصول إلى العرش كما حدث فى كافة الملكيات السابقة)، وهذا التحسن المستحدث فى العلاقات الأسرية للعائلات المالكة يرجع إلى ضبط الزواج بواسطة الكنيسة المسيحية، وساعد هذا بدوره على طول بقاء الأسرات المالكة فى الحكم (طالما احتفظت الكنيسة بسلطاتها) واستمر هذا الضبط لألف عام بعد إرسال بعثة جريجورى التبشيرية إلى إنجلترا.

ويوضح الجدول رقم (١٢) تاريخ المسيحية فى تتابعه منذ نشأتها حتى انتشارها فى العالم.

جدول رقم (١٢)

التوســع المسيحى

مصادر غير دينية:

إستيلاء أنتيوكس على يهوذا من بطليموس الخامس	١٩٧ ق.م.
إرتفاع المكابيين	١٦٦ ق.م.
الأسرة الحاكمة المكابية للملوك الكهنة	١٤٠–٣٧ ق.م.
ضم بومبيى ليهوذا	٦٣ ق.م.
طائفة الإسينيين تودع لفائفها فى كومران	١٧٥ ق.م – ٦٨ م
تولى هيرود العظيم لعرش يهوذا (أيدومى عربى إقترن بأميرة هازمونية)	٣٧–٤ ق.م.
حرب اليهود الأولى – تدمير المعبد بواسطة تيتوس	٦٦–٧٠ م
سقوط الماسادا – القضاء على الإسنيين	٧٣ م
حرب اليهود الثانية – ثورة سيمون باركوشبا – تدمير أورشليم – التشتت الرابع والأخير لليهود التقليديين الفلسطينين (وليس لليهود المسيحيين).	١٣٥ م

مصادر دينية:

ترجمة الكتاب المقدس إلى الإغريقية فى الإسكندرية (السبعونية)	٢٧٠–٥٠ ق.م.
العهد القديم الأخير فى المذهب الكاثوليكى	٥٠ ق.م.
ولادة المسيح (كما يعتقد)	٤ ق.م.
بعثة عيسى فى يهوذا	٢٧–٣٠ م
بعثة بولس التبشيرية فى الأناضول واليونان وروما	٥٠–٦٥ م
الإضطهاد المسيحى الأول فى روما	٦٦–٦٨ م
كتابة الأنجيـل : مرقص فى روما	حوالي ٧٠م
متى فى أنطاكيا	حوالى ٨٠ م
لوقا	حوالى ٩٠ م
يوحنا فى إفيسوس	حوالى ١٢٠ م
كتابة الأناجيل باللغة السوريالية	حوالى ٢٠٠ م
كتابة الكتاب المقدس : باللغة القبطية	حوالى ٢٧٠ م
باللغة الإثيوبية	حوالى ٣٥٠ م
باللغة الأرمينية	حوالى ٤٤٠ م
بالقوطية	حوالى ٤٥٠ م

كتابة العهد الجديد باللاتينية فى قرطاجنة	حوالي ١٨٠ م
كتابة العهد الجديد باللاتينية بواسطة جيروم	حوالي ٣٨٨ م
ترجمة العهد القديم من العبرية بواسطة فقهاء يهود	٤٠٤ م

عصور النزاع والخلاف:

إضطهادات المسيحيين الكبرى : ديقيوس – فاليريان	٢٥٠–٢٦٠ م
ديوكليتيان – جاليريوس	٣٠٣–٣١١ م
قنسطنطين : مراسم التسامح – مرسوم ميلان	٣١٣ م
يوم الأحد عطلة رسمية	٣٢١ م
يهب القسطنطينية لمريم العذراء	٣٣٠ م
مجمع نيقيا (يشجب إريانز)	٣٢٥ م وماتلاها
مجمع إيفيسوس (يشجب النسطوريين)	٤٣١ م
جوليان الحوارى : يعيد فتح المعابد الوثنية	٣٦١–٣٦٣ م
ثيودوسيوس العظيم : إمبراطوراً	٣٧٨–٣٩٥ م
يحدد العقيدة – يمنع الهرقطة والوثنية – يتسامح مع اليهود	٣٨٠ م
يصادر المعابد – يوقف الألعاب الأوليمبية – ينشأ ١٢٠ أسقفية فى بلاد الغال وفى مقدونيا	٣٩٤ م
أوكاديوس (فى القسطنطينية) يفصل البطريرك	٤٠٤ م
فالينتينيان الثالث (فى رافينا) يعترف بسلطة البابا ليو الأول	٤٤٥ م
جستينيان إمبراطوراً	٥٢٧–٥٦٥ م
يطرد الفلاسفة من المدارس بأثينا	٥٢٩ م
يضع القوانين الرومانية المسيحية	٥٢٧–٥٣٤ م
يطرد القوطيين الإريان والوندال من إيطاليا وشمال أفريقيا	٥٣٣–٥٥٢ م

تماسك المسيحية:

شارل مارتل يهزم المسلمين فى بواتييه	٧٣٢ م
شارلمان	٧٤٢–٨١٤ م
يتوج كامبراطور فى روما بواسطة البابا ليو الثالث	٨٠٠ م
البابوية فى روما تخضع لسيطرة القوى المحلية	٨٦٧–١٠٤٨ م
إنشاء مجمع الكاردينالات فى روما	١٠٥٩ م
ثبات المسيحية: فى إنجلترا	
وفى فرنسا	
وفى إيطاليا	
وفى روسيا	

اشهر اعلام المسيحية:

تير توليان	(منشىء المسيحية اللاتينية – ولد بقرطاجنة)	١٥٥–٢٢٢ م
أوجستين	(صاحب مبدأ أن الكنيسة فوق الجميع – ولد بنوميديا)	٣٥٤–٤٢٦ م
ديونيسياس	(راهب سكيثى بروما – حسب يوم القيامة المجيد (فى العهد المسيحى)	٥٢٥ م حوالى ٥٤٠ م
بندكت	يضع آداب السلوك فى دور الرهبنة	٦٣٣–٧٣٥ م
بيديه	مؤرخ الكنيسة الأنجليزية	٧١٦–٧٥٤ م
أسقف بونيفاسى	يحول الألمان والفرانك للمسيحية	٩٨٨ م
فلاديمير	أمير كييف يعتنق المسيحية ويتزوج شقيقة الإمبراطور بازيل الثانى (وتدخل المسيحية إلى روسيا)	

ثانيا : الإســـلام

تعرف الأيام التى سبقت الإسلام بالجاهلية، وكانت أخبار الأيام السابقة تحفظ فى الذاكرة وينشدها الناس شعرا. معرفة العالم بحياة العرب جاءت من أربعة مصادر : الحفريات، اللغة، آداب الأمم المجاورة فى الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية، ومن حياة العرب حتى عصرنا الحاضر. أحدث العرب الذين تركوا شبه الجزيرة العربية تغيرات هائلة فى البشر فى آسيا وأفريقيا وأوروبا، ولكن من ظلوا ببلادهم بقوا على حالهم قرابة ألف وثلاثمائة عام. ظل هذا الجمود على حاله حتى غيره محمد.

فى بلاد تقع فى وسط مهد الزراعة بين واديّ ما بين النهرين ووادى النيل، والتى كان مبدؤها غزو قبائل الرعاة الحاميين والساميين من الجزيرة العربية نشأت الحضارة الأولى فى وديان تلك الأنهار. بدأ المزارعون فى الألف سنة الرابعة والثالثة ق.م. يشقون طريقهم إلى الأراضى الخصيبة فى اليمن، بينما ظل الرعاة يقضون على البقية الباقية من الزرع على مشارف الصحراء، التى زاد امتدادها كلما خف زرعها. بقى أهالى اليمن وحضرموت يتمسكون بمزروعاتهم وبدءوا يصنعون الآلات ويختزنون المياة ويحافظون على الأرض الخصبة، واستثمروا محاصيل التوابل وبدءوا التجارة فيها. ولكن فى الألفى عام الأخيرة، بدأت زراعاتهم فى التقلص وبدءوا يعانون من الهجمات المتكررة من جيرانهم من الرعاة الذين دأبوا على تدمير منشئاتهم. هاجم الرعاة الفقراء المدن الغنية فى أرض الجزيرة، كما هاجموا اليمن. نشأت طبقة من المحاربين الحكام وأدخلوا كهنتهم الساميين وآلهتهم السامية ولغاتهم السامية وفرضوها على الشعوب التى قهروها، فدخلت فى أكسوم وفى الحبشة، ونقشوها على آثارهم بحروف منشقة من الأبجدية الفينيقية. أدت تلك الصراعات إلى تطور الشعوب العربية وإلى نمو الحضارة. كانت عملية التحضر بطيئة، كان أهم معالمها استئناس الجمل، الحيوان السريع الجرى الذى انقرض أسلافه منذ زمن طويل. أول مصدر تاريخى لهذا الحيوان يرجع إلى أهالى مدين حوالى سنة ١١٠٠ ق.م. وكان استئناس الجمل عاملا على زيادة تصحر الأراضى وإلى اضمحلال حوض حضرموت وعاصمتها مأرب. أما مزايا الجمل فكانت القوافل التى عبرت الصحارى ووصلت البلاد التى كان مستحيلا بدونه قيام أى اتصال بينها، ونقلت تلك القوافل التجارة خلال الصحراء، وبذا نشأت المستعمرات العربية فى الصحارى مترامية الأطراف، متفرقة عن بعضها

البعض، المتحاربة مع بعضها، دائمة الحرب والقتال، وبهذا تشكل الاقتصاد فى بلاد العرب. هكذا صار العرب، قبائل رحل من البدو تعيش مع الجمل متعمدة عليه فى لحمها ولبنها وانتقالها وحروبها وتدافع عنه ماوسعت، فهو مصدر الحياة لها. خدم قبائل البدو الرحل، قبائل أخرى استقرت فى أماكن محددة وتخصصت فى أنواع بعينها من صنوف الاقتصاد. عاشت تلك القبائل فى جميع البلاد العربية وفى شمال أفريقيا مع البدو الرحل. تركت هذه القبائل آثارا تدل عليها طوال الخمسة آلاف سنة السابقة مثل قبيلة السلويا فى شبه الجزيرة العربية وقبيلة التومال فى الصومال. تلك العلاقة بين البدو الرحل والقبائل المستقرة فى أماكنها تتضح على وجه الخصوص فى أرض المستنقعات فى دلتا نهر الفرات. على حافة أرض المستنقعات توجد قبيلتان تتحدث بلهجات متميزة تعتمدان على لبن الجاموس وروثه وعلى صيد الأسماك بالحربة وعلى صيد الطيور. ليس لهاتين القبيلتين أى دين ولايقومون بالصلوات ولا بأداء أى طقوس دينية، ويأكلون الطعام المعتاد ولهم المحاظير الجنسية المألوفة. ولكن يعيش بينهم أفراد أكثر تحضرا يعتبرون أرقى منهم طبقيا. بعض أولئك يعملون كنساجين أو باعة متجولين ويعتنون بالحدائق ويصيدون السمك بالشباك، ولكن بعضهم الآخر أكثر رقيا طبقيا وهم الصناع الحرفيون أو الرجال المقدسون الذين توارثوا مراكزهم العالية من أسلافهم من الشيوخ الحكام، يحتفظون بالعبيد من الزنوج ويتولون تربيتهم، وأخيرا هناك طبقة الراقصات والراقصين (التى عمل أفرادها من الذكور فى اللواطة قبل زواجهم). كل هذه الأمور مازالت تجرى فى عصرنا الحاضر ولكنها قديمة قدم الأزل وهى تشير إلى أن أسلاف العرب كانوا يعملون بالصيد والقنص وبرعى الحيوانات وبالزراعة وأنهم تلاقوا مع بعضهم البعض ونشأت منهم مجتمعات ذوات طبقات أكثر تعقيدا من أسلافهم البدائيين.

نشأت قبائل العرب البدو ــ الذى يقومون بتربية الإبل ــ من تلاحم قبائل من المزارعين مع قبائل ممن يعتمدون على الصيد والقنص. تسرب بعض هؤلاء إلى المجتمعات المدنية التى استقرت فى أماكن بعينها، بينما بقى عدد كبير من الناس رحلا، يعيشون حياة بدائية فى حرية تامة، بدون أى تقسيم طبقى، وظل الاستبداد بينهم فى أغلب الأحيان استبدادا داخليا بين بعضهم البعض. كان الاستبداد الخارجى يحدث فقط عندما يطرد أحد أفراد القبيلة ويضطر للجوء إلى قبيلة أخرى تحتضنه وتأويه. نظرا لتلك العزلة، كان لكل قبيلة عادتها وتقاليدها وسلوكها وقوانينها الأخلاقية، وكانت تلك العادات ثابتة ولاتتعرض للمغامرات أو التجديد. كان نشاط كل قبيلة ومعتقداتها محليا: كان لكل قبيلة إلاهها، يعمل له صنم خاص به ويعبد، وكانت لهم مقدسات قبلية منذ عهود سحيقة فى القدم، وكانت الحروب تقوم بين القبائل نتيجة ضغائن وحزازات مبنية على الثأر والقتل سواء كان مقصودا أو غير مقصود، ولم يكن العفو ــ لو لمجرد الشك ــ مقبولا. كان النظام بأسره يقوم على الطقوس والشعائر. بعد المعركة يتم حصر عدد المقتولين ويتم دفع دية القتلى. كانت أشهر الزرع

والحصاد تعتبر أشهرا حرما، يوقف فيها القتال، وكان يتم وأد البنات (ويحدث هذا التوازن المطلوب فى أعداد النساء التى تزيد عن أعداد الرجال إثر كل معركة). وإذا قل عدد النساء تشجع المجتمع على اللواطة (فى الزمن القديم كما يتم فى الأزمان الحالية). بهذا حدث التوازن فى أعداد البشر وفى سلوك الأفراد، وظل ثابتا، طالما لم يدخل غرباء إلى تلك المجتمعات المغلقة على نفسها فى الفكر وفى الخصائص الجينية. ولكن كانت القبائل العربية تهاجم، كل حين وآخر، جيرانها التى تتاجر معها، وتسترق أهلها، وحدث بهذا اختلاط عرقى وتكونت الهجن بين القبائل البدوية وجيرانهم من الفلاحين والتجار فى شمال الجزيرة العربية وفى جنوبها. أما فى وسطها ـ حيث الصحراء العربية المترامية الأطراف فلم يحدث لها اختراق حقيقى ـ سواء بالزراعة أو التجارة ـ حتى بداية العصر المسيحى، حينئذ وفد إلي بلاد العرب أناس جدد ووفدت أفكار حديثة.

دخل هؤلاء البشر الجدد ليس عن طريق الحرب، ولا بجيوش الإمبراطوريات الكبرى التى تحيط بشبه الجزيرة العربية ـ لأن تلك الجيوش لم يكن لها مطمع فى صحارى خالية ولأن الجيوش لم تتمكن من اختراق تلك الصحارى ـ ولكن حدث الاختراق بواسطة أناس لايحملون سلاحا ولكن يحملون عقيدة، جاءوا فرارا من التعذيب والاضطهاد. جاء اليهود فارين من البابليين أولا ثم فارين فيما بعد من الرومان الذين دمروا بيت المقدس فى عهد تيتوس وعهد هادريان. جاء اليهود أساسا كصناع. يصنعون الحلى الذهبية ويصنعون السيوف الحديدية، ولكنهم قدموا أيضا كتجار، وكان يعيش اليهود جميعا فى المدن. سرعان ما أثرى أولئك القادمون الجدد واشتروا العبيد ودعوهم لاعتناق دينهم ثم تناسلوا معهم. بهذا التهجين تكاثروا واستولوا على الأراضى وكونوا واحات. فى أثناء ذلك تغيرت طباعهم وألوانهم ولغتهم، وصار دينهم وكتابهم المقدس ينقل الآن شفهيا باللغة العربية. (ترجم كتاب اليهود إلى اللغة العربية بعد ألف سنة من ترجمته إلى اللغة الإغريقية بواسطة يهودى كان يعيش فى مصر بين عامى ٨٩٢ ـ ٩٤٢م يدعى ابن الفيومى، وكان المقصود بهذه الترجمة اليهود الذين يعيشون فى فلسطين الذى استبدلوا اللغة العربية باللغة الآرامية).

بعد اليهود ـ بدأ المسيحيون فى نشر دينهم. لم يأتوا لبلاد العرب كصناع مهرة ولكنهم أتوا فى بعثات تبشيرية وكرهبان، من طوائف مضطرة (كالنساطرة). الذين تم اضطهادهم فى الجزيرة العربية فيما بعد. قدم إلى الجزيرة أيضا أقباط من مصر (من القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة)، وآخرون لنشر دينهم باللغة العربية أيضا، وبهذا انتشرت تلك اللغة. وجد هؤلاء المسيحيون أنصارا لهم من بين المسيحيين الآخرين فى الحبشة وعلى ضفاف البحر الأحمر فى الجزيرة العربية، وكان نجاشى الحبشة عونا كبيرا لهم. حدث نزاع بين اليهود والمسيحيين للسيطرة على تجارة التوابل فى اليمن فى القرن السادس، ووصلت ذروتها فى إغارة الأحباش على مكة، فى نفس العام الذى ولد فيه محمد. ويوضح الجدول رقم (١٣) تتابع الأحداث فى الجزيرة العربية قبل مقدم الإسلام.

جدول رقم (١٣)

العرب قبل الإسلام

الألف سنة الرابعة قبل الميلاد	مهاجرون من سوريا بدأوا يزرعون القمح والشعير ومحاصيل أخرى على شواطىء البحر.
الألف سنة الثالثة قبل الميلاد	بدأت زراعة المصاطب والرى فى الجنوب الخصيب بالبلح المحلى والتوابل من الخليج الفارسى، والسمسم والقطن من أفريقيا. بدأت التجارة البحرية على السواحل ـ ربما بدأها السومريون ـ إلى وادى الأنديس وإلى أفريقيا.
الألف سنة الثانية قبل الميلاد	تغلغل الساميين من الرعاة إلى الجنوب، ثم عبورهم البحر الأحمر إلى أفريقيا. بدأت أغنامهم وماعزهم، ثم خيلهم وجمالهم فى تجريد الأراضي من النباتات وصارت الأراضى بالتدريج أراضى جرداء وصحارى. بدأت اللغات الأمهرية وبدأت الطبقية فى المجتمعات التى قسمت إلى الملوك والنبلاء والكهنة والتجار الأجانب والصناع والزراع المتنورين.
الألف سنة السابقة للميلاد	قيام الحرب بين مملكة سبأ وسائر الممالك للسيطرة على جنوب شبه الجزيرة بأسره وللتحكم فى تجارة التوابل المحلية ومن الهند مع مصر. مأرب (على ارتفاع ٧٠٠ قدم فوق سطح البحر إلى الشرق من الجبال الحاكمة والتى تقسم البلاد وعلى رأس حوض حضرموت) تصير عاصمة اليمن. يبنى سد عظيم لتخزين المياه ولدعم الزراعة ولمقاومة امتداد الصحراء حوالى عام ٧٠٠ ق.م. تدخل الأبجدية الفينيقية وتبنى المعابد من الحجارة.

فى منتصف الطريق بين اليمن وسوريا يمر الطريق التى يخترقه البدو من مرعى الشتاء فى جدة إلى مرعى الصيف فى الطائف الواقعة على المرتفعات، حيث يقع بئر زمزم. فى هذا المكان وضع الأقدمون الحجر الأسود. فى هذا المكان القاسى وضع حجر أسود، منذ زمن بعيد، ليكون علامة على

لقاء القبائل لتبادل التجارة ولإقامة المباريات والألعاب بدون أن يتحاربوا، على نفس النمط الذى سبق وفعله اليهود والإغريق. فى القرن الثالث (أو الرابع) الميلادى أقيمت خيمة على هذا الحجر الأسود، وسمى الكعبة وصار مقدسا، وأصبح هذا المكان يعرف باسم «مكة». الذى أقام مدينة مكة قوم يعرفون باسم قريش، من النبطيين، الذين جاءوا من حدود أرض الجزيرة. كانوا قوما من الرعاة، ينتمون إلى إبراهيم، أول من عبد الله من البشر. ولكن وجد القرشيون أن مغنمهم من رعاية القادمين لهذا المكان ووفادتهم، وسقايتهم وإطعامهم يفوق كثيرا أى ربح يجنونه من تجارتهم. بدؤا يبيعون الماء للقوافل ويتقاضون المكوس على عبور الطريق، ثم بدؤا يصنعون أصناما يبيعونها لهم، وكانت مواسمهم السنوية والأرباح التى يجنونها فى الاحتفالات مصدرا لثراء القبيلة. صار لهم أتباع وزبائن وعبيد: من اليمنيين ومن الزنوج ومن اليهود ومن المسيحيين. كانت لهم زوجات عدة وعشيقات كثيرات، وتكاثر عددهم وانقسموا إلى ستة وثلاثين بطنا. اختلطت الأجناس والطبقات والعادات والأديان ونظم الإرث، تباينت بطون قريش الستة والثلاثين من حيث الثراء والقوة ومن حيث البلاء فى القتال، والإنجاز فى التجارة، والدهاء فى السياسة. وبهذا اختلفوا من حيث المركز والشهرة، فعاش الاكثر عزا والأشد قوة والأغزر مالا فى وسط مدينة مكة، بينما قطن الأفقر والأضعف فى ضواحى المدينة، التى أخذت تزداد حجما جيلا بعد جيل، حتى صارت تضارع كبريات المدن كأثينا وروما كما كانت منذ آلاف السنين. ولكنها اختلفت عن تلك المدن بعدم وجود قوانين مكتوبة ولا قضاة معينون ولا حكم وراثى. كانت تقاليد القبيلة وعادات العائلة وآراء الكبراء هى القانون المتبع. أهم ما يميز مكة كان موقعها. كانت فى وسط شبه الجزيرة العربية، وسكانها يمثلون جميع سكن بلاد العرب، وصارت مكان الحج فى البلاد العربية. بحلول القرن السادس الميلادى صارت الكعبة مكعبا كبيرا من الحجارة (تم بناؤها بواسطة عمال من المصريين المسيحيين)، وكانت تحوى أصنام جميع القبائل العربية، لتجتذب الجميع للحج إليها (وربما كانت تحوى من ضمن ما تحوى تمثالا لمريم العذراء). صارت عبادة آلهة الكل تقليدا متبعا فى قبيلة قريش، التى اتخذت لها آلهة عدة، بعد أن صارت مدينة غنية، متسعة وصارت لها صناعة رابحة. اختلف سكان المدينة من البسطاء الذين يؤمنون بسذاجة، إلى أولئك الذين اتخذوا من الكهانة مصدر رزق لهم.

فى وسط هذا الخضم تمكن محمد أن يحقق معجزة، وهى تحويل مجتمع قبلى مزقته الحروب إلى مجتمع قومى متماسك، تحول بعد قليل إلى مجتمع عالمى يوحده القانون. هذا هو نفس ما حققته الإمبراطورية الرومانية وتحولها إلى المسيحية، ولكن الفروق أن محمدا تمكن من تحقيق هذا الإنجاز العظيم بمفرده فى حياته، بدون أن تكون له سابق خبرة بالحرب ولا بالتكتيكات العسكرية ولا بالإستراتيجيات الحربية، وهو اليتيم الأمى الذي يحميه عمه فحسب. صار زعيما لقبيلة من كبريات

القبائل العربية وأسس دينا مكتوبا وقانونا رفيعا يتعامل مع كل ما تتطلبه الحياة. حقق محمد هذه المعجزة فى نيف وعشرين عاما: بدأ أولا ببناء جماعة من المؤمنين من صحابته المخلصين، ثم تمكن من حكم مجتمع كبير بكفاءة نادرة. كانت المرحلة الأولى فى مكة وأتت المرحلة الثانية في المدينة. ولد محمد بمكة فى عام الفيل، العام الذى تمكن فيه الغزاة الأحباش من اختراق شبه الجزيرة العربية من الجنوب حتى وصلوا إلى مشارف مكة. تزوج للمرة الأولى وهو فى سن السادسة والعشرين من أرملة ثرية أسن منه كثيرا وبدأ بالتجارة فى أموالها لمدة خمسة عشر عاما. حملته رحلات التجارة هذه إلى جميع أركان البلاد العربية وربما يكون قد وصل إلى مصر. تعلم الكثير فى رحلاته هذه باستفساره الدؤوب عن كل ما يقابله وتعمقه فى سبر أغوار ما يسمعه ويراه فى مجتمعات كثيرة حتى استقر نهائيا فى مكة حوالى عام ٦١٠ م.

أول ما تعرض له محمد هو يوم الحساب (يوم الخلاص فى المسيحية ويوم الجبراء لدى الزرادشتيين)، ثم بين للمنصتين إليه كيف يتم خلاصهم فى يوم الحساب، وأقنعهم أن السبيل هو اتباع ملة ابراهيم ونبذ الأصنام وعبادة الله الواحد القهار. صار المؤمنون الأولون طائفة منبوذة فى بلادهم. عاونه فى نشر دعوته أبو بكر الصديق، وبدأ المؤمنون يتكاثرون سرا فى الخفاء. كان العبيد من أوائل المؤمنين، وكان يتم عتقهم عندما يعلنون إسلامهم. دأب أبو بكر (التاجر الثرى) على شراء العبيد من سادتهم ثم عتقهم. اعتبر مجتمع مكة ـ عبدة الأصنام والمستفيدين منها ـ دعوة محمد خيانة وحاربوها بكل ما وسعهم من قوة (كما اعتبر الرومان من قبل أن المسيحين فى روما خونة). فرت ثلاثة وثمانين عائلة من المسلمين من ديارهم والتجئوا إلى النجاشى فى الحبشة واستقروا فى عاصمته أكسوم. استمر باقى المسلمين فى مكة يتعرضون لاضطهاد أعدائهم، ويزداد جلدهم وشجاعتهم وإيمانهم، وبعد هجرتهم بدينهم إلى المدينة زاد عددهم وإزدادت قوتهم. نزلت بعد ذلك تعليمات الصلاة والتطهر والصيام ووضعت شروط الزواج وحدود لتعددالزوجات، ووضعت تعاليم الميراث، وحُرّم إتيان المحارم وتعدد الأزواج وقتل الأطفال واستعباد المسلمين. تشابهت تعاليم الإسلام مع تعاليم اليهودية التى تشجع على الإنجاب. باتباع تلك التعليمات تزايد عدد المؤمنين وقويت شوكتهم وزادت هيبتهم وصاوا مصدر احترام الجميع. أصبح المسلمون أمة بعد أن كانوا قبيلة، وأضحوا مملكة الله على الأرض.

فى المدينة قابلوا اليهود، الذين التجئوا إلى يثرب بعد تدمير أورشليم وكذلك بعد تدمير مأرب فى اليمن. كان يهود يثرب خليطا من العرب واليهود والجنس الهجين. كان هناك أثرياء من اليهود، مثقفون يستخدمون الأبجدية العبرية للتحدث بلغة خاصة بهم. كان الوحى الذى يبشر به النبى

مرفوضا منهم، وكان على الرسول التأثير عليهم وإقناعهم. بعد غزوة بدر ـ التى انتصر فيها المسلمون ـ اتجه أهل المدينة ـ الذين كانوا منقسمين إلى قبيلتين متعاديتين ـ إلى محمد للتوفيق بينهم فأصلح بينهما كما ينجح رجل السياسة المتمكن. عين محمد رؤساءا لإدارة دولته وبنى مسجدا ليزاول تعليمه منه، وأبعد المنافقين. تحول رؤساء القبائل العربية جميعا، الواحد تلو الآخر، ومعهم قبائلهم للإسلام. صار النجاح الذى لاقاه محمد فى دعوته الدينية، كرسول الله، هاديا للناس فى كل أمور حياتهم. أشاد بقدرة العقل وجعله نبراسا يهتدى به الناس فى حياتهم، ووضع لهم قواعد لشئون السياسة والقانون بالإضافة إلى أمور الدين، وكانت هذه القواعد من الصحة والصواب بحيث قادت المسلمين إلى حضارة عالية. نجح محمد فى هداية الوثنيين فى شبه الجزيرة العربية بأسرها ولكنه لم ينجح فى هداية اليهود. آمن محمد بإبراهيم كسلف له واعترف بالوصايا العشرة التى أتى بها موسى وبدأ فى أول عهده يتوجه إلى بيت المقدس قبلة له وتبع نفس تقسيم اليهود للأسبوع إلى سبعة أيام ولكنه استبدل يوم الجمعة بيوم السبت ـ كيوم عبادة لأمته. زاول أتباعه الختان لذكور المسلمين وشرع لأمته صيام يوم الكفارة اليهودى، بالرغم من هذا رفضة اليهود فرفض هو بدوره اليهود. استبدل شهر رمضان بيوم الصيام لدى اليهود، وحول قبلته من أورشليم إلى مكة، وبدأ عهد من العداوة مع اليهود ـ بدلا من هدايتهم فليدمرهم المسلمون ويصادروا ثرواتهم. استمرت هذه السياسة خمس سنوات، وحارب محمد اليهود فى ثلاث غزوات متتالية بهدف هدايتهم، ورفض الجميع ـ باستثناءات قليلة ـ اعتناق الإسلام. تم طرد اليهود من بلاد العرب فى الغزوتين الأولتين وتم قتل ذكور اليهود فى الغزوة لثالثة مع استرقاق نسائهم وأطفالهم. إزداد المسلمون قوة بعد تلك الغزوات وإزداد ثراؤهم بالغنائم التى حصلوا عليها. وكان لامتلاكهم لنساء أجنبيات عنهم ـ من أهل الكتاب ـ والتهجين معهن أثر هام فى مستقبل العرب. هاجم محمد يهود خيبر، التى تقع على مسافة ١٥٠ ميلا شمالى يثرب، استسلم اليهود، وفرض المسلمون عليهم الجزية مقابل الإبقاء على حياتهم. بهذا القانون الجديد استطاع محمد أن يبنى إمبراطورية شاسعة.

أباح هذا القانون الجديد، لأهل الكتاب، من المسيحيين واليهود والصابئيين (وفيما بعد للزرادشتيين) أن تُستبقى حياتهم ويبقون أحرارا بدون استعباد ـ حتى إذا رفضوا أن يدخلوا فى دين الله ـ مقابل دفع الجزية (التى يعفى منها المسلمون). هذا المبدأ يخالف ما اتبعه المسيحيون من وجوب اعتناق الدين الجديد وإلا لاقوا القتل والاضطهاد. انتشرت المسيحية فى مجتمعات متخلفة وكانت آتية من مجتمعات أكثر تقدما، أما الإسلام فكان يحاول الانتشار من مجتمع متخلف إلى مجتمعات أكثر تحضرا، وكان هذا عملا شقا صعب التحقيق. جاء فى القرآن الكريم «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (٢٩ ك الكهف ١٨)»، وبهذا أعلن محمد أنه يعترف بحقوق الأقليات الدينية والعرقية فى مجتمعه، وألاّ إكراه فى الدين، وهذا ما انعدم تماما فى أوروبا

المسيحية. بهذا تمكن محمد من الحفاظ على المجتمع الإسلامي في الشرق القديم في الألف سنة التالية. كان على الإمبراطورية الإسلامية أن تضع الأصول القانونية لحماية حق احترام الأديان وقد وضعت أول تلك الأصول بما فعله محمد مع يهود خيبر: إما اعتناق الإسلام أو دفع الجزية. في نفس الوقت الذي كان محمد يخضع فيه العشائر اليهودية، كان يستعد لخوض صراع طويل مع أهل مكة، بمراقبة جواسيسهم ومقاومتهم، واعتراض قوافلهم وصد غاراتهم. تم القتال في الأشهر الحرم ولم يتم احترام التحالفات، وتم إبراز تفرق القيادات بين المشركين. قرر محمد أن يتفاوض مع أهل مكة للسماح للمسلمين بالحج إليها وقام هو وزوجاته وعشيرته الأقربون وألفين من المحاربين المسلمين مظهرين قوتهم وفي نفس الوقت المركز المقدس لمكة عند المسلمين. في العام التالي خضعت مكة لنبيها الذي سبق ونفته من أرضها. دخل المدينة منتصرا، وحطم أصنامها في الكعبة، الذين لم يكن لديهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم. سلم محمد مفاتيح الكعبة للقوم الذين جبلوا على الحفاظ عليها وكرس المكان كالمكان الأقدس في الإسلام، موطن الحج ووجهة المصلين، المكان الذي لاموضع فيه لصنم ولا محل فيه لغير المسلمين. وهكذا دارت الدوائر على الوثنيين، عباد الأصنام، وصارت مكة للمسلمين قبلة اقتصادية وسياسية بالإضافة إلى وحدتها العرقية وأيديولوجيتها الإسلامية وارتفعت إلى قمة لم تطاولها فيه أي مدينة أخرى، بعد هذا النصر الحاسم لمحمد، عاد إلى المدينة، وبقي فيها العامين الباقيين له في الحياة، الذين أخضع فيها كل شبه الجزية العربية. من الناحية الاقتصادية دأب الإسلام على تحصيل الزكاة من المسلمين وجباية الجزية (وهي أكثر كما) من غير المسلمين. ومن الناحية الاجتماعية عم السلام في كل ربوع الجزيرة العربية، وبدلا من أن يفكروا في الماضي، استشرقوا المستقبل وعملوا من أجله، وأغمدت السيوف نحو أنفسهم وأشهرت نحو الآخرين. عم السلام بين الأخوة وأبناء العمومة وصارت القوة المدمرة التي يملكها العرب مجمعة في يد واحدة، توجهها نحو الجيران الأثرياء، الذين لم يقيموا وزنا للعرب على مدى ألفي عام، وكانوا يحتقرون ضعف سكان الصحاري ويعيبون عليهم همجيتهم. هذه هي الحال التي تركها محمد لخلفائه ساعة وفاته.

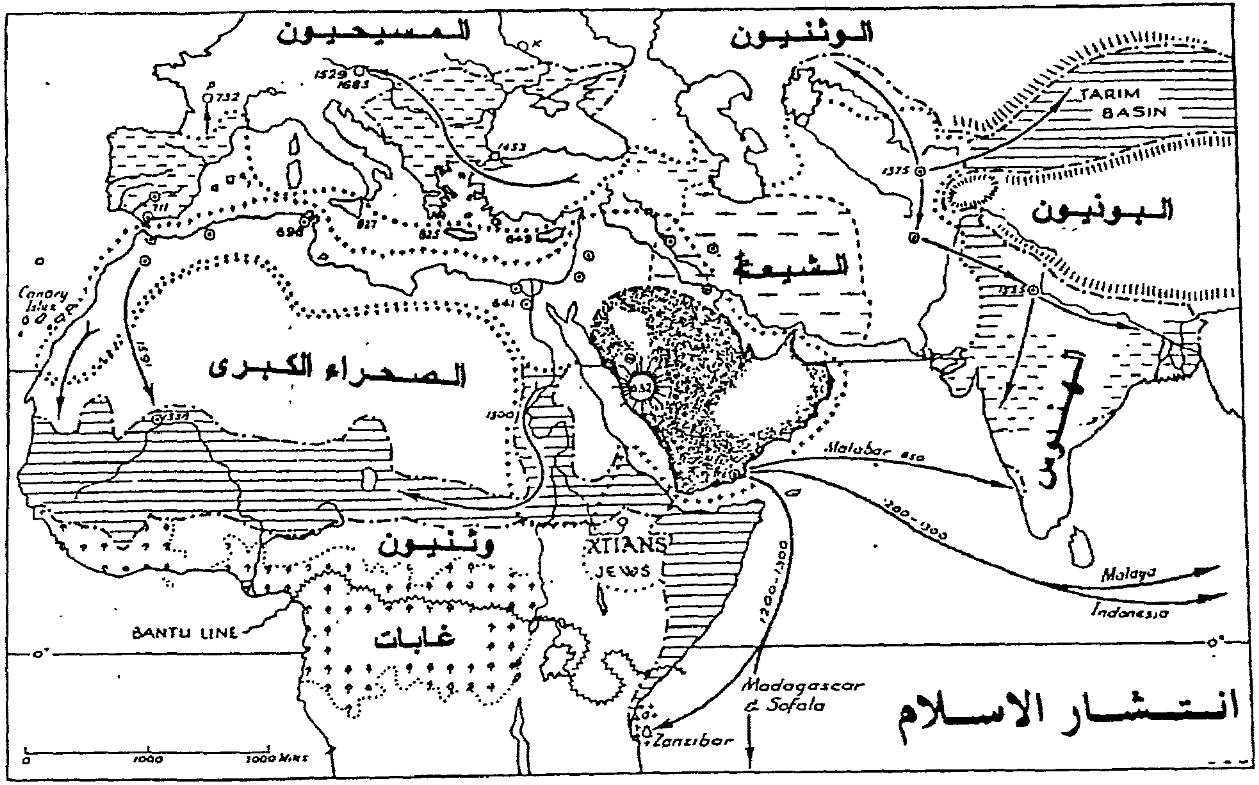
في مدى ثلاثة أجيال ـ بعد وفاة الرسول ـ أي بعد مائة عام بالضبط ـ تمكنت جيوش الإسلام من إنشاء إمبراطورية كبرى. اقتطع المسلمون الجزء الجنوبي من الإمبراطورية الرومانية وسادوا بلاد العرب وإسبانيا، وضموا الإمبراطورية الفارسية بأسرها، وأنشأوا دولة تمتد من المحيط الأطلنطي حتى حدود الصين. في هذه الدولة صارت شبه جزيرة العرب إقليما صغيرا قليل السكان، ولكن جميع مواطني تلك الدولة اعتبروا أنفسهم عربا، لأنهم كانوا يتحدثون باللغة العربية ويتبعون القوانين الإسلامية التي نص عليها القرآن المقدس والأحاديث الشريفة التي قالها الرسول أو عمل

بها. يوضح الشكل (٥) التوسع الإسلامى فى العالم. كان ما تحقق من الناحية العسكرية ومن الناحية السياسية يفوق أى انجاز حققه الإسكندر الأكبر. صاحب هذا انتشار عرقى وامتداد لغوى عظيم، انتشار للساميين يعادل انتشار الآريين، ويعتمد على تكاثر الطبقة الحاكمة وانتشارها فى ربوع البلاد، واستطاعت نشر لغتها ببطء على السكان، أو على معظم سكان البلاد التى ضموها لسلطتهم. كان التوسع سريعا ونشر اللغة سريعا ويرجع هذا إلى عوامل ثلاثة استخدمها العرب.

العامل الأول لهذا النصر السريع هو استخدام الخيل فى الحرب بواسطة قوم نشأوا على الرعى وتعودوا على القتال ومارسوا الحرب لأجيال طويلة. وفى هذا المقام يتشابه العرب مع جميع الأقوام التى نشأت فى المراعى، ولكنهم تفوقوا عليهم بسرعتهم، وكرهم وفرهم فى صحارى شاسعة وسط ظروف شديدة الصعوبة. على مدى خمسين جيل أضاف الحصان العربى والجمل للبدو، إلى أسلحتهم الأخرى، قدرة على العدوان والقتال. تم انتقاؤهم فى القبائل وكأفراد، خاصة كزعماء وسادة فى تلك القبائل، بناء على مقدرتهم فى الكر والفر والإقبال والإدبار، والانتصار فى المعارك والحروب. قاد التوسع الإسلامى قوادا من قبيلة قريش، وهيأت لهم قدرتهم تلك فى مكة، وسط الطرق الرئيسية للقوافل فى بلاد العرب، المقدرة على قيادة جيش يتألف من ٣٠ ألف مقاتل من البدو والمحاربين تم إعدادهم للمعركة الأولى. كان تكتيكهم هو الإغارة السريعة والقرصنة وتوج هذا الأسلوب بالنصر السريع. ومما يذكر أن نفس هذا التكتيك هو ما أدى إلى انتصار الشعوب الآسيوية من أواسط آسيا من الترك والتتار والمغول فى إغاراتها السريعة غربا وانتصارها فيما بعد.

كان ثانى عوامل انتصار العرب هو دينهم. وحد الدين بينهم وساوى بينهم، وأشعرهم بفرط القوة وشدة الأهمية. آمنوا بحتمية النصر، وأن من يستشهد فى سبيل الله له الجنة. أدى كل هذا إلى اكتساح العرب لكل أعدائهم وإلى تخطى الفرد لكل عوائق الفرقة القائمة على الأصول القبلية أو العائلية التى كانت تحدث انشقاقا بينهم.

وثالث تلك العوامل هو ظهور قادة عظام بينهم. بعد النبى محمد ظهر أبو بكر الذى سيطر على الفتنة ووحد الأمة، وبعده ظهر عمر الذى كان يتمتع بصفات الزعيم والقائد والإداري الناجح والسياسى الفذ، ثم ظهر معاوية السياسى الداهية. حقق عمر بن الخطاب توسع الدولة الإسلامية وحافظ معاوية بن أبى سفيان على تلك الدول الشاسعة. وأثبتت كل تلك الإنجازات أن قبيلة قريش، المعتدة بنفسها لها أن تفخر بأبنائها ذوى المقدرة على الحكم. وأخيرا فإن المجتمع الذى خلقه الإسلام صار مجتمعا متغيرا، متطورا ولم يبق مجتمعا ساكنا جامدا، أعمل العقل واستثمر منجزاته.



مهد الاسلام عام ٦٣٢

حدود انتشار الاسلام حتى سنة ٧٥٠

الفتوحات الاسلامية أيام الامبراطورية العثمانية

حدود التكلم باللغة العربية اليوم ++++++

المسلمون الشيعة

أراض فقدها المسلمون

كان برنامج المسلمين فى فتح البلاد وفى الدعوة إلى الإسلام يختلف من بلد إلى بلد حسب نوعية الشعب المغلوب، وكان يختلف بالنسبة للطبقة فى المجتمع ولجنس الشعب ودينه. بالنسبة لطبقات المجتمع اختلف أسلوب التعامل بين الطبقة الحاكمة إلى طبقة الفلاحين، ومن الصناع إلى المثقفين. كان الحكام يختارون فى أول الأمر من الجيوش المنتصرة، رجال من قريش، بعد أن قتلوا فى المعارك أو نفوا الحكام السابقين والقادة الأقدمين. ضم الأمراء الجدد نساء أعدائهم وبناتهم إلى حريمهم. إذا اعتنقن الإسلام تزوجوهن، وإلا أصبحن محظيات لهم. بهذه الطريقة تكون أفراد فى جيل واحد ـ مسلمى الديانة، يدافعون عن حق العرب فى الحكم، على مقدرة فائقة، وذوو مهارات وصفات متعددة، وعباقرة بكل معنى الكلمة. تكاثر عددهم بسرعة فى سنوات قليلة. ربما كان عدد الجيوش العربية التى خرجت من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى مائة ألف محارب، تبقى منهم على قيد الحياة ـ بعد الحروب ـ عدد أقل من ذلك، ولكن بلغ عدد خلفاؤهم من المقاتلين بعد جيلين أو ثلاثة عدة ملايين، ملأوا العالم الإسلامى. من أين أتى هؤلاء وما أصلهم الجينى؟ كان لتعدد الزوجات الذى مارسه المنتصرون أثر بالغ فى هذه الزيادة. لم يفعلوا مثل ما فعله مولاى إسماعيل فى المغرب ـ سلطان مراكش ـ بعد ألف سنة، والذى أنجب سبعمائة ابن (كان متفرغا للإنجاب! وفاق ما فعله ملك مصر من قبل ـ رمسيس الثانى) ولكنهم كانوا يستكثرون من النسل بجانب قيامعم بأعمال حضارية أخرى. أدى تكاثرهم السريع هذا إلى ملء العالم الإسلامى بالجين العربى، وهكذا كان تأثيرهم عليه. كان باستطاعتهم ـ بعد كل عدة أجيال ـ أن ينجبوا ملايين من الأجناس الهجن. أنشأوا وملأوا المدن الجديدة كالكوفة والبصرة والقاهرة والقيروان وفاس وقرطبة وبغداد. هكذا أثمرت سياسة الإسكندر الأكبر ـ على يد العرب ـ وصارت الأجناس الهجينة من العرب من غيرهم من الأمم ملء العيون والأبصار، وأثمرت هذه الأجناس الهجينة حضارة شاهقة لم يبلغها الأوائل. انتشرت اللغة العربية، التى كان على المسلمين فى كافة أرجاء العالم تعلمها وأداء صلواتهم وطقوسهم الدينية بها، ومن ثم صارت لغة الحديث اليومية لهم (ومازالت اللغة العربية لغة بلاد كثيرة إلى الآن، يكتبونها بحروف عربية، ووضعوا لها أصول النحو والصرف، وينشدون أشعارهم بها ويتغنون بأغان عربية تنتشر سريعا فى كل العالم العربى). أنشأت المدارس التى تعلم القرآن وأصول الفقه والحديث، والعلوم الحديثة باللغة العربية ونشأت طبقة من المتخصصين فى دراستها وتعليمها للناس. تأكد استمرار اللغة والدين عن استمرار الحضارة العربية ـ حتى بعد زوال الإمبراطوريات وانهزام الجيوش واحتلال الأرض وتشرذم الدولة وتفرقها إلى قطع وشظايا. وهكذا نشأت الشبكة التى ربطت المواطنين وحافظت على جنسهم عبر الزمان والمكان.

هذا هو مصير الحكام، أما بالنسبة للفلاحين، فى كل مكان، فقد تحولوا إلى الإسلام بدون زواج ..ن المسلمين. باعتناقهم للإسلام، احتفظوا بأراضيهم التى عشقوها، ولم يدفعوا للحكام المسلمين ٰكثر مما كانوا يدفعونه للحكام المسيحيين أو للحكام الوثنيين. ظلوا قابعين ـ كحالهم دائما ـ فى قاع المجتمع. ظل الفلاح الأجير خاضعا للسلطان فى القاهرة، كما خضع من قبل للفرعون أو لقمبيز فى ممفيس أو لبطليموس أو قيصر فى الأسكندرية. هكذا كان حال الفلاح فى سوريا وفى العراق وفى بلاد الفرس. بالرغم من اعتناق الشعب للإسلام، سرعان ما تمكن من إعلان أى نوع من المسلمين سيصير. الفلاح، الملتصق بالأرض، هو الذى قرر أن الإسلام يبنغى أن يتلون بألوان مختلفة فى البلدان المختلفة، التى تختلف فى عرقياتها. سرعان ما انقسم الإسلام إلى طوائف وشيع ـ كما تفرقت المسيحية من قبل ـ تبعا لجنس الشعب المسلم وموقعه من العالم الإسلامي. لعبت البيئة والوراثة دورها فى هذا التشيع، ورأينا أن بلاد الفرس وفى العراق (التى سيطرت عليها فارس لألف عام والتى امتلأت بالمهاجرين من الفرس)، اتخذت مذهب الشيعة، خلافا لمذهب السنة الذى اتخذه سائر المسلمين.

أما الفئة الثالثة، فئة الصناع المهرة، فقد سلكوا سلوكا مغايرا، حسب ما أملته الظروف وما أتاحته الفرص. سلك البحارة الأشداء ـ الذين ينتمون أصلا للفينيقيين وللإغريق، الذين اختلطت دماؤهم كثيرا بالأجانب ـ سلوكا كان له أثر كبير فى الامتداد الإسلامى فقد نحوا منحى آخر. طائفة الملاحين، والتجار نشأت فى صور، وبعد أن احتلها الاسكندر الأكبر سلموا مفاتيح شرقى البحر المتوسط له. بعد ظهور الإسلام، خضعوا له بدون أن يخوضو أى معركة وانفصلوا على الكنيسة فى القسطنطينية وكرهوها، مع أخوتهم من السوريين وكثير من بحارة الإسكندرية ومن الواضح أن اعتناقهم الإسلام كان عن رغبة صادقة وإيمان. وكان لتمسكهم بالإسلام عائد سريع، فسرعان ما سقطت قبرص فى يد المسلمين عام ٦٤٩م وتبعتها جزر صقلية ثم سردينيا وكريت.

تأخر انتشار المسلمين فى بقية بلاد البحر المتوسط حتى القرن الخامس عشر. ضمت بلاد اليونان ثم اندمجت فى العالم الإسلامى. اعتنقت الإسلام (مؤقتا)، وهكذا صارت اليونان ودالماتيا، بالإضافة لسوريا ومصر، من البلدان الإسلامية، تحت حكم الإمبراطورية العثمانية. حاول المسلمون ـ وفشلوا ـ فى احتلال جزيرة مالطة عام ١٥٦٥م. فى خلال أربعمائة عام انقلب ميزان القوة البحرية فى البحر المتوسط تدريجيا ضد المسلمين. حدث تقدم تقنى فى الغرب المسيحى، وحدثت كشوف بحرية هائلة بواسطة الغرب المسيحى مما أدى إلى هجران كثير من قادة البحار وتخليهم أو إلى هجرتهم الفعلية ثم تغيير دينهم، وأدى هذا إلى تخلى العرب المسلمين عن جزرهم وانسحابهم ثم

انكماشهم فى بلادهم الأصلية، أو تحول بعضهم ـ مثل أهالى كريت ـ إلى قراصنة ولصوص بحار. اختلف كثيرا مصير الصناع المقيدين، الحبيسين، المسالمين، غير المحاربين. بعد هزيمة بلادهم استقروا فى مستعمرات جديدة أو فى المدن الصغيرة والكبيرة. استمروا يعملون بحرفهم القديمة، منتمين إلى طوائفهم، فى الأسواق المغطاة أو فى الشوارع والطرقات. استمروا يزاولون العمل فى حرفهم التقليدية أو فى مهمتهم المتوارثة، واستمروا يعتنقون دياناتهم الأصلية. أولئك هم اليهود والسامريون، وأولئك هم اليونانيون والموارنة والأقباط والآشوريون والأرمن فى مدن البلاد الإسلامية المختلفة. احتفظ هؤلاء بكيانهم لرفضهم التزاوج مع المسلمين واحتفاظهم بدياناتهم الأصلية وانعزالهم، ورفضهم كذلك للتزواج مع الفئات الأخرى من الأقليات المتواجدة فى العالم الإسلامى. بالإستيلاد الداخلى حافظوا على دينهم عبر الأجيال، وعلى معتقداتهم بدون تساؤل أو شك فى صحتها، وعلى عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم ومهاراتهم، وعلى مهن آبائهم وأجدادهم. وهكذا ـ رغم صغر عددهم ـ زاد نقاؤهم العرقى. صاروا طبقات منغلقة (أو متحجرة) بعزلتهم الجينية (كما صار الفلاحون طبقة منفصلة بعزلتهم البيئة). بسبب رفض تلك الأقليات من الطوائف المختلفة من جميع الآخرين، صار تماسكهم مع بعضهم أشد قوة واعتمادهم على بعض أكثر شدة. وهكذا يتضح أن تحت القشرة البراقة التى أحدثها الإسلام فى البلدان المختلفة، مازال الجوهر، الصلب، الحقيقى من مجموع الفلاحين والصناع منفصلا عن المميزات التى حصل عليها المسلمون. إزداد تماسكهم بالإستيلاد الداخلى، ومازالوا محافظين لدرجة كبيرة. لم يخلقوا شيئا جديدا ولكنهم لم يفقدوا شيئا قديما، ومازلنا نلاحظهم ـ حتى الآن ـ يعملون في حقولهم وفى ورشهم كما كانوا يعملون منذ ألف سنة. قابل بعضهم المصائب فى فترات من التاريخ. جمع السلطان سليم مهرة الصناع من البلاد ونقلهم إلى اسطنبول عندما قرر أن يدخل إليها خمسين حرفة جديدة. جمع كل الحرفيين من القاهرة، وسبب هذا خرابا للصناعة والفن في مصر، ولكنه فى الواقع اتبع الخط التاريخى الذى بدأ منذ فجر الحضارات، وهو ضمان امتياز العواصم على حساب تدهور الأقاليم ـ الخطأ الذى استمر لثلاثة آلاف عام. تبعثر نظام طبقة الحرفيين وأقلقت راحة المهنيين، ولكن استقر النظام بقدوم الإسلام، واستمر التقدم فى طريقه، شديد النجاح، طالما استقرت البيئة، وطالما سادت حرية العقل وانطلاق الفكر. كان الاستقرار الداخلى للمجتمع دافعا للتقدم، ولم يفسد إلا بحدوث التغيير، هذا التغيير الذي أتى من الخارج. استمر غير المسلمين فى دفع الجزية (الضرائب)، وزاد مقدارها كلما تقدم الزمن بالحكام المسلمين وزاد استقرارهم فى الملك. زادت الغرامات وتصاعد الإذلال وكثرت الرشاوي وقل العدل، وصار هناك قانون للأثرياء وآخر يطبق على الضعفاء. لم ينجح ـ حتى اعتناق الإسلام ـ فى فتح الأبواب الموصدة أمام غير المسلمين، وصارت خزائن الحكام تمتلىء من أموالهم. ولكن حرية

الحركة لم تغلق أمام المنشقين، فقد أثبت السامريون أن بإمكانهم الاتصال ببعضهم البعض. بامتداد رقعة الإسلام، المتتالى تحت حكم أجناس مختلفة من المسلمين، استطاع الحرفيون من المسلمين وغير المسلمين، أن ينقلوا صناعاتهم المميزة والدقيقة من دمشق (بسوريا) إلى طليطلة (بإسبانيا) أو يمارسوا فنهم فى سمرقند (بأواسط آسيا)، وينشروا إلى جميع أنحاء الدنيا، ما نسميه ثمرات الحضارة الإسلامية. وفى النهاية، استطاعت قوى التحمل أن تفلت من بلاد الإسلام، وشاهدنا مستعمرات من الزرادشت الموهوبين (المعروفين باسم الفارسيين) ينشئون مستعمرات فى غرب شبه الجزيرة الهندية، ومستعمرات من اليهود تعبر البحار إلى الصين وإلى أفريقيا الإستوائية، ومجموعات من النسطوريين تحمل رسالة المسيح إلى مونجوليا، ووضعوا أنفسهم فى خدمة أمراء التتار فى الصين، وأخيرا مجموعات من الأرمن ينتقلون بملامحهم ودينهم وموهبتهم إلى جميع أنحاء الدنيا.

بينما لم يقع فلاحو مصر والرعاة فى المغرب وصغار الصناع فى المدن الإسلامية المختلفة تحت ربقة التهجين، وقاوموا حدوث التغيير فى حيواتهم، كان كل فتح جديد يعقبه اضطراب لدرجة ما فى مجتمعات المدن. صار هذا أوضح ما يكون بقدوم العباسيين إلى بغداد. لم يصبح الانتماء الأسرى ولا الصلات العائلية هى جواز المرور للطبقات العليا، بل صارت الكفاءة والعبقرية هى أهلية الارتفاع وهى الجدارة والميزة التى تؤهل صاحبها لبلوغ الدرجات العلى بعيدا عن العواطف والصلات الشخصية. واستمر الحال على هذا المنوال لعدة أجيال وصلت فيه الحضارة العربية الإسلامية إلى أعلى عَلّيين. كانت الفروق فى الإنجازات بين فرد وفرد آخر فى المجتمع سببا فى اختلال الطبقات القديمة، وصعود بعضها وهبوط بعضها الآخر. تبع ذلك تصنيف جديد وزيجات جديدة، وخرج من هذا كله مجتمع جديد. المظهر الخارجى الذى تبع هذا التغير هو اختفاء ما كان يسمى بالأثر الإغريقى والفارسى واليهودى المباشر فى الثقافة العربية وظهرت الثقافة الإسلامية العربية الجديدة مختلفة عن جذورها ومستقلة عن أصولها. فى القرنين الأولين لظهور الإسلام كان بناة المساجد من المسيحيين المتحدثين بالإغريقية. كانت لغة الإدارة فى سوريا هى اللغة الإغريقية. بعد قليل تحول بناء المساجد ورجال الإدارة إلى متكلمين باللغة العربية، ولكنهم استمروا فى بنائهم على نفس الطراز المعمارى واستمروا يستخدمون فى حسابتهم الحساب الذى ورثوه وتعلموه من أسلافهم الإغريق أو من أسلافهم البابليين (حيث أن مدينة بابل القديمة تقع على مسافة مائة كيلو متر من بغداد الحديثة). أما الفرس، الذين تجنبوا الاختلاط والتهجن قد استمروا الحديث باللغة الفارسية. صار اليهود ــ الذين تفرقوا فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية ــ يعرفون بمهارتهم فى شئون الطب وبثقافتهم العالية. وهكذا كان تأثير هؤلاء الأقوام فى الحضارة الإسلامية مختلفا. أثر الإغريق

والفرس على المسلمين باعتناقهم الإسلام ثم اندماجهم فى المجتميع العربى الإسلامى، أما اليهود فقد أحدثوا التغيير رغم احتفاظهم بديانتهم الأصلية.

كان للجو القارص القارى للهضبة الفارسية منذ أيام البابليين وحتى عصرنا الحاضر الأثر فى إبعاد الغزاة الضعفاء عن التغلغل فى أرض فارس. أما الخيالة العرب، النشطين، شديدو السرعة (وكذلك الخيالة الذين أتوا من أواسط آسيا فيما بعد) فقد شقوا طريقهم بسهولة ويسر عبر الأراضى الفارسية. (لم يستطع الروس البقاء فى أرض فارس واضطروا للانسحاب منها سنة ١٧٢٠). لهذا السبب كانت الطبقية الفارسية، التى نشأت منذ عهد الأخيميين باقية، ولم تتفسخ أو تنحل. لم تستطع الثورة الهيلينية التغلب عليها ولم تكد تمسها التوسعات الرومانية ولا التحولات المسيحية. ظلت بلاد الفرس منعزلة، والديانات ثابتة حتى مقدم المسلمين. أدّى التكيف الأول بعد الفتح الإسلامى إلى التكيف الثانى بعد تولى العباسيين الخلافة ونقلهم العاصمة إلى بغداد، فى العراق، التى طالما خضعت للنفوذ والحكم الفارسى. لستة أجيال (العصر الذهبى للحضارة الإسلامية)، كانت الأسرة المالكة والحكومة والجيش نصف فارسى. تزوج الخلفاء من إمائهم، وكان معظمهم من الأسيرات الفارسيات. صار رئيس الحكومة ــ الوزير الأول (وهو اللقب الموروث) من الفرس والذى مازال يستعمل إلى الآن فى الحكومات الإسلامية). تسربت كلمات عربية كثيرة إلى اللغة الفارسية، التى أصبحت تكتب الآن بحروف عربية، ولكن ظل الطابع الفارسى للفرس هو الغالب وهذا ما حافظ على الثقافة الفارسية. هكذا أعاد التاريخ نفسه، عندما تغلب الرومان على الإغريق عسكريا ولكن تغلب الإغريق على الرومان ثقافيا وحضاريا. انتصر المسلمون العرب على الفرس حربيا، ولكن دهاء الفرس المهزومين وذكاءهم تغلب على القوة العسكرية العربية، وتطبع المنتصرون العرب بالرقة الفارسية والفن الفارسى. ورقّ التدين العربى وهدأ الحماس الدينى العنيف. ظهر الذكاء الفارسى واضحا جليا فى القرون التالية فى الفنون الإسلامية، وفى الاتجاهات الدينية. فقد نشأت الصوفية فى بلاد فارس، ونشأ أعظم الشعراء فيها وظهر أرفع الأدب فيها. كما ظهرت فى بلاد فارس الهرطقات الإسلامية، ووجد سلاطين المسلمين أنفسهم محل غدر وخيانة، بأسرع مما وجد حكام المسيحيين. كانت هذه الحركات مقياسا للتفرق العربى فى كلا النظامين. كان المهرطقون يقتلون بواسطة الولاة المسلمين (قبل أن يحرقهم البابا). أول صوفى يموت كان الحلاج، الذي مات فى بغداد فى عام ٩٢٢، وبعد خمسمائة عام مات بدر الدين فى قونية فى عام ١٤٢٠. هذا ما حدث فى قمة المجتمع، بين الطبقات العليا الأرستقراطية، شريفة المحتد، عالية الثقافة، اللطيفة، ذوات الكياسة، واللامبالاة.تم اكتساح تلك الطبقات عدة مرات فى التاريخ، وسيتم اكتساحهم مرارا فى المستقبل. بالرغم من هذا استمر الطابع القومى الفارسى. أنبثقت هذه الروح من أسفل، من جماهير الشعب، من الصناع

والفلاحين. تكون لدى الفرس مذهب دينى جديد، وتأكد هذا المذهب تحت الشريعة الإسلامية. تمسك أهالى بلاد الفرس والعراق بهذا الانقسام وشجعوا على تلك الفرقة فى الدين الإسلامى تحت مذهب الشيعة، واعتبروه مذهبا لهم. صمموا على أن يتعبد العرب فى الكوفة فى مسجد منفصل عنهم وأن ينفصل عنهم العرب فى خراسان فى طوائف وجماعات خاصة بهم. قدسوا عليا ومن بعده الحسين بن على، الشهيد، حفيد النبى، وضربوا أنفسهم بسلاسل من حديد للاحتفال سنويا فى العاشر من شهر المحرم بذكرى اليوم المشئوم فى كربلاء.

فى عام ٧٥١م اعتقل الحكام العرب فى سمرقند بعض الخبراء الصينين فى صناعة الورق. كان الصينيون يصنعون الورق من ألياف الغاب من قديم الأزل، منذ عام ٩٧م بواسطة موظف اعترف له الإمبراطور الصينى بهذا الفضل. تعلم العرب تلك الصناعة وصنعوا الورق من ألياف أشد صلابة، من الكتان فى خراسان، وبدأوا يستخدمونه للكتابة. انتشرت هذه الصناعة العجيبة فى بلاد الإسلام وحلت محل أوراق البردى أو جلود الحيوانات، مرتفعة الثمن أو أوراق النخيل الأسوأ صناعة. استخدمها الكتاب فى كتابة كتبهم، وبعد قرن من الزمان تمكن العلماء الإغريق من ترجمة الكلاسيكيات الإغريقية إلى اللغة العربية وكتابتها ونسخها ومضاعفة أعدادها. بدأت بعد قليل دراسات تقارن بين المسيحية والإسلام. كان المسيحيون يقتصرون على دراسة الكتاب المقدس لدى اليهود والكتابات المملة للآباء الأولين ــ لأن الكنيسة حرمت عليهم أى قراءات أخرى. أما المسلمون، لعدم استطاعتهم الحصول على الكتابات اليهودية والمسيحية فقد درسوا ــ بجانب القرآن وتفاسيره ــ الحكمة التى حصلوا عليها من المصادر الوثنية. استطاعوا دراسة الفلسفة الإغريقية واستمتعوا بها، ودرسوا الحساب والرياضيات والفلك ودرسوا الطب اليهودى. وبعد ثلاثمائة سنة، انتقلت صناعة الورق ــ بفضل الصليبيين إلى أيدى المسيحيين فى اليونان وإيطاليا وإسبانيا ثم استطاع الألمان بعد ٣٠٠ سنة أخرى اختراع الطباعة. وصارت هذه الصناعة هى أم الصناعات للتعلم، ولكن ظل الاعتراض الدينى على دخول الطباعة وصناعة الورق قائما حتى تم التغلب عليه فى سنة ١٧٢٨ عندما دخلت صناعة الورق فى تركيا العثمانية. من هنا جاء الفرق الشديد بين المسيحية وجهلها المظلم والإسلام الذى تمتع بضياء نور العلم. عمل الحكام المسلمون ووزرائهم على الاهتمام الشديد بالعلم والمعرفة. تعلموا العلوم ودرسوا الآداب ورسموا الرسوم وصوروا الصور. شجع هؤلاء الحكام والولاة العلماء على ترجمة النصوص الإغريقية إلى لغة الإسلام ــ اللغة العربية، بدأوا ينشئون الجامعات ومدارس العلم فى كل بلاد المسلمين ــ من بخارى شرقا إلى قرطبة غربا، لنشر علوم الأقدمين بين المسلمين. كان هدفهم الحفاظ على المعرفة وزيادتها، وكان من آثار تلك السياسة استقطاب العلماء الإغريق والفرس واليهود إلى بلاد الإسلام والمعاونة فى بناء الحضارة الإسلامية.

كان المسلمون الجدد مهجنين، ولذا كانوا مختلفين ومتكيفين ـ عند القمة. زودوا الجنس البشرى بأفراد ملائمين لمقابلة سرعة التغير. كان كل نشاط فى الدولة يتم فحصه بعيون ناقدة من زاوية جديدة، وتشير الشواهد أن المنتصرين قد غيروا كل شيء إلى حد كبير. ويدلنا هذ إلى أن المنتصرين أنفسهم قد تغيروا. أوضح التغييرات التى حدثت لهم هى نظرتهم للبنيان الطبقى. فى أول الأمر كانت المساواة هى شعار يرفعونه على راياتهم وأن التمييز الطبقى ليس له موضع قدم فى الإسلام، وأن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى. لايمكن استعباد المسلمين، والمسلمون ينبغى أن ينسوا سلسلة الأنساب السخيفة التى كانت تمارس فى عهد الجاهلية وعبادة الأوثان قبل الإسلام. ولكن بمجرد فتح البلدان الجديدة وممارسة حكمها، بدأت أفكار جديدة تظهر فى الأفق، وبدأنا نسمع أن المناصب العليا يجب أن يتولاها أبناء قبيلة قريش، وأن العرب أصلح من السوريين، وأن السابقين فى الإسلام لهم الفضل عن الداخلين حديثا في الدين. بعد قليل ضعف الخط الذى ينتسب مباشرة إلى محمد فى حين قوى الأمويون، وتعمق الشق فى الأمة عندما بدأ العرب والأجانب المسلمين يؤدون صلواتهم فى مساجد مختلفة. كان الهدف من ثورة محمد إزالة الفوارق القديمة، الظالمة، القائمة على النسب، ولكن ككل الثورات ظهرت فوارق جديدة قائمة على العرق والأسرة. لتثبيت ملكهم، عمد العباسيون على محو تلك الفوارق الجديدة، ووجدوا أن عليهم أن يكتبوا التاريخ من جديد خاصة التاريخ الحديث وأن يعيدوا تأويل القرآن نفسه. ولكن بعد ثبات حكمهم، سمحو للشكل الجديد أن ينوى. لم يسمح بتاتا لطبقة «الأسياد» الذين ينتسبون مباشرة إلى النبى، أن يتخلوا عن كونهم طبقة فوقية من النبلاء لهم احترامهم الخاص. ولما كان عددهم كبيرا، كان الولاء لهم ينبع من تقواهم، ولكن كان ادعاؤهم بأنهم من أحفاد محمد هو الذريعة التى اتخذها الفاطميون للاستيلاء على الحكم فى مصر، ولادعاء الأشراف بأحقيتهم فى الولاية فى الحجاز وفى مراكش.

كانت محاربة الرق من أهم علامات المسلمين، وكان عتق الرقيق ـ كما قال رسول الله ـ هو أفضل ما يفعله المؤمن. ولكن العباسيين هم أول من تبين أن عتق الرقيق يسبب خسارة اقتصادية كبيرة لمن يملكون الرقيق، بدأوا يحتفظون بالعبيد والإماء المسلمين الأجانب ويعتقون ذوى الأصل العربى فحسب. بالإضافة إلى ذلك بدأوا يتبعون العادة القديمة بالتفرقة بين أجناس العبيد المختلفة، فبدأوا يفرقون بين السود والبيض، وضح أثر ذلك فى نشأة الرقيق العسكر. بدأ إطلاق اسم المملوك (جمعها المماليك) منذ عام ٨٢٠م على الأسرى التركمان فى عهد العباسيين، وكانوا يستخدمونهم كحراس شخصيين. بدأ هؤلاء يفخرون بإطلاق اسم المماليك عليهم (لأن هذا كان يدل على كونهم من حرس الخليفة الحاكم)، مع ما فى هذا من ميزات شخصية لهم. حدث هذا بشكل كبير فى بغداد فى

القرن الثاني عشر، كما حدث في دلهي تحت حكم الغزنويين، وحدث في القاهرة في القرن الثالث عشر وأخيرا في إسطنبول ــ في الانكشارية ــ تحت الحكم العثماني في القرن السادس عشر. كان المماليك ــ في مصر على سبيل المثال ــ من غير أبناء المسلمين، تم رحيلهم إلى مصر (أو الشام) وبيعهم بواسطة النخاسين إلى سلطان البلاد وهم ما يزالون صبية صغار. بعد حضورهم مباشرة يتم ختانهم ويعلمون الديانة الإسلامية باللغة العربية ثم يوضعون في مدارس عسكرية ومدارس دينية تحت رعاية الخصيان. بعد انتهاء دراستهم يطلق سراحهم ويعتقون من الرق ثم يدخلون في خدمة السلطان، حسب كفاءتهم وتميزهم. في أيام عزهم، في عصر المماليك الجراكسة، كان يتعين أن يكونوا من قبائل الكبشاك في الأستبس القوقازية، وكان من المحتم ألا يكونوا من أفريقيا أو من الزنوج أو من المسلمين. كانت هذه الطبقة من العزاب، الشواذ جنسيا، وكانوا يستقدمون تباعا من القوقاز من أصول متساوية رفيعة (من الضروري ملاحظة وجوه الشبه والاختلاف بين المماليك وبين الإنكشارية). في هذا المقام ينبغي أن ننوه بأن المسيحية كان لها نظام مشابه في فرسان الهيكل وفرسان القديس يوحنا. كان هؤلاء الفرسان أيضا من العزاب، الشواذ جنسيا، يمارسون اللواطة، متساويين، من أصل نبيل ثابت لأربعة أجيال على الأقل، وكانت عسكريتهم مشهود بها (احتلال رودس ثم احتلال مالطا فيما بعد). أثبت المماليك مقدرتهم على حماية الإسلام من إغارات الصليبيين على مدى مئتي عام (وفي أواخر العصر الفاطمي وفي خلال حكم الأيوبيين). في هذا الوقت شغل المماليك جميع المناصب الرفيعة في الدولة، حتى وثبوا إلى الحكم وصاروا سلاطين الدولة. بعد هذا بدأوا يتزاوجون، ويتكاثر نسلهم، وينجبون ذرية لاتصلح للقيادة أو لتولي الحكم.

كان العبيد في أسواق النخاسة يصنفون تبعا لقوميتهم ولونهم. كان مصير العبيد من الزنوج مختلفا عن مصير المماليك، ولم يتم إدماجهم في مجتمع المسلمين البيض. على مدى ثلاثة عشر قرنا، منذ الفتوح الإسلامية، تولى حكام من العرب أو البربر الحكم في شمال إفريقيا. في بعض الأماكن ــ كالسودان مثلا ــ تزاوجوا بحرية مع أهل البلد الأصليين من الزنوج ونشأ عنهم جنس هجين. في أماكن أخرى ــ مثل زنجبار، ولدرجة أقل بين الطوارق ــ ابتعدوا عن أهل البلاد، واتخذوا لأنفسهم زوجات من العرب (أو من البربر)، ولكن في كل الحالات كان لهم عشيقات من الزنجيات ونشأ بذلك جنس مختلط في كل البلدان الأفريقية المسلمة. هذا وجه من الصورة، في الوجه الآخر، تم ترحيل عدد هائل من الزنوج من أفريقيا الإستوائية إلى شبه الجزيرة العربية ومصر وتركيا وبلاد فارس والمغرب، ولكن أثر هؤلاء في اختلاط الأجناس كان ضئيلا للغاية، بعكس ما حدث عندما رحل زنوج أفريقيا إلى أمريكا فيما بعد في زمن قصير. مما لاشك فيه أنه حدث اختلاط لدرجة ما بين العبيد الزنوج وبين العرب، ويمكن ملاحظة آثار هذه الاختلاط من الجنس المهجن في بعض القرى

العربية وفى شمال أفريقيا. ولكن، على العموم، كان يتم إخصاء العبد الزنجى، ولكن كان يتم أيضا، بدرجة أقل قتل الأطفال، والإجهاض، والشذوذ الجنسى (مع مماثل الجنس ومغاير الجنس). يثار التساؤل، كيف يمكن خلق طبقة من الشواذ جنسيا فى مجتمع يبيح تعدد الزوجات! أولا تعدد الزوجات لم يكن متاحا فى كل الأوقات، كان متاحا فقط عندما كان هناك أسيرات كثيرات من النساء، وثانيا ليس بمقدور أى شخص أن يكون لديه حريم بل اقتصر هذا التقليد على الأثرياء وذوى اليسار فحسب، وأخيرا سرعان ما تخلى المسلمون عن تعليمات القرآن، خاصة بين الطبقات العليا من المجتمع. أخصى العبيد والسود الذين حالما صاروا وزراء الملذات والمتع. عاد قتل إناث الأطفال، وسرعان ما استشرى الشذوذ الجنسى بكافة صوره وانتشر بالأخص بين علية القوم. فى شئون الزواج سادت تقاليد المجتمعات المهنية التى تعيش فى المدن من العالم القديم ووجدت طريقها للقوانين واللوائح الإسلامية. صمم المشرعون على أن المساواة يجب أن تسود عالم الزواج - حتى ولو غض الطرف عنها فى سائر الأمور، وعلى المأذون الذى يتم عقد الزواج أن يتأكد أن الطرفين متعادلان من الناحية الاجتماعية ومتكافئان فى العرق والحسب والنسب وأن الإثنان من الأحرار أو من الرقيق. بهذا صار زواج الرجل من خارج محيط مجتمعه عسيرا، إذا لم يكن محالا، وظل الحال على هذا المنوال حتى عصرنا الحاضر. وهكذا سلم المجتمع - الذى تم اهتزازه من تأثير الفتوحات الإسلامية المتتالية ومن أثر الثورات المتتابعة - بأن يحافظ على استقراره الموروث بالتعليمات الدينية. هكذا نرى أن المغيرين الأجانب فى المجتمع الإسلامى الحديث قد توحدوا فى جنس واحد، متعدد الطبقات. فى الباكستان انقسم المجتمع إلى طبقات تبعا للتقسيم الهندوكى - فى الجزائر وتونس انقسم الشعب إلى المتطرفين التقليديين الذين يتمسكون بالطقوس الدينية فى مقابل المتشبهين بالغربيين الأوروبيين. وينقسم الشعب إلى المالكيين (من القرن الثامن عشر) بينما يتمسك الحكام بالمذهب الحنفى (تبعا للتقليد العثمانى الموروث من القرن السادس عشر). بين هؤلاء، هناك جيوب من المتطرفين الذين دخلوا البلاد فى القرن الحادى عشر، وبعض العرب الوهابيين فى جربة، وأخيرا هناك بضع من السادة، الذين يرثون اللقب من حسبهم ونسبهم - وهم رجال دين يعيشون متطفلين على المجتمع فى الشرق والغرب.

التوسع السريع الذي حدث فى العالم الإسلامى (جدول ١٤) يمكن مقارنته بالبطء الشديد الذى حدث فى التوسع فى العالم المسيحى. إذا كان التوسع السريع فى العالم الإسلامى يعزى أحيانا إلي الفتوحات الحربية والانتصارات العسكرية فإن الحضارة الإسلامية الرفيعة والثقافة الباهرة لايمكن أن يعزوها أحد للانتصارات الحربية. هذا البريق الذى خطف الأبصار وهز القلوب لاشك قد بنى على حضارات راقية سبقت ظهور الإسلام، وكل فضل الإسلام أنه أتاح لها الفرصة للظهور ومهد لها الجو

للمعان حتى خطف بريقها أولي الألباب. ظهرت الحضارة الإسلامية تباعا في دمشق وبغداد، وفي قرطبة ومراكش، وفي إصفهان ودلهي، ونتجت من اختلاط أعراق متعددة وامتزاج أصناف مختلفة من البشر في المجتمع الإسلامي. لم تنتج تلك الحضارات جميعها ممن اعتنقوا الإسلام، بل كان إسهام غير المسلمين ملحوظا، أثمرته الحرية الدينية والسياسية والعقلية والفكرية التي أتاحها الحكم الإسلامي. عندما انطفأ نور الحرية وشاع التسلط والكبت بطرد آخر المسمين من الأندلس، من غرناطة، ومُنع الأتراك من دخول فينا وسقوط المغول في دلهي، أنطفأت شعلة التحرر الفكرى وعم الظلام على الحياة الفنية والسياسية، وتوقف المد الحضارى الإسلامي. وبدأ الاضمحلال يضرب أطنابه ــ بلا رجعة ــ في كل مكان من العالم الإسلامي.

جدول رقم (١٤)
تتابع الأحداث في العالم الإسلامي

الأساس:	
الحميريون من الشرق يهزمون القبائل ويحكمون اليمن	حوالى ١٥٠ ق.م.
اليهود الذين شتتهم تيتوس يبدأون في استعمار المدن على خط القوافل في الجزيرة العربية	حوالى ١٠٠ م
بداية التحول للمسيحية في المجتمعات المدنية والبدوية	حوالى ٢٠٠
الصراع بين اليهود الحميريين والأحباش المسيحيين للسيطرة على اليمن	٣٠٠ ــ ٥٠٠
استيطان قريش في مكة وتنظيم القوافل بين سوريا واليمن	حوالى ٣٠٠
تصدع سد مارب ونقل عاصمة الحميريين إلى صنعاء	حوالى ٤٠٠
اليهود يذبحون المسيحيين في نجران (شمالي اليمن)	حوالى ٥٠٠
الأحباش يغزون اليمن ويحتلونها بمساعدة الأسطول البيزنطي	٥٢٢
الأحباش يغيرون على مكة	٥٦٩
الفرس يحررون اليمن ويعينون حاكما من قبلهم.	٥٧٤ ــ ٥٩٧
ظهور الإسلام:	
مولد محمد بمكة	٥٦٩
اسلام أبي بكر والدعوة إلى الإسلام سرا	٦١٠ ــ ٦١٣
بعض المسلمين يهاجرون إلى الحبشة المسيحية	٦١٧
هجرة محمد وصحابته من مكة إلى يثرب (مدينة رسول الله)	٦٢٢
الصراع مع مكة	٦٢٣ ــ ٦٣٠
غزوة بدر وقطع الطريق على قوافل المكيين	٦٢٤
تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة	٦٢٤
غزوة الخندق	٦٢٧
محمد يفرض الجزية على يهود خيبر (ولا يقتلهم)	٦٢٨
يدعو هرقل وكسرى النجاشي للإسلام	٦٢٨

خضوع مكة لمحمد	٦٣٠
وفاة محمد ودفنه بالمدينة المنورة	٦٣٢

الخلفاء الراشدين والتوسع الإسلامي:

أبو بكر ـ حرب الردة	٦٣٢ ـ ٦٣٤
عمر ـ المصلح الأكبر في الإسلام. من مركز حكمه بالمدينة ينفذ أحكام القرآن وتسود العدالة المطلقة امبراطوريته. يطرد اليهود من خيبر والمسيحين من اليمن	٦٣٤ ـ ٦٤٤
الفتوحات الإسلامية ـ سوريا	٦٣٢ ـ ٦٣٨
ويعين معاوية واليا على دمشق	٦٣٩
العراق ٦٣٧ ـ ٦٣٩، ينشأ الكوفة	
مصر ٦٤٠ ـ ٦٤١ ـ، ينشأ الفسطاط	
الاستيلاء على بابل وبرسيبوليس (اصطخر)	٦٤١
نهاية الإمبراطورية الساسانية	٦٤٢

عثمـــان

فتح جزيرة قبرص	٦٤٩

عـــلي

نقل العاصمة إلى الكوفة	٦٥٦ ـ ٦٥٨
اشتعال الحروب الأهلية	٦٥٧

الدولة الأموية:

معاوية ينشأ الدولة الأموية ويتولى الحكم من دمشق	٦٥٨ ـ ٦٨٠
المسلمون يصدون عن القسطنطينية مرتين	٦٦٩ ـ ٦٧٤
إنشاء القيروان بتونس	٦٧٠
المسلمون يصلون إلى الأكسس والسند	٧٦٣
عبد الملك	٦٨٥ ـ ٧٠٥
تصك النقود باللغة العربية وتصير اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة محل الإغريقية والفارسية	٦٩٣
الوليد	٧٠٥ ـ ٧١٥
فتح إسبانيا بجيش من المسلمين (غالبيته من البربر)	٧١٠ـ٧١٢
المسلمون يصدون عند بواتييه بواسطة شارل مارتل ولكنهم يحتفظون بناربون	٧٣٢

بفضل محمد خلق العرب أمما كثيرة، ولكنهم أفسدوا شعبهم. بفضل فتوحاتهم أثرى العالم بالحضارة الإسلامية وعم النور كافة أنحاء الدنيا، ولكن الجزيرة العربية افتقدت خيرة الرجال الذين نشروا الثقافة والحضارة فى ربوع العالم. بعد الهجرة السريعة لرجالات العرب، افتقر الحجاز لخيرة الرجال. أفتى الخليفة عمر أن وجود يهود فى خيبر ونصارى فى نجران يعد سبة لذكرى الرسول، وينبغى طردهم جميعا من جزيرة العرب، ويجب ألا يستمر تلويثهم للأرض العربية؛ وبهذا لم يتقيد بروح التسامح النبوى الذى أتى به محمد وأعاد صفة الخشية من الأجانب وتجنبهم للعرب. ولكن استمرت الموانى فى جنوب الجزيرة العربية وفى شرقها ترسل الرجال تباعا ليجوبوا المحيط الهندى للتجارة والاستقرار ـ كما مازالوا يفعلون إلى الآن ـ فى شرق أفريقيا وفى غرب شبه الجزيرة الهندية وفى الملايو وفى جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) وأنشأوا حضارات فى تلك البلاد التى اعتنقت الإسلام، خارج شبه الجزيرة العربية، أما فى جزيرة العرب نفسها فلم يتبق شىء؛ إلا المسلمين القاطنين المؤمنين الذين بعدوا عن الاختلاط بكافة شعوب الأرض مع الحجاج القاصدين إلى مكة (وإلى المدينة للزيارة)، ولم يبق منهم إلا الذين أتوا ليموتوا فى الأراضى الحجازية وليدفنوا فى ثراها. مع الفقر فى الرجال حدث فقر تدريجى فى الموارد الطبيعية: فى الطقس وفى التربة، مما دفع الناس ـ إلا فى مصر ـ للهجرة بعيدا عن الشرق الأدنى. ساد الجفاف، وأتت حيوانات الرعى على الأخضر واليابس، ودمرت الحروب ـ الخارجية والداخلية ـ البلاد، وسادت الفوضى كل مكان، وعم سوء الإدارة والتنظيم بلاد العرب، واستقر الأقوام فى بلادهم، وامتنع بذلك الاختلاط والتهجين مع ما يحويه من ميزات وراثية جليلة. بأمر من الخليفة أغلقت الجزيرة العربية على سكانها وطهرت من الأغراب عنها وبقيت هكذا إلى أبد الآبدين. وبالتدريج، من وفود أقوام آخرين من الشعوب الرعاة، من الترك والمغول، استمرت الأرض عديمة الزراعة وزادت الأرض الجرداء تباعا وامتدت الصحارى والخلاء إلى كل المناطق الجافة المحيطة بالجزيرة العربية. لم يتسبب التوالد الداخلى فى أرض العرب فى الوحدة. تفرقت القبائل بعد حين وعادت لطباعها القبلية وتمسكت كل قبيلة بوحدتها وعاد الجنس العربى إلى حالته الأولى ـ أنقى أجناس الأرض. عاد العرب للتمسك بالأنساب والأعراق ـ التى بددها الإسلام إلى حين، «ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى». حقيقة، ظهرت حركات متتالية، بين حين وآخر، تدعو للعودة إلى دين الحق والتمسك بأقوال الرسول وأفعاله. ظهر الكامارتيون فى القرن التاسع والوهابيون فى القرن الثامن عشر، يدعون إلى الأصولية ونبذ البدع المستجدة. وحدت تلك الدعاوى بين مختلف القبائل فى جماعات كبيرة، ولكنها بدأت حروبا بين من اعتنق الأصولية ومن رفضها. قامت حروب عدة فى أنحاء الجزيرة العربية واشتعلت كل الجزيرة. فقد بدأ جيش من المتطرفين فى القرن العاشر حربا شعواء واستولى على الحجر الأسود من الكعبة فى

مكة وانقطع سيل الحجاج عن تلك المدينة. استطاع جيش آخر من الخوارج بمعاونة الخليفة الفاطمى من القاهرة تدمير بلاد المغرب فى القرن الحادى عشر والسيطرة على المدن الثائرة، التى تحولت تباعا إلى أراضى صحراوية بعد استزراعها. ولكن هؤلاء الأقوام، رغم الدمار الذى تسببوا فيه، امتزجوا بأهل البلاد ونتج عنهم جنس هجين فريد فى شجاعته وإقدامه ونتج منهم أصحاب الحوانيت والتجار – خاصة البقالين – فى الجزائر الحالية. لم تظهر علامات النبوغ على أولئك الأقوام الذين ظلوا محبوسين فى الجزيرة العربية، فقد ارتدوا إلى جهالة وتخلف، ولم يخرجوا منها حتى عصرنا الحاضر.

ثالثا: الهندوسية

الهندوسية ليست دينا عالميا، وهى تختلف اختلافا جذريا عن المسيحية والإسلام. الهندوسية دين خلق عالما خاصا به - مثل اليهودية، ولكنه عالم ذو مغزى لكل بنى البشر لأنه جمع الدين والمجتمع فى عالم واحد متطور للأمام دائما. لكى نفهم هذا العالم ينبغى علينا أن نعود للوراء خمسة آلاف عام، إلى بدايته ونخترق غموضه وأسراره لنعرف بداية وتطور وكنه المجتمع الهندى.

فى الألف سنة الرابعة قبل الميلاد لم تكن الثورة الزراعية قد وصلت إلى الهند. فى ذلك الحين قطنت البلاد قبائل باليوليثية من صائدى الحيوانات وجامعى الغذاء. قطن الهند فى ذلك الزمان السحيق مجموعات من البشر، شديدة الاختلاف عن بعضها البعض فى سلوكها وفى لغاتها. أغلبهم كان ذو بشرة داكنة ولكن كانت بينهم أيضا قبائل ذات بشرة فاتحة اللون أتوا من الشمال الغربى، وخاصة قبائل منغولية بلغاتها، ومازال هؤلاء يعيشون حتى عصرنا الحالى فى الشمال الشرقى من البلاد. دخل هذا المجتمع الباليوليثى، فى الألف سة الرابعة قبل الميلاد، قبائل من الزراع دخلوا البلاد من الغرب، وتوسعوا حثيثا فيها. عبروا البلاد بين ممر خيبر وساحل البحر إلى نهر السند، وأحدثوا فى الممرات التى سلكوها، دمارا شديدا، وصارت لاتصلح للزراعة حتى أيامنا هذه. استقر هؤلاء فى الهند وتناسلوا مع أهلها ونشأ بينهم جنس هجين، فقد لسانه الأصلى، ونشأ منهم جنس جديد من زراع الأرض. حمل هؤلاء الأقوام معهم القمح والشعير وزرعوه فى وادى السند، واستأنسوا البقر الوحشى ذو السنام الذى وجدوه هناك، ونشروا الرعى، وفى أثره الزراعة، فى شبه القارة الهندية. بالإضافة إلى هؤلاء الأقوام الذين غزوا الهند، حل فى الساحل مستكشفون وغزاة من سوماريا ومن الشواطىء العربية الشمالية خطوة بعد خطوة، وقرن بعد قرن حتى وصلوا أخيرا إلى مصب نهر السند. تشبه هذه الأقوام أولئك الذين حلوا فيما بعد على شواطىء أوروبا، وجاء فى مقدمتهم التجار والملاحون. أدخل الغزاة الجدد الكهانة والهندسة ومسح الأراضى والبناء والرى إلى بلاد الهند، كما أدخلوا أيضا القانون والكتابة والطقوس السحرية وعبادة البقر. فى نفس الوقت علموا وأولجوا ومنحوا مزارعى وادى نهر السند مبادىء الحضارة وأصول المدنية. بهذا انتقلت الحضارة السومرية، خلال حوالى خمسمائة عام من الهجرة، إلى ضفاف نهر السند وغيره من أنهار الهند. بهذا انتقل إلى الهند أشهر وأهم محصولين زراعيين: القطن والسمسم من أفريقيا عبر البلاد العربية.

بهذا صار وادى السند أشهر مكان لتأقلم مزروعات المناطق الحارة فى العالم. بنى هؤلاء القوم عديدا من المدن الهندية خلال آلاف السنين التى عاشتها الحضارة السندية التى تبعت استقرارهم فى ذلك المكان. تم تدمير تلك الأماكن فيما بعد من أثر الغزاة التاليين أو من الفيضانات أو من تأثير الزلازل، أو بفعل هذه العوامل جميعها. ولكن الثابت أن تلك الحضارة كانت حضارة مستقرة، تتكون من طبقات من المزارعين والصناع ورجال الدين، كما كانت حضارات الهند التالية القائمة على نظام الطوائف الاجتماعية والمنغلقة على نفسها. وخلال تواجد حضارة السند هذه كانت محمية من غزو الأجانب ومن الاضطرابات الداخلية. استمرت التجارة مع سومر، وكان النجاح الاقتصادى الآمن لأهالى السند دافعا لهم لعدم تطوير حضارتهم ذاتها بعد تبعيتهم للإمبراطورية البابلية. دمر أهل السند – مثلهم مثل السومريون – أساس كيانهم بإزالة الغابات التى كانت العامل فى تلطيف الجو وفى حمايتهم من الفيضانات المدمرة. استمر الرعى الغزير للماشية فى امتداد الصحارى فى السند وفى الجفاف الموسمى لكثير من الأنهار. كان دخول الغزاة من الجنس الآري إلى أرض الجزيرة فى بلاد سبق لها اعتناق الحضارة عاملا على تخفيف الدمار وعلى امتصاصاهم فى المدن التى هاجموها. أما فى وادى السند فقد دمروا المدن ودمروا طرق رى الأراضى الزراعية، ولم تقم بعد هذا الدمار للبلاد أى قائمة، واضطر الأهالى للهجرة جنوبا وشرقا فى الجزرات وفى وادى نهر الجانج، حيث تقدمت طرق الزراعية البدائية حثيثا.

وفد إلى الهند فى ذلك الزمان الغزاة الذين أتوا معهم بالماشية والمحاصيل والأدوات والأسلحة المصنوعة من البرونز. ووفد معهم كهنتهم وآلهتهم وشعرهم الملحمى والأساطير الشعرية الآرية. كان معهم الأهالى الذين أزيحوا من أماكنهم ومعم صناعهم الذين يصنعون مصنوعاتهم بطرز موغلة فى القدم ولايستطيعون إتقانها بعد هجرتهم (كما أصبحوا لا يتقنون الكتابة)، ولكن مصنوعاتهم تقف على قدم المساواة لمصنوعات الغزاة الآريين وتستطيع منافستها، كما كان كهنتهم ينافسون كهنة الآريين، بل ويتفوقون عليهم، لفهم نظام الطوائف الاجتماعية الذى بنى عليه أساس العقيدة الهندية، مما لم يستطع الإريون تفهمه. كان باستطاعتهم قيادة المجتمع المبنى على أساس طائفى طبقى مع استخدام القوانين الاجتماعية والتعليمات الدينية والطقوس السحرية. كان معهم أخيرا باكورة المزارعين المتقدمين والرعاة الموهوبين الذين اخترقوا الغابات خلال طرق بدعوها وسبل سلكوها واختلطوا بأهل الغابات الأصليين. كان هؤلاء قد سبق لهم استئناس الدخن الهندى وزراعته بطريقة بدائية فى دلتا نهر الجانج وتبعوه بزراعة الأرز، الذى صار المحصول الأول لغذاء سكان شرق آسيا. كما سبق لتلك الأقوام استئناس الجاموس الذى صار يستخدم فيما بعد للقيام بالأعمال الشاقة فى جميع أنحاء المناطق الحارة فى العالم.

نشأ وسط هذا الجمع طائفة كان لها أثر عظيم في تطور الحياة الإنسانية في العالم أجمع، طائفة عبدة البقر، التي تحرم القتل وتعتمد في غذائها على النباتات فحسب، تلك الطائفة التي أنتجت الهند التي نعرفها حتى عصرنا الحالي. في هذا الخضم آمن الناس بتزاوج آلهة الآريين وآلهة الدرافيديين من الذكور والإناث (كما يتم التزاوج بين بني البشر). من تزاوج الآلهة نشأت طبقة البراهميين، أرقى طوائف المجتمع، الذين يحتكرون أعمال الكهنة ومنهم دون غيرهم رجال الدين. من هؤلاء نبعت عقيدة تقمص الأرواح واستغلال الخشية من التلوث والنظرية المقدسة بتفرق الطوائف وقوانين مانو. من البراهمية نشأت اليانية (دين هندي نشأ في القرن السادس قبل الميلاد قوامه تحرير الروح بالمعرفة والإيمان وحسن السلوك) والبوذية (ديانة في آسية الشرقية والوسطى تقول بأن الألم جزء لايتجزأ من طبيعة الحياة وأن باستطاعة المرء الخلاص منه بالتطهر الذاتي العقلي والأخلاقي)، وآخرين من خارج طبقة الكهنة الجديدة. السبب في تقسيم أهل الهند إلى طوائف يعلو بعضها بعضا قد يعود إلى التفرقة العنصرية، التي تظهر واضحة بين قبائل الهنود البدائيين، وتعود أيضا إلى لون البشرة، وقد تكون بدايتها قد حدثت في السند عندما لاقت أقلية من البيض أغلبية من السود لأول مرة في المجتمعات المدنية. قد تكون الطبقات المختلفة قد نشأت في الهند من تعدد الزوجات (والأزواج)، فبينما حافظت طبقة على نقائها العرقي، حدثت اختلاطات كبرى، متعددة بين باقي طبقات المجتمع مما نشأ منه تعدد الطوائف. من أهم الفروق التي ظهرت في المجتمع الهندي هو الانفصال شبه التام بين طبقة المحاربين وطبقة رجال الدين. هناك فروق جذرية في طبائعهم واهتماماتهم وأهدافهم، نفس التعارض، نفس القطبية، نفس التناقض الكامل، نفس علاقة المحبة والكراهية، التي سيطرت على تاريخ أوروبا، ولكنها أخذت في الهند مظهر الطائفية الطبقية.

بعد غزو الآريين نشأ في الهند ما نسميه بالأدب السانسكريتي، أدب تناقلته الأفواه لزمن طويل قبل أن تتم كتابته، حيث أن الآريين فضلوا إنشاد شعرهم الملحمي بدلا من كتابته. (أقنع سير وليام جونز بعض البراهميين غير المتدينين في كلكتا حوالي سنة ١٧٩٠ بكتابة الفيدا الهندية «كتب الهندوس الدينية الأربعة» لأول مرة، مع بعض تفسيراتها). تاريخ تلك الكتب الدينية غير معروف بدقة (بعكس الكتاب المقدس العبري) ولكنه يقع في نفس المرحلة الزمنية، في الألف سنة السابقة لميلاد المسيح، فالعظات الهندوسية تسبق بلاشك الرفض البوذي لنظام الطبقات الهندوسية الذي جاء في القرن السادس قبل الميلاد، ولكن القوانين التي حكمت النظام الطبقي الهندوسي، المسماة بقوانين مانو جاءت بعد الرفض البوذي، في القرن الثالث قبل الميلاد. نشأت تلك القوانين، مثل البوذية نفسها، من وسط وادي نهر الجانج وكان هدفها قطع الطريق على الجدل الذي أثارته البوذية عن تركيب المجتمع. وضع دستور مانو قواعد للزواج والتوالد في الهند (كما وضع اللاويون والمنادون

بتثنية الاشتراع لدى اليهود فى عهد سابق). وضعت تلك القوانين بدقة متناهية لم يسبق لها مثيل وحدد بذلك نمط تطور المجتمع الهندى. بالاختصار هناك خمسة بنود لتلك القوانين:

- يمنع منعا باتا إتيان الأشقاء والأقارب الأقربين (الزواج منهم أو الجماع معهم).
- تحدد بدقة جميع أنواع الحرف وكافة أصناف المهن وتكون وراثية.
- يقسم الناس – تبعا لمهنهم إلى طوائف، يعلو بعضها بعضا.
- توضع قواعد للنظافة تمنع أعضاء طائفة عليا من تناول الطعام مع طائفة أدنى منها.
- وهكذا يتعين التوالد بين أبناء كل طائفة على حدة ويمتنع الزواج بين مختلف الطوائف والطبقات.

وهكذا يحدد البند الأول قانون الامتناع التام عن الإستيلاد الداخلي، وتحدد البنود الأربعة التالية القوانين العادات والتقاليد التى ينبغى على الهنود الالتزام بها ليقل لدرجة كبيرة الإستيلاد الخارجى الذى ينبغى أن يقتصر على أفراد كل طبقة بعينها. وهكذا يمتنع تماما غشيان المحارم وسفاح القربى والاتصال الجنسى بين من تحرم الشريعة الزواج بينهم من ذوى القربى التى كان مسموحا به من قبل فى المجتمع الهندى وتزيد عليها. فالزواج محرم على الزوجين اللذين يتشاركان فى الأسلاف (سبعة من جهة الزوج وخمسة من جهة الزوجة)، أو بالأحرى يمتنع زواج الأقارب كلية. مثل كاثوليك أوروبا لم يمكن الالتزام بهذ المبدأ إلا فى العائلات المالكة، وحتى بين هؤلاء لم يمكن فرض هذا المبدأ عليهم. ولكن ظلت التقاليد الموروثة والأعراف المتبعة تمنع زواج الأقارب. كان تحديد المهن أكثير فاعلية فى الحفاظ على طبقة الشخص لأنه اتبع نفس عادات الشعب وتقاليده وحافظ على ثبات النظام التى ارتضاه غالبية الناس وكان فعالا لأنه ربط بين الطقوس الأسطورية والمهن المختلفة. كان لكل مهنة (إلا أدناها) أهميتها المقدسة وأصلها العاطفى مما جعلها غزيرة فى الثقافة الهندية وصارت مستمرة بعمل الوراثة. أساس هذا المبدأ أن المجتمع يتكون من مجموعات أربعة أو ألوان أربعة، «الفارنا»، وهى نفس الألوان التى استعملت من قبل منذ ألفى عام فى مصر (وهذه نقطة توحد أخرى بين الثقافات والأعراق المختلفة). المجموعات الأربعة هى:

- براهمين : وهم رجال الدين والمعلمون (ولونهم الأبيض).
- كاشتاريا : وهم الحكام والمحاربون (ولونهم الأحمر).
- فايشيا : وهم العوام من الفلاحين والتجار (ولونهم الأصفر)
- سودرا : وهم الخدم والعبيد (ولونهم الأسود).

وكانت الطبقات العليا تُستهل بالخيوط المقدسة رمزا لأنهم قد ولدوا مرتين. يمكن لأفراد كل مجموعة تناول الطعام مع أفراد من ذات المجموعة ويمكنهم التلاقى والاختلاط والتحدث مع بعضهم البعض. لايمكن لأفراد من خارج مجتمع الهندوس السليم أن يختلطوا بهم خشية تلويثهم. الأفراد الخارجين عن مجتمع الهندوس كانو يدعون «بارياه» أو المنبوذون (أو الطبقات الخارجة عن المجتمع الذين يمتنع مسهم أو «الهاريجان»). ينبغى على هؤلاء المعيشة خارج أسوار القرى، مثلهم فى هذا مثل المصابين بالبرص (أو الجذام) فى أوروبا في العصور الوسطى، ويحملون أجراسا لتحذير الأناس المحترمين من اقترابهم. كان بعضهم يحمل مباصق لتفادى تلويث الطرق. وفى بعض مناطق جنوب الهند كان يمتنع رؤيتهم كما يمتنع على الناس لمسهم، ويخرجون من مساكنهم فى الفجر قبل الشروق. من بين قوانين الفارنا وضعت القواعد التى تحكم العلاقات الاجتاعية المختلفة بين مختلف الطوائف. يسمح للبراهمين أن يقتل فردا من طائفة السودرا ثمنا لقطة والعكس ليس صحيحا بل يستوجب العقاب الصارم الأبدى فى الحال. أنواع السلوك هذه تشابه ما كان يجرى فى أوروبا فى عصور الإقطاع ولكن الخلاف يكمن فى أن الهنود يتقبلون هذه القواعد برضا ويخضعون للقوانين المنظمة لحياتهم بقبول (أما الأوروبيون فقد ثاروا عليها حتى تم إلغاؤها تدريجيا). دأب الهنود منذ عهد مانو على تشديد تلك القواعد تباعا أما المجتمعات الأوروبية فقد دأبت على رفضها والثورة على حكامها. وقد عمل عاملان على تشديد نظام الطوائف الطبقى وزيادته، أولاها هو التهيب الغريزى والخرافى من تناول الطعام مع من لاتعرفهم ورفض السماح للأجانب عن القبيلة بالدخول فيها ورفع الكلفة والحواجز معها التى تميزت بها القبائل فى الهند (وفى كل مكان)، وقد فضل الهنود التجمع فى مجموعات محدودة دائمة، فالهند بلد شديد الاتساع فى المنطقة شديدة الحرارة من العالم، شديد الازدحام بالبشر، وتنتشر فيه الأمراض المعدية بكل سهولة. فى الهند تتاح الفرصة للبقاء على قيد الحياة لمن كان اختلاطهم بالناس قليلا، خاصة فى أمور الأكل والشرب (والجماع). السبب الثانى لتعظيم اختلاف الطوائف والطبقات يكمن فى الفلسفة الدينية القائمة على تناسخ الأرواح التى بدعها البراهاميون. كان البراهميون يقعون فى قمة المجتمع، وقد بدعوا مبدأ «كارما» الذى يقضى بأن لكل عمل جزاءه، وأنهم حصلوا على هذا المركز الرفيع لأن أرواحهم استحقت ذلك المركز من حسن أفعالهم فى حياة سابقة. وعد هذا المبدأ من ينتمى إلى طبقة «سودرا» أن روحه ستعلو حتما وتتقمص جسد «براهاما» إذا حسنت أفعاله وإلا ستهبط فى السلم الاجتماعى وتسكن فى جسد أحد المنبوذين. ربما يكون هذا المبدأ جاء للهند من بلاد فارس، التى بدعت مبدأ الجنة والنار، ذلك المبدأ الذى انتشر غربا وحل فى ثقافات الشرق الأوسط وأوروبا، بينما انتشر شرقا إلى الهند فى صور الطوائف الطبقية. عمل هذا المبدأ على تفسير عدم المساواة الحالية بين بنى البشر، كما عمل على

الإبقاء على عدم المساواة بينهم فى المستقبل؛ فقد وعد الصابرون، خاصة الذين يتحملون الصعاب بصبر شديد، بالمكافأة والثواب فى مستقبل أيامهم!

تطور النظام الطائفى الطبقى فى الهند بالاستيعاب والقبول، وبالغزو وبالثورة. كان من المحتم فصل النساء من الطبقات العليا عن الاختلاط برجال من طبقة أدنى، وحكمت قوانين مانو بالموت على الاتصال الذى يتم بين امرأة من طبقة عليا ورجل من طبقة أقل. أما إذا حدث اتصال بين رجل من طبقة عليا مع امرأة من طبقة أقل فإن الجرم يمكن غفرانه بالاغتسال. وهكذ تتم التفرقة فى المعاملة بين الرجال والنساء حتى عصرنا الحاضر. للاحتفاظ بالنظام الطبقى فى الهند تم ابتداع أمرين: الأول هو زواج الأطفال قبل سن البلوغ والثانى يسمى «بوردا»، وهو فصل النساء بعد الزواج. وكلما ارتفعت طبقة النساء فى المجتمع كلما إزداد ويتم فصلهن تماما بعد الزواج، وكلما أرادت طائفة رفع طبقتها الاجتماعية، كلما انقصت من سن زواج البنات حتى سن الطفولة. كذلك يمنع بتاتا زواج الأرامل من النساء حتى ولو كن فى سن الزهور (بل كان يتم حرق الزوجات بعد موت أزواجهن حتى منع الإستعمار البريطاني هذا التقليد الدينى والاجتماعى فى الهند). وهكذا تحولت نساء الهند إلى ضحايا للتفرقة الطبقية، وكانت حرية مزاولة الجنس قاصرة على طبقة المنبوذين من النساء، التى لايمكن لهن السقوط إلي طبقة أدنى فى المرتبة الإجتماعية. سمحت الأحوال الإقتصادية بتعدد الزوجات للرجال الأثرياء وسمح النظام الذى يقضى بمعاشرة النساء من طبقة أدنى بالحرية الجنسية للرجال الفقراء. وقضت التقاليد بين الهنود، الهندوس والمسلمين على السواء، أن الرجل من طبقة دنيا إذا منح أخته لرجل من طبقة أعلى يستظل بحمايته ويتمتع برعايته (وتكون هذه الشقيقة بمثابة المنحة التى يتمتع بها الرجل الرفيع، كما كان لوردات ونبلاء أوروبا الإقطاعيين معتادون عليه فى إقطاعياتهم). تمتع بتعدد الزوجات فى الهند، كما حدث فى بقية أنحاء العالم، الغزاة الفاتحون، وزادت بهذه الوسيلة ذريتهم وتضاعف أبناؤهم وأحفادهم ونسلهم، على حساب المواطنين الأصليين من أصحاب البلاد.

من ضمن البراهاميين والراچبوتيين توجد جماعات تعرف باسم «جوترا»، يدعى كل منهم أنه ينتسب لرجل واحد، ولكن – بين البراهاميين أنفسهم – تختلف أعمالهم، وبالتالى طبقاتهم، ويعلو بعضهم فوق بعض. يتزوج الرجال من نساء تقل عنهم فى الدرجة، قد يصل عدد الزوجات للرجل الواحد فى القمة إلى ستين زوجة، أما النسوة فلايحق لهن الزواج من رجل دون طبقتهن، ولذا تتخلف كثيرات من نسوة الطبقة العليا عن إيجاد زوج يحق له الزواج مها، لولا قبول عدد من الرجال بالزواج من زوجة إضافية نظير ما تدفعه له من أجر. تقل درجة الراجبوتيين تباعا كلما انتقلنا من الغرب إلى الشرق، وتزداد لون بشرتهم سمرة كلما رحلنا شرقا، لإزدياد العناصر الوراثية السوداء فى دمائهم من اختلاطهم بقبائل شديدة السمرة التى حدثت فى الألف سنة الأولى بعد الميلاد، وقد نتج عن هذا

أن الرجال يتجهون شرقا والنساء يتوجهن غربا للزواج. وهكذ يتناسل الهنود بالإستيلاد الخارجى ويزداد هذا الإستيلاد الخارجى تباعا ويتكاثر عدد الهنود بإطراد. بين الجوترا يباح التزاوج من داخل الجوترا وليس من خارجها، الزواج المحرم الوحيد هو بين الأقارب. أما فى الطبقات الدنيا فلا توجد حدود مطلقا للزواج وللتناسل.

حرصت قوانين مانو ورفعه البراهامين على الحفاظ على الإستقرار التام داخل المجتمع، ولكن اهتز هذا الإستقرار بعنف لقرنين من الزمان بغزو المغول، واهتز ثانيا برفق لقرنين آخرين بعد ذلك بالغزو البريطانى. بدخول الكتابة الأوروبية وحلول الثقافة والعلم الغربيين إلى الهند حدث قدر من التنفس للبراهاميين، وصار الإنجليز أنفسهم يكونون طبقة أخرى فى هذا النظام المعقد المتسامح. لم تنعم الهند بتاتا بالإستقرار التام فقد تعرضت الجماهير، كما تعرض المجتمع وتعرض الدين لعدوان من الداخل ومن الخارج. كان على المجتمع إدماج القبائل التى تقطن التلال واستيعابها، وقد استمر هذا التمثل على مدى ٣٠٠٠ سنة ببطء، كما حدث فى بلاد الصين - بدون التقسيم إلى طبقات - فى نفس المدة. كلما تمثل المجتمع قبيلة بدائية حولها إلى طبقات، ومازلنا نلاحظ كل خطوات هذه العملية. زادت عملية الإستيعاب هذه من حجم الطبقات الدنيا، خاصة طبقة المنبوذين. بداية تلك الطبقة كانت إضافة للمجتمع الهندى، إما من بقايا الثوار القدامى أو من الداخلين الجدد البدائيين على المجتمع. بانضمامهم إلي المجتمع الهندى فى تلك الطبقة يكون نصفه داخل المجتمع ونصف خارجه، وهذه الطبقة حاليا تكون سدس مجموع الهنود. من عوامل عدم استقرار المجتمع الهندى الغزو المتكرر للهند من المحاربين من الشمال. أولا جاءت موجات متتالية من الآريين فى الألف سنة الثانية قبل الميلاد، ثم وفد الفرس فالإغريق والسكيثيون ثم الهن، وأضاف كل من هؤلاء إلي طبقة المحاربين. أبرز تلك الجماعات كانت جماعة كشاتريا، مع حلفائهم من الهن ومن السكيثيين صاروا فى القرن السابع بعد الميلاد يعرفون باسم «أمراء الراچيوت» وقد كان هؤلاء عامل عدم استقرار فى تاريخ الهند. استمر الخلاف الذي ظهر فى العصر البوذى. كان بوذا من طبقة المحاربين وكان تبشيره هو إزالة الحواجز من طبقات المجتمع المختلفة وعدم اقتصار كل طبقة على مهنة بعينها، وبهذه الدعوة يحرم البراهيميون من مركزهم الاجتماعى وامتيازاتهم الإقتصادية. انتصرت البوذية فى الهند لعدة قرون، القرون التى انتشرت فيها بعثاتها التبشيرية لنشر معتقداتها ونشر الحضارة الهندية فى منغوليا وبلاد التبت والصين واليابان وكذلك فى سيلان وبورما وسيام وبقية الهند الصينية، فى كل الأماكن المختلفة حول الهند والتى لم يثبت فيها بعد نظام الطبقات. فى الهند ذاتها تحت حكم أسوكا كاد أن يتحطم النظام الطبقى بالزواج المتبادل. كان أسوكا نفسه حفيد إمرأة من الطبقات الدنيا . تحول كثير من الطبقات الدنيا إلى البوذية، لتحسين أحوالهم. ولكن بعد حين استعادت طبقة

البراهمين – طبقة الكهنة ورجال الدين – مركزها الرفيع وأخمدت معتقدات البوذيين – وليس أصنامهم. وتكونت طبقة للبوذيين (على خلاف ما تقضى به المعتقدات الهندية) ونزلت للمراتب الدنيا، وتفرعت إلى عدة طبقات وبقيت إلى عصرنا الحاضر. كان رفض نظام الطبقات الهندى – الذى نادى به البوذيون – مقبولا فى كافة أنحاء آسيا، وكان أبرز حركات الاصلاح التى حدثت. قبل ذلك بألف عام، قبل الغزو الآرى سجل الجينيون عدم رضاهم عن خرافات البراهميين وعن سيطرتهم على المجتمع. كان هؤلاء أقوام من أهل التجارة ومن المتنورين وقد يعودون فى أصلهم إلى بلاد السند وليس إلى غزاة متبربرين. بعد حوالى ألفى سنة نشأت طائفة السيخ وقطعوا روابطهم مع الهندوس. وقد فشل كل من هاذين النظامين فى اقتلاع النظام الهندوسى. كون كل نظام منهما أقلية منفصلة عن النظام الهندوسى الذى يتبعه أغلبية الهنود، ولكن كون السيخ تدريجيا – بالإستيلاد الداخلى – مجتمعا جديدا، صار طبقة جديدة، تتميز بمهن متخصصة، داخل المجتمع الهندى الكبير فى النهاية. عندما تغلب المسلمون على الهند، كانت الطبقية أيضا هى محور الصراع. تحرر كثير من أمراء الهنود من قيود البراهيمينية، واجتذب الدين الذى لايفرق بين الطبقات إليه كثير من الهنود الأذلاء، ولذا استمر الإسلام يعيش إلى عصرنا الحاضر قويا فى جزء كبير من شبه القارة الهندية، واستثمر هذا الشق فى تقسيم البلاد سياسيا بين الهندوس والمسلمين.

متى تم وضع قوانين للاستيلاد وتم تطبيق تلك القوانين بحزم، تمسك بها الجميع وتبدل المجتمع طبقا لتلك القواعد والتزام الجميع وتكيفوا مع وضعهم فى المجتمع وحرفهم والمهن الى امتهنوها وانقسم المجتمع تبعا لتلك التقسيمات وحافظت كل طبقة على وضعها، حتى عندما انعدم السبب الذى من أجله وضعت تلك التقسيمات. تغلغلت قوانين الزواج عميقة فى كل عائلة وانتقلت من جيل إلى جيل واكتسبت مزيدا من القوة كلما مضى بها الزمن. من بين طبقة عمال المعادن انقسم الناس إلى صانعو النحاس الأحمر والنحاس الأصفر وعمال الحديد. تخصص الجوحى فى أسام فى تربية دود الحرير وفى غزل الحرير. استمرت طبقة الشحاذين تعتبر من المنبوذين لقذارتم البالغة ولأنهم اختصوا بأكل القمامة وجيف البشر، بينما استمرت طبقة الطوائف تمتهن عزف الموسيقى والقوادة بينما عملت بناتهن كراقصات وغانيات. طائفة البياتى تحرق الجير وتنسج الأكلمة وتؤلف الموسيقى، بينم تعمل طائفة الكهار كحمالين وبوابين وخدم فى المنازل كما يعملون فى مهن تتعلق بالماء كصيادى سمك وحافرى آبار ومربين لنمل الماء. استمرت تلك المهن تتوارث على مر الأجيال بالاستيلاد الداخلى الذى طبع المجتمع الهندى. ولكن كل قبيلة أيضا، بعد تحولها إلى طائفة مهنية معينة قلت أمامها فرص العمل فى حرفة أخرى أو امتهان مهنة مغايرة لما نشأت عليه، وتشابهت فى هذا الشأن مع مجتمعات الغجر الرحّل الذين ارتحلوا عبر أوروبا فيما تلى تلك من العصور.

أثبت التعداد الذى أجرى فى الهند عام ١٩٤١ أن هناك ٢.٢٦٨,٠٠٠ ينتمون إلى مايعرف «بقبائل الإجرام» وهى تحت عين الشرطة ومراقبتها. تنحدر تلك القبائل من الراچپوت، أى أن لها جد من النبلاء، وبعضهم مسلمون، اعتنقوا الإسلام فى القرن السادس عشر. تشبه قبائل المجرمين هذه قبائل الغجر لأنهم رحل ويمارسون أعمالا هامشية، ويتحدثون بلغات عديدة (مما يتيح لهم فرصا واسعة للكسب). كثير منهم يسمحون لنسائهم بالتحرر الخلقى (مما يتسبب فى اختلاط الأنساب وفقدان التميز الجينى).

ما هى آثار النظام الطبقى الذى ساد بلاد الهند (وانتشر حيثما انتشر الهنود - انتشر مع البوذية «التى جاءت لتناقضه» فى جنوب شرق آسيا، وانتشر من بورما إلى اليابان). أول هذه الآثار أنه حل محل نظام الرق، الذى لم يعرف قط فى تلك البلدان، وهو يفوق نظام الرق ويفضله فهو أكثر ثباتا لأنه يضع قيودا على كافة الطبقات، وعلى الجميع الالتزام بتلك القيود. ثانى تلك الآثار، أنه خلق قدرة عجيبة على التسامح وعلى قبول الغير، وقضى على التناقض الإجتماعى بين الطبقات، الشىء الذى لم يحدث فى أوروبا التى عانت من الثورات المدمرة والتناقض العاصف بين طبقاتها. كان الركود هو الثمن الذى دفعته حضارات تلك الشعوب ومنعها من التقدم الذى حدث لباقى الشعوب: الفرس والإغريق والأوروبيين واليهود والمسيحين والمسلمين.

الباب السابع

نشأة الأمم الحديثة

فى الألف سنة التى تلت سقوط الدولة الرومانية الغربية أحاط الأعداء بأوروبا من جميع الجهات وظهر كأنهم يريدون تحطيم تراثها؛ ذلك التراث وتلك الاستمرارية التى حافظت عليها الكنيسة الرومانية وقوى أخرى كثيرة خلفتها فى السلطة. ظهرت أولا مجتمعات ثلاثة مختلفة: الإغريق والترك فى القسطنطينية ثم ظهر مجتمع آخر كان له التأثير العظيم فى البندقية.

بيزنطة

عندما انهارت الإمبراطورية الرومانية وفقدت نصفها الغربى فى القرن الخامس الميلادى لم يبق منها إلا دولة تعرف باسم بيزنطة. صارت تلك الدولة الصغيرة هى روما الجديدة وكبرت حتى صارت أعظم من العاصمة القديمة نفسها، ومنذ إنشائها كانت مركزا لإمبراطورية استمرت فى الوجود لمدة تعادل مدة بقاء الإمبراطورية الرومانية ذاتها. لمدة أحد عشر قرنا ـ من ٣٢٧ حتى ١٤٥٣. كانت القسطنطينية عروس المدائن، وعمد سكانها على إحياء التراث القديم الذى ورثوه من العالم الكلاسيكى. استمر تطبيق قوانين روما ـ بعد أن جمعها جستينيان ونسقها ـ ولكن بعد تغيير أسماء الموظفين والإداريين إلى أسماء إغريقية. حرصت الدولة الجديدة على إحياء الإغريقية والأدب الإغريقى والدراما الإغريقية، وصار من يستحوذ على تلك المهارات أهلا للترقى والارتفاع اجتماعيا. دعمت الدولة المدارس والجامعات واستخدمت العلماء والمفكرين. قدم لطلب العلم فى القسطنطينية أبناء الحكام الأجانب. ارتفعت الكنائس فى جميع أنحاء الإمبراطورية شاهدة بفن العمارة الذى ارتقى فى البلاد على مدى أجيال عدة، وبالصناعة الراقية التى بدعها الفنانون والحرفيون. تشربت العقيدة المسيحية بأسلافها من الديانات الوثنية، التى أثّرت طقوسها وملابسها وخاصة موسيقاها. فى الدولة البيزنطية كان مباحا لرجال الدين بالزواج والتكاثر. كان كل شئ فى الحياة فى العاصمة يدعو للتفاخر لسكانها الذين أخذهم الزهو بكل ما هو إغريقى مع احتقار كل ما دون ذلك، الذى وصفوه

بالبربرية والهمجية. لكن بعد حين، وبعد سلسلة متتالية من الكوارث انهارت تلك الدولة وتفرق المجتمع وخضع الشعب لسيادة قوم آخرين، ثار التساؤل ما هى أسباب احتضار الدولة الرومانية الشرقية، وماذا بقى منها ومن تراثها معنا حتى الآن؟.

عندما نقل قسطنطين عاصمته من روما تخلص من كل العوام ومن غالبية الأرستقراطيين الرومان فى نفس اللحظة. قطن المدينة الجديدة تلك الأقوام التى استقطبها وأحب أن تشاركه فى بناء الدولة. استقطب الموظفين الرومان، وبقى فى روما بيروقراطية دينية ومعارضة شعبية، ظلت تتصارع لقرون عدة وإزداد التناقض بينها حتى نشأت أوروبا الحديثة. أما فى الشرق فقد وحد قسطنطين ـ وتبعه خلفاؤه من بعده ـ الجميع تحت سيطرته واحتفظ هو نفسه بالسلطان الدينى والسلطة الملكية فى يد واحدة. وصار البطريرك يعينه الإمبراطور ويفصله حسب رغبته وتبعا لأهوائه. صارت العاصمة الجديدة مصدر قوة حربية ومتعة للإمبراطور، وكانت حصينة حربيا، وتختلف عن روما التى كانت كل الطرق تؤدى إليها. كانت روما قاعدة للهجوم أما القسطنطينية فكانت قاعدة للدفاع. كانت بموقعها مركزا بحريا تجاريا. اجتذبت السفن، وبناة السفن، كما اجتذبت الملاحين والبحارة، من الإغريق والفينيقيين الذين بدعوا الملاحة واتقنوها وبرعوا فى فنونها وكانوا رجال الإمبراطورية فى السلم والحرب. سيطرت العاصمة الجديدة على البحار وبنت دفاعها على تلك السيطرة البحرية. كانت لغة الأباطرة حتى جستينيان هى اللاتينية، لغة الطبقة العسكرية، ولكن تعلم الأباطرة اللغة الإغريقية، وكان السكان الجدد للمدينة من الإغريق ومن اليهود ومن البابليين، وهكذا تكون سكان المدينة من أعرق شعوب العالم وأكثرها ثقافة ومعرفة. وكان الإداريون الأكفاء ينتشرون فى مدن الأناضول واليونان فى انتظار اللحظة التى يُطلبون فيها لإدارة الدولة الجديدة، اعتمدت الإمبراطورية عليهم لتطبيق النظام الرومانى للضرائب الذى كان مكتوبا فى القانون الثيودوسى. تم تطبيق هذا القانون بعد تحسينه: فرضت الضرائب على الأراضى وعلى الواردات والمبيعات وعلى الإرث وعلى تملك العبيد. وأضيف إلى ذلك الأرباح من الملكية العامة للأراضى الزراعية الشاسعة ومن استخراج المعادن فى أنحاء الإمبراطورية. فى البداية، كان جزء كبير من تلك الضرائب يأتى من سوريا ومن مصر ومن أفريقيا، ولأول مرة فى التاريخ كان الدخل يفيض حتى بعد سداد الضرائب ودفع المبالغ الباهظة للحكام. مكن هذا الدخل الوفير لجستينيان ولقواده العسكريين من إعادة فتح الإمبراطورية الغربية حتى جنوب إسبانيا، كما مكن لخلفائه من بعده أن ينشئوا ميلشيات إقطاعية، جنودا مرتزقة أشداء للحماية الشخصية، مع قوات نظامية حسنة التدريب من الأقاليم المتطرفة شملت أفرادا من الصقالبة والفايكنج والأنجلو ساكسون، فى القرن العاشر الميلادي.

سواء كان بدافع من التقوى أو كانت سياسة جستنيان، قرر أن ينال الإنفاق على الكنائس معظم ثروة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ـ أنفق ٣٠٠ ألف جنيه ذهبى على بناء كنيسة سانت صوفيا ووقف عليها ٢٦٥ مبنى بالقرب من العاصمة للإنفاق عليها، وكانت هذه السياسة محل الرضا الكامل من شعبه. أوقف كثيرا من الممتلكات للإنفاق على الكنائس والأديرة وملاجئ الأيتام، وأنشأ أول دار فى التاريخ لإيواء المومسات وهدايتهن/ اهتم الرأى العام فى الإمبراطورية بمناقشة قضايا دينية على مدى قرون طويلة. بعد مجمع نيقيا، عكف الرأى العام لعدة قرون على مناقشة طبيعة المسيح. بعد ظهور الإسلام ثار خلاف كبير حول حرمة أو حل الرسوم والتصاوير الدينية وثارت اضطرابات كبيرة فى المدينة مما هدد بانقسام السلطة وتفرقها، وفى نهاية القرن الرابع عشر سارعت معتقدات الأسقف جريجورى بالآراء الخاطئة وأفكاره غير المقبولة بالإسراع بكتابة شهادة الوفاة لإمبراطورية تحتضر. من الناحية السياسية وحدت تلك الأفكار بين الإغريق ولكنها باعدت بينهم وبين شعوب سوريا ومصر الرافضين لهم، كما باعدت بينهم وبين منافسيهم فى الغرب فى روما (وهكذا بينما الدين واحد إلا أن الفرقة مستتبة بين الشعوب المختلفة، وتفسير الدين يختلف باختلاف الأعراق). اختلف أهل البحر الأبيض المتوسط على تراثهم المسيحى المدون، الذى اعترفوا جميعا به، واختلفوا اختلافا بينا على تفسيره. ومن الناحية الفنية اهتم المصلحون بالكنائس البيزنطية واستخدموا عددا كبيرا من الفنانين والحرفيين من المدن البيزنطية. وبهذا شيدت كنيسة سانت صوفيا على أحسن وجه وجمعت بين العظمة والأبهة، وجمال الفسيفساء ودقتها، وفخامة موسيقى عيد القيامة الأرثوذكسى. واشتهرت تلك المنجزات بفضل التجار الذين جابوا أنحاء أوروبا، ونظر الملك السكسونى الوثنى الذى دفن فى عام ٦٥٥ والملك النورماندى بعد ذلك بأربعة قرون بكل إعجاب لهذا الفن ولجأوا إلى الحرفيين البيزنطيين واستقدموهم لمحاكاة هذا الفن الرفيع، وتبعهم فى هذا أمراء فارانجيا فى نوفجورود أو فى بسكوف، والملوك النودمانديون فى بالرمو أو فى رافيللو، أو الأسقف أبوت فى مونت كاسينو أو حاكم البندقية عند بنائه كنيسة سان مارك. يسرت الهبة التى أوقفت على الكنائس البيزنطية الثراء لكافة الطبقات التى وظفت بهدف إقامة الكنائس وتزيينها وهاجر الفنانون والحرفيون إلى إطراف العالم المسيحى ومعهم رجال الدين والمعلمون والتجار، وتخطوا تلك الحدود. بعد أن احتل العرب صقلية فى عام ٨٢٧ توقف رحيل أبناء الإمبراطورية الشرقية إلى الغرب وتحركوا للشمال. كان التجار يبحثون عن الرقيق وكان المعلمون ورجال الدين يرغبون فى تحويل أبناء تلك الشعوب إلى المسيحية. شقوا طريقهم للشمال من البحر الأسود على ضفاف الأنهار، وكانوا يتزوجون ويتناسلون ويعمرون ويستعمرون شرق أوروبا تدريجيا. اختلطوا بالصقالبة (ولكنهم لم يمدنوهم)، وقابلوا الفايكنج والفارانجيان القادمين من السويد فاحتموا بكرملين النوفجوراد والبسكوف الأصلية ووضعوا الأصول

المدنية للثقافة الروسية. تحولت المدينة إلى مدينة الأباطرة السلافيين وصارت مصدر إعجاب وتقدير من كل الشعب، وبالنسبة لأهالى الغرب ظلت ـ لمدة طويلة ـ عاصمة أوروبا، وكان ثراؤها مصدر غبطة الجميع وصار الكل يحاول تقليدها. فى أيام الرخاء كان يقطنها مليون فرد من شتى الجنسيات. كان الأجانب يعيشون فى أماكن منفصلة عن بعضهم البعض، كل فى حيه. كان هناك الأرمن والمقدونيون فى تنافس مستمر، وكانت هناك مستعمرات سورية وأخرى إيطالية، وكان هناك التجار من جنوة ومن البندقية يعيشون مستقلين. كانت القسطنطينية بهذا النظام لا تختلف عن كبريات المدن فى كل العصور ولم تتوحد تلك المستعمرات مع الإغريق وظلوا إلى النهاية يحتفظون بإستقلاليتهم الخطيرة والمهددة لكيان الدولة. وصلت المدينة إلى أوج عظمتها فى القرن الثامن، وبدت كما لو كانت خالقة الإمبراطورية وليست نتيجة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، كما سبق أن بدت روما. ولكن الحقيقة أن العواصم الكبرى تتكون من الأفراد الذين يقطنونها، الأفراد الذين أتوا من كل حدب من أطراف الدولة والذين تجتذبهم تلك العواصم إليها (أو تعاقبهم بالمعيشة فى العاصمة). فى النهاية سقطت القسطنطينية عندما انفضت عنها مستعمراتها وسقطت فى أيدى الآخرين.

خلال الألف سنة التى سادت فيها مدينة القسطنطينية العالم تعرضت لهجمات عدة من أعدائها: الفرس ثم العرب، والفرنجة وأهالى البندقية والصقالبة ثم الترك. تغلغلت قوات كل هؤلاء الأعداء فى الولايات التابعة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، وهددت العاصمة. فى أعوام ١٣٩٠، ١٣٩٧، ١٤٢٢. وبعد اختراع القذائف الإغريقية المشتعلة (وتتكون من أوانى فخارية ممتلئة بالكيروسين، يتم إشعالها ويضاف إليها البارود ثم تلقى باليد. وهى أسلحة سريعة ابتدعها الإغريق فى حروبهم ضد المسلمين فى القرنين السابع والثامن الميلاديين. ثم صارت أسلحة فى يد الساراسيين ضد سان لويس فى القرن الثالث عشر ثم فى يد فرسان القديس يوحنا ضد الأتراك فى حربهم معهم فى مالطا) وهلع المسيحيون من غزوات أعدائهم المسلمين، مما جعلهم يحسنون تحصين عاصمتهم، امتنعت القسطنطينية لزمن طويل عن السقوط فى أيد أعدائها. ولكن استطاع الصليبيون من الفرنجة ومن أهالى البندقية (نتيجة الصراعات بين العائلات المالكة) من الدخول إلى المدينة واحتلالها عام ١٢٠٤. وبعد ذلك تم انتزاع أقاليم الإمبراطورية إقليما بعد إقليم حتى لم يتبق منها إلا أقل القليل، من السواحل حول المضايق. كان فقد الأراضى وضياع ثروة الإمبراطورية يعنى البطالة فى العاصمة. نقص عدد السكان حتى بلغ عشر عدد سكانها فى عصورها المزهرة، وهاجر الصناع والفنانون والدعاة والمعلمون إلى الخارج واستمروا لمدة ٨٥٠ سنة يمولون احتياجات الدول الكاثوليكية الغربية، خاصة إيطاليا والبلدان الشمالية من حاجتها من العقول والأيادى حسنة التدريب، وزودوا الأمم الهمجية التى ارتحلوا إليها بثقافتهم ودمائهم. وكان نتيجة تلك الهجرة وانتقال العقول من بيزنطة هو

انتقال الثقافة والحضارة إلى بلاد اللاتين حتى وصلت فى القرن الثالث عشر إلى نهضة بغير رجعة. كان بمقدرة الدولة الإغريقية أن تتحمل نزف العقول وفقد المهارات لو تنبه الإغريق أنفسهم لوسائل التجديد. ولكن الاستقرار الذى حافظت عليه مؤسسات الدولة جميعها، الاجتماعية والدينية، والذى تجمد فى الطبقة التى حافظت عليها العاصمة وجميع المدن، كان يناسب إمبراطورية واسعة وثرية. حتى عندما وقعت الأقاليم الجنوبية فى يد العرب استمرت الإمبراطورية قوية ومنيعة ولها حدود قابلة للدفاع عنا، واستمرت إغريقية الكيان. ولكن بدأ السوس ينخر فيها من الداخل وحاول الأباطرة أن يحبكوا الثوب على قدر القماش المتاح ولكن لم يكن النجاح حليفهم فى كافة الأحوال. استمرت العطايا تتدفق على الكنيسة ببذخ، وامتنعت الكنيسة والأثرياء عن دفع ضرائب الدولة ومستحقاتها، واستمرت الأديرة فى النمو والتضخم والثراء ومعها قوة الكنيسة ونفوذها وسطوتها، وازداد نفوذ نبلاء الدولة وقل تعاونهم، وازداد ضعف الحاكم ومعه قوة الدولة ونفوذها وانهارت منزلة الطبقة الحاكمة مع الضعف المتزايد للدولة.

ظهرت قوى جديدة وأحاطت بالحاكم وهددت العرش. ازدادت ألقاب رجال البلاط الإمبراطورى وتزايدت عظمتهم، وأضيف إلى لقب أغسطس صفة «الحاكم الأوحد» و«الملك الأعظم» وأضيف إلى ألقاب أعضاء مجلس الشعب صفات «المؤيد من الشعب» و«المتحدث باسم الأمة» وإلى ألقاب جنرالات الجيش صفات «الحائز على ثقة أهالى القسطنطينية وعلى تهليلهم وتأييدهم». أضيفت هالة القداسة المسيحية إلى الأذلال الشرقى، وأضيف لمراسم التتويج العبرى ارتداء الأثواب الساسانية والأكاليل الإغريقية المرصعة بالجواهر التى يُلبسها السلف أو بطريرك متذلل خنوع. فى كل تلك المراسم استطاعت القسطنطينية أن تتفوق على روما وتسبقها.

تعاقب الأباطرة على عرش القسطنطينية منذ عهد جستنيان حتى الغزو اللاتينى (من سنة ٥١٨-١٢٠٤)، بالرغم من حدوث ثورات حاولت مرارا قلب نظام الحكم بالقوة وتغيير الأسرة الحاكمة (ونجحت أحيانا فى بلوغ هذا الهدف). قفز هؤلاء الرجال فى غالبية الأحيان من بين صفوف رجال الجيش (وفى أحيان أخرى من بين المدنيين). وكان هؤلاء المنقلبون عادة من الأثرياء وأحيانا من ملاك الأراضى من النبلاء، وكانوا يستولون على العرش بقتل أسلافهم الشرعيين أو فقع عيونهم وكانوا يتزوجون من نساء الإمبراطور السابق قبل أو بعد الاستيلاء على العرش. وبذا يؤكدون نسبهم الملكى بدون أى معارضة، وهكذا نشأت طبقة ــ بين العسكريين ــ تزعم حقها وحدها دون غيرها ــ للجلوس على أريكة الحكم. كان حكام بيزنطة يفوقون حكام روما فى التفاخر بأصلهم وحسبهم ونسبهم وعلو شأنهم وأنهم لم يدخل دم همجى فى عروقهم، بل كانوا يتمتعون بالمكانة الإغريقية الرفيعة بكل ما تحويه من ثقافة وحضارة ومدنية. وقد تم الاحتفاظ بهذه المنزلة العالية بإنتقال الحكم من روما إلى

القسطنطينية. وهكذا أغلقت الطبقة العليا على نفسها الأبواب والنوافذ وجهلوا الارتفاع المطرد للأمم الأجنبية عنهم، الذين كانوا يدعونهم بالكفرة أو بالهمج. عندما قدم الفرنجة من الصليبيين إلى القسطنطينية عام ١٠٩٦ معتقدين أنهم أتوا لإنقاذها من الترك اعتبرتهم الأسرة الإمبراطورية المالكة من الكلت الأكثر همجية من الأتراك والأشد تخلفا عنهم. وهكذا انفصل الإغريق ـ على كافة المستويات ـ عن الجميع واستمروا فى عزلتهم ونقائهم العرقى وتفاخرهم بأصلهم الرفيع، فلم يختلطوا بالأرمن ولا بأهل البندقية، الذين كانوا يتعاملون معهم بالتجارة، مما تسبب فى انهيارهم فى النهاية بدلا من دعمهم وازدياد قوتهم.يوضح الجدول رقم (١٥) حكام الدولة البيزنطية وأصل الأسر المالكة فيها.

جدول رقم (١٥)

حكام الدولة البيزنطية وأصل الأسر المالكة فيها

الأسرة الجستنيانية: (٥١٨ – ٦١٠)	بدأها جوستين الأول (٥١٨ – ٥٢٧) جنرال من الهمج انتخبه الجيش.
الأسرة الهرقلية: (٦١٠ – ٧١١)	بدأها هرقل (٦١٠ – ٦٤١) ابن حاكم قرطاجنة.
الأسرة الأزورية: (٧١٧ – ٨٠٢)	بدأها ليو الثالث (٧١٧ – ٧٤١) قائد من أصل سوري ثم انتهت بليو الخامس (٨١٣ – ٨٢٠) القائد الأرمنى.
الأسرة الفريجية (أو الأمورية): (٨٢٠ – ٨٦٧)	بدأها ميشيل الثاني الفريجي (٨٢٠ – ٨٢٩) كبير موظفي القصر الملكي الذي تزوج من ابنة الملك الأزوري قسطنطين السادس.
الأسرة البازيلية (أو المقدونية): (٨٦٧ – ١٠٥٧)	بدأها بازيل الأول أحد أحفاد قسطنطين العظيم والأرساسيد الأرمني (٨٦٧ – ٨٨٧) وزير البلاط لسلفه ميشيل الثالث الذي قتله.
الأسرة الكومنينية: (١٠٥٧ – ١١٨٥)	أنشأها اسحاق الأول (١٠٥٧ – ١٠٥٩) نبيل من أصل رومانى. (تخللتها الثورة).
الأسرة الإنجيلية: (١١٨٥ – ١٢٠٤)	وقد قدم اللاتين إلي القسطنطينية من (١٢٠٤ – ١٢٦١).
الأسرة الباليولوجية: (١٢٥٩ – ١٤٥٣)	

لم يتزاوج الإغريق بتاتا مع الأجانب ولم يختلط البيت الإمبراطورى البيزنطى مع أسر ملكية أجنبية، بل كانوا يطلبون دائما الارتباط بالبيت المالك الإغريقى. كان إمبراطور بيزنطة يسمح لبناته أو أخواته بالزواج من ملوك من الهمج، ولكنه لا يسمح لنفسه أو لأبنائه من الذكور من الزواج من بنات هؤلاء الملوك «الهمج»، حتى نهاية القرن الثانى عشر. وهكذا كانت الأسرة المالكة نفسها تحق حذو المجتمع الإغريقى كله، خاصة المجتمع الارستقراطى، فلم تكن تجدد أنفسها بالتوالد الخارجى ولم تتح لنفسها فرصة تجديد دمها بالاستيلاد الخارجى مع أسر ملكية أخرى من الغرب، الذين كانوا يدعونهم «بالهمج»، وفى هذا الشأن اختلفوا عن حكام روما.

كان الإمبراطور مطلق السلطة، ولكن كان توليه الحكم وتركه للعرش دمويا، لذا حرصوا أشد الحرص على انتقاء وزرائهم كما كان يفعل الملوك الإقطاعيون المنتخبون فى الغرب، ولحماية أنفسهم لجأوا إلى نفس الحيلة الخطيرة التى لجأ إليها ملوك الفرس فى الشرق والتى انتهت بفنائهم. لجأ الأباطرة ـ بدأ من ديوكليتيان واستمرارا بخلفائه المسيحيين ـ إيمانا منهم أنه من الأسلم لهم أن يتخذوا وزراء من الخصيان الذين كانوا غير حريصين على إنشاء أسر مالكة تتوارث العرش، وكانوا يظنون أيضا أنه مستحيل على الخصى أن يصير إمبراطورا. فى البداية كان إخصاء الرومان والرجال الأحرار يعتبر فعلا مشينا ينبغى الابتعاد عنه، ولكن عندما تم تخصيص ثمانية من وظائف الدولة العليا فى الإمبراطورية للخصيان أصبح الآباء الحريصون على ارتفاع شأن أبنائهم يطلبون إخصاء بنيهم اتباعا للمطلب القومى العام. كانوا يبدأون بإخصاء أول أبنائهم، ويتولى هؤلاء بدورهم فتح الأبواب المغلقة وإتاحة الفرص لإخوانهم الأصغر سنا. ثم بدأ الأباطرة أنفسهم بإخصاء أبنائهم العاصين والمتمردين قبل أن يطالبوا بالعرش ويقصون آباءهم عنه. وهكذا، بالإضافة إلى العبيد الذين جاءوا من أقصاء الدولة الرومانية الشرقية حديثا إلى سوق الرقيق بالقسطنطينية، أضيف عدد كبير من الخصيان من أبناء الأسر الراقية ذوى الذكاء والنباهة والمقدرة الفائقة.

وقد كان وجود الخصيان فى قمة الحكم هو السلاح الذى قيدت به الإمبراطورية قوة الأثرياء الذين حطوا فى البلاد من الولايات الإقطاعية فى الغرب، كما كان الثراء الشديد للمدن العظمى، خاصة العاصمة، والقوة التى مارستها على أيدى المثقفين فيها والإداريين الأكفاء الأذكياء، الذين ورثتهم من العالم القديم، من دواعى استقرار الإمبراطورية الرومانية الشرقية واستمرارها ألف سنة بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية، التى لم تتمكن من إعداد تلك الكوادر المستنيرة، بالرغم من تطورها وهجرة كثير من العقول من الشرق إليها، حتى من بيزنطة ذاتها. استغرق تعليم وتطور الفئات المتعلمة والقابلة للتعليم حوالى ثلاثين جيلا قبل أن يتنور أهالى الغرب ويستطيعون الاستيلاء

على السلطة من الإدارات الإقطاعية بها. وكانت السلطة التى تولتها المدن، وتأرجُح الملوك الذين قيدوا قيادات الإقطاع بجيوشهم، هى الفارق الحاسم بين تطور الحضارة فى الشرق عن الغرب.

كانت القيمة المباشرة التى استخدم الخصيان من أجلها، هو الإخلاص المطلق للملك نفسه وكلما عظمت هذه الخدمة كلما كان من المتيسر على الخصى أن يفوق سيده فى السلطة. ولكن كان من المتعذر على الخصى أن ينقلب على سيده، على العكس كان يزداد إخلاصه له، وبذا كان يصبح هو السيد الذى يعتمد عليه سيده أكثر فأكثر. ويتضح هذا بجلاء لدى ثلاثة من الأباطرة البيزنطيين. الأول كان بازيل (وزير البلاط) الذى قتل سيده ثم انقض على عرشه (وعلى فراشه) وبدأ الأسرة المقدونية. أما ثانى وثالث من فعلا تلك الفعلة فكانا من الخصيان، وكان كلاهما من أكفأ الرجال وأعظمهم مقدرة. فى كثير من الأحيان كان الأباطرة أنفسهم غير مخلصين لخصيانهم وينقلبون عليهم بلا سابق إنذار، مما جعل الخصيان لا يأمنون جانبهم. وهكذا كانت طائفة الخصيان التى أدارت مقاليد الحكم وسيرت شئون الدولة فى الإمبراطورية البيزنطية فى غاية الخطورة على الدولة ذاتها لأنهم كانوا غير مطمئنين ومتوجسين خيفة دائما مما يفعله بهم الحكام رغم شدة إخلاصهم لهم. يظن الناس فى زماننا هذا أن الخصيان أكثر جبنا وأقل شدة من البشر الطبيعين، ولكن هذه نظرية خاطئة كما ثبت من الأحداث التى جرت فى الإمبراطورية البيزنطية. كان الخصيان يؤخذون من كافة الطبقات الاجتماعية ويوظفون كوزراء مدنيين وقادة جيش عسكريين ورؤساء دينيين. لم يكن يُعرف تعدادهم على وجه الدقة، وتشير جميع القرائن أنهم فى كافة الوظائف والأعمال التى عهدت إليهم لم يكونوا أقل كفاءة من أقرانهم، كانت لهم نفس المقدرة التى لسواهم. أما إذا تحولنا من مقدرة الشخص الفرد إلى صفة جماعة الخصيان كمجموعة نقابل بمشكلة اجتماعية فى تطور المجتمع. فعلى مدى ثلاثين جيلا تم بانتظام إخصاء عدد من أبناء كبريات عائلات المجتمع مما أدى إلى عزوبية الشباب فى الشرق، وإلى حرمان بضع من خيرة شباب المجتمع من الإنجاب. وقد أدى ذلك إلى الإنقاص المتزايد للشباب فى الشرق (كما فعلت الثورات المتتالية والحروب الأهلية المستمرة فى الغرب لقرون طويلة والتى نَعِم الشرق بتجنبها). الفرق هو أن تلك الحروب فى الغرب انتقت أكفأ الشبان وأشجعهم وأمهر الرجال ومنحتهم فرصة الحياة، أما فى الشرق فقد حرم من الإنسال بعض أفضل الشباب لأنهم شكلوا خطورة على الحاكم – على كل حاكم، وبذا حرم المجتمع من كل ثائر أو شاب يحتمل أن يقوم بالثورة. وبذا فتح هذا النظام الباب على انتقاء الأفضل – تباعا – فى الغرب بينما أقفل الباب فى الشرق، الطريق الذى أدى فى النهاية إلى تدمير الشرق وإلى قتل كل مجتمع اتبع نفس السبيل. نشأة مجتمع الخصيان بهذا يتعارض تماما مع النظرية الداروينية – التى تقول بأن البقاء للأصلح –، كما يتعارض تماما مع المبادئ المسيحية الحقة. ولكن فى الدولة الرومانية الشرقية، التى كان رجال الدين فيها أتباعا للسلطان، عمل الأباطرة الإغريق على فرض رأيهم على الكنيسة – حتى ولو تعارض هذا

مع الأخلاقيات المسيحية. أما الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب فكانت سيدة على الحكام وفرضت أخلاقياتها على الساسة والرؤساء، وعلى الملوك والأمراء والنبلاء، وفرضت العزوبية على الرهبان فحسب ولم تفرض الإخصاء على أولاد وشباب العائلات. قد يكون تقليد إخصاء الشبان هو أحد العوامل التى أدت إلى انهيار الإمبراطورية البيزنطية، بجانب العوامل الأخرى.

التـرك

فى القرن الخامس عشر - زمن التحركات الكبرى - قطن منطقة شاسعة من أواسط آسيا - المنطقة التى تقع بين بحر آرال وتيان شان قوم يعرفون بالتتار. كانوا قوما رُحّل من الرعاة، يرعون الأغنام ويقومون بصناعة السجاد، ويسكنون الخيام، ويركبون الخيل وعملهم الصيد والقنص ويحاربون بالسهم والقوس. كانوا ينقسمون إلى طائفتين تتحدثان بلغتين مختلفتين. كان أهالى الشرق هجن من الصينيين الذين ارتحلوا إلى التركستان، هؤلاء هم المغول؛ بينما كان أهالى الغرب قد تهجنوا مع القبائل الآرية التى ارتحلت شرقا إلى بلاد الفرس وبلاد الهند، وكان هؤلاء يعرفون بالترك أو التركمان. فى القرن السابع كان الغزاة العرب قد وصلوا إلى بلادهم، واعتنقوا الدين الإسلامى وخضعوا للإسلام. وبحلول القرن التاسع كانوا يستخدمون كحرس شخصيين للخلفاء العباسيين فى بغداد، وتعلموا من ثمرات الحضارة الإسلامية وتقدموا حضاريا وثقافيا، وقويت شوكتهم حتى استولوا على الحكم وسيطروا على بغداد فى القرن الحادى عشر. وبعد عشرين سنة (فى سنة ١٠٧٧) هاجموا الإمبراطورية البيزنطية واحتلوا نيقيا واستولوا تدريجيا على هضبة الأناضول بعد أن عبروا جبال طوروس، التى كانت - منذ أيام معاوية حتى ذلك العهد - حدا فاصلا بين تغلغل أهالى الصحراء وبين دخول اللسان العربى. بعد دخول هؤلاء الغزاة الترك الأوائل - السلجوقيين - إلى أراضى الأناضول تناسلوا مع الإغريق ومع الأرمن وتكاثروا كما تناسلوا مع الفرس ومع العرب، صاروا الحكام لتلك البلاد لمدة قرنين من الزمان فى نظام إقطاعى غير مستقر تماما. ثم هاجمتهم عصابة من عدة مئات من الخيالة من غرب الأناضول واستولت على الحكم وأنشأت الأسرة العثمانية، ومن ثَمّ الإمبراطورية العثمانية، فى نفس الوقت الذى كان المغول يغزون الإمبراطورية العظيمة للعباسيين ويسقطون الحكم العباسى، غير قادرين على ابتلاع وهضم الإمبراطورية الكبيرة. استمر العثمانيون يقضمون الإمبراطورية البيزنطية قطعة قطعة ويحركون حدودها نحو الغرب ومعهم سكانها المسيحيين. كان الأتراك العثمانيون يتقدمون على حساب المسيحيين فى الشرق فى نفس الوقت الذى كان المسيحيون يتقدمون على حساب المسلمين فى الغرب، فى إسبانيا، ويتقدمون على حساب الوثنيين من الصقالبة فى ألمانيا. كان يعقب تقدم الجيوش وانتصارها العسكرى إقامة نظام حكم ونشأة طبقة جديدة من الحكام. ونظرا للتزايد السريع للأتراك المسلمين كان تقدم العثمانيين فى الشرق أسرع من تقدم الأوربيين المسيحيين فى الغرب فى إسبانيا. كلما تقدم المسلمون تزوجوا مع

سكان البلاد من المسيحيين وحولوهم للإسلام، وهكذا تحول المجتمع الريفي الذي هُزم في بلاد الأناضول إلى أمة هجينة، تتحدث باللسان التركي ويحكمها باشاوات أقوياء من الخيالة الأكفاء، من جنس هجين من الترك والشعوب المحلية أيضا. كان هؤلاء الحكام، قادة القوات المسلحة، منتقين، ويجيدون الفنون العسكرية وعلى رأسها ركوب الخيل. هذه الأمة الجديدة هي التي قضت نهائيا على بقايا الإمبراطورية المسيحية في النهاية، تمكن محمد الفاتح، عام ١٤٥٣ من مهاجمة شبه جزيرة بيرا، بسفنه السبعين، وقضى على دفاعات القسطنطينية واستولى على المدينة. بعد سقوط العاصمة ولدت الإمبراطورية التي صارت ـ حسب قوله ـ في عظمة الإمبراطورية الرومانية.

كانت قوة الإمبراطورية الجديدة تتركز في قوتها العسكرية التي اعتمدت على إنشاء والحفاظ على جيش إسلامي قوي، الذي فاق أي قوة عسكرية عرفت من قبل، سواء في العالم الإسلامي أم العالم المسيحي. تغير اسم العاصمة، وصارت الآن اسطنبول، التي تقع في مكان التقاء عالمين: عالم الإسلام وعالم المسيحية، عالم الشرق وعالم الغرب. حرص محمد الفاتح على الحفاظ على المجتمع الإغريقي ذو الثقافة الرفيعة والصلات التجارية البعيدة. بقي غالبية الإغريق في اسطنبول واستمروا في حياتهم غير المقيدة وفي أداء خدمات للإمبراطورية التي استمرت في الحكم لقرون خمسة. استمر مدير بلدية القسطنطينية الإغريقي كمدير لبلدية اسطنبول التركية، واستمر الكتبة الإغريق يعملون في وزارة الخارجية، ولكن في المقام الأول ـ عاون الإغريق على تنظيم مدارس البلاط. كانت هذه المدارس كلية حيث تَضَافر ـ للمرة الأولى في الغرب ـ تعليم التقنية، الصناعية والعسكرية، بجانب تعليم القانون والدين وتمكنت من منافستها. تخرج من هذه المدارس بعض الوزراء العظماء، خاصة جميع أفراد أسرة كوبريللو الحاكمة، التي حكمت الإمبراطورية في إبان مراحل قوتها الأخيرة. أنجز محمد الفاتح كل هذا مقتفيا المثال المستنير للعرب وباقي القوى السابقة التي سبق وحققت الانتصارات. كان محمد الفاتح حاكما مستنيرا، مثقفا بقدر ما كان محاربا عظيما. سمح بالحرية الدينية للمتحدثين بالإغريقية في نفس الوقت الذي حول كنيستهم ـ سانت صوفيا ـ إلى مسجد، ولكنه اعتمد اختيارهم للبطريرك الجديد، وأعاد تعمير المدينة بتسكين مسيحيين من ولاياته بالبلقان، من ألبانيا ومن البوسنة. سرعان ما أنشأ محمد الفاتح علاقات حميمة مع حكام البندقية (واستدعى الرسام الشهير بلليني ليرسم صورته، المعلقة الآن في الصالة القومية للفنون بلندن). كانت هناك إحدى نواحي الضعف في نظام حكمه، التي أثرت على تطور المجتمع وتطور الحكومة. كانت تعتمد في إدارة الشئون المدنية للحكومة على الرقيق ـ الذين تم تدريبهم في مدارس البلاط، كما اعتمد في إعداد جيشه على مماليك دربوا على فنون القتال. يوضح الجدول (١٦) تركيبة المجتمع العثماني وانتقال السلطة فيه.

جدول (١٦)

تركيبة المجتمع العثمانى وانتقال السلطة فيه (١٤٥٣ – ١٥٩٥)

المسيحيون			البلاط الملكى (فى مرحلة تهجين وتقدم وانزواء)		المسلمون (من أصل مسيحي إعتنقوا الإسلام قديماً وحديثاً)	
أسرى الحروب من جميع الجبهات	فلاحو البلقان – القبائل – الرحل – المنشقون من الشرطة والعسكريون	رجال الإدارة الإغريق طبقة التجار والمهنيون بالمدن الكبرى رجال الدين الإغريقيون والأرمن	السلطان ↓ أبناء يقتل الجميع باستثناء من يخلفه ↓ السلطان القادم	أم السلطان حريم السلطان ويشمل زوجاته ومحظياته (السلطان ←) بنات ويزوجن للوزراء وقواد الجيش وأبناء الطبقة العليا الذين يتعلمون في مدرسة البلاط	العلماء الإدارة التشريعية شيخ الإسلام (مفتيا استنبول) المفتيون المحليون (وعددهم ٣٠٠) رؤساء القضاة فى أوروبا وآسيا القضاة المحليون المدرسون	الرعيـة فلاحون منذ عام ٧٠٠٠ ق.م. معتنقو الإسلام قديماً (بالأناضول وجزيرة قبرص) معتنقو الإسلام حديثاً فى البوسنة فى ألبانيا
↓	↓	ضريبة الأولاد (٣–٥ سنوات) →	الانكشارية (عزاب) سوق الرقيق * الرجال المخصيون البيض والسـود للسلطان والوزراء * والذى يعملون كخدم فى البيوت		النبلاء والطبقة العليا الوافدة من الخارج	

التعليق على الجدول:

* كانت كراهية أهل البلقان المسيحين لحكامهم من الإغريق السبب فى إخلاصهم للسلد. العثمانى فى حرب التحرير الإغريقية (١٨٢١ - ١٨٣٢م). بعد التحرير توجه الإخلاص. إلى أثينا.

* كانت أم السلطان هى المسيطرة على حريم السلطان، وإذا كانت متوفاة فإن مرضعته. زوجة أبيه هى التى تقوم بهذه المهمة.

* كانت من مهام شيخ الإسلام إعتماد أحكام الإعدام أو النفى.

* الحريم اللواتى يستغنى عنهن السلطان فى سن الخامسة والعشرين كان يهديهن إلى ضباط الفرسان. بلغ عدد حريم السلطان فى القرن التاسع عشر ٢٠٠٠ امرأة.

* كانت الأميرات يبقين فى العاصمة، بينما يرسل أزواجهن إلى الولايات.

* كان أبناء السلطان يقتلون بواسطة أبيهم أو إخوانهم غير الأشقاء. قتل سليمان نفسه ولديه الكبيرين عندما دب الشقاق بينهما. بعد محمد الثالث كان يحبس الأبناء الذكور ولكن كان يتم قتل أطفالهم الذكور حتى يتم تولية العرش لخليفة السلطان (إذا لم تنجح الوسائل المتاحة لمنع الحمل من عدم إنجاب هؤلاء الأولاد).

* أنشأ مراد الثانى مدرسة البلاط فى أدريانوبول لتعلم الأمراء ثم نقلها محمد الثانى إلى استنبول وصارت تعلم كافة العلوم والمعارف.

* استمرت أسواق الرقيق باستنبول حتى قيام ثورة ١٩٠٨م.

* من الطبقة العليا الوافدة من الخارج عائلة كوبرولو، التى أخذت مركزها فى البلاد ابتداء من عام ١٥٩٥م.

تبينت معظم الأسر الحاكمة فيما مضى أن الحراس الشخصيين لهم والذين يشكلون أفضل وسيلة لحمايتهم يستحسن أن يكونوا مستوردين من خارج البلاد. اختار خلفاء العباسيين فى بغداد هؤلاء الحراس من أشرس الأقوام التى على حدود بلادهم ـ من التركمان، وكان أفضل هؤلاء أسرى الحروب. وكذلك كان التركمان وأهالى القوقاز هم أصل المماليك الذين حكموا مصر والذين دافعوا على السلاطين فى أول الأمر ثم استولوا على الحكم حينما استتب لهم الأمر وانقلبوا على السلاطين الأيوبيين. كذلك كان المرتزقة من الرقيق المسيحيين هم المدافعون عن سلاطين اسطنبول فى أول الأمر، ثم المتحكمين فى الحكومة التركية والذين هددوها أخيرا. ظلت المجتمعات المسيحية منفصلة عن بعضها أولا وتعيش حياتها الخاصة بها وتعلم أبناؤها فى مدارسهم، وظل تعدادهم ثابتا فى أول الأمر (فى عام ١٥٨٦ كان تعداد المسيحيين يفوق عدد المسلمين)، ولكنهم سرعان ما نزحوا تباعا إلى الغرب، إلى المدن الإيطالية التى كانت لها صلات وثيقة بالإمبراطورية البيزنطية، وهكذا استؤنفت هجرة العقول نحو الغرب. ولكن لم يظهر أثر هجرة العقول فى الحال. اتجه حفيد محمد الفاتح، السلطان سليم نحو الشرق وبدأ مهاجمة جيرانه المسلمين، الذين يحرم عليهم ـ بحكم معتقداتهم ـ أن يصيرا أرقاء وعبيد حتى لو تم أسرهم فى الحرب. استولى السلطان سليم على معظم ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، فاستولى على سوريا وعلى مصر، وتنازل له الحاكم الألبانى ـ خير الدين ـ عن تونس والجزائر. بعد هذا التوسع فى ممتلكاته تمكن سلطان الأتراك من أن يسمى نفسه خليفة الإسلام وكاد أن يتخذ اللغة العربية اللغة الرسمية للإمبراطورية، وأن يعيد لعاصمته أبهتها القديمة: بنى العديد من المساجد العظيمة والقصور الفخمة التى تركهاالخلفائه. جلب السلطان سليم الحرفيين من القاهرة لتزيين المبانى الجديدة فى اسطنبول (ويقال أن أعداد الحرفيين المهرة والصناع المتقنين لصناعتهم كان من الكثرة بحيث اختفت خمسين من تلك الحرف من مصر نفسها وكان هذا من أهم أسباب تدهور المدنية فى مصر وارتفاع شأنها فى تركيا). اكتسبت الدولة العثمانية ثراء كبيرا وصارت لها قوة رهيبة بعد فتوحات السلطان سليم واستمرت فى عهد ابنه سليمان الذى عرف باسم سليمان العظيم. فى عهد سليمان تم تحول معظم المسيحيين إلى الإسلام وازداد تعاونهم مع النظام الحاكم. ليست العبرة بالعدد ولكن بالنوعية التى اعتنقت الإسلام، فقد كان ثلاثة من أعظم وزراء الدولة العثمانية والذين رفعوا من شأنها وزادوا من قوتها: إبراهيم ورستم وسكولى قد ولدوا كمسيحيين. صارت الآن الدولة العثمانية فى مواجهة مباشرة مع النظم المسيحية فى أوروبا، مع قوم لم يتعلموا بعد ولا يدرون كثيرا عن منجزات العلم الحديث. احتل سليمان بلجراد فى عام ١٥٢١ ولكنه صد عن فينا بعد ذلك بثمان سنوات. طرد سليمان فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس عام ١٥٢٢ (التى لجأ إليها المسيحيون بناء على أوامر بابا روما بعد أن طردهم المسلمون نهائيا من

الشام وبعد أن تخلوا عن بيت المقدس)، ولكنه لم يستطيع طردهم من جزيرة مالطا عام ١٥٦٥. كان هؤلاء الفرسان السبعمائة فى فاليتا ومعهم جيشهم المكون من ٨٠٠٠ فرد هم الذين تمكنوا أخيرا من وقف زحف الأتراك المسلمين على أوروبا ومن إنهاء الانتصارات المتتالية تمهيدا لهزيمتهم فى ليبانتو بعد ست سنوات.

لم يستطع الأتراك العثمانيون أبدا بعد ذلك من استعادة تقدمهم الزاحف. تجمع الأعداء المسيحيون بعد ذلك واستمرت الإمبراطورية تجاهدهم لأكثر من ٣٠٠ سنة. لم يتمكن الحكام المسلمون من عملية التنظيم الاجتماعى للشعوب التى انتصروا عليها بحيث تربط تلك الشعوب بنظام الحكم بعد انتصاراتهم عليهم (كما فعل المسلمون الأوائل). قل تدريجيا تجديد فرق الإنكشارية، المقاتلون الأشداء، الذين عاثوا فى الأرض فسادا فصرفوا الشعوب عن حكامهم بدلا من أن يزيدوا ارتباطهم بهم، وهكذا تحولت فرق الإنكشارية إلى خطر يهدد العرش. ثم بدأت الثورات فى البلدان التابعة للإمبراطورية، فانسلخت بلاد الفرس أولا ثم النمسا ثم روسيا ثم البلاد العربية، صار جيران تركيا أكثر قوة بينما بقى الأتراك على حالهم.

كان الحكام الأوائل للدولة العثمانية زعماء قبائل، حافظوا على أوضاعهم بقبول المحاربين فى جيوشهم لهم، أى كانت السلطة من انتصاراتهم فى الحروب. منذ عهد عثمان الأول ضمنت شهرة أسرته لأبنائه حق توارث العرش. ولكن كان الحكام متعددى الزوجات، كثيرى الإنجاب ولذا كان لكل حاكم أبناء عدة يطالبون بوراثة العرش بعد وفاته (أو قبل الموت)، وكان هذا النظام يختلف تماما عن النظام المسيحى الذى يسمح بزوجة واحدة ينحصر فى نسلها وراثة العرش. أدى هذا الوضع إلى حدوث الشقاق بين الإخوة، شقاق كان يؤدى إلى معارك حربية تعتمد على الجيش النظامى أو على فرق الإنكشارية، وتغيرت نوعية الصراعات مع تغير الأحوال ومع زيادة الخبرة. صار السلطان الحالى يضع أبناءه كحكام للولايات ويستبقى ابنه المختار لخلافته بجواره فى اسطنبول (وكان هذا الاختيار ينبع عادة من المقربة إليه من زوجاته، التى كانت تحرص على أن يخلف ولدها والده)، ولكنه قد يستمع إلى نصيحة وزيره أو إلى نصيحة شيخ الإسلام. ويوضح الشكل رقم (١٦) تركيبة المجتمع العثمانى وانتقال السلطة فيه. مكنت هذه الظروف تتابع حكام عظام على العرش. كانت أمهات السلاطين فى غالبية الأحوال من المسيحيات الأوروبيات ذوات الثقافة العالية. نجح الحكام بمقدرتهم الكبيرة التى اختبرت فى المعارك والحروب وفى إدارة البلاد، وقد كان اختيارهم لتلك الأماكن من بين عائلات كثيرة الأفراد. كان نجاحهم فى تلك الاختبارات بالإضافة إلى مهارتهم الفائقة وتوفر المقدرة الابتكارية لديهم لتنظيم سلسلة توارث العرش بدون انقطاع سببا فى اتساع الإمبراطورية وعظمتها فى أيامها الأولى – ولكن حدثت أشياء سببت انهيار الدولة بعد زمن طويل – ولو أنها حمتها فى

المستقبل القريب. بدع محمد الثانى تقليد أن يقتل الأخ أخاه لمنعه من وراثة عرش أبيه، وبهذا القانون كان الأخ الأقدر يتولى قتل جميع إخوانه الذكور (كما كان يفعل الأخيميون منذ عهد بعيد). كذلك كانت بنات السلطان ـ اللاتى يزوجن لكبار نبلاء البلد ـ يطلقن حتى لا يلدن من قد يطالب بالعرش، أو كان أبناؤهن الذكور يتركون ينزفون حتى الموت بمجرد ولادتهم، بعدم ربط الحبل السرى. وهكذا تقلص حجم الأسرة الحاكمة وتقلص حجم كافة نبلاء البلد وأخصى عدد كبير منهم فى كل جيل. كانت هذه الخسارة الفادحة فى الرجال يتم تعويضها بتجنيد الأكفاء وذوى القدرات العالية من الشعوب المنهزمة. وهكذا ـ بدون الاستعانة بالدم الأجنبى ـ كان نظام الانتقاء الذى جرت عليه الدولة العثمانية ـ كفيلا بتدمير القوم الذى كان يهدف لبقائهم، وفى النهاية كان عاملا رئيسيا فى تدمير الإمبراطورية العثمانية والعثمانيين أنفسهم ...

ويوضح الجدول رقم (١٧) تتابع الحكام فى الإمبراطورية العثمانية.

جدول (١٧)

تتابع حكام الإمبراطورية العثمانية

١٢٢٨ – ١٣٢٦	عثمان الأول	ابن ارطغرول قائد تركي وزعيم قبيلة وقائد الفرسان. أقطعه السلطان السلجوقي سلطان الروم، أرضا لقاء تعهده بتقديم المساعدة العسكرية. مؤسس الأسرة العثمانية.
١٣٢٦ – ١٣٥٩	الأمير أورخان	الابن الأصغر (الابن الأكبر وزيره)، يتزوج ابنة الإمبراطور كانتاكوزينوس. يستولي علي نيقيا ١٣٣١، وعلي غاليبولي ١٣٥٧ ويكون فرقة الإنكشارية المشاة من أسري الحرب.
١٣٥٩ – ١٣٨٩	السلطان مراد الأول	يستولي علي أدريانوبول ١٣٦٢ ويتخذها عاصمة له (١٢٦٢ – ١٤٥٣)، يهزم الصرب والبلغار ١٣٧١ ويموت منتصرا في كوسوفو ١٣٨٩.
١٣٨٩ – ١٤٠٢	بايزيد الأول (الصاعقة)	يقتل أخاه غير الشقيق في المعركة في كوسوفو. يأسره تيمور لنك.
١٤٠٢ – ١٤١٣	حرب بين الأبناء	

١٤١٣ – ١٤٢١	محمد الأول	الابن الأصغر ـ تدمير الأسطول الوليد بواسطة البنادقة عام ١٤١٦.
١٤٢١ – ١٤٥٦	مراد الثاني	يفقع عيون ثلاثة من إخوانه. يهزم السلاجقة ١٤٢٨. يستولي علي سالونيك ١٤٣٠. يخمد التمرد الأول للإنكشارية ١٤٤٧.
١٤٥١ – ١٤٨١	محمد الثاني	(الفاتح ـ قيصر الروم) يستولي علي القسطنطينية ١٤٥٣ يفتح البوسنة ١٤٦٤ وألبانيا ١٤٨٠. ينظم الجيش والأسطول وملكية الأراضي ١٤٧٦. يقنن أن السلطان يقتل إخوانه.
١٤٨١ – ١٥١٢	بايزيد الثاني	يشكك أخوه في أحقيته في وراثة العرش ـ يخلعه ابنه والإنكشارية.
١٥١٢ – ١٥٢٠	سليم الأول	(الشرس) يقتل ثمانية رؤساء وزارات. يضم كردستان وأذربيجان ١٥١٤، ثم سوريا ومصر ١٥١٦–١٥١٧. أول من يتخذ لقب خليفة.
١٥٢٠ – ١٥٦٦	سليمان	(العظيم، القانونى) يتزوج من خوريم، ابنة كاهن روسي، يستولي علي بلغراد ١٥٢١، رودس ١٥٢٢، بغداد ١٥٣٤. يفشل في الاستيلاء علي فينا ١٥٢٩ وفي الاستيلاء علي مالطا ١٥٦٥. تحاول الانكشارية عزله ١٥٥٣ وعمره ٥٨ سنة.
١٥٦٦ – ١٥٧٤	سليم الثاني	(السكير) ابن خوريم. يبني له سنان مسجدا في أدريانوبول (الذي تصير أدرنة). سنان كان في الانكشارية ثم صار الوزير الأول ثم قائدا حربيا. يستولي علي ليبانتو ١٥٧١ ثم علي قبرص (من البنادقة) ١٥٧٤.
١٥٧٤ – ١٥٩٥	مراد الثالث	يقتل خمسة من إخوانه. يرزق بـ ١٠٣ طفلا (يعيش منهم بعده ٤٦). يسمح لأفراد الانكشارية بالزواج ويصيرون طبقة تركية متوارثة تقبض مرتبات ويزيد تعدادهم من عشرين ألفا إلي ٤٨ ألف. (يصل تعدادهم إلي ١٣٠ ألف عام ١٨٠٠).

١٥٩٥ - ١٦٠٣	محمد الثالث	يقتل ١٩ من إخوانه عند توليه العرش. يفصل جميع المسيحيين من الجيش.
١٦٠٣ - ١٦٨٧	أحمد الأول	تتولي زوجته خوسيم ـ ابنة كاهن من البوسنة ـ الحكم من ١٦٢٣-١٦٥٦ . يرزق بثلاثة بنات تتزوجن من ١٥ زوجا معظمهم من الوزراء. يبطل تقليد قتل الإخوة ويستبدل بسجنهم.
١٦٤٨ - ١٦٨٧	محمد الرابع	تتنازع أمه وجدته السلطة ـ تشنق خوسيم وتتولي الانكشارية السلطة عام ١٦٥٦. الحصار الثاني لفينا عام ١٦٨٣. وزراء عظام من أسرة كوبروللو: محمد ١٥٦٦، أحمد ١٦٦١، مصطفى ١٦٩٥، وحسين ١٧٠٠.
١٧٧٣ - ١٧٨٩	عبد الحميد الأول	كان قد سجن من ١٧٤٠ - ١٧٧٣. في عهده تم منع تقليد سجن الأمراء.
١٧٨٩ - ١٨٠٧	سليم الثالث	أول من حاول الإصلاح ـ حاول تشكيل حكومة منتخبة ـ خلعته الانكشارية ثم قتلته.
١٨٠٨ - ١٨٣٩	محمود الثاني	(ابن عم سليم) قضي علي الانكشارية بقتلهم عام ١٨٢٦ حرب اليونان للاستقلال ١٨٢١ ـ ١٨٣٢ معركة نفارين ١٨٢٧.
١٨٣٩ - ١٨٦١	عبد المجيد الأول	وضع «تنظيمات» وهي خطة إصلاحية.
١٨٦١ - ١٩٢٤		تعاقب علي الحكم ستة سلاطين، تم خلع خمسة منهم انتهاء حكم الأسرة العثمانية عام ١٩٢٤.

من تتابع أحداث التاريخ يمكن القول أن انكسار الدولة العثمانية أتى على مرحلتين الأولى فى عهد سليمان القانونى الذى تزوج عشيقته روكسيلانا (التى سماها الأتراك خوريم) ليعطى صفة شرعية لأولاده منها. دب الخلاف بين أقدر ولدين من أولاده ــ أحدهما ابن لخوريم ــ وبدأوا حربا أهلية عام ١٥٥٩ وتم إعدامها هما الاثنين مع جميع أبنائهما الذكور. ولو كان أحد الأولاد قد وصل إلى العرش لكان امتداد الدولة العثمانية قد استمر ولسقطت فينا فى أيدى العثمانيين. بعد موت سليمان القانونى تربع الابن المفضل لروكسيلانا على العرش ــ المعروف فى التاريخ باسم «سليم السكير». لأول مرة فى تاريخ الدولة العثمانية تولى العرش سلطان هزيل ضعيف لا يساوى شيئا. لم يحاول احتلال مالطا مرة ثانية بعد الفشل فى احتلالها عام ١٦٦٥، وتبع هذا الفشل هزيمة فى ليبانتو. وكانت هذه المرحلة هى الخطوة الأولى فى انهيار الإمبراطورية العثمانية. جاءت الخطوات الثانية فى الانهيار فى عهد حفيده محمد الثالث عام ١٦٩٥. قتل هذا الرجل ١٩ أخا له وكذلك ١٥ من محظيات أبيه الحوامل فى نفس اليوم، وقد سببت له تلك الفعلة اهتزازا عنيفا، كما سببت قلقا شديدا لزوجاته وللجماهير. قرر السلطان أن يغير القانون ويفتح صفحة جديدة فى التاريخ. فى المستقبل لن يفعل أى سلطان هذه الفعلة ولن يقتل إخوانه ولكن يحبسهم فى القصر، فى غرفهم الخاصة أو فى أجنحتهم مع حريمهم بعد تعقيمهم (وتعقيم بنات السلطان). كان هذا يعنى أنه سُمح بالإبقاء على حياة الأمراء، ويمكن لأحد أعمام السلطان أن يخلفه على العرش. ولكن هذا قضى على الخبرة والمبادرة لوارثى العرش، وصار الأمر فى الحكم على قدرة الأبناء فى أيدى أمهاتهم المتنافسات أو فى أيدى الخصيان المشرفين على حريم القصر. وبهذا توقفت عملية الانتقاء لأول مرة، وتولى العرش سلاطين مُخَبّلين أو فاقدى المقدرة على الحكم الصحيح وتقدير الأمور من طول مدة بقائهم فى الحبس. (الرجل الذى حبس فترة طويلة من حياته لا يمكنه التمييز بين من تصلح من النساء للزواج).

صارت الأسرة الحاكمة على وشك الانهيار ولكن ظلت الإمبراطورية فى الوجود، تحكمها أمهات أو جدات الأمراء الألعوبة فى أيديهن. كانت هؤلاء النسوة فى وضع فريد. كانت غالبية عشيقات السلاطين أوروبيات، دخلن فى خية الحريم، وهى مؤسسة شرقية تخضع لأصول وتاريخ وعادات تفرض على النساء الخضوع للرجال. رفضن الخضوع وتمردن واعتقدن أن بإمكانهن إدارة شئون الدولة خيرا من السلاطين. اختارت بعض تلك النسوة وزراء أول (الصدر الأعظم) فى غاية الكفاءة والمقدرة لإدارة شئون الدولة (مثل الأربعة وزراء العظام من أسرة كوبرولو التركية). ولكن كان اختيار أخريات (أو اختيار أبنائهم) سيئا. كان الفضل الأعظم لاستمرار المسيرة يرجع إلى مدرسة البلاط، التى أنشأها محمد الفاتح، الذى استمر تأثيره على نجاح الدولة منذ توليه حتى نهاية القرن السابع عشر.

استقر النظام الجديد ـ مثلما استقر التقليد القديم القاضى بقتل الإخوة. صار حريم وعبيد البلاط الملكى هم مصدر القوة فى الدولة (كما حدث مع معظم الغزاة العظام من قبل)، وصاروا مصدر رعب واضطهاد للسلاطين الضعفاء الأواخر فى الدولة، الذين جاءوا بعد السلاطين الأوائل العظماء والأقوياء. كان هؤلاء السلاطين يخشون زوجاتهم وخصيانهم ووزراءهم، كما كانوا يخافون من الانكشارية، ومن الولاة التابعين لهم فى مصر وفى الجزائر، ومن رعيتهم فى روميليا وفى بلاد اليونان. كما كانوا يخافون من تعاظم القوى المسيحية التى عزلتهم وهددت دولتهم. هذا الانهيار المستمر لسلطة سلاطين استنبول توقف فى عام ١٧٧٣ حينما تولى العرش سلطان كان قد حبس لمدة ثلاثين عاما. بالرغم من خوفه وطاعته العمياء قرر أن يوقف القانون المريع وأبطل التقليد المرعب بسجن الأمراء، وبهذا تمكن هو وخلفاؤه من بعده من إيقاف سلسلة عادة التعقيم. ثم تمكنوا من القضاء على الانكشارية الذين تحولوا من مسيحيين عزاب تحولوا إلى الإسلام وخدموا السلاطين بإخلاص، إلى طائفة عقيمة عاجزة واهنة تتوارث مراكزها. ولكن كان هذا منتهى ما توصل إليه سلاطين آل عثمان منذ عهد محمد الثانى. كان قواد الجيش دائما من المسلمين (أو من الذين تحولوا إلى الإسلام)، ولكنهم الآن اضطروا إلى استخدام قواد مسيحيين لقيادة جيوشهم لتمكين دولة متهالكة أن تستمر فى الوجود. خلال قرون انهيار الإمبراطورية العثمانية استمر اليونانيون فى استنبول وفى سيمرنا واستمر اليهود فى سالونيكا، وحتى ١٨٢٧ استمر أهالى جنوة فى السيطرة على أمور التجارة فى الدولة، التى استطاعت تكوين الجيوش ولكنها فشلت فى احتضان المثقفين وفى السيطرة على أمور التجارة وهكذا عاشت الدولة العثمانية منقسمة ولم تتوحد وانهارت تدريجيا بسبب انقساماتها.

البندقيــــة

عندما هاجم البرابرة الهمج سكان سهل البندقية الذين كانوا يعيشون فى المدن والقرى، فى القرن الخامس، هرب الجميع، فقراء كانوا أم أغنياء، يطلبون السلامة، فى أماكن لا يمكن الوصول إليها. لجأ بعضهم مع الإمبراطور إلى رافينا، ولجأ آخرون إلى البرك والمستنقعات المحمية بكثبان الرمل التى تمتد حوالى ثمانين ميلا على الساحل. وجدوا هناك منطقة نصفها ميت تملؤها البرك والمستنقعات، ونصفها حى بسواحل البحار التى تمتلئ بجزر غاية فى الصغر حيث يعيش صائدو الأسماك ومربو الدواجن ومستخرجو الملح من قديم الأزل. حط هؤلاء الأقوام واستقروا فى تلك المنطقة كما تحط طيور البحر على الشواطئ الطينية، بعد أن استقر الناس فى هذه المنطقة تبينوا أنهم يمتلكون ميناء طبيعية عظيمة واستفادوا من هذا الكشف. فهى ثغر يواجه بلاد الشرق القديمة، العريقة، ذات الثراء الوافر. وتبينوا كذلك أن تلك الميناء تمتلك ظاهرة نادرة فى موانى البحر

المتوسط، ظاهرة المد والجزر، الذى يتميز به البحر الأدرياتيكى والذى يصل إلى ثلاثة أقدام، وكان هذا كافيا ليجدد ماء بركة كثيرة السكان. استقر السكان فى عدة جزر (أكويليا، كونكورديا، ألتينام وبادوا)، وقادهم وحكمهم ونصح لهم زعماء من الإدارة اليونانية الرومانية القديمة، كما حدث فى راجوزا وأمالفى وسالرنو. ثبت بعد حين أن جزر البندقية فى موقع أفضل من جميع تلك الأماكن لبداية عمل عظيم، وهو ربط أوروبا والشمال ببلاد الشرق الغنية فى الشرق والجنوب.

الربط بين الشرق والغرب (أو المواجهة بينهما) هو الدور الذى قامت به أثينا من قبل، منذ الاف السنين (كما قامت به أرجوس وكريت). ولكن تحول الآن مكان الالتقاء بين الشرق والغرب ٨٠٠ ميلا إلى الغرب. صار التجار الآن، والملاحون، الذين استقروا على سواحل البحر الأدرياتيكى هم المنوط بهم القيام بهذه المهمة. كان هؤلاء أقواما يقودهم كهنتهم ويعقبهم دائما البناة والصناع ومن بينهم المحاربون. بحلول عام ٤٦٦ كانت قد تكونت اثنتا عشر مدينة، وصار لكل منها تاريخها الخاص بها. كانت مالاموكو هى العاصمة الأولى (وقد اندثرت فى الطين) بنت توشيللو (فى الشمال) كتدرائية فى القرن السابع، ولكن سرعان ما تخلى عنها الناس (كما حدث فى مازوربو)، بسبب الملاريا. المدينة الباقية حتى اليوم هى شيوجيا فى الجنوب. بدأ الناس فى تلك المدن الجديدة فى الحال فى اختيار ممثليهم ومجالسهم المنتخبة بطريقة ديمقراطية لإدارة شئونهم الداخلية وللتفاوض مع ملوك القوطيين أو مع قادة البيزنطيين. وفى عام ٦٩٧، ـ بناء على نصيحة البطريرك ـ كون البنادقة محكمة واحدة يحتكمون إليها فى خصوماتهم القضائية، وسرعان ما نقلت ـ فى عام ٨١٠ ـ مقر بيبين ـ ابن شارلمان مكان قيادته إلى مكان آخر آمن على نهر ألتو. بعد عدة سنوات تم شراء عظام الحوارى القديس مرقص المزعومة من المسيحيين أتباع السلطان المسلم فى مدينة الاسكندرية وتم دفنها فى مصلى أقيم خصيصا لها بناه المهندسون البيزنطيون وأسبغت عليه معالم القداسة والتكريم، وبهذا اكتمل للبنادقة شكل الإمارة المستقلة. سمى المكان إمارة البندقية وضرب الأهالى نقودا خاصة بهم وأعلنوا استقلالهم الحذر عن سلطة بابا روما وسلطان الأباطرة ـ فى الشرق وفى الغرب ـ على السواء، وبعد قليل بدأوا فى بيع الرقيق من المسيحيين إلى التجار المسلمين ولم ينازعهم أحد فى استقلاليتهم. زعموا أنهم ابتدعوا ذلك المكان وجعلوه آمنا ليستقروا فيه. استمرت مستعمرة البندقية فى اكتساب مزيد من القوة بمرور السنين. اختير حاكم هذا المستقر الجديد من طبقة أصلها رومانى إغريقى، ذو كفاءة حربية عالية وخبرة سياسية كبيرة من عائلات المدينة القليلة واستطاع أن يجعل الحكم وراثيا فى أسرته لمدة أربعة قرون. بعد أربعمائة سنة ـ مع بدء الحملات الصليبية فى القرن الثانى عشر ازدهرت البندقية إزدهارا كبيرا ـ ومعها مينائى جنوة وبيزا الإيطاليان ـ وزاد ثراؤها زيادة عظيمة وإزدادت قوة طبقة التجار وارتفع سلطانها. صار لمدينة البندقية أسطول كبير من السفن، وطائفة متنوعة من البحارة والملاحين، وصار للبندقية صناعة متقدمة لبناء السفن التى جابت

شواطئ البحر المتوسط. صار للبندقية محميات فى الموانى المرئية فى كل من العالم العربى وفى الإمبراطورية البيزنطية. واستخدم البنادقة وتعاملوا مع أكفأ التجار من كافة الأجناس ومن مختلف الأديان، وبدأت العائلات الحاكمة فى البندقية ـ لأول مرة منذ بدء هذا المجتمع ـ فى التنازع مع بعضها البعض. حاول رئيس كل أسرة اختيار ابنه ليكون حاكما على المدينة، ثم بدأ رئيس كل أسرة فى عقد التحالفات مع الأسر الأخرى القوية فى إيطاليا لترجيح مطلبه، ثم بدأ حكام المدينة فى زواج ابنة مركيز توسكانيا أو ابنة ملك المجر، وبهذا غلبوا مصالحهم الشخصية على احتياجات الدولة ومصالحها. كان أهالى البندقية يعتقدون أنهم مختلفون عن سائر الناس، ولذا كان امتعاضهم عظيما عندما تبينوا انحراف حكام المدينة، وكانوا على وشك الأخذ بقاعدة اغتيال الحكام الذين لا يرضون عن تصرفاتهم، ولكنهم اتخذوا سبيلا أكثر تحضرا لحل تلك الأزمة بعد أن تخوفوا من أن الحاكم فى طريقة لكى يصير ملكا.

اشتعلت الأزمة بعد أن صادر إمبراطور القسطنطينية أملاك البندقية فى بلاده وبعد أن فشلت البعثة التى أرسلتها البندقية فى حل الإشكال. قرر المجلس النيابى المشكل بالانتخاب من تجار المدينة أن ينتهز الفرصة فأحجم سلطات الحاكم، وبدءوا بتوسيع المجلس النيابى، ثم فرضوا على الحاكم أن يقسم على حفظ حقوق المدينة ومصالحها، عند تولى الحكم، وبالتدريج قلصوا سلطات الحاكم وقصروها على الشكل، وتولى المجلس النيابى زيادة سلطاته فى الحكم ومسئولياته فى الإدارة تباعا. حدثت هذه الثورة خطوة خطوة بين سنتى ١١٧١ و ١٢٧٥. تكون المجلس الكبير من ٤٨٠ عضوا من كبار العائلات وزادت سلطاتهم وقويت مراكز كبار العائلات. اقتصر التزاوج عليهم من بعضهم البعض أو من كبار العائلات خارج إقليم البندقية من أغنى أغنياء البلاد وأصبح حالهم كحال حكام المدينة الذين سبقوهم.

ما حدث فى البندقية كان على خلاف ما حدث من قبل فى أثينا وفى روما. حكام المدن القديمة وسعوا قاعدة طبقتهم واختلطوا تدريجيا بالشعب وتزاوجوا منهم وتنازلوا تدريجيا عن امتيازاتهم التى كانوا يتمتعون بها وحدهم من قبل، أما طبقة النبلاء الجديدة فى البندقية فقد زاد انفصالها عن الشعب وقلدت إقطاعى العصر فبنت القصور والقلاع وزادت فى ممتلكاتها إلى الحد الذى لم يكن متصورا أن تستحوذ عليه من قبل. كانت البندقية جمهورية تتكون من جزيرة، وقد حولها أهلوها إلى جزيرة جينية داخل الجزيرة، لا يمكن لأحد أن يخترقها. تمكن البنادقة من إحراز هذا التحول المثير من جراء نجاحهم خلال قرنى الحروب الصليبية، بين عامى ١٠٩٦ إلى ١٢٩١. كان نجاحهم بسبب تبينهم للثورة المحمومة التى حدثت للمحاربين من أهل الشمال والتى استغلوها بعيون التجار

ولمصلحتهم وجنوا منها الثروات الطائلة. سقطت الدولة الرومانية الشرقية للصليبيين عام ١٢٠٤ وورثت البندقية ربع القسطنطينية كما ورثت السيطرة على سواحل بحر إيجة، فزادهم هذا النجاح غرورا فى مقدرتهم وكفاءتهم كطبقة حاكمة، وقلل من إيمانهم بالجماهير، التى كانت تبدى امتعاضها ـ كل حين وآخر ـ وتحاول التدخل ـ غير الناجح ـ فى إدارتهم للأمور. لمدة عشرة أجيال، أثبت نبلاء البندقية أن حكومتهم أنجح حكومات العالم قاطبة، لمصلحتهم الشخصية، ولمصلحة البندقية وللبشر جميعا. كانوا يعرفون خبايا مدينتهم وأنها مدينة حصينة يستحيل اختراقها، وكانوا يعرفون بعضهم البعض أشد المعرفة وكانوا متماسكين أشد التماسك لا يمكن إحداث الوقيعة بينهم. بعد مائة عام ـ بعد فشل حصار أهل جنوة لهم عام ١٣٨١ ـ صارت البندقية عروس البحر الأبيض المتوسط. بعد انتصارهم على جنوة، انتقى المجلس الكبير ثلاثين أسرة من عائلات البندقية الذين بذلوا أقصى جهد فى الصراع بدمائهم أو أموالهم ورفعوهم إلى طبقة الحكام وضموهم إلى دائرتهم المغلقة عليهم. صارت الثروة الجديدة فى يد أفراد جدد، وصار النبلاء يستخدمون تلك الثروات ويستمتعون بهذه المنجزات التى صنعها غيرهم، بينما استمروا فى التعالى على المنتجين الحقيقيين واستمر استعبادهم لهم واعتبروهم طفيليات على مجتمعهم. لم يكونوا يستطيعون الاستغناء عن التجار الجدد، ولكنهم استمروا لا يعملون ولا يستطيعون الحكم واستمروا ممتنعين عن التناسل معهم. كان الواجب إدخال أفراد جدد إلى طبقة الأرستقراط ـ كما فعلت الملكيات المعاصرة، ولكنهم استغلوا الفرصة، ورأوا أن يصيبوا عصفورين بحجر واحد، فقبلوا انضمام المواطنين الأغنياء إلى طبقتهم مقابل أن يدفع كل فرد مائة ألف دوكات، ليستطيعوا تمويل حروبهم الباهظة التكاليف مع تركيا على جزيرة كريت (١٦٤٥-١٦٦٨) ومع موريا على أراضى أشجار التوت والحرير (١٦٨٥-١٧١٦). بهذه الطريقة اصطادوا ١٢٧ فردا جديدا من التجار والمحامين وملاك الأراضى. لم تمكنهم هذه الوسيلة من إنقاذ طبقتهم ودولتهم فى النهاية، لأن الأفراد الجدد تم انتقاؤهم عن طريق ثرواتهم وكان اختيارهم خاطئا. استمرت أرباح التجارة تتناقص واستمر البنادقة الأكفاء فى الهجرة إلى الخارج واستمر النبلاء فى التزاوج مع العائلات الأرستقراطية فى إيطاليا الذين لم يكونوا خيرا منهم كفاءة. تبينوا أخيرا أن خطأهم الأكبر هو أنهم حرصوا على نقاء طبقتهم ولم يسمحوا للأفذاذ من البشر فى الدخول إليها وتعضيدها وهكذا ذابت طبقة النبلاء فى البندقية حتى اختفت. بدأ نبلاء البندقية فى امتلاك الأراضى لتوريثها إلى أبنائهم وذريتهم ففقدوا عزمهم وروحهم المغامرة وطبيعتهم كمحاربين مستكشفين. لم يظهر أمثال ماركوبولو ولا كابوت. تفتتت أملاكهم بين ذريتهم، ولم يحافظوا عليها ويتوسعوا فيها (كما فعل الإنجليز بتوريث العزب والأبعاديات كلها للابن الأكبر)، ولجئوا إلى إنقاص عدد ذريتهم بمحاولة تحديدهم للنسل (النسل الشرعى) وذلك باللجوء إلى قاعدة «الزواج المقيد» اتفقت العائلات على

السماح لابن واحد من أبنائها بالزواج، وهكذا لا تتكاثر الأسرة ولا يتفتت الميراث. لم يكن هذا الاتفاق ممكنا لولا اقتصار مجتمع نبلاء البندقية على الاستيلاد الداخلي. بالإضافة إلى هذا فقدت البندقية كثير من أبنائها في أوبئة الطاعون التي اجتاحت البلاد بين ١٥٨٥–١٦٣٠. هكذا تقلص الحكام في مقدرتهم وكفائتهم، في مقدرتهم على الحكم وإدارة شئون الدولة وكفائتهم في العمل والمغامرة والاستكشاف، وقلت أعداد من يتولون هذه الأمور. (تبين نبلاء البلاد الأخرى، التي تعتمد في ثرائها على زيادة اتساع الرقعة الزراعية التي يملكونها ـ كانجلترا مثلا ـ أن من المصلحة البحث عن أغنى الوريثات ـ أولئك اللواتي ليس لهن أخوة من الذكور ليتزوجوا منهن، وهكذا يكون اختيارهم لقليلات الإنجاب بالوراثة)، وهكذا تتزايد ثرواتهم وتفنى عائلاتهم. وقع البنادقة في خطأين مدمرين: التناسل المعزول عنصريا والمقصور على أفراد من طبقتهم، والحد من التناسل. كان العاملان معا سببا في القضاء المبرم على البندقية. كان الإجهاض يمارس في السر، كما كان قتل الأطفال حديثي الولادة؛ كما بدأ استخدام وسائل منع الحمل بعد القرن السادس عشر. انتشر الشذوذ الجنسي بين ذكور البندقية (كما كان ينتشر بين البحارة في السفن وبين ساكني الصحاري)، حتى صارت البندقية محط أنظار ممارسو هذه المتعة المحرمة حتى عصرنا الحالي. بالرغم من كل هذه القيود استمر التناسل غير الشرعي بين مختلف الطبقات ـ وتدفقت جينات الأرستقراط إلى طبقات المواطنين الأدنى وطبقات الصناع. في هذا تشابهت البندقية مع سائر البلدان الأوروبية، ولكنها اختلفت عن الدولة العثمانية التي كانت تقتل أبناءها أو تخصيهم، وهكذا عندما اندثر العثمانيون فنوا جميعا معا.

مع الاستيلاد الداخلي الذي أصاب مجتمع البندقية، أغلقت أبوابها عام ١٢٩٧ عن استقدام الأكفاء من الأجانب إليها وإدماجهم فيها، وبهذا انعدم التنافس وانعدم انتقاء الأصلح. وعند كارثتها الاقتصادية كان مجتمع نبلاء البندقية قد صار مجتمعا متماثلا، متجانسا، تقليديا، يناسب أسلوب الحياة التي اختارها لنفسه ويتفق مع القوانين التي وضعها لنفسه، له امتيازاته التي قبلها وله دستوره الذي ارتضاه. كان يعتبر أن الحقوق التي نالها البنادقة أفضل الحقوق التي يتمتع بها أي شعب في العالم قاطبة، ولـذا انغلقوا على أنفسهم ولم يكونوا على استعداد لتجريب أي نظام آخر ولا لممارسة أي نشاط مختلف عن أنشطتهم، كما فعلت المجتمعات الأخرى التي تطل على المحيط الأطلنطي والتي جربت أنواعا أخرى من الأنشطة، بكل عزيمة وحماس للتغلب على أزمتها. كان تحديدهم لنسلهم يقودهم إلى نجاح قريب ولكن كان يحمل كل المخاطر التي حاولوا تجنبها في الأمد البعيد.

أدى انعزال أرستقراط البندقية إلى تحطيم أنفسهم ولكنه ترك آثارا باقية معنا إلى الآن. أولها مدينة البندقية ذاتها. كان ثراء المدينة عامل جذب للمجتهدين والأكفاء من كل العالم الغربي، وكان بناء

الكنائس فى البندقية يحتاج إلى مهارة المهندسين وعمال البناء والفنانين من بيزنطة ومن مصر ليساهموا بفنهم ومهارتهم فى بنائها وتزيينها . قدم الرسامون من قريب ومن بعيد إلى البندقية: تيتان، الجريكو؛ وقدم الموسيقيون: ويليرت وفلمنج الذين أتوا فى عام ١٥١٧ وبدعوا نظاما جديدا فى فصل الكورس وفى تأليف الموسيقى. حفلت مكتبات البندقية بالمخطوطات التى جُلبت إثر ضم بترازخ عام ١٣٧٤ وقدم الرسامون الألمان والفرنسيون إلى المدينة ورسموا أروع اللوحات والخطاطون الذين نقلوا أمهات الكتب وصاروا أداة كبرى فى التنوير. كانت مدينة بادوا تحت حكم البنادقة وأنشأت جامعتها العريقة عام ١٤٠٥ واحتفظت بكل تلك المخطوطات والكتب، وقد جذبت منارة العلم هذه فيساليوس وجاليليو وسكالينجر وتاسو الذين قادوا الجامعة. ثم أنشئت أول حديقة نباتات فى أوروبا عام ١٥٤٥. يعود كثير من هذا الفضل فى التنوير إلى اليهود الذين طردوا من غرناطة عام ١٤٩٢ واستفادوا من كرم استقبال البنادقة لهم واحتضانهم فى دولتهم (حيث عاشوا فى حارة اليهود فى البندقية). أهدت البندقية إلى العالم الرسام العالمى ــ ذو الأصل الكريتى ــ الجريكو، كما أهدت للعالم جون كابوت وماركوبولو المشهور فى كافة أنحاء العالم. لم تقدم البندقية إلى العالم أى تراث أدبى أو مسرحى، نظرا لفقدان ملكة الأدب وفن التمثيل لدى أهالى البندقية. نقل البنادقة كتبا كثيرة وطبعوهـا، ولكنهم لم يؤلفوا. بعد قرنين من الزمان من قبول المهاجرين اليهود إلى البندقية ـ لجأ الأرمن إلى ولاية البندقية وصلوا فى جزيرة سان لازارو عام ١٧١٧ ومعهم كنوزهم. لعل الأثر الباقى للبندقية فى تاريخ الحضارات الإنسانية أنها كانت ـ لمدة ألف عام ـ معبرا للبشر، حيث قدموا إليها من الشرق القديم ومن شرقى البحر الأبيض المتوسط، ورحلوا عنها إلى شمال وإلى غرب أوروبا. انصهر هؤلاء الأقوام فى بوتقة النشاط والحيوية التى عاشتها البندقية حوالى ألف عام تحت حكم طبقة ثابتة تقليدية محافظة، وكان لهذا التيار المتدفق عبر البندقية، مثل الروافد الأخرى التى عبرت سائر المدن الإيطالية، أكبر الأثر فى نشأة حضارة أوروبا الحديثة وفى الحضارة الغربية على وجه العموم.

غـرب أوروبـا

عندما انهارت الإمبراطورية الرومانية الغربية فى القرن الخامس الميلادى وجد الناس أنفسهم محاطين بظروف غير مألوفة مع جيران غير مألوفين فى أحوال من اضطراب السلطة والمواصلات. بدأ ملوك من الهمج وقادة لجيوش المتبربرين وملاك الأراضى الرومانية وأعضاء السينيت من الرومان ورجال الكنيسة الكاثوليك (وغالبيتهم من أصل إغريقى أو سورى أو إفريقى)، وملاحون من موانى البحر المتوسط وتجار من اليهود، بدءوا جميعا يتعلمون اللغة اللاتينية، ويعترفون لدرجات متفاوتة بسلطة الإمبراطور البيزنطى ويختلفون فى معتقداتهم الدينية، ولكنهم جميعا اتفقوا على بناء اقتصاد

حياتهم على الاستقرار فى الأرض واستغلال فلاحين يزرعون لهم تلك الأراضى. فى تلك المرحلة كان هناك نوعان من البشر. الأول قبائل محاربة من الشمال والشرق، يقودها زعماء وحشيون، الفرانك والساكسون واللومبارد والبلغار وباقى الصقالبة، يشقون طريقهم نحو الجنوب والغرب ويشكلون حكومات فى الأراضى التى استولوا عليها، خاصة على الأراضى الزراعية. النوع الثانى من البشر كان هناك إناس قادمون من شرقى البحر المتوسط، هاربون أو مهاجرون من الدولة الرومانية الشرقية المستقرة والمتحضرة وينشئون موانى ومستعمرات على شواطئ أوروبا الغربية ويقيمون مدنا حول كتدرائيات فى الغرب. كان هؤلاء البشر متنورين متعلمين، متحضرين من الحضارات الهيلينستية القديمة، وكانوا يدينون بالمسيحية، وذوى ذكاء وثقافة وتعليم وخبرة، لا غنى عنهم لإدارة الأقاليم الغربية الجديدة. كانوا يتقنون الكتابة (واستوردوا ورق البردى من مصر)، وأدخلوا القمح والتوابل والأقمشة والأسلحة التى كان يحتاج إليها الأوروبيون. جلبوا معهم أيضا الأفكار ونشأ المجتمع اللاتينى الكبير واستمرت التجارة. توحدت أوروبا وأفريقيا وآسيا حول البحر الأبيض المتوسط بالتجانس المهذب الذى جمع بين بابا روما وبين إمبراطور القسطنطينية اللذان لم يدركا تماما الخطورات المحدقة أو الفرص السانحة التى كانت تلوح فى الأفق لكل منهما. تحت سطح التاريخ المكتوب كانت تحدث تغييرات وئيدة تعمل على تشكيل وجه أوروبا الجديدة. كان من عاون الحكام الجدد على حكم ولاياتهم إناس لقبوا بالرومان من أمثال بوثيوس وكاسيودوروس. كانوا يكتبون باللاتينية باقتدار. كانوا فيما سبق موظفين فى الحكومة، وقد اعتزلوا العمل الحكومى واعتزلوا الحياة العائلية ليدخلوا الدير أو يتفرغوا لخدمة الكنيسة، وهنا وجدوا عالما آخر. فقد استطاع تيودور من طرسوس ــ وقد لغ من العمر أرذله ــ أن ينظم الكنيسة الإنجليزية عام ٦٧٥، واستطاع بونيفاس الإنجليزى الذى كان يعمل فى خدمة بابا سورى الأصل، أن يضفى لاتينية ــ عام ٧٢٢ ــ على الكنيسة فى ألمانيا وفى فرنسا. فى ذروة ذلك النشاط الكبير كان من الواضح أن الأجناس المختلفة التى جمعت معا كانوا يتكونون من طبقات مختلفة من المجتمع. كانوا وحدة، كثير الاختلاف، من طبقات متعددة، فى مجتمع جديد. كان المهاجرون إلى هذا المجتمع والقادمون الجدد إلى البلدان الشمالية يتناسلون مع الأقوام الجدد وينشأ منهم جنس هجين مع الأفراد الأصليين قاطنى تلك البلاد. كان الاختلاط أوضح ما يكون فى المدن وبين طبقات المجتمع العليا. عندما إزداد نفوذ زعماء القبائل الهمجية من القوطيين ومن الواندال، تزوج هؤلاء الزعماء من بنات الأباطرة الرومانيين. استمر هذا التزاوج حتى اختفت الفروق بين الأسر البربرية والعائلات الرومانية. لم يذكر التاريخ تفاصيل أسلاف الملوك الأوائل من الهمج، ولكن ما نعرفه على وجه اليقين أن أعظم هؤلاء الملوك مثل شارل مارتل ووليام الفاتح كانوا أولاد سفاح. كان أولئك الملوك أكثر ارتباطا بالرومان عن عامة الشعب، وكانوا أول

من تكلم باللاتينية، ومن المؤكد أنهم أول من تزوج بنساء من الرومان المتحضرات. حدث اندماج شديد فى الأجيال السبعة الأولى من حكم القوطيين وحكم الفرانك، وقد وضحت آثار ذلك الاندماج عندما نشبت أزمة الصراع مع المسلمين الغزاة التى هددت العالم المسيحى ثم مجئ شارلمان.

كان غزو المسلمين لسوريا ولشمال أفريقيا يعنى أن نصف سكان البحر الأبيض المتوسط قد تحولوا إلى الإسلام واستطاعوا تحويل المرافئ العظيمة فى صور والاسكندرية وقرطاج (التى تحولت إلى تونس) إلى موانئ حربية للبحرية الإسلامية. من تلك الموانئ استطاع المسلمون مهاجمة جزر البحر الأبيض المتوسط واحتلالها تباعا، ثم مهاجمة السواحل الشمالية لهذا البحر. نجح المسلمون فى احتلال كل ما هاجموه باستثناء مدينة القسطنطينية وأمالفى ونابولى وجيتا على ساحل إيطاليا الغربى، وراجوزا (دوبروفينيك الحالية) والبندقية فى البحر الادرياتيكى. فى الداخل، أوقف شارل مارتل زحفهم فى بواتييه عام ٧٣٢، ولكنهم استطاعوا بعد خمس سنوات ـ بمعاونة قوات عسكرية بحرية ـ احتلال أفينيون. واستطاع المسلمون بعد قرن من الزمان ـ فى عام ٨٣٨ ـ مهاجمة مرسيليا وفى عام ٨٤٩ حطوا فى أوستيا وتفقدوا تحصينات روما نفسها.

أثبتت هجمات المسلمين المتكررة أن جناحى المسيحية أصبحتا تمران بأزمة: البابا فى روما والإمبراطور فى القسطنطينية، وكانا عليهما مواجهة الأزمة متفرقين. كانت الأزمة التى تواجه الإمبراطور هرقل محنة حربية وأزمة اقتصادية وتهديد مباشر للعقيدة والدين. اضطر أن يسلم للمنادين بوحدانية ذات المسيح، فى سوريا وفى مصر، بدلا من اعتناقه مبدأ ثنائية طبيعة المسيح. سلم بهذا الأمر على خطوتين، فى عامى ٦٣٨ و ٦٤٨. وفى مرحلة لاحقة سلم إمبراطور آخر، ليو الأزورى، ـ وكان سورى الأصل ـ للمسلمين، ومنع التصاوير فى الكنائس. بالرغم من تلك التسليمات فقد فشل إمبراطور القسطنطينية فى الاحتفاظ بالولايات الجنوبية، كما فشل فى استردادها من المسلمين. كان العامل الحاسم فى ابتعاد الإغريق عن السوريين وعن المصريين، هو اختلافهم العرقى، وليس الاختلاف الدينى. كان التسليمان اللذان قدمهما إمبراطور القسطنطينية سببا فى ابتعاده عن كنيسة روما وداعيا لهجرة خمسين ألفا من رهبان الكنيسة الشرقية وكهنتها إلى الغرب ولجوئهم إلى روما، وتبع هذا حركة هلينستية (وتنويرية) كبرى فى الغرب، وكان هذا أحد الأمثلة الكبرى لوحدة المسيحية. فى الأيام الخالية كانت قوة إمبراطور بيزنطة تمنع بابا روما من معارضته، أما الآن، فنظرا للضعف الذى حل ببيزنطة فقد تجرأ بابا روما وصادر الكنائس الإغريقية التى تقع فى جنوب إيطاليا وحوّل دخلها إلى خزانة البابا، واتجه بابا روما إلى إعتناق مبدأ أن ملوك الغرب سيكونون أكثر احتراما له وأشد تبجيلا عن إمبراطور بيزنطة وسيكونون أقوى فى حمايته والحفاظ عليه من الإمبراطور الشرقى.

فى هذه الظروف تمكن بيت بيبن الفرانكى من تكوين أسرة جديدة فى التاريخ الأوروبى. تصاعد أبناء تلك الأسرة إلى القوة الكبرى عبر أجيال ثلاثة. كان الأب ـ شارل مارتل ـ أمينا للقصر، للملك الفرانكى خليفة كلوفيس. ثبت شارل مارتل نفسه بين أعوام ٧١٧ و ٧٤١ بانتصاراته الحربية وصار الحاكم الفعلى للبلاد. طلب ابنه من البابا ـ بعد أن ورث مركز أبيه وقوته ـ أن يثبته على العرش بدلا من الملك، ووافق البابا على أن يتولى هذا البيبين عرش البلاد وصار ملكا عام ٧٥١، ووافق الملك الجديد ـ بعد خمس سنوات ـ أن يصير البابا سيدا على مملكته. وهكذا اعترف البابا، والملك ـ كل للآخر ـ بحقوقه واتفقا على أن يكونا مستقلين عن بعضهما ولكنهما متعاونين أشد التعاون. كان حفيد شارل مارتل هو الملك العظيم شارلمان، الذى استولى على شمال إيطاليا من اللومبارد ودفع المسلمين إلى الوراء فى إسبانيا وأخرج الوثنيين من الساكسونين والصقالبة من أواسط أوروبا. صارت روما الآن فى قبضة يد هذا الفاتح العظيم، وتوجه البابا يوم عيد الميلاد فى سنة ٨٠٠ فى روما «الإمبراطور الأعظم أغسطس» أى خليفة للقياصرة الرومان حكام روما، وصار أقوى شخصية فى العالم المسيحى. ولكنه ما زال خاضعا للبابا الذى كرمه وتوجه. اتخذ شارلمان عاصمته فى إكس لاشابل أو آخن الحالية (حيث دفن). صارت تلك البلدة مركز السيطرة والقوة، وتحالف مع بابا روما، ولكن هذا التحالف سرعان ما ذوى. انتهت الأسرة المالكة فى القرن العاشر وتناثرت ممتلكاتها إلى شرازم صغيرة. عادت فكرة الإمبراطورية ثانية فى أوروبا على يد أوتو العظيم فى ألمانيا فى عام ٩٦٢، حيث تم إحياء ما يسمى «بالإمبراطورية الرومانية المقدسة». كثرت المنازعات بين خلفائه وبين كنيسة روما، ولكنها ظلت كامنة ومختفية، للفوائد التى جناها الطرفان المتنازعان من صورة التعاون بينهما وبين النظم الحاكمة فى سائر أنحاء أوروبا وبين كنيسة روما: بين الملوك الفرانك والإنجليز، والبعثات التبشيرية، ونظم الإدارة الإغريقية الرومانية خلال القرنين السابع والثامن، ولكن ظلت تلك الخلافات كامنة تحت الرماد يغطيها التعاون بين مختلف أنواع البشر لتطور المجتمع الذى سار حثيثا. تعاون بين الشمال والجنوب، تعاون بين الريف والمدينة، تعاون بين الحاكم ورجل الدين، بين الغاصبين رجال الحرب وبين المسالمين رجال العدل والقانون. نشأ عن هذا كله قوة متضبطة متوازنة وليست قوة استبدادية مطلقة. هكذا كان الإعدام والقتل يتم فى السر والخفاء وليس فى العلن فى وضح النهار. أدى هذا التعاون إلى أن يستخدم شارلمان (الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب) رجال الدين المثقفين كوزراء وناصحين له (من أمثال الإنجليزى ألكوين). فى هذا العهد صارت اللاتينية لغة القانون والحكومة، كما كانت لغة الدين والكنيسة. وهكذا فرقت اللغة اللاتينية بين الحكام وبين شعوبهم، كما لم يفرق أى عامل بينهم من قبل. أثبت التحالف أنه مصدر قوة للجميع، فقد أثبتت الأحداث أن كل طرف شديد الفائدة للطرف الآخر. كان التناقض بين شمال أوروبا وجنوبها شاسعا، ولكنهما كانا مكملين لبعض. عاون كل منهما الآخر على تقدم الحضارة وإزدهارها فى أوروبا. فى

الزمن الماضى، فى العالم الهلينستى والرومانى كان انتقال البشر وتبادل الأفكار بين الشرق والغرب هو الذى خلق الحضارة، أما الآن فإن الانتقال والتبادل حدث بين الشمال والجنوب وكان هذا هو الأساس فى خلق أوروبا الحديثة.

كان استقلال الدول التى نشأت حديثا عن الكنيسة واعتمادها الكبير عليها فى ذات الوقت، طوال خمسمائة عام، ليس له سابق فى تاريخ الحضارات الإنسانية. كان مركز الكنيسة فى روما يتكون من سلطة منظمة فى مراتب متسلسلة، تعطى لأصحابها الحق ـ طبقا للقواعد الدينية ـ للنصح والارشاد والتقويم والتصحيح والتدخل فى شئون الحكومات التى تكونت بالقوة العسكرية. كانت تقوم بهذا طبقا لقواعد الأخلاق والسلوك التى كثيرا ما كانت تتعارض مع الغرائز الإنسانية والرغبات البشرية، خاصة لدى بعض الطبقات، وبالأخص لدى الحكام. كان دخول الكنيسة المسيحية إلى الإمبراطورية الرومانية ثورة فى حد ذاتها، وما زالت الثورة مستمرة. كان هدف الكنيسة هو خلق نوع من الوحدة وضرب من المساواة. لم تنجح أبدا فى فرض المساواة، ولكن فى الحدود الجغرافية للدولة الرومانية الشرقية حققت الكنيسة نوعا من الوحدة الثقافية والسياسية.

كان الجديد فى المسيحية فى أوروبا، هو اعتمادها الكامل على الكتاب (كما فعل المسلمون)، وكان ما فرّق بين رجال الدين القدامى وبين عامة الشعوب هو تعلم القراءة والكتابة (لدى رجال الدين) والأمية لدى سائر الناس. كانت الأمية أو التعلم هو الحائل الأكبر فى المجتمع نحو تساوى البشر تحت دين ينادى بالمساواة. كان على المتعلمين أن يقولوا للأميين ماذا يفعلون، وكيف يتصرفون. كانت اللغات المستخدمة لدى رجال الكنيسة: العبرية والإغريقية واللاتينية (وسرعان ما أضيفت لها اللغة العربية) هى التى تفرق عامة الشعب عن رجال الدين، المثقفين، «العلماء». كان رجال الدين الكاثوليكى يجدون فى اللغة اللاتينية (فى انجلترا على سبيل المثال) ما يجده رجال القانون أو المحامون فى اللغة العربية (فى إسبانيا أو أندونيسيا)، كوسيلة لفرض النفوذ والتحكم التى تتسلط به المنظمة التى ينتمى إليها على سائر البشر. وهكذا صارت الكلمات، الخالية من المعانى، والأقوال عديمة الفكر، هى الأصنام الجديدة للديانات التى تنكر عبادة الأصنام، وصارت الكتب تحل جزئيا محل الأفعال. بعد حين تقلصت اللغة اللاتينية فى أوروبا كعامل توحيد، وَحَدَت إستقلالية شعوب الشمال إلى فرض الإصلاح الدينى، وبدأت الكتب المقدسة تكتب بلغات الشعوب، وهكذا ذابت الفروق تدريجيا بين المثقفين وبين الأميين. بالرغم من هذا فإن الألف سنة التى فرضت فيها الكنيسة الكاثوليكية بروما سيطرتها على الشعوب، قد تركت أثرا باقيا على تلك المجتمعات حتى عصرنا الحاضر، وفرضت تطورا على المجتمعات الأوروبية. كان أهم ما فرق بين المجتمعات الأوروبية الغربية وبين ما حدث فى القسطنطينية أو بيزنطة أو اسطمبول العثمانية هو استقلالية تلك المجتمعات

المترددة ـ ولكن التى تتصاعد حثيثا ـ عن كنيسة روما، وانفصال الحكومات المدنية عن سيطرة رجال الدين.

لم يكن النزاع بين السلطات المدنية والسلطة الدينية جديدا فى المجتمعات. كان النزاع بين الملوك فى أوروبا وبين رجال الكنيسة فى روما الجديدة، لكنه كان مألوفا فى المجتمعات الشرقية القديمة كمصر وبلاد فارس وبين العبريين. ولكن رجال الدين المسيحى فى أوروبا فى تلك العصر قويت شوكتهم وازداد بأسهم لعاملين اثنين. الأول كان الجهاز المؤثر المثقف المقنن الذى يتقن الطقوس ويستخدمها فى إحداث أشد الأثر على الجماهير، الجهاز الذى تكون من تراكم الخبرة التى اكتسبتها الكنيسة من اليهود والإغريق والرومان وورثتها عن هؤلاء جميعا. وقد سخرت الكنيسة هذا الجهاز الكنسى فى خدمتها ولبلوغ أهدافها ولتحقيق مراميها ولتطوير حكومتها وللتبشير واكتساب المزيد من الرعية. العامل الثانى كان اتخاذ العزوبية كمنهاج عمل لرجال الدين وأسلوب حياة لهم. كان هليدبراند، الذى صار بابا الكنيسة الكاثوليكية بين عامى ١٠٧٣-١٠٨٥ باسم البابا جريجورى السابع هو الذى قنن العزوبية كالطريقة الحاسمة لإتمام التطور. كانت العزوبية لديه تعنى ليست الامتناع عن مزاولة العلاقات الجنسية أو التعايش على طريقة الأزواج ولا الامتناع عن الحياة الأسرية ولا عن إنجاب الأطفال، ولكن الاقتصار على إنجاب أطفال شرعيين والحفاظ على حقوقهم الشرعية الموروثة؛ اقتصادية كانت أم اجتماعية.

كانت العزوبية تعتبر الفضيلة الأولى لرجال الدين، الذين كانوا يعتبرون مختلفين عن البشر العاديين، رجالا كانوا أم نساء. كانت العنة لديهم تعتبر كبحا للنفس، وكان الفشل الإنسانى يعتبر هبة إلاهية. وكانت الفضيلة الثانية لهم هم تجنب الإرث (عندما صارت الكنيسة غنية)، تفادى إرث المال والسلطة (وكان هذا ليمتنع ظهور طبقة من رجال الدين الأثرياء الأقوياء، وقد نجحت الكنيسة فى هذا إلى حد كبير). لاحظ باباوات روما أن أباطرة القسطنطينية كانوا يثبتون الأخصياء من البطاركة فى مراكزهم (لأن المفترض فيهم أن يكونوا بعيدين عن أى طموح عائلى)، كما لاحظ باباوات روما أن نبلاء بيزنطة كانوا يخصون أبناءهم (ليتيحوا أمامهم الفرص للوصول إلى المراكز العليا، سواء فى الكنيسة أو الحكومة). استطاع رجال الدين فى روما أن يحصلوا على كل تلك الميزات السياسية باتباع قاعدة (أو قسم) العزوبية خلال العصور الوسطى، وهكذا استطاع رجال الدين أن يحصلوا على تلك السطوة بدون أن تتغير أجسادهم وبأقل قدر من المعاناة. خصت الكنيسة الارتباط بالزواج كالنظام الشرعى الوحيد الذى تعترف به الكنيسة، وهكذا أتاحت نظاما ثالثا ـ الارتباط غير الشرعى ـ الذى يزدهر مع نظام العزوبية والذى كان له تأثير اجتماعى بالغ فى أوروبا، كما يتضح من الاختلاف بين النظام العثمانى ونظام البنادقة وبين هذا النظام فى تحديد النسل. وقد وضحت ميزة أخرى

لنظام، لم تكن جلية أيام الكنيسة فى ذلك العصر (ولا فى غيره من العصور)، ظهرت تدريجيا بعد عصر شارلمان، وهى أن الكنيسة صارت صورة مرآة للمجتمعات التى نشأت فيها.

فى مجتمع طبقى غير مستقر، سينشأ من التوالد الخارجى عدد قليل من الأفراد ـ حوالى العشر ـ لا يرغبون فى الزواج ويفضلون حياة العزوبية. ينتشر هؤلاء العزاب بين كافة طبقات المجتمع (إلا بين طبقة العمال التى تُتوارث مع الأرض). هكذا نشأت طائفة العزاب فى الكنيسة من جميع طبقات المجتمع وصاروا بهذا يمثلون جميع الطبقات فكريا وعقليا واجتماعيا ويمثلون الاختلافات الموجودة بين طبقات المجتمع كما يمثلون الكفاءات والقدرات التى تنتشر فى المجتمع. ظهرت عدة آثار بالغة على رجال الكنيسة نتيجة عزوبيتهم. نظرا لتواجد مجتمع طبقى فى المجتمع خارج الكنيسة، نشأ مجتمع طبقى مماثل فى الكهنوت داخل الكنيسة، متوارث أيضا كالمجتمع الخارجى. ولكن نظرا للثقافة والتعليم الذى تمارسه الكنيسة على أفرادها وتشجيع أبنائها على التحصيل والتميز العلمى والثقافى، ولانضباط نظامها الفوقى ولضعف الصلات الأسرية بين أبنائها وعائلاتهم خارج الكنيسة، صار هناك مزيد من الوحدة بين أبنائها المنتمين لأصول عائلية متفرقة أكثر كثيرا مما هو متواجد فى المجتمع الخارجى. وقد فتح هذا الباب للترقى الاجتماعى لأبناء الطبقات الفقيرة، وخاصة لأبناء السفاح بين مختلف الطبقات. كانت الكنيسة دائمة التصميم على أن تضع مصالحها الخاصة فوق كل اعتبار فى جميع الأوقات وبذا فرضت التناسق الاجتماعى على طبقاتها، بينما اشتعل المجتمع الخارجى بالصراع الطبقى. وقد أثر هذا وسيطر على تطور نظام الحكم داخل الكنيسة خلال الثلاثين جيلا التى شهدت تطور الحكومات فى أوروبا وحتى مجئ عصر الإصلاح الكنسي.

كانت الكنيسة تسعى دائما للحصول على مزيد من الأموال ومزيد من السلطة. كانت تتاجر بالخلاص وتنشر عبادة الأوثان وتشيع الخرافات إذا كانت فى مصلحتها. كانت تتشدد غاية التشدد فى فرض الوحدة على أبنائها ورفض كل محاولة للتجديد أو الاستقلالية فى التفكير، ولذا كثر اضطهادها لليهود والزنادقة وصارت لا تبالى بأى مظهر للطغيان سواء أكان تعذيبا أو إعداما علنيا أو استرقاقا أو قضاء على شعوب بأكملها، طالما كانت هذه الإجراءات بعيدة عن مصالحها. ظلت هذه العادات المتخلفة والممارسات غير المستنيرة مستمرة ـ لدرجة أقل ـ بعد الإصلاحات الكنسية وبحلفائها السياسيين. لقد نشأت أوروبا الحديثة من التوازن الذى حدث بين الكنيسة والدولة من بقايا الإمبراطورية الرومانية الغربية خلال القرون السادس والسابع والثامن، عندما كانت مغلقة عن الحضارة. كانت مغلقة عن هجرات المتحضرين: كانت مغلقة عن مركز الحضارة فى القسطنطينية وعن مراكز الحضارات الإسلامية والفتوحات الإسلامية والتوسعات التى حدثت فى العالم الإسلامى، بكل ما حملته من حرية فى التفكير واستقلالية فى التدبير.

نشأت المجتمعات الإقطاعية عندما لم تتمكن المدن من السيطرة على الأقاليم لنقص النقود وضعف طرق الاتصال ونقص الأمن والأمان وانتشار الأمية ونقص وسائل التعلم والتعليم المتواجدة فى المجتمعات المدنية. كانت السلطة المركزية تحتاج فى فرضها الالتزام بأداء الخدمات لا بدفع النقود، التزامات تنحدر من أعلى، من الملك، لتصل إلى أدنى مستوى، لمستوى الفلاح الذى يزرع الأرض والذى كان إخلاصه لفلاحة الأرض يتوقف عليه كيان المجتمع بأسره.

استبدل شارل مارتل النظام الذى وضعته الدولة الرومانية، الذى كانت تُفرض فيه ضرائب مباشرة يحصلها رؤساء رومانيون معينون بنظام آخر جديد. صارت الدولة فقيرة بعد التوسعات الإسلامية، لا تمتلك ذهبا ولا فضة. انهار التعليم فى الأقاليم النمساوية وتدهورت المواصلات وطرق الاتصال وضعف الأمن. لهذا قررت الدولة الاعتماد على قوات مسلحة. لم يعد الجيش يعتمد على رجال أحرار فى خدمة الملك ولكن على رجال ملتزمين بخدمة الملك. وزع الملك الأراضى على رجال تعهدوا بخدمته، وعهد هؤلاء النبلاء المحليون بدورهم إلى رجال اعتمدوا عليهم فى العمل والحرب، اعتمدوا عليهم فى تقديم ناتج الأرض وخدمات القتال لأنفسهم وللملك فى نظير منحهم للأراضى واحتفاظهم بها. كان الأساس هو تعاقد شخص تباركه الكنيسة. ثانى الأشياء التى تبينها شارل مارتل هو أن الاستيلاء على مزيد من الأراضى سيهيئ له الفرصة لمنح تلك الأراضى للرجال المحاربين الذين سيكونون طوع إرداته، ويعدون له مزيدا من القوات لتضيف إلى قوته وتتيح له الفرصة على الاستيلاء على مزيد من الأرض. بالإضافة إلى هذا كانت هناك الأرض التى تتم مصادرتها من أملاك الكنيسة ـ التى تزايدت ممتلكاتها إلى حد كبير من هبات الأتقياء والمذنبين حتى وصلت إلى أراضى شاسعة. استمرت تلك السياسة على يد ابنه وحفيده، ونظرا لنجاحهم فى فتوحاتهم صاروا قادرين على اتخاذ مبدأ أن الملوك هم ملاك الأرض، وأن هذه الأرض يجب أن توضع فى عهدة المحاربين والنبلاء والأساقفة، الذين يتعهدون بخدمة مليكهم. كان على كل لورد أن يقوم بتسديد الخدمات إلى الحاكم، وأن الذى يتولى الدفع بتقديم الخدمات لا يقوم بدفع النقود. بدأ النظام الاقطاعى يستقر فى البلاد إثر النجاحات العسكرية التى أحرزها شارل مارتل وابنه وحفيده وحنكة إدارتهم لأمور الدولة. توسع النظام الإقطاعى حتى شمل كل العالم المسيحى الغربى، ولكنه لم يكن مستقرا تمام الإستقرار ولم يكن كاملا تمام الكمال. ولكنه ساد أوروبا لأربعة قرون (وما زالت آثاره باقية معنا بعد مرور ألف سنة). اتضحت قوة النظام الإقطاعى من الخدمات المتبادلة بين الإقطاعى المستحوذ على الأرض وبين أتباعه: يمنحهم الحماية فى مقابل خضوعهم له. كان النظام الإقطاعى مناسبا للظروف البدائية، فقد منح المستوى الطبقى والألقاب لمحاربى الملك ـ الذين صاروا الطبقة العليا فى المجتمع ـ وصارت لهم حقوق قانونية فى الدولة. أما الطبقات الدنيا فقد

ضمنت حياتهم ومعيشتهم وأمنهم فى مجتمع غير آمن. قوة هذا النظام تعتمد على أنه نظام شديد التكيف: متكيف مع خصائص الحاكم وخصائص المحارب ومتكيف أيضا مع خصائص عبيد الأرض وخدامها.

نشأ النظام الإقطاعى من محاولات الحكام لفرض قوانين جديدة على الشعوب التى حكموها. كانت أول الشعوب التى شعرت بهذه الأفكار الجديدة هى الشعوب التى تقع فى مركز توسع النظام الإقطاعى، الشعوب التى تقع بين نهرى اللوار والراين، الأقوام الخليط ممن جمعوا بين الخصائص الرومانية والخصائص الألمانية، الذين انفرط عقدهم أكثر من أى شعب آخر. حدث امتزاج بين الحكام فى قمة المجتمع ونشأ منهم جنس هجين، حاول تجربة نظام جديد للمجتمع يمزج بين ملكية الأرض وخضوع الأفراد. حدث امتزاج آخر بين الفلاحين فى قاع المجتمع. ظهر مزارعون فى نورماندى وفى دانلو (بإنجلترا) اثبتوا أنهم أشد الناس عنادا ولا يقبلون بتاتا الخضوع تحت إمرة أى زعيم (حتى نورمان الفاتح لم يستطع الحصول على قَسَم الولاء منهم). عرض هؤلاء المزارعون أن يعملوا كفلاحين محاربين، لهم ممتلكات ولكنهم لا يخضعون للنظام الإقطاعى الذى يتيح لهم الحماية مقابل تقديم الخدمات.

اتبع نظام الإرث في المجتمعات الإقطاعية نظاما من اثنين:

١- الميراث بالتساوى بين كافة الأبناء أو بين كافة البنين.

٢- يختص بالإرث فرد واحد من الأبناء، يختارونه من بينهم أو يحدده الأب أثناء حياته أو بعد استشارة سيد الأرض أو يختص به الأرشد.

فى النظام الأول تقسم الأرض بين جميع أعضاء قبيلة المزارعين حيث يعمل ويحارب الجميع لحساب سيد الأرض ـ أما إذا كانت مساحة الأرض محدودة أو إذا كان من الضرورى إنشاء جيش يحدد فيه القيادات تنازليا أو إذا كان من الضرورى وجود منصب حكومي واحد، كان نظام الوارث الوحيد ـــ الابن الأكبر فى المعتاد ـــ هو النظام المفضل. حددت قوانين الإرث هذه تطور الأرستقراطيات وتطور الفلاحين، كما حددت عادات الزواج وطرق تحديد النسل (حتى فى مجتمع تجار البندقية). بالتدريج يصير الابن الأكبر مالكا لأبعادية. فى النظام الإقطاعى بتباعد قطبا المجتمع تباعا عن بعضهما. يصبح فلاحو الأرض، الذين يعملون فيها لسادتهم لكى يبقوا على قيد الحياة، خدام الأرض وعبيد السادة ويفقدون حريتهم، ليصيروا مثبتين فى الأرض التى يعملون عليها. بينما المحاربون الذين يقاتلون لسيد الأرض أو لملك البلاد يتمتعون بالحماية الملكية فى محاكم الملك، وكانوا يعتبرون أحرارا وتعتبر ممتلكاتهم أسلابا يمكنهم الاحتفاظ بها. كان هذا التباعد، الذى سبق

وعرفه التاريخ، سببا فى الضغط الذى يعانيه رجل المحراث من أصحاب السلاح فى القرون التالية. كان المزارعون يتكاثرون على الأرض بدون إتاحة فرصة لهم للهجرة عن طريق الحرب أو عن طريق الانتقال للمدن. وكان هذا أيضا سببا فى الاختلاف الاجتماعى وفى التركيب الجينى. كان الأحرار من أفراد المجتمع يستطيعون التحرك والزواج على بقعة كبيرة من الأرض، أما العبيد فلم يكونوا يستطيعون الزواج إلا فى حدود مجتمعاتهم المحدودة، وقد أدى هذا التوالد الداخلى إلى ظهور فوارق بين سكان المناطق المختلفة وتشابه فى صفات أبناء كل منطقة. صار أبناء كل منطقة متجانسين ومتشابهين فى الصفات يتحدثون بنفس اللهجات ويتطورون بنفس الطريقة.

تطور مجتمع الفلاحين فى أوروبا، كما تطور مجتمع العبيد فى العالم القديم من قبل بالفرص التى أتيحت لهم للهروب. خلال ٥٠٠٠ عام من الاستعمار الزراعى لغرب أوروبا تزايدت تدريجيا مساحة الأراضى التى حرثها الإنسان وتناقصت مساحات الغابات التى قطعها الإنسان. تبع هذا المزيد من القيود على انتقال الإنسان من مكان إلى مكان وعلى اختيار كل فرد لنوعية النشاط الذى يزاوله، وقد زاد هذا من التصاق مجتمع الفلاحين بأراضيهم، ولم تزيله إلا الحرية التى أتيحت للمزارعين فى الزمن الحديث بظهور المدن وبداية الصناعة والكشف عن قارات جديدة.

بدأ النظام الإقطاعى فى الظهور على يد ملوك أقوياء، وبدأ ضعف ذلك النظام عندما سقط التاج فى أيدى ملوك ضعاف بعد موت شارلمان. تحت حكم الملك «لويس الطيب» وأبنائه ـ التى قُسِّمت الإمبراطورية بينهم ـ تبين واضعو اليد علي الأراضي أن بإمكانهم الاستيلاء علي الأراضي التي بحوزتهم، وصارت كل أبعادية قائمة بذاتها. وتبين لهم كذلك أن بإمكانهم توريث تلك الأبعاديات لولد أو أكثر من أولادهم. ثم صارت العادة أن يعين الملك فرسانا يتوارث أبناؤهم الذكور لقب الفروسية (أو ألقاب النبل). وهكذا نشأت طبقة جديدة من النبلاء تقطع عبر المجتمع قطعا. هكذا قسم المجتمع إلى فئات ثلاثة: الغالبية كانوا من خدام المجتمع والأقلية من الأحرار، ومن هؤلاء الأحرار يختار النبلاء ذوو الألقاب، مالكو الأراضى الشاسعة، الأرستقراطيون.

كثر النزاع بين الحكام ولكنه لم يعد قتالا حرا كما كان العهد من قبل. تكونت إمبراطورية أخرى تحت حكم عائلة جديدة، بدأها أوتو العظيم، الذى استحق مركزه بإنجازاته، وفى فرنسا نشأت أسرة مالكة أخرى ـ أسرة كابت ـ التى عاصرت أسرة كارولينجى (التى ينتمى لها شارل مارتل وشارلمان) ـ لمدة قرن ما بين عامى ٨٨٨-٩٨٧ ثم حلت محلها. نشأت أسرات مالكة فى فرنسا وألمانيا وبولندا بعد أسرة كابت. وهكذا أتاح النظام الإقطاعى المنافسة وكان النجاح حليف من يثبت مقدرته على الحكم. ثم ثبّتت عائلات مختلفة مُلكها فى قشطالة وليون (بشمال إسبانيا)، وفى فرنسا وفى بورجاندى

وفى المجر، وقد ارتبطت هذه الأسر المالكة بالزواج والمصاهرة مع بعضها البعض ومع كبار الإقطاعيين والنبلاء، لتدعيم قوتهم ونفوذهم فى الداخل ولتوسيع ملكهم (بالدوطة التى تدفعها العروس لإتمام الزواج). امتدت هذه الشبكة من الزيجات الملكية إلى حدود العالم المسيحى بانتشار المسيحية وانتشار المدنية. بدأت احتفالات التتويج وطقوسه تمارس فى تلك البلدان، وتبعتها انجلترا وسكوتلاندا والدنمارك والسويد والنرويج وبولندا ونوفجورود، التى انضمت إلى تلك الشبكة من الأسر المالكة الحاكمة فى أوروبا والمترابطة مع بعضها البعض بالزواج والمصاهرة، وصار لهم خلفاء متشابكو الأصل.

أسلاف هذه الشبكة من الأسر المالكة الأوروبية كانوا من القبائل الهمجية من ناحية (كلت وتيوتون وصقالبة ومجر) ومن الرومان (النبلاء وكبار رجال الدولة والقادة العسكريين) من الناحية الأخرى. الأقلية الفعلية (فى إيطاليا فقط) استطاعوا أن يصلوا نسلهم لأصول رومانية فحسب. حدث تعاقب لعشرة أو عشرين جيلا بتوالد منتقى على الخطوط المشروعة، وأثناء ذلك حدث فكر عميق فى موضوع الانتقاء الجنسى على أسس الزواج المتناسب. نشأت مجموعة من الناس ظلوا يحكمون أوروبا خلال العصور الوسطى. ولكن أثرى تلك المجموعة أولاد السفاح الذين غنوها بكثرة ـ وقد انتهى هذا العهد بسيطرة الكنيسة على عهد هيلدبراند. ساعد على امتداد شبكة الزيجات الملكية تدخل باباوات الكنيسة، خاصة تدخل هيلدبراند نفسه، الذى وضع قوانينا تنظم تلك الزيجات. طالب ألا تحدث زيجات بين من هم أقرب من الدرجة السابعة من القرابة، وهكذا صار مستحيلا أن تتكون عصبة متماسكة من الملوك داخل الإمبراطورية. بدأ الملوك ينظرون بعيدا فى الدولة أو ينظرون إلى النبلاء الأقوياء داخل النظام الإقطاعى. وهكذا استحوذت عائلات المحاربين الأشداء على ممالك (مثل النورمانديين والأنجيفين) وكذلك استطاع أحفاد فلاديمير العظيم واستطاعت أنا ابنة الإمبراطور رومانوس الثانى الزواج من أبناء وبنات الأسر الملكية فى وسط وغرب أوروبا. وهكذا ترابطت بالتدريج الأسر الروسية والبيزنطية من العائلات البولندية والمجرية وحصلوا على عرائس نرويجية، حتى اصطادوا أخيرا ملك فرنسا نفسه، هنرى الأول (١٠٨٨-١٠٦٠)، الذى ينتمى للأسرة المالكة الجديدة ـ أسرة كابت.

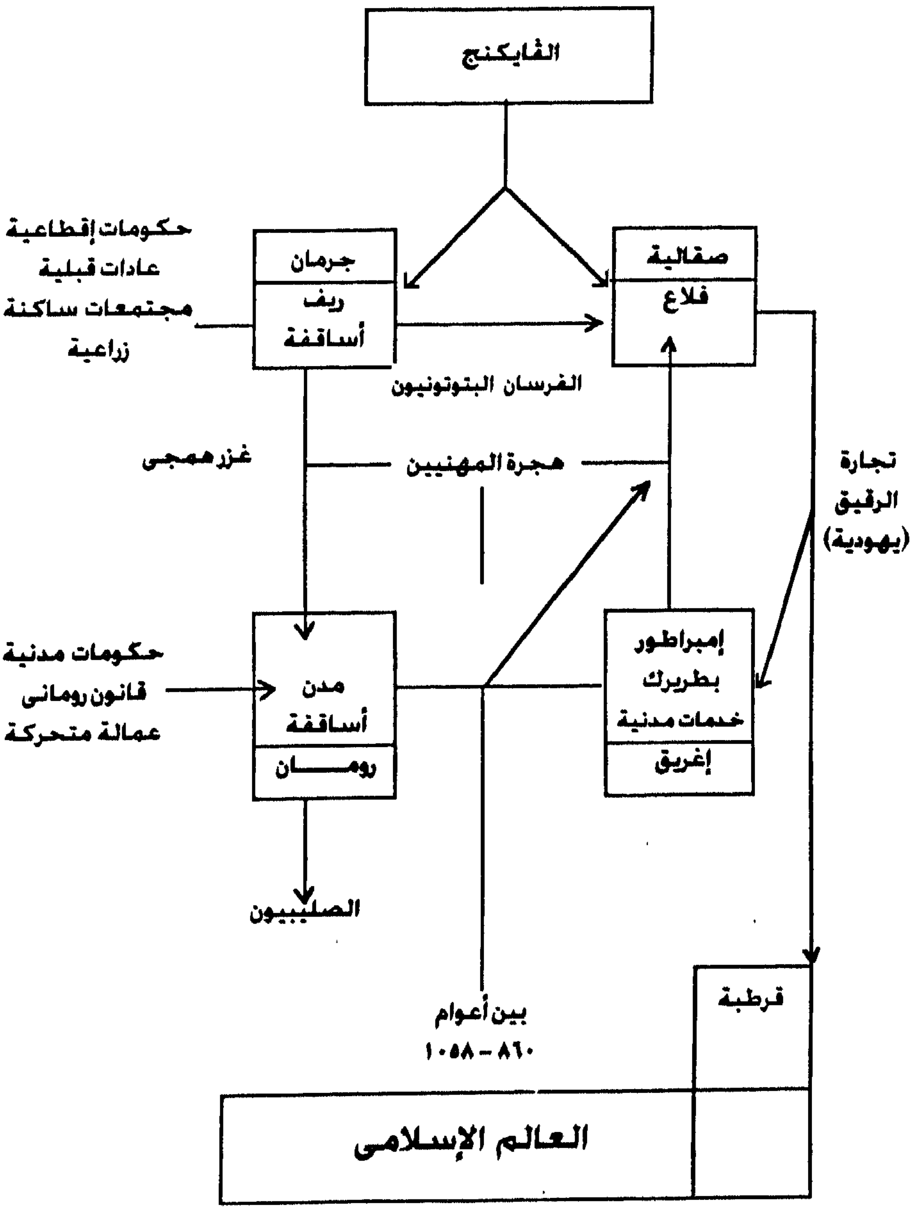
كان تدخل البابا منبنيا على لوائح القانون العبرى، الذى كان مستخرجا من الغريزة الإنسانية التى تدفع الإنسان إلى التطور وإلى التكيف. طور الإمبراطورية جستينيان هذه اللوائح وزاد عليها، وفعل البابوات نفس هذا العمل، خاصة البابا هيلدبراند، بهدف زيادة سيطرة الكنيسة. مثال ذلك، عندما تزوج وليم النورماندى ـ ابن السفاح ـ من ابنة عمه ماتيلدا ـ فرض الباب عليهما بناء وتجهيز كنائس فى كين تكفيرا عن خطيئتهما، وإلا لكان قد حرم عليهما وراثة عرش انجلترا، ضمنت هذه

الزيجات مصالح الكنيسة وربطتها بمصالح الأسر الحاكمة فى أوروبا من الناحية السياسية. أما من الناحية البيولوجية فقد حددت قوانين الزواج هذه نوعية الطبقة المالكة فى أوروبا وصفاتها فى العصور الوسطى، وتتضح أهمية هذا جليا بعد انكسار تلك البيوتات تحت وطأة الإصلاح الكنسى الذى حدث فى القرن السادس.

المدنية هى نوع النشاط الذى خلقته المدن، وقد بقيت المدنية ببقاء مدن الإمبراطورية الرومانية، واستمرت إلى عصرنا الحاضر. افتقرت المدن وقل سكانها بتقطع المواصلات وانهيار الحكومة فى القرن الخامس، وتوقف التجارة التى عليها اعتمدت. ولكن استمرت الحياة فيها بوقع أشد بطءا حتى تبين ملوك الهمج والنبلاء أهمية النشاط التجارى وجباية الضرائب على هذا النشاط، كما تبين الأساقفة ـ الذين أخذوا مواقع الحكام ـ؛ اتجه الملوك والنبلاء الذين يتحولون إلى المسيحية إليهم وأهميتهم فى فرض السيطرة على أبروشياتهم المتسعة. استمرت الحال على هذا المنوال لثلاثة قرون حتى تولى شارلمان ـ والمدن حية بالرغم من آلام تقلص حجومها. صارت المدن ـ للمرة الثانية ـ الأماكن التى يستقر فيها الحرفيون والصناع ويحط فيها التجار ورجال الدين، ويتحركون فيها من بلد إلى بلد ـ كما كانوا يفعلون فى العصور الرومانية. لكن تغير الآن وضعهم كثيرا عما كان فى تنظيم الدولة. الحكام الجدد لم يتربوا فى المدن، بل كانوا محاربين جهلة. كانت نشأتهم خارج نطاق المدن الرومانية القديمة ونظمت حكوماتهم لتكون مستقلة عنها، ومستقلة كذلك عن النقود وعن الكلمات المكتوبة ـ التى كانت وسائل حياة المدينة. كان هناك دائما الشق بين المدينة والريف، ولكن الحكومة الرومانية. القديمة كانت دائما حريصة على إقامة الجسور بينهما، ولكن الآن انهدم الجسر وتباعدت المدن عن حياة الريف.

كانت هناك دائما قطبية بين الدولة والكنيسة فى الغرب، كما كانت هناك قطبية بين الشمال والجنوب، تمثلها الفروق بين أهمية مدن الشمال والجنوب، شكل (١٨). فى إيطاليا وفى بروفونس، كانت المدن تسيطر على الريف، وكانت مدن مثل البندقية، وبيزا، وأمالفى ما زالت تغذيها الهجرات من الشرق. وقد جاء بارونات ـ البارونات من أصل قوطى أو لومباردى ـ ليعيشوا فى مدن ايطاليا ويتزاوجوا مع أسر سناتورات الرومان، وبعد تهجينهم صاروا من أهل المدن. أما بارونات الشمال فقد ظلوا مبتعدين، يتزوجون من عشائرهم ويعيشون حياة ريفية، يتشوقون للحروب ويحنون للمعارك (وصاروا فرسان وجنود الحروب الصليبية فيما بعد). كانت مدن الشمال صغيرة وفقيرة وكان بارونات الجنوب يحتقرون أهالى الشمال ولا يقيمون لهم وزنا. كانوا يستهزءون بقوانينهم وعاداتهم وتجارتهم وأموالهم ونشاطهم السلمى الذى كان مخالفا أشد الخلاف لطريقتهم فى الحياة. تفرق بارونات الشمال وابتعدوا عن أهالى المدن وعن الكنيسة وعن مولد الملكيات وطبقات الإدارة الجنينية الذين

شكل رقم (١٨)
التوازنات والتحركات فى أوروبا فى الأركان المسيحية الأربعة



كانوا يتدافعون عليها. كان لهؤلاء القوم ارتباطات بالرومان (أحيانا من طريق أبناء السفاح) وبذا كانوا أكثر ثقافة وأشد تعليما ولهم قابلية لمزيد من التعلم عن إخوانهم فى النواحى القانونية والثقافية والفنية وحتى فى الشئون التقنية. إزدادت المدن الشمالية بمرور الزمن عن مدن الجنوب، التى ظلت تحت حماية أساقفتها وتحيط بالكاتدرائيات. مدن أخرى (مثل جنت وأكسفورد) فى القرن الحادى عشر نمت تحت حماية بارون ذو قلعة منيعة. من أمثال تلك المدن مدينة دبلن بقلعتها التى تعود إلى القرن الثانى عشر وموسكو بالكرملين الذى يعود إلى القرن الخامس عشر. فى تلك الأماكن عاش المحاربون مع التجار فى مجتمعات متلاصقة ولكل كنيسة.

حدث الإندماج فى المجتمعات المختلفة التى تقطن المدن الأوروبية فى خطوات متتالية. على سبيل المثال كان يعيش فى مدينة اكستر الرومانية أقوام من الكلت، وعندما صارت مدينة سكسونية استمر هؤلاء القوم يعيشون فى حى مستقل له طرقاته الملتوية والضيقة، التى ما زالت متواجدة فى تلك المدينة إلى عصرنا الحالى رغم أن الكلت قد تم طردهم تماما من مدينة اكستر ـ لتمردهم وعصاينهم ـ منذ أكثر من ألف عام. لم يندمج الكلت مع الساكسون ولم يصيروا أرقاء لهم وكانوا شديدى الاختلاف عنهم بحيث لم يتم الزواج منهم. أمر آخر حدث بعد الفتح النورماندى. فقد تبع التجار والصناع الفرنسيون الحكام الجدد (إن لم يسبقوهم بقليل فى الاستقرار فى تلك المدن)، وأقاموا مجتمعاتهم حول نوتنجهام وستامفورد وبقية المدن السكسونية. بعد قليل فقدت تلك المجتمعات شخصيتها المستقلة وقبلت التكلم بلغة الغالبية من السكان الإنجليز واندمجوا معهم وصاروا جنسا مهجنا (الأنجلوساكسون). كان لكل هذا الاستيطان نفس الآثار الجينية الوراثية المنتقاة والتى أثرت الجنس. كان الاستيطان فى الحضر أسرع أثرا من الاستيطان فى الريف، وذلك لأن الاستيطان فى الريف يتم فى قرى منفصلة ولا يتم التهجين بين سكان كل قرية والقرى المجاورة إلا فى أضيق الحدود. ولهذا تحتفظ المجتمعات الريفية بخصائصها لمئات السنين (أو لآلاف السنين). من أمثلة هذا: المستعمرات الألبانية فى كالابريا وفى صقلية، المستعمرة اللومباردية على نهر أرنو، المستعمرات الألمانية التى زرعها شارل الخامس فى إسبانيا والمستعمرات المورافية التى غرسها الإنجليز فى أيرلندا.

ينحدر عمال المناجم فى بريطانيا من عمال مناجم حجر الصوان فى أرض الطباشير ومن عمال مناجم القصدير فى كورنويل، وقد هاجروا فى العصر الرومانى إلى دربيشاير وغيرها من الأماكن وفى الأزمنة الحديثة استقروا فى مختلف قارات العالم، وفى عهد الملكة اليزابيث دخلت صناعة مناجم النحاس إلى منطقة البحيرات من بوهيميا ومورافيا (وما زالت أسماؤها الألمانية معنا إلى العصر الحالى). أما بناء السدود والمصارف فقد بدأت فى مصر وفى بابل وتطورت فى شمال إيطاليا

وتقدمت إلى حد كبير في العصور الوسطى في هولندا. وقد استقر رجال السدود في الأراضي الواطئة واتخذوا لأنفسهم اللسان الهولندي والصفات الهولندية، وعلى عدة أجيال تكونت منهم الأمة الهولندية، وكونتهم هولندا وصاروا قوما رحلا، ارتحلوا إلى جميع أنحاء أوروبا وإلى أرجاء العالم. يوضح هذا المثالان: صناعة المناجم وحرفة الصرف أنه بفضل التوالد الداخلي تنشأ الحرف وتبقى على مر العصور. فكلما إزدهرت حرفة من الحرف تكونت مستعمرة تتبناها وتحافظ عليها ويبدأ التوالد الداخلي لاستمرار الحفاظ على تلك الحرفة. عندما تبدأ مستعمرة ما في التدهور والانقراض، يبدأ التوالد الخارجي ويتبع ذلك تطور الحرفة أو التفوق عليها. وهناك فرق بين الاستيطان الاستاتيكي الثابت والاستيطان الديناميكي المتحرك. فقد زرع هنري الأول فلاحين فلمنك في بمبروك في الريف بينما أدخل إداوارد الثاني واليزابيث نساجين فلمنك في المدن. كان معدل التهجين في الريف أقل من ١ : ١٠٠٠ بينما ارتفع في المدن إلى أكثر من ١ : ١٠٠. في الريف فشل هذا الاستيطان في إثراء المجتمع الريفي المحافظ الثابت بينما أثرى المجتمع المدني هذا الاستيطان وأخرج نوعيات جديدة من البشر عملت على تقدم المجتمع وتكيفه وسرعة تطوره. وقد حدثت مرحلة أخرى عندما بدأ التجار الجدد يهاجرون إلى أبعد مناطق نفوذ القوى الملكية والإقطاعية، وبدؤا في بناء مدن خاصة بهم، لها قوانين خاصة بها، يدافعون بأنفسهم عنها بدون الاستعانة بالملوك أو اللوردات. نشأت تلك المدن على حافة العالم المسيحي وعلى أطرافه مثل مدن هامبورج وهانزا، متتبعة المثال الإيطالي. أظهرت تلك المدن كراهيتها للنظام الإقطاعي ولطبقة اللوردات والبارونات. لم يقبلوا وجود ملك عليهم ولا نشأة طبقة فرسان لديهم. انتخبوا قضاتهم بأنفسهم وكونوا نقاباتهم وجمعياتهم ورئاستهم، وبعد عصر من الحركة والتنقل والارتقاء صارت لهم طبقة عليا متوارثة ووضعوا لأنفسهم دساتير الممالك ـ ولكن تتميز بقوة سلطان المدينة وبالمساواة.

صارت المدينة حينئذ عنصرا سياسيا في العصور الوسطى. فقد اعترفت لندن بالفاتح واعترف الفاتح بلندن. بعد قليل بدأت العاصمة تطالب بحقوقها من الملك ومن اللوردات ومن الجميع. عندما تزايد النزاع بين فئات المجتمع المختلفة انحازت المدن القوية للجانب الضعيف. ساندت لندن اللوردات الإنجليز ضد الملك جون وساندت باريس ملك فرنسا الضعيف ـ فيليب أغسطس ـ ضد البارونات الفرنسيين.

بدأت قوة المدن تظهر تدريجيا في فرض القانون، ونبذ أهالي المدن لخرافات الهمج والمحاربين. رفض العقلاء من أهالي المدن المحاكمة بالتعذيب أو المبارزة ولجلوا إلى القضاء وإثبات التهمة بالدليل والشهود ـ بالطرق المتحضرة القديمة التي بدعها الرومان. ولكنهم استبدلوا الوسائل المتحضرة القَبَلِيَّة التي تقضى بالعقاب بالغرامات على المخطئ إلى الحكم بالتعذيب وبتر الأعضاء

والإخصاء على ارتكاب الجرائم - تلك العقوبات الوحشية التى أبطلتها حضارات الشرق القديم من أمد بعيد ولكن أعادتها أوروبا فى العصور الوسطى، أضافت إليها الكنيسة الحكم بالحرق على المخالفين منذ عام ١١٦٣. وكان تنفيذ تلك الأحكام علانية أحدى وسائل التسلية للجماهير حتى عهد قريب (كان آخر تلك الأحكام العلنية تنفيذ الحكم بالشنق علنا فى انجلترا على امرأة فى قلعة تشستر عام ١٨٥٦).

تعود نشأة المدن إلى الحرية المتاحة للصناع فى المدن بالانتقال من مدينة إلى أخرى، خاصة من المدن المسلمة أو من المدن البيزنطية. كانت هناك فرص متاحة للمهرة من الصناع فى الانتقال لمدن أوروبا الغربية للعثور على أعمال مناسبة. كان الجميع يبحثون عن أفضل فرصة للعمل لتظهر مواهبهم وتبين كفاءاتهم. كان اتجاه الهجرة دائما من المدن الكبيرة فى جنوب أوروبا إلى المدن الصغيرة فى الشمال. استقبلت المدن أيضا أعدادا كبيرة من عديد من المجتمعات غير المحمية الصغيرة، فقد دعا تجار جنت النساجين من البلاد ليأتوا إلى المدينة، حيث يجمع لهم الصوف من انجلترا ثم يصدر القماش بعد تصنيعه. وهكذا اجتذبت المدينة بحفاوتها الصانع المنفرد وشجعته على الاستقرار بها، كما استقطبت اللاجئ الشارد من مجتمع الإقطاع. وكان القن - عبد الأرض - الذى يقطن المدينة لمدة تزيد عن عام يستطيع امتلاك حريته. وهكذا استطاعت المدن فك قيود مجتمع الإقطاع، وكذلك أدمج منشئوها اللاجئين بالسكان المحليين واكتسبت عرقية إقليمية جديدة أو صفة قومية، وزادت من اتساعها بإدماج عناصر ريفية إضافية - عادة تلك العناصر المغامرة.

كانت تلك الحركة - مثل حركات تحرك السكان - منتقاة، وابتدأت بهجرة العقول من الأرياف إلى المدن وزادت فى الفروق بين الريف والحضر. صار مواطن المدينة ذلك الشخص اليقظ، النشيط، التقدمى بينما مواطن الريف ذلك الفلاح، الرعوى، المحافظ، المحتفظ بذكائه الفطرى. وهكذا انقسمت المجتمعات إلى مجموعات منفصلة تحولت بالتهجين الشديد البطء إلى جماعات تختلف عن بعضها اجتماعيا، تتنافس مع بعضها البعض كما تتعاون مع بعضها خلال فترة التهجين الطويلة. وكان الخلاف الحاد فى بعض الأحيان والتهجين السريع فى أحيان أخرى سببا فى دمار بعض المجتمعات التى لاقت ذلك المصير.

كانت العاصمة لها وضع خاص فى تلك الهجرة المنتقاة. كان ملوك العصور الوسطى يتتبعون أعمالهم حولهم، كان شارلمان، كما كان وليام الفاتح دائما فى قتال وقلما تواجدا فى بلديهما، وكان الملك جون يحمل تاجه معه أينما ذهب. ولكن هؤلاء الملوك جميعا تركوا كبار إدارى دولتهم خلفهم فى عواصمهم كما هيئوا لثرواتهم أن تتجمع فى تلك العواصم. كان مكان لندن - كميناء بحرى - يهئ

لها موضعا خاصا لتتطور عاليا. كان التدفق المستمر للاجئين إليها يترتب عليه تكوين أحياء خاصة لكل مجموعة قومية أو سياسية أو اجتماعية أو تجارية، وظهر هذا واضحا جليا فى أسماء الشوارع كما ظهر فى السجلات التاريخية الرسمية، ولكن كان هناك ضغط مستمر على الغرباء ليخفوا أصولهم. حضر إلى تلك العاصمة ــ إلى لندن ــ رجال يبحثون عن الثروة من الريف القريب ومن جميع أنحاء البلاد. جذبت السلطة والثروة القادرين من الرجال والمغامرين من كافة الأرجاء. حدث نفس الشئ فى باريس ــ كما سبق حدوثه فى بابل وأثينا والاسكندرية وروما، وكما حدث فيما بعد فى سكوتلاندا وأيرلندا. وعندما انتقلت العواصم من تلك المدن فقدت جاذبيتها للبشر وابتدأ سكانها يهجرونها إلى لندن. حدث نفس الشئ لڤينا عندما صارت عاصمة لأسرة الهابسبورج ولبرلين عندما صارت عاصمة لأسرة هوهنزوليرن.

كان لنمو وانتشار المدن فى أوروبا عوامل كثيرة ــ كما كان لهجرة الإغريق والفينيقيين فى الأزمنة الماضية وإنشائهم للمدن فى حوض البحر المتوسط واستيطانهم بها. كانت تلك العوامل متشابكة: عسكرية وتجارية وصناعية وريفية، وشملت المتشردين والسكارى، كما شملت النبلاء والملوك، شملت الهاربين من السيول ومن فتوحات المسلمين ومن اضطهاد المسيحيين، واستمرت بلا انقطاع لما يزيد عن ألف عام. لا يمكن فصل تاريخ المدن الأوروبية عن تاريخ الهجرات إليها، وكان أثرها هو تكوين المجتمعات المختلطة. كانت لندن فى القرن الثامن تعتبر مدينة مخلطة، تتكون من أمم عدة، وما زالت إلى الآن. ولكن فى كل تلك القرون لم يتعد تعداد الأجانب عشر سكانها. استمر انعزال الطوائف الأجنبية فى لندن واستمر التزاوج بين أبناء كل طائفة ــ رغم تركهم للغاتهم الأصلية ــ واستمر احتفاظ تلك الطوائف بدياناتها وبأعمالها. لم يتم التزاوج بين مختلف الطوائف إلا بعد أن ترك الأفراد صناعاتهم الأصلية ولم يتم التهجين بينهم إلا بتغير وسائل الإنتاج والتعليم وتغير الحكومات أو بالتخلى أو الهجران ــ خاصة فى زمن الحروب ــ للغتهم الأصلية وأسمائهم. لعل أوضح مظاهر تغيير العمل هو الفصل بين الصنعة والبيع. فى المدن القديمة كان الحرفى أو الصانع يقوم بنفسه ببيع منتجاته، وكانت كل حرفة أو صنعة تمثل حيا بعينه أو شارعا بذاته يحمل اسم تلك الحرفة أو الصنعة، وكثيرا ما حملت العائلة نفس الاسم. بنمو المدن فى العصور الوسطى تعقدت الصناعات وبازدياد المهارات اللازمة لها، انفصلت تدريجيا عن بعضها واختلف العائد المادى لها. انفصل الطحان عن الخباز وصار الطحان أكثر ثراء واستبدلت الفوارق بين مختلف المهن وصارت الفوارق اقتصادية، وتطورت تلك الفوارق لتصير فوارق اجتماعية، تفصل المجتمعات ــ خاصة فى المدن ــ إلى طبقات يعلو بعضها بعضا. ولكن ظل المجتمع متماسكا ومترابطا رغم كل شئ حتى القرن الخامس عشر عندما انفرط عقده حينما ظهرت أفكار جديدة عصفت بالاستقرار الذى ظل لقرون عديدة طوال العصور الوسطى، عندما حل عصر النهضة وعصر الإصلاح الدينى بأوروبا.

الباب الثامن

غزاة من الشمال

الفايكنج

شعر المسيحيون فى شمال أوروبا فى القرن الثامن بعدو رهيب قادم من الشمال، يسقط على سواحلهم حارقا مستوطناتهم وحاملا معه مواطنيهم كسبايا، الفايكنج الوثنيون الهمج، حطوا عليهم من عالم مجهول لهم، ولكنه عالم ذو تاريخ قديم. كانت سكندينافيا مقطونة بقبائل من الصيادين وجامعى الغذاء من أهل اللابلاند رعاة غزال الرنة ومن صيادى السمك الفنلنديين، وكليهما قد جاء أصلا من وسط آسيا. من بين هؤلاء استقر المزارعون الأوائل، ثم جاء القوطيون عبر بحر البلطيق وأعطوا للبلاد لغتهم القوطية ووصل المستكشفون الأوائل إلى بريطانيا جالبين معهم ديانتهم وآثارهم. وفى الألف سنة الأولى قبل الميلاد جاء جنس جديد وحط بالقرب من ستالينجراد ووصل بين الشرق القديم وبين جنوب السويد. هؤلاء الأقوام الشجعان كانوا رفقاء أولئك الذين اشتبكوا مع داراوسجل هيرودوت وقائعهم ووجدت قبورهم المبطنة بالسجاجيد فى بازيريك فى ألتى. كانوا يستبدلون الخيل بالعنبر والعسل والفراء وجلبوا الحديد إلى الشمال من شمال الأناضول. كان هذا التدفق الحثيث للحياة الإنسانية مستمرا حتى توقف فجأة بانتصار الرومان على الميثرديين عام ٦٤ ق.م. فقد السكيثيون والشاليبيون مصدر الحديد فاتحدوا سويا ورحلوا عبر الطريق المألوف إلى بلاد البلقان خلال عدة قرون، وتزايدوا مع تحسن الطقس فى بلاد الشمال قبيل الميلاد. وصل هؤلاء المهاجرون إلى السويد واتحدوا مع القوطيين ورحلوا سويا واحتلوا جنوب النرويج. كان غالبية سكان الغرب من القوطيين، الفلاحين، المغامرين والمستقلين الأحرار الذين يعيشون فى بيوت من الخشب حول الخلجان البحرية المحمية فى جماعات أسرية صغيرة تنتسب للأمهات، بينما كان غالبية سكان الشرق يعيشون على البحار المفتوحة فى بيوت حجرية من السكيثيين وينتسبون للآباء.

من هذا الخليط من الأجناس من الرعاة السكيثيين ورجال البحر السكندينافيين والمزارعين بدأ الاسكندناڤيون يتلقون مهاجرين دفعوهم لمزيد من التقدم. تلقوا أولا عمال الحديد من الرومان عن

طريق بوهيميا ثم وفد إليهم بناة السفن الرومان والملاحون عن طريق موانئ الفال والراين. وجاء إليهم أيضا حملة الفئوس فقطعوا الأشجار وأزالوا الغابات وبدأت الزراعة تتغلغل إلى داخل السويد والنرويج وأخيرا بدأت التجارة مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية وذهب الرجال المحاربون للقتال مع القوات البيزنطية. وعند عودتهم جلبوا معهم كنوزا من الذهب والفضة وصناعا ـ أحرارا وعبيدا ـ صنعوا الآلات والأسلحة والمجوهرات لتستعمل فى السلم والحرب.

كفلت تلك المهارات للڤايكنج تخطيط معسكراتهم فى الدانمرك بدقة الرومان باستخدام مقياس القدم. كذلك تمكن الڤايكنج من بناء سفن متقدمة باستخدام مهارات تعلموها من الإنجليز والساكسون، وكانت تلك السفن تعتمد على المجاديف فحسب وتمكنوا بها من الإغارة على بعض أجزائها، ولكنهم استوردوا من إنجلترا أيضا الصناع الانجلوساكسونيين إلى السويد.

فى نفس الوقت بدأ الڤايكنج السويد هجومهم فى حقل توسعهم الثانى. حوالى سنة ٨٠٠ استقروا فى مستعمرة جديدة تم إنشاؤها بجوار البحيرة الروسية العظمى عند لادوجا القديمة. عرف هؤلاء المستعمرون الجدد لدى سكان البلاد الأصليين من الفنلنديين بأسماء: رولنتى وفاراجير. دخل هؤلاء البلاد كتجار وكمحاربين وأنشئوا مراكز حصينة على الأنهار الروسية. سرعان ما صارت تلك المستوطنات قلاعا لدولة فيدرالية ساهم فى تكوينها أيضا التتار الذين كانوا فى ذات الوقت يتوغلون فى حوض نهر الفولجا وسميت تلك الدولة باسم مهجن «روسخاجانيت».

كانت حكومات الڤايكنج تنشأ أحيانا بالاتفاق وفى أحيان أخرى بالدعوة لتسلم مقاليد الحكم، (مثال الدعوة التى وجهت إلى كوريك وإخوانه «بلادنا فسيحة وغنية ولكن ينقصها النظام، تعالوا لحكمها»). هذا المثال مشابه لما كان يحدث فى الهند وفى افريقيا عندما يفضل أقوام من المزارعين رجالا محاربين ـ من أصل الرعاة، ودائما غرباء عنهم ـ ليحكموها. بعد أربعين عاما فقط كانت دولة «روسخاجانيت» ترسل سفراءها للإمبراطور ثيوفيلس بالقسطنطينية، وبعد مائة عام بدأت المدن تظهر فى تلك الدولة بأسماء: نوفجورود، بسكوف، سمولنسك، بولونسك، وروستوت على مصب نهر الدون، وأشهرها كييف على نهر الدانيير التى سرعان ما صارت عاصمة لإمارة مسيحية استقدمت مجندين من بلاد الشمال ومن الإنجليز للخدمة فى حرس الإمبراطور. فى تلك المدن بدأت الدولة الروسية والمجتمع الروسى من جنس هجين من الڤايكنج وسكان البلاد الأصليين.

كان الحقل الثالث لتوسع الڤايكنج إلى أيسلاندة وجرينلاند وإلى أمريكا. عندما وصل الڤايكنج إلى أيسلندة وجدوا أن رهبانا أيرلنديين سبق لهم الاستقرار فى تلك الجزيرة (وقد عادوا فيما بعد إلى

أيرلندة). بعد عدة أعوام ـ فى عام ٨٧٢ ـ ظهر زعيم عظيم هو هارولد هارفاجر وأخضع جميع زعماء القبائل هناك وتم نفيهم خارج البلاد. بعد خمسين سنة نظم هؤلاء أنفسهم وأعدوا حملات استعمرت الجزيرة ونشأ شعب جديد ومجتمع جديد قوامه ١١٠٠ شخص يرعون الأغنام ويزرعون الحبوب ومعهم حدادون وبناة سفن وصيادو سمك وصيادو حيوانات، مما جعل من الجميع شعبا متوزانا ومجتمعا مستكفيا، وفى خلال مائة عام تزايد تعداد الشعب حتى بلغ ٤٠ ألف نسمة. كان شعب أيسلندة شعبا ذو تقاليد استقلالية وسرعان ما كونوا جمعية برلمانية، اجتمعت لأول مرة عام ٩٣٠. واستمرت أيسلندة مستقلة حتى سيطر عليها ملك النرويج بعد ٣٠٠ سنة. بالإضافة للمزارعين من النورس (أهل الشمال) كان هناك جماعات من الأيرلنديين المستعمرين غير المسيحيين. فى عام ١٠٠٢ استطاع ملك النرويج المسيحى أولاف تريجفاسون أن يقنع البرلمان الأيسلندى باعتناق المسيحية، وكان لهذا التحول الدينى أثر حاسم فى تطور الأمور. كانت أيسلندة مقسمة إلى أحرار وعبيد، إلى مقاتلين وفلاحين، وكانت دولة منعزلة بعيدة عن العالم، يسكنها أهل الشمال والأيرلنديون وكان النزاع كثيرا بين فرقائها. حول اعتناق المسيحية أيسلندة إلى عصر جديد: بدلا من القتال بين فرقائها والحريق المتعمد لممتلكاتهم، صاروا شعبا مسالما وتغيرت أخلاقهم وتهذبت طبائعهم وبدءوا فى بناء دولتهم، وكان الأيرلنديون ذوى الإسهام الأكبر فى بناء الحضارة. صار أهل أيسلندة ــ وما زالوا للآن ــ من أحسن القصاصين فى العالم ولديهم ملَكة كبرى لرواية الروايات وحكاية الحكايات، وأهل أيسلندة أكثر أمم العالم قراءة للكتب. قد يعود تاريخ قص مختلف البلدان منذ القرن السابع الميلادى. ثم تمكن الڤايكنج من استخدام السفن الشراعية التى تمكنت من الملاحة فى البحار المفتوحة خلال أشهر الصيف وإتقنوا صناعة السفن التى تتمكن من اختراق البحار؛ السفن متراكية الألواح التى تبلغ خمسين طنا ذات الشراع المربع. خلال القرن التالى تبين قادة الڤايكنج أنهم لم يسودوا الأنهار والمياه الساحلية فحسب بل سادوا البحار الصغيرة وجزءا من المحيط نفسه. مكنتهم سفنهم المتطورة من بدء التجارة ثم الاستكشاف ثم الاستعمار، وبدءوا القرصنة والإغارة على السفن والإمساك بالرجال والنساء ثم بتجارة الرقيق. مكنتهم من الانطلاق وحرية الحركة كما مكنت الخيل معاصريهم من البدو. وهكذا تمكن الڤايكنج من أن يجوبوا سواحل الإمبراطورية الرومانية فى نفس الوقت الذى جاب فيه العرب المسلمون الصحارى على حساب المستوطنات المسيحية المستقرة. كانت تلك أيام استعباد وتعدد زوجات وتهجين.

من هم الڤايكنج؟ هم إناس سيطروا على البحار، أبحروا من خلجان صغيرة أو جداول أو روافد أنهار ضيقة أو موانى على الشواطئ الاسكندفانية خلال القرون من الثامن إلى الحادى عشر. كانوا بشرا مخلطين يتكلمون باللهجات الاسكندينافية، يقودهم فلاحو سواحل اسكاندينافيا ورجال من

سواهم من الأمم التى ألقت برجالها على السواحل الاسكنديناقية. وحدت طريقة الحياة بين هؤلاء الرجال جميعا، وهى حياة السفن، فقد صنعتهم سفنهم. سر بقائهم على قيد الحياة هى مقدرتهم على التعامل مع السفن بنجاح. كان بقاؤهم دائما منتقى ــ لا يبقى منهم إلا الأصلح ــ كانوا يعبدون آلهتهم القديمة ــ وخاصة أودين إله الحرب ــ بالإضافة إلى تقديسهم لسفنهم، التى كانوا يدفنون بها ملوكهم وملكاتهم. ســر نجاح الڤايكنج خــلال أربعة قرون ــ بالإضافة إلى مهارتهم فى اختراع السفن ومقدرتهم على حسن الملاحة بها ــ هو تحسن المناخ (الذى يعكسه تحليلات حبوب اللقاح)، تحسنا مكنهم من الانتشار وفتح أمامهم أبواب عالم الشمال فاستقروا فيه ــ كما استقرت الأقوام النيوليثية منذ ألفى عام. كان انتشارهم منتظما وكانت الحروب بينهم قليلة قبل توسعهم وساد بينهم قانون حق البكر فى الإرث كله (وقد ظهر أثر ذلك القانون فى تنظيماتهم الاجتماعية فيما بعد). وخلال أربعة قرون اكتســحوا فيها البحار تغيرت طباعهم بشكل كبير وتهجنــوا مع أقــوام عديدة وكونوا أمما مختلفة.

كان التطور سريعا واختلفت طرائقه فى الحقول الأربعة الكبرى لتوسعهم البحرى. أول تلك الحقول كان إلى الجزر الغربية. حوالى سنة ٧٠٠ بدءوا يستعمرون جزر الفارو وشتلاند والهبرديز ــ التى كانت تكاد تكون خالية من السكان، ثم تحرك النورس ڤايكنج عند نهاية القرن واستوطنوا فى سواحل أيرلندة وغربى اسكتلندة. أخذوا معهم فلاحين استقروا فى تلك الأماكن. فى أيرلندة بنوا قلاعا تطورت لتصير مدن دبلن ووكسفورد ووترفورد وكورك وليمريك، التى سرعان ما صارت مراكز عالمية للتجارة وبداية لدول سرعان ما تحولت للمسيحية وتتكلم باللغة الجالية. بنهاية القرن التاسع دخلت تلك الدويلات «الأوستمانية» فى حروب عائلية ــ مع بعضها البعض ــ حروب ملوك وملكات أيرلندة (من أبرز شخصيات ذلك العصر بريان بورو). بعد قرنين من الزمان ــ حوالى سنة ١٠٠٠ كان قد تم تهجين الجنسين: الأوستمانى والجالى، تماما عند القمة، وجزئيا عند القاعدة. صارت الفروق بين الأوستمانيين وبين الجاليين كالفروق بين سكان المدن وسكان الريف فى باقى أنحاء العالم. تحول الڤايكنج خلال القرن التاسع إلى انجلترا واستمرت مهاجمتهم لها قرنين من الزمان حتى استقروا فى الأساطير وحكاياتها للوثنيين الأوائل الذين اعترضوا على اعتناق أيسلندة للمسيحية وترجع أصول هؤلاء الوثنيين إلى الشعراء الأوائل من الجنس الآرى الذين استقروا فى أوروبا فى بداية عصر البرونز. تم نظم الأساطير الشعرية خلال قرون، وأشهر أبطال تلك الملاحم نجال (الذى يعرف باللغة الأيرلندية باسم نيول وباللغات النوردية نيلز أو نيلسين وباللغة النورماندية فيتزنيل أو أونيل وبالإنجليزية نلسون وباللاتينية نيجيلس أو نيجل). تظهر تلك الملاحم صفات الشعب الأيسلندى ومميزاته التى لم تتغير لآلاف السنين فى مؤسساته وإبداعاته ولغته. يمتاز الأيسلنديون بكونهم شعبا

محافظا لأشد درجات المحافظة وقد يعود هذا إلى المناخ الشديد الذى لم يسمح لهم بالتكاثر ولا بجذب مزيد من المهاجرين واستمروا شعبا صغيرا، منعزلا، متجانسا، شديد التجانس. أهم محتويات تلك الملاحم هو قصة الكشف الشهيرة عن جرينلاند وعن أمريكا. فى إحدى الرحلات العاصفة وصل إيريك الأحمر بسلام مع أربعة عشر سفينة من الخمس وعشرين إلى جرينلاند، وأسس مستوطنة عام ٩٨٦. وفى عام ١٠٠٠ تمكن ابنه ليف إريكسون من الهبوط على شواطئ كيب كود، ولكنه لم يتمكن من الاستيطان على الشاطئ جنوبا حتى لونج أيلاند. ولكن استمرت التجارة فى الأخشاب حتى عام ١٣٤٧.

بحلول عام ١١٠٠ بلغ عدد من استوطنوا أيسلندة ٥٠ ألفا ومن استوطنوا جرينلاند ٣٠٠٠ ولكن إزدياد برودة الجو وزيادة خطورة الاتصالات البحرية، التى صارت أشد لزوما كانت العامل فى عدم زيادة عدد السكان، حتى أن حكومة الدانمرك فكرت فى القرن السادس عشر فى إجلاء جميع مستوطنى أيسلندة، خاصة بعد أن اندثرت مستعمرة جرينلاند لقرن من الزمان. حدث آخر اتصال بمستوطنى أيسلندة فى عام ١٤٠٨، ولقرن كامل حرم أهالى تلك المستوطنة من الحبوب ومن الحديد واضطروا لصنع أسلحتهم من العظام، وقد وصل زحف الاسكيمو شرقا قادمين من السواحل الشمالية لكندا إلى جرينلاند فى القرن الخامس عشر وتغلبوا على البقية من الأحياء فى جرينلاند.

بحلول القرن العاشر تحول الفايكنج من غزاة إلى مستعمرين، وبدلا من مهاجمة شواطئ أوروبا الشمالية، البدائية والفقيرة، بدأوا فى الهجوم على الأراضى الغنية التى كانت تتبع الدولة الرومانية أو أراضى فرنسا الغنية التى كانت محتلة من الرومان. وصل الساكسون ـ عن طريق البحر ـ واستقروا فى موانئ شمال وغرب بلاد الغال، فى نفس الوقت الذى كان الفرانك يحتلون الأجزاء الداخلية من تلك البلاد الآن ـ بعد انقضاء أربعة قرون ـ توجه الفايكنج إلى داخل البلاد، وبعد خمسين عاما من الغزو المستمر تمكنوا من الاستقرار فى روين وبايو وفى مدن وقرى أخرى. وأخيرا ـ فى عام ٩١٢ ـ اضطر شارل سميل إلى الاعتراف بالغزاة (كما سبق واعترف بهم الفريد العظيم فى انجلترا قبل ثلاثين عاما). تقابل مع رولو ـ قائد الفايكنج ـ الذى بلغ من العمر ٧٠ سنة بالقرب من باريس وعينه خليفة له وعمده وزوجه ابنته جيزيل. كان هذا الصلح بداية خير. استمرت الهجرة ولكن امتنع الغزو المسلح ـ وكان رولو نفسه هو الذى يصد الغزاة. سرعان ما اتخذ أهل الشمال فى روين زوجات فرنسيات وتحدثوا بلسان فرنسى. حقيقة أن الفايكنج قد تغلبوا على نورماندى ولكن أهل الشمال أنفسهم تحولوا إلى نورمانديين.

النورمانديون

تحول أهل الشمال إلى نورمانديين لم يكن بسبب اعتناقهم للمسيحية ـ مثل أهالى أيسلندة ـ بل بالرغم من تحولهم للمسيحية. لم يمنعهم التعميد من تعدد الزوجات ـ شأن كل الطبقات الحاكمة. وقد حدث معهم نفس الذى حدث مع الجبهة المتقدمة للإسلام، فقد كثر إنجابهم وتعدد أبناؤهم. فى القرن العاشر تجلى فى نورماندى اتجاه الهمج غير المتحضرين من تحرك أهل الشمال إلى الجنوب، وتحرك إلى الشمال ذرية أهل الحضارة الرومانية، وتم اختلاط الجنسين معا لأقصى درجة. تزوج أبناء وبنات ملوك النورمان مع بنات وأبناء بيت كابت ـ ملك فرنسا ـ وتفرقت ذريتهم فى جميع أنحاء فرنسا وفلاندرز وبورجاندى، كما تفرقوا فى بلاد الشمال. من هذا الهجين ـ بين أهل الشمال وأبناء فرنسا ـ تكون الجنس الجديد الذى يعرف باسم النورمانديين. هذا الجنس الذى احتفظ بمهارته البحرية واكتسب كذلك مهارة الخيالة ـ راكبى الفرس، وتكونت طائفة جديدة من البشر الذين صاروا فرسان المعارك المسلحين.

لقد زاد الفرس الأوائل ـ بالانتقاء ـ من حجم الحصان ليمتطيه راكب، ثم زُوِّد فى العصر قبل الرومانى بحداوى من الحديد، وزوّد الهنود الفارس عارى القدم بالركاب الذى يتدلى من بردعة الفرس، ثم كساه الرومان بالدروع فى حروبهم الطويلة وأخيرا ـ فى موطن الحصان الأصلى ـ فى أواسط آسيا ـ تمت تغطية الفرس تماما بالدروع الحديدية كما تم تثبيت الحداوى بالمسامير بنعل الفرس. ثم ظهر فرسان العصور الوسطى فى أوروبا ـ يقودهم رجال أحسن تدريبهم فى نورماندى يركبون خيلا أتقن تغطيتها بدروع من الحديد وبدأ ـ فى القرن الحادى عشر ـ استخدام هؤلاء الفرسان فى الحروب الإقطاعية.

الأثر الثانى لتهجين شعوب الشمال مع الفرنسيين هو ظهور رجال ذوى مقدرة كبيرة على الحكم فى نورماندى، رجال ذوى شراسة وعنف، يعتدون برأيهم ـ بعد حساب كافة الأمور والتوقعات ـ ولا يتمتعون بأى خلق حسن ـ شأن الطبقات الحاكمة عند مبدأ ظهورها ـ باستغلال قدرات الآخرين. بدون أن تكون لديهم أفكار مبتكرة كان هؤلاء الرجال مستعدين لاستخدام كافة الأجناس ومختلف طبقات الرجال الذين يبدون الاستعداد لخدمتهم ضاربين عرض الحائط بأى قيم حضارية أو مبادئ دينية. ساعدهم الزمان ومكنهم المكان من اعتلاء مراكزهم. كان ظهورهم عند التقاء عالمى الجنوب والشمال عاملا حاسما فى نجاحهم. مكنهم اللسان الفرنسى والديانة المسيحية من الاتجاه مباشرة إلى العالم الرومانى ـ حيث استقطبوا الرجال ـ رجال العلم والقانون والصناع والفنانون، الذين احتاجوا إليهم لبناء حكوماتهم وإنشاء دولهم.

بدأ النورمانديون بتمكين أنفسهم بالحروب حتى القرن العاشر، ثم تبينوا أن بإمكانهم التوسع فى ملكهم بالزواج ولكن هذا لم يمنعهم من استمرار الحروب والتوسع. أصبحوا سادة جنوب ايطاليا عندما تمكن أربعة من أبناء تانكرد - أحد نبلاء نورماندى - بداية من عام ١٠١٥ باستخدام الفرسان من هزيمة أعدائهم. ثم احتلوا جزيرة صقلية، التى كانت تسكنها أجناس عدة وتدين بديانات مختلفة. كان بجزيرة صقلية أهلها الأصليون من الفلاحين بالإضافة للبيزنطيين (الذين كانوا يدعونهم بالإغريق)، والإيطاليين (الذين كانوا يسمونهم باللومبارديين)، والعرب، وأهل شمال أفريقيا (وكانوا يدعونهم بالساراسينيين)، وكانوا فى صقلية قبل وصول النورمانديين، ولكن وفد إليها آخرون بعد وقوعها فى أيديهم (مثل كثير من التونسيين الذين عملوا فى خدمتهم كقادة لأساطيلهم). أثناء حكم النورمانديين لصقلية لقرنين من الزمان كان الجميع يعيش في سلام وفى محبة ووئام وكان الحكام يشجعون الجميع بلا تفرقة بينهم، وكان عهدهم منارة أخرى بعد عصر الإسلام الذهبى على تلك الجزيرة. من آثار عصر التنوير هذا كنيسة مونريال والمدرسة الطبية بسالرنو. كان النورمانديون يعملون فى نفس الوقت كخدم للبابا أو حلفاء له فى صراعاته الداخلية والخارجية لفرض سلطته. ظلت المملكة النورماندية فى إيطاليا مملكة متعددة الأجناس - مثل الممالك الإسلامية، عاشت الأجناس الخمسة معا فى وئام، ولكن ظل كل جنس مستقلا عن الأجناس الأخرى فى حياته ومعيشته وتزاوجه وظل النورمان جنسا سادسا حاكما يعلو على الجميع وينعزل عنهم جميعا. ولكن تعلم النورمان واكتسبوا أفكارا جديدة من الرجال الذين حكموهم والذين عملوا لديهم ومن النساء اللاتى تزوجوهن، وتبادلوا تلك الأفكار مع بقية الأسر الحاكمة فى أوروبا، وبخاصة مع بنى جنسهم فى نورماندى. كانت دول الشمال حريصة على الحفاوة بمن يقدم إليها من الحرفيين والفنانين والمفكرين، الآتين إليها من أكثر بلاد العالم حضارة فى العالم الغربى، من جنوب إيطاليا ومن صقلية. وكانت تلك البلاد أكثر البلاد تقدما لأنها تتلقى نور العلم والمعرفة من العالم الإسلامى وتنقله بدورها للعالم المسيحى بواسطة رجالها ذوى المقدرة الفائقة على التعلم ونقل المعرفة.

حدث هذا خلال قرنين من الحكم النورماندى، ولكن هذا العصر الذهبى سرعان ما انقضى عندما بدأ التعصب يسود صقلية وجنوب إيطاليا وانتقلت المرونة إلى الشمال. إلى عصرنا الحاضر ما زالت صقلية وجنوب إيطاليا تحمل علامات عصور التنوير التى اكتسبوها من المسلمين ومن سماحة الإسلام. أما ملوك النورمان فى نورماندى فقد صاروا أشد الملوك طغيانا وصار نبلاؤهم أكثر البارونات قسوة فى العصور التالية، وصار عملاؤهم أكثر الأفراد إجراما فى العالم. وهكذا انتعش مجتمع وتحضر عندما تغلغلت فيه مبادئ ومعتقدات وسلوك القوم الذين أتوا إليه مهاجرين ثم صار مجتمعا عقيما عندما فرضت التغيرات فى العالم الخارجى وقف تلك الهجرة.

الجزر البريطانية

الجزر البريطانية تقع بعيدة عن مكان نشأة الحضارة فى العالم حيث بدأت الزراعة وبدأ تحضر الإنسان. السكان الأصليون لتلك الجزر عاشوا منفصلين عن أوروبا منذ عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد بدأ غزو الجزر البريطانية بموجات من الغزاة والمهاجرين والمغامرين منذ عام ٣٠٠٠ ق.م.، وجدوا أراضى تختلف عن أراضيهم وأنواعا مختلفة من التربة والصخور والمعادن والقنوات والمناخ والنبات عما تَعودوا عليه فى أراضيهم. بحثت كل موجه جديدة من المهاجرين عن أفضل أرض تصلح لسكانهم وأنسب ظروف لمعيشتهم، وكان اختيارهم للمكان التى قرروا الاستقرار فيه يعتمد على جنس قبيلة الآتين الجدد. كانت بريطانيا حقلا مفتوحا للاستعمار من مختلف أجناس العالم. ولكن استقر المهاجرون الجدد بجوار بعضهم البعض فى جماعات صغيرة غير متجانسة. وصل القادمون الجدد من سواحل أوروبا القريبة من الجزر البريطانية كما وصلوا من البحر المتوسط. حدث من جراء ذلك كله أن تكونت مجموعات مختلفة من البشر، لكل منها أسلوبها فى الحياة، ثم تهجنت تلك المجموعات مع بعضها البعض ثم صارت مجتمعا مقسما إلى طبقات اجتماعية يتكون من مجموعات منفصلة عن بعضها. فى العصر النيوليثى والعصر البرونزى نشأت مستوطنات الكلت ومعابد الرومان ومقابر الساكسون. عاش الكلت والساكسون بجوار بعضهم البعض فى وئام وسلام لعدة قرون بعد غزوات الساكسون. حدثت هجرة كبيرة للكلت إلى بريتانى نتيجة غزو الأيرلنديين (وليس كما كان يعتقد من قبل نتيجة غزو الساكسون). بحلول القرن السادس الميلادى كان التهجين كاملا مع الساكسون ـ فى كل المستويات ـ وصار الساكسون الطبقة الحاكمة فى الأجزاء الشرقية من البلاد وحلوا محل الحكومة الرومانية البريطانية. صارت اللغة السائدة فى البلاد الآن لغة إنجليزية ساكسونية. أما فى غربى البلاد وشماليها فقد نشأت مدن على مواقع رومانية قديمة. ظلت تلك المدن قائمة ــ وما زالت تحتفظ بأسماء نصف رومانية للآن مثل: كارلايل وإكستر (التى ما زالت تحتفظ بتنظيم كنسى). فيما عدا ذلك استمرت الكنيسة الكلتية واللغة الكلتية وعادات الكلت وتقاليدهم. وهكذا سكن الجزر البريطانية المستوطنون الأوائل (الأنجلو كلت) ثم المستوطنون التاليين لهم (الأنجلوساكسون) وعندما وصل أوجستين للبلاد عام ٥٩٧ ربط البلاد بالكنيسة الرومانية. ظلت حدود طبيعية فى البلاد تقسم البلاد إلى «أبلاند» ذات التربة الخفيفة والمراعى على التلال، و «لولاند» ذات التربة الثقيلة التى أزال الساكسون ما بها ونظفوها وحرثوها. وفى المدن كذلك ظلت هناك أحياء للكلت وللساكسون وللتجار الأجانب. كان السكان من عامة الشعب من الإنجليز والكلت ذوى تقاليد ريفية والحكام من الساكسون الذين لم يتطبعوا بالأخلاق الرومانية ولم يكتسبوا العادات ولا التقاليد الرومانية المتحفزة كما تطبع الفلاحون. وما اكتسبوه منذ مجئ أوجستين فقدوا معظمه بغارات

الفايكنج. لم تحدث هجرة غزيرة من رجال دين قادمين من البحر المتوسط ولم يدخل البلاد صناع وحرفيون وقد انقطع اتصالهم بأوروبا ـ هذا الاتصال الذى كان طريق تدفق المهاجرين المتحضرين ـ الذى أعاد غزو الجزر البريطانية بالفايكنج الجدد الذين تحضروا من تهجنهم ـ النورمان.

فتح وليام إنجلترا كما فتح روبرت صقلية. كان هاذان الفاتحان يعيشان فى نفس العصر ويحاربان بنفس الأسلحة وبنفس الرجال. عندما هزم وليام الفاتح انجلترا أدعى أنه أتى لأنه الوريث الشرعى للعرش وأحاط نفسه بكل المظاهر التى تؤيد هذا الادعاء. تصالح وليا مع مدن لندن وونشتر وبعد قليل مع إكستر. أعطاهم الأمان وسمحوا له ببناء القلاع داخل أسوار مدنهم، تقبل طرائق الساكسون فى التقسيمات الإدارية، كما قبل ألقابهم ووظائفهم. خضع الفلاحون ـ كما يخضعون دائما ـ لكل فاتح. ارتبط وليام بالطبقة الحاكمة وغير كل المجتمع الإنجليزى. كان النظام الجديد يعتمد على ما حدث فى السنوات الخمسة الأولى من حكمه ـ من عام ١٠٦٦ حتى ١٠٧١. قُتِل نصف ملاك الأراضى الإنجليز فى تلك السنوات، إما فى المعارك الحربية أو فى الثورات. لم يستطع الباقون تحمل طريقة حياة الحكام النورمان الجدد: اللغة الفرنسية والتدريب المستمر ليصيروا فرسانا. رحل بعضهم ليخدم ملوكا أجانب فى المجر وفى السويد وفى اسكتلندة وأيرلندة وفى القسطنطينية. وانزلق بعضهم الآخر للطبقة الدنيا ـ طبقة الفلاحين، ليعود منهم بعد حين للصعود لطبقة النبلاء. فى تلك الفترة كان لتأثير النسوة السكسونيات أثر بالغ الأهمية عن الرجال، فهن لم يقتلن فى المعارك ولم يهربن بسهولة من البلاد إلى الخارج. فى الشتاء الأول له فى إنجلترا جلب وليام زوجته لتتوج ملكة فى وستمينستر ولكنه فرض على رجاله البقاء فى انجلترا بدون زوجات نورمانديات ـ وهذا هو الوضع الذى يعقب جميع فتوحات الغزاة. كانت الأراضى التى تركها القتلى ومن غادر البلاد من الرجال فى عهدة الأرامل واليتيمات من النساء. قسم الذكور الفاتحون المحرومون من النساء تلك الأراضى بينهم ونتج عن معاشرتهم ـ سواء بعد الزواج أو بدونه ـ لأولئك النسوة تهجين عظيم للجنسين. كان إخلاص وليم لزوجته مثالا يذكر فى التاريخ ولكن ابنه هنرى ربط بزيجاته البيوت المالكة النورماندية والساكسونية والاسكتلندية وربط نفسه ـ بمعاشراته لجميع الأجناس النورماندية والساكسونية وأهل ويلز ـ وجميع الطبقات فى مملكته، ونشرت ذريته الرباط بين الطبقات الحاكمة التى استولت على الأراضى وصاروا لوردات، وبين المتعلمين ذوى الثقافة والعلم بارتباطاتهم النسائية.

تمكن وليام الفاتح من توزيع جزء كبير من الأراضى فى انجلترا بين أتباعه وصار ـ بتأييد من وزرائه ـ حاكما مطلقا للبلاد وفرض سيطرته الكاملة على الجميع، من الحكام حتى الخدام. تمتعت كل طبقة بحقوقها وحاولت الاحتفاظ بالمميزات التى حصلت عليها فى الماجناكارتا ـ وفيها حق أن

تحاكم كل طبقة برفقائها. كان النظام ـ منذ أن منح شارلمان أراضى لأعوانه ـ أن يرث الأراضى كلها الابن الأكبر ـ ليحافظ عليها ـ وأن يقنع الابن الأصغر بمنصب رجل الدين، وقد وافقت العائلات جميعا على اتباع هذا النظام بدون تعويض يمنح لمن لا يرث. بعد الفتح النورماندى استمر نفس النظام ولكن مع دخول تعديلات عليه. استمرت العزب والأبعاديات الصغيرة تورث كلها للابن الأكبر، ولكن تم تشكيل مجلس من لوردات الأبعاديات الكبيرة «مجلس الملك أو البرلمان». سرعان ما وجد الملك أنه بحاجة لمزيد من النقود بدلا من الجيوش ووجد اللوردات أنه من الأفضل لهم حسن إدارة أملاكهم بدلا من إعداد الرجال المحاربين ـ وكان هذا من آثار إعطاء الأراضى كلها للابن الأكبر ـ وقد نتج عن هذا مسار جديد للتطور فى المجتمع، خاصة فى انجلترا. كان على بقية الأبناء ـ الذين حرموا من اللقب فضلا عن حرمانهم من الإرث ـ أن يشقوا طريقهم بأنفسهم. لو مكثوا فى بلادهم الأصلية فإن طبقات المجتمع ستختلط ببعضها البعض فى كل جيل، ولو هاجروا للخارج فإن الأمم نفسها سيتم اختلاطها. ولعل هذا كان أحد الدوافع وراء حروب النورمانديين والفرنسيين للتوسع فيما تلى ذلك من قرون: حروب الصليبيين، وغزو أيرلندة، وفيما بعد حرب المائة عام. بالإضافة إلى تشجيع الهجرات وتعضيد الانتشار الاجتماعى فقد حدث الصراع بين الملك وبين البارونات كما حدثت اتفاقيات مختلفة لتغطية تدخل الملك فى زيجاتهم وفى نظام الإرث. وقد كان لهذه الاتفاقيات أثر ثانوى فى تعريف الأوضاع وفى حراك الطبقات الاجتماعية فى إنجلترا خلال العصور الوسطى. لم يكن الملك يمانع فى إلقاء الظل على الفروق بين الطبقات طالما بقى وضعه كما كان بدون تغيير. كذلك نجح البارونات فى الابتعاد عن تلك التغيرات: كانت لهم قوانينهم الخاصة وظلوا يحاكمون بأقرانهم واحتفظوا بأراضيهم وكان لهم نظامهم الخاص فى الزواج واحتفظوا بحرياتهم ومن بينها حقهم فى ضبط أفعال خدامهم والسيطرة عليها. كانت تلك الحقوق التى منحها البارونات لأنفسهم حقوقا وفيرة وكل حين وآخر تدخل الملك من فوقهم وعامة الشعب من تحتهم للحد من تلك الامتيازات. كان يحدث اختلاط فى البيوت المالكة كما يحدث اختلاط فى عامة الشعب ـ أما مجتمع البارونات فقد اقتصر على التوالد الداخلى وتزايد هذا التوالد الداخلى جيلا بعد جيل، وكان فناء خط الذكور لدى العائلات يدفع لزواج الوارثة للورد طموح وأدى ذلك إلى اتساع متزايد من ملكية الأراضى وإلى انخفاض عدد اللوردات بالتدريج، اللوردات الذين لم يتقنوا شيئا سوى فن الحروب. وقد أدى ذلك فى النهاية إلى حرب بعضهم بعضا حتى دمروا أنفسهم ولم تكن البلاد باكية على فنائهم.

كان الأثر المباشر للغزو النورماندى هو هروب عدد كبير من اللاجئين الساكسون إلى بلاط ملك اسكتلندة. تزوجت الأميرة السكسونية مارجريت بالملك وصارت ملكة للبلاد، تدير شئونها وتسيطر عليها. أدخلت اللغة الإنجليزية إلى البلاط الملكى ثم إلى فئة الكهنوت. انجبت ستة من الأولاد، وصل

ثلاثة منهم إلى العرش، ولكن لم تسمح لأى منهم أن يحمل اسما كلتيا. عندما تولى ابنها ادجار العرش عام ١١٠٧ نقل عاصمته من دمفيرلاين الكلتية إلى إدنبرة الإنجليزية. في ذلك الوقت كانت أخته ملكة على انجلترا. وهكذا تحولت اسكتلندة بالتدريج إلى العادات والتقاليد والثقافة الإنجليزية. أدخلت إلى اسكتلندة الكنيسة الرومانية واللغة الإنجليزية والنظام الإنجليزى النورماندى فى إدارة البلاد، كما دخل نظام الفرسان النورماندى الإقطاعى، على مبدأ تقديم الخدمات العسكرية للملك مقابل تملك الأراضى. استطاعت أسر أنجلو نورماندية أن تزرع نفسها وتصير رئيسة لقبائل اسكتلندية فى هايلاندز (مثل أسرة سنكلير) أو فى لولاندز وتصير من نبلاء اسكتلندة وترتبط بالبيت المالك (مثل أسر بروس وباليول وكومين).

بينما كانت هذه التغيرات تجرى فى اسكتلندة كانت الحدود بين انجلترا واسكتلندة تتذبذب جيئة ورواحا مع تغير القوى وتبدل الاهتمامات واختلاف فرص الزواج التى اتيحت للوارثات الإقطاعيات ومع الثورات الداخلية. حدث تغيرات مشابهة فى الحدود بين انجلترا وويلز. فى ويلز انقسم الأفراد إلى أولئك الذين ظلوا مبتعدين وبين هؤلاء الذين تزاوجوا مع الساكسون ومع النورمانديين وفيما بعد مع الطبقات الإنجليزية الحاكمة، وبالتدريج تغلغل الإنجليز فى ويلز ودخلت اللغة الإنجليزية للبلاد وتم التزاوج بين الإنجليز وأهل ويلز ودخل أهالى ويلز لانجلترا مع ماشيتهم التى كانت تسعى وراء المراعى وفيما بعد دخلوا قاصدين أماكن دباغة الجلود فى نورثامبتون. من هذا التهجين القوى كثير الإنجاب نشأ عدد كبير من ارستقراطى العصور الوسطى ومن أهالى انجلترا حتى العصر الحديث. بعد مائة سنة – أو ثلاثة أجيال – من فتح انجلترا، قاد نورماندى آخر – ريتشارد دى كلير – جيوشه وغزا أيرلندة وكون مستعمرة صغيرة، بقيت آثارها معنا إلى العصر الحاضر.

الصليبيون

لم يقلل تغلغل الفايكنج وذريتهم فى جميع أنحاء أوروبا بنهاية القرن الحادى عشر من شراستهم ولم تلن قنواتهم وظلوا مقاتلين يسعون للحكم حتى بعد توالدهم مع الأوروبيين. فى هذا الزمن كانوا يستعدون دائما لشن الغارات وإشعال الحروب والقيام بالثورات. فى ذلك العصر بلغت البابوية أوج سطوتها فى عهد هيلدبراند. عندما خاطب البابا مجلسه فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ كانت أفكاره تتعدى زمانه وسلطته. كان يفكر كفرنسى. جمع لمجلسه هذا ٢٥٠ أسقفا من أساقفة الكنيسة الكاثوليكية وجمع أيضا عددا كبيرا من نبلاء فرنسا. دعا البابا المسيحيين ليكفوا عن قتال بعضهم البعض ويحملوا الصليب فى أيديهم ويقسموا أن يحملوا السلاح فى وجه أعداءينهم من العرب

والترك، وأن يحرروا الأراضى المقدسة من أيدى أعدائهم ويتيحوها مفتوحة للحجاج المسيحيين. وعد البابا كذلك المقاتلين أنهم إذا فقدوا حياتهم فى تلك المهمة المقدسة فسينالهم ـ ببركته ـ العفو عن جميع خطاياهم وتتطهر قلوبهم، أما أولئك الذين سيخرجون من القتال سالمين فوعدهم بامتلاك الأراضى التى يتملكها أمراء المسلمين، وهى أراضى أشد خصوبة من أراضيهم وأكثر عائدا من ممتلكاتهم.

تحركت أعداد كبيرة من الإقطاعيين فى أوروبا بعد هذا النداء. تحرك ملوك وملكات وبارونات وزوجاتهم. تحرك فرسان ورجال مقاتلون وأبطال وقطاع طرق. بعض من تحرك كان لا يملك شروى نقير وبعض من تحرك كان ثريا واسع الثراء، من أغنى الوارثين الذين أهدوا الكنيسة عطايا وافرة واكتسبوا رضاها عنهم. تم اختيار هؤلاء بناء على مقدرتهم القتالية أو قدراتهم المادية وإيمانهم بالحرب. كانت سنة ١٠٩٥ هى سنة الذروة للبابوية ولجميع المحاربين الذين سموا بالفرنجة (ولو أن غالبيتهم كانت من جنس هجين من النورمانديين والفايكنج). كانوا رجالا مؤمنين أشد الإيمان بالقتل بعد اعتناقهم الحديث للمسيحية التى اعتبروها دينا يدعو إلى الحرب. تم تنظيم الرجال فى حملات، أو كانوا مرتبطين بإقطاعيين، أو كانوا شراذم من الهمج بدون أى نظام أو رابط. سار بعضهم برا إلى القسطنطينية وأبحر الآخرون من مرسيليا أو البندقية أو بالرمو. هاجموا أولا العرب والأتراك فى فلسطين وسوريا ومصر، ولكنهم انحرفوا جانبا لسلب أهداف أكثر يسرا وأوفر غنى، وشملت تلك الأهداف مدنا أو قرى مسيحية. كونوا ممالك إقطاعية تحت حكم ملوك أو بارونات وتحالفوا مع فرق من الفرسان التى مولها المسيحيون المؤمنون. من أشهر فرق الفرسان هذه فرقة «الاسبتالية» وفرقة «فرسان المعبد»، التى أقسم فرسانها على العزوبية والخدمة وباركها البابا وخصص لها هبات إجبارية من جميع الكنائس المسيحية فى الغرب. استقطبت الكنيسة الأبناء الأصغر للإقطاعيين وبهذا زادت قوتها وعظم شأنها وصارت سلاحا قويا فى يد الكنيسة وأصبحت العمود الفقرى للحملات الصليبية.

أخفت تلك الحركة الكبرى تحت ردائها مصالح مجموعات متباينة من القوى. أولها كانت الكنيسة. فمنذ نادى البابا نداءه استغلت الكنيسة هذه الحركة لمد نفوذها. صحب كل حملة أبلغ الفصحاء المأخوذين، كما كان يصحبها الأساقفة والقساوسة الذين كانوا يشجعون الرجال والمقاتلين وينصحونهم ويستولون على نصيبهم من الأراضى والممتلكات.

ثانى تلك الفئات كانت الرجال المقاتلون ومصالحهم، وكان الفرسان هم رأس الحربة للمقاتلين. وكان الفرسان من صميم الطبقات الحاكمة فى فرنسا ـ من الجيش الهجين من الفرنسيين

والنورمان، ومن ذيوله فى صقلية وإسبانيا وغيرها، رجال وهبوا أنفسهم للقتال بهدف القتال فحسب. معظمهم كانوا من صغار السن، الأبناء الأصغر للإقطاعيين، وكثيرون منهم كانوا بلا أرض يمتلكونها، وكانوا مشاغبين ومثيرين للمتاعب، حققوا بسفرهم هذا السكينة والهدوء لأخواتهم الكبار ولجيرانهم ولمن كانوا يستخدمونهم، ورحبوا بابتعادهم عنهم. رحب الرجال المقاتلون بالذهاب للحصول على أراضى يمتكلونها وأسلاب يغتنمونها، سواء حصلوا على منيتهم بالحرب أو السلب أو الزواج من وريثات من يتوفون. كان هناك أيضا قلائل من الرجال المثقفين والمتحضرين: وبارونات وفرسان نظروا إلى مهمتهم كخدمة لله يؤدونها فى سبيل إخوانهم من البشر.

كان النجاح ساحقا لنداء البابا وتبعه تدفق الرجال من الغرب إلى الشرق لقرنين من الزمان، رجال شديدو الاختلاف ومتباينو المطامع، يسعون للثراء بعد تقلص الأراضى التى يستطيعون تملكها فى غرب أوروبا وتزايد عدد سكانها فيها خاصة فى شمال فرنسا وفى فلاندرز فى القرون الثلاثة السابقة التى أعقبت عصر شارلمان. وضح تماما نجاح رجال الدين المسيحيين وفرسان الشمال، الذين تغلغلت نشاطاتهم، وكيف تحالفت هاتان الجماعتان المختلفتان عرقيا وثقافيا، فى المجتمع الإقطاعى.

كلما مضى الزمن ازداد التعاون والتناطح بين هاتين الفئتين وضاع الإخلاص والبعد عن الهدف. زادتهم القوة والأمان غرورا ورفاهية. فى الحملة الصليبية الرابعة استطاع حاكم البندقية أنريكودانولو أن يشعل حمية المقاتلين الآتين من الشمال ويوجهها لأهداف جمهوريته التجارية ـ رغم كونه رجلا مسنا كفيفا. أوقد هذا الرجل فى نفوس المقاتلين هدف استرداد القسطنطينية ـ المدينة المسيحية العريقة، وبهذا جمع بين أهداف الكنيسة والمقاتلين والحكام والتجار ومصالح الجميع المختلفة بصبغة تبدو وكأنها صبغة دينية.

تأسست إمارات للفرنج وللاتين سنة ١٠٩٦ على الساحل الممتد من غزة إلى الخليج ومن بيت المقدس إلى أنطاكية وما وراءها. استمرت هذه الإمارات حتى سقوط عكا فى ١٨ مايو ١٢٩١. أضاف ريتشارد قلب الأسد لتلك الممتلكات جزيرة قبرص ـ التى استولى عليها من الإغريق عام ١١٩٠. كانت تلك الإمارات تتقلص تدريجيا بعد امتلاكها، وكانت حكوماتها حكومات إقطاعية، وعينوا لهم ملكا ـ ملك أورشليم ـ شقيق جود فرى من بويون. طلب البارونات بأن يكون لهم حق انتخاب الملك، ولكن كانت نسبة الوفيات مرتفعة للغاية بين أبناء المحاربين ولذا كانت من ترث العرش ثمانية مرات فى ثمانية أجيال ابنة الملك وكان من يتولى الملك زوجها. فى إحدى تلك المرات تزوجت ابنة الملك من أربعة أزواج على التوالى، وخلف أحدهم الآخر تباعا بعد موته، وكان من يختارونه للزواج من وريثة الملك واحدا منهم، عالمين بأنه سيصير غالبا ملك المستقبل.

بنى هؤلاء الرجال، ومعهم الفرسان الاسبتالية وفرسان المعبد، على مدى قرنين من الزمان قلاعا عظيمة فى سوريا وفى فلسطين، وما زالت تلك القلاع قائمة إلى عهدنا هذا وتشهد تلك القلاع بقوة المقاتلين، وبراعة المهندسين الذين شيدوها، وغالبيتهم من الإيطاليين الذين استخدموا لهذا الغرض. تشير وثائق العصر عن طبيعة حياة مجتمع الفرنجة وإلى العوامل التى حكمت سلوكهم على مدى تلك الأجيال. كان الغزاة المنتصرون على دراية بالتخلص من نظام عسكرى حاكم فى بلادهم والجلوس مكانه ولكنهم واجهوا فى سوريا ظروفا شديدة الصعوبة عليهم. كان الشعب فى معظمه من المتحدثين بالعربية ومن المسلمين ولكن كان هناك قلة من اليهود وقلة من طوائف مسيحية شتى: الأرثوذكس والأرمن واليعقوبيون والموارنة التى كان الصليبيون يظنون أنهم من أصدقائهم. بعد قليل تبين الصليبيون أن نظام الحكم الوحيد الصالح فى تلك البلاد هو النظام الإسلامى فاتبعوه، كما تبين الغزاة العرب من قبلهم. كانوا يحتاجون للطعام والفلاحون هم منتجوه، فتركوا الأراضى فى أيدى الفلاحين سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين. تركت الإدارات المحلية فى أيدى سكان البلاد، وكانت غالبيتها فى أيدى المسلمين. وتمت معاملة كل فرد أو كل مجموعة حسب قيمته أو بحسب أهميته بالنسبة للحكام الجدد بغض النظر عن ديانته. كان المترجم من وإلى اللغة العربية لا غناء عنه كما كان وضع الطبيب السورى. كانوا يحترمونهم ويجلونهم ويثقون فيهم. كانت الأقليات المسيحية غالبا بلا وزن وكانوا يعاملونهم أسوأ من معاملتهم لأقرانهم من المسلمين. حولوا المساجد إلى كنائس ولكن ظل المسلمون يؤدون فيها صلواتهم. وهكذا اتضح أن الصراع كان بين فئتين من المحاربين وفريقين من الفرسان، الفرنجة والمسلمين. ظل رؤساء الفريقين منفصلين (ولو أن ريتشارد قلب الأسد قدم شقيقته لصلاح الدين) ولم يتزوجا. سرعان ما دبت الفرقة فى صفوف الفرنجة، كانوا متحدين فى الدين ولكنهم كانوا مختلفين عن بعضهم البعض فى كل شأن آخر منذ البداية. كانت لغاتهم مختلفة وطباعهم مختلفة وعاداتهم مختلفة. تزايدت فرقة الفرنجة بمرور الزمن كلما زاد ثراؤهم وكلما ابتعدوا عن الهدف «النبيل» الذى أتوا لتحقيقه فى أول الأمر. زاد التفرق بينهم أيضا مع تصاعد الأخطار حولهم من المغول الزاحفين من الشرق ومن المماليك الآتين لهم من الجنوب. وعندما أتت المصيبة فى النهاية بانتصارات المماليك عليهم وعلى المغول كان الوقت قد فات ليتحالفوا مع المغول.

كان المسلمون ــ على النقيض ــ متحدين بلسانهم العربى ولكنهم كانوا يختلفون تماما، وكانوا منقسمين إلى فرق ترعى مصالح أمير حلب وأخرى تحافظ على متطلبات أمير دمشق وثالثة تساند حاكم القاهرة. وكان يفت فى عضد المسلمين اغتيالات طائفة الحشاشين الشيعة ــ الذين كانوا

مستقرين فى القاهرة ـ منذ الحملة الصليبية الأولى تحت رعاية الفرس ثم وجدوا لهم موطنا قدم فى جبال سوريا الوسطى واغتالوا كثيرا من زعماء المسلمين يفوق فى عددهم من اغتالوا من زعماء المسيحيين. وحد صلاح الدين الأيوبى الفرق المسلمة تحت قيادته وأنهى الحكم الفاطمى الشيعى فى مصر. ومن بعده استمر مسلمو مصر والشام متحدين تحت قيادة المماليك، تلك الفرق المقاتلة التركمانية الأصل الذين استخدمهم خلفاء صلاح الدين فى الحكم. كان انضباطهم الشديد ووحدة جيشهم ما مكنهم بقيادة بيبرس ومع تبعه فى إنهاء فترة الحكم الصليبى بعد ٤٠ عاما وطرد المسيحيين تماما من فلسطين عام ١٢٥٠.

حدث فى القرنين اللذين حكم فيها المسيحيون جزءا من بلاد الإسلام أمرا ثوريا فى البلاد. مخالفا لما كان يحدث طوال الخمسة قرون السابقة بين المسيحية والإسلام بدأ أفراد من المقاتلين المسلمين يعملون لدى الحكام المسيحيين لحاجتهم للعمل، الذى وجدوه لدى السادة المسيحيين وتحولوا للمسيحية. كان هؤلاء أصلا من المرتزقة الترك ـ أصل المماليك ـ الذين دخلوا الإسلام عن طريق الخلفاء العباسيين ويعرفون باسم التوركوبل. عندما أسرهم صلاح الدين قتلهم كمرتدين عن الإسلام.

حدثت الردة بين مختلف طوائف المسلمين ـ باستثناء الطبقة الحاكمة. حدثت بين المثقفين والحرفيين والملاحين والفلاحين ـ وخاصة بين النساء اللواتى تزوجن بالتجار أو بالجنود المسيحيين. تحول هؤلاء إلى المسيحية بمجرد تعميدهم. بعد ذلك تحولوا إلى العالم المسيحى. يتحركون ويهاجرون ويتزوجون من المسيحيين فى أوروبا واندمجوا تماما فى المجتمعات الأوروبية. هؤلاء هم الأفراد الذين أدخلوا الفنون الشرقية والتعليم الشرقى وثقافة الشرق وعلومه إلى أوروبا والذين أدخلوا الجنس الشرقى إلى أوروبا اللاتينية.

عندما نتحدث عن التوازن فى حركة الأجناس خلال الحملات الصليبية نتبين أن ما يزيد عن نصف مليون مسيحى استقروا فى الشرق ـ خاصة فى الشام. وتحرك عدد مقارب من هذا من الشرق إلى الغرب، ولكن من تحرك من الشرقيين غربيا كان لهم أكبر الأثر فى تحضر أوروبا. معظم المهاجرين للغرب كانوا من تهجنوا مع الأوروبيين، ولكن هاجر آخرون ممن تبينوا أن الفرص المتاحة لهم فى أوروبا أفضل لهم لإظهار مواهبهم من بقائهم فى آسيا. مهما اختلفت الأسباب وتعددت فإن تلك الموجة الجديدة من الهجرة تمثل حلقة فى السلسلة الأزلية ـ التى امتدت لأربعة آلاف سنة ـ من إثراء أوروبا بالدم الشرقى المتحضر. أعقب تلك الموجة الأخيرة من الهجرة دخول صناعات حديثة لأوروبا ـ خاصة إلى إيطاليا، مثل صناعة الزجاج التى ازدهرت فى البندقية، ومثل دخول التعليم

وافتتاح المدارس الراقية ـ خاصة المدارس الطبية ـ إلى سالرنو وبيزا وبولونيا. بدأ تدفق الفكر إلى أوروبا عن طريق تلك المدارس وعن طريق صقلية. بدأ التنوير يدخل إلى الكنائس المسيحية وإلى الجامعات المسيحية ودخلت مهارة الشرق وتعليمه ودخل فكر المسلمين الراقى من الشرق إلى الغرب. هناك مثل فريد لانتقال تقنية شرقية إلى الغرب. عرف الصليبيون طواحين الهواء لأول مرة عام ١١٩٠ عند حصار عكا، ثم نقل فرسان الاسبتالية تلك التقنية إلى رودوس ثم انتقلت إلى أوروبا، وظلت لمدة ثلاث قرون أساس تقدم المهارات والعلوم الهندسية فى أوروبا حتى ازدهرت فى عصر الثورة العلمية. ولعل هذا المثل البسيط يؤكد أن للشرق نصيبا هاما فى الحضارة الغربية التى ينعم بها العالم الآن.

يعلم حكام العالم الغربى ـ سواء كانوا قادة الكنيسة أو حكام الدول ـ كيف استفاد الصليبيون من احتكاكهم بالشرق وكيف تعلموا واستناروا، ثم نقل قادة الغرب ثمرة هذا التنوير لمجتمعاتهم، كما استفادوا من الحملات الصليبية لتحقيق أهداف أخرى. أول من استغل الصليبيين كانوا حكام البندقية فقد وجهوهم نحو الإمبراطورية البيزنطية لبناء إمبراطوريتهم مما تخلف عن الإمبراطورية الرومانية الشرقية. فى نفس الوقت استغل الهوهنستاوفن ـ الذين صاروا أباطرة ـ مثل الصليبيين وسعوا لتوسيع ملكهم. ففى الحملة الصليبية الثالثة دعموا إنشاء فرقة الفرسان التيوتونيين التى (تقتصر على الحديث باللغة الألمانية). بعد عودة تلك الفرقة من الأراضى المقدسة حولوها لقتال الصقالبة الوثنيين على حدودهم. كان الألمان يتقدمون حثيثا إلى الجنوب بعد قطع أشجار الغابات ولم يكونوا بحاجة لخدمات الفرسان، أما فى الشمال فقد اخترقوا أراضى الاستبس وسيطروا على المزارعين الواندال واحتلوا المدن البولندية. أنشأوا دولة بروسيا العسكرية ثم احتلوا إمارات بحر البلطيق. نشأت هناك طبقة من الحكام، اليونكر وبارونات البلطيق، الذين امتازوا بالشراسة والعسكرية الشديدة كحكام أيرلندة النورمانديين.

كذلك نشط ملوك الأسبان، الذين شجعهم بابا روما على مهاجمة القوى المسلمة فى شبه الجزيرة. نجح أمراء البرتغال سريعا فى إنهاء الحكم الإسلامى بمساعدة أسطول بريطانى فلمنكى كان فى طريقه إلى الشام حاملا مقاتلين صليبيين، احتل المهاجمون ميناء لشبونة وحرروها من الحكم الإسلامى، وبدأت دولة البرتغال فى التاريخ. كانت دولة مسيحية، يحكمها طبقة حاكمة من شمال أوروبا وبها بحارة وتجار من الشمال ويرجع الفضل لهؤلاء ـ مع طائفة من الإيطاليين وسكان جزيرة مايوركا، بمعاونة ملاحين ورسامى خرائط من المسلمين واليهود ـ فى الإبحار فى محيطات العالم وتحقيق الكشوفات الجغرافية العظيمة وفتح العالم الجديد لأوروبا بعد حوالى ثلاثمائة عام.

يوضح الجدول رقم (١٩) تتابع الحملات الصليبية.

جدول (١٩)

الحملات الصليبية واتصال أوروبا بالمسلمين فى العصور الوسطى

الحملة الصليبية	السنة	
	١٠٥٨ – ١٠٩٠	استيلاء النورمان على صقلية من المسلمين بعد احتلال دام ٢٠٠ سنة.
	١٠٧٢ – ١١٠٩	استرداد طليطلة وفالينسيا من المسلمين فى شبه جزيرة أيبريا.
	١٠٧٣ – ١٠٨٥	تربع هيلدبراند على عرش البابوية باسم جريجورى السابع.
	١٠٨٠	أنشأ مستشفى القديس يوحنا ببيت المقدس
	١١١٨	بداية تكوين فرق الفرسان.
	١١٢٨	تكوين فرقة فرسان المعبد.
الحملة الصليبية الأولى	١٠٩٦ – ١٠٩٩	فى عهد البابا أوربان الثانى. جودفرى من بويون يصير ملكا على بيت المقدس وتتكون إمارات صليبية فى طرابلس وأنطاكية وأديسا.
	١١٠٠ – ١١٠١	يتم صد اسطفان من بولوا فى الأناضول.
	١١٢٣ – ١١٢٤	البنادقة يستقرون فى صور
	١١٤٤	زنكى – أتابك الموصل – يسترد اديسا
الحملة الصليبية الثانية	١١٤٧ – ١١٤٩	فى عهد البابا بوجنيوس الثانى كونراد الثالث ولويس السابع يُصدان عن دمشق أسطول الصليبيين يستولى على لشبونة. القوات الألمانية الشمالية تهاجم الوندال الوثنيين.

	١١٨٧	صلاح الدين الأيوبى حاكما على الموصل ثم سلطانا على مصر ١١٦٩ – ١١٩٣ يهزم الفرنجة هزيمة نكراء فى موقعة حطين ويسترد بيت المقدس.
الحملة الصليبية الثالثة	١١٨٩ – ١١٩٢	ريتشارد قلب الأسد يستولى على قبرص من الإغريق ومعه فيليب أغسطس وفردريك الأول يعيدون الاستيلاء على عكا. خلال حصار عكا تتكون فرقة الفرسان النيوتونية ويعرفون طواحين الهواء. يقترح ريتشارد على شقيق صلاح الدين أن يتحول إلى المسيحية ويعرض عليه أن يتزوج شقيقته.
الحملة الصليبية الرابعة	١٢٠٢ – ١٢٠٤ ١٢١٢	فى عهد البابا الطاهر الثالث تحالف بين الألمان والبنادقة يهاجم القسطنطينية ويستولى عليها، ويصير بولدوين أول إمبراطور لاتينى على بيزنطة. النخاسون يختطفون أطفالا يعدون ليكونوا من المقاتلين الصليبيين بالقرب من مرسيليا ويبيعونهم إلى مصر.
الحملة الصليبية الخامسة	١٢١٨ – ١٢٢١	الملك يوحنا ملك القدس – بتوجيه من البابا – يستولى على دمياط بمصر ثم يفقدها.
الحملة الصليبية السادسة	١٢٢٨ – ١٢٢٩	فى عهد البابا جريجورى التاسع فردريك الثانى الملحد والمطرود من الكنيسة يصير إمبراطورا وبزواجه من ملكة بيت المقدس يسترد البركة ويعقد معاهدة صلح مع شقيق صلاح الدين.

	١٢٤٤	بيبرس ــ المملوك المصرى ــ يهزم المسيحيين فى غزة ويستولى على بيت المقدس.
الحملة الصليبية السابعة	١٢٤٨ – ١٢٥٤ ١٢٦٠ – ١٢٦٨	أسر سان لويس الفرنسى أثناء زحفه إلى القاهرة. بيبرس يدمر الإمارات الشمالية.
الحملة الصليبية الثامنة	١٢٧٠ – ١٢٧٢	فى عهد البابا جريجورى العاشر. سان لويس وشارل من أنجو يهاجمان تونس فشل إداورد الإنجليزى فى التقدم من عكا.
	١٢٧٤	فشل مشروع حملة مشتركة لمهاجمة البلدان الإسلامية الشرقية والغربية معا.
	١٢٩١	خليل، مملوك السلطان يستولى على عكا، آخر القلاع المسيحية فى الشرق.
تولى البابا كليمنت الخامس عرش البابوية عام ١٣٠٥		
	١٣٠٩	استيلاء الفرسان الاسبتالية على جزيرة رودس واحتلالها.
	١٥٢٣	الانسحاب من رودس واحتلال حزيرة مالطا حتى عام ١٧٩٩.
يتم القضاء على فرسان المعبد عام ١٣١٠ بواسطة فيليب الفرنسى		

يبدأ انتشار الطاعون فى أوروبا منذ عام ١٣٤٨، آتيا بواسطة الفار الأسود من الصين إلى مكة ثم يحمله الحجاج المسلمون إلى فلسطين ومنها تحمله السفن التجارية إلى إيطاليا ثم يستقر لسنوات طويلة فى أوروبا، وينهى الموت الأسود هذا عصر اتصال أوروبا الوثيق ببلدان البحر الأبيض المتوسط.

يتم طرد المسلمين من غرناطة عام ١٤٩٢ وبهذا ينتهى فترة طويلة من حكم المسلمين المزدهر الذى استمر لثمانية قرون لشبه جزيرة أيبيريا.

بعد قرن من الزمان بدعت الكنيسة مبدعا خبيثا جديدا، على نمط الحملات الصليبية، بالتعاون مع نبلاء الفرنجة والنورمان، لتوجيه المقاتلين الصليبيين ضد أعداء الكنيسة فى داخل العالم المسيحى، واستغلوهم لتدمير المنشقين كما سيتضح فى الفصول القادمة.

أيرلندة

بينما كانت غالبية قواد النورمان مشغولة بمغامرات الصليبيين فى الشرق، شغلت جماعة صغيرة من النورمان فى ويلز نفسها بالإعداد لعملية صغيرة بعيدة عن هدف دينى عملت هذه المجموعة الصغيرة على فتح أيرلندة والاستيلاء عليها واستيطانها. تجمعت القوات النورماندية عام ١١٧٠ فى بعبروك لعملية الغزو وكان عددها صغيرا: ١٠٠٠ مقاتل فلمنكى، ٣٠٠ من رماة الرمح والقوس من أهالى ويلز ومائة من الفرسان. كانت القوة صغيرة فى عددها ولكنها قوية فى عدتها، وكانوا رجالا ذوى مقدرة وبسالة. استطاعوا هزيمة إخوانهم من الفايكنج وأهالى أيرلندة لابسى قمصان الكتان.

احتل الغزاة دبلن سريعا وهزموا لينتستر. ثم تزوج قائدهم من ابنة الملك المخلوع وتهيأ لهم أن بمقدرتهم الآن حكم البلاد. ولكن عاقهم عن تحقيق هدفهم هذا ملك انجلترا، واعترض سبيلهم النظام الجديد فى أوروبا الإقطاعية التى يتحكم فيها البابا. مضى الزمان الذى يستطيع فيه أى صاحب قوة من أن ينتصر ويستولى على البلاد. كان الغزاة يعتقدون أن بإمكانهم احتلال جزيرة أيرلندة كما سبق واحتل إخوان لهم جزيرة صقلية أو كما احتل أسلافهم من قبل جزيرة أيرلندة. كون الفايكنج من الأجناس الأخرى الطبقات الحاكمة فى كثير من بلدان أوروبا. ولكن المجتمعات قد تغيرت وصارت أكثر ثقافة وبدأ رجال القانون والمثقفون فيها يتولون أمور الحكم ويشاركون العسكرين فى إدارة شئون البلاد. فى ذلك الوقت كان ملك انجلترا الحاكم الأقوى فى كل البلدان الأوروبية، ولكن البابا عهد إلى أدريان الرابع الإنجليزى بتنظيم شئون كنيسة أيرلندة. قرر الملك أن يتحمل وحده هذا الأمر بدون أن يعهد لأحد من البارونات بمساعدته أو يوكل لأى منهم معونته، خوفا من أن يستقل أحدهم بتلك الجزيرة المجاورة لجزيرته. توجه هنرى إلى جزيرة أيرلندة فى أكتوبر ١١٧١ وبقى بها ستة أشهر وضمن أن يعهد لملوك انجلترا بولاية أيرلندة. ولكن هنرى أوقد بهذا نارا ظل أوارها مشتعلا لمدة ٧٥٠ سنة. كان هنرى يدرى بالصراع الذى بدأ ينشب فى انجلترا بين النبلاء واللوردات وبين الملك ورأى أن هذا الصراع سينقل عبر البحر إلى أيرلندة، البعيدة عن مقر الحكم، ولن يستطيع احتواءه كما يحتوى الصراع فى انجلترا فرأى أن يذهب بنفسه إلى أيرلندة. ولكن أضيف إلى عوامل الصراع صراع آخر أشد هما وأعمق أثرا ـ هو الصراع بين طبيعة الإنجليز والأيرلنديين.

ما زال الخلاف قائما بين أهل البلاد الأصليين المتحدثين باللغة الغالية وبين الغزاة الأنجلوساكسون المتحدثين بالإنجليزية بعد فوات عشرين جيلا من التهجين المحدود. الإنجليز هادئوا الطبع، يعملون بلا كلال، ذوى عقول رياضية وقدرات ميكانيكية، جبارون ولديهم خصائص تصلح لمن سيتولى الأمر. أما أهل البلاد الأصليون فهم ذوى خيال واسع ولا يمكن التنبؤ بردود أفعالهم ولا يحملون المسئولية ولم يتخلصوا من لسانهم القديم من القرن التاسع بعد الميلاد، وما زالوا يحملون غرائزهم العتيقة بدون تهذيب، يعشقون جميعا الصيد والقنص وصيد السمك وضرب النار. يبجل الجميع أيضا أسلافهم من الشعراء والقصاصين ورواة الملاحم ويفضلونها عن أقوال الكنيسة وتعاليمها. وقد ظلت مواهب الأيرلنديين الأدبية تظهر فى شعرائهم وكتابهم وأدبائهم على مر العصور. هؤلاء هم القوم الذين عشقوا أرضهم حتى ولو كانت درايتهم بزراعتها أقل من دراية الغزاة. إذا أضفنا إلى تلك الفروق الجينية، التناقض بين لغتهما وبين النظام القَبلّى والنظام الإقطاعى للجميع واختلافهما فى تحمل المسئولية وفى عادتهم فى الإرث يتضح أنه لا يجمع بينهما إلا حب القتال. كان هناك حلا واحدا وعلاجا وحيدا وهو التزاوج، وهذا هو الحل الذى اتبعوه. وبالتدريج التحم الجنسان ببطء، ولكن نظرا لغلبة تعداد الأيرلنديين كانت نتيجة تهجين الجنسين هو التقلص المستمر المطرد لأعداد الإنجليز الخُلّص، واستقروا فى المدن، بينما ازداد تدريجيا عدد الأيرلنديين الخُلّص، خاصة فى الريف مع زيادة كبيرة للمهجنين ـ مع غلبة الدم الأيرلندى فيهم ـ فى كل مكان. فى عام ١٣٦٦ صورت قوانين كيلكنى التى تقضى بوقف الزواج المختلط بين الإنجليز والأيرلنديين، كما ـ تقضى بوقف العمل بجميع القوانين الأيرلندية ووقف الحفاوة بالشعراء أو القصاصين الأيرلنديين ووقف التحدث باللغة الأيرلندية ومنع التسمى بالأسماء الأيرلندية ـ حتى الخدم. كذلك منع بيع الأسلحة وخيول الحرب للأيرلنديين. خصصت منطقة خاصة ـ تبلغ ثلث مساحة الجزيرة للإنجليز. هكذا بدأت الحروب بين الإنجليز والأيرلنديين، رغم إيقاف العمل بتلك القوانين ـ التى استمرت سارية لمدة قرنين، عندما أوقفتها الملكة اليزابيث الأولى (التى تنحدر من أصول أيرلندية). رغم تلك القوانين استمرت الأخلاق الأيرلندية فى الانتشار كما استمرت اللغة الأيرلندية، وتوسع المجتمع الأيرلندى وتزايد الجنس الأيرلندى. بقى المزارعون ـ الذين لا غناء عنهم لفلاحة الأرض ـ أيرلنديون بالكامل ولم يختلطوا بتاتا بذوى الأصل الإنجليزى أو النورماندى (ولم يكتسبوا منهم أى شئ مفيد حتى أسلوبهم فى تصنيع الجبن). لم يستطع المهجنون ـ وهم غالبية ـ أن يناقضوا أنفسهم ويتجهوا ضد الأيرلنديين ـ ونصف دمائهم أيرلندى. كذلك استمر الأرستقراط فى الزواج ممن يرثن الأراضى الشاسعة ـ لو كن من الأيرلنديات ـ لأن هدفهم كان زيادة رقعتهم الزراعية بغض النظر أى أمر آخر، والحصول على الألقاب السامية الرفيعة.

لم تبدأ أسرة تيودور ـ التى كانت تحكم انجلترا ـ أن تتجه إلى أيرلندة إلا بعد استقرار أمرها فى انجلترا وتثبيت العرش. وفى النهاية، فى عام ١٥٣٦ عندما حاول هنرى الثامن أن يتجه إلى أيرلندة وجد فى طريقه عقبة كأداء. قرر هنرى الثامن الانفصال عن كنيسة روما وأن يجعل نفسه على رأس الكنيسة الإنجليزية. وفى عام ١٥٦٠ كتب كتاب الصلاة باللغة الإنجليزية، وهنا وجد أهالى أيرلندة أن الإنجليز يودون أن يَتّحدوا دينهم وأن يَمْحوا لغتهم فقرروا الاستمساك بمذهبهم الدينى إلى أبد الآبدين. كان ما حدث فى أيرلندة على خلاف ما حدث فى ويلز.فى أثناء حكم الملكة اليزابيث قررت الحكومة ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الولشية فرحب أهالى ويلز بحكم الإنجلين، ولكن لم يحاول أحد مطلقا ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الجالية ـ لغة الأيرلنديين (ولو أن هذا تم بعد ذلك بقرنين لأجل أهالى أعالى اسكتلاندة الذين يتكلمون باللغة الجالية). عندما حاول الإنجليز فرض اللغة الإنجليزية مع الاصلاح الدينى فسدت تماما أى محاولة للإنجليز للسيطرة على أيرلندة، كما زالت تماما أى فرصة لإحياء اللغة الجالية.

خلال ١٥٠ عاما من الصراع، استطاعت الحكومات الإنجليزية فى النهاية من أن تسيطر على أيرلندة وتثبيت أقدامها فيها. وكان لا بد من اتخاذ هذا الموقف من الإنجليز الذين اشتبكوا مع قوتين من أقوى القوى الكاثوليكية ــ اسبانيا وفرنسا. لإدراك هذه الغاية، اضطر الإنجليز أن يستبعدوا تماما الطبقات الكاثوليكية الحاكمة من السلطة ـ إما بتغيرهم لمذهبهم أو باستبعادهم. وهكذا وجد عامة الشعب الأيرلنديون والفلاحون أنفسهم منفصلين عن زعمائهم القوميين ومغلميهم وعن المتحدثين باسمهم، ولم يسمح لهم باتخاذ زعماء من بنى جنسهم أو ممن يعتنقون نفس مذهبهم الدينى. كانت القوانين المفروضة على المذهب الكاثوليكى تؤذى مشاعرهم إلى أقصى درجة وكانوا يرفضونها رفضا تاما. وهكذا انفصل الأيرلنديون عن مصادر الحضارة جميعها سواء كانت كاثوليكية أو إنجليزية أو أوروبية وتحول أهالى أيرلندة إلى الأصولية الرجعية ـ كأقصى ما يكون الجمود.

زرع الإنجليز فى هذا المجتمع مجموعات من البروتستانت: مستعمرون من انجلترا أو اسكتلندة ولاجئون أجانب. استقر هؤلاء الإناس الجدد فى المدن ـ على الأغلب ـ ودعموا ملاك الأراضى من البروتستانت. شهدت أيرلندة عصرا من الصعود البروتستانت وشهدت البلاد تقدما كبيرا. صارت دبلن عاصمة عظمى، وكانت المدينة نتاج التهجين بين سكان البلاد الأصليين من الأيرلنديين والمستوطنين الجدد من الإنجلين، من الحكام (العسكريين أو السياسيين) والمفكرين والفنانين والمثقفين والتقنيين. وكان التعاون بين الفئتين ضروريا لنمو الاقتصاد ولإدارة البلاد، ثم طرأت أحداث عالمية هامة أوقفت هذا الانتعاش: الحرب الداخلية الأمريكية والثورة الفرنسية ثم تصاعد نجم

نابليون وتهديده للعالم. جعلت تلك الأحداث وضع الأقلية البروتستانية ـ التى بلغ تعدادها عشر سكان البلاد ـ مهتزا. دعى هذا الوضع إلى ضرورة دعم الحكومة من الخارج، إذا أريد للبروتستانت أن يظلوا متربعين على الحكم. انتقلت الحكومة من دبلن وسارع الحكام بالرحيل إلى لندن وتهاوى البناء الاجتماعى والفكرى إلى الحضيض ـ كذلك رحل ملاك الأراضى إلى إنجلترا وتبعهم المهندسون والكتاب وهكذا فقد المجتمع البرتستانتى فى أيرلندة رأسه فى عام ١٨٠٠ للمرة الثانية (كما سبق وانتزعت رأس المجتمع الكاثوليكى فى عام ١٦٩١).

أنتجت أيرلندة عددا كبيرا من قمم الأدب فى العالم. من بينهم على سبيل المثال: جولد سميث، شريدان، مور، أوسكار ويلد، برناردشو، بيتس، جويس، صمويل بيكيت من الأيرلنديين الصرف. ومن أنصاف الأيرلنديين: الأخوات برونتى الثلاثة وريتشارد بيرتون. وممن أقاموا فى أيرلندة وعاشوا فيها: سويفت، كونجريف، سترن، وبورو وكذلك دوجلاس هايد البروتستانتى الذى صار فيما بعد رئيسا لأيرلندة ولورانس. كذلك نشأ من الأيرلنديين بعض كبار القادة العسكريين (من الطبقات البروتستانت الحاكمة) مثل ولينجتون ومونتجمرى. مرت على أيرلندة بعض الأحداث الهامة التى أثرت عليها تأثيرا عظيما، أولها حركة الإصلاح الدينى التى فصلت بين الكاثوليك والبروتستانت ـ ربما للأبد، وثانيها المجاعة الكبرى التى اجتاحت أيرلندة ١٨٤٥ – ١٨٤٩. كانت زراعة البطاطس قد ازدهرت على مدى مائة عام وتضاعف سكان أيرلندة تبعا لوفرة انتاج محصول البطاطس ـ ولكن أصاب المحصول مرض خطير نتج عنه هجرة جماعية إلى خارج الجزيرة قللت من عدد السكان إلى النصف. هاجر معظم من هاجروا إلى انجلترا وإلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكانوا من الطائفة المنتقاة. تبع هذا زيادة فى درجة الجمود بين من بقى فى أيرلندة، وزاد التوالد الداخلى فى ثبات أيرلندة على التخلف وعدم مسايرتها لجيرانها فى تطور الحضارة، ولن يكسر هذه الحلقة المفرغة إلا التزاوج بين الكاثوليك والبروتستانت.

يوضح تاريخ أيرلندة جميع المبادئ الوراثية فى تطور المجتمعات. يوضح أسس انقسام المجتمعات إلى طبقات وتأثير الهجرة والتهجين والتزاوج المنتقى، وكيف يتم تشويه مجتمع ما. جميع الإمبراطوريات فى التاريخ تقطع رؤوس من خرج عن نهجها وفكر بغير فكرها، كما تدمج جميع المجتمعات رؤوس أقاليمها فى رأسها. شاهدنا ذلك فى الأمثلة التركية كما سنشاهد فى المثل الروسى والمثل النمساوى. هكذا تنضج المجتمعات ثم تشيخ. قطع رأس الكاثوليك الفرنسيين فى كندا بعد انتصار الإنجليز البروتستانت الغزاة فى عام ١٧٥٩، كما قطع رأس الفلمنك من بلجيكا بانفصالهم عن هولندا عام ١٨٣٠. أما ما حدث فى أيرلندة فهو تعاقب قطع الرؤوس فى ذلك المجتمع المنعزل على الحافة المحيطية للعالم الغربى.

الباب التاسع

المسألة اليهودية

ببداية العصر المسيحى كانت الإمبراطورية الرومانية قد صارت قوة سائدة تضبط تطور المجتمعات الأوروبية. فى ذلك الوقت كان الأباطرة قد توصلوا إلى المفهوم أنه من الأجدر بهم إنشاء دين عالمى لتنسيق العبادات فى جميع أنحاء الإمبراطورية، ليعبد جميع رعايا الدولة جميع آلهة الدولة ويخضعون لأرباب واحدة (كما يخضعون لحاكم واحد). وهنا قابلتهم عقبة اليهود الذين يعبدون ربا واحدا ولا يقبلون أبدا ـ أو يظاهرون بقبولهم ـ تعداد الآلهة.

سقط بيت هيرود فى السنة السادسة بعد ميلاد المسيح فاضطرت الحكومة الإمبراطورية أن تحكم الأقاليم اليهودية حكما مباشرا. وسرعات ما تبينوا أن اليهود ـ رغم أن ديانتهم وأفكارهم السياسية كانت فى تقلب ثورى مستمر ـ كانوا متحدين تماما فى الإيمان المطلق بديانتهم ولا يحيدون قدر أنملة عن دينهم القومى، ويقدسون أماكن معينة لم يعتد عليها الحكام الجدد ولم يرتاحوا إليها. وظلت الديانة اليهودية تثير سخط جميع الحكومات الأوروبية ومختلف شعوب أوروبا فى الماضى والحاضر (وفى المستقبل). عندما حاول الرومان فرض تلك التعليمات الدينية الجديدة قابلهم اليهود بثورة عارمة فى عام ٦٦م، ولم تنته تلك الثورة بالاستيلاء على بيت المقدس وأسر اليهود كعبيد وحرق معبدهم سنة ٧٠م، ولكنها انتهت بعد ثلاث سنوات بسقوط قلعة الماسادا اليهودية وانتحار جميع المدافعين عنها. بالرغم من هذا فقد قامت حرب أخرى فى عهد الإمبراطور هادريان بعد ستين سنة وانتهت بتدمير أورشليم وإنشاء مدينة جديدة بدلا منها. باختفاء الثروة وتحطيم المقدسات وتدمير مقر الكاهن الأعظم ثم طرد كافة اليهود الملتزمين من مملكة يهوذا، جاء عصر الشتات اليهودى وتفرقوا فى جميع البلاد من نهر الفرات إلى الراين.

بهذه الأحداث حدثت الفرقة النهائية والدائمة فى الشعب اليهودى فعلى ناحية وقفت الأغلبية، التقليدية متمسكة بالتعاليم الدينية وعلى الناحية الأخرى تزايدت حثيثا الأقلية المسيحية سريعة

التطور. بعد تدمير أورشليم، عين كاهن جديد لإيلياكابيتولانا (الاسم الجديد لأورشليم) عام ١٣٥م. كان هذا الكاهن يهوديا بحكم المولد ولكنه اتخذ المسيحية عقيدة له. صار الانقسام الآن بين اليهود والمسيحيين ظاهرا، وحاول كل فريق أن يجتذب إليه أكبر عدد من الناس وأن ينشر الدعوة لعقيدته بين الوثنيين خارج حدود الدولة الرومانية. نجح كل فريق فى تحول أعداد من المثقفين والمهنيين إلى ديانته، وكان نجاح اليهود واضحا فى قبائل البربر. استخدم اليهود تعاليمهم الدينية القديمة التى تتيح لأى فرد اعتناق عقيدتهم، لثلاثة أجيال، وبالرغم من هذا لم يتصفوا بالمرونة التى امتاز بها المسيحيون ولم يحققوا نفس مقدار النجاح. أصبح الصراع مريرا بينهم.

تغير شكل المجتمع اليهودى كثيرا عن سابق عهده. كانت الأمة اليهودية فيما مضى مجتمعا كاملا يجتذب الأفراد لموهبتهم فى ملء فراغ المجتمع المتوازن ولسد الثغرات فيه. وعندما صاروا أقلية فى بلاد غريبة عن الوطن الذى نشئوا فيه كانوا ينتقون لإخلاصهم الدينى، وكان من يخرج منهم عن الالتزام الكامل والاحترام الدائم واتباع تعاليم كهنتهم يعتبر شاذا عن المجموع ويستبعد ويترك الجماعة. وهكذا تطهرت الجماعة وحدث فيها انتقاء وتذرية للجنس كما يحدث بالاختيار فى التربية الصناعية، وتزايد فيهم النقاء والحيوية. إزداد تماسك اليهود ببعضهم البعض كأغراب فى مجتمع غير صديق وكأقلية بين أكثرية معادية، وزادت بينهم الروابط العائلية، وصار مزاجهم واحدا وصفاتهم واحدة. تكاثرت أعداد اليهود لخصوبتهم الزائدة وإنجابهم غير المقيد، تبعا لتعاليمهم وتدريبهم ولحياتهم العائلية المستقرة، ولنظافتهم الزائدة التى تعتبر جزءا أساسيا من تعاليمهم وعاداتهم، التى يلقنها لهم رؤسائهم الدينيون ويحرصون كل الحرص على اتباعها.

على النقيض لم تبتغى التعليمات المسيحية تشجيع التناسل والإكثار من الذرية ولم تحرص على نشر مبادئ النظافة العامة ولا على الأصول الصحية التى تُبقى على قيد الحياة وتحافظ عليها. كثر عدد اليهود أساسا بالتوالد وإزداد عدد المسيحيين لاعتناق الناس للديانة المسيحية. اعتناق البشر المسيحية نتج عنه تهجين اليهود (وهم أصل المسيحيين) مع بقية الشعوب وتسرب جينات اليهود إلى المجتمع المسيحى على اتساعه، وهى عملية ما زالت مستمرة إلى الآن. أقيم هناك حائل منيع بين اليهودية وبين الذين اعتنقوا المسيحية، وتباعدت الطائفتان حثيثا ولم تتقارب. ظلت الجماعتان متعاديتين فى الشئون الدينية وفى الأمور الدنيوية، ووضح هذا العداء تماما وظهر على أشده فى مصر. ظهر هذا التباين فى اللغة، فقد تكلم اليهود بلسان مثقفى العصر ـ الإغريقية ـ بينما تحدث المسيحيون باللغة المصرية الدارجة ـ التى صارت الآن القبطية. احتفظ يهود الاسكندرية ـ الذين لم يختلط دمهم بأى دم آخر ـ بمواهبهم فظلوا صناعا مهرة، يجيدون الكتابة، ويتقنون فنون التجارة،

ولذا كانت مقدراتهم بالغة الرقى وكان لديهم الاستعداد الشديد للحركة الواسعة والتنقل بينما ظل الأقباط المسيحيون قابعين فى ديارهم ولم يهاجروا من بلادهم بتاتا ـ إلا عندما ذهبوا إلى إثيوبيا ليبشروا بالمسيحية، التى تحولت إليها فى القرن الميلادى الثانى، وكانوا فى هذا أكثر نجاحا من البعثة التبشيرية اليهودية.

ما الذى أبقى على اليهود متماسكين رغم تشتتهم فى العالم؟ يعود سبب شدة ارتباطهم ببعضهم البعض بالتأكيد إلى كتاباتهم الدينية وإلى تفسير رجال الدين المثقفين لها. وكان لا بد أن تتواجد لرجال الدين سلطة عليا ليتولوا إرشاد الناس وقد اكتسبوا تلك السلطة بعد تقهقرهم إلى بابل بعيدا عن الخطر الرومانى، ولكن أعيد تشكيل هذه السلطة بواسطة الرومان أنفسهم. فقد كانوا فى حاجة إلى ممثل يتحدث باسم اليهود وسلموا السلطة إلى بطريرك من بيت هليل، وهى أسرة من الفريزيين. استمرت السلطة تتوارث بين أبناء هذا البيت لعشرة أجيال. بدءوا فى مركز فى طبرية ثم تكونت منهم طائفة من المعلمين وعدلوا فى الفلسفة اليهودية لتناسب حاجة اليهود المتبدلة فى عصر متغير، وما زال متغيرا إلى يومنا الحاضر. كانوا فى تلك الأيام الأولى منشغلين بملاحقة تطور الفكر المسيحى، فغيروا شعيرة التضحية بالفكرة الأشد ذكاء، فكرة التصدق والإحسان، التى طورت الديانة بصورة تناسب العصر وجعلته متحررا من سيطرة رجال الدين السالفين. التوراة هى قانون الديانة اليهودية وهى نورها، وتحوى جزءا مكتوبا وجزءا غير مكتوب. أما الجزء المكتوب فهو كتاب اليهود وأما الجزء غير المكتوب فهو معتقدات الشعب اليهودى التقليدى، والتى تختلف حسب تعاليم المعلم، وتشمل اليهود القرامين واليهود الربانيين. ثم تمت كتابة هذه الأفكار بواسطة أحبار اليهود وصارت تعليما تقليديا. واستمر التطور فى هذه التعاليم مع تطور الكنيسة المسيحية. ولعل آخر تطورات الكتابات اليهودية كانت كتابات بن ميمون (١١٣٥-١٢٠٤ب م).

أهم ما واجهته اليهودية كان اعتناق الدولة البيزنطية وجعل المسيحية الدين الرسمى للقسطنطينية. كانت الغيرة من اليهود والخوف من فلسفاتهم القديمة ـ التى اشتقت المسيحية من أهمها ـ هى التى دفعت المسيحية إلى محاولة تدمير الدين اليهودى. للوصول إلى هذا الهدف كانت الخطوة الأولى هى تحطيم اليهود كجنس مستقل، وإزالة الفكرة بأنه شعب الله المختار، وتحمليه كشعب تهمة أنه هو الذى قتل رب المسيحيين وأنه لا سبيل لدفع تلك التهمة الشنيعة سوى بتحول أفراده إلى اعتناق المسيحية. لم يكن كافيا سب الشعب اليهودى وكل المؤسسات اليهودية رسميا وشعبيا فى كافة المناسبات المدنية والدينية. كان من الضرورى منع كل محاولات التبشير بالديانة اليهودية ومنع تحول كافة الأقوام لليهودية، سواء كانوا من المسيحيين أو الوثنيين مع إيقاف كافة

المحاولات التى تمنع تحول اليهود إلى مسيحيين. كان الإعدام هو عقوبة كل مرتكب لأى من هاذين الفعلين. كذلك تم منع الزواج بين أبناء الديانتين إذا لم يسبقه اعتناق المسيحية. تحولت الحرب الباردة التى استمرت لقرنين من الزمان بين أبناء العقيدتين إلى حرب ساخنة ـ واستمر هذا الصراع بينهما إلى عصرنا الحاضر.

تبعت مختلف الطوائف المسيحية نهج قادتها وحكامها فى العلاقات الاجتماعية مع اليهود. كان من بين هؤلاء الزعماء والقادة والحكام بعض المعتدلين غير المتعصبين من أمثال فيوبويك القوطى والملك جيمس ملك أرجوان والإمبراطور فردريك الثانى، وحكام هولندا من التجار، كما كان هناك بعض العقلاء من البابوات مثل جريجورى الأعظم. أدرك هؤلاء المنافع التى ـ يجنيها الناس وتكتسبها الدولة من إشراك اليهود فى التجارة، والثقافة والعلم الذى يحصلون عليه من التعليم اليهودى. كان شارلمان لا يستغنى عن اليهود كسفراء له. وكانت حكومته تستعملهم فى أمور التجارة وصار اسم اليهودى يعنى أنه يعمل بالتجارة. وفرض ابنه لويس عليهم الحماية وخصص لهم أحياء مناسبة فى المدن ليسكنوها. ولكن الحماية تتضمن بعد حين العبودية. بالتدريج وجد اليهود أنفسهم أنهم صاروا خداما. لم يقطن اليهود فى الريف بل صاروا أقليات تسكن المدن، ومهرت تلك الأقليات فى أعمال بعينها. كانوا المتعلمين فى المدن، الذين يقرأون الكتب، وتحلق حولهم المسيحيون، الذين كانوا أقل منهم ثقافة. بعد قليل صاروا ثراة المدن، الذين يحتاج إليهم الحاكم لإقراضه النقود، هؤلاء الحكام الذين كانوا دائما فى حاجة للاقتراض فى العالم الإسلامى، تبين الوزراء فائدة اليهود فى مختلف الظروف حتى القرن الثالث عشر، كان اليهود فى أوروبا هم الوحيدون الذين يمكنهم عد النقود وكيف يحسبون الكسور وكيف يقدرون نسب الربح المختلفة، وكانوا هم الوحيدون الذين استطاعوا التعامل مع المعادن النفيسة. لكل هذه الخصائص كان اليهود هم من يعملون فى جباية الضرائب من المواطنين (حتى تولت الكنيسة هذه المهمة فيما بعد).

حينما ضاقت الأمور على الكنيسة وأحاطت بها الصعوبات؛ انتصارات المسلمين من جهة وهرطقة المهرطقين فى العالم المسيحى من جهة أخرى؛ وجدت الكنيسة مخرجا من تلك الأزمات باضطهاد اليهود. بدأت حملة «صليبية» أخرى ضد اليهود اشتركت فيها الكنيسة والملك والغوغاء، واكتسبت تلك الحملة شعبية كبيرة بين الجماهير كما حفلت بمغانم عدة.

بدأت الحملة بأحد الباباوات التى اشتهر بأنه سياسى عظيم، البابا انوسنت الثالث. أمر فى عام ١٢١٥ جميع اليهود، الرجال منهم والنساء أن يحملوا شارة مميزة، صفراء اللون فى معظم الأحوال، ليعرفوا كخطر على الأمة (وفى نفس الوقت ليسهل التعرف عليهم عند التمثيل بهم) استغرقت تلك

الحملة من اضطهاد اليهود عدة قرون حتى بلغت ذروتها وإلى أن حققت غايتها. كانت مدن أوروبا، فى العصور الوسطى شأنها شأن كل العصور، مقسمة إلى أحياء مختلفة، تقطن كل قومية، ويسكن أتباع كل ديانة، ويتجمع أرباب كل حرفة فى حى بعينه. صارت أحياء اليهود بالتدريج (والتى عرفت بحارات اليهود) مملوكة ملكية جماعية وأحيطت بالأسوار ـ فى بعض الحالات ـ لحمايتها وكانت لها أبواب يتم غلقها بالليل. وهكذا صارت حماية اليهود مقترنة بانعزالهم وعزلهم. انتشرت حارات اليهود فى جميع الإمارات الإيطالية والألمانية. سبق قدوم اليهود إلى إيطاليا مقدم أقوام عدة: من الكريتيين والاتروسكان والإغريق وأهالى الاسكندرية، ولم يكن نجاحهم المادى ملحوظا ولم يكن شعور الجماهير ضدهم كريها، ولذا لم يقابل يهود إيطاليا الاضطهاد الذى لاقاه باقى اليهود فى أوروبا. كان البابا يدافع عن يهود إيطاليا وكانت الجماهير تحميهم، وظلوا هكذا لألفى عام، وقد استمتعوا وحدهم، دون بقية يهود أوروبا بتلك الحماية. أما فى سائر بلدان أوروبا فقد طبعت عليهم الجماهير شبهة أن اليهود قوم غرباء تحيطهم الأسرار وأن لهم صفات خاصة وتقاليد غريبة، وكلما زاد جهل الجماهير زادت عزلة اليهود. تواجد فى غرب أوروبا ملوك أقوياء استثمروا ذلك الموقف لصالحهم. فرض ملوك انجلترا وفرنسا جزية باهظة على اليهود، وبعد أن امتصوا دماءهم طردوهم من البلاد شر طردة. فقد طرد إدوارد الأول ١٦ ألف يهودى من البلاط الملكى عام ١٢٩١ (وبقى بعضهم فى سرية واستخفاء فى أكسفورد). رحب بهم المسلمون فى إسبانيا والبرتغال ولكن انقلب عليهم الملوك المسيحيون بعد طرد المسلمين من بلادهم عام ١٤٩٢، فهرب معظمهم مع المسلمين الهاربين من البلاد.

فى نهاية القرن الثانى عشر قبل أن تبدأ نكسة اليهود فى أوروبا استطاع بنيامين من تيوديلا أن يترك موطنه الأصلى فى نافار ويرحل بحرية ويزور المدن الهامة فى أوروبا وأفريقيا وبلاد فارس والهند. ولكن ذريته لاقت فى ترحالها من بلد مسيحى إلى بلد مسيحى آخر انعدام الحماية، وتعرضوا للسب والإهانة حيثما قدموا، فقد صار هذا هو التقليد الذى اكتسبه المسيحيون فى جميع أنحاء العالم. استقر اليهود على مدى أربعين جيلا، أولا فى بلاد وثنية ثم قطنوا فى الثلاثين جيلا السابقة فى بلاد اعتنقت المسيحية، وتعرضوا خلال تلك المدة لضغوط بالغة ليعتنقوا المسيحية. انخفضت أعداد اليهود تدريجيا لتحول بعضهم إلى المسيحية، ولكن ظل تعدادهم ثابتا فى أوروبا حوالى المليون نسمة منذ عهد الإمبراطور قسطنطين فى القرن السادس. مع مرور الزمن صارت الأجيال الحديثة أكثر مناعة ضد التحول للمسيحية. كلما إزداد تمسكهم باليهودية، وكان عليهم الاختيار بين التمسك بعقيدتهم وتقاليدهم وعاداتهم وبين الاستمساك بما يؤمنون به والتمسك بمجتمعهم وهكذا ظل اليهود ـ الذين قاوموا الطريق الأسهل من التخلى عن معتقداتهم ونبذ مجتمعهم والانخراط فى المجتمع المسيحى والديانة المسيحية بما يحمله هذا التحول من فتح آفاق الثروة وإتاحة كافة الفرص

أمامهم ـ ظلوا أشد استمساكا بدينهم. فى نفس الوقت حدث تهجين مستمر للمجتمع المسيحى مع من تحول إلى المسيحية من اليهود. هكذا إزداد اتساع المجتمع المسيحى كلما إزداد ضيق المجتمع اليهودى. صار اليهود أشد اتباعا لتعاليم أحبارهم وقلت طاعة المسيحيين لأساقفهم، فزاد تعلم اليهود واتسعت ثقافتهم وإزدادت عمقا، كما زادت مهارتهم الاقتصادية والمالية والتجارية وأورثوا تلك المهارات لذريتهم، وتحول اليهود ليصيروا الطبقات المهنية لأوروبا المسيحية. وتغلغل اليهود إلى الطبقات الحاكمة، حتى فى إيطاليا نفسها. باندماج الدم اليهودى فى مسيحى أوروبا، اكتسب المسيحيون تدريجيا المهارات التى أهلتهم ليفعلوا ما عمله اليهود من قبل. فحل شارع لومبارد فى لندن محل أحياء اليهود، وحلت الكنيسة محل اليهود فى تحصيل الضرائب، وتحمل الأساقفة البغض والخزى والعار الذى تحمله اليهود من قبلهم. تحول اليهود بهذا الوضع ـ كما ظن الأمراء واعتقد الأساقفة ـ من طائفة شائنة شنيعة إلى جنس قابل للتوسع والانتشار فى الأرض.

يشابه اندماج الأصول اليهودية فى المجتمعات المسيحية ما حدث من قبل من انتشار الجينات الوراثية الإغريقية فى مجتمعات غربى البحر الأبيض المتوسط. كان تغلغل الإغريق غربا ـ مثل تغلغل اليهود إلى الغرب ـ فى عكس اتجاه الفتوحات العسكرية إلى الشرق. فتح الغرب قديما الشرق المستنير وانتشر التنوير الإغريقى والثقافة اليهودية إلى بلاد الغرب. واختفى الإغريق فى الغرب بمرور الزمن ولكن اليهود ظلوا محافظين على كيانهم ورفضوا الاندماج فى الشعوب الغربية بل ظلوا قيمين وأبناء حافظين لها وبقى أثر من كنوزهم فعالا واستمرت ثقافتهم وذكرى آبائهم وديارهم القديمة فى عقولهم حتى اليوم.

بعد أيرلندة تعتبر إسبانيا أكثر البلاد عزلة فى أوروبا، ولذا فالشعب الإسبانى له صفات خاصة تشابه الشعب اليهودى المعزول جينيا. وللإسبان تاريخ طويل حافل بالأحداث والعلاقات مع الشعب اليهودى. عندما تولى عرش إسبانيا الملك رياكارد ـ ملك القوطيين الغربيين ـ فى عام ٥٨٦ تصالح مع البابا وتوج صلحه هذا بتزاوج المحاربين الأميين من غزاته وحكامه مع العائلات العريقة والشهيرة من القادمين من روما وفينيقيا وبيزنطة ـ من المستوطنين الأوائل فى شبه جزيرة أيبريا. وفى عام ٨٥٩ صدرت أوامر الأساقفة بمنع التزاوج مع اليهود، لخوفهم من انتشار العقيدة اليهودية بالزواج والإنسال. وبهذا تم وضع اللبنة الأولى للانفصال التام بين العقائد والأجناس فى إسبانيا. وبعد تحرير إسبانيا من المسلمين، شابت العلاقات بين المسيحيين من جهة والمسلمين واليهود من جهة أخرى مخاطر شديدة. بين عامى ١٢٢٠ و١٢٥١ كانت إسبانياقيد تحررت كلها باستثناء غرناطة وكان الصليبيون من دعاة تحرير البلاد. بعد التحرير انتشرت الدعوة إلى اعتناق المسيحية مرة ثانية

بين المواطنين، وأطلق لفظ «الموريسكوس» على المسلمين الذين تحولوا للمسيحية بينما أطلق لفظ «الخنازير» على اليهود. كان الضغط شديدا على الجميع لإعادة اعتناق المسيحية وكانت استجابة اليهود مختلفة باختلاف طبقاتهم فعلى القمة كان الاعتدال مطلوبا، وقد عاون المهندسون اليهود الآتين من كولونيا على بناء الكاتدرائيات فى القرن الخامس عشر واشترك بعض الملاحين اليهود والصناع المهرة من مايوركا مع الأمير هنرى وكريستوفر كولومبوس وفاسكودى جاما فى رحلاتهم التاريخية. ولكن حدث اضطهاد سريع لليهود فى إسبانيا. بدأت محاكم التفتيش الإسبانية الكاثوليكية أعمالها فى عام ١٤٧٨ وكانت محاكم تعسفية لا تقيم اعتبارا للحقوق الفردية مهمتها اكتشاف الهرطقة ومعاقبة الهراطقة. فوضها ملك إسبانيا ـ النور البابوى ـ فى تعقب وإعدام الخارجين عن الدين، واستمرت فى هذا العمل لثلاثة قرون حتى قدم الغزو الفرنسى عام ١٨٠٨، فانهى أعمالها. كان الملك بنفسه يحضر تلك الاحتفالات ويحضر مع أعضاء البلاط الملكى ورجال الدين وعامة الشعب. وهكذا حلت تلك الاحتفالات محل الصراع الوحشى الذى كان فى عهد الرومان أيام الوثنية وتوقف بقدوم المسيحية إلى روما. لم يكن هناك من علاج لليهودية سوى بالطرد أو القتل، فالتحول كان ظاهريا ولكن ما بالقلب بالقلب. صدر قانون بطرد كافة المواطنين الذين لم يتحولوا إلى المسيحية عام ١٤٩٢ وظل المواطنون تحت الرقابة الدقيقة ليعاقب من تثبت عليه تهمة عدم اعتناق المسيحية وعندما يتبين أن الشخص لا يمكن طرده (كبار الأثرياء أو الملاحين الذين يستفاد بهم فى الرحلات البحرية)، يغض الطرف عنه. يوضح الجدول (٢٠) مصير اليهود الاسبان بعد عصر محاكم التفتيش.

جدول رقم (٢٠)

أسبان يهود ظلوا مختفين بإسبانيا	يهود طردوا من إسبانيا وصاروا لاجئين فى بلدان أخرى
٥٠ ألف	٤٥ ألف لجأوا إلى تركيا. ١٥ ألف لجأوا لشمال أفريقيا ولمصر. ١٠ آلاف لجأوا لفرنسا وهولندا. ١٠ آلاف لجأوا لإيطاليا. ١٠ آلاف لجأوا لأمريكا الوسطى والجنوبية.

ولجأت البقية الباقية إلى مراكش عندما طُرد المسلمون الذين كانوا يتعهدون بحمايتهم أنفسهم من إسبانيا عام ١٦٠٩.

يختلف مصير اليهود الذين اعتنقوا المسيحية حسب طبقاتهم الاجتماعية فقد اعتنق المسيحية أولا فقراء اليهود وتوقفوا تماما عن أداء أى طقوس يهودية ونجح سكان المدن منهم تماما فى الاختفاء بين الطبقات الدنيا من المجتمع الاسباني. أما فى القرى البعيدة والمعزولة فقد اختفى الكتبة ورحل الأحبار وتعذر على الباقين أداء صلواتهم على الطريقة الصحيحة واشتد الارتباك بينهم، ولكنهم تمسكوا بإحياء أعيادهم وأداء طقوسهم السرية واحتفظوا بطابعهم المختلف عن بقية الناس واستمروا بزاولون تقاليدهم فى الزواج. بطل الختان بينهم (لأنه كان علامة مميزة لهم)، ولكن ما زالت الطائفة اليهودية التى تحولت للمسيحية طائفة عرقية لا يمكن هدمها أو تدميرها إلى الآن فى إسبانيا والبرتغال.

أما المثقفون والأثرياء من اليهود فقد تم طردهم بعد مرسوم عام ١٤٩٢ وكونوا طائفة «السيفارديم» أو «اللاجئين من بعيد»، ولكن بقى عدد منهم فى إسبانيا باعتناق المسيحية بمجرد صدور مرسوم الطرد هذا. وبعد ثلاثين جيلا من التكاثر المنفصل إزدادت الفروق بينهم وبين بقية الأسبان ولم يسمح لهم بالاندماج مع سائر أفراد الشعب. ولهذا فقد صمم فيليب الثانى أن ذرية اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية يجب ألا يسمح لهم بالبقاء كطائفة سرية فى البلاد أو بالنشاط كحركة تحتية. وفرض على هؤلاء اليهود المتخفين ارتداء قبعة صفراء اللون ومنعوا من الالتحاق بأى عمل مكتبى ذو شأن أو مركز رفيع وحرم عليهم تماما التزاوج من سائر المسيحيين. (جدير بالذكر أن الصياغ فى بالمامايوركا يعيشون فى شارعين اثنين من شوارع تلك الجزيرة وهم من أشد الكاثوليك تدينا ومن أنقى اليهود عرقيا). حاول شارل الثالث مرتين (١٧٧٣ ، ١٧٨٢) أن يقضى على التفرقة ضد اليهود وأن يوقف منع التزاوج معهم، ولكن قوانينه لم يعمل بها ـ شأن مختلف القوانين ـ خاصة فى جزيرة بالمامايوركا.

كلما شددت القبضة على اليهود كلما زادت هجرتهم إلى خارج البلاد. عدد كبير منهم إلى انتورب وإلى امستردام وساهموا فى النهضة الثقافية وفى النجاح التجارى الذى حل بتلك البلاد فى القرنين التاليين. ولكن غالبية اليهود الذين تمسكوا بالاحتفاظ بدينهم رحب بهم السلطان العثمانى فى تركيا واستقبلتهم مصر بحفاوة. أعلن السلطان بايزيد الثانى أن لجوء اليهود إلى بلاده سوف يساهم باثرائها (بالقدر الذى سوف يضعف به إسبانيا) وقد كان تقديره سليما. استقر اليهود اللاجئين فى القسطنطينية وفى سالونيكا وفى سميرنا، ثم تبعوا الأتراك إلى فلسطين وإلى مصر، وأثبت اليهود أنهم خير خلف للإغريق المسيحيين الذين غادروا البلاد، وحلوا محلهم فى المهن المختلفة التى كان يشغلها الإغريق.

لم يكن اليهود فى بلاد المسلمين بلا متاعب. ففى عام ١٦٤٨ أعلن يهودى فى سميرنا اسمه شابتاى زفى أنه أوحى إليه وأنه المسيح المنتظر وبعد إلقاء القبض عليه انكر ادعاءه واعتنق الإسلام. ولكن أتباعه، طائفة «الدومنة» شكلوا طائفة صغيرة من المسلمين اليهود، فهم ظاهريا من المسلمن ولكنهم يتلقون تعليما خاصا وهم فى الحقيقة يهود عرقيا، يثيرون الاضطرابات السياسية كل حين وآخر، وقد تم القضاء عليهم نهائيا بعد ثمانية أجيال. بحلول عام ١٩٠٧ كان يهود سالونيكا قد تزايدوا حتى وصل تعدادهم إلى ٦٠ ألفا، أو نصف تعداد المدينة، وكانوا يشكلون أكبر تجمع يهودى فى تركيا. ظلوا يحتفظون بتقاليدهم المحافظة وبلباسهم اليهودى وبلغتهم الكاستلانية العتيقة التى احتفظوا بها من القرن الخامس عشر عندما كانوا بإسبانيا حتى تم القضاء عليهم عام ١٩٤٣. كان يهودو سالونيكا يضمون بعض جماعات الدومنة، الذين كانوا الروح المحركة لحركة ثورة «تركيا الفتاة» التى قامت فى عام ١٩٠٨ وانتهت بسقوط الإمبراطورية العثمانية.

كان اليهود الذين غادروا إسبانيا أو بقوا فيها، الذين تحولوا عن اليهودية أو استمسكوا بها، والذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل جنسهم أو دينهم، قليلو العدد ولكن كان أثرهم عظيما. فقدت إسبانيا عنصرا مثقفا، لجأوا إلى بلاد المسلمين، وفقدت فيما بعد مزيدا منهم رحلوا إلى الممتلكات الإسبانية فى جزر الهند الغربية وبدأ الانحلال والوهن يسرى فى إسبانيا خطوة بعد خطوة منذ عهد إخماد الهرطقة واصطياد المسلمين واليهود وطردهم من البلاد واضطهادهم المتتابع، ولم تقم قائمة لتلك البلاد حتى عهدنا الحاضر.

بولندا والأشكاز

استفاد اليهود الذين تم طردهم من انجلترا وفرنسا وسائر بلدان غرب أوروبا من المصائب التى حلت بالمسيحيين فى شرق أوروبا فى القرن الثالث عشر. ففى منتصف هذا القرن أغار التتار على بولندا ونهبوا مدنها وأحرقوا بيوتها فى مستوطناتها وقراها. استطاع الفرسان التيوتونيون صد هذا الغزو ونصبوا مسيحيا ملكا على البلاد ولكن انعدمت الاتصالات بين الحكام الألمان الجهلة والفلاحين الصقالبة الأميين. لم تكن هناك طائفة من المهنيين المثقفين ولا من الحرفيين التقنيين المهرة لينظموا المجتمع ويديروا شئونه. تمت دعوة رجال من مختلف مدن أوروبا ليملأوا الفراغ الحادث فى المجتمع لبناء المدن من الحجارة بعد أن حرقت المنازل الخشبية. وفد إلى كراكاو سيل من الألمان والهولنديين والفلمنك والوالونيين والغاليين والايطاليين والمجر، كما حضر الموارفيون وعدد قليل من الاسكتنديين. ووفد أيضا عدد من اليهود. جاء أولا عدد من اللاجئين من موانى البحر الادرياتيكى، وبعد قرن من الزمان وفد كازمير العظيم (الذى أحب الديانة اليهودية واتخذها عقيدة له

وربما ارتبط برفيقة يهودية)، وأعطى عهده لليهود فجاءوا بأعداد كبيرة. عرف هؤلاء اليهود باسم «الأشكنازيم» وهو الاسم العبرى للألمان.

لم يشهد التاريخ، منذ عهد الاسكندر الأكبر، إنشاء مدن يقطنها جنس واحد مزروعة فى بلاد يقطنها جنس آخر وتحكمها فئة عسكرية تنتمى لجنس ثالث. يتحدث كل جنس بلسان مختلف. فى سائر أنحاء العالم تكلم اليهود بلسان حكامهم، ولكنهم فى هذه الحال كان الحكام يتحدثون باللغة الألمانية وكان اليهود يفوقون الحكام فى أعدادهم، ويزيد عنهم جميعا جماهير الشعب من الصقالبة. ولذا ابتدع اليهود لغة جديدة خاصة بهم، لغة اليديش. كانت لغة ألمانية بلهجة أهل الراين، مدعمة باللغة الأرامية المستحدثة من التلمود ـ لغة أحبار اليهود ـ وبعض الألفاظ البولندية، كلما دعت الحاجة إليها. كانت اليديش لغة غير مكتوبة، لغة الجماهير غير المتعلمين، أما لغة التعلم والكتابة فكانت اللغة العبرية. وظلت اليديش هكذا حتى عام ١٧٩٢ عندما بدأت الجماهير تكتب بها أدبها. وعندما انقسمت بولندا وتفرق أهلها بين بروسيا والنمسا وروسيا اندثرت لغة اليديش.

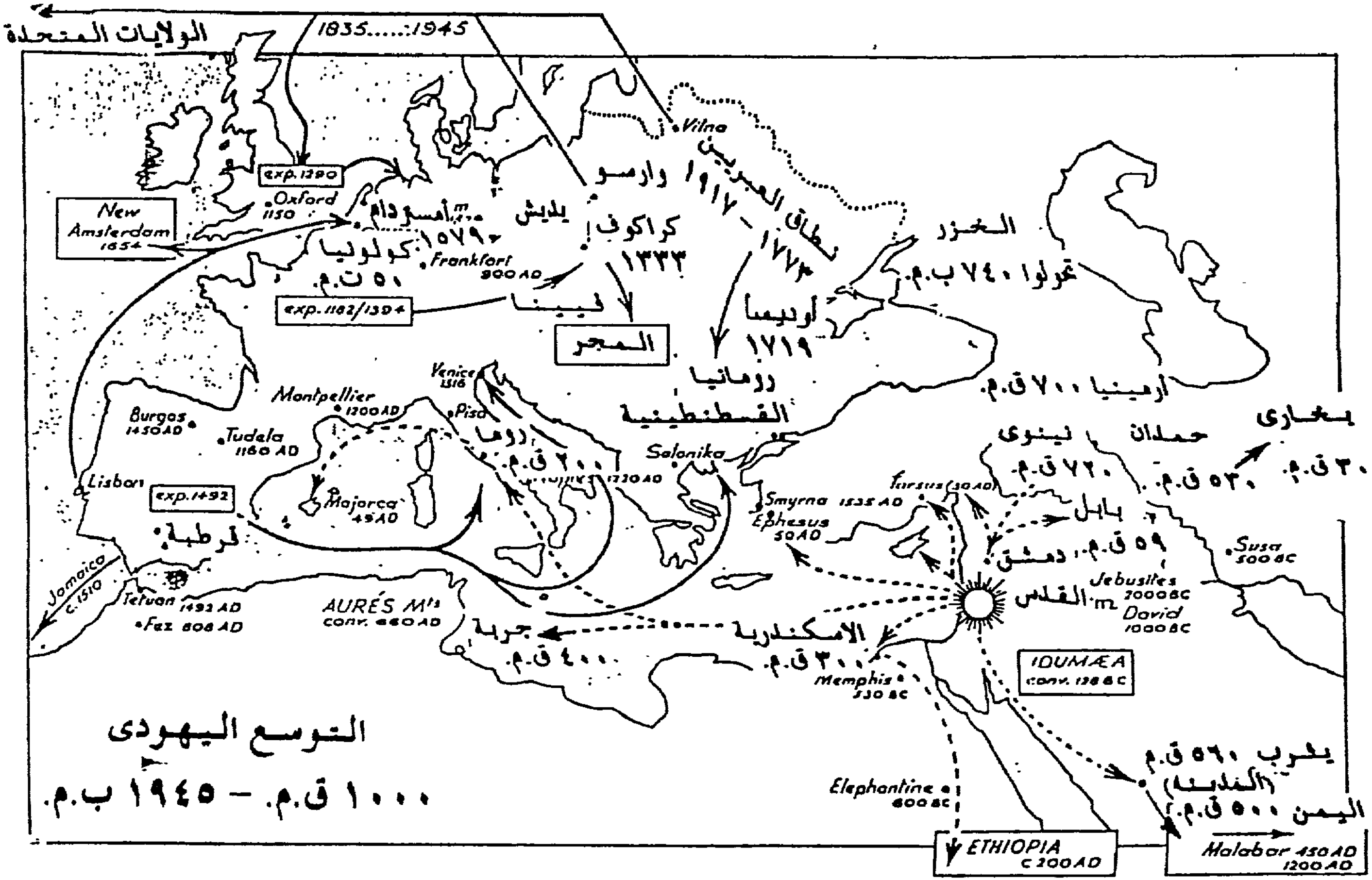
كون اليهود غالبية الطبقات المهنية فى بولندا وكانوا أصدقاء حميمين للبولنديين. أحاط بهم ثلاث أنظمة معادية لهم، أولها الحكومة النمساوية التى كانت تفسخ زواج المسيحيين باليهود وتعتبره زواجا غير شرعى. وثانيها كانت الحكومة الروسية التى تحالفت مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية وكان ارضاؤها لشعبها يتمثل فى اضطهاد اليهود: عزلتهم وكانت تسوقهم بالقوة وطردتهم وقتلتهم فى أراضيها التى استولت عليها من بولندا. كانت نتيجة هذه الموجه الجديدة من اضطهاد اليهود هو هجرتهم الجماعية إلى خارج البلاد، أولا إلى المجر ورومانيا وثانيا إلى ألمانيا وانجلترا والولايات المتحدة، وكانت أخصب تلك الهجرات هى التى قادتهم إلى هولندا.

أعطت هولندا لليهود الذين لجئوا إليها من إسبانيا حقوقا مدنية متساوية بداية من القرن السابع عشر، وقد جذب هذا باقى اليهود المطرودين والمضطهدين من شرق أوروبا. وهكذا وجد فى هولندا الطائفتين اليهوديتين: السفارديم والاشكنازيم. ولدهشة اليهود تبينوا لأول مرة اختلافهم العميق اجتماعيا وحضاريا وطائفيا، حتى ولو كانوا يدينون بديانة واحدة. كان اليهود السيفارديم حسنو التعليم حسنو الملبس إذ كانوا ينتمون للطبقات العليا فى المجتمع الاسبانى والبرتغالى، يشابهون أثرياء المسلمين والمسيحيين فى تلك المجتمعات، وكانوا يتحدثون بلغتهم الأصلية «اللادينو»، كما يتحدثون بلغات المثقفين الأخرى. على الناحية الأخرى كان الاشيكنازيم المحافظين، الرجعيين، المتمسكين بنظمهم وطقوسهم التقليدية (ولكن المتسيبين فى بقية النواحى)، النين يعملون كعمال ولا يتحدثون إلا «باليديش». أنتج السيفارديم بعض عظماء الرجال مثل سبينوزا بينما لم ينشأ

أى عظيم من الأشكينازيم. ولو أنهم أثمروا فيما بعد بعض كبار الشخصيات اليهودية بعد أن تخلصوا من الفقر والعزلة والتوالد الداخلى وبعد أن هاجروا إلى بلاد أخرى واختلطوا بإناس جدد وتعايشوا مع مجتمعات مفتوحة متسعة فانتجوا هاين ومندلسون وكارل ماركس وعائلة روثتشيلد. لما يزيد عن القرن تباعد السيفارديم عن إخوانهم من الاشكينازيم اليهود السفارديم يشابهون المسيحيين فى عاداتهم ويتصرفون مثلهم. لم يتعبدوا مع الاشكينازيم ولم يتناولوا الطعام معهم ورفضوا التزاوج معهم، واستمر هذا حتى بعد هجرتهم لإسرائيل. حتى عام ١٨١٢ عندما بدأ الاختلاط يحدث تدريجيا بين أبنائهم وحفدتهم وذريتهم. وهكذا بدأت الطائفتان اللتان ظلتا منفصلتين جغرافيا طوال خمسين جيلا تتصلان ببعضهما البعض بعد أن تطورت كل طائفة بعيدة عن تطور الطائفة الأخرى. توضح الخريطة رقم (٥) التوسع اليهودى من سنة ١٠٠٠ ق.م إلى سنة ١٩٤٥ ب.م.

تفرق اليهود فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية وانتموا إلى مختلف الطبقات فى بلدان قسمت أبناءها إلى طبقات بعضها فوق بعض ورضيت كل مجموعة بالطبقة التى انتمت إليها، وتطورت طوائف اليهود مع تطور الطائفة التى أصبحت جزءا منها سواء من البلدان الإسلامية أو المسيحية. تعرض اليهود فى مختلف البلاد إلى ضغوط انتقائية أدت إلى نجاح أو فشل وأدت إلى التحول من الديانة اليهودية أو الاضطهاد لمن استمسك بها ونتج عن كل تلك العوامل سرعة فى التكيف مع مختلف الأحوال. وحدث أيضا قدر ضئيل من التهجين مع الأغلبية المسيحية أو المسلمة الذين تعايشوا معهم (كما يتضح من دراسات فصائل الدم للمجتمعات المختلفة). ولكن حافظ على نقاء العنصر اليهودى لحد ما تعليمات أحبار اليهود أن الشخص لكى يعتبر يهوديا ينبغى أن تكون أمه يهودية. بعد التحرر الذى حدث عقب الثورتين الفرنسية والأمريكية اكتسب اليهود كثيرا من الحقوق المدنية ولكن يهود أوروبا لم يتم اختلاطهم بغير اليهود إلا فى أضيق الحدود بعد القرن الثامن عشر. كثير من عظماء العالم نصف يهود، لأنهم أبناء غير شرعيين، أما اليهود الأنقياء، الشرعيون فيقل ظهور العباقرة بينهم.

بعد تفرق اليهود فى قارات العالم القديم الثلاثة فى العصر الرومانى لم يتم الالتزام بالقانون اليهودى الذى يقضى باقتصار الزواج من واحدة، وحدث تعدد الزوجات، خاصة بين الأثرياء والأقوياء من ذوى السلطان. بعد تحول بلدان الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية توقفت عادة تعدد الزوجات بين اليهود، محاولة منهم للحد من التناقض بينهم وبين المسيحيين أما من استقر منهم فى البلاد الإسلامية فقد شابهوا إخوانهم المسلمين وكان للثرى اليهودى زوجات عديدات (بالإضافة إلى عدة عشيقات) وحدث هذا أيضا مع اليهود الذين استقروا فى اليمن والحبشة ومالايار. دخلت كثيرات من النسوة المسلمات والوثنيات إلى حريم اليهود وهكذا نشأت طوائف من اليهود السمر ومن اليهود السود فى آسيا وأفريقيا ذوو ملامح وصفات جسمية وثقافية مختلفة عن بقية اليهود فى العالم.


التوسع اليهودى
١٠٠٠ ق.م. - ١٩٤٥ ب.م.
الولايات المتحدة
1835.....1945
New Amsterdam 1654
exp.1290
Oxford 1150
أمستردام
١٥٧٩
كولونيا
٥٠ ق.م.
Frankfort 800 AD
exp. 1182/1394
ليبنا
يديش
وارسو
كراكوف
١٣٣٢
المجر
نطاق العبريين ١٧٧٢ - ١٩١٧
Vilna
أوديسا
١٧١٩
رومانيا
القسطنطينية
الخزر
عولوا ٧٤٠ ب.م.
أرمينيا ٧٠٠ ق.م.
Venice 1516
Montpellier 1200 AD
Pisa
روما
٢٠٠ ق.م.
1220 AD
Burgos 1450 AD
Tudela 1160 AD
Lisbon
exp.1492
قرطبة
Majorca 45 AD
Salonika
Smyrna 1535 AD
Ephesus 50 AD
Tarsus (50 AD)
Jamaica c.1510
Tetuan 1492 AD
Fez 808 AD
AURÉS M'ts conv. 660 AD
جربة
٤٠٠ ق.م.
الاسكندرية
٣٠٠ ق.م.
Memphis 530 BC
القدس
Jebusites 2000 BC
David 1000 BC
IDUMÆA conv. 128 BC
نينوى
٧٢٠ ق.م.
حمدان
٥٣٠ ق.م.
بخارى
٣٠٠ ق.م.
بابل
٥٩ ق.م.
دمشق
Susa 500 BC
Elephantine 600 BC
ETHIOPIA c 200 AD
يثرب ٥٦٠ ق.م.
(المدينة)
اليمن ٥٠٠ ق.م.
Malabar 450 AD
1200 AD

كما وصل اليهود إلى الهند على فترات بعد الأسر البابلى، ولذا تواجد يهود كوشين فى ثلاث مستعمرات: يهود بيض ويهود سود. يعيش اليهود البيض فى شارع اليهود ويتكلمون باللغة المالايامية ويعملون بالتجارة وتبين فصائل الدم لديهم أنهم من أصول يهودية. اليهود السود من التهجين مع المسلمين والهندوس من الأجناس المحلية الذين اعتنقوا اليهودية كعبيد لليهود البيض، وليس لهم رجال دين ولا معلمين من أنفسهم بل يتبعون ويحترمون الطقوس التى يمارسها اليهود البيض وينقسمون إلى فئتين. أما اليهود السمر فهم من نتاج التوالد بين اليهود البيض واليهود السود ولا تقبلهم كلتا الفئتان ويتحول غالبيتهم بالتدريج إلى المسيحية. ويقع يهود اليمن فى موقع متوسط بين اليهود البيض والسود فى كوشين وهم نتاج تعدد الزوجات بين البعثات التبشيرية اليهودية وبين من اعتنق الدين اليهودى من السكان المحليين قبل مقدم المسيحية والإسلام إلى تلك البلاد ولا توجد فروق قومية أو أصلية جينية بين اليهود اليمنيين أو المسلمين اليمنيين، فكلتا الفئتان نتاج الغزو والفتح وتعدد الزوجات.

هذه أمثلة لكيف تعيش الديانة اليهودية بدون معلمين من اليهود وبدون كتبة ينقلون للناس ما جاء فى كتب اليهود ولكن بانتشار الجنس اليهودى فى الأقوام. ويعكس وجود اليهود السود كيف تستمر العقيدة اليهودية فى جنس منفصل بواسطة المعلمين، ويوضح تواجد اليهودية فى اليمن كيف تعيش الديانة بواسطة تعليم المعلمين من جنس هجين وتختلف تلك النماذج عما حدث فى الماندينيين أو لدى السابيين والسامريين واليهود القرائين (المذهب الذى نشأ فى بغداد فى القرن الثامن وقوامه رفض التمسك بسنة التلمود) والطوائف اليهودية التى نشأت بين التتار فى المقاطعة العبرية فى روسيا. كل هذه أشكال للانحطاط نظرا لتحطم الاستمرار الوراثى بين اليهود، والتى بلغت أشدها فى أفريقيا. كان تغلغل اليهود الأول فى أفريقيا نتيجة اعتناق أقوام تتحدث بالأمهرية للدين اليهودى من بين الطبقات الحاكمة فى المملكة الأكسومية قبل العصر المسيحى. وصل المبشرون بالعقيدة اليهودية من مصر، وربما من اليمن أو بالسفن على سواحل البحر الأحمر. سميت هذه الفئة من اليهود «بالفلاشا» وتعنى الأجانب. ترجم معلموهم الكتب العبرية إلى اللغة الإثيوبية وأدخلوا الطقوس اليهودية والأعياد والمعابد اليهودية إلى البلاد. استمر صراع أولئك اليهود مع الوثنيين ثم مع المسيحيين والمسلمين من أهل البلاد لما يزيد عن ألفى عام، وتغيرت من الأصول والممارسات خلال تلك الأعوام وانتهى الأمر بالفلاشا باتخاذ إلاهة تدعى «سانبات» بدلا من تقديس يوم السبت المعظم لدى اليهود واتبعوا نظام الرهبانية المسيحى وانقسموا إلى ثلاث شيع لكل منها كاهنه الأعظم. ترك للمسيحيين التفرقة بين الحيوانات النظيفة والنجسة وكانوا هم من استولى على السلطة. تقلص عدد الفلاشا بالتدريج بعد أن حرموا من ملوكهم وصاروا خدما لبقية الشعب، ولكنهم رغم هذا ما زالوا

محافظين على تفردهم الجينى وديانتهم المستقلة. أهمية الفلاشا أنهم أدخلوا الكتابات العبرية إلى قلب أفريقيا وحافظوا على تقاليد اليهود، كما حافظوا على بعض الصناعات التى اشتهر بها اليهود فى أوروبا: صناعات الخزف والنسيج والبناء وخاصة صناعات المعادن التى اشتهر بها الفلاشا وتميزوا بها عن سائر أقوام أفريقيا الوسطى. يتميز الفلاشا بأنهم البقية الضئيلة من شعب قديم، يختلفون فى لونهم وفى طباعهم، شعب دعم يوما ما حضارة أكسوم. من أسلاف الفلاشا نشأت قبائل كانت ماهرة فى الصناعات المعدنية ووجدت طريقها فى جميع أنحاء قارة أفريقيا، برعوا خاصة فى صناعات الحديد والذهب فى روديسيا، خلال القرون من الثالث عشر إلى السادس عشر. قد يكونوا قد ساهموا فى خلق إمبراطورية عظيمة ما زالت آثارها باقية فى قلعة زيمبابوى، ويتضح أثرهم هذا أوضح ما يكون فى قبيلة بالمبا.

البالمبا هم طائفة منغلقة على نفسها تتواجد ضمن قبائل الفندا والسوتو فى الترانسفال وفى روديسيا. يتميز أفراد هذه الطائفة بملامحهم السامية أو الحامية خلافاللملامح الزنجية لدى جيرانهم. ليس لهم رؤساء من أنفسهم بل يخدمون رؤساء قبائل الفندا والسوتو ويصنعون لهم الصناعات الحديدية والفخارية لا يزرعون ولا يربون الماشية ويتكلمون بلغتهم الخاصة بالإضافة إلى لغة الفندا. يتبعون فى الذبح الأصول الشرعية المباحة فى الشريعة اليهودية ويتبعون تعاليم اليهود فى أكل اللحم. يمنعون تماما الأساليب اللوطية واشتهاء المماثل المعتادة فى معسكرات الاستهلال لدى باقى قبائل البانتو. تشير أساطيرهم إلى العهد الذى وعد الله به شعبه المختار والذى أعطاه لملك عظيم له رموز مقدسة وما زالوا يحتفظون بها لدى الوريث الوصى. تذكر أساطيرهم أيضا هجرتهم من البحيرات الشمالية والغابات ومعيشتهم فى إحدى مدن زيمبابوى ويسمون الفندا وبقية الأقوام سواهم وثنيون غير مؤمنين. وهكذا يعتبر البالمبا أبعد درجة من اليهود عن الفلاشا، بسبب ضياع كتاباتهم واختفاء معلميهم وكتابهم الذين يستطيعون قراءة هذه الكتابات ولكنهم يشتركون معهم فى سائر الاتجاهات: طقوسهم ومهاراتهم اليدوية وملامحهم وفى أساطيرهم التاريخية، ويرجع هذا إلى رفضهم التزاوج مع غيرهم من خارج مجتمعهم. وقد احترم جيرانهم فيهم هذه وبجلوها وهكذا احتفظوا بجنسهم نقيا حتى الآن. ومما لا شك فيه أنه توجد أقوام أخرى ـ لا نعرفها بعد ـ بها آثار اليهودية متفرقة فى أنحاء أفريقيا.

منذ عصر تيتوس فى الإمبراطورية الرومانية والصراع دائر بين الاتجاهات الإمبراطورية والأفكار القومية، وليس للحلول الوسط أى موضع. ظهور رجال يقبلون الحلول الوسط مثل يوسيفوس نادرو الوجود. يمكن اعتبار قبول قسطنطين للمسيحية بعد ٢٥٠ سنة حلا وسطا، وقد أرضى هذا

الحل المسيحيين فحسب.أما اليهود فلن يرضيهم سوى العودة إلى مقامهم المقدس فى أورشليم، فهم لن ينسوا جريمة الرومان بتدمير بيت المقدس. من الذى لا يغفر؟ أولئك الذين بدأ أسلافهم الديانة اليهودية، الجنس الذى خلق الثقافة التى ترعرعت فى الأراضى المقدسة. بدأت الحركة الصهيونية بعد ١٨٠٠ سنة عندما بدأ زعماؤها سلوك السبيل الذى سلكوه واتباع الطريق الذى قادهم إلى الوضع الحالى والذى نازعوا فيه أقوام آخرين: المسيحيين والمسلمين خاصة الذين لهم حقوق دينية وتاريخية معترف بها فى نفس الأماكن والذين يودون تقاسم الأراضى المقدسة مع اليهود. يعرف الجميع ما قاساه اليهود من ظلم واضطهاد على مدى عصور التاريخ ولكنه نفس الظلم والمعاناة التى لاقاها الفقراء والمستضعفون فى كل أنحاء العالم، أولئك لا يجدون من يدافع عنهم أو يحميهم، تلك التضحية والمعاناة وذلك الظلم والاضطهاد الذين قلما يكتب عنه المؤرخون الذين يمول كتاباتهم الحكام فى كل البلاد. ولكن اليهود جنس مستمر، ذو ثقافة متصلة، خزنوا فيها الصالح والطالح من تاريخهم ومن أفعالهم على مر الأيام واكتسبوا بهذا طابعا عنصريا.

ولدت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ بعد جهاد جيلين من البشر وقامت على أساس وضعه مؤسسو الدولة اليهودية أن اليهود ينتمون إلى جنس واحد وينبغى أن يضمهم وطن واحد وأنهم ذرية آباء بعينهم عاشوا فى الأرض منذ نيف وستين جيلا. ولكن ما هى الحقيقة خلال تلك الأجيال العديدة. حكم اليهود أقوام آخرين، احتاجو لخدماتهم بعد أن تم اقتلاعهم من بلدان أخرى. اضطر اليهود للتأقلم مع هؤلاء الأقوام وللتكيف للعيش معهم، وإن تم عزلهم عنصريا عن باقى الأقوام ولم يسمح لهم بالاختلاط بهم أو التهجين معهم، سواء كانوا يعيشون فى مجتمعات وثنية أو مسيحية أو مسلمة. كان من حظ السيفارديم الحسن أن قبلتهم أقوام أخرى للعيش معهم أما الأشكنازيم فكانوا قد تفرقوا فى مختلف البلدان وكان إنشاء دولة إسرائيل جنة لهم للتجمع فيها بعد طول فرقة. وجدوا فى إسرائيل أقوام مختلفين عنهم أكثر من اختلافهم الشديد من إخوانهم السيفارديم. وجدوا فى إسرائيل يهودا قدموا من آسيا ومن أفريقيا، كما وجدوا يهودا جاءوا من أوروبا يختلفون عنهم كل الاختلاف. توالد اليهود الاوربيون مع إخوانهم الأوروبيين وتطوروا سريعا، ولكن نتج عن توالدهم بعض أكثر البشر تقدما وبعض أكثر البشر تخلفا، ويوجد فى بيت المقدس حاليا مجتمع عصرى على أحدث طراز يعيش جنبا إلى جنب مع مجتمع تقليدى، أصولى، جامد أشد الجمود – فى شيريم – ويحاصره كأسوأ ما يكون الحصار فى حارات اليهود. وهكذا وجد سكان الدولة الصهيونية الجديدة أنهم يعيشون فى دولة ذلك أجناس مختلفة العروق والأصول والطبقات والرغبات والاتجاهات كأى دولة حديثة فى هذا العالم. اختلافهم الأساسى بين باقى الأمم أنهم يعرفون تاريخهم جيدا، وهو تاريخ يقارب تاريخ الحضارة نفسها.

الباب العاشر

صـــــراع المجتمعـــات

الإصلاح الكنسى

تشغل العصور الوسطى حوالى ألف عام عاشت فيها أوروبا تحت حكم حكومة مزدوجة: حكومة دينية وحكومة مدنية. فى هذه الحكومة أو بالأحرى الإمبراطورية كانت قوة الأمراء وسلطة الكنيسة تظهر على السطح فى تعارض ولكنها كانت فى الحقيقة فى تصادم. وكلما امتدت حالة الاستقطاب هذه كلما زاد التعارض والتصادم تشابكا. يتضح هذا من علاقتهما بنمو القوى المعارضة لكليهما، استطاعت النظم الوطنية الصغيرة أن تتكيف مع تلك القوى سريعا بعكس السلطة المركزية الموحدة للكنيسة، وقد أدى تجمع تلك القوى فى النهاية إلى حركة الإصلاح الكنسى.

كانت السلطات الحاكمة، كما كانت جماهير الشعب تشعر بتلك القوى. كانت الخطوة الأولى هى المناداة بها على فم المثقفين وتجميعها فى كلمات المتعلمين. كان هؤلاء رجال تلقوا تعليمهم فى الجامعات وكانوا فى مبدأ أمرهم من رجال الدين وعملوا فى صفوف رجال الكنيسة لكى يكسبوا عيشتهم. كان من أوائل هؤلاء الرجال برنجاريوس من تورز (٩٩٩-١٠٨٨) الذى حاول فى المجامع الكنسية علنا لمدة ٤٠ عاما مع لانفرانك ومع البابا جريجورى السابع شخصيا ذكر أن استحالة خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه تتعارض مع النصوص، ومع أقوال آباء الكنيسة وكتابها القدامى، ومع العقل. كذلك كان يوحنا فيدانزا الفرانسسكانى (١٢٢١-١٢٧٤) الذى انتقد بيع صكوك الغفران التى تمنحها الكنيسة الكاثوليكية للمذنبين، ولكنه وصل رغم هذا ليصير أسقفا ثم كاردينالا فقديسا. ومن أشهر المعارضين لفساد الكنيسة توملبس جاسكوين (١٤٠٣-١٤٥٨) الذى كان رئيسا لجامعة أكسفورد ودأب على ملاحقة الهراطقة ومجادلتهم بحرارة ونادى بأن الأساقفة ينبغى عليهم ألا يحيوا حياة الترف التى يعيشونها ببيع التراخيص للقسس ليتخذوا لهم عشيقات. كانت كل تلك الأمور إدراك عقلى سليم ولاقت القبول لدى الجماهير التى رفضت استخدام الكنيسة السئ لسلطاتها. ثم

بدأ المثقفون يفحصون القرائن والوثائق التى اعتمدت عليها الكنيسة لممارستها. لسلطاتها وجد العلماء أنه لا يوجد بالإنجيل ما يفيد بأن الله قد منح باباوات الكنيسة ولا الملوك أى سلطات أو حتى أقر بوجودهم، وأن كل القرائن التى اعتمدوا عليها كانت مزورة، وأن الكنيسة اعتمدت فى وجودها التاريخى والقانونى على برنامج من الكلام المبتدع والملفق الذى ليس له أصل. كانت الفرص التى أتاحتها الكنيسة، الآخذة فى الإزدهار والنمو والثراء، لكبار الكتاب ليصيغوا التاريخ على هواهم وليستنبطوا الخلاصات القانونية والاجتماعية والسياسية، كانت لتلك الفرص المادية والسلطوية أبعد الأثر فى تشكيل الأحداث على هواها. اجتذبت الكنيسة، منذ أيام المبشرين الأوائل بالأناجيل، رجالا متعلمين، مثقفين، تفرغوا لخدمتها، واحتكرت الكنيسة نتاج عقولهم. وعندما تبين أولئك العلماء المخلصين لعقيدتهم. وجود تعارض بين النصوص التى بين أيديهم أو النقص الموجود بها وبين معتقداتهم التى آمنوا بها، كان من أيسر اليسير عليهم اختلاق ما يستكمل تلك النصوص، أو تحريفها حتى لا تكون موضعا لأى نقد قد يوجه إليها. اختلاق خطاب كتبه البابا كليمنت الأول فى روما لجيمس شقيق المسيح فى أورشليم يشرح له فيه كيف أن المسيح قد أوصى بتوريث قيادة الكنيسة للحوارى بطرس (الذى قامت على يديه كنيسة روما الكاثوليكية) من بعده، وتوريثها إلى خلفائه من بعده حتى تقوم الساعة، يكون عملا مقبولا. وعندما تبين عدم وجود هذا الخطاب أصلا، بعد قرن كامل، أعيد تزويره ثانية، وعادت السلطة مرة أخرى لأساقفة روما فى العالم الغربى بأسره (حتى ولو ثبت مرة أخرى أن الخطاب مزور). كلما مرت السنون كلما اتسع نطاق العمل فى تجديد وإصلاح وتوسيع أرشيف البابا، حتى صارت تلك العملية صناعة رابحة فى روما، وصارت لها فروع فى رايمز وفى مينز على اتصال بملوك الشمال، ودارت كتب المراسيم ووسائل توريث العروش المختلفة لعدة قرون بدون أن يعرف مزوروها. ووصلت ذروة هذه العملية فى اللحظة الحرجة عندما تفاوض الملك بيبين ونجله ــ ملوك الفرانك ــ مع الباباوات المتتالين فى الاعتراف المتبادل لسلطاتهما المدنية والدينية، تلك الفترة التى انتهت بتتويج البابا لشارلمان فى روما يوم عيد الميلاد ٨٠٠ والتى صدرت عنها الوثيقة المساة «هبة قسطنطين»، والتى سلم فيها الإمبراطور ــ وكله أسى وندم ــ كافة سلطاته الإمبراطورية لأسقف روما.

مع تصاعد الجامعات فى بادوا وفى باريس خلال القرن الثانى عشر ظهرت أفكار جديدة عبرت عن نفسها بالشك فى صحة تلك المستندات. بدأ كتاب بعيدون عن مكاتب البابا يميلون ناحية الملوك والأباطرة ويعادون الكنيسة، وبدأ ناقدان عظيمان معاصران، دانتى (١٢٦٥-١٣٢١) ومارسيجليو (١٢٧٠-١٣٤٢) يقودان حملة لكشف بهتان رجال الكنيسة وتزويرهم للمستندات والتشكيك فى أصول وأسس الشرائع والقوانين الكنسية وفى السلطة البابوية. تبع هذا سيل من إفشاء الأسرار التى ظلت

مختبئة، واستمر هذا البوح منتشرا للقرون التالية. ظهرت للعيان أمراض كما ظهرت حقائق تثير التهكم والسخرية فى التناقضات التى كانت تمارسها الكنيسة، فقد كان البابوات الأوائل فقراء، ضعفاء يحمون أنفسهم بأكاذيب مختلفة ضد أعدائهم الأقوياء، وتبعهم رؤساء أقوياء للكنيسة، صاروا أثرياء، ولكنهم كانوا أشرارا فاسدين وتعرض الجميع لحملات ضارية لم تكن منتظرة من أعداء مثقفين كشفوا ألاعيبهم فى تزوير المستندات والوثائق (كما تم الكشف أيضا عن صناعة تزوير آثار القديسيين). تزوير الوثائق التاريخية والدينية مثلها مثل تزوير الآثار المختلفة للقديسيين كانتا من عدة الكنيسة الكاثوليكية التى أعدتها لحماية نفسها ودعم سلطاتها. وقد بدأت تلك الوثائق المزورة والآثار المختلفة منذ عهد قديم وما زالت حتى عصور متأخرة، ولو أنها اقتصرت فيما بعد على روما فحسب.

قبل أن تأخذ هذه الانتقادات التى أتت من جهات أكاديمية قوتها الحاسمة، جاءت هجمات أخرى على الكنيسة من جهتين أخريتين. جاءت الهجمة الأولى من المجتمع الغربى وكان من أثر أعمال بيتروالدو، التاجر من مدينة ليون، الذى أدعى الفقر وصار يبشر بالفضائل المسيحية حتى وجد نفسه فى عام ١١٧٠ متهما بقيادة طائفة من الهراطقة. تتبعت الكنيسة أعضاء تلك الطائفة من مكان لمكان حتى اضطروا للجوء إلى أماكن بعيدة، خاصة فى وادى ديورانس حتى تم القضاء عليهم نهائيا فى عام ١٥٤٥ (ولو أن بعضهم هرب ثانية ولجأوا إلى أمكنة أبعد، فى وديان بيدمنت). استمر رسلهم واستمرت بعثاتهم التبشيرية تذكر الحكومات فى شمال أوروبا أن الاحتجاج ضد فساد الكنيسة يمكن أن يحدث، حتى فى إيطاليا ذاتها، وأن المحتجبين على الكنيسة بإمكانهم البقاء على قيد الحياة فى عدة أماكن فى أوروبا.

حدثت الهجمة الثانية ضد الكنيسة عندما جاءت بعثات تبشيرية من الشرق واخترقت عدة مدن فى غرب أوروبا. جاء هؤلاء القوم من البوسنة بالقرب من سراييفو. ترجع تلك الجماعات إلى الخلاف الذى كان دائرا فى البلقان بين الشرق والغرب وإلى تسامح الغزاة الأتراك. أخذت تلك الجماعات من المسيحية العهد الجديد ولكنها رفضت الاعتراف بألوهية المسيح وسلطان البابوات ووجود القديسيين والقديسات وتصاويرهم. قد يكونوا قد آمنوا بتقمص الأرواح أو التناسخ. وصفتهم الكنيسة بأنهم مانويين، ثنويين، يؤمنون بعقيدة ثنوية قوامها الصراع بين النور والظلام واعتبرتهم من الهراطقة الذين يعتقدون بوجود مملكة للشيطان، التى لا يمكن الفكاك منها إلا بطرح كافة الملذات الجسدية والتى تشمل أكل اللحم وشن الحرب والتناسل، وهكذا يعيشون فى طهارة ونقاء. بالرغم من هذا لم تكن هذه الطائفة من العزاب بل زاد عددهم باجتذاب آخرين للإيمان بمبادئهم وبالتكاثر

المشروع. تحول إليهم إناس من مختلف الطبقات واستوعبوا هراطقة آخرين من بلاد الراين وفلاندرز وشمبانيا وبلغ تعدادهم عدد كبيرا فى بروفونس، حيث تكثر الاختلافات: اختلافات العرق والثقافة ولغة الحديث والسياسة، بينهم وبين جيرانهم فى الشمال. يرجع هذا الاختلاف إلى حياتهم الريفية قبل العصر الرومانى وإلى الاستعمار الرومانى وإلى تغلب الارستقراط القوطيين على أسلوب حياتهم بعد العصر الرومانى. سميت تلك الطائفة باسم «الكاثاريون» واعتبرتهم الكنيسة من الهراطقة وعملت على استئصال شأفتهم. ابتدأت بحملات محلية فى ريمس فى عام ١١٥٧ ثم فى كولونيا عام ١١٦٣ ثم فى أكسفورد باتهامهم علانية ثم بحرق ممتلكاتهم وضربهم بالسياط؛ ثم تجمع النبلاء النورمان والفرنسيون من شمال فرنسا تحت قيادة سيمون دى مونتفورت واحتلوا الولاية الجنوبية وأخمدوا الانتفاضات المتكررة بعد أن أعلن البابا عام ١٢٠٩ أنهم مارقون. أثبتت تلك الحملات فائدتها العظيمة للبابا وللنبلاء، فهم يجمعون الأموال على حسبها ويحتلون الأراضى ويُثَبِّتون الأصولية فى ضربة واحدة، وقد فتحت تلك الحملات للكنيسة الباب واسعا للضرب الثالث من ضروب القمع، فقد تبين البابوات الطريق البديل لقتل الناس كل حين وآخر بلا محاكمة. ابتدعوا نوعا جديدا من القوانين الكنسية والطقوس الدينية تحت السيطرة المباشرة لمكتب الرئيس الأعلى للكنيسة ـ محاكم التفتيش. بدأت تلك المحاكم أعمالها فى عام ١٢٣١ بتوجيه من الفرع الجديد ـ الفقير ـ للكنيسة الذى ضم الشحاذون ـ خاصة طائفة الدومينيكان. دأبت محاكم التفتيش على تعقب أولئك المخالفين للفكر التقليدى للكنيسة، المجددين، واعتمدت على قوى الطغيان المدنية واتهمت المنشقين عنها بالخيانة. كانت تنتزع الاعترافات من الناس عنوة بتعذيبهم وتهدد كل شهود النفى بالويل والثبور وعظائم الأمور، وتلقى عليهم نفس تهم المتهمين، وبعد إصدار الأحكام من المحاكم تتولى سلطات الدولة تنفيذ الأحكام وحرق المحكوم عليهم ومصادرة جميع أملاكهم، وبذا تتوافق مصالح الكنيسة والدولة التى كانت تتعارض فى سائر الأمور. واستمرت محاكم التفتيش هذه تلعب دورها فى إسبانيا حتى عام ١٨٣٤، وقد وصلت إلى قمة بطشها فى القرن السادس عشر، وكان تأثيرها عظيما على تطور المجتمعات الغربية. فى نفس الوقت استمر الصراع مع بقية طوائف المخالفين المتهمين بالهرطقة وتم حرق المئات منهم فى أعوام ١٢١٠ و١٢٤٤. هكذا تم القضاء على الهرطقة وعلى حضارات بروفنس ـ أو هكذا خيل لهم. الحقيقة أن الهراطقة توزعوا فى البلاد وأن الحضارات تفرقت وانكسر استمرارها الثقافى، ولكنها فى تفرقها فى ثنيات المجتمع الأوروبى احتفظت بالحماية من الزوال ـ ثقافيا ووراثيا. اختفى الأفراد كرجال دين مؤمنين وبعدوا عن البطش والتدمير كسائر المثقفين واختبؤا فى أماكن بعيدة عن الأنظار، أكثر أمنا ـ حتى حان وقت ظهورهم فى زمان غير الزمان السئ والبغيض الذى اضطروا فيه للاختباء.

جون وايكليف

كان لا بد من مجئ زمان أفضل من الزمان ومكان أحسن من المكان. كان لا مناص من أن يجمع المتفرقون وأن يتوحد النقد الفردى إلى حركة جامعة من الاعتراض الجماعى فى مجتمع أكثر تعليما وأعمق ثقافة وأشد تماسكا. ظهرت هذه الحركة بعد مرور خمسين عاما من ظهور أعمال دانتى ومارسيجليو، حدثت فى انجلترا فى جامعة أكسفورد بتأثير شخصية رجل الدين الشعبى جون وايكليف، الرجل واسع الثقافة كثير الأتباع. حدث هذا قرب نهاية حكم الملك إداورد الثالث عندما هاجم المتظاهرون كنيسة برى، وكنيسة القديس ألبانز وكنيسة أبينجدون. شارك المتظاهرون المعترضون لفيفا من علية القوم وكثيرا من المثقفين. كان الإنجليز حاليا يتخذون لأنفسهم لسانا غير اللاتينية تعلموه من كتابات لانجلاند وأشعار شوسر. ارتفع صوت الإنجليز بالاعتراض وبالقومية الجديدة التى بدءوا يتخذونها لأنفسهم، خاصة بعد حروبهم مع فرنسا التى استمرت لأربعين سنة واعتبرها الإنجليز تحرير من السيطرة الأجنبية التى كانت الكنيسة عنصرا فيها. فى بداية القرن الرابع عشر، فى عام ١٣٠٩ أقنع الملك فيليب، ملك فرنسا البابا ــ وكان فرنسيا ــ أن يهجر روما ويقيم فى أفينيون. ومن هناك، تمكن ملك فرنسا أن يضغط على البابا ويجعله يستخدم محاكم التفتيش ليحطم جماعة فرسان المعبد ويصادر ممتلكاتها واتخذ ممارسة أعضاء تلك الجماعة للواط ذريعة للقضاء عليهم. استمر البابوات الفرنسيون ــ يحيطهم الكرادلة الفرنسيون ــ يخدمون مطامع السياسة الفرنسية حتى عام ١٣٧٧ عندما انتقلت البابوية ثانية إلى روما، وهنا حدث انقسام حاد بين الفرنسيين والإيطاليين وتم انتخاب بابوين أحدهما فرنسى وأحدهما إيطالى، تنازعا السلطة لمدة ٤٠ عاما. بينما استمرت البابوية فى تحصيل مستحقاتها وامتيازاتها من الإنجليز، واستمرت تغدقها على أتباعها ولم تعن حتى بزيارة انجلترا. كان الانقسام الذى حدث فى البابوية هو الفرصة السانحة لوايكليف للحط من شأن البابوية وطردها أو تدميرها والعودة بالمسيحية إلى الصواب. صادف هذا اعتلاء غلام صغير للعرش ووضع تحت رعاية أوصياء اختلفوا فى شتى الأمور، مما زاد من فرصته فى ضرب ضربته. جمع القرائن الكثيرة الدالة على انحراف الكنيسة وأشار إلى الفوائد التى سوف تجنيها انجلترا فى السياسة القومية وفى المركز الاقتصادى. كان وايكليف يُعرف بالنصائح المعادى للبابوية التى كان يشير بها على عم الملك، فدعاه البرلمان للحضور إلى لندن لإظهار مزايا الامتناع عن دفع الضرائب للبابا. كان هذا بداية التمرد ضد كنيسة البابا وسلطانه، وتبع الامتناع عن دفع الضرائب توقف الاعترافات للقسس والامتناع عن تقديس التصاوير وعن الحج إلى بيت المقدس وعن الإسهام فى الحملات الصليبية. نادى وايكليف بأن يتوقف المذنبون عن دفع الأموال لرجال الدين للحصول على العفو والمغفرة، وأن البابا نفسه، المخطئ والعاصى، لا يستحق أن تدفع له الأموال.

كان قلب الموائد بهذا الشكل على رجال الدين وإنهاء سياسات اتبعوها لألف عام يقتضى الرجوع إلى الأصول والعودة إلى الكتاب المقدس واتباع الإرشادات التى جاء بها الإنجيل، وهنا جاءت المشكلة المستعصية. كان كبار رجال الدين وحدهم هم القادرون على قراءة اللغة اللاتينية الفصحى التى كتب بها الكتاب المقدس. كان بعض النبلاء قادرا على قراءة أجزاء قليلة من الكتاب المقدس الذى ترجم إلى اللغة الفرنسية، ولكن كانت غالبية الشعب من العوام ولم يكونوا يستطيعون قراءة أى شئ، لأن اللغة الإنجليزية التى يتحدثون بها لم تكن قد كتبت بعد. استطاع وايكليف مقابلة تلك الأزمة، بمعاونة اثنين من أخلص تلاميذه: نيكولاس هيرفورد وجون بيرفى، بوضع ترجمة إنجليزية للكتاب المقدس لضمان نجاح الحركة ضد الكنيسة البابوية. انتهى العمل من هذه الترجمة بعد ١٢ سنة من وفاة وايكليف نفسه، وكان هذا عملا رائعا تم فى سرية وكتمان وفى عزلة.

تمت ملاحقة هذا العمل واضطهاد من قاموا به، خوفا من بناء مجتمع جديد. ولكن تبع تلك الترجمة بدء كتابة النثر المبدع باللغة الجديدة، الإنجليزية، التى اقتصرت حتى ذلك الوقت على بضعة قصائد متناثرة من الشعر. وتبين الناس أنهم يمكنهم التعبير عن أنفسهم وآرائهم باللغة الإنجليزية، وأنه لا محل للتفرقة بين لغة المثقفين ـ اللغة اللاتينية ـ ولغة عامة الشعب. وهكذا انتشرت الثقافة ـ فيما لا يزيد عن قرن من الزمان ـ من أصولها فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى البلدان فى أقصى الشمال، وتبع انتشار الثقافة انتشار الحضارة إلى شمال أوروبا، التى مهد لها خلال ألف عام سابقة هجرة التجار والصناع والمثقفين حثيثا إلى تلك البلاد الشمال. وربما تكون لبدء اللغة الإنجليزية ـ بهذه الترجمة ـ أعظم الآثار الثقافية فى العالم بأسره خلال مختلف عصور التاريخ.

كان الخط الثانى الذى اتبعه وايكليف فى هجومه هو اعتماده على الطبقة الحاكمة. كان يعتقد فى مبدأ الأمر أنه يستطيع الاعتماد على نجلى الملك إداورد الثالث وعلى تأييدهم. ولكن أحدهما توفى فى سن صغيرة وانفض الثانى من حوله ورفض تأييده عندما تبين أنه يعارض الكنيسة. كان الشاعر شوسر قد وضع فى أشعاره المسماة «حكايات كانتربرى» هجوما على الكنيسة وعلى رجال الدين: القسس والرهبان والراهبات، والذين يعترفون للقسس والذين يمنحونهم الغفران. كان النبلاء سعداء بالاستيلاء على أملاك الأديرة وعائد الممتلكات التى كان يحصل عليها رجال الدين، وكانوا فى انتظار اليوم الذى يتم لهم فيه الاستيلاء على تلك الممتلكات بعد أن منح ملك فرنسا نبلاءها تلك الأراضى. لم يكن للإنجليز أى ولاء سابق أو لاحق للإيطاليين ولا للفرنسيين، الذين كان لهم كاردينالا فى كل بيت عريق من البيوتات الفرنسية أو الإيطالية (ولم يكن هذا هو الحال فى انجلترا)، الذى كان يستطيع ـ بعد سن الثانية عشر ـ أن يرشح لكرسى البابوية.

كانت جميع العروش فى أوروبا تعتمد على اعتراف البابا بها، وجميع الملوك يستمدون سلطانهم من سلطان البابا نفسه. كان البابا هو الذى يبارك زيجاتهم ويعترف ببنوة أبنائهم وشرعيتها. كانت كافة مدارس القانون تتقاضى نفقاتها من البابا وكانت جميع الجامعات تعتمد فى إداراتها على رجال الدين وعلى المنح المتوالية التى تبقيها على قيد الحياة. صارت عادات وتقاليد ومعونات ثلاثين جيلا فجأة فاسدة أشد الفساد! اختلف الإنجليز أيضا ـ من بقية شعوب أوروبا ـ فى مستواهم الثقافى والحضارى. كان نبلاء سائر البلدان الأوروبية أكثر ذكاء وأكثر تعليما وأشد ثقافة من النبلاء الإنجليز. كانت أوروبا فى ذلك الوقت على مشارف عصر النهضة نظرا لتعاظم ثرواتها وزيادة قوة تجارها وصناعها فى المدن الإيطالية بينما كان نبلاء انجلترا مقدمين على حروب الورود. فى المدن الإيطالية ـ وعلى رأسها فلورانسا والبندقية ـ استطاع التجار أن يتزاوجوا من بنات البيوتات الارستقراطية الكبيرة: ميديتشى مع كولونا، وحكموا البلاد بمعونة كبار المثقفين. أما فى انجلترا فكان أقصى ما استطاع التجار بلوغه هو التزاوج من بنات صغار شرفاء المحتد، أما كبار النبلاء الإنجليز فكانوا لا يتزاوجون من بنات التجار الأثرياء وظلوا طبقة صغيرة داخلية التوالد من العسكريين، وكان الجهل يسود طرقهم فى الحكم، وكان أقصى ما تعلموه هى ما تعلمه مدارس الكنيسة، وكان مدرسوهم من رجال الدين الخبثاء. كان الإداريون من رجال الكنيسة، وكذلك كان المحامون وجامعو الضرائب. كانوا فى حاجة إلى أموال الكنيسة، فقد كان الملك يتقاضى تسعة أعشار المبالغ التى يجمعها البابا لنفسه وكانت الممتلكات متقاسمة بينهما وكذلك كانت السلطة. كان الملوك والنبلاء يخشون عقوبة الطرد من الكنيسة لأنها كانت تعنى سقوط مركزهم فى المجتمع المسيحى وقد حدث هذا فى ثورة الفلاحين عام ١٣٨١.

تعاون ثائر خطير ـ وات تيلور ـ مع قسيس من أتباع وايكليف ـ جون بول ـ فى طلب إلغاء نظام عبودية الأرض. أصبحت المعانى المتضمنة فى تعليم وايكليف بالسيادة التامة على الأراضى وعلى الفلاحين واضحة وضوحا مميتا. كان البابا صاحب المبدأ أنه وحده، ببركاته، هو الذى يمنح الملوك والنبلاء حق السيادة على الفلاحين والسيطرة على الأراضى، ولكن وايكليف نادى بأن الابتعاد عن الخطايا وتجنب الرذيلة هو كل ما يلزم الإنسان. كان البابا يمنح بركاته للأقوياء ويبيعها للأغنياء ولكن وايكليف كان يمنح الفقراء والضعفاء تلك البركة. عندما واجه الملك والنبلاء وات تيلور كانوا يضعون أيديهم مع الأساقفة لإخماد الثورة وقمع المصلحين. وهكذا ثبت أن الملاك الكبار فى الكنيسة والملاك الكبار فى الدولة يمشون فى صعيد واحد على نفس الخط. كانت محاكم التفتيش فى أوروبا تتعامل مع الهراطقة والخارجين عن الكنيسة بفاعلية شديدة على مدى ١٥٠ عاما. طالب الأساقفة بدخول محاكم التفتيش هذه إلى انجلترا عام ١٣٩٧ ووافق البرلمان على هذا عام ١٤٠١،

وقد أحرق الملك هنرى الرابع الشخص الأول فى فبراير فى سميثفيلد بلندن، حتى قبل أن يصدر القانون بهذا الإجراء. لم يرفع كبار الأغنياء ذوو الممتلكات الشاسعة أى اعتراض ضد هذا القانون، ولكن أحد صغار النبلاء سير أولد كاسل ــ لورد كوبهام اتهم بالهرطقة والخيانة وألقى القبض عليه وتم شنقه عام ١٤١٧ بعد أن ظل مختفيا لمدة ثلاث سنوات وبعد تفريق أعوانه.

كانت حركة الإصلاح بتبعاتها السياسية وآثارها الاجتماعية والدينية هى أولى الحركات التى اشترك فيها الشعب الإنجليزى ونفذت إلى أعماقهم. ينعى النقاد على من قاوموا تلك الحركة وقمعوا الثوار، ولكن منْ يتعمق فى الأمر يرى أن الثورة الإصلاحية لو كانت قد أخذت بمبادئ وايكليف واتجاهات أولد كاسل وتشكلت حكومة جديدة فى انجلترا فى ذلك العهد رافضة تماما سلطة البابا والإدارة الكنسية لعمت الفوضى فى البلاد، ولذا كان قرار الملك وكبار النبلاء على حق فى موضعه. فالذى أمكن تحقيقه بعد قرن كامل كان من المستبعد أن يتم فى ذلك الحين. كانت الحركة الإصلاحية التى بدأها وايكليف مقدمة لثورة أتت ثمارها فيما بعد. كان الأساقفة ضعفاء وأشرارا وكانوا أغبياء وضيقى الأفق، ولكنهم كانوا سياسيين حاذقين على دراية تامة بمصلحة طبقتهم، والتى كانت متوافقة ــ فى تلك اللحظة ــ مع مصلحة الأمة. كان الأساقفة الذين يتعقبون الهرطقة ويعذبون بكل حماس ويحرقون على استحياء من يتهم بتلك التهمة، إنما كانوا يؤدون واجبهم الذى كلفوا به. وكانت الطبقات الحاكمة تنفذ ما يحافظ على مصالحها الأنانية بدون وعى بالصالح العام، ولكن عاون كلا الجانبين ــ بدون أن يدروا ــ على تقدم الطبقات التى جاءت بالحضارة فيما بعد وعلى نمو الفئات التى أتت بالثقافة والمدنية فى العصور التاريخية التالية.

تعاونت الكنيسة والدولة ــ لمدة مائة وخمسين عاما ــ فى انجلترا على حرق الهراطقة. وكان الخوف من العقوبات الأقل عنفا ــ مثل الاستيلاء على الممتلكات وفقد المناصرة والرعاية ــ دافعا ليتخلى المثقفون عن حركة وايكليف سواء كانوا من رجال الدين أو من شرفاء المحتد. ولكن كانت المعاناة من نصيب السواد الأعظم من الشعب من الفقراء وغير المتعلمين الذين بدأوا يفكرون لأنفسهم ولا يفكر لهم أحد. ولكن ــ فى ذلك الوقت ــ لم يكن تفكيرهم تفكيرا عميقا ولم يكن إدراكهم بعيدا واستمروا يلقون اللعنات ــ سرا وعلانية ــ على ممتلكات الكنيسة وعلى أثريائها. لقب هؤلاء بأتباع وايكليف وكان معظمهم من الصناع ذوى المهارة الفائقة. استمرت تلك الفئة فى النمو سريعا بمجهوداتها الخاصة وبازدياد ثراء الدولة التى كانت ترجع أصلا لمجهوداتهم ومبتكراتهم وإبداعهم. وعندما تمت طباعة الكتاب المقدس ووقع فى أيديهم لم يكن هناك ما يحول دون أن يقرأوا دينهم بأنفسهم ويفسرونه بأنفسهم، وجاءت من ذريتهم فئة «المطهرين الأنقياء» وصاروا العمد التى قام

عليها جيش كروميل وثورة مونمارث وأسس الحركة الرافضة للتقليدية وكانوا أيضا أساس الثورات الصناعية والتجارية والعلمية التى تلت تلك الانتفاضات السياسية والاجتماعية. فى نفس الوقت انشغل الأساقفة بمطاردة أتباع وايكليف وتدمير كتاباته، ولكنهم كانوا يرتعدون من النظرة الجديدة التى أتت فى النهاية على العهد القديم. كانوا يحصلون على نسخ من الكتاب المقدس الجديد ويتدارسونه (الذى كانوا يطلقون عليه الكتاب المقدس الجديد للهراطقة). بعد أن قرءوه بلسانهم لم يملكوا إلا أن يتأثروا به أشد التأثر ووجدوا فيه عذوبة وجمالا بعيدة عن الطقوس والتعليمات الجافة التى كانوا يزاولونها ويبشرون بها. يرجع الفضل إلى مثقفو أكسفورد وإلى المنح الدراسية التى أغدقتها جامعة أكسفورد على الدارسين فى سرعة انتشار الكتاب والتعليمات التى أتى بها وكانت لها الآثار السريعة فى تغيير المجتمع. وسرعان ما انتشر الشرر إلى خارج البلاد وصار حريقا مشتعلا.

يـــان هـــوس

لاحظ المثقفون التشيك المرافقون لأن أميرة بوهيميا إلى انجلترا لزفافها للملك الصغير ريتشارد عام ١٣٨٣ أن أكسفورد تستعيد مكانتها بعد شجبها لوايكليف فى نوفمبر السابق. استطاعوا الحصول على نسخ من كتاباته وعادوا بها إلى بلدهم. بعد سنوات تمكنوا من العثور على سندهم الأكبر ـ يان هوس. عثرت الشرارة على بترولها سريع الاشتعال. كانت بوهيميا ـ البلد الذى يقع فى وسط أوروبا مكان التقاء صالح لجميع الظروف. كانت بلدا عتيقا غنيا بالمعادن، مليئا بعمال المناجم، بلدا قويا، صلبا، مستقلا، متحررا ومغامرا، كان يأوى فرقا كثيرة من الهراطقة وطوائف مختلفة من المتشككين الذين لم تتوصل محاكم التفتيش لاستئصال شأفتهم، كما كانت بوهيميا فى تلك اللحظة تعانى من مخاض الخلافات الاجتماعية. بلغ الصراع بين الأصول العرقية للمواطنين والطبقة الاجتماعية التى ينتمون إليها ذروته، كما كان الحال فى انجلترا منذ ثلاثة قرون، ولم تتوصل البلاد إلى الإخدوعة التى توصلت إليها انجلترا بتوحد أجناسها (ولم تتمكن من الوصول إلى تلك الصورة المضللة فيما بعد نظرا للخلاف الدينى الذى ساد البلاد). كانت الطبقة الارستقراطية والنبلاء ورجال الدين وساكنو المدن من المتحدثين بالألمانية، فى حين كان سواد الشعب ورجال الدين فى الريف والقرويون من المتحدثين بالتشيكية، وضمت جامعة براج الصنفين، وفى خضم هذا الصراع جاء الشقاق البابوى وكتابات وايكليف ومواعظ هوس.

كانت الجامعة مركز العاصفة وكانت تضم أربع قوميات. كانت تضم بافلريون وساكسون وبولنديون وتشيك. فى عام ١٤٠٩ انصرفت عنها القوميات الثلاثة الأولى وبقى فيها التشيكيون فحسب الذين صمدوا مع قائدهم يان هوس. طرد كبير الأساقفة هوس من الكنيسة وحرمه من بركاته وصار

مائتى مجلد من كتابات وايكليف وتم إحراقها. ولكن ذلك لم يمنع من استمرار التعليم والوعظ وانتشر الداء. بعد أربع سنوات عقد مؤتمر كنسى فى كونستانس لضم الصفوف وإزالة الشقاق وأغرى هوس لحضوره بعد تقديم الوعود بسلامته وأمنه، ولكنه حوكم على مدار عامين وحكم عليه وتم حرقه.

أضرم هذا الحدث النار فى أتباع هوس ونشأت طائفة معارضة ـ مثل أتباع وايكليف ـ ضد رجال الدين وضد النبلاء وضد الألمان فى بوهيميا ومورافيا. جمعت هذه الطائفة حولها زعماء الإصلاح الكنسى المتفرقون فى مختلف البلدان وحضر بيترپاين (١٣٨٠-١٤٥٥)، رئيس جماعة وايكليف فى أكسفورد ومكث أربعين سنة يدعو للثورة، كما وفد إلى بوهيميا لاجئون مثقفون من الجبال وبعثات التبشير تاركين إخوانهم غير المتعلمين ونذروا أنفسهم لتلك العقيدة الجديدة وصاروا أساقفة فى هذا المذهب الجديد. كانت محاكم التفتيش عاجزة عن التصدى لتلك الأنشطة. قاد البابا مارتن الخامس عام ١٤٢٠ حروبا ضد الهوسيين استمرت على مدى ثلاثة عشر عاما وأدت إلى تفرق حركة الإصلاح الدينى. قَبِل الغالبية إنشاء كنيسة تشيكية خضعت فى النهاية لروما بينما رفضت الأقلية وتحولت فى النهاية إلى «الإخوان المورافيين».

خمدت الشعلة وأنطفأ النور، ولكن فى البلد الذى أضاء فيه فحسب. تفرق القوم، ولكن حمل الإخوان المورافيون تعاليم وايكليف ونادوا بأن المعول يتوقف على السلوك، وأن الشئ الهام هو إبقاء موقده. قلدوا العبريين فى انتشارهم فى أوروبا أولا ثم فى أمريكا. مثل إخوانهم من أتباع وايكليف كانوا صناعا مهرة وقد تعاونوا معهم لاتمام حركة الإصلاح الدينى.

مـــارتن لـــوثر

بنهاية القرن الخامس عشر تواجد فى أوروبا، فى جميع البلدان، إناس مثقفون كانوا على دراية بما فعله وايكليف وهوس وكانوا يعملون فى صمت ضد محاكم التفتيش وما ارتكبته فى حق الإنسانية. وكان التذمر يصل ببعضهم، بين الحين والآخر، إلى درجة العلانية مثل الراهب شديد التحمس فلورنتين من سافونارولا. فى كل مرة كان يتم إخماد التمرد بالبطش باستخدام سلطة الحكومات، فقد تم حرق الراهب سافونارولا فى ميدان القديسين فى وسط فلورنسا عام ١٤٩٧ وتهيأ للكنيسة أن النظام قد عام بعد الثورة.

هكذا استطاعت محاكم التفتيش أن ترهب منتقديها، ولكن بإرهابهم قضت على كل محاولات الاحتفاظ بسلطانها المتهاوى (شأنها شأن كل الدكتاتوريات). منذ أن طبع جوتنبرج الكتاب المقدس باللاتينية عام ١٤٥٦ فى مدينة مينز بدأ الإنجيل نفسه يتغير حثيثا وبدأت تدخله رياح التغيير بدون

الحاجة إلى اضطراب خارجى. بدأت أجزاء من الكتاب المقدس تطبع باللغات المحلية: الألمانية فى عام ١٤٦٦، الفلمنكية فى ١٤٧٧ ثم بالفرنسية والإسبانية والتشيكية وبالإيطالية، ولكن ليس باللغة الإنجليزية. فقد عرفت الكنيسة الإنجليزية خطورة ترجمة وايكليف ولم تشاهد انجلترا ترجمة مطبوعة للكتاب المقدس إلا بعد ألمانيا بستين سنة.

انتشر النقد حثيثا داخل المجتمعات فى جميع أنحاء أوروبا مما اهتز له التعليم التقليدى وضاع احترامه وهيبته، وتبادل عامة الشعب مع المثقفين الحوار. راجع إرازموس النسخة الإغريقية من العهد الجديد وتبين وجود اختلافات كثيرة وأخطاء بينة مع إنجيل چيروم الذى تعتمد عليه الكنيسة. فى العام التالى تحدى لوثر الكنيسة فى ويتنبرج فتصدع السد ثم انهدم. تحطمت هيبة الكنيسة فى ذاك المكان فى هذا الوقت، رغم أن كل المثالب التى ذكرها لوثر كانت معروفة ويتناقلها الناس منذ عهد بعيد. كان كل ما قيل سبق قوله من قبل. الجديد كان فى الوضع السياسى والحالة الاجتماعية. تبين الحاكم المنتخب الساكسونى مع ثلاثمائة من رفقائه أن الوقت قد حان ليرفضوا الولاء لبابا روما مع بلوغ الإمبراطور سنا متقدمة. جاء لوثر أستاذا بالجامعة عام ١٥١٢ واتخذه الرئيس ناصحا له ومرشدا فى الشئون الدينية، وليستعين به فى مقاومة طلبات البابا. صارت الخطى أسرع كثيرا من الزمن الماضى - بعد اختراع الطباعة. ما كان همسا خافتا صار فرقعة مدوية، يصل دويها عاليا إلى أسماع البابا والإمبراطور.

نشب صراع مرير بين الشعب الألمانى خلال الثلاثين عاما التالية وانقسم الناس إلى كاثوليك وبروتستانت (محتجين). انقسم الفلاحون فى الريف والمثقفون فى المدن والأمراء فى إماراتهم والتجار والصناع فى مدنهم المتحررة، انقسموا إلى فرق متناحرة. اعتنق معظم سكان المدن المذهب البروتستنتى، بينما فى الريف تبع السكان مذاهب أمرائهم سواء كانوا كاثوليكا أم بروتستانتيين. مال الحكام العقلاء لما كانت ترغبه شعوبهم. بقيت أقليات عنيدة متمسكة بآرائها، وقد اضطرت تلك الأقليات للهجرة خارج البلاد من إمارات ألمانيا الصغرى، بينما فى البلدان الكبرى ــ كانجلترا وفرنسا ــ قاومت الأقليات وحاربت دفاعا عن رأيها وعقيدتها.

كرانمـــر

قطع ملك انجلترا ــ هنرى الثامن ــ صلته بكنيسة روما فى عام ١٥٣٤ ونصب نفسه على رأس الكنيسة الإنجليزية، وكان يعنى حقا ما اتخذه من قرار باستقلاله فى شئون الحكم والزواج والحفاظ على دخل الكنيسة لبلده، والاحتفاظ به بين يديه، وتوزيعه بمعرفته على أتباعه وخدمه كمنح للنبلاء الجدد. ولكنه وضع الكتاب المقدس الإنجليزى فى كل كنيسة وأبروشية. بعد ست سنوات استعان

بالأساقفة لضمان سلطان الملك ولكن الأساقفة خالفوه وبدأوا يتحررون تدريجيا من اتباع تعليماته، وصار بعضهم أكثر شدة وبعضهم أكثر تحررا. بعد وفاته، أدخلت حكومة ابنه ـ وخليفته على العرش ـ كتابا للصوات وضعه كبير أساقفة هنرى ـ توماس كرانمر. حافظ كتاب الصوات هذا على وحدة الكنيسة الإنجليزية، وأكده ما أدخلته الملكة اليزابيث الأولى من مواد، «المواد التسعة والثلاثين للدين» عام ١٥٦١. وضع هذا التنظيم الجديد الكنيسة الإنجليزية فى منتصف الطرق ـ بين المذهب الكاثوليكى وبين عقائد البروتستانت المختلفة، وبهذا أمكن إزاحة التوتر الذى حدث فى بقية المجتمعات الأوروبية بهدوء وبالتدريج، وأمكن معالجة الشقاق الحاد الذى حدث بعد إعلان هنرى الثامن لسيادته الكاملة على البلاد. انشغلت فرنسا بحروب دينية وانشغلت إسبانيا بفتوحاتها فى العالم الجديد وبإخمادها للعصيان الذى قام به أتباعها من البروتستانت فى هولندا، بينما انسابت الأفكار بهدوء وتؤده، بلا انقطاع فى نسيج المجتمع فى انجلترا.

كالڤـــن

فى منتصف القرن السادس عشر كان الزعماء المسيحيون، من الكاثوليك أو من البرتستانت قد أقاموا لأنفسهم مؤسسات معارضة لنظم الحكم وطبقاته فى ألمانيا وفى انجلترا. أما فى فرنسا وفى سكوتلندا فكانت الكنيسة الكاثوليكية تقاوم بشدة انتشار الثورة. فى هذه الأثناء لجأ جون كالڤين من فرنسا إلى جنيف وتمكن من السيطرة على تيار الفكر المعاصر ـ كما نجح لوثر فى ألمانيا ـ ورأى المهمة السياسية التى عليه إنجازها. كان عليه أن يحول الدويلات الكاثوليكية والشعوب الكاثوليكية إلى الإصلاح الدينى البروتستانتى. كان عليه أن يخطط بنفسه ليتم هذا التحويل وليتحول البشر بأنفسهم إلى البروتستانتية. أقنع قومه أنهم شعب الله المختار الذى أوكل إليه أن يتم التحول على يديه، ولكى يتم هذا التحول على ذلك الشعب أن يتبع أوامر الإله وأن يتجنب نواهيه فى كل ما يعن له من أمور وأن يرتفع إلى المكانة التى رفعها الله له. برؤيته هذه للعالم استطاع كالڤن أن ينفذ إلى أعماق البلدان الكاثوليكية بدون معونة الطبقات الحاكمة أو مساعدتها. على النقيض ظهرت هذه الدعوة كأنها دعوة لإحلال طبقة الصناع والتجار والمعلمين محل طبقة الحكام القدامى، والتى تمسكت فئات الشعب بها، وأدت إلى تطور مدينة جنيف ذاتها. جاء كالڤين ليقيم بجنيف عام ١٥٤١، وكانت مدينة صغيرة بدون تاريخ ولا يتجاوز عدد سكانها ١٣ ألف نسمة، من البروتستانت الذين يتعايشون مع أقلية كبرى من الكاثوليك. قضى كالڤين ٢٣ عاما بجنيف وجعلها مركزا لثورته وغير كل شئ بها. تم تحول (أو طرد) كافة الكاثوليك وكافة المعارضين من البروتستانت وحل محلهم البروتستانت اللاجئين من فرنسا، وأنشأ كالڤين جامعة بجنيف، زار جون نوكس مدينة جنيف عام

١٥٣٣ وتبعه لجوء أعداد كبيرة من الإنجليز الهاربين من بطش الملكة مارى الكاثوليكية إلى جنيف، وصاروا من أتباع كالڤين. هكذا صارت جنيف مدينة كبرى، عمّرها اللاجئون ـ مثل مختلف المدن الكبرى. اختلفت عن بقية المدن الكبرى ـ مثل أثينا والبندقية ـ فى كون اللاجئين حطوا عليها دفعة واحدة ولم يأتوا إليها تباعا على فترات طويلة. جاء البروتستانت من فرنسا وقد جذبهم كالڤين خصيصا، جاءوا متبعين لتعليمه وإرشاداته وفلسفته ونظامه. ولما كان كالڤين متشددا عظيم الانضباط كان قومه منتقين شديدى الانضباط وكانوا من غلاة المثقفين، ذوى المهارة الفائقة وذوى الثقل الحضارى (وما زالت جنيف كعهدها إلى الآن). أدخلوا للمدينة صناعة النسيج الذى أتى لها بالثراء (وبالنقاء). أدخلوا للمدينة أيضا الطباعة وجاء إليها بعض كبار المفكرين (مثل روبرت استيين العظيم) وأنشأوا صناعات فريدة (مثل ١٥٠٠ مصنعا لصناعة الساعات السويسرية الدقيقة والعظيمة). تلك بعض مظاهر عبقرية الفرنسيين من البروتستانت الذين تكاثرت أعدادهم وتفرقوا فى أنحاء أوروبا. (جاءت موجة أخرى من اللاجئين الفرنسيين إلى سويسرا عقب عام ١٧٨٩، من الكاثوليك ومن الملكيين هذه المرة. يرجع إلى هؤلاء وإلى جاك نيكير البروتستانتى القادم من بروسيا (١٧٣٢-١٨٠٤) الفضل فى نشأة صناعة البنوك السويسرية التى اشتهرت بها فى جميع أنحاء العالم. (وقد حاول نيكر هذا إصلاح المالية فى فرنسا قبل الثورة الفرنسية).

انتهت حركة كالڤين بالتطرف. كان التطرف فى السابق هو الداعى لمبدأ الطرد من الكنيسة الكاثوليكية، ولكن كالڤين استحدث هذا المبدأ وتسبب فى التباعد بين الكنائس اللوثرية والكنائس الكالڤينية. واستمر كذلك تقليد إحراق الهراطقة على يد كالڤين، فتم إحراق ميجل سيرڤيتوس أشد حركة المصلحين ذكاء، القادم من إسبانيا، ومن أبرز علامات الثورة العلمية، والذى جذبته جنيف إليها عام ١٥٥٣ كما جذبت من قبله يان هوس منذ مائة وخمسين عاما. حوكم وأدين بتهمة إنكاره لألوهية المسيح وتم إحراقه. الكتاب الذى أحرق بسببه كتاب «إعادة وضع المسيح» الذى كتبه عام ١٥٥٢ الذى ضمنه دورة الدم ـ قبل وصف وليام هارفى لها بستة وسبعين عاما ـ (وصف ابن النفيس الطبيب الدمشقى العربى الدورة الدموية قبل نحو ثلاثمائة عام). تم إحراق جميع نسخ ذلك الكتاب ولم يبق منها إلا ثلاثة نسخ فحسب ولذا لم يذكر له أحد أنه سبق هارفى فى وصف الدورة الدموية.

استقر وضع كنيسة كالڤين فى جنيف، ولكن فى وطنه الأصلى، فى فرنسا فقد تم اضطهادها وتفرقتها. وبالرغم من هذا فقد كان لأفكاره أعظم الأثر ونشأت جماعة تدين بآرائه البروتستانتية، واجتمع مجلسها لأول مرة فى باريس عام ١٥٥٩. فى هذا الاجتماع تقرر أن تتساوى جميع الكنائس فى مراتبها وأن يتساوى جميع قسسها ومن ينتمون من كبارها لإدارتها، وبذا لا يصبح هناك أساقفة. من هذه الآراء ـ النابعة من تعليم كالڤين ـ نشأت حركة البرسبيتيريان الكنسية. اشتد الحماس بين

جميع المعترضين وازدادت أعداد المتبعين لآراء كالفين، حتى وصلت أعدادهم ـ خلال ثلاث عشر سنة ـ إلى طوفان يكاد يكتسح الأمة والدولة. منذ هذه النقطة وجدت الكنيسة الكاثوليكية أنها مضطرة للرد بكل عنف. كانت الكنيسة الكاثوليكية تسلح نفسها لمقاومة دعاوى المصلحين. اجتمع آباء الكنيسة بعد أن تحطم سلاح محاكم التفتيش في يد البابا. قرر الآباء المجتمعون في ترنت أن يعيدوا إصلاح وجه الكنيسة، وكرروا اجتماعاتهم على فترات خلال عشرين عاما (١٥٤٥-١٥٤٨، ١٥٥١-١٥٥٢، ١٥٦٢-١٥٦٣)، وخرجت الكنيسة من تلك الاجتماعات أكثر قوة. خرجت الكنيسة بيد أشد قوة وبوجه أقل بشاعة، ولكنها ما زالت حكرا على نبلاء الإيطاليين. خرجت بطائفة الجيزويت التي أنشأت عام ١٥٤٠ مستعدة لرد الهجوم. استردوا بولندا وهاجموا في انجلترا وفي هولندا. ولكنهم في فرنسا استخدموا ـ بيد ملك كاثوليكي ـ سلاح القتل، فتم قتل خمسة آلاف من المعترضين في ليلة سان بارثولوميو عام ١٥٧٢. تم قتل جميع زعمائهم في باريس ـ عدا أولئك الذين تنازلوا عن معتقداتهم مؤقتا ـ مثل هنري من ناڤار. دمرت تلك الحادثة الكالڤانية في فرنسا ولكنها أدت إلى انتشار أتباع كالڤين خارجها، فقويت شوكتهم في هولندا وفي انجلترا وفي سكوتلاندة، من هناك انتشروا إلى أيرلندة ثم إلى المستعمرات الإنجليزية في أمريكا وإلى المستعمرة الهولندية في جنوب أفريقيا. انتشرت الكالڤانية على حساب حركة التطهير والنقاء ونشرت حركات من العصيان والتمرد ضد الملكية نفسها.

يوضح جدول (٢١) كبار المصلحين العظام لحركة الإصلاح الديني.

جدول (٢١)

المصلحون العظام

قائمة بأهم المفكرين والدعاة الذين بدأوا كرجال دين كاثوليك وأمكنة عملهم.

الأوائل			
١-مارسيجليو	١٢٧٠ - ١٣٤٢	بادوا	هاجم البابوية ١٣٤٢
٢- جون وايكليف	١٣٣٠ - ١٣٨٤	أكسفورد	هاجم البابوية ١٣٧٨
٣- يان هوس	١٣٧٠ - ١٤١٥	پراج	هاجم البابوية ١٤٠٢ - تم إحراقه بتهمة الهرطقة
٤- ساڤونارولا	١٤٥٢ - ١٤٩٧	فلورنسا	مصلح الأخلاقيات ١٤٩٤. تم إحراقه بتهمة الهرطقة.

جدول (٢١)

المصلحون العظام

٥- إرازموس	١٤٦٦ - ١٥٣٦	بازل وغيرها	ابن سفاح - ولد في روتردام أثار الشكوك في أن سفر الرؤيا كتبه يوحنا. راجع العهد الجديد الإغريقي
الألمان			
٦- مارتن لوثر	١٤٨٣ - ١٥٤٦	ويتنبرج	شجب وأدان صكوك الغفران التى تمنحها الكنيسة الكاثوليكية ١٥١٧
٧- ميلانكثون	١٤٩١ - ١٥٦٠	ويتنبرج	مؤلف اعتراف أوجسبرج
٨- زفنجلى	١٤٨٤ - ١٥٣١	زيورخ	مصلح سياسى ١٥١٨ - قتل فى معركة
٩- مونتزر	١٤٨٩ - ١٥٢٥	لايبزج	طائفة تحديد العماد. حرب الفلاحين ١٥٢٤ تم إعدامه كثائر
١٠- مينو سيمونز	١٤٩٦ - ١٥٦١	هولندا	مؤسس طائفة المينونيت ١٥٣٧
الإنجليز			
١١- كرانمر	١٤٨٩ - ١٥٥٦	كامبريدج	أسقف كانتربرى ١٥٣٢ تم إحراقه بتهمة الهرطقة
١٢- وليام تيندال	١٤٩٢ - ١٥٣٦	كامبريدج وأنتورب	العهد القديم الإنجليزى - تم إحراقه بتهمة الهرطقة
المتحدثون بلغات رماتسية (إيطالية، إسبانية، فرنسية)			
١٣- جاك ليفيفر	١٤٥٥ - ١٥٣٧	ايتابل	العهد القديم الفرنسى ١٥٢٤
١٤- كالفين	١٥٠٩ - ١٥٧٣	جينيف	أنشأ طائفة جديدة ١٥٤١
١٥- سيرفيتوس	١٥١١ - ١٥٥٣	أفينيون وغيرها	معلم للطب في باريس أنكر ألوهية المسيح - تم إحراقه بتهمة الهرطقة
سوزينى	١٥٢٥ - ١٦٠٤	بازل - راكو	أنكر ألوهية المسيح مؤسس السوزينية

إصــــلاح المجتمــــع

التجريب أو التطور فى المانيا

فى ألمانيا مارتن لوثر، وفى انجلترا كرانمر وفى فرنسا كالفين. تشجع المصلحون، بتعاطفهم مع الحكام وبموءازرتهم لسلطة الأمراء إلى نبذ البابوية ورفض التقاليد الكهنوتية التى ارتبطت بها والجهاز المالى الذى يساندها. بفعلهم هذا كان لا بد من إيجاد نظام آخر ليحل محلها. وجدوا أن عليهم ـ للحفاظ على المجتمع ـ أن يفسروا الدين تفسيرا جديدا يتعلق بالملكية ولا يقوم على القدسية فحسب. كانت المدن الثرية تنتشر فى حوض نهر الراين ـ مستقلة عن نفوذ الحكام العظام، مدن ممتلئة برجال أذكياء متعلمين تعليما جزئيا، رجال يقرأون الكتاب المقدس، ويفهمون معانيه ـ بعيدا عن مفاهيم رجال العلم المتعمقين ورجال الدين الدارسين، فَهْما يناسب الصانع والتاجر ويتماشى مع مفاهيم المزارع الفقير أو المدقع. كانوا يرون الأثرياء وهم يمرحون فى أحضان الكنيسة ويشاهدون المتعلمين فى خدمة الكنيسة، يكتبون لها تعاليمها ويصُوغون لها قوانينها. حانت ساعة الخلاص وأذن وقت التحرر.

لهؤلاء القوم كان التحرر يعنى أمرين. أولهما المجتمع الذى يدير شئونه بنفسه ولا يتلقى الأوامر والنواهى من البابا وكبار رجال الدين. صار المجتمع ـ أصبح لقرون عدة ـ هو حقل التدريب لنوع جديد من الحكام، حكام سياسيون يشرفون على مجتمعات صغيرة، عمال يديرون شئون مصانع تزداد حجما وتمتد اتساعا. وثانيهما نبع من الإنجيل نفسه، من رسالته الاجتماعية والسياسية، التى كتبت ببساطة تناسب القوم البسطاء. من بين هؤلاء نشأت دعوة جديدة لحياة جديدة بسيطة تتبع أصولا سهلة فى التعميد وفى الزواج وفى العبادات. كان المجال مفتوحا على مصراعيه للتجريب، ولو أن أيا من التجارب لم ينكر مبدأ الزواج أو يسمح بتعدد الزوجات أو يبيح الاتصال الجنسى غير الشرعى. كانت تلك أصول حرب الفلاحين التى بدأت فى جنوب ألمانيا عام ١٥٢٤ بالقرب من شافهاوزن عام ١٥٢٧ ثم حرب مملكة صهيون الجديدة فى مونستر عام ١٥٣٣، ثم فى العصيان المسلح الذى حدث فى أمستردام عام ١٥٣٥. ثم بدأت حركات من التمرد من جماعات من المحاربين

تأخذ إشعاراتها وتلميحاتها من العهد القديم وقامت بتصعيد معارضتها فى مجتمع إثر مجتمع وتدمر أنفسها. وتبعتها موجات من الحماس تستنير بإشارات من العهد الجديد وحققت نجاحا واستقرت فى مهد المعارضين القدامى (البروتستانت) فى مورافيا. هنا تم إعدام چاكوب هنز فى عام ١٥٣٦ لدعوته للمبادئ الشيوعية، ولكن إخوانه أقاموا بعده مجتمعا اشتراكيا مسالما وأصوليا. ثم انتشر أتباع هنز خلال ألمانيا متجهين غربا حتى وصلوا إلى هولندا حيث تزعمهم مينوسيمونز وحققوا تحت قيادته نجاحا ظهر فى شيئين. حققوا نجاحا اجتماعيا ونجاحا اقتصاديا. إقبالهم على العمل وإخلاصهم لإخوانهم ومهارتهم خلقت منهم مجتمعا شديد النجاح، وزاد من هذا النجاح ارتفاع خصوبتهم وتكاثرهم السريع، الذى فاق سائر المجتمعات المسيحية. كان النجاح المادى الذى حققته تلك الطائفة دافعا لها للإيمان أنهم قد وصلوا حقا للخلاص الروحى. انفصلت هذه الجماعة عن باقى المجتمع وتفرقت شيعا وطردت من الكنيسة وتقلصت فى عددها ولكنها حافظت على تفردها بالتوالد الداخلى _ احتفظت دائما بتقاليدها المحافظة. رفضوا سلطان الحكام على الدوام واستبعدوا عن مجرى الحياة، وانعزلوا كمزارعين، وعن طريق الزراعة زاد ثراؤهم. اضطهدت تلك الطائفة (كما سبق واضطهد اليهود عند مقدم المسيحية)، ولكنهم استمروا فى التكاثر. دفعوا دفعا إلى تركيا وإلى روسيا، ثم انقسموا إلى فرق وشيع. عندما طردهم قيصر روسيا عام ١٨٧٢ لجأوا إلى شمال وإلى جنوب أمريكا وجلبوا معهم القمح الروسى الذى هو أساس صناعة الخبز فى جميع أنحاء العالم.

الحرب الأهلية فى انجلترا

كان الاستقرار الذى حدث بانجلترا بحلول العصر الإليزابتى ظَاهِرةُ الاستمرار، وقدرت الحكومة أنها قد تصارع الآراء للأبد. ولكن استمر الفوران تحت السطح ونجمت عنه آثار بعيدة، أشد وقعا مما حدث فى جميع العالم المسيحى. شجبت المواد ٣٧، ٣٨، ٣٩ جماعة الأنابابتست لفكرتهم البغيضة برفضهم الملكية والحرب. أحرق فردان من تلك الجماعة، ولكن لم تتمكن الحكومة من إخماد أفكار بهذا القدر من العمق وهذه الدرجة من الصدق. كانت الأفكار الأولية التى أدت إلى الإصلاح فى انجلترا من عمل نفر قليل من الرجال ولكن بحل عدد قليل من النظم الرهبانية وإعادة توزيع ممتلكاتها وممتلكات الجامعات، وبنمو المدن وبازدياد ثراء بعض المواطنين حدثت حركة كبرى بين البشر وتغير فى التملك فى أنحاء مختلفة من البلاد. حدث اضطراب كبير فى البلاد لم تشهده منذ الفتح النورماندى، بين طبقات المجتمع، وبين الريف والحضر. كما حدثت أيضا هجرة واسعة للبروتستانت من فرنسا وهولندا إلى انجلترا. وهكذا كان القرن السادس عشر عهدا حاسما شهد تهجينا كبيرا للبشر وتوالدا خارجيا عظيما، واختلطت فيه جينات البشر أيما اختلاط. نتيجة لاضطراب نظم الزواج

حدث انهيار فى العائلات وفى تقاليدها ودخول إناس جدد وممارسات جديدة. وبعد جيلين أو ثلاثة أجيال حدث اتحاد لموروثات جديدة والتحام لأفكار مستجدة. حدث هذا فى المجتمعات الكنسية، حيث تلاقت الأفكار الدينية والآراء الاجتماعية والنظم السياسية المتشابهة. انقسمت الاتجاهات إلى اتجاه يدعو للمتعة والترف والفن واتجاه يرفض الثلاثة ويدعو للنقاء والطهر.

لم يتفهم تشارلز الأول ولا ناصحه ووزيره الأول كبير الأساقفة لود الاتجاه الجديد الذى حل بالمجتمع. لم يدرِ كلاهما أن مجتمعا جديدا قد ظهر، قادرا على تدبير أموره بنفسه بدون معونة الملوك والأساقفة أو رجال الدين، يحمل أفكارا جديدة ويؤمن إيمانا راسخا بمعتقدات جديدة. ما فهمه الملك وكبير أساقفته أنهم لو سمحوا بالتقاء هؤلاء البشر الجدد فى مجتمعاتهم وبرلماناتهم لتفرقت تلك المعتقدات ولحطمت النظام القديم، وهو ما سعوا لمنع حدوثه بكل وسيلة. كان على الأتقياء الجدد أن يختاروا بين سبيلين: الهجرة إلى العالم الجديد، إلى انجلترا الجديدة متبعين مثال مايفلاور التى حملت أفرادا منهم عام ١٦٢٠ وحطت فى بوسطن بأمريكا الشمالية، أو الحرب لإستقلالهم فى وطنهم هذا، فى انجلترا. كان هذا هو الخيار الذى واجه أوليفر كرومويل نفسه وقت الاعتراض الكبير الذى حدث فى ديسمبر عام ١٦٤١ . كان الخلاف أمرا لا محيص عنه، وقد عالجه الملك كأسوأ ما يكون العلاج.

حدث الشقاق بين البرلمان وبين الملك، فحاول الملك استثارة المبادئ القانونية والدينية والاقتصادية لدعم موقفه، وكذلك فعل الآخرون. انقسمت فئات البروتستانت، وحاولت كل فرقة أن تثير حججها بينما اتحدت الكنيسة الكاثوليكية. اشتعلت الحرب الأهلية عام ١٦٤٢ وكان كل فريق على يقين من النصر. كان إلى جانب الملك مجتمع زراعى يقوده النبلاء التقليديون والكنيسة التقليدية التى ما زالت تزاول طقوسها التسلطية على الفلاحين الجهلاء وخدمها الذين استقوا تعليماتهم من سادتهم الإقطاعيين. وإلى جانب البرلمان كان هناك مجتمع جديد يمارس تقنيات جديدة قائمة على تجارة المدن وصناعاتها، وطبقات مطحونة تجاهد لإزالة الذل والمسكنة عن كواهلها ومعها طبقات تسعى للحصول على السلطة لنفسها. انتصر الثوار، وبعد انتصارهم انقسموا إلى فريقين: وتغلب أصحاب السلطة بطبيعة الحال. تسلم كرومويل وجنرالاته الحكم ولم يتمسكوا بالوحدة الدينية التى كان يتطلبها الملك الضعيف. كان البرسبتيريان يتواجدون فى الكورس بينما يتواجد المستقلون فى صحن الكنيسة والبابتيست فى السرداب تحت الكنيسة. ظلت قوة الجيش هى أمان الدولة وحصنها لعشر سنوات.

وفد الكثيرون من الخارج إلى انجلترا يتلمسون حرية الرأى. سُمح لمستعمرة يهودية أن تأتى من امستردام ـ مستعمرة كانت هاربة من محاكم التفتيش الإسبانية. قدم لاجئون آخرون من قبل هربا من اضطهاد الكاثوليك ولجأوا إلى البلدان الشمالية. إنكار مبدأ الثالوث الأقدس، والعودة لمبدأ التوحيد الذى قال به الإسبانى سيرفيتوس (والذى اضطهد بسببه ثم أحرق)، والإيطالى سوزينى، دخلا ثانية إلى انجلترا وإلى بلدان بروتستانتية أخرى. بدأت تلك الأفكار تنتشر فى جماعات المصلين البرسبيتيرية فى انجلترا. وفى القرن الثامن عشر انفصلت جماعة من كبار المثقفين عن أولئك الأقل ثقافة ـ طائفة الموحدين، تلك الطائفة التى لعبت دورا هاما بعد أربعة أو خمسة أجيال، أثناء الثورة الصناعية. هكذا، ظهرت فى فوضى الجدل والنقاش طبيعة الطوائف الاجتماعية والمهنية الجديدة. ظهرت فئة الموحدين الذين يؤمنون بوحدانية الإله، وظهرت فئة الذين يرفضون الحروب من أتباع جورج فوكس. حافظ هؤلاء المسالمون على كيانهم بكتبهم وذكائهم وتماسكهم وبمبادئهم الأخلاقية الرفيعة حتى كونوا «جماعة الأصدقاء» عرف أولئك فيما بعد باسم «الكويكرز» وصاروا مجموعة متجانسة هدفها القضاء على الفقر فيما بينها وفى المجتمع. رفضت طائفة الكويكرز ممارسة أى طقوس لا يؤمنون بها ووضعوا جانبا أى احتفالات لمناسبات لا معنى لها، وكذا احترامهم الزائد للنساء جعلهم يسقطون جميع شعائرهم الغبية ويرفضون أنصارهم غير المتمسكين بمبادئهم، والتى تعنى الطقوس لهم والتزام الشكليات لديهم الشئ الكثير. ربما كان تمسكهم بتقليد الصرامة المنطقية له أكبر الأثر فى نجاحهم فى الشئون الاقتصادية وإلى تطور الطرق الاقتصادية التى انتشرت فى كل المجتمعات البروتستانتية. كذلك رفض الكويكرز ـ ربما لدرجة أكبر من سائر الموحدين ـ جميع مظاهر الجمال وصنوف الفن. اتخاذهم اللون الأسمر الفاتح لملابسهم ـ سواء أكانوا نساء أم رجالا ـ أدى إلى تطور اجتماعى. يرجع فهمنا له إلى رجلين من طائفة الكويكرز. أولهما هو جون دالتون الذى كشف عن ماهية عمى الألوان الوراثى (وكان هو نفسه يعانى منه)، وقد بين فرانسيس جالتون أن الجين المورث لعمى الألوان أكثر انتشارا بين أفراد طائفة الكويكرز عنه بين سائر الناس.

ربما عانت طوائف البروتستانت المختلفة من أشد حالات الحرمان الكنسى ومن أكثر نماذج الاستبعاد من الكنيسة الكاثوليكية. شملت تلك الحالات على وجه الخصوص الصناع من المدن ونقابات التجار وكنائسهم المنفصلة ـ حتى فى العصور الوسطى ـ كما حدث فى نوريتش. زادت الفروق بين الكنيسة الإنجليزية وبين الطوائف المنشقة عنها والمعارضة لها، ووصلت ذروتها إبان الحرب الأهلية، وكان سبب الخلاف دائما هو الاستقلالية الدينية لمختلف الكنائس، (والتى استمرت حتى القرن العشرين). كانت تلك الخلافات هى التى أدت إلى الظروف الاجتماعية والجينية التى نتج عنها تطور المجتمع الإنجليزى والتى انتهت بالمرحلة الحرجة ـ مرحلة الثورة الصناعية.

تساءل ڤولتير – فى دراسته عن لويس الرابع عشر – عن الأسباب التى أدت إلى قبول الفوارق والخلافات سلميا بين الطوائف الوثنية والكنيسة المسيحية بينما كانت الخلافات بين المسلمين والمسيحيين تؤدى دائما للحروب وإلى سفك الدماء. ربما كان السبب أن الكتب السماوية زعمت أنها توصلت إلى الإجابة عن كافة تساؤلات المؤمنين عن العلاقة بين الفرد والمجتمع فى هذا العالم وكذا فى العالم الآخر. كانت الطبقات المتعلمة، والتى تزايدت أعدادها فى المجتمعات المثقفة، قد وصلت فى عصر الإصلاح، إلى صورة عن العالم – ماضيه وحاضره ومستقبله – واضحة ومحددة مبنية على الكتاب المقدس – وكان الشك فى أى جزء من تلك الصورة يزلزل السلم والنظام فى كل المجتمع. لم تكن الحلول الوسط مقبولة فى أية أمور واضحة ومسلم بها طوال الوقت فى الكتابات المقدسة. وهكذا صار الدين – الذى كان مصدر وحدة لليهود، (ولدرجة أو أخرى لدى الهندوس)، صار الآن – بعد إعادة تركيبه – مصدر انقسام فى المجتمعات الكبيرة، وتفرقها إلى شيع صغيرة.

اتفق المسلمون – من أول الأمر – على نقطة واحدة، قبول أهل الكتاب، من يهود ونصارى، ولكن على أنهم أقل درجة من المسلمين. ولكن فى عصور التنوير والحضارة الإسلامية المشرقة – وبعد خمود التعصب – قبل المسلمون المتنورون – فى قرطبة وفى دلهى – على مساواة أبناء سائر الأديان بالمسلمين. ولكن كان التفرق والتشيع داخل الدين يظهر كل حين وآخر وكان الزنادقة يقضى عليهم فى السلم والحرب.

أما لدى المسيحيين – فبعد قبول المسيحية كالدين الرسمى للإمبراطورية – صار المهرطقون والابتداعيون والمنشقون الخارجون عن العقيدة والملحدون غير النصارى هم الأعداء الحقيقيون الواجب خصومتهم. كان المسلمون أعرابا بالإمكان محاربتهم، وكان اليهود هم القوم الذين رفضوا المسيح، وكانوا أقلية لا حول ولا قوة ومن الواجب اضطهادهم حتى يتحولوا إلى المسيحية (وكانت أعداد قليلة منهم يتحولون للمسيحية على مدار القرون). ولكن كانت الفُرقة داخل العقيدة المسيحية أشد خطرا عليها من كافة الأعداء خارجها، ولذا عمل بابوات الكنيسة وملوك البلاد على احتوائها بكل الطرق، وعلى فرض نظام دينى موحد. وعندما فشل البابوات فى بلوغ هذا الهدف. حاول كل أمير أن يفرض نوعا خاصا من المسيحية داخل حدود إمارته واستعان برجال الدين لمساندة سلطانه داخل بلاده. وهنا ظهر الاتجاه أن النظام الجمهورى قد يكون عاملا مساعدا للاستقلالية ولتفرق الطوائف، مسيحية كانت أم يهودية، (أم غيرها). وحتى الأمراء وجدوا أن التسامح قد يكون حلا مرضيا. ففى أوسبرج عام ١٥٥٣ وفى لندن عام ١٥٦١ وفى نانت عام ١٥٩٨، تبين الأمراء الألمان والإنجليز والفرنسيون، أن هناك صيغا يمكن قبولها تسمح بتعداد المذاهب الدينية دون أن تتسبب فى انقسام

الدولة وتفتتها. وافق الأمراء الألمان أن يعيشوا ويسمحوا للآخرين بالحياة، وسمحوا بالهجرة غير المقيدة لأبناء شعبهم، وتفرق مواطنو الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى ٣٠٠ دويلة حسب اختيارهم. وهكذا صارت الهجرة المنتقاة ــ لأول مرة ــ مبدأ سياسيا على المستوى القومي. ولكن هذا الحل الوسط انهار بعد خمس وستين سنة عندما نشبت حرب الثلاثين عاما، وكانت أشد الصراعات دمارا على أوروبا. كان مظهر تلك الحرب أنها صراع بين الكاثوليك والبروتستانت ولكنها كانت في الواقع صراعا بين الدويلات المتجاورة، ذات جذور سياسية تركيبته اجتماعية، واختلافات عرقية بين الأقوام المختلفة. بنهاية الحرب استمرت الخلافات الدينية بين الدويلات وبين الشعوب وتوصل الجميع إلى الحلول الوسط التى ما زالت باقية حتى اليوم. وقد أدى هذا الخلاف الدينى إلى تأخير توحيد ألمانيا سياسيا لمدة مئتى عام.

كان أخطر الانقاسامات التى حدثت فى المجتمعات المختلفة هو ما حدث فى فرنسا نتيجة لتصاعد التيار الكالفانى. قويت طائفة الهيوجينوت من ثلاثة مصادر مختلفة. أولهما فلاحو سيفين، أولئك المحاربون الأشداء الذين قاوموا جيوش لويس الرابع عشر لتسعة سنين (١٧٠٢-١٧١١)، وثانيهما صناع وتجار عدة مدن، خاصة المدن الساحلية فى شمال وفى غرب فرنسا (خاصة دييب ولاروشيل)، وثالثهما كان النبلاء الهيوجينوت بقيادة هنرى من نافار وكوندى وكولينى الذين اشتبكوا مع العائلات الكاثوليكية شديدة المراس فى اللورين فى صراع للسيطرة على الحكومة. ظلت الأقاليم المتخلفة والبعيدة تؤيد بعنف العقيدة الكاثوليكية (مثل بريتانى وأوفرنى) ونشبت حرب أهلية فى البلاد وأظهرت أن البروتستانت مجتمع متكامل لا يقر ثراء عن الكاثوليك. لم تنته تلك الحرب بانتصار فريق على فريق، بل انتهت بالهدنة التى أعلنها هنرى الرابع فى ١٣ أبريل ١٥٩٨. أدت تلك الهدنة إلى تكريس حقوق الهيوجينوت وسمحت لهم بكنائسهم ومقابرهم ومحاكمهم، كما سمحت لهم بالدخول لمدارس الدولة وجامعاتها ومستشفياتها، وحتى فى بعض الأحيان بقبولهم فى الوظائف العامة. بهذه الهدنة حاولت الدولة احتواء الخلاف؛ ولكنه لم ينته. جاء كولبير بالحل. هذا الرجل العظيم ــ كان وزيرا للويس الرابع عشر ــ وتبين أن فرنسا فى حاجة إلى كافة الرجال ولا وقت للخلاف والصراع، الرجال المهرة البارعون فى الصناعات الجديدة، وكذا رجال المال والاقتصاد والتجارة من جميع أنحاء العالم. شجع الأثرياء عام ١٦٦٦ على استثمار أموالهم وأموال عائلاتهم فى الصناعة وأدخل التشريعات المختلفة لتشجيعها. استورد صناع الزجاج والحرير من البندقية ومن ميلانو وشجع على قدوم النساجين البروتستانت من هولندا (وضمن لهم حرية العقيدة)، واستخدم البروتستانت الفرنسيين بدون قيود، وصارت حكومته ــ كما وصفها ڤولتير ــ أعظم حكومات فرنسا فى تاريخها، ازدادت قوة فرنسا بسياسة كولبير وزاد ثراؤها واعتقد الملك لويس الرابع عشر (كما اعتقد أناس)

أن هذا الثراء يرجع إلى جهود هذا الملك الرائع، الذى زاد غروره حتى فاق كل الحدود وانتهى بدماره، الذى بدأ بمعاملته السيئة للهيوجينوت. بحلول عام ١٦٧٧ كان الإنصاف الذى لاقاه البروتستانت فى فرنسا قد بدأ يخبو وظن لويس الرابع عشر أن بإمكانه أن يخضعهم لطاعته بالرشاوى وبالتهديدات. بعد موت كولبير - فى أكتوبر ١٦٨٥ - طرد جميع القسس البروتستانت من فرنسا خلال خمسة عشر يوما. اضطر هؤلاء أن يتركوا بلادهم وبلاد أبائهم وأجدادهم - حتى فرغت البلاد منهم تبعا لمشورة نصحائه الغافلين، وعاد هذا بالخراب على فرنسا وتغير مسار التاريخ. بعد اضطهاده للهيوجينوت بدأ لويس فى قسر البروتستانت على تغيير عقيدتهم بالقوة، ثم حدثت حرب أهلية فى سيفين - وانتهى الأمر باحتفاله بالقضاء التام على البروتستانت فى فرنسا. ولكن البروتستانت لم يقض عليهم، فقد كان لهم دور فى إدانة لويس السادس عشر فيما بعد، كما اضطر الملك للاستعانة بالخبير المالى البروتستانتى - نيكير - القادم من جينيف لضبط ميزانية الدولة وإصلاح شئون الخزانة. ولكن كان اضطهاد البروتستانت من عوامل انتهاء الملكية فى فرنسا.

كان لطرد نصف مليون بروتستنتى من فرنسا أعظم الأثر فى ارتقاء الحضارة فى البلدان التى أوتهم واستقبلتهم، فى نفس الوقت الذى أضعفت هجرتهم من شأن فرنسا. كان الرقى حضاريا وتقنيا وتجاريا وعلميا وكان يفوق أى تقدم عسكرى فى فرنسا من جراء استيراد المحاربين الأيرلنديين الكاثوليك. حدثت تلك الهجرة من جنوب أوروبا الوافر الثراء والمتقدم تقنيا إلى شمالها الأقل ثراء. أحدث الهيوجينوت تقدما فيما سبق فى سويسرا، والآن يحدثوه فى بروسيا وهولندا وانجلترا. جلبوا صناعات جديدة وأحيوا صناعات قديمة. بحلول عام ١٨٣٠ كان ثلث أهالى برلين من أصل هيوجينوتى، كما هو الحال حاليا فى معظم المدن الكبرى فى أوروبا البروتستانتية.

فى تلك الموجه من الطرد جاء حوالى ٨٠ ألف من الهيوجينوت إلى انجلترا، رحل نصفهم إلى أيرلندة وإلى أمريكا وبقى نصفهم الآخر فى انجلترا، وكان رجال الحرب، على القمة، الذين قادوا مع وليام الثالث حملة على أيرلندة. بقى النساجون المتواضعون على القاع. تهجن أواسط الهيوجينوت مع الإنجليز وجاء منهم بعض عظماء القوم مثل سيدنى سميث، صموئيل روميلى، إداورد بوفرى، بوس والكاردينال نيومان، والممثل العظيم دافيد جاريك وعالم الآثار الكبير هنرى اوستين ليارد وأخيرا السياسى الفذ وينستون تشرشل. وجاء من الهجن مع الألمان ربى الفن والعلم الكسندر وويلهلم فون هامبولت. كان للتوالد الخارجى - بالتهجين مع الأقوام خارج فرنسا - للهيوجينوت أثر عظيم فى ظهور الأفذاذ من الرجال، أما بالتوالد الداخلى - فى فرنسا - فلم يعرف من ذرية الهيوجينوت سوى رئيس للجمهورية - جاستون دومدج - وأحد عظماء الصناعة - بيجو. أما خارج فرنسا فقد جاء منهم

كثير ممن أضافوا لتقنيات صناعات النسيج والزجاج والمعادن وللعديد من الصناعات الأخرى والعديد من عظماء الرجال فى كل حقول النشاط ومجالات الثقافة والفكر.

عصر النهضة

مع استعادة التعليم فى إيطاليا، شهد القرن الخامس عشر نموا سريعا فى الأفكار والممارسات فى أوروبا كلها مما أدى فى النهاية إلى الثورة العلمية والثورة الصناعية. من أبرز العلامات التى حدثت فى ذلك العصر كان اختراع الطباعة وظهور مستكشفين عظام من أمثال ليونارد دافنشى فى فلورنسا، ولكن الدراسة المتأنية والتأمل الفكرى العميق يشير إلى تفاعل عوامل مختلفة بين الميكانيكى والفيلسوف. واجهت الميكانيكى مشكلات عملية كالغزل والنسيج والتعدين وتشكيل المعادن وأعمال الحجارة وبناء السفن واستخدام قوة الرياح والماء للطحن ومد المواسير، وفوق كل هذا لصناعة آلة الحرب. يعمل الفرد بيديه ويدير عقله لما تنشغل به يداه. مشكلاته هى نفس المشكلات التى شغلت أسلافه الأقدمين منذ العصر الباليوليثى الذى اخترع الأدوات البدائية لتشكيل الخشب ولنقل الحيوانات (أو الإنسان). كانت أعداد الأفراد كبيرة وما يحصلون عليه قليلا، وكان وضع الإنسان فى المجتمع متواضعا. أما الفيلسوف المفكر، فكان قادرا على التصور والخيال والإبداع، يعمم الأحداث ويبنى الفروض ويتعامل بالأرقام. انبثق الفلاسفة من جذور فى سوماريا وفى مصر (وكذلك مستقلين فى الصين). ثم ظهروا بعد ذلك فى أوروبا فى أيونيا، وفى الاسكندرية. تركز هذا الصنف من البشر بعد ذلك فى حوض البحر الأبيض المتوسط وارتفع مركزه فى المجتمع وصار من المثقفين المتعلمين المستنيرين. عندما حل القرن الخامس عشر، وزادت ثروات البشر وزادت كذلك حروبهم، تلاقى هذا الصنفان من البشر بعد أن كانا مبتعدين فى مجتمعاتهم، وكان لتلاقيهما أبعد الأثر على نمو الحضارة. حلوا فوق الحركات المدنية للفنانيين والمفكرين فى بلدان الشمال الهمجية حيث تلاقت التيارات وتصارعت. أثرت الحروب الهوسية فى أهالى بوهيميا وجنوب ألمانيا، وكانوا أكثر تقدما من الناحية التقنية، وانتشرت مخترعاتهم إلى فرنسا. وأدى الفتح الفرنسى لإيطاليا فى نهاية القرن إلى دهشة الإيطاليين من تقدم المدفعية الفرنسية. سرعان ما غزا رجال الطباعة الألمان هولندا وانجلترا وأقاموا مطابعهم بالقرب من مكتبات البندقية الحافلة بالتراث العظيم. وكذلك سرعان ما أقام مهندسو السدود الهولنديون سدودهم وحفروا قنواتهم فى الأراضى الواطئة واستخلصوها من البحار، واستطاع هؤلاء المهندسون والعمال استثمار إبداعهم فى ألمانيا وبولندا وروسيا وانجلترا. كذلك تمكن الحرفيون والعمال المهرة من العرب واليهود فى البرتغال والملاحون الأكفاء من جنوة من قيادة سفن الإسبان ومن البندقية من قيادة السفن الإنجليزية ونقل الجميع خبراتهم وعلمهم إلى تلك البلاد واستطاعوا معا أن يجوبوا البحار والمحيطات. فتحت تلك المخترعات

والتحسينات التي أدخلت عليها طرقا جديدة، وشجعت البشر على مزيد من الهجرة إلى بلاد تبعد من مواطنهم الأصلية وعملت على حدوث مزيد من الاختلاط بين أصناف مختلفين من الناس، وخاصة بين العمال المهرة بالأيدى والفلاسفة المفكرين، وبين الصناع والحرفيين وعلماء الرياضيات المنتمين لأعراق مختلفة ودول متعددة وطبقات اجتماعية متباينة، وقد سمى هذا العصر حقيقة قرن أبناء السفاح والمغامرين (راجع أصل ليوناردو دافنشى نفسه من فلورنسا)، بنهاية القرن الخامس عشر كان لكل بيوت أمراء إيطاليا سلسلة وخطا من الأبناء غير الشرعيين. مثل ليوناردو كان معاصره العظيم إرازموس من روتردام (١٤٦٦-١٥٣٦)، وهما مثالان واضحان لثمرة العلاقة بين طبقات اجتماعية مختلفة. ربما يكون ليوناردو قد اكتسب وضعه الفريد فى التاريخ لأصله هذا، وربما تمكن كذلك أن يعبر بأصله هذا عن ذروة الإبداع فى الثورة العلمية،حيث جمع بين الخصائص الوراثية للنبوغ العقلى والممارسة العملية لمهارة اليد. نتاج مهارة اليد وذكاء الفكر وحصافة الفيلسوف وبعد نظره وحسن تحليله للأمور لا بد أن ينتج عالما، فهى تجمع بين مهارة الحرفى وعقلانية المفكر، كما ظهرت فى التعاون المثمر بين روبرت بويل الفيلسوف المفكر وبين مساعده الحرفى الماهر روبرت هوك، حيث لا ندرى بحق مديونية كل منهما للآخر. هكذا كان حال المجتمعات اللازمة لتعاون أصناف مختلفة من البشر اللازمة لنوع الفلسفة الجديدة والتى أثمرت الثورة العلمية. تم إنشاء أكاديمية لينشى فى روما عام ١٦٠٣، والأكاديمية الفرنسية للعلوم ـ بعد ثلاثين عاما من الممارسة الفعلية عام ١٦٦٦ بواسطة لويس الرابع عشر كفرع من الأكاديمية الفرنسية، وبدأت جماعة تمارس التجارب على نهج باكون ومبادئه فى لندن منذ عام ١٦٤٥ ثم فى أكسفورد بعد ذلك. بعد اقناع الملك تشارلز الثانى أن هذه الجماعة لا تتدخل فى السياسة أو الدين وأن أعمالها قد تكون مفيدة للدولة صدر قرار بإنشاء الجمعية الملكية عام ١٦٦٢. وقد كان لهذه الجماعة المستقلة عن المؤسسة الرسمية السياسية ـ الفضل فى دعم كشوف إسحاق نيوتن العظيمة، وكذلك كشوف هوك، وإنشاء مرصد جرينتش. كذلك عملت الجماعة ـ بمراسلاتها الخارجية، ونشرها للأبحاث العلمية فى كافة فروعها ـ على النهوض بالعلم فى أوروبا كلها فى نهاية القرن السابع عشر.

مرت انجلترا بفترة مؤلمة من التسامح الدينى أو بمرحلة اتزان ديناميكى فى المعتقدات الدينية بعد قوانين اليزابيث عام ١٥٥٩. عاصرت تلك الفترة زمن التراخى الذى حدث فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا. فى هذه الفترة حدث انفجار عظيم فى الفكر والتجريب لم يشهده العالم من قبل. شهد العالم تعليم باكون وتجارب جاليليو فى الطبيعة وتجارب وليام هارفى فى البيولوجيا وإنشاء الأكاديميات العلمية، جنبا مع جنب مع تكوين الكليات البروتستنتية فى فرنسا وفى انجلترا، مع التلاحم بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية فى جامعتى أكسفورد وكامبريدج. كانت الدرجة التى تمنحها تلك

الجامعات هى ماجستير فى الفنون وكانت العلوم الطبيعية جزءا أساسيا وإجباريا فى المقررات الدراسية. كانت ذروة تلك الفترة الساطعة من التساؤل والبحث وثمرة هذا العهد فى انجلترا هو التقدم السريع الذى حدث للعوم. ولكنه انتهى أيضا بالحرب. بعد إعادة الملكية لانجلترا عام ١٦٦٠ امتطى الملك وفرسانه وكنيسة انجلترا وأساقفتها صهوات جيادهم، وكانوا جميعا ـ باستثناء الملك ـ لا يعنيهم اتساع المعرفة ولا تقدم العلم. كان كل همهم كيف يعيدون سلطتهم وكيف يوسعون ممتلكاتهم وثرواتهم وكيف يستعيدون مراكزهم بعد الهزيمة والنفى. لم يكونوا من القوة بحيث يخمدون الطوائف التى أزاحتهم ولكنهم عملوا ما بوسعهم لإحباطهم وتكميم أفواههم، أولئك الذين صاروا الآن أعداء لهم. كان نجاحهم فى هذا الشأن أوقع من ملك فرنسا الكاثوليكى وأصدقائه، لأن أعداءهم كانوا منقسمين ولم يقفوا أمام أطماعهم صفا واحد. فى تلك الظروف صدرت قوانين كلارندون الأربعة التى أثرت خلال مئتى عام على تطور المجتمع الإنجليزى والاسكتلندى والأيرلندى والأمريكى (وما زالت للآن). هذه القوانين هى:

١- قانون التوحد: على جميع قساوسة الكنيسة الإنجليزية قبول كتاب الصلاة والعمل به خاصة المواد التسع والثلاثين.

٢- قانون التنظيم الإدارى: على كافة من يشغلون مناصب عامة فى البلديات اتباع قواعد الكنيسة الإنجليزية.

٣- قانون التجمع: ينبغى ألا تعقد أى اجتماعات دينية خارج الكنيسة الإنجليزية.

٤- قانون الأميال الخمسة: يحظر على جميع قساوسة الكنيسة الإنجليزية التدريس فى مدارس أو السكنى فى منازل تقع فى أو بالقرب من أماكن خارج سيطرة الكنيسة.

بعد صدور تلك القوانين لم يكن هناك حل سوى العودة للحرب الأهلية، لما لهذه القوانين من تأثير على الأفراد والمجتمعات وعلى الأمة بأسرها. أدت هذه القوانين للتعصب الدينى والأخلاقى وإلى الدكتاتورية والتسلط. حقيقة أبْطِلَ الحرق والشنق لأسباب دينية أو أسباب غير سياسية. كان الهدف اقتصاديا فى الدرجة الأولى، بدون إزهاق للأرواح. فصل ألفى قسيس معارض أو متاكف أو غير ملتزم بالخضوع للسلطان وفقدوا بهذا مصدر رزقهم ولقمة عيشهم. ومنعوا من وسائل نشر آرائهم الدينية والاجتماعية والسياسية، وعين مكانهم ألفى شخص من الملتزمين الخاضعين المسايرين ونالوا أرزاقهم. بعد طرد الملك الكاثوليكى وتولى خلف له عام ١٦٨٨، خفت القيود عن القانون الثالث وسمح لجميع الطوائف البروتستانتية (عدا طائفة الموحدين) ببناء مصلاتهم، ولكن

استمرت بقية القوانين لمئتى عام كاملة، وحتى بعد زوالها ثبت أن الثورة المضادة مستمرة على الدوام. قسمت تلك القوانين الناس إلى فئتين، فئة ثرية، رفيعة المناصب، مؤيدة «للمؤسسة»؛ وفئة أخرى رقيقة الحال، محرومة من السلطة والسلطان، مستقلة الرأى (لحد مقبول)، يمكن التسامح معها والسماح لها بإبداء هذا القدر المحدود من الاستقلالية. تزداد أعداد كل فئة ذاتيا ولكن – فى غالبية الأحوال لا يتحول فرد من فئة إلى الفئة الأخرى (إلا بعد قرن كامل عندما حدثت تغيرات كبرى عصفت بالمجتمع).

كانت «المؤسسة» تقف على طرف وكانت تعتمد على جامعتى أكسفورد وكامبريدج. كانت تلك المعاهد أحادية الرؤية (وقد تخلصت من بقايا أتباع وايكليف والذين يرون رأيه ويدينون بمذهبه، وأرجعت عقارب الساعة للوراء) كان ينبه على الشباب أن يظلوا عزابا ليعملوا مدرسين بالجامعة، ويُعلمون حب الله، واحترام الملك، وتقديس التراث بعلومه وآدابه ومقدساته اللاهوتية والقانونية والطبية، وأحيانا بجماله وعنويته، وأن ينفقوا دخولهم – الذين يتمنون ألا يشقوا فى تحصيلها – فى الرفاهية الحاضرة بدلا من الخلاص الأبدى. كان أولئك هم البشر الذين توزعوا فى انجلترا فى القرن الثامن عشر وأقاموا فى مساكنها الريفية وحافظوا على مدنها وقراها، وأحبوها، وخططوا أراضيها على نسب تقليدية أنيقة. ولكنهم كانوا أيضا القوم المحافظين الذين بجلوا المجتمع الطبقى واحترموا نظام الاحتشاد فى أبروشيات الكنائس المحلية. كانت جماعات الأنقياء، المطهرون قد أزالت صور وتماثيل القديسين من تلك الكنائس فملأوها بآثارهم هم. حلت بها قبور الأسياد الجدد والأفراد ذوو الحيثية والمراكز الرفيعة فى المنطقة الذين كانوا يؤمنون الكنيسة أثناء حياتهم ويغدقون عليها من خيراتهم، والذين كانوا فى الحقيقة يأتون للكنيسة لا ليتعبدوا بل لكى يُحترموا ويُوقروا أو حتى ليعبدهم الأهالى، وبعد رحيلهم تحولوا إلى قياصرة فى أنحائهم.

وكان يقف على الطرف الآخر، الخوارج، المنشقون عن الكنيسة الأنجليكانية، إناس على طراز آخر مغايرا تماما لأولئك السابق وصفهم. كان معظمهم من الفقراء، أخذوا على العمل بيديهم واعتادوا عليه، معظمهم من الحرفيين أو المهنيين، النشطاء المتقدمون المتحمسون، الفضوليون والمحبون للبحث والتدقيق، ذوو الفاعلية والإنجاز والمصممون على تعلم كل جديد مفيد والباحثون على الحقيقة على طريقتهم والساعون إلى الخلاص بوسائلهم الخاصة. كانوا حريصين على حكم أنفسهم فى مجتمعاتهم ولكن لم تمنحهم الدولة كنائس ولا مدارس، فكانوا يتقابلون سرا ثم – عندما سمح لهم – بنوا أمكنة اجتماعهم بأيديهم. فر بعضهم إلى هولندا أو إلى أمريكا أو إلى أقصى الشمال أو إلى أقصى الغرب. لجأ آخرون إلى المدن الصغيرة الجديدة بدون التسهيلات (أو بالنسبة لهم المعوقات)

التى يصادفها من يلجأ إلى المدن الجديدة. إذا تجولت فى انجلترا الحالية يمكنك التعرف على الأماكن المختلفة التى انقسم لها الشعب الإنجليزى. المجتمع الأول يتقلص حثيثا بشوارعه وطرقاته ومساكنه التى تمتد فى طرازها إلى المؤسسة الإنجليكانية السطحية البسيطة غير المعقدة أما المجتمع الثانى الشيطانى بمصانعه الكالحة الذى أنشأه الصناع الأوائل المجتهدون، شديدو الصلابة وشديدو القدرة على التحمل والعمل الجاد المجهد، هؤلاء الرجال باكورة الثورة الصناعية.

بين هذين النوعين الغالبين اللذين يقفان عن طرفى نقيض، كانت هناك مجموعة ثالثة مندمجة فى «المؤسسة» ولكنها تختلف عنها. أولئك هم الحُوّل أو القُلّب، الذين يغيرون سياستهم ومواقفهم وآراءهم تبعا للظروف، المنافقون.

أهم من قرارات الملك أو الأساقفة أو الحكومة كانت تلك التى تصدر عن مجموعة من الفلاسفة والعلماء الذين اتخذوا التجريب منهجا لهم والذين تجمعوا فى أكسفورد وفى كامبريدج. لهؤلاء كانت هناك معايير قاسية لمعتقداتهم. بينما كان عامة الشعب يقضون جل وقتهم لمناقشة مشاكلهم الدينية لخلاصهم، كان هؤلاء يجفلون من البربرة والكلام المعقد غير المفهوم، الخالى من المعنى الذى ترددة السلطات الرسمية بقصد شغل الناس. لم تستطع غالبيتهم أن تهضم القانون ذوى التسعة وثلاثين مادة ولم يقبلوا أن يتغاضوا عن ثلاثة من مواده ولا عن مادة واحدة ولم ينافقوا أو يتظاهروا بالموافقة على ما لا يؤمنون به. صار هؤلاء وتلاميذهم الخوارج واعتبروا منشقين على «المؤسسة». ابتدأ هؤلاء العلماء نشاطهم فى لندن ثم اضطروا لنقله إلى أكسفورد، التى تتميز بمزيد من الحرية والهدوء وسهولة الإقامة وكثرة المنح المخصصة للعلماء، اتسعت اهتماماتهم لكل العلوم من الميكانيكا إلى الرياضة ومن الفلك إلى الكيمياء ومن الاقتصاد إلى علم النبات. كان معظمهم أعضاء فى البرلمان ولكن كان أقلهم موالين للملك. يوضح الجدول (٢٢) أهم هؤلاء العلماء الذين عاشوا فى أكسفورد وتخصصاتهم وأهم منجزاتهم. ماذا حدث لأولئك العلماء من أكسفورد؟ فُصل جودارد وأُبعد بتى، ورحل بويل وهوك إلى لندن. لاقى علماء كامبريدج نفس المعاملة ونفس هذا الإحباط، ففصل ويلكنز بعد انتقاله إليها وتبعه جون راى. سنحت الفرصة فى هذه اللحظة ليبرزوا فى لندن على شريطة ألا يتحدثوا فى الدين ويبتعدوا تماما عن السياسة، ويعملوا بدون أجر ولا منح وبدون دخل أو مساعدة. سمح لهم الملك بمزاولة نشاطهم كى يحسن صورته أمام الشعب ولكنه لم يزودهم بالنقود. لم يخف الملك حبه فى دعم العلم ومساندة العلماء ولكن كانت أولويته فى الإنفاق على نسائه، وبهذا انقطع العلم فى انجلترا عن كل مساندة مادية وقطعت كل الوسائل لكى يستمر نموه فى الجامعات. بالرغم

جدول (٢٢)

أهم علماء أكسفورد وكلهم من المؤسسين للجمعية الملكية ١٦٦٢ - ١٦٦٣ (ما عدا سيدنهام)

جون ويلكنز	١٦١٤ - ١٦٧٢	
جون واليس	١٦١٦ - ١٧٠٣	أستاذ في الهندسة
جوناثان جودارد	١٦١٧ - ١٦٧٥	طبيب كرومويل ـ اخترع أول تلسكوب إنجليزى
سيث وارد	١٦١٧ - ١٦٨٩	أستاذ فلك
رالف باثرست	١٦٢٠ - ١٧٠٤	عين مستشارا للملك
توماس ويليس	١٦٢١ - ١٦٧٥	كيميائى
وليام بتى	١٦٢٣ - ١٦٨٧	أستاذ تشريح ـ اقتصادى
روبرت بويل	١٦٢٧ - ١٦٩١	صاحب قانون بويل
توماس ميلينجتون	١٦٢٨ - ١٧٠٤	عالم نبات
توماس سيدنهام	١٦٢٩ - ١٦٨٩	من مؤسسى الطب السريرى
كرستوفر رن	١٦٣٢ - ١٧٢٣	أستاذ فلك ومهندس معمارى
روبرت هوك	١٦٣٥ - ١٧٠٣	عمل مع ويليس ومع بويل

من هذا فقد شذ رجل عن هذا الإحباط وبرز فى جميع أنحاء العالم وعمل فى صمت بعيدا عن الأضواء مخفيا عقيدة التوحيد، وآراءه وارتيابه فى أحقية الملك فى الحكم. هذا الرجل هو إسحاق نيوتن الذى تم تعيينه من القيادات الدينية المقدسة أستاذا للرياضيات بجامعة كامبريدج (ولكنه لم يعين فى منصب عميد كلية ترينتى، الذى كان يصبو إليه نظرا لآرائه غير التقليدية). لعل الجامعة التى عمل فيها والبلد الذى أنجبه والعالم على اتساعه يغبط فى إسحاق نيوتن تعقله وتدبره وجبنه، فقد تمسك رجال كثيرون بمبادئهم فتم فصلهم من أكسفورد وكامبريدج، وبعد فصلهم صادرت الكنيسة كل ممتلكاتهم وازدادت سيطرتها على جميع المدارس والجامعات فى كافة أنحاء البلاد، خاصة الغنية منها. بازدياد السيطرة وبمنع دخول الخوارج وذوى الآراء الخارجة عن التقاليد وبمنع استخدام الكاثوليك واليهود تقلص التنوع فى الأعراق والأجناس والطبقات والآراء فى الجامعات ــ التى عليها يقوم التطور ويحيى ـ خاصة التقدم العلمى. فى كامبريدج انشغل أستاذ الرياضيات الجديد ــ بعد نيوتن ــ بأن يوفق بين علم نيوتن وبين كتاب الخلق كما جاء فى الكتاب المقدس، كما كتب أستاذ

النبات الجديد تعليقا مشوقا على كتابات فيرجيل الزراعية. اختفت العلوم التجريبية من المؤسسات التعليمية فى الأمة وحل محلها تتابع من نشاطات من يبحثون عن المراكز وينهجون نهج المعلم المكرر. كان بيد الأساقفة سلطة التعيين فى المراكز الشاغرة وبيدهم «إسقاط المطر وتلطيف الجو وتشكيل أمزجة الناس» فى انجلترا فى القرن الثامن عشر.

ثم جاءت الثورة الصناعية، حيث وجد الرجال ـ بعد البحث ـ طرق تصنيع الآلات التى تقوم بالعمل بدلا عنهم. جمعت تلك الآلات كل ما توصلت إلى الكشوفات العملية والتقنية، وبها استطاع الإنسان أن يضبط بيئته ـ أو بمعنى آخر ـ أن يضبط الطبيعة. تعود روافد تلك الثورة إلى الماضى السحيق، فقد بدأت بصنع الآلات الزراعية ثم بالتعدين ثم ببناء الطواحين ودائما بصنع آلة الحرب وأدوات القتال. كان الصناع والحرفيون المنشغلون بتلك المسائل العملية هم البذرة الأولى التى قامت عليها الثورة الصناعية، لقرون عديدة لم يحدث أى تقدم ملحوظ فى مختلف الصناعات. كان المشتغلون بالتعدين وصاهرو المعادن والمهندسون والملاحون والقائمون على الغزل والنسيج يتقدمون حثيثا وببطء ومتفرقين فى صناعاتهم. ولكنهم ـ فى قرن الاضطراب والقلق والتسامح الدينى ـ دخلت جميع الأفكار والحرف ومختلف أصناف التعليم إلى الجامعات وتفاعلت معا وتعاونت وتكاتفت لإحداث تقدم علمى لم يسبق له مثيل. عندما كان هاكليوت يحاضر عن الملاحة اخترع هوك المضخات والمجاهر، وكان بتى يعلم التشريح ويناقش فى الاقتصاد ـ وكل ذلك يتم فى جامعة واحدة فى القرن السابع عشر ـ جامعة أكسفورد. ولكن لم يسمح لمثل تلك الجامعة المركبة أن تنضج، وأوقف نموها بقانون كلارندون. ولكن المسار تحول إلى طريق آخر عندما حلّت مشكلة الطاقة وتم التغلب عليها فى المناجم بيد رجال كان عملهم الانشغال بالتعدين. حدث تقدم متتابع أفضى فى النهاية إلى الثورة الصناعية. كانت البداية هو اختراع الآلة البخارية وتطويعها للعمل فى المناجم. جاء التطوير فيها فى مبدأ الأمر معتمدا على التجربة العملية وحدها من غير اعتبار للعلم أو النظريات وحدث أولا بناء على الملاحظة والاختبار ثم تبعه فيما بعد التطوير القائم على العلم، وقد أدى هذا إلى سيل جارف من التطوير لفت نظر الصناع وأقنعهم بالأهمية القصوى للعلم وللتطوير القائم على أسس علمية سليمة. تغير العالم تماما فى نصف القرن الذى أعقب جيمس وات مخترع الآلة البخارية.

كان الرجال الذين أحدثوا هذا التغير من ضمن الخارجين على المألوف فى انجلترا ومن بين التابعين لطائفة البرسبيتيريان فى اسكتلندة ومن المهاجرين الأجانب الذين لجأوا للبلاد هربا من أنواع مختلفة من الاضطهاد الدينى فى بلادهم الأصلية. سلك التطور سبيلين مختلفين أحدهما علمى والآخر صناعى ـ كانت هناك فروق واضحة بين مختلف العلوم، وكان المستكشفون العظام ذوى أصول اجتماعية مختلطة، كما يوضح الجدولان (٢٣)، (٢٤). ولكننا نلاحظ أن اثنين فقط من ستة

جدول (٢٣)

المؤسسون للثورة العلمية فى بريطانيا بين ١٦٢٠ - ١٨٠٠

الاسم	مكان المولد والتواريخ	الأب	التعليم والديانة	الأعمال
جون راى	اسكس ١٦٢٧–١٧٠٥	حداد	كامبريدج استبعد كأحد الخوارج	مؤسس التاريخ الطبيعى وعلم الأحياء
روبرت بويل	أيرلندة ١٦٢٧–١٦٩١	أحد بواكير الصناعة	ايتون، جنيف، فرنسا.	قانون بويل (مع هوك)
روبرت هوك	جزيرة وايت ١٦٣٥–١٧٠٣	قسيس	مدرسة وستمنستر ثم جامعة أكسفورد	مخترع ومهندس معمارى
اسحاق نيوتن	لينكونشاير ١٦٤٢–١٧٢٧	من صغار الفلاحين	ترك المدرسة في سن ١٤ سنة من الموحدين(فى السر)	أسس رياضية وبصرية وفى الجاذبية الأرضية
جون فلامستيد	دربيشاير ١٦٤٦–١٧١٩		تعلم ذاتى	من علماء الفلك. كتالوج النجوم. واضع أساس علم الفلك الحديث
إيموند هالى	لندن ١٦٥٦–١٧٤٢		مدرسة القديس بول ثم أكسفورد	المغناطيسية الأرضية ـ من علماء اللغة العربية
إبراهام دى موافر	فيترى ١٦٦٧–١٧٥٤		هيوجينوت هاجر إلى انجلترا عام ١٦٨٨	مؤسس العلم الأكتوراى على نظرية الاحتمالات
آدم سميث	كيركالدى ١٧٢٣–١٧٩٠	من رجال القانون	جامعة جلاسجو	مؤلف كتاب «ثروة الأمم» مؤسس علم الاقتصاد الحديث
جيمس هاتون	إدنبرة ١٧٢٦–١٧٩٧	تاجر	إدنبرة وباريس ولايدن	مؤسس علم الجيولوجيا. صاحب نظرية الأرض

تابع جدول (٢٣)

المؤسسون للثورة العلمية فى بريطانيا بين ١٦٢٠ - ١٨٠٠

جوزيف بريستلى	يوركشاير ١٧٣٣-١٨٠٤	خياط	من الموحدين	كشف عن الأكسجين ناقد للعقيدة المسيحية هاجر للولايات المتحدة ١٧٩٤
وليام هيرشل	هانوفر ١٧٣٨-١٨٢٢	موسيقى	بروتستانتى مورافى	من علماء الفلك. كشف عن أورانوس
روبرت مالتوس	جيلدفورد ١٧٦٦-١٨٣٤		الكنيسة الأنجليكانية	صاحب نظرية السكان وقانون العائد المتناقص
جون دالتون	كمبرلاند ١٧٦٦-١٨٤٤	نساج	من الكويكرز	صاحب النظرية الذرية، عمى الألوان
توماس يونج	سمرست ١٧٧٣-١٨٢٩		من الكويكرز واسع الترحال	من علماء المصريات ـ صاحب نظريات الضوء والإبصار والمرونة والمد
همفرى دافى	پنزانس ١٧٧٨-١٨٢٩		تعلم على يد الكويكرز	عديد من الكشوفات في الكيمياء والكهرباء
ميكل فارادای	سرى ١٧٩١-١٨٦٧	حداد	كان مساعدا لدافى	المغنطة الكهربية

جدول (٢٤)

مؤسسو الثورة الصناعية فى بريطانيا بين ١٦٥٠ - ١٨١٠

الاسم	مكان المولد والتواريخ	الأب	الأعمال
توماس سافرى	توتن ١٦٥٠-١٧١٥	من إصل الهيوجينوت	مهندس حربى اخترع أول آلة بخارية عام ١٦٩٨
أبراهام داربى الأول	ددلى ١٦٧٧-١٧١٧	فلاح	من الكويكرز صهر الحديد بفحم الكوك
جون دولاند	سبيتالفيلد ١٧٠٦-١٧٦١	نساج حرير	من الهيوجينوت ـ مخترع آلات بصرية
جيمس هارجريفز	بلاكبورن ١٧٢٠-١٧٧٨	نجار ونساج	بدع آلة للغزل
جون ويلكنسون	كمبرلاند ١٧٢٨-١٨٠٨	مخترع آلات حديدية	صب جسرا من الحديد في بروزلى
جوشيا ودجوود	بورسليم ١٧٣٠-١٧٩٢	خزاف	من الموحدين ـ منشئ صناعة الخزف الحديثة
رتشارد أكرايت	برستون ١٧٣٢-١٧٩٢		صبى حلاق ـ نظم صناعة غزل ونسج القطن
جيمس وات	جرينوك ١٧٣٦-١٨١٩	قاض ومخترع ومهندس	اخترع الآلة البخارية عام ١٧٦٩ كشف عن تركيب الماء عام ١٧٨٣
إدموند كارترايت	نوتنجهامشير ١٧٤٣-١٨٢٣		اخترع النول الصناعى واخترع آلة تمشيط الصوف. له تجارب فى الزراعة، شاعر
صمويل كرومبتون	بولتون ١٧٥٣-١٨٢٧	غزال ونساج	اخترع آلة للغزل عام ١٧٧٩
توماس تلفورد	دمفريس ١٧٥٣-١٨٣٤	من الرعاة	مهندس مدنى ومعمارى ـ كاتب وأديب
رتشارد ترڤيثيك	كورنويل ١٧٧١-١٨٣٣	مدير منجم	من طائفة الميثوديست ـ اخترع أول قاطرة بخارية عام ١٨٠١
جورج ستيفنسون	نيوكاسل ١٧٨١-١٨٤٨	من عمال المناجم ـ جندى مطافئ	أنشأ أول خط حديد بين ستوكتون ودارلنجتون بين ١٨١٩-١٨٢٥

عشر من العلماء (هالى ومالتوس) استطاعا الالتحاق بالجامعات الإنجليزية بعد عام ١٦٦٢. كذلك يتضح تأثير طائفة الكويكرز فى دالتون ويونج ودافى. وأن أكاديمية وارنجتون (للخارجين على المألوف) استخدمت بريستلى (١٧٦١-١٧٦٧) وتعلم فيها مالتوس (١٧٧٩-١٧٨٣)، وقد تعزى بعض آراء مالتوس فى الفلسفة الاجتماعية إلى الخبرة التى اكتسبها فى ذلك المعهد، خاصة فى خلافه مع النظرة التقليدية للكنيسة الإنجليزية التى تنادى بأن المجتمع الأمثل يعتمد على جهود «إناس يبذلون قصارى جهدهم لتحقيق مطالب أمة مرفهة». وأخيرا فإن الجمعية الملكية بعد عام ١٨٠٠ (نظرا لعدم وجود قيود دينية لديها) هى التى ساندت يونج ودافى وفرادى. على الصعيد الصناعى نلاحظ اتجاهات مختلفة، فهناك المخترعون العمليون مثل هارجريفز وكرومبتون، وهناك المنظمون والمرتبون للعملية مثل ويلكنسون وودجوود وأركرايت وهناك العلماء الحالمون مثل وات، الذى كان همزة وصل مع العلماء الأكاديميين واتخذ موضعا وسيطا بينهم وبين رجال الصناعة، أو حتى قِبَلَهُ العلماء بجامعة إنجليزية مثل كارترايت. كان المنظمون ينتمون إلى طائفة الكويكرز أو الموحدين أو من الخارجين على المألوف وغير التقليديين.

التقت بواكير الصناعة مع بواكير العلم فى تلك اللحظة الحاسمة من القرن الثامن عشر فى الجمعية القمرية (لونار سوسيتى). كانت تلك الجمعية تعقد اجتماعاتها فى برمنجهام وفى ليتشفيلد بين ١٧٦٦ و١٧٩١ بولتون ووات وويجدوود وبريستلى، لم يتلاقى هؤلاء الرجال معا فى جامعة عظمى ولم تضمهم أكاديمية علمية بل جمعهم سويا رجل عظيم - إرازموس داروين (١٧٣١-١٨٠٢)، الطبيب، المنادى بالتطور والداعى له، والشاعر. من خلال اجتماعات تلك الجماعة حدث الزواج بين أفرادها، هذا الزواج الذى أثمر حفيدين عظيمين له: تشارلز داروين وفرانسيس جالتون. تحول اسكتلندى مندفع فضولى - جيمس بوزويل - من العالم الأكاديمى القديم إلى الحقل الصناعى الحديث. أبدع هذا التزاوج بين العلم والصناعة الآلات الضخمة التى بَدَعها بولتون ووات. بدعت تلك الحلقة من الأصدقاء فى برمنجهام الثورة الصناعية فى انجلترا بينما كانت فرنسا تعانى من الثورة الفرنسية وتمر الولايات المتحدة الأمريكية بالحرب الأهلية - وكليهما ثورات سياسية. وفى اسكتلندة، ألغيت قوانين كلارندون وطُرد الأساقفة فى ثورة ١٦٨٨. ولهذا السبب حدثت إشعاعة تنوير جيدة فى اسكتلندة أعادت الحياة للعلم والتعليم، ظهر دافيدهيوم وآدم سميث، ومن بعدهما جاء مؤسس الجيولوجيا الحديثة جيمس هتون والجيل الجديد من المهندسين الاسكتلنديين البارعين: جيمس وات وتوماس تلفورد وجون مكآدم، وخلفاؤهم. بعد ذلك بدأت الجامعات الاسكتلندية تهتم بالعلوم الهندسية والعلوم الطبية الحديثة، بينما كانت تلك المعارف تكاد تختنق فى الجامعات الإنجليزية. لهذا بدأت موجة من هجرة النابهين الاسكتلنديين إلى انجلترا، وقد جذبتهم الثورة الصناعية ببريقها.

نشأت الثورة الصناعية من اختراعات إناس معينين فى مجتمعات معينة خاصة مجتمعات خارجة عن التقاليد. بعد تطورها غيرت من وجه تلك المجتمعات، فزاد ثراؤهم وازداد تعدادهم. أو بالأحرى زاد ثراء البعض وازداد تعداد الآخرين. كانت غالبية الخوارج فى انجلترا من الهيوجينوت الفرنسيين، وفى أيرلندة من الألمان المورافيين. أضيف إليهم فيما بعد الميثوديست من آثار ثورة جون ويزلى ـ الرجال الصغار الذين أرهقهم تسلط الكبار. كان كبار رجال الكنيسة ـ كما كان كبار الكويكرز ـ ممن يرتدون الملابس الثمينة، ولكن كان هؤلاء الميثوديست ممن اشتهر عنهم ارتداء الملابس المتواضعة، وقد اتبعوا تعليمات ويزلى بعدم التزاوج من خارج الطائفة. كان لهؤلاء جميعا، كما كان للبابتست ولغيرهم دور متواضع فى نمو الصناعة. تكاثروا ولكن لم يتحقق الثراء لهم (كان هؤلاء جميعا ممن يؤمنون بالثالوث المقدس، العقيدة التقليدية للمجتمع). ولكن كان الآخرون ممن رفضوا الصيغة التقليدية، من الموحدين ومن الكويكرز، هم من تحقق لهم ثراء شديد بدون زيادة فى العدد أو تكاثر، وقد كان ذكاؤهم الفائق واتجاهاتهم التقدمية هما أساس النجاح العظيم الذى توصلوا إليه.

هكذا صار الخارجون عن المألوف منفصلين عن غالبية المجتمع فى ذكائهم وقدراتهم العقلية، كما كانوا منفصلين اجتماعيا ووراثيا عن سائر الناس. وكانت هذه العوامل من أسباب سعيهم للهجرة المنفصلة إلى مستعمرات أمريكا الشمالية. استوطن المستقلون فى نيوإنجلند واستقر البابتست فى رود أيلاند والهيوجينوت وأتباع الكنيسة الهولندية المتطورة فى نيويورك. واستقر الكويكرز وبعدهم المينونيين فى بنسلفانيا والبرسبيتيريان فى شرقى نيوجرسى والكاثوليك فى مستعمرة بالتيمور، وهكذا فى كل مجتمع جديد كان هناك السادة والخدم. اتبع الجميع المثل الذى ضربه لهم الكويكرز، وزاد ثراؤهم بعد تقبلهم الخارجين عنهم وتحملهم للمختلفين معهم، وقبولهم للآتين بعدهم كخدم لهم وإيوائهم للمحكوم عليهم. بدون أن يطلبوا منهم اتباع عقيدتهم، كما كان الحال مع المسجونين. وفدت أعدادا كبيرة من المهاجرين للبلاد وتفرقوا فى مختلف أنحائها مما أحدث التغيير فى التركيبة الأصلية للسكان ولأوضاعهم الجغرافية فى المستعمرات الأمريكية وفى الولايات التى تبعتها.

فى انجلترا ـ فى كل مدينة من مدنها ـ ظهر منشقون عن الكنيسة الإنجليزية ـ فى برمنجهام المدينة التى صارت مدينة صناعية كبرى، وفى مانشستر التى احتضنت غزالو القطن، وفى شيفيلد ـ مدينة الصناعات المعدنية، وفى غيرها حدث انشقاق بين الناس من جراء اضطهاد الكنيسة القائمة لهم وبدأو فى اتخاذ سبيل من سبيلين. هاجر بعضهم إلى الخارج ليتمتعوا بالحرية والاستقلالية التى

أتاحتها لهم تلك المجتمعات الجديدة وبدأوا فى تكوين صناعاتهم، أو انفصلوا عن الكنيسة الأنجليكانية وكونوا كنائسهم المستقلة. فى برمنجهام ـ على سبيل المثال ـ انفصلت جماعة وسمت نفسها باسم البرسبيتيريان، ولكن بعد خمسين عام ـ فى عام ١٧٤٨ ـ انشقت عن تلك الجماعة الأخيرة طائفة عرفت بالموحدين. وكانت هناك طائفة الكويكرز قائمة من قبل. ظهرت طائفة البابتست عام ١٧٣٨ وظهرت طائفة الميثودست (أتباع وزلى) عام ١٧٥٢، وبعد أعوام قليلة حلت طائفة من اليهود. بعد قرن كامل من الزمان ظهر النجاح الفائق لمدينة برمنجهام ـ الذى حققته طوائف المنشقين المختلفة. بعد هذا النجاح لجأ أقوام مختلفون من إناس عاديين إلى برمنجهام وصار التركيب السكانى لتلك المدينة ـ كما سجله جيل عام ١٨٥١ كما يلى:

المؤسسون:

ميثوديست	٦٠٠٠
بابتست	٤٢٠٠
موحدون	١٨٥٠
كويكرز	٥٤٤

اللاجئون :

من أتباع كنيسة انجلترا	٢٠٠٠
الكاثوليك (أيرلنديون)	٣٤٠٠
برسبيتيريان (اسكتلنديون)	٤٦٤
يهود	١٨٥

وبالرغم من هذا استمرت القوة الدافعة لهذا المجتمع فى يد أبناء الطبقة العليا من المؤسسين، وكان محافظو المدينة بين عامى ١٨٤٠ و١٨٨٠ من طائفة الموحدين.

خارج برمنجهام وليفربول ـ لعبت طائفة الكويكرز دورا أشد وضوحا من دور الموحدين فى بناء الاقتصاد والصناعة فى انجلترا. كان لهدوئهم ولذكائهم الشديد أكبر الأثر لنجاحهم الملحوظ فى الشئون المالية والاقتصادية. فمنهم باركيز وجيزنير ولويدز مؤسسو البنوك الكبرى، وهم أصحاب كادبورى وفراى وراونترى فى صناعات الكاكو، وكروسفيلد وجوزاج وهدسون فى صناعات الصابون. وهكذا نمت طائفة جديدة من الحكام ـ ليست أشد ثقافة وأكثر علما من رجال الكنيسة الأقدمين ولكنهم يعدلونهم فى الثراء وينافسونهم فى السلطة السياسية.

كان لاستقلالية الطوائف المنشقة ولمبادراتها أكبر الأثر فى التقدم الذى حدث فى المجالات الصناعية وكذلك فى بدء الاتجاه إلى الاستقلالية السياسية. كانت كل طائفة دينية أرضا للتدريب على الديمقراطية ومجالا للإفساح عن الآراء المسئولة والتصرف السليم، وكان لطبع هؤلاء المنشقين، من الفردية وحب بناء الامبراطوريات، ما دفعهم دفعا لإقامة صناعاتهم وللاستقلال بعقيدتهم والتفرد بآرائهم السياسية. ولكل تلك الصفات ـ بالإضافة إلى الربح الوفير الذى تحقق حدث التحول ـ عندما سنحت الفرصة ـ إلى تطوير الآلة الإنتاجية وإدارة الأعمال بكفاءة والتعامل من العمال بحصافة أعوام ١٧٨٩ و١٨٣٨ وكذلك فى القرن العشرين، بدلا من الاتجاه نحو السياسة. ظلت الطوائف ـ التى انشغلت بالصناعة ـ على تماسكها وصارت بنفسها مؤسسة بين المؤسسات تتزاوج من بعضها البعض وتنفصل وراثيا عن بقية الفئات. استمرت هكذا حتى نهاية القرن التاسع عشر عندما بدأت العقائد الدينية ـ التى كانت من أسباب قيامها وعوامل ازدهارها فى الدرجة الأولى ـ بدأت تتهدم. بدأ التغير عند القمة حيث تغيرت الظروف أشد تغير، وحيث تغير الحضر كثيرا عن الريف.

كانت المؤسسة الرسمية تسيطر على الدولة، نظرا لامتلاكها للأراضى وللكنيسة وللجامعات والمدارس ولسيطرتها، على الألقاب والأوسمة ولارتباطها بالملكية. كان ملاك الأراضى يقاومون كل تقدم فى الصناعة، وكانوا يساندون الحكومة فى حروبها ضد مستعمراتها التى تجاهد للاستقلال، وكانوا يشجعون الحكومة على احتلال مزيد من الأراضى بينما كان القادة الجدد يعترضون على كافة الأنشطة، القادة الجدد من أمثال داربى وويلكينسون ونتلفولد وجالتون؛ فقد تركوا الإمبراطورية لمؤسسة كانت تظن نفسها قد امتلكت الدولة. كان التناقض حادا بين «المؤسسة» وبين المجتمعات الجديدة التى خرجت عن المألوف وقد ضاقت الفوارق تدريجيا بين الطرفين بترقية أفراد منتقين إلى الطبقة العليا وبالهجرة وبالزواج خلال القرن الماضى. قلت حدة الخوارج وزادوا لطفا، وازداد ثراؤهم وقل تقشفهم، واجتُنِب كبراؤهم إلى «المؤسسة»، وقل تماسكهم بالتهجين مع أفراد الطبقة العليا. حتى بين طبقاتهم الوسطى كان تطلعهم دائما هو اللحاق بأكابر الناس. كل ما تبقى من الانقسام الكبير للمجتمع الذى حدث عام ١٦٦١ هو علاماته الشامخة، فعلى أحد الطرفين تقف الارستقراطيات ذوات الممتلكات الشاسعة، والجامعات العتيقة، والمدارس الخاصة التى يلتحق بها أبناء الأرستقراط، والكنائس، وعلى الطرف الآخر تقف قلاع المعارضة، غلاة الولش والقوميين الاسكتلنديين والمتطرفين من الجماعات السياسية المتعصبة.

وضع قانون الإصلاح ـ الذى صدر عام ١٨٣٢ ـ البناة الأنقياء للثورتين العلمية والصناعية، ... العنيدين المعترضين دائمى المقاومة لقرنين كاملين، على حافة السلطة السياسية، طالبوا بأن تـ ...ح الجامعات أبوابها لهم، وبعد أربعين عاما، فى سنة ١٨٧١ فتحت جامعتى أكسفورد وكامبر...ج

أبوابها للمعترضين، وكذلك لليهود وللكاثوليك وتراخت الأيادى من الإدارة الدينية عام ١٨٧٨ وسمح للمدرسين بعدم التقيد بالعزوبية. لم يكن لتلك التعديلات الآثار التى رجاها الراجون ولا تلك التى خوف منها المتخوفون. استمر مدرسو هاتين الجامعتين يضعون قواعدهم لأنفسهم ويختارون خلفاءهم. استمرت كليات تلك الجامعات فى استبعاد النساء وعدم الترحيب بالمواد العلمية واستمرت تذعن للكنيسة وتتعقب تلاميذها للحصول منهم على المنح والهبات والأموال والحفاظ على الأوضاع الاجتماعية التى تهيؤها لهم الهبات. ووضع نظام من الحوافز للمدارس الخاصة لتهيئة الممتازين من خريجيها للالتحاق بهاتين الجامعتين، حفاظا على وضعهما الاجتماعى، هذا الوضع الذى استمرت عليه تلك الجامعتين منذ القرن السابع عشر، الوضع مع ثقافة المجتمع ومقاوما للخارجين عن الخط المألوف مما أدى إلى إفقار تدريجى فى الذكاءوالثقافة لهما ولخرجيهما. وحتى عندما يسمح بقبول صنف جديد متميز من الطلبة فإن النظام الذى تقوم عليه المؤسسة الثقافية والعلمية يدعو لانخراطه فى نفس نوعيات الثقافة المتواجدة بهما وإلى تقليده لمن يعتبرهم أرقى ويعجب بهم ويتملقهم ويسعى لصحبتهم ويتكبر على من يعتبرهم أدنى منه. وهكذا صارت الجامعات هى السبيل للرقى الاجتماعى وللحصول على الوظائف العليا فى إمبراطورية كبرى. وهكذا فرضت هاتين الجامعتين الأسلوب القديم للطبقة القديمة على الفئات الجديدة التى تتصاعد من الطبقات الصناعية والطبقات التجارية الجديدة التى رحبت بأن تركت بعيدا عنها سلم العلم ودرج الصناعة الذين كانا السبب فى رفعتها وتتخلص من القانورات التى كانت تحيط بها عند صعودها من بدايتها الأولى. كانت الثروة التى تجمعت من الجهد والعرق والدخان فى شمال البلاد هى التى أنتجت الخضرة والوفرة والرفاهية فى جنوب البلاد، واستمرت الثروة طالما استمر التقدم العلمى والمخترعات التقنية، ولكن الرجعية والتقليدية ما زالت تتغلغل فى النفس الإنجليزية وما برح الجمود يتعمق حتى النخاع فيها، لدرجة أن الرئاسات الإنجليزية حذرت القيادات ـ عندما كانت تستعد للأزمة التى نشأت عنها الحرب العالمية الثانية ـ فوجهت النداءات لها عام ١٩٣٤ «أن تتجنب اللقاء فى الاجتماعات مع العلماء كيلا يفسدوا عليهم حسن تقديرهم للأمور»

حدث العكس فى فرنسا وفى ألمانيا ـ فقد شجع نابليون العلم ورعى العلماء، كما شجع النظام القديم لابلاس (١٧٤٩-١٨٢٧) ولافوازييه (١٧٤٣-١٧٩٤) على تنظيم المقياس المترى الذى أدخل عام ١٧٩١. وفى ألمانيا نشأت جامعات متعددة، كان يدعمها أمراء متنافسون مختلفون، ويشجعونها على الازدهار والتنافس والإبداع، وكانت لتلك المدارس العلمية استقلالية كبرى مما دعم تقدمها وساعد على تطورها وأتى لها بالثمرة العظمى (وبالنكسة) فى القرن التاسع عشر.

الباب الحادى عشر

الثـــورات فى أوروبـــا

اولا : أوروبا الغربية

أثار الكتاب المقدس المطبوع عديدا من المشاكل فى أذهان قارئيه. ما هى أحقية فرد ما أو طبقة بعينها فى الحصول على السلطة أو تملك الثروة دون غيرها! لقد أجاب أرسطو كما أجاب موسى. فهناك أقوام كالإغريق واليهود أفضل من سواهم كالأقوام المتبربرة والهمجية وكفير اليهود (وخاصة المسيحيين)، وهؤلاء هم الذين ينبغى استعبادهم وجعلهم أرقاء. ولكن هذه الإجابة لا يمكن قبولها فى العصور التالية عندما تحول الجميع ـ بالتعميد ـ وصاروا مسيحيين. ولكن لما انقسم الناس إلى أنجليكان ولوثران وبرسبيتيريان زاد الارتباك وعمت الفوضى. ظهر هذا التساؤل بوضوح فى ذروة الحرب الأهلية الإنجليزية بين أعوام ١٦٤٦-١٦٤٩، فقد طفت إلى السطح تلك الأفكار التى تم إخمادها منذ كبت حركة لولارد. بدأ رجال يتذمرون فى الجيش وفى المدينة وتساءلوا علام يحاربون وماذا تم تحقيقه من مكاسب بهذا الانتصار؟ هل هو مجرد تنصيب مجموعة أخرى من الجنرالات كطبقة حاكمة جديدة؟ أم هى قواعد جديدة تم وضعها لإقامة دستور جديد دائم يهيئ لكسب حقوق طبيعية للإنسان، وليس منحة تمنحها السلطة ولكنه اتفاق بنى البشر.

قاد كرومويل مجموعة العسكريين وتكلم ميلتون باسمهم، ولم يكن لمناهضيهم أى قوة عسكرية أو ثقافة وتعليم. كانوا متعصبين ومتحمسين ولم يكن يجمعهم أى رباط اجتماعى أو عقيدة دينية مشتركة. ما كان يجمع بينهم كان إيمانا وتفاؤلا مستمدا من الكتاب المقدس أن الرجال جميعا ـ ومنهم عامة المحاربين الذين يقاتلونهم ـ رجال عقلاء قابلين للتعلم ولا يطلبون مجدا ولا سلطة ولا يريدون حكمهم أو التحكم فيهم. كانوا يعرفون كيف يحكمون أنفسهم ولم يطلبوا من أحد أن يحكمهم، ولهم الحق كل الحق فى رفض أن يتحكم فيهم آخرون. وقد جاء فى الإنجيل أن البشر متساوون منذ ولادتهم ولهم حقوق متساوية فى الملكية والحرية والاستقلال. وعلى هذا طالب ستانلى بأراض لكل الناس وطالب جويس بالحرية الدينية لكافة الخلق.

حوكم الملك فى يناير عام ١٦٤٩ ثم أعدم وأقيمت الجمهورية فى مايو. تهيأ لكرومويل أن الوقت قد حان لغزو أيرلندة ولكن معارضيه رأوا أن الأولوية هى لتنظيم البيت فى انجلترا وأدت دعايتهم إلى حدوث عصيان فى صفوف الجيش، ولكن استطاع كرومويل ـ خلال أسبوع ـ الإحاطة بهذا التمرد وقتل خمسة من العصاة فى ١٣ مايو، وأخمد التمرد. كان خطأ هؤلاء هو أنهم سبقوا عصرهم، وظهر المعارضون قبل استعداد المجتمع للتطور. ويعد جيل كامل كتب جون لوك الأسس التى حارب المطهرون من أجل تحقيقها. وفى كتابه المعنون باسم «كتابات عن الحكومة وخطابات عن التسامح» الذى نشر فى عام ١٦٨٥ بين أن الحكومة تستمد سلطتها من السلطة المستقلة لمواطنيها، وأن الاثنين يرتبطان ببعضهما البعض باتفاق أو عهد يتطلب تعاون كل الرعية وتسامح كافة الحكام، فهذا اتفاق بين الطبقة الوسطى وتعهد من الحكام بحماية ممتلكاتهم وكانت تلك الآراء التى اتبعت لاستقرار الثورة الإنجليزية وتهدئتها بعد ثلاث سنوات، وهى نفس الأسس التى قام عليها الإعلان الأمريكى للاستقلال عام ١٧٧٦ والتأكيد الفرنسي على حقوق الإنسان الذى أعلن عام ١٧٨٩. نشأت تلك الآراء من نمو الطبقة التجارية الثرية فى انجلترا وفى هولندا الذين زادت ثقتهم فى الدولة بقيام الجمهوريات الإنجليزية والهولندية ـ لم يكن لهم أى علاقة بالمتمردين ولا بالعصاة، ولكن قام هؤلاء بثوراتهم الخاصة. أزاح هؤلاء ما تبقى من الإقطاع فى هولندا وغالبية ما تبقى منه فى انجلترا وفى مستعمراتها الأمريكية. أما فى باقى أنحاء أوروبا، بقيت سلطات الملوك مفروضة على مجتمعات إقطاعية بدون منافس، ولم يكن للآراء الحديثة أى تأثير يذكر على المجتمعات الإقطاعية فى أوروبا الكاثوليكية أو البروتستانتية والأرثوذكسية. كان لا بد من سلوك سبيل آخر أكثر إثارة وأشد دموية لمناهضة تلك الأفكار التقليدية فى المجتمعات الإنسانية، وهنا لا بد من التعرض لأزمة الملكيات ولمحنة الأسر المالكة فى أوروبا.

بينما انشغلت الشعوب فى أوروبا لعشرة أجيال بالمشاكل الحقيقية التى تهم الجماهير ـ بعد الانتهاء من الإصلاح الكنسى ـ وابتدأت تنشغل بما يعود عليها بالنفع والخير وازداد اهتمامها بمستقبل الجنس البشرى، ظلت الأسر المالكة فى أوروبا منشغلة بمستقبلها هى الذى ظهر لها كأهم شئ فى هذا العالم. زيجاتها، والذرية الناتجة من تلك الزيجات (أو التى يفشلون فى الحصول عليها من الزواج)، وغير ذلك من سفاسف الأمور، كان لها الأثر فى حياة أولئك القوم وفى جميع خطوات تطور شعوبهم. كان التطور سريعا ـ بفضل جهود العلماء واختراعات المخترعين وأفكار الفلاسفة وعمل أيدى الصناع والفنانين، ولكن كانت تؤثر على هذا التطور حكمة (أو جنون) الملوك والحكام وتدفعه دفعها للأمام أو تكبله قيودا للخلف أو تحيد به عن مساره وتخرج به عن طريقه.

كيف نشأت الأسرات الملكية وكيف تولت الحكم والسلطة؟ نشأت من جراء التنافس الشديد خلال شبكة متوارثة، يتم الانتقاء منها تباعا على أساس التميز والمهارة وإتقان الأعمال. وكانت تتم تربيتهم من أجل ولأجل تسلم العمل القيادى واستلام الحكم. كانوا يحبون عملهم (كما يحب الجندى والصانع والمحامى عمله). كانوا يحبون أن يكونوا ملوكا ويستمتعون بالحكم لأنهم كانوا يعتقدون أنهم أهل له وأنهم يتقنون صناعة الملك والحكم (أو هكذا يعتقدون). توقعوا ـ وتوقع منهم الآخرون ـ أن يقودوا الجيوش، ويعينوا الموظفين ورجال الجيش، ويفاوضوا الدول الأخرى ويعقدوا معها التحالفات والمعاهدات، يخططون المدن، ويمنحون المنح، ويديرون الشئون، وعند اللزوم يعدلون القوانين، وأخيرا وليس آخرا أن يرأسوا الاحتفالات الكبرى فى الدولة. ولكن واجبهم قبل هذا أن يتزوجوا وينجبوا ورثة للعرش وأن يعدلوا بين أبنائهم ولا يتخذون من أحدهم وليا ولا صفيا ولا خليلا. بمرور الزمن، وبحلول عصر النهضة، بدأ الملوك يتخصصون أكثر فأكثر فى بعض تلك المهام الكبرى وبدأوا يفوضون غيرهم فى القيام ببعض تلك الأعمال. وبدأت تقابلهم مشاكل مركبة وبدأوا يتوسعون فى محيط زيجاتهم. كانوا ينتمون فى سلالاتهم الأبوية (من ناحية الذكور) إلى الهمج، ولكنهم انتموا فى سلالاتهم من ناحية الأمهات (من الإناث) إلى أميرات البيت البيزنطى (وأحيانا إلى البيوت المالكة الإسلامية). تسرب الذكاء ودخلت النصاحة، كما تشربت بعض تلك العائلات باللمسة الفنية عن طريق الأمهات (كما حدث فى بيت ميدتشى الإيطالى). غير عصر النهضة هذه القواعد تغييرا جذريا، بدون أن يثير هذا التغيير رعيتهم ومن غير أن يعيروه أى اهتمام. كان حفدة جميع الأسر المالكة فى العالم المسيحى يتكاثرون على مدى عشرين جيلا تبعا للقواعد التى بدعها الإمبراطور جوستنيان ونفذها بابوات الكنيسة بكل شدة وحزم. ولكن فى خلال جيل واحد ـ وبدون أن يلحظ أحد ـ ذاب هذا النظام واختفى. بطل الامتناع عن التوالد الداخلى وظهرت موانع جديدة على الاستيلاد الخارجى. بعد قيام مارتن لوثر عام ١٥١٧، وفى خلال عشرين عاما، انقسم العالم المسيحى إلى عالمين: البروتستانتى والكاثوليكى، وصار الزواج مباحا من داخل كل عالم ومحرما فى العالم الآخر ـ وبعد الاستيلاء على روما والقبض على البابا كليمنت السابع بواسطة الجيش الامبراطورى عام ١٥٢٧، صار الإمبراطور هو الذى يضع قوانين الزواج وقواعده لتوافق هواه. صار زواج المحارم مباحا، خاصة فى الجنوب الكاثوليكى.

حدث هذا على نطاق واسع بين أسرة الهابسبورج، حيث تزوج الملك من بنات أخيه أو بنات أخته، وكثر الزواج بين أبناء وبنات العمومة وأبناء وبنات الخئولة. كما سبق وحدث من قبل بين فراعنة مصر وأخامينى فارس وبطالمة الاسكندرية وقياصرة روما، ونتج عنه زوال تلك الأسر المالكة جميعا واندثار حضاراتها. أثر التوالد الداخلى على أسرة قليلة الإنجاب بعيدة عن فتوة المحاربين وعزيمة المقاتلين (وقد ورثت منهم أسرة البوربون هذا التخاذل فى القتال فيما بعد).

تحت حكم أسرة البوربون صارت فرنسا ـ لقرن كامل ـ أغنى دول أوروبا وأقواها وأكثرها ثقافة وأشدها تقدما. تزوج الملك لويس الثالث عشر من أخته، ودخلت إسبانيا تحت سيطرة أسرة البوربون بزواج نجله لويس الرابع عشر من أميرة من الفرع الإسبانى لأسرة الهابسبورج بعد أربعين عاما. وهكذا حطم البوربون أنفسهم وراثيا وازدادوا قوة من الناحية السياسية. فى بداية نشأة أسرة البوربون كانت أسرة قوية عسكرية ومحاربة ولكن بعد لويس الثالث عشر ولويس الخامس عشر حانت نهاية تلك العائلة المالكة. أما الأسر المالكة غير الكاثوليكية فكانت أسرا فقيرة وأقل تحضرا من الأسر المالكة الكاثوليكية كأسرة الهابسبورج فى فينا وأسرة البوربون فى باريس، واحتفظت تلك العائلات بعزيمتها وشدتها وروحها الحربية غير المتخاذلة ولذا شاهدناهم ـ فى القرنين السابع عشر والثامن عشر يقودون جيوشهم للنصر مثل جوستاف أدولفوس وشارل الثانى عشر فى السويد، ومثل بطرس الأكبر فى روسيا ومثل جورج الثانى وابنه جزار كمبرلاند فى انجلترا، كما نشاهد الكاثوليكى تشارلز إدوارد ستيوارت يقود جيوشه للهزيمة عام ١٧٤٥.

نشأت قواعد الاستيلاد هذه فى الأسر المالكة الأوروبية من الحقوق التى اكتسبها الفرسان ـ والتى حافظ عليها الجميع ـ ضد الطبقات الأدنى غير المعروفة فى المجتمع، وأدى الاستيلاد الداخلى إلى تدمير أسرة بعد أسرة وإلى عقم الأسرات، كما أدى إلى اختفاء ذكاء كل الأسرات وإلى غباء كافة الأفراد. تمسكت جميع العائلات المالكة بالتقاليد «الإلاهية» وخضعت إلى تعليمات كنيسة متمسكة بالتقاليد والأعراف وانساقت تحت تأثير القيادات والنبلاء المتزمتين واقتنع الجميع بأن التجديد بدعة غير مستحبة ورجس من عمل الشيطان ينبغى تجنبه. أما ملوك البروتستانت فقد مروا بستة أجيال من التجديد والاستيلاد الخارجى قبل أن تظهر أسرة مالكة واحدة تبدأ مرة ثانية التوالد الداخلى الذى أدى إلى انهيار الأسر المالكة الوثنية والأسر الملكية الكاثوليكية. وقد لعبت الأسر المالكية الأوروبية دورها الأخير فى التاريخ عام ١٩١٤ حين ظهر للعيان شذوذها العاطفى وعيوبها العقلية والجسدية والتى أدت إلى دمارها. خذ مثلا لذلك منشأ مرض الهيموفيليا فى الملكة فيكتوريا ثم انتقاله لذكور العائلات المالكة فى روسيا وفى إسبانيا وانتهائه بقيام الثورات فى تلك البلاد، أو خذ المثال الثانى عن علاقة مرض البورفيريا بالتخلف العقلى فى الأسر المالكة البريطانية.

حكمت أسرة البوربون ـ التى جاءت من نسل القديس لويس الصليبى ـ فرنسا لمدة قرنين، منذ إنشائها عام ١٥٨٩ على يد هنرى من نافار حتى تنازلها عن العرش للجمعية الوطنية عام ١٧٨٩. حكمت تلك الأسرة بلا منازع طوال تلك المدة وأتت لفرنسا باستقرار لم تشهده دولة أخرى فى ذلك الزمان، كما شهدت طبقات المجتمع الحاكمة والأرستقراطية استقرارا وثباتا مستمرا. أما الشعب ـ فشأنه شأن الشعب الإنجليزى ـ فكان يتطور تطورا حاسما.

فى المجتمع الفرنسى، كانت الطبقة الحاكمة، الصفوة أوالنخبة أو «المؤسسة» أو الطبقة العليا – أيا كانت تسميتنا لها – ذات علاقات وراثية شهدتها مجتمعات سابقة من قبل – ولكن كانت لها أيضا روابط دستورية ذات طبيعة خاصة لم يسبق لأحد أن درسها. على رأسها كانت العائلة المالكة، تزاوجت مع الهابسبورج (فى النمسا) وستيوارت (فى بريطانيا)، وغيرها وكونت طبقة من الأسر الملكية الكاثوليكية، تفرع منها أسرات كوندى وكونتى، وأورليانز، وتزاوج الجميع من بعضهم البعض وتطلعوا لعروش خارجية كما نشأ بينهم كثيرون من أبناء السفاح ذوى الأوضاع الاجتماعية المختلفة من الأمراء والنبلاء وغيرهم. تحت الأسرة المالكة كان هناك النبلاء من أبناء الإقطاعيين أو المحاربين، وكانت عراقة العائلة تقاس بامتدادها أو باللقب الممنوح لها الذى يبدأ بالأمير ثم الدوق ثم المركيز ثم الكونت وأخيرا – فى أسفل مرتبة – البارون (وقد نقل الإنجليز نفس هذه الألقاب). وكان لثراء العائلة أيضا حساب، فكانت العائلات الأفقر – التى لا تستطيع تحمل نفقات البلاط الملكى – تعيش فى الريف البعيد مختفية عن الأنظار. وكانت الثروات تتقلص تدريجيا بمرور الأجيال – لأن العائلات الفرنسية لم تكن تتشدد – مثل الأسر الإنجليزية – فى توريث الابن الأكبر فحسب كل الميراث، بل كان سائر الأبناء ينالهم جزء من الأرض التى تركها الأب(مع بعض الألقاب). وما زال الإجهاض وقتل الأطفال الرضع ووضع السم للكبار متبعا كما كان أيام البنادقة، (ولم تحل محله الوسائل الحديثة لمنع الحمل وللسيطرة على النسل). كان يدفع بالأبناء الصغار دفعا للالتحاق بالكنيسة التى كان عليها العناية بالعزاب من الارستقراط (مما جعل عدد الأساقفة من أبناء الطبقة العليا فى فرنسا يزيد كثيرا عن أمثالهم فى انجلترا). استمرت الطبقية فى الكنيسة الفرنسية (فى حين اختفت الطبقية كما اختفت العزوبية فى الكنائس البروتستنتية). صار أبناء الملوك السفاح والأبناء الصغار للدوقات كاردينالات وأساقفة وهكذا فى السلم الطبقى الكنسى. ولما كانت الكنيسة تمتلك نحو نصف الأراضى الزراعية فى الدولة وتحصل على منح وهبات وفيرة فهكذا صار النبلاء من أفراد الكنيسة يعيشون معيشة رغدة وفى سعة.

منذ عهد قديم – قبل عهد أسرة البوربون – فى روما وفى بيزنطة علم الملك الحاكم أن سلامته تعتمد على إبقاء النبلاء – من غير أمراء العائلة المالكة – خارج نطاق الإدارة الملكية. استمر هذا التقليد كعادة اتبعتها أسرة البوربون المالكة فى فرنسا. كان جميع العسكريون من العائلة المالكة ولم يسمح لأحد غيرهم بحمل السلاح. ولولا السماح للأجانب بالانخراط فى الجيش لقضى عليه وفنى فناء محتما. فانضم إليه نبلاء الكاثوليك فى أوروبا – مثل اليعاقبة اللاجئين من اسكتلندة ومن أيرلندة، وهكذا استمر جيش لويس السادس عشر قويا وعلى مستوى (وقد ساعد هذا على نجاح الثورة

الفرنسية فيما بعد). كان الملك يشترى أو يرشو موظفيه الأكفاء (كما كان يتحصل على الضباط الأكفاء لجيشه)، وكان يتحصل عليهم من المهنيين ومن كبار التجار الناجحين والأكفاء ومن مراتب الكهنوت الدنيا ومن النبلاء الأجانب أو من نبلاء الريف البعيد. وصل بعضهم (الذين ارتفعوا من طبقات الكنيسة) إلى رتبة الكاردينال (مثل ريشيليو ١٥٨٥-١٦٤٢ ومثل الإيطالى مازارين ١٦٠٢-١٦٦١). وارتفع الذين جاءوا من عامة الشعب إلى طبقة النبلاء (مثل كولبير ١٦١٩-١٦٨٣ ومثل تورجو ١٧٢٧-١٧٨١). سمح للأثرياء بشراء الألقاب (فى عصر لويس الرابع عشر) وصار هؤلاء يكونون الطبقةالثالثة فى المجتمع (بعد أمراء الأسرة المالكة والنبلاء الذين حصلوا على ألقابهم بالوراثة). زادت الحاجة للحصول على الأكفاء والمبنيين الموهوبين من الأجانب (بعد تكاثر ذوى الألقاب). ظهرت فضائح فى كفاءة العسكريين (بعد حرب السنوات السبعة) وفى الحاجة إلى الأكفاء من الموظفين المدنيين (فيتم استيراد قادة مثل مارشال ساكس وكفاءات مالية مثل نيكير) وأظهر هذا أن النظام على وشك الانهيار، لجموده وانعدام مرونته. كانت الطبقات فى المجتمع الفرنسى قائمة على النسب الأبوى، فاتجه الناس إلى تبادل العراقة فى النساء بالمال أو الجمال فى النساء بالجاه (فتزوجت نساء من النبيلات برجال من عامة الشعب الأثرياء أو نساء من الجميلات من عامة الشعب برجال من ذوى الجاه والحسب والنسب). ولكن أدى هذا النظام إلى الإقلال من الاختلاط (بعكس ما حدث فى انجلترا) ولم يكرر ما سبق أن حدث فى روما القديمة إلا فى أقل القليل وفى أضيق الحدود. تكاتف أبناء الطبقة الارستقراطية ليضيقوا حدود الإختلاط وليحافظوا على ميزاتهم ومصالحهم. ولكن عندما أزفت الأزفة وحلت الكارثة، خرج من بين النبلاء من ضحوا بمصالح طبقتهم وخانوها فى سبيل إنقاذ الأمة كلها.

فى القرن الأول بعد إصلاح الأمور، اكتسح المصلحون النظام، وأثرت الدولة على حساب انهيار إسبانيا وتحطيم ألمانيا، ولم يتأثر النظام الإقطاعى فيها إلا قيلا (بفضل ريشيليو). وفى القرن بعد الإصلاح، لم تعد تلك الأمور كافية. حلت محل عظمة الشاب لويس الرابع عشر، البذخ الشديد والعناد الفائق والغفلة التى حاقت به فى شيخوخته من جراء الأمراض التى أصابت عقله وبدنه، والتى تبعها حكم خلفائه الكسالى، غير الأكفاء والذين لم يكن لديهم هدف معين يودون تحقيقه، أو طموح. فى هذا العصر كان المجتمع قد تحول إلى أفراد داخليو التوالد، قليلو الكفاءة، يرفلون فى النعيم الذى أحاط بهم. كانوا يعيشون مترفين، فى ثراء شديد، لا يدفعون الضرائب، ويفرضون الأموال على من سواهم. يفرضون السخرة على خدامهم وفلاحيهم ويكثرون من استخدام المشانق. يضاف إلى ذلك الأموال التى تعود عليهم من أملاك الكنيسة. كل تلك التبعات كانت كفيلة بخنق أمة فى حالة السلم، فما بالك بدولة فى حالة حرب مع دول متحررة من تلك التبعات. فى نهاية حكم لويس الخامس عشر

كانت فرنسا ما زالت ثريةكشعب ولكنها كانت مفلسة كدولة. وقد أحس الملك (وعشيقته) ما كان ينتظرهم.

كان لويس الرابع عشر يتمتع بسلطة مطلقة وكان يستخدمها، فقد كان وحده هو المسئول عن الحكومة كما كان الجميع مدركا لتلك الحقيقة. كان لا يفعل أى شئ سوى لإرضاء نفسه، مهما كانت معلوماته فى هذا الأمر أو ذاك. وإذا بدت أى مظاهر لعدم الرضا بين الجماهير، فإن قوى الشرطة السياسية التى أنشأها مازارين من الإيطاليين ـ كانت تضع الأمور فى نصابها. كان بمقدوره فى أى لحظة ـ كما كان بيد المئات من موظفيه ـ أن يضع الشخص تحت الشمس فلا يعلم بمصيره أحد. خَلّفه لويس الخامس عشر متمتعا بكل تلك السلطة مع غباء فى التفكير وعدم الإدراك ـ كما هو الحال فى كل الأسر الملكية الكاثوليكية ـ فكان يستخدم جبروته وتسلطه على الشعب تبعا لنصيحة صديق أو قريب، كلما جد فى الأمور شئ أو ظهرت مشكلة. لو كان هناك دستور يتبع لصارت الأمور أقل وطأة، ولكن السلطة كانت مطلقة ولم يناقش أحد هذا الأمر حتى نجح ريشيليو ومازارين فى خلق جهاز سرى صار لا غنى عنه لهما وللويس الرابع عشر، وبعملهما هذا قضيا على النصح والمناقشة السوية التى تضع الأمور فى نصابها، وكان لا بد من إعادة إحيائها.

فى الزمن القديم كانت هناك طرق ثلاثة يطلب فيها الحاكم النصيحة. أولهما كان البرلمان، هذا الجهاز الذى كان يستخدم لإقرار المقترحات الملكية أو لمعاونة الموظفين الملكيين. كان عدد الجهات الرسمية المسئولة عن إدارة دفة الحكم ثلاثة عشر جهازا، بين أجهزة قومية على نطاق الدولة، أو أجهزة محلية، يشغلها النبلاء. كانت تلك الأجهزة مستعدة لإقرار أن أبناء السفاح للويس الرابع عشر هم أبناء شرعيون. كما كانت على استعداد للتصرف فى المجاعات المحلية وفى شنق العصاة المحليون. ولكن لم يكونوا على استعداد للحكم على الأمور القومية ولا على شئون فرض الضرائب على المواطنين. أثبتوا أنهم على استعداد للدفاع عن أمورهم الشخصية فى مواجهة الدولة، ولذا سرعان ما حاول الملك استخدام حل آخر. حاول تشكيل جمعية قومية من المرموقين يكونون أكثر فائدة للدولة وأقل ألما للمؤسسة الحاكمة. اجتمعت الجمعية عدة مرات وناقشت آراء متباينة، بعضها كان مفيدا وبعضهما مؤلما. وأخيرا حاول الملك الحل الثالث وهو تشكيل مجلس منتخب عام ١٦١٤.

بهذا الحل بدأ الملك ثورة فى البلاد. فى البداية كان الأعضاء المنتخبون لا يمانعون فى إبقاء الحال على ما هو عليه ولا يطالبون بالتغيير. كان الأعضاء المنتخبون مقسمين إلى مجالس ثلاثة: مجلس النبلاء، ومجلس الكنيسة، والمجلس الثالث أو مجلس الشعب، ولكن لم يكن واضحا كيف يمثل الشعب. أزيلت (أو أغفلت) متطلبات المِلْكية التى تضمنتها التشريعات البريطانية والأمريكية. أعطى

جميع الذكور المقيمين فى فرنسا فوق سن الخامسة والعشرين حق الانتخاب ـ حتى البروتستانت كان يمكنهم الترشيح والانتخاب. كان الانتخاب يتم على عدة مراحل متتالية وكان الذين ينتخبون عادة هم المثقفون، والحكماء، والأغنياء. كان من الطبيعى أن يكبت صوت العنف (ولكن إلى حين). ولكن ـ بالرغم من كل ذلك ـ كان نظام الانتخاب هذا أكثر النظم ديمقراطية التى ظهرت فى التاريخ. مثّل النبلاء (وعددهم ٦٠٠) ورجال الدين الذين شغلا المجلسين العلْويين، ٣٪ فقط من السكان الذين بلغ تعدادهم ٢٤ مليونا، (وهذه النسبة تقارب نفس نسبة التمثيل فى مجلس العموم البريطانى فى ذلك الوقت)، بينما مثّل مجلس الشعب ـ ويلغ عدد أعضائه أيضا ٦٠٠ عضوا الـ ٩٧٪ الباقين من الشعب الفرنسى.

كان قصر فرساى ـ لقرن من الزمان ـ هو مقر الحكومة الفرنسية، حيث يعيش الملك ويصطاد، محاطا بأغنى الأغنياء من النبلاء (ولكن ليس ضروريا بالعقلاء منهم)، فكان لا بد أن ينعقد المجلس الوطنى هناك. كان النبلاء ورجال الدين يدخلون من الباب الأمامى محاطين بكل مظاهر الحفاوة والترحيب والتكريم أما أعضاء مجلس الشعب فكان يسمح لهم بالدخول من باب جانبى وسط حرس ملكى مرتدين ملابس سوداء وقورة. اجتمع المجلس الوطنى يوم ٥ مايو ١٧٨٩، واتضح منذ اللحظة الأولى أن النبلاء سيتمسكون بكافة حقوقهم وامتيازاتهم رغم أى معارضة من الأعضاء ممثلى الشعب، وأثبتوا بهذا أن الجماعات صاحبة المصلحة سوف تتصرف بمنتهى العناد دفاعا عن مصالحها، فى أى مجلس متجانس التكوين، سواء أكانوا من الجماعات الأرستقراطية القديمة أو من أهل الصناعة الحديثة أو من رجال الجامعة أو الأكاديميات العلمية، ولو كان تجانسهم بسبب نشأتهم وتربيتهم أو اختيارهم أو انتقائهم أو تعينهم. تبين الارستقراط فى الحال أن الكونت دى ميرابو لا يمثلهم، واعتبروه خائنا، فجلس مع ممثلى الشعب.

بعد عدة أسابيع من الجدل انضم لممثلى الشعب ثائرون من المجالس العليا، فانضم إليهم ٥٠ من النبلاء و٤٤ من الأساقفة و٢٠٠ من القساوسة. قويت شوكة ممثلى الشعب ـ بانضمام هذا العدد إليهم ـ واعتبروا أنفسهم ـ وحدهم ـ المجلس الوطنى. وقد صاروا أقوياء حقا، فعندما أمر الملك حرسه ـ بعد أسبوع ـ بتفريق المجلس رفض الحرس. فى تلك اللحظة بدأ أهالى باريس بتسليح أنفسهم وقذفوا سجن الباستيل وهنا بدأ النبلاء المتمردون فى مغادرة البلاد واستعانوا بأصدقائهم من النبلاء فى بلاط الدول الأجنبية. فى الحال بدأت الجمعية الوطنية الفرنسية فى العمل لإعلان «حقوق الإنسان»، وصار هذا العمل شغلها الشاغل. لم يكن من الممكن أن تتم الجمعية الوطنية هذا العمل فى فرساى ولذا انتقلت إلى باريس ومعها القوات الثورية والملك ـ العاصمة التى هجرها لويس

الرابع عشر وحرمها من التسليح منذ قرن كامل. عادت للعاصمة هيبتها وعادت إليها القوة العسكرية المركزية.

بعد عامين أتمت الجمعية الوطنية وضع دستورها المكتوب الذى تضمن النقاط الثورية التالية:

١- سيادة الدولة مقابل سيادة الملك.

٢- الإلغاء شبه التام لجميع الامتيازات الإقطاعية لرجل واحد على الآخرين.

٣- الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

٤- حق الاقتراع للرجال حسب الملكية.

٥- الحرية الدينية شبه التامة للبروتستانت واليهود، والمساواة فى الحقوق لجميع رجال الدين. وهذه الحقوق كلها سبق أن وافق عليها النظام الإنجليزى. وبالإضافة إليها جاءت النقطة التالية المشابهة لما جاء فى النظام الأمريكى.

٦- السماح لجميع المواطنين بالتساوى بالالتحاق بكافة وظائف الدولة المدنية والعسكرية والمساواة الكاملة بينهم أمام القانون.

ألغيت كافة الألقاب ـ عدا تلك التى تخص العائلة المالكة ـ وألغيت النقابات وصودرت معظم ممتلكات الكنيسة. تم وضع النظام المترى تحت إشراف لافوازييه، وتم تقسيم البلاد إلى أقسام. وهكذا اتضح للملك ولأعوانه أن فرنسا لم تعد تلك البلد الذى يرغبون فى العيش فيه. ولكنهم لاحظوا أيضا بداية علامات تفرق فى الجمعية الوطنية. عدم المصادرة الكاملة للأملاك الإقطاعية ولأملاك الكنيسة أحدثت شقاقا بين أهالى المدن وأهالى الريف، وبين إقليم وإقليم فى البلاد، وبين أعضاء الجمعية الوطنية والمواطنين فى باريس. قرر الملك الهروب واللحاق ببقية النبلاء الذين هربوا إلى ألمانيا ولكن أُمسك به وأعيد للبلاد وأرغم على الاعتراف بالدستور الجديد. فقدت الثقة بين الملك وبين الجمعية الوطنية وصارت الملكية الدستورية شئ محال أن يتحقق فى ظل تلك الظروف.

كان الوضع فى فرنسا فى عام ١٧٩١ مشابها للوضع فى بريطانيا قبل ١٤٤ سنة إبان الحرب الأهلية والثورة عام ١٦٤٧. أدت آلاف من السنوات من الهجرات المتبادلة وتبادل الجينات والأفكار بين هذين الشعبين إلى درجة متقاربة من التطور ومن التركيب الاجتماعى فى بريطانيا وفرنسا. ولكن التركيب الجينى شديد الاختلاف بين الطبقات المتماثلة من الشعبين، بين الأفراد وبين الطبقات، مع تفاعلها الدائم، مع الاختلافات التاريخية والجغرافية، لم تنجح بتاتا فى تنويب الاختلافات بين هذين

القطرين. ومن ثم فإن المقارنة بين مراحل التطور الاجتماعى والسياسى فى كلا المجتمعين سيعود حتما بالفائدة على الدارسين. دستور البلدين، وعلى الأخص طرق الانتخاب تختلف عن بعضها تمام الاختلاف. ولكن الإذعان لمطالب الشعب، وكذلك طرق الانتخاب التى ضمنها الدستور الفرنسى عام ١٧٨٩ وكفلها لأفراد الشعب طبقا لممتلكاتهم هى نفس الحقوق التى ظهرت فى انجلترا عام ١٦٤٢ وتأكدت بعد تعديلات عام ١٨٣٢. الجمعية الوطنية تماثل مجلس العموم، ويضم كليهما الطبقة المثقفة الثرية، من المهنيين أو من التجار الذين تحالفوا مع المجموعة المتنورة من الطبقة الارستقراطية، والتى ساندها ــ ببعض الشك ــ مجموعة الصناع المجتهدين. تجمع أولئك الصناع فى مدن بريطانيا الكبرى وفى موانيها البحرية، أماكن التجمع الجماهيرى والاستثمار والتهجين. كانت هذه أماكن تواجد الأطهار الأنقياء فى انجلترا وأماكن تواجد البروتستانت فى فرنسا. ولكن يتضح الخلاف بين المجتمعين بعد حادثة مقتل القديس بارثولوميو. فقد أثار التخلف الفرنسى الدفة وقلب الميزان فى وجه البروتستانت. كانت باريس ما تزال مدينة صغيرة، يقطنها نصف مليون مواطن (أو ما يقارب من ١/٥٠ من سكان فرنسا)، ولكنها اجتذبت الأشخاص الموهوبين فى فرنسا. انتقلت باريس من كونها مدينة تقليدية قديمة وسط البلاد، بعيدة عن البحر، ترفض البروتستانتية، فصارت عاصمة الفكر المتقدم فى جميع أنحاء فرنسا، بل أنحاء أوروبا، وصارت مركزا للبروتستانت وللصناعة والتجارة والنور فى العالم أجمع. كان الانفصال بين البلاط الملكى والعاصمة عاملا فى تحرر البلاط للاغتراف من الملذات، وفى نفس الوقت تحررت العاصمة لتوالد الأفكار وتطويرها؛ وبهذا تمكنت باريس من قيادة الثورة الفرنسية كما تمكنت لندن من قيادة الثورة الإنجليزية، ولكن إلى حد أبعد.

كانت الحكومة فى كل من فرنسا وانجلترا يرأسها ملك مطلق السلطات، تخطت سلطاته حسن تقديره للأمور وحسن استخدامه لتلك السلطات. كان كل ملك متزوجا من امرأة أجنبية وتحيطه عشيقات أجنبيات ولا يتلقى النصح من أى امرأة من بنى جلدته ومن بنات وطنه. كان الملكان يختلفان فى سلوكهما وتصرفاتهما بعد ذلك. كان الملك من أسرة ستيوارت (الجالس على العرش الإنجليزى) ــ على شاكلة أسرته ــ مقاتلا، وقد خاض الحرب. أما الملك من أسرة البوربون فكان جبانا رعديدا، وقد حاول الإفلات بجلده من البلاد. فى كلتا الحالتين كان أهالى الريف المتخلفون، غير المثقفين، يساندون الملك ويعارضون الطبقات المثقفة والتجارية والصناعية فى العاصمة والمدن الكبرى. قامت الأقاليم فى شمال غرب فرنسا لمساندة ملكيها، كما قام أهالى الريف فى شمال وغرب انجلترا وحاربوا مع تشارلز. توحد الفلاحون وأبناء الطبقة العليا مع رجال الدين فى انجلترا، المعزولون جغرافيا عن الأفراد الجدد والأفكار الحديثة فى تأييدهم لنظام الكنيسة والدولة القديم. وفى فرنسا انعزل هؤلاء الناس عن التزاوج بالفوارق الطبقية الشديدة. ظهر البورجواز الجديد فى المدن

لقرى ولكنهم ظلوا متباعدين، يحتقرهم النبلاء، ويحتقرون هم أنفسهم الفلاحين والعمال. كان هناك تعارض بين أهل الريف وأهل المدن فى فرنسا وأخذ الصراع فى الريف منحنى مخالفا لطبيعته فى المدن وانتهى الأمر بأن خسر عمال الريف ولم يجنوا أى ثمرة من الثورة.

نشأ الخلاف الأكبر بين الثورة الفرنسية والثورة الإنجليزية من تطور الأفكار فى السنوات التى مضت بين الثورتين. صار المجتمع على دراية بتركيبته وبمعناه. فى كلتا الدولتين كان هناك الفلاح التقليدى الملتزم. فى المجتمع الإنجليزى كان هناك عديد من الثوار المتعصبين، لكل منهم معتقداته الدينية المتباينة التى يموت دفاعا عنها، وكان كل معتقد منها مرتبط برؤية سياسية. أما الفرنسيون فقد أرضاهم مصادرة أملاك الكنيسة ولم يكن اعتراضهم كبيرا على رجال الدين. كان اهتمام الفرنسيون بالنظريات الاجتماعية المختلفة وبما بثه فيهم المفكرون الفرنسيون الجدد. لم تنبع تلك الأفكار من دراسة الكتاب المقدس بل من دوائر المعارف ومن الثورة الصناعية ومن العلوم الحديثة ومما استنتجه الفرنسيون من أسس الإصلاح. (بالرغم من أن نشر الكتب المتعارضة مع الدين صار جرما يعاقب عليه بالموت منذ صدور قانون بهذا عام ١٧٥٧، وهى عقوبة رادعة، لم يجسر أحد على تنفيذها).

كان لتطبيق تلك الأسس العقلانية على الثورة أثر شديد البعد على الجميع. عندما حدث الشقاق بين لويس وبين الجمعية الوطنية، وعندما رفع الملوك الأجانب والفلاحين الفرنسيين السلاح دفاعا عن الملك والنظام القديم، ظهرت تحالفات جديدة بين القوى الثائرة. شعرت الحكومة المدنية فى باريس بقوتها، لموقعها ولسيطرتها على الأهالى، ولتسليحها لمليشيا دفاعا عن آرائها ومطالبها، ولتصميمها على تحقيق السياسة التى تكفل لها إتمام الثورة الدستورية والاقتصادية. ظهرت معارضة مماثلة فى انجلترا بعد الحرب الأهلية بين البرلمان وبين المدينة فى انجلترا. كان البرلمان وقادة الجيش أقوياء طول ممارستهم للحكم. كانت العائلات ــ مثل عائلة كرومويل ــ تدخل كل برلمان لقرن كامل، وتكونت أصر قربى قوية بين العائلات بالتزاوج، وكانت شبكة الصلات بينها من القوة بحيث استطاع قائدها ن يفرض إرادته على جميع من انضموا إليه. أما فى فرنسا فقد بدأت الجمعية الوطنية والحركة الثورية فى تشكيل أحزابها من آراء سياسية لأفراد غير ناضجين تمام النضج السياسى، وغير كاملى التدريب، من بينهم كثير من الانتهازيين مثل ميرابو ولافاييت ودانتون وروبسبير ــ إناس يجاهدون تحت قوى الغزو الأجنبى والحرب الأهلية والمجاعة والأزمة الاقتصادية. تحت تلك اظروف استولى مواطنو باريس فى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ على الحكومة فى أيديهم.

أهالى باريس هؤلاء كانوا رجالا من ذوى الأملاك، ومفكرين كانوا أعضاء فى المجلس الوطنى، وعدد كبير من الصناع الذين تم إخماد أصواتهم من قبل ولم يتم تمثيلهم. كانوا عمالا فى الورش، استطاع رفقاؤهم فى انجلترا العمل فى مصانع كبيرة تدار بالبخار وكانوا يعانون من مشاكل الثورة الصناعية ومتاعبها. بعد سنوات طويلة ـ تعطلت بسبب الحروب الثورية ـ كونت هذه الطبقة غالبية طبقة العمال، البروليتاريا الجديدة، ووصلت الأقلية القليلة منها إلى مرتبة المديرين أو ملاك المصانع. كان من بين هؤلاء الأفراد النشطاء، الأذكياء، المقهورين عددا كافيا ليغتنم هذه الفرصة المخفية. عندما حانت تلك الفرصة فى انجلترا بقى أولئك الأفراد فى المراتب الدنيا؛ أما فى فرنسا، فبعد إعلان وثيقة «حقوق الإنسان» صار أولئك الأقوام فخورين بأصلهم المتواضع ونشأتهم الفقيرة واتحدوا سويا وصاروا قوة هائلة. أطلقت قوة العمال من عقالها، نادت «بالحرية والمساواة والإخاء»، النداء الذى صار فيما بعد نداء الثورة الفرنسية ونداء الجمهورية. وهكذا دفع كوميون باريس بتحالفه مع باقى الأندية الراديكالية الثورة إلى ذروتها. (نشأت أندية سياسية مختلفة فى باريس، وكان النادى الذى أطلق صيحة «الحرية والمساواة والإخاء» هو نادى كورديلييه الذى أسسه دانتون ومارات وكاميل دى مولان وأخذ اسمه من مكان لقاء الأخوة الفرانسيسكان، كما أخذ اليعقوبيون اسمهم من ديرهم الدومينيكانى). لم تصل الثورة إلى ذروة واحدة بل تعددت الذرارى. أولها كان استيلاء الجماهير على قصر التويليرى، ثم دُفعت تلك الجماهير الهائجة لقتل الرجال والنساء المسجونين فيه ينتظرون المحاكمة. وثانيها تم عزل الملك ومحاكمته وإعدامه. وثالثها كان انتخاب جمعية وطنية جديدة بالانتخاب المباشر. ورابعها كان تشكيل حكومة مركزية جديدة من اثنا عشر وزيرا وسميت لجنة الأمان القومى. تشكلت الحكومة بتوجيه النادى اليعقوبى، تحت رئاسة روبسبير، الذى أثار الرعب فى جميع أنحاء الدولة بإعداماته التى لم يكن لها حد. حقق بذلك كل الإصلاحات الجذرية التى كانت الجمعية الوطنية قد رفضتها. قررت مبدأ فى النواحى الاقتصادية (والمالية والتجارية). ظَل الترقى فى ظلّ تلك الحكومة على عهده أيام الملكية ولكن صار الثمن الآن المكاسب التى تحققها مصادرة الأموال والأراضى. كان بيع الأراضى المصادرة من الكنيسة ومن المهاجرين للخارج هو أساس حكم الطبقات الحاكمة الجديدة. صارت الحكومة الجديدة حكومة تعتمد على التملك، وكانت على استعداد للتصالح مع الملكية المنفية فى الخارج (ولكن ليست على استعداد للصلح مع الطبقات العاملة). وهكذا وجدت الدولة الرابعة نفسها وقد هجرها السياسيون الذين صعدوا إلى السلطة على أكتافها. بعد عودته من المنفى ـ الذى قضى فيه عامين ـ وجد تاليران ـ الأسقف النبيل أيام البوربون والدبلوماسى الأمير أيام نابوليون ـ وجد باريس مدينة للابتهاج والمتعة وقد تحررت من الرعب وسفك الدماء. ولكن بابوف ـ البروتستانتى السابق والرجل الجاد والاشتراكى الذى حاول أن

يعيد مبادئ روسو وديديرو ـ وجد باريس مدينة الفقر والعوز التى حرم أهلها من حق تقرير مستقبلهم، كانت حرية التعبير لممثليها بواسطة حكومة أتقنت تكميم الأفواه وكبت الحريات واكتسبت المهارة فى استغلال المواطنين، وخاصة العمال اليدوين أكثر مما برعت فيه الملكية السابقة. كان بابوف وأعوانه قد أعدوا «مانيفستو المتساويين» وأدمجوا فيه نظريات روسو وشعارات النوادى المختلفة، واتخذوه إنجيلهم. وتآمروا لقلب نظام الحكم فى الوقت الذى لاحت فيه أن آمال المواطنين فى جانبهم ـ فى حين كانت توقعاتهم تعمل ضدهم. تم القبض على بابوف وأعوانه وحوكموا وتم إعدامهم بواسطة الحكام الدكتاتورين الجدد. منعت خطبهم وضاعت كتاباتهم حتى عام ١٨٨٤ عندما تم الكشف عنها من جديد بعد قرن من الثورات.

بعد هذا القرن الممتلئ بالاضطرابات بدأ تحول بريطانيا بعيدا عن أوروبا يأخذ شكلا أكثر حدة. تغير المجتمع فى بريطانيا وتغيرت الحكومة بالإصلاحات المتتالية ـ التى تمت غالبا تحت تأثير حروب خارجية. أما فى أوروبا فقد تغيرت المجتمعات والحكومات تحت تأثير ثورات وحروب أهلية.

أعطت الثورة الصناعية فى انجلترا ملاك الصناعات الجديدة ـ والمتطفلون وراء تلك الصناعات والذين يزداد عددهم يوما بعد يوم ـ فرصة ذهبية للإثراء السريع من استغلال جهد العمال. تضاعف عدد سكان بريطانيا ـ للمرة الأولى فى التاريخ ـ خلال القرن الثامن عشر، فارتفع عدد السكان من ثمانية ملايين إلى خمسة عشر مليونا. ترجع الزيادة فى عدد السكان أولا إلى انعدام الغزو الخارجى الذى أحدث دمارا عظيما فى سائر بلدان أوروبا، وثانيا إلى زيادة إنتاج المزارع البريطانية من جراء زراعة اللفت لتغذية الغنم فى انجلترا وزراعة البطاطس كغذاء للإنسان فى أيرلندة، ولتحسين تربية الماشية. ترجع كل تلك التحسينات إلى جهود فلاحين مهرة: كوك وتاونشند فى نورفولك، وبيكويل فى ليستر وكولنجز فى درهام. وثالثا وفرت الصناعات الجديدة فرص عمل لكثير من الناس وأخيرا تحسنت الصحة العامة للمواطنين. فابتداء من عام ١٧٦٢ بدأت قوانين الحكومات المحلية تحتم إدخال المياه الصالحة للشرب ونظم الصرف الصحى فى مختلف المدن والأقاليم، ثم توصل جينر إلى لقاح الجدرى عام ١٧٩٦ ثم حدث الاضطراب العظيم الذى أثاره سوثوود سميث وإدوين تشادويك التى أحدث مستوى جديدا من النظافة ومن مبادئ الصحة العامة فى البلدان المسيحية، مستوى أقرته المبادئ الإسلامية منذ ألف عام، وكان تطبيقه شريعة متبعة فى جميع البلدان المسلمة. بعد عام ١٨٤٠ لم يحدث أى وباء كاسح للكوليرا فى انجلترا وبدأ السكان يتزايدون بسرعة. وكان هذا التزايد السريع للسكان هو ما أتاح الفرصة لاستغلال العمالة الرخيصة فى البلدان التى كانت الصناعة تنمو فيها وتزدهر.

أتاح وجود حكومة برلمانية فى بريطانيا الفرصة لمزيد من الإصلاح، وتحسين طرق الانتخاب وتمثيل المواطنين التمثيل الأمثل. حدثت الأزمة الكبرى فى بريطانيا بعد فقدان ثقة الطبقات العاملة فى نتائج قوانين الإصلاح فى عام ١٨٣٢ . فقد أدت زيادة عدد الناخبين إلى زيادة فى أعداد الطبقات الوسطى وجاء مجلس العموم الجديد الموسع صورة طبق الأصل من مجلس العموم القديم ولا يختلف كثيرا عن مجلس اللوردات الذى أتم بيت توسيعه. أخذ المحتجون فى كتابة العرائظ والالتماسات التى تطالب بقانون يفتح الباب لجميع المواطنين بالاقتراع، وقدمت تلك الالتماسات فى اجتماعات عامة أخذت تعقد فى البلاد فى أيام الأزمات الكبرى بين عامى ١٨٣٧ و١٨٤٨ . بدأت حركة نقابات العمال الناجحة عام ١٨٤٢ ، فصدر قانون القمح الأول عام ١٨٤٦ ، وأول قانون للمصانع عام ١٨٤٧ والذى قضى بتخفيض ساعات العمل إلى عشر ساعات، وكان كل ذلك من أثر الاضطراب الذى أحدثته حركة «تشايست» والتى ساعدت على إخماد ذلك الاضطراب بتؤده. تبع ذلك صدور قوانين متتالية للإصلاحات فى التعليم والتى مهدت لإدخال الإصلاحات الاجتماعية فى مجالات عدة. انحرفت هذه التغيرات كلها بجهود المصلحين المتعلمين بعيدا عن المسالك الثورية، كما استبعدت من الطبقات العاملة أقدرهم على قيادة الحركات الثورية ــ وما زالت هذه العملية مستمرة إلى الآن. وهكذا أدى النقاش إلى تجنب الثورة وإقرار الإصلاحات اللازمة خلال قرن كامل من المحاولات التى لم يشبها إلا القليل من الأخطاء.

صاحب تلك الإصلاحات فى بريطانيا إصلاحات مماثلة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وفى سويسرا، وفى بلدان أخرى، وكانت هذه الإصلاحات تعتمد على حرية النقاش، التى لم يكن يحدها إلا اعتبارات اقتصادية. ففى البلدان الديمقراطية كانت حرية الاعتراض مكفولة لمن لا يمانعون فى أن يجوعوا. أما فى ألمانيا وروسيا وكافة البلاد الكاثوليكية فى أوروبا فكانت الشرطة ــ باجراءاتها ــ تحرم حتى تلك الحرية. ولهذا كانت انجلترا، ولندن بالذات محطا لكافة اللاجئين من أوروبا خلال القرن التاسع عشر، وكانوا يعدون فيها مخططاتهم لقيام الثورات فى بلادهم. وفد هؤلاء الرجال من بين الطبقات المثقفة أو من ذوى الأملاك أو من المهنيين، وكان غالبيتهم من الفئات التى حرمت من حرية التعبير عن آرائها لاعتبارات قومية أو عنصرية أو دينية: كالأيرلنديين فى بريطانيا أو البولنديين فى روسيا أو اليهود فى ألمانيا ثم فى روسيا أو أبناء السفاح (مثل هرزن) فى أى مكان. ناقش المفكرون ــ فى القرن الثامن عشر ــ تركيبة المجتمع، بدون دراسة منتظمة للثورات التى أحدثت التغيير. كما تصرف الثوريون من أنفسهم بدون أن يتأملوا فى أفكار المفكرين أو يتعمقوا فى أقوالهم. ربما يكون انشغال توم باين مؤلف كتاب «حقوق الإنسان» بعمله كوزير لخارجية الولايات المتحدة الأمريكية، ثم انتقاله فيما بعد إلى باريس، أول مظاهر الوحدة بين النظرية والتطبيق العملى. وقد تصاعد هذا الاتحاد بين أفكار المفكرين وثورية الثوريين فى كارل ماركس (١٨١٩-١٨٨٢).

من بين جميع ثوريي القرن التاسع عشر يبرز كارل ماركس كفكر كشف شيئا جديدا من المجتمع، واستخدم كشفه هذا لتغيير المجتمع. كارل ماركس هو ابن لمثقف يهودى من أسرة من الأحبار، وكانت أمه من طائفة اليهود السيفارديم. اعتنق أبوه المسيحية ـ ككثير من أقرانه ليفر من القيود التى فرضتها حكومة بروسيا على اليهود عام ١٨١٥ ـ عندما حلت محل الحكم الفرنسى. كان الصبى كارل ماركس يرفض الاضطهاد الذى تعرض له المسيحيون كما تعرض له اليهود فى هذه الدولة البوليسية الجديدة التى لا يحد تصرفاتها برلمان أو قضاء. هرب أولا إلى فرنسا ثم إلى انجلترا، ومكث هناك أربعين عاما. خلال تلك الأعوام كلها التصق بفردريك إنجلز ـ الذى ينحدر من أصل هيوجينوتى ـ وابن أحد ثراة الألمان من أصحاب مصانع القطن وورثته. وضع كارل ماركس وفردريك إنجلز سويا البيان الأول المسمى «المانيفستو الشيوعى» والذى بدأ توزيعه سرا فى فبراير ١٨٤٨. يبدأ البيان بعبارة مزلزلة «إن تاريخ المجتمعات المتواجدة كلها هو تاريخ صراع الطبقات». ثم يستمر ليتنبأ بأن أحوال الطبقة العاملة تسير حثيثا من سئ إلى أسوأ، وينتهى البيان بالنداء إلى عمال الدول جميعا «اتحدوا». كان هذا نداء لبدء معركة وبداية ثورة، واستمر منذ ذلك الحين، يدعو لقيام الثورات، فى كافة البلدان، بقدر محدود أو كبير من النجاح.

افترض كارل ماركس أولا أن المجتمع يتغير منذ أن بدأ، وأن التغير يحمل فى الأمد البعيد التطور والتقدم، وإن هذا التطور مستحب ولا بد من حدوثه. لم يؤخذ هذا الرأى من تتبع التاريخ ولكن من تفسير هيجيل للتاريخ. يتسق هذا التفسير لحد بعيد من مزاج القرن التاسع عشر وقد أطلق هربرت سبنسر لفظ «التطور» عام ١٨٦٣ على كل ما كان يحدث حينئذ. وقد تقبل فى هذا الزمان أن التطور يعنى التغير ـ سواء أكان تغيرا إلى الأفضل أم إلى الأسوأ. كان ثانى افتراض لكارل ماركس أن الإقطاعيين (بكل عيوبهم ومساوئهم) سيتم طرحهم وإزالتهم ليحل محلهم طبقة من أتباعهم ليكونوا المجتمع الرأسمالى، وأن هذا المجتمع الرأسمالى بكل شروره ينبغى إزالته ليحل محله مجتمعا آخر جديدا، هو مجتمع الطبقة العاملة أو مجتمع البروليتاريا. سيبدأ هذا المجتمع الجديد «بدكتاتورية البروليتاريا» ولكنه مجتمع تذوب فيه الفوارق بين الطبقات وتختفى فيه الدولة ونصل إلى المجتمع المثالى بنهاية الألف سنة التى نعيش فيها حاليا.

من الواضح أن النظام الرأسمالى، وأن الثورتين العلمية والصناعية جاءت كلها نتيجة جهد أفراد: من اختراعات المخترعين، ومن كشوف المستكشفين، ومن تجديد المجددين. تزاوج هؤلاء الأفراد مع الطبقات الحاكمة ونشأت من هذه الزيجات الطبقات الجديدة فى المجتمع، والتى استفادت من تلك التجديدات. صار أفراد هذه الطبقات الجديدة مالكى الممتلكات وسيطروا على المجتمعات

التى كان الفضل لأجدادهم (أو أجداد بعضهم) فى خلقها. ماذا فعلت البروليتاريا لتطور المجتمع وتجعله أكثر ازدهارا، وماذا كان فضلها، وأى حق لها أن تطالب بالحكم! لقد فعلت البروليتاريا أقل القليل لتحسين ظروف المجتمع. يسود الاستقرار فى المجتمعات إذا كانت غالبية أفرادها من النوع المسالم الذى لا يطيب له التغيير، وينبثق التغيير من قبل أفراد مثل ماركس وإنجلز ذوى الرؤية الثاقبة. يبرز هؤلاء الأفراد من بين كافة طبقات المجتمع، خاصة من تهجن الطبقات أو الأجناس ـ سواء كان شرعيا أو غير شرعي. لم تكن البروليتاريا تصغى لتفسير ماركس عن دورهم الذين عليهم أن يلعبوه. كانوا منشغلين بمشاكلهم وبحياتهم اليومية أصغى لكلام كارل ماركس وفردريك إنجلز مجموعة صغيرة من الثوريين، إناس تم نفيهم من ذوى الأملاك ومن المثقفين، من تلك البلاد التى تسلط فيها الأرستقراطيون وحكموا البلاد بالطغيان والإرهاب ولم يتيحوا لأنفسهم الفرصة لسماع أى قول آخر أو الإصغاء لأى رأى مخالف، أى للإمبراطوريات الألمانية والنمساوية والروسية. فى تلك البلدان ترعرعت البذور التى زرعها كارل ماركس. أدرك هؤلاء الرجال الثوريين أنه لنجاح ثوراتهم ينبغى أن توجه لمصلحة البروليتاريا وبمساعدة البروليتاريا ومعاونتها.

نشأ التساؤل عن تساوى البشر أول ما نشأ فى الكتب المقدسة فقد ذكر العهد القديم بصراحة أن البشر غير متساويين، فى حين أن الإنجيل ذكر أن البشر يتساوون. وفى أقوال الرسول الكريم محمد أن الناس سواسية كأسنان المشط وألا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى وفى القرن الثامن عشر بدأ الإنسان يتفكر بالبديهة والعقل، وجاء العلم بالدليل. أو من آثار هذه النقطة كان بروتستانتيا جاء من فرنسا، وأعلن رأيه فى مدينة جنيف الحرة، جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨). فتح روسو هذا الموضوع فى نقاش أثاره عام ١٧٥٣ عن أصل المساواة الإنسانية. كان قوله أن البشر بدأوا من مساواة مبدئية وانتهوا بعدم التساوى فى الحضارات التى وصلوا إليها. جاء عدم التساوى من عدم تساوى الظروف التى مر بها الإنسان بين مجتمع وآخرأو من تحكم الإنسان فى اختيار نسله (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس)، عدم التساوى بين البشر من توارث الصفات المكتسبة. حدث هذا فى المجتمعات المختلفة وفى القبائل المختلفة. فى كل قبيلة (أو مجتمع) وجدت فروق، كما وجدت الفروق بين القبائل والمجتمعات، وهذه الفروق هى التى تسببت فى الفروق بين مختلف الحضارات والتى أدت إلى اختلاف تطورها عن بعضها البعض. لم يستطع روسو فى ذلك الوقت (كما لم يستطع بوفون الذى اعتمد عليه روسو فى نظرياته العلمية) أن يدركوا تفسير ما وصلوا إليه فى استنتاجاتهما ولذا عمد روسو إلى فروق فى البيئة أو فى التعليم. وهكذا أرجع روسو الفوارق بين المجتمعات والأجناس لى اختلافات أساسية نشأت بينها منذ بدء الخليقة ولكن أثرت فيها عوامل بيئية وثقافية من أثر ظروف خارجية، زادها أو قلل منها استخدامها أو عدم استخدامها تبعا لإرادة البشر. وهكذا كان الاعتقاد السائد الذى آمن به الجميع بدون أى دليل علمى عليه.

منذ عهد روسو تكررت كتابات الفلاسفة وكتاب التاريخ والعلوم الاجتماعية، يؤكدون هذا الرأى ويدافعون عنه ويثبتونه فى أذهان الناس. صار هذا معتقدا ثابتا لدى هؤلاء الكتاب، لا يحتاج إلى قرائن أو أدلة علمية. على رأس هؤلاء لامارك ـ وقد شجعته الثورة الفرنسية ـ وطبقه فى الدراسات البيولوجية، ومن بعده طَبَّقه هربرت سبنسر وبرجسون وآخرون، طبقوه فى الدراسات الاجتماعية. حتى تشارلز داروين، الذى أراد أن يبنى نظريته العلمية فى التطور والارتقاء، على أسس علمية محض، انزلق إلى الرأى المألوف بجانب نظريته العلمية القائمة على الاختيار الطبيعى. ولذا فقد ترك داروين قراءه لا يدرون أين يقف ولا يعلمون مسار الطبيعة. وعلى هذا فعندما أهدى كارل ماركس كتابه «رأس المال» فى عام ١٨٦٧ إلى داروين لم يكن يحتاج أن يكون أكثر دقة أو أشد تحديدا من داروين نفسه.

كان من السهل الاعتقاد بأن الطبقات الاجتماعية تباعدت عن بعضها البعض بسبب تباعد أنشطتها، وأن هذا التباعد يتزايد باستمرار كما كان يتخيل روسو. وعندما اتفق لامارك وداروين وميجيل وسبنسر جميعا على نظرية واحدة تفسر تطور كافة المخلوقات والأجناس والشعوب والطبقات، أن أحدا منها لم يخلق ولكنها تباعدت من أصل واحد بفعل أنشطة داخلية وظروف خارجية، المناخ والتربة، إرادة الإنسان وهدف الطبيعة، تكاتفت جميعا لتحرك العملية إلى الأمام، وكان التطور حتميا ولا يمكن مقاومته وعضويا. لذا كان من الطبيعى أن يدعى ماركس وإنجلز أن العملية فوق القوانين العلمية الطبيعية وأنها صادقة وأن صدقها محتم.

كتب ماركس عام ١٨٦٦ إلى إنجلز بقبول نظرية تريمو قائلا «إن آراء هذا الرجل أكثر تقدما من آراء داروين، فقد قال أن الأبحاث الجيولوجية قد أثبتت أن الصقالبة يعود أصلهم إلى التتار أو المغول، وأن الزنوج انحدروا من أصل أكثر تقدما» بالنسبة لماركس هناك أجناس وضيعة تم تطورها مباشرة بناء على نظرية لامارك ولم يكن تطورها غير مباشر وانتقائيا، طبقا لنظرية داروين. كانت قوانين البيولوجيا التى حددت تطور المجتمعات ـ فى رأى ماركس ـ بسيطة ومباشرة ومحتمة بحكم التاريخ ولذا فلنكن معها، ولا نعاكسها أو نقف ضدها. فكل ما نستطيع فعله هو أن نسارع بحدوثها أو نعطل تقدمها. ولا يمكن للفرد، مهما كان بسيطا أو عظيما، إلا أن يشارك فى هذا الاتجاه الجديد الذى سيكون حتما نهاية للألف سنة التى نعيشها.

قبل أن نفحص الاستخدام السياسى لنظرية كارل ماركس والوعود التى أتت بها للمساواة بين بنى البشر كعلاج لاختلافاتهم الاجتماعية، بدكتاتورية البروليتاريا بديلا عن سيادة الشعوب فلنرجع إلى القرائن العلمية التى توصلنا إليها. أولا الوراثة شئ صلب، جامد، ثابت، له أصول كيميائية وبيولوجية محددة وظاهرة تظهر فى الكروموزومات (الصبغيات) التى كشف عنها العلم فى المائة سنة

الأخيرة، وأدرك أسرارها، منذ أن كتب كارل ماركس كتابه «رأس المال» ومنذ أن كتب جالتون كتابه «العبقرية الوراثية» ولا بد أن تلعب الوراثة، بقدر ما تلعب الثروة دورها في تفسير أحداث التطور التاريخي. ثانيا فقد شاهدنا مرارا أن الأجناس المختلفة والطبقات المتباينة، في توالدها الداخلي أو توالدها الخارجي، كثيرا ما نشأت من فروق متوارثة تكيفت أو نشأت وتطورت من الانتقاء الطبيعي أو الهجرة المنتقاة، وهكذا. تعود الفروق الطبقية في النهاية إلى فروق متوارثة. وعدم تساوى البشر هو الذى يدفع إلى التقدم في المجتمع وليس تقدم المجتمعات هو الذى يدفع لعدم المساواة. ثالثا نلاحظ أن تفرد الأفراد يعود إلى اختلاف في التركيب الجيني (الوراثي)، وهذا التفرد يتفاعل باستمرار مع المتغيرات ليحدث آثارا غير متوقعة تتزايد باستمرار ولا تقل بمرور الزمن. قرار الاسكندر الأكبر ليتجه شرقا، وقرار يوليوس قيصر ليتجه شمالا وقرار كرستوفر كولمبوس ليتجه غربا، مستمر في أبنائهم وذراريهم وله آثاره العميقة في العالم من حولنا. لم تغير هذه القرارات سرعة التغير في التاريخ ولكنها أحدثت تغيرا في مسار التاريخ واتجاهه كما غيّر كارل ماركس مسار التاريخ ولكن ليس للاتجاه الذى توقع أن يغيره.

كان كارل ماركس مخطئا في آرائه الأساسية بدون داع. أشار علماء الاقتصاد الذين سبقوه – مثل آدم سميث – والذين جاءوا بعده – مثل ماينارد كينز، أهمية العامل الفردى والدافعية الفردية للانجاز كتب آدم سميث في كتابه «ثروة الأمم» عام ١٧٧٦ ما يلى «ادفع بابنك ليكون صبيا لصانع أحذية، فيصير صانعا للأحذية. أما إذا دفعته ليتعلم القانون فلن يصير قانونيا بارعا إلا بنسبة ١:٢٠. غالبية من يتعلمون مهنة ما يصيرون من ذوى الكفاءة المتوسطة، ولا يبرع منهم ويصير عبقريا إلا أقل القليل». ولكن تحقق شئ مما جاء في تقدير ماركس، الصراع الطبقي. تعتمد كافة المجتمعات الطبقية على الاعتماد المتبادل لكافة الطبقات، والتعاون بينها هو الذى يضمن استمرار تلك المجتمعات. التعاون لازم أيضا في كافة مرافق الحياة: داخل العائلة وداخل القبيلة وداخل الوطن الواحد. ولكن نشاط الأفراد يثير الخلافات ويثير المنافسة، وجدت الكائنات الحية في المملكة الحيوانية ولدى البشر حلولا لهذه الخلافات، بديلا عن الصراع حتى الموت. اختلفت الحلول الوسط من تقييد النسل للحد من عدد الأفراد، إلى التهديد والوعيد الذى يقابله الانسحاب والتقهقر بديلا عن الصراع. كل ما يجب أن يفهمه الناس أن الحلول الوسط جاءت لتحل محل الناب والظفر، وأن الصراع بين الطبقات أو الأجناس أو الشعوب لا يحل المشكلات. ينبغى على كل بنى البشر أن يلجئوا إلى حل خلافاتهم بالتسامح والتراضى والتنازل، وأن يغلبوا مصلحة الكل على الاندفاع للاستيلاء على كل شئ، وأن فائدة المجموع هى في النهاية فائدة لكل الأفراد. أسس المعاملة هذه لازمة للتعامل بين «أفراد العائلة وبين طبقات المجتمع». كلما حدث توالد خارجى بين مختلف

الطبقات كلما حدث تقارب فى الصفات الجسدية والعقلية والوجدانية بين أفراد المجتمع. فيصير الأفراد متشابهون ـ وإن لم يصبحوا متماثلين، ويصير الاختلاف مستبعدا ومؤقتا. أما إذا توقف التوالد بين مختلف الطبقات فيصير التعالى هو طابع الطبقات المحظوظة، وسيزداد هذا التعالى فى جيل بعد جيل ويتزايد الإجحاف والضرر والتحامل وتتضاعف الخصومة والتنافر بين الطبقات. وحينئذ تبدأ الطبقة المميزة فى الاستغلال. شجبت كل الأديان السماوية هذا الاستغلال ولكنها أيضا طالبت الطبقة التى تم استغلالها بالتحمل والصبر وإعطاء ما لقيصر لقيصر. وقد فشلت كنائس القرنين الأخيرين، فى ملاقاة الأزمة التى نشأت بعد الثورة الصناعية من الاستعباد الصناعى ـ كما فشلت من قبل فى مقابلة استعباد الإنسان لأخيه الإنسان وفى محاربة تجارة الرقيق. تم شراء ذمم رجال الدين الرسميين وصاروا مخادعين محتالين. صار الدين الوسيلة لإخفاء أو تبرير أو تنفيذ ظلم واضطهاد الطبقات الحاكمة، وصار الدين ـ كما وصفه ماركس وإنجلز ـ أفيون الشعوب، ودعوا لأن يعامل الشعب حكامه ـ ليس كأخوة فى الدين ـ بل كأى أعداء فى الحرب يستغلونهم، وليس هناك موضع للصلح معهم. لم يكن لدى العمال ـ الصناعيون فى أوروبا الغربية والذين يعيشون فى المدن، والزراعيون فى روسيا والذين يعيشون فى الريف ـ أى فكرة عن الطريقة التى يدمرون بها مستغليهم، ولا كيف سيتصرفون بعد تدميرهم. شعروا بأنهم عالة وتابعين لغيرهم وكانوا فى حاجة إلى قادة من طبقة أخرى. جاء هؤلاء القادة فى أوروبا الغربية ـ بالاختيار التدريجى من داخل ومن خارج نقابات العمال، وكان يمكنهم المجئ عن نفس هذا الطريق ـ ببطء أكثر ـ فى روسيا. ولكنهم فى روسيا أخذوا مسارا مختلفا، نابعا من فلسفة ماركس ومن تعاليمه. وكان الرجال الذين خططوا لقيادة الثورة الروسية ممن ألهموا بهذه الأفكار وألهبوا بها.

ثانيا: شرق أوروبا

ينحدر سكان روسيا من عناصر مختلفة، كاختلاف الأجناس التى انحدر منها سكان أوروبا الغربية. غزا روسيا أقوام من الرحل: الفنلنديون من صائدى السمك ومن المشتغلين بصيد الحيوانات وقنصها، واللابلانديون من الرعاة من سكان التندرة القاطنين بالقطب الشمالى، والإريان من رعاة البقر، والحرفيون وزارعو الأرض الآتين مع القوافل، ومن عبروا روسيا فى طريقهم إلى السويد، والسكيثيون من راكبى الخيول، والمغول الذين اكتسحوا السهول الجنوبية يبحثون عن مستقر مناسب لهم، وأخيرا أقوام من بناة السفن استعمروا البلاد وتجار استقروا على ضفاف الأنهار، والإغريق الذين أتوا من البحر الأسود ثم أهل الشمال الآتين من بحر البلطيق.

أعطى المستعمرون من الفايكنج والفارانجيون والروتسى ـ مالكو العبيد وقادة الحرب ـ الذين تحدثوا باللغة الروسية ـ اسمهم الأجنبى للغة وللبلد الذى قطنوا فيه. بنوا قلاعا حصينة للتجارة ـ التى سميت بالكرملين فى العصور التالية ـ فى أنحاء البلاد، حيث صارت أساسا لإماراتهم. نصب روريك نفسه أولا أميرا لنوفجورود (٨٦٢-٨٧٩)، ثم تحرك خلفاؤه جنوبا إلى كييف حيث قابلوا تجارا وصناعا من الإغريق وكهنة منهم. وقع ڤلاد يمير فى عشق قوة بيزنطة وجمالها. اعتنق المسيحية ٩٨٩ ليتزوج من الأميرة أنّا، وخلفه ابنه ياروسلاف (١٠١٩-١٠٥٤)، الذى استطاع أن يزوج بناته من أمراء من البيت المالك النرويجى والفرنسى. بدأ الحرفيون والتجار يشقون طريقهم إلى روسيا من الدول المسيحية فى الغرب وفى الشرق: من موانى بحر البلطيق من الهانزا، ومن موانى البحر الأسود من الإغريق، ولكن الكنيسة المسيحية الشرقية والأبجدية الهيلينستية هى التى فرضت نفسها فى النهاية على روسيا.

كانت هذه هى الفرصة الرائعة للاتصال والتهجين بين الإغريق والهمج على أرض روسيا، واستمرت حوالى مئتى عام، ثم شطرت إربا إربا وإلى الأبد بغزو التتار فى عام ١٢٣٦. غزا التتار روسيا، استمرارا لغزوات جنكيز خان وفتوحاته التى بدأت فى الجيل السابق. انتشر التتار فى أحواض أنهار الفولجا والدون والدنيبر، ووصلوا باختراقهم إلى بولندا وإلى المجر طاردين التجار من

تلك البلاد. فى نفس الوقت قطع فيه الغزاة عن روسيا الهجرات الإغريقية إليها. اعتنقوا الإسلام وهكذا أضيف الحائل الدينى إلى العائق السياسى.

فى القرون الثلاثة التالية تمكن الأمراء البولنديون والروس من دفع التتار إلى الخلف، وحدث تهجين آخر على الحدود القتالية. نشأت طبقة جديدة من الحكام حول موسكو توالدت مع التتار، كما تهجن معهم الفلاحون. ولكن عندما حصل الروس نهائيا على استقلالهم من التتار عام ١٤٧٢ فإننا نجد أن حاكمهم إيفان الثالث يتزوج من صوفيا باليولوچيا آخر أفراد الأسرة المالكة فى الإمبراطورية البيزنطية. خرجت روسيا الجديدة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بعد صراعها الطويل مع التتار وقد تغيرت صفاتها من حيث الأجناس وتغيرت تركيبتها الاجتماعية. بقيت إمارة موسكو وتزايدت قوتها بزيادة سلطان قادتها وصار أمراؤها يخضعون نبالائها ويحمونهم فى نفس الوقت، وصار هؤلاء النبلاء ـ بدورهم ـ سادة وحماة فلاحيهم. صارت الظروف مشابهة لنظام الإقطاع فى أوروبا الغربية. ولكن كان النظام الإقطاعى فى روسيا أشد منه فى بلدان أوروبا الغربية، فقد كان جبروت الإقطاعى وسلطانُه ووحشيته أشد وطئا منه فى الغرب، وكانت المدن الروسية أقل عددا وأكثر تباعدا عن بعضها من مثيلاتها فى الغرب، مما جعل هروب الفلاحين من أرض الإقطاعى إلى المدن أشد استحالة. ظهر الوسطاء فى المجتمع فى فترة متأخرة (الوسطاء بين الإقطاعى مالك كل شئ وبين فلاحيه) وكانت غالبيتهم من اليهود (كما وصفهم إسحاق بابل). الوسطاء الوحيدون ـ قبل هذا العهد ـ الذين عرفتهم روسيا ظهروا فى القرن السادس عشر تحت حكم إيفان الرهيب والذين كانوا يستدرجون النبلاء ويضطهدونهم، والذين ظهروا فى القرن السابع عشر تحت حكم ألكسيس وهم المستشارون السريون الذين كانوا يخترقون صفوف النبلاء ليكشفوا عن مؤامراتهم وخططهم ولعل هؤلاء كانوا الباكورة الأولى لنظم الشرطة السرية الذين يتكونون من مجموعة من الجواسيس والمبلغين لحماية الحاكم ولفرض السيطرة على روسيا فى عهد القياصرة.

استعادت روسيا قوتها الجديدة بعد ارتباطها بالمسيحية الغربية وصارت ملتقى تيارين عظيمين من الهجرة. أولهما كان الهجرة إلى الشرق، حيث تم الاستيطان فى سيبريا. فقد استوطن فيها جماعة من الصيادين والتجار من أمام حكم إيفان الرهيب. تهجن المستوطنون الأوائل ـ وهم بعيدون عن أوطانهم وقوتهم ـ من السكان الأصليين لسيبيريا قبائل الياكوتس، وأعادوا بذلك نفس ما سبق حدوثه فى أوروبا الغربية منذ ٤٠٠٠ عام، ونشأ من هذا التهجين شعب أكثر ذكاء ـ بالمعايير الحضارية. جاءت الموجة الثانية من الهجرة إلى الشرق من مجموعات من الحرفيين والجنود. ولكن منع الحكام غالبية أهالى موسكو ـ كما يمنعونهم إلى اليوم ـ من مغادرة البلاد دون إذن، وإذا أذنوا لهم بالمغادرة احتفظوا بزوجاتهم كرهائن حتى عودة أزواجهم. بالتدريج ارتفع شأن الكرملين وتسيد على المدينة خلال ثلاثمائة عام. تم تشييد الكرملين بأيد الأجانب: فجدرانه من تصميم فورافنتى

وماركو روفوا الإيطاليان فى ١٤٨٥-١٤٩١، وبرجه الذى يعلو بوابة سباسكى من عمل كريستوفر جالواى الاسكتلندى عام ١٦٢٥. خارج الكرملين تتكون المدينة من حى أوروبى وحى صينى كانت هجرة الأجانب ـ كالعهد بها دائما ـ تقام من الشعب ويشجعها الحاكمون. وفى نفس العام عام ١٦٩٠، لجأ كاثوليك من اسكتلندة وبروتستانت من فرنسا، ولجأ آخرون من بلاد متحاربة كثيرة، وكانوا يجدون الملجأ والملاذ فى موسكو التى رحبت بالجميع، ووصلت الحفاوة إلى ذروتها تحت حكم بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥).

كان القيصر الأول من أسرة رومانوف ـ القيصر مايكل ـ أحد أبناء إخوة إيفان الرهيب. وكان يحكم بمشورة والده ـ بطريرك موسكو ـ ونُصحه. كان القيصر الثانى من أسرة رومانوف هو القيصر ألكسيس، وكان يحكم مع أخذ مشورة نبلائه. كان لهذا القيصر أبناء عدة ليس منهم ذكر، ولكنه رزق من زوجة أحد النبلاء التترين (ناتاليا ناريشكينا) بولد جمع فى نفسه خصال العديد من أسلافه وتولى حكم الإمبراطورية الروسية بنفسه ولم يكن بحاجة لمشورة من أحد. حكم بطرس روسيا وغيرها وأحدث تغييرا جذريا. بدأت روسيا تصير دولة أوروبية ببطء قبل حكم بطرس، واستمرت تتحول ببطء بعده على مدى بعيد، ولكن بطرس عمل على تحقيق هذا الهدف بكل ما وسعه من قوة وتدبير وحكمة وحنكة، وحول روسيا إلى دولة عظيمة. كرس جهوده لبناء السفن وللبحر. لم يكن هناك شئ فى محيطه ولا فى تعليمه ولا فى أسلافه يوحى إليه بأنها هى مستقبل روسيا ولكنه كرس حياته لها، وكان من طبعه أن يتفانى فيما يهدف لتحقيقه. فى سبيلها سافر إلى هولندا وسافر إلى انجلترا ليتعلم أصول الصنعة، وبعد السيطرة عليها هاجم السويد وهاجم الترك ولم يكتف بالضحايا الأيسر، البولنديين. ولهذا السبب أيضا أنشأ مدينة بطرسبرج فى المستنقعات على مصب نهر النيفا وجعلها عاصمة له، ميناء بحريا يحميها أسطول يقوده فنلنديون من الأراضى الجديدة التى ضمها. كان إنشاء بطرسبرج رمزا أن روسيا قد شابهت بلاد غرب أوروبا فى ثقافتها وفى التقدم التقنى، ولكنها كانت تعنى فى حقيقتها الوسيلة التى تحولت بها روسيا إلى إمبراطورية عظيمة يحكمها قياصرة عظام. تركز المجتمع الروسى الجديد فى أوتوقراطية صارت مثلاً من الانضباط أو المعارضة التى يبديها النبلاء والإقطاعيون ملاك الأراضى الشاسعة. كانت أوتوقراطية دائمة التزاوج مع الأجانب، خاصة مع العائلات الملكية فى أوروبا البروتستانتية، وقطعت نفسها تماما من الاختلاط بقومها فى روسيا، حتى مع نبلاء البلاد. ظل اتصال الأسرة الإمبراطورية الروسية مع البارونات الألمان فى أقاليم بحر البلطيق التى أدمجها بطرس فى إمبراطوريته وابتلعها، والتى كانت مصالحهم مع الموظفين الألمان. وقد حضر هؤلاء فى القرون التالية إلى البلاد ودخلوا فى خدمة حكومة القيصر. كل ما كانت تفعله إدارة الحكومة كان يتم بطريقة همجية وبوحشية شديدة وإلا لما تمكنت من البقاء فى أمة مضطربة ذات أبعاد متناهية. بهذه الطريقة تمكنت حكومة القيصر من الوصول إلى حدود الهند والصين،

ويعبورها مضيق بيرنج وصلت إلى آلاسكا وإلى كاليفورنيا، وصلت الحكومة الروسية أيضا إلى بلاد الفرس، ولكنها تبينت بعد عشر سنين (١٧٢٣-١٧٣٢) أن البلد موبوء بالأمراض ولا يمكن لوحشية نظام الحكم أن يتعايش معها، فتم انسحابه بمنتهى الحكمة. هكذا تكونت إمبراطورية شاسعة، متعددة الأجناس، لا يربطها جميعا إلا تمحورها تحت حكم القيصر، تسودها طبقة تتحدث باللغة الروسية. يخضع هؤلاء السادة لأوامر وتعليمات موظفي القيصر الذين وزعهم في مختلف الأقاليم ليضمنوا له حكومة شديدة تحكم بالحديد والنار. كانت حكومة البلاد حكومة جامدة تتبع الثقافات الغربية وتثير الكراهية بين الناس، الذين كانوا ـ لولا كراهيتهم النظام القاسي المتسلط، سيتبعون تقاليد الغرب الاجتماعية والسياسية. في سبيله لتغريب روسيا اتبع بطرس وسيلتان، اتبعهما الحكام المتسلطون منذ العصر البرونزي: بعث الروس إلى الغرب للتعلم، واستقدام الخبراء الغربيين من الصناع والحرفيين والمثقفين للتعليم والعمل والمعيشة في روسيا. لم ينجح تعليم الروس وتدريبهم خارج البلاد ولكن النجاح الأكبر تبع استقدام الخبراء الأجانب إلى روسيا وتهجيرهم إليها، وكان هذا هو العامل الأكبر في حدوث التقدم المستمر والدائم في المجتمع الروسي. استقدم بطرس خبراء الطباعة وصهر المعادن من هولندا وبناة السفن من انجلترا ومهندسين من النمسا وجنود ومفكرين من اسكتلندة ومهندسين معماريين من إيطاليا. حضر هؤلاء جميعا إلى روسيا وتزاوجوا من نساء روسيات ونشأت بذلك طبقة متوسطة أخذت في النمو باطراد. كذلك رفضت غالبية أسرى الحرب المائة ألف من السويد العودة إلى وطنهم بعد توقيع معاهدة نيستاد عام ١٧٢١ وفضلوا الإقامة في روسيا بعد أن تبينوا الفرص العظيمة السانحة التي تقدمها روسيا الجديدة لهم لما يتمتعوا به من مهارة ومن ثقافة التي يتميز بها الأجانب وحدهم. كان اجتذاب الأسرى الأجانب يتم بعد كل غزو للقوات الروسية، وعقب كل غزو لروسيا يتم بواسطة القوات الأجنبية. فقد بقي بعض الفرنسيين بعد انسحاب قوات نابوليون من موسكو، وبقي بعض البريطانيين بعد انسحاب قواتهم من القرم وبقي بعض الألمان بعد انسحاب الألمان من ستالينجراد. بعد كل غزو لتلك القوات الأجنبية ينضم جيش من الأجانب إلى المجتمع الروسي ويتم ادماجهم بالتزاوج من الطبقات المهنية والحرفية الجديدة.

بالرغم من هذا فقد استمر التخلف الروسي عن الغرب، بسبب سلطان الأوتوقراطية وجمود النظام الاجتماعي الذي يفرضه التسلط. ففي بداية القرن التاسع عشر، بالرغم من مقدم ثلاثة أحداث عظمى كانت كفيلة بإنهاء الدكتاتورية وتغيير النظام، ظل ثابتا كالطود. أول تلك الأحداث كانت الأفكار السياسية التي جاءت بها الثورة الفرنسية، وثانيها كانت تقنيات الثورة الصناعية في انجلترا، وثالثها ـ وأهمها ـ كان قدوم جيوش نابوليون ووصولها إلى موسكو. كان هذا الحدث الأخير فجائيا وكان أكثرها عنفا. ولكن استطاعت الجيوش الروسية وتمكنت حنكة قوادها، مع غباء الغزاة، من إنقاذ

البلاد. كانت الحملة هزيمة لنابوليون ولكن أعطت الشعور بالثقة للنظام الحاكم وكانت المسمار الأخير فى نعشه والذى أدى إلى دماره. انفتحت روسيا ـ للمرة الأولى ـ على أوروبا، ورأى المثقفون الروس بأعينهم ما لم يره حكامهم. رأوا حقيقة أوروبا الغربية ولم يقبلوا استمرار الحكم فى بلادهم على نفس الحال وبقاءه على نفس المنوال. بعد حوالى عشر سنوات من التفكير بدأوا يتحركون وانتهت حركتهم بثورة عنيفة.

بدأ المثقفون الروس يطالبون بنفس الحقوق التى سبق وطالبت بها الثورة الفرنسية. ولكن القيصر نيقولا الأول (١٨٢٥–١٨٥٥) كان مصمما على إخماد تلك المطالب، وزاد فى عنف النظام ليقابل الوضع الجديد. صار البوليس السياسى ـ الذى مضى على إنشائه قرنان ـ الحامى الأول للسلطة فى روسيا. كانت أوروبا الغربية قد بدأت بحل الشرطة السياسية ولكن روسيا زادت من قوتها وازداد نماؤها وصارت قوة سرية خارجة عن الضبط. وبدأ تحول المصلحون ليصبحوا ثوريين وكان سبيلهم الوحيد فى ذلك التآمر والاغتيال. فشل سلاحهم هذا مع الاسكندر الأول ومع نيقولا الأول ولكنه نجح مع الاسكندر الثانى (١٨٥٥–١٨٨١) بعد ازدياد خبرتهم وزيادة ذكائهم. عقب نجاح اغتيال الاسكندر الثانى ازداد عنف التسلط والكبت. بدأ النفى إلى سيبيريا ـ الذى بدأ عام ١٨٢٥ ـ يصير هو السلاح الذى تستخدمه السلطة ضد الثوريين ووصل إلى ذروته. كان الجيش هو وسيلة الضبط والربط للفلاحين. كان الفلاحون يستخدمون ـ بعد تسليحهم وإلباسهم اللباس العسكرى ـ لقتل إخوانهم الفلاحين من أقاليم أخرى، وهم غير مسلحين ويرتدون اللباس المدنى. بعد هزيمة روسيا فى حرب القرم كان القيصر الجديد ـ الاسكندر الثانى ـ قد بدأ يستجيب لنصح المصلحين وبدأ بتحرير العبيد من الإقطاعيين، ورأى أن هذه هى الخطوة الأولى لتحديث المجتمع الروسى وتفادى قيام الثورة ولكن هذا كان عملا غاية فى الضخامة، فقد كان ثلاثة أرباع الشعب الروسى من العبيد. عبيد الملك والعائلة المالكة، عبيد للإقطاعيين من كبار ملاك الأراضى، عبيد خصوصيون، عبيد فى البيوت، بالإضافة إلى عبيد المصانع الذين بدأوا منذ عهد بطرس الأكبر. كان تعداد الشعب الروسى فى عام ١٨٦١ يبلغ حوالى ٩٢ مليونا، كان العبيد منهم ٦٩ مليونا، أى ما يقرب من ثلاثة أرباع الشعب، على النحو التالى: ٤٧ مليونا أرقاء خصوصيون و٢٢ مليونا أرقاء للملك.

كان القيصر لا يملك أموالا بعد الحرب وكانت الخزانة خاوية ومديونة، ولذا كان على العبيد أن يدفعوا لساداتهم. بعد أربع سنوات من الجدل صدر مرسوم ٣ مارس ١٨٦١ الذى يقضى بمنح العبيد مساحات صغيرة من الأراضى يمتلكونها، فى نظير أن يقبض ملاك الأرض من عبيدهم التعويض المناسب من الدولة، تمنحه لهم من قرض عمومى. كان على العبيد المحررين أن يسددوا هذا القرض خلال ٤٩ عاما من عائد الأرض التى يزرعونها، ولا يمكنهم تحصيل أى عائد شخصى لهم إلا بعد تسديد مبالغ لتحديث آلاتهم الزراعية. وهكذا وجد ٧٠ مليون فلاحا من الأحرار أنفسهم

فى وضع أسوأ مما كانوا فيه وهم عبيد. زادت الاضطرابات عما كانت عليه من قبل فى الريف، وتغيرت المدن تغييرا جذريا من جراء ما حدث فى الريف فقد غادر الريف أعداد متزايدة من الفلاحين ـ الذين صاروا أحرارا ـ وعمروا المدن التى اتسعت بسرعة ونمت كما لم تنمو من قبل، وحدث فيها ما سبق وحدث فى انجلترا منذ خمسين عاما.

بدأت صناعات الحديد، وفتحت آبار البترول فى باكو عام ١٨٧٣، وبدأت المصانع فى بطرسبورج وفى موسكو وفى حوض نهر الدون، بمساعدة من رجال الصناعة فى ويلز، وأدخلت صناعة القطن بمعونة رجال الصناعة من لانكشاير. بدأت خطوط السكك الحديدية تمتد عبر سهول روسيا إلى سيبيريا ووصلت عام ١٩٠٤ إلى المحيط الهادى. انتشرت الصناعات بسرعة فى روسيا ـ كما سبق وانتشرت فى الولايات المتحدة قبل أربعين عاما ـ بقروض من البلاد الصناعية القديمة فى أوروبا ـ وهكذا بدأ رأس المال الأجنبى والمهارات التقنية الأجنبية الثورة الصناعية فى روسيا. تضاعف أعداد البروليتاريا الصناعية فى روسيا إلى عشرة أمثالها خلال ثلاثين عاما وزادوا عن ٢ مليون عامل فى الصناعة. كانوا من جنس هجين، وكانوا أكثر ثقافة وأكثر ذكاء وحيوية، وأكثر استعدادا للتفاهم عن إخوانهم الفلاحين. ولكنهم ظلوا يعاملون بمنتهى السوء. كانوا أكثر التصاقا ببعضهم البعض، وكانوا يعانون من الفضائح التى ذكرها إنجلز عند وصفه لما يعانيه العمال فى مانشستر منذ خمسين عاما. ولكنهم كانوا يتمتعون أيضا بتعليم يمتد من المدرسة الابتدائية حتى الجامعة.

شعرت اليابان بتهديد روسيا القيصرية لها بعد مد الخط الحديدى من سيبيريا إلى الشرق ووصوله عام ١٩٠٤ إلى شواطئ المحيط الهادى الخالى من الجليد، إلى ميناء آرثر التى أعيد تحصينها، فأعلنت الحرب على روسيا، وهزمت جيوش القيصر واستولت على قلعته وأغرقت أساطيله. ظهر للعيان ضعف الحكومة الروسية فى ذات الوقت الذى ازداد فيه فقر العمال. بدأ عمال المصانع الضخمة الجديدة ـ ومعهم إخوانهم من رجال البحرية ـ بالثورة على النظام والتحموا للمرة الأولى مع رجال مثقفين خارج البلاد لهم نفس الأفكار كانوا منتظرين يخططون ويتآمرون لقيام الثورة.

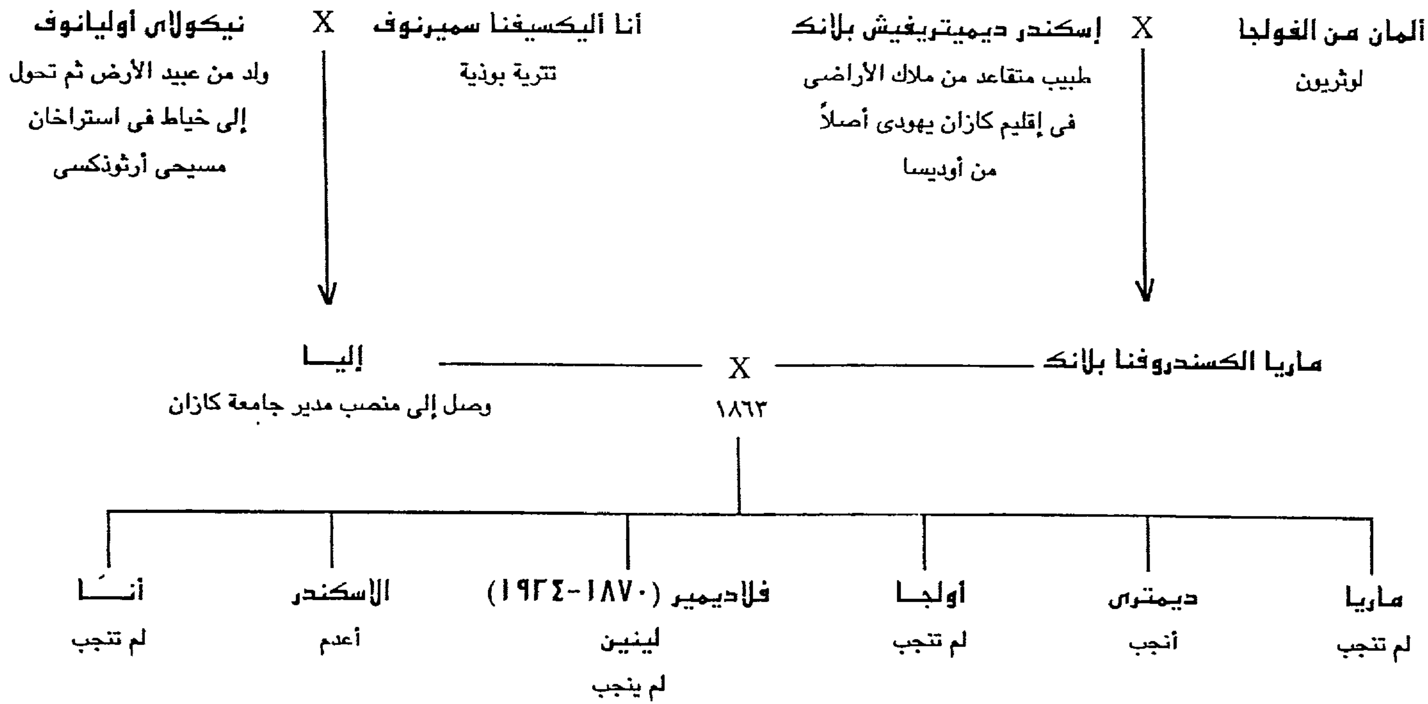
لتحقيق حلم كارل ماركس بقيام ثورة كان لا بد أن يتواجد مجتمع مختلف عن المجتمع الذى عرفه، مجتمع لا تكاد توجد فيه طبقة متوسطة. كان كارل ماركس نفسه ينتمى لطبقة المهنيين المثقفين وعاش لأربعين سنة فى انجلترا حيث كانت تلك الطبقة آخذة فى النمو. لم يكن هناك مكانا لهذه الطبقة لحساباته ــ فقد تجاهلته تلك الطبقة وحرص هو أن يتجاهلها. كان لا بد للمجتمع الذى تقوم فيه الثورة أن تكون فيه طبقة البروليتاريا وقد وصلت إلى أسفل الحضيض وعانت من منتهى اليأس، كما لم يشاهده ماركس وانجلز فى شبابهما فى انجلترا. لم يتواجد هذا المجتمع أثناء حياة

كارل ماركس، ولكنه حدث فى روسيا القيصرية بعد متاعب ومعاناة الحرب فى عام ١٩٠٥ وكذلك فى عام ١٩١٧.

كذلك احتاجت خطة كارل ماركس لرجل يختلف عن أستاذه فى طباعه وخبرته وأصله العرقى ليستطيع أن يحول الأفكار الاجتماعية التى صاغها ماركس إلى أعمال سياسية. ظهر ذلك الرجل فى الوقت المناسب. فلاديمير إليتش أوليانوف، الذى عرف بين زملائه المتآمرين وعرف لشرطة القيصر وعرف للعالم كله فيما بعد باسم لينين. كان رجلا مهجنا من عدة أجناس، كما يوضح الجدول رقم (٢٥). من ناحية أبيه كان ثمرة تزاوج أحد العبيد من أستراخان مع إحدى التتريات فى ميناء استراخان الواقعة على بحر قزوين. ورث من أبيه ملامح طبقة «العوام الروس» – أى الملامح المغولية المتداخلة مع الملامح الأوروبية، والتى تختلف عن الملامح الأوروبية الصرفة التى يمتاز بها أفراد الطبقة العليا والطبقة المتوسطة التى تعيش فى المدن فى الجزء الغربى من روسيا. كان أبوه يتحدث باللسان الروسى ويعتنق المسيحية الأرثوذكسية. وكانت مهنته مدرس علوم، وقد أرتقى بسبب ذكائه ومهارته وحسن تحصيله إلى أن يصير مديرا للمدارس، وارتفع من طبقة عبيد الأرض التى أتى منها والده إلى الطبقة المتوسطة، كقرينة على إمكانية الانتقال من طبقة إلى أخرى فى عهد روسيا القيصرية. أما والدته فقد جاءت من طبقة مهنية ذات عراقة. جاء أهلها – من ناحية الأم – من ألمانيا واستقروا فى حوض نهر الفولجا بواسطة الإمبراطورة كاثرين العظمى منذ ثلاثة أجيال، جزء من خطتها لتحسين طرق الزراعة فى بلادها. ترعرع المجتمع – رغم فشل الخطة – وقد بنى الألمان كنائسهم اللوثرية وظلوا منعزلين عن بقية الفلاحين الأرثوذكس، ولم يحدث تهجين بين المجموعتين وظل الألمان يتحدثون باللغة الألمانية ويستخدمون طرق الزراعة المستخدمة فى ألمانيا. انفصلت جدة لينين (لأمه) عن هذا المجتمع وتزوجت من طبيب يهودى ثرى متقاعد. وبذلك نرى أن جدود لينين الأربعة ينتمون لأربعة أعراق جنسية وديانات مختلفة، ولكن جاء أبويه من طبقة المهنيين، كما كان يفتخر دائما أن هذه الطبقة هى التى جاء منها جميع معلمى الثورات. نتج عن الزواج ستة أبناء، وهب الكسندر نفسه لتغيير نظام الحكم بالقوة فتم القبض عليه وأعدم لاشتراكه فى عصيان وهو فى الجامعة فى سن الحادى والعشرين. ووهب فلاديمير نفسه أيضا للثورة لتحقيقها بتؤده ومكر وليس بإثارة القلاقل والاغتيالات، وكان هذا هو لينين.

أعجبت حكومة القيصر بمزايا قتل الثوريين فلم تهتم كثيرا بخطورة كتاب الثورة. قرأ لينين إنجيل كارل ماركس وهو فى سن الثامنة عشر واستوعبه، وسرعان ما انضم لعصابة من المتآمرين الروس الذين كان هدفهم تطبيق الأسس التى نادى بها كارل ماركس فى بلدهم. وكان هناك رأيان: إما أن يتبعوا الطريق الساخن الذى اتبعه ثوار عام ١٨٤٨ ويقوموا بثورة عنيفة وإما أن يتبعوا الطريق البارد الهادئ الذى نصح به كارل ماركس فى سنواته الأخيرة والذى يقضى بالتعاون مع

جدول رقم (٢٥) أصول لينين



المصلحين والجدل معهم وإجراء التجارب الاجتماعية حتى الوصول إلى الدولة الاشتراكية المثلى. عاد لينين من ثلاث سنوات النفى فى سيبيريا فى يناير عام ١٩٠٠، حيث عومل بمنتهى الرقة نظرا لروابط والدته الاجتماعية. سمح له باختيار الوحدة وقراءة الكتب وبكتابة الأدبيات الثورية. فى تلك الفترة أخذ لينين بأفكار اثنين كبار الثوريين الفرنسيين: بانوف وبلاكى. ولاحظ أن خلقهم المتصف بالإنسانية كان سببا فى نجاحهم الفكرى وفشلهم العملى. كان لويس أوجست بلانكى (١٨٠٥-١٨٨١) هو الملهم للحركة التى أدت إلى قيام كوميون باريس عام ١٨٧١. وكان هذا الرجل صاحب عبارتين خالدتين فى الفكر الاشتراكي: «الثورة الصناعية» و «دكتاتورية البروليتاريا». تصف العبارة الأولى أحداثا حقيقية وقعت فى فترة سابقة، وتصف العبارة الثانية شيئا خياليا سوف يقع فى المستقبل. بالنسبة للينين كانتا وصفا ممتازا لما يريد أن يحققه. أدرك لينين أن البروليتاريا لا يمكنها الإمساك بالسلطة أو الحصول عليها. ولذا عليه أن يشكل حزبا سياسيا شديد الانضباط، ملقنا أشد التلقين، يقوده شخص واحد متفرغ لأعباء القيادة والتنظيم مثله شخصيا. هذا الحزب سيقوم بتوجيه البروليتاريا لتقوم بقلب الحكومة القديمة وتولى مكانها حكومة جديدة. وكان هذا أول تعديل لمبادئ كارل ماركس كأسلوب لقيام الثورة الجديدة فى روسيا.

لم يكن لينين واعيا ـ كما لم يعى زملاؤه المتأخرون عنه ـ أن هذا الذى يفعلوه هو غش وتدليس وخداع لأنفسهم وعلى من يطالبون بتطبيقه عليهم من عمال وفلاحين. لم يكن أولئك القادة على دراية كافية بالعمال والفلاحين الذين رمزوا لهم بالمطرقة والمنجل. اندفعوا إلى الأمام بقوة مع جهلهم بما تخبؤه لهم الأيام ـ كما سبق واندفع المسيحيون الأوائل. كان هدفهم هو إنجاز مطالبهم بسرعة ولذا غير لينين موقفه عام ١٩٠٣ وقرر أن يتبع الخط الساخن من البرنامج الماركسى. حضر مؤتمرا للثوريين الماركسين فى لندن وأقنعهم بالتحايل لتبنى موقفه. تبنت فى اللحظة المناسبة الأغلبية ـ البولشيفيك ـ القيام بالثورة وعدم التصالح مع القيصر، بينما عارضت الأقلية ـ المنشفيك ـ هذا الرأى وطالبت بالحلول الوسط.

بدأ الزعيم الشاب ـ وعمره الآن ثلاثة وثلاثين عاما ـ العمل فى الحال وأخذ يجمع الناس فى لندن وجينيف وكراكوف ليصيروا وحدة واحدة متشربة بهذا الفكر ـ بدلا من تناثرهم إلى قطع وشظايا متفرقة ـ ليكوّن منهم حزبه الذى ارتأى أن يشكّله. كانت وجهة الحزب وهدفه واحدا وكان الجدل شديدا ـ كما كان الانضباط ـ فى هذا الحزب. فاق لينين سيده ومعلمه فى الحقد والكراهية وفى التحامل على الطبقة العليا واحتقارهم. بدأت صحافة العالم تكتب المقالات المأخوذة عن رسائل لينين. بدأت شتائمه العلنية وتصنيفاته لأنواع الخيانة والعمالة والهرطقة والانحراف تجد مكانها فى الصحف والخطب والإعلانات (وحتى فى قواميس اللغة). وقف قليليون من الشجعان أمام عنف قائدهم وزعيمهم ولكنه شغلهم بالتآمر وتدبير المؤامرات والخطط عن محاولة معارضته. كانت تعاليمه

تعاليم أستاذه ماركس غير قابلة للاعتراض وكانت جائزة المتبعين لها والمتحملين لمشاق الدعوة إليها هو الوصول إلى الدولة التى ينتظرها جميع الناس فى روسيا. كان المستقبل يبدو حالكا فى ذلك الوقت، فى السنوات الأولى من القرن العشرين. ولكن تصاعدت آمال المتآمرين فجاة. ففى سنوات الجوع والهزيمة، فى بداية سنة ١٩٠٥ قامت احتجاجات بسيطة فى بطرسبرج بعد حادثة اغتيال صغيرة، تبعتها سلسلة متتالية من العصيان والاضطراب طوال هذا العام، كانت تقابل بمنتهى الشدة. تعلم لينين من تلك الأحداث التى كانت مقدمة لثورته الكبرى.

حدثت تجربتان ذوات دلالة فى تلك السنوات. أولاهما كانت عدم قبول القيصر للتنازل فى انتخابات مجلس ممثلى الشعب «الدوما»، بشكل لم تشهده البلاد منذ اعتلاء بطرس الأكبر للعرش. كان الانتخاب سيتم بكل مساوئ الانتخاب غير المباشر وعيوبها وبكل وسائل التزوير وطرقها التى تتيح انتخاب من يريدهم القيصر أن ينتخبوا. ولكن بعد تشكيل المجلس رُفضت النصائح التى أشار بها المجلس وتم حله وسجن المعارضين ذوى الأصوات العالية. نهج القيصر - بفعلته هذه - نهج الملوك السابقين من العائلات المالكة فى أسرتى ستيوارت وبوربون ولم يدر بما فعله بهم التاريخ واتبع نصح زوجته الأجنبية التى أحاط بها المشعوذين من خاصتها، رغم أن الدوما كان قد اتخذ خطوة تقدمية وفتح باب المناقشة مما كان يوحى بأن حكومة ممثلة فى طريقها للوجود. كانت التجربة الثانية من الاضطرابات التى أثارها المنشفيك بإضطراباتهم وعصيانهم. كون المنشيفيك مجالس وجماعات «سوفييت» لتنظيم نشاطاتهم والإعداد للعنف. ضمت تلك المجالس المثقفين الثوريين لتتبعهم الجماهير غير المتعلمة التى تحتاج لقادة. فى تلك اللحظة ظهر شابان ثوريان يبلغ عمر كل منهما خمسة وعشرين عاما، تروتسكى من بطرسبرج وستالين من تفليس. استثمر لينين تلك الفرصة السانحة - التى لم يعد لها - وطرق الحديد وهو ساخن واستغل الرجلين لإنجاز أهدافه.

أتت التجربتان بثمرتهما عام ١٩١٧، بعد ثلاث سنوات من حرب أسيئت إدارتها. قادت حكومة القيصر الشعب الروسى إلى الهزيمة والمجاعة، وانهارت الروح المعنوية للقوات العسكرية تماما لدرجة أن الحرس الإمبراطورى فى بطرسبرج ذاتها عصى أوامر قادته ولم يفتح النار على الجماهير التى أطاحت بالقيصر مطالبة بالخبز فى الشوارع. حدث هذا فى ١١ مارس عام ١٩١٧ ولاح للحظات أن جماهير الشعب هى صاحبة الأمر والنهى وقد أخذت بيديها بزمام الأمور. ظهر أن خليفة إيفان الرهيب صار فجأة بلا حول ولا قوة. خلع عن العرش بدون متاعب وشكل «الدوما» بالتشاور مع سوفييت - عمال بطرسبرج - حكومة من أعضاء مختلطين: من شرفاء المحتد والمهنيين والأحرار والاشتراكيين. كانت الحكومة التى تم تشكيلها على عجل غير ذات خبرة ومختلفة الرأى عندما قابلتها المشاكل المخيفة التى ووجهت بها. اعتلت تلك الحكومة مهام الحكم بلا سلطة، وفشلت فى اكتسابها. بالرغم من هذا فقد استطاعت الحكومة الاتفاق فى كثير من الموضوعات ولم يستطع سوفييت

بطرسبرج ـ الواقع على مقربة من القصر ـ أن يعارض تلك القرارات، بأنه يجب على الحكومة أن تحذو الثورة الفرنسية وأن تشكل جمعية تأسيسية بالانتخاب المباشر.

بمجرد اتخاذ هذا القرار شاهدت بطرسبرج ـ فى صيف عام ١٩١٧ النزاع بين القوى المتنافسة. على ناحية كانت الحكومة المؤقتة التى شكلت على عجل تحت قيادة كيرنسكى ـ من الأحرار ـ وعضوية مختلف الأعضاء ذوى الاتجاهات المتباينة. على الناحية الأخرى وقف لينين ـ الذى عاد من منفاه فى سويسرا مع أتباعه فى حزبه ينظمون السجناء السياسيين بعد أن حررتهم الحكومة، ومعهم بقية المنفيين والمهاجرين إلى الخارج الذين رحبت البلاد بعودتهم، وأخذوا يرددون الخطب الرنانة بين العمال المترددين فى الانضمام إليهم والجنود الذين لم يقتنعوا بعد فى الالتفاف حولهم وتأييدهم. كان الهدف من كل هذه الأفعال قلب الحكومة والاستيلاء على مقاليد الحكم واستيلاء السوفييت لأنفسهم على السلطة ـ على الأقل حتى يقع سوفييت موسكو وبطرسبرج تحت سيطرتهم. نشاهد فى هذا المشهد تكرار ما سبق وحدث بين كرومويل والليفليين، وبين أحرار عام ١٧٨٩ ويعاقبه ١٧٩٣ وبين الحكومة الوطنية عام ١٨٧١ فى فرساى وقادة الثورة فى باريس. تبعا لنظرية كارل ماركس يحدث الصراع بين طبقتين مختلفتين من طبقات المجتمع، ولكن ما نشاهده الآن ـ ما شاهدناه فى الأحداث السابقة ـ هو صراع بين طريقتين مختلفتين فى تنظيم الطبقات وفى حكم البلاد. اعتمدت الطريقة الأولى على إجراء انتخابات عامة وحرة وتشكيل حكومة ممثلة للشعب. سيكون الممثلون للشعب فى غالبية الأحوال من المثقفين ومن ذوى الأملاك وسيحافظون قدر استطاعتهم على امتيازاتهم ويستغلون غير المثقفين من أبناء الشعب. وتعتمد الطريقة الثانية على تحالف قوى الشعب من المطحونين والذين يقبلون ـ بل ويطالبون ـ بالطاعة والامتثال لسلطان أفراد من زعماء الدهماء، المهيجون، الخطباء الشعبيون، الذين يستغلون الاستياء الاجتماعى لاكتساب النفوذ السياسى ويصبحون من الطغاة، مستغلين طاعة الجماهير وسذاجتهم وسرعة تصديقهم لما يقولون. كلتا الطريقتان تتطلبان أن يستخدم الزعماء العبارات الخداعة وتقديم الوعود البعيدة عن التحقيق وأساليب السياسة بما تحمله من دهاء ومكر. كان لينين يؤمن بمصادرة الممتلكات الخاصة للأفراد فى سبيل الصالح العام للمجتمع، ولذا اتبع ذلك الأسلوب للحكم، وقد تطلب هذا من لينين أن يكون زعيما شعبيا مهيجا للجماهير وخطيبا مفوها يثير الدهماء ويكون فى نفس الوقت طاغية مستبدا. وعليه أن ينظم حزبه لنقل تعليماته بحذافيرها ويطلب الطاعة العمياء من الجماهير غير المثقفة. تعلم لينين تلك الدروس فى صيف عام ١٩١٧. وما لم يتعلمه لينين أنه لكى يحتفظ بطاعة الجماهير لأطول مدة ممكنة، عليه أن يبقيها غير مثقفة لكى يستطيع أن يسيرها على رأيه. كان أحد أعوانه يعرف طبيعة الجماهير ويعرف ما يخبئونه، وكان يفهم عقليتهم، ويدرك تصرفاتهم أفضل مما كان ماركس أو لينين يعلمونه عنهم. هذا الرجل هو ستالين.

كانت سياسة لينين هى الاشتراكية العاجلة ومصادرة كل الممتلكات ولذا كان عليه الإسراع بانتخابات الجمعية التأسيسية. كانت تلك الجمعية ستسفر عن مجموعة من ممثلى الشعب ـ المثقفين والمهنيين وذوى الأملاك ـ كما أسفرت عنه انتخابات الجمعية التأسيسية الفرنسية من قبل. فى نفس الوقت كانت مجالس السوفييت قد أبدت ملامح نوادى العمال فى باريس عام ١٧٩٣، الملامح المضادة للمهنيين ولذوى الأملاك التى ظهرت فى الدولة الرابعة فى فرنسا. طالبت الجماهير فى المدن بالخبز، لكى يأكلوه وفى الريف بالأراضى لكى يحرثوها ويزرعوها. كان باستطاعة لينين تهدئة الأمور وإقرار السلام وتحقيق الأمان بين مختلف فئات الشعب، وبهذا تكون الثورة فى روسيا ثورة هادئة، بل قد يساعد هذا على انتشارها فى الأقطار المجاورة فى أوروبا التى سئمت الحروب. ولكن لينين اتبع نهجا آخر فقد كان رجال الجيش من الضباط والجنود قد ملوا الحرب، واشعلت الثورة الحمية الوطنية لدى الجيش. بعد هبة مارس استمر الصراع لثمانية شهور واقترب من العاصمة. على ناحية كانت الحكومة واقفة تدعو لاستمرار الصراع ضد الغزاة الأجانب فى نفس الوقت التى تحاول فيه السيطرة على العصيان والجوع وعلى الموقف الذى نشأ بهرب ٢ مليون فرد من القوات المسلحة من الجيش وعودتهم إلى البلاد. حاولت الحكومة إباحة حرية الكلام لأعدائها ورفع القيود عن حرية التعبير. وعلى الناحية الأخرى وقف البولشيفيك، المتآمرون تساندهم أموال الألمان يعملون فى جماعة صغيرة تحت رئاسة لينين. بدأت تلك الجماعة فى إصدار صحيفتها وراحت تغدق الوعود للجنود والعمال والفلاحين وتحول مجالس السوفييت لوجهة نظرها لكى تتبنى آراء بولشيفيك لينين ـ حدثت الأزمة فى ٧ نوفمبر ١٩١٧. كان هذا يوم اجتماع مجلس جميع السوفييت فى بطرسبرج، وكان العمال قد سلحتهم الحكومة، فأشار تروتسكى بأن هذه هى الفرصة التى ينبغى استغلالها وتحول السلاح ضد الحكومة واستولى العمال على جميع المراكز الحيوية فى العاصمة وقبضوا على جميع أفراد الحكومة فى القصر الشتوى وساقوهم تحت الحراسة إلى قلعة بطرس وبولس. صوّت المؤتمر ـ برئاسة أحد البولشيفيك ـ بعزل الحكومة الحالية وتولية حكومة جديدة من البولشيفيك وتبنى سياسة البولشيفيك بمصادرة الأراضى لصالح الفلاحين وبالصلح من ألمانيا وعاد ممثلو الشعب لمدنهم وقراهم لتنفيذ قرارات المجلس فى الحال. وهكذا تولى حزب لينين السلطة فى روسيا، وبدأت الشيوعية.

كاد الانقلاب أن يكون بدون إراقة للدماء، مثل ما حدث أيام كروموبل وأيام نابوليون. فقد أمسكت بالحكم جماعة صغيرة من الرجال كانت مصممة على الاستيلاء على السلطة، رجال من أجناس مختلفة وطبقات متباينة وطباع متغايرة. نشأوا على الفقر وتمرسوا بالتآمر ولكن لم يكن لديهم خبرة الحكم. كانوا يعلمون أن قوتهم تكمن فى المركز فحسب. علموا أن استمرارهم فى الحكم رهينة بأن يكون لقائدهم مواهب كروموبل وطبعه أو صفات نابوليون. كانت المهمة الأولى هو تكوين مركز

للسلطة وحمايته، ومن هذا المركز تدمير أى محاولات لإنشاء حكومات بديلة بدون إثارة مشاكل. فى ٨ نوفمبر عام ١٩١٧ كون لينين لجنة من الكوميسار (حسب تسمية تروتسكي) تهدف إلى تحقيق تلك الأشياء. تقرر مناقشة الصلح مع القوة المركزية. منحت الحرية والصداقة لكافة الأعراق التى تتكون منها الدولة والتى أدمجتها الإمبراطورية القيصرية فى كيانها: الأوكرانيون، القوقاز، المتحدثون باللغة التركية فى وسط آسيا وسيبيريا. تقرر توزيع الأراضى على الفلاحين كما تقرر الاستيلاء على الصناعات وتأميمها. تقرر دفع كافة الديون الأجنبية، كما تقرر إنشاء إدارة صغيرة عرفت باسم «تشى ـ كا» مهمتها مراقبة أعداء الشعب والإشراف على أنشطتهم والقبض عليهم وتصفيتهم (أى جميع أعداء الحكومة البولشيفية)، وقد اتضحت أبعاد مهام هذه الإدارة تباعا.

كانت جميع أهداف الانقلاب متيسرة التحقيق ـ بخلاف المهام التى عهد بها إلى إدارة «تشى ـ كا». لم يكن هدف تلك الإدارة حماية الوطن بقدر ما كان حماية الحكومة. حطمت دعاية البولشيفيك جميع سلطات الحكومة المؤقتة، فقد تساوت الرؤس فى كل وحدة من وحدات الجيش والبحرية وفى كل إدارة من إدارات الحكومة وفى كل مصنع من المصانع المنتشرة فى أنحاء البلاد. كان لا بد من اتخاذ قرارات فى منتهى القسوة إذا أريد للمجاعة أن تعالج وللعدو أن يطرد من البلاد، وكان من المجمع عليه أن تعاد الهيبة والاحترام للسلطة. تمت انتخابات الجمعية التأسيسية فى ٢٥ نوفمبر وأشرف «تشى ـ كا» عليها وحصل البولشيفيك على ١٧٥ مقعدا من مجموع المقاعد البالغ عددها ٧٠٧ بالرغم من ضآلة أعدادهم فى البلاد. عندما جمع لينين المجلس فى ١٨ يناير ١٩١٨ رفض المجلس المقترحات التى قدمها إليه لينين. على الفور تم حل المجلس بالقوة ـ قوة تشى ـ كا، وهكذا انعدمت جميع أصناف المعارضة.. اتضح أن حزب البولشيفيك حزب لينين، صار الحاكم بأمره ـ وحده ـ فى البلاد، وأصبح هو أداة دكتاتورية البروليتاريا، وسقطت جميع القوى الأخرى ـ مثل المنشيفيك ـ جميعا فى بحر النسيان. أدركت جميع القوى الأحق لها فى البقاء فى الساحة تلك الحقيقة، واختفت من المسرح. تمتعت تلك القوى بالشرعية فى الوجود خلال فترة فى غاية القصر ـ من مارس إلى نوفمبر ١٩١٧. أما بعد ٨ مارس ١٩١٨ فقد صار حزب لينين ـ الذى أعيد تسميته إلى «الحزب الشيوعى الروسى» هو السلطة الوحيدة الباقية فى البلاد، والمكان الوحيد للنقاش والأساس الوحيد لتكوين الحكومة فى روسيا.

اضطر لينين وحكومته إلى التخلى عن بطرسبرج ـ تحت ضغط الغزو الألمانى، فانسحب من المدينة فى ١٠ مارس ١٩١٨ تاركا وراءه اتحاد نقابات عمال السكك الحديدية ذو اتجاهات وآراء المنشفيك، واختفى بعيدا عن العاصمة المكشوفة لأى عدوان، فى فندق فى موسكو. وفى شهر أغسطس حدث اعتداء فى موسكو جرح فيه لينين وقتل رئيس تشى ـ كا. تم إعدام ٦٠٠ مسجون وصار الإرهاب بغير حساب. تم تقسيم حكومة البلاد إلى ٢٥ حكومة منفصلة. استمرت جيوش روسيا

البيضاء فى الحرب بمساعدة الجيوش البريطانية واليابانية والتشيكية واستمر الجيش البولندى فى القتال تحت قيادة فرنسية وتم تدمير البقية الباقية من السلطة تحت تأثير أوامر البولشيفيك للضباط والمديرين والأخصائيين وكل من يستطيع إصدار الأوامر لإزالة كل آثار الحكومة المؤقتة. فى الحال شكل لينين «الجيش الأحمر» وأدمج فيه كافة قواد وضباط وأفراد حكومة القيصر وأدخلهم لحظيرة الحزب الشيوعى عام ١٩١٨. ثم اتبع هذا باحتضان الموظفين المدنيين فى الحكومة والجامعات والمدارس، ثم أدمج البوليس السياسى للقيصر فى جهاز تشى ـ كا بعد تغيير اسمه إلى OGPV ثم NKVD ثم MVD ثم MGB وأخيرا صار اسمه KGB، وبلغ تعداد قوته ٧٥٠٠٠٠ فردا ـ كان من الضررى ضمان سلوك الأفراد (وإن لم يتم ضمان اعتناقهم لمبادئ الشيوعية) ـ مثل ما حدث فى أيام الثورة الفرنسية وضع قوميسار شيوعى على رأس كل وحدة ليتجسس على كل أفرادها ويشرف عليهم ويضمن ضبط سلوكهم ويقصيهم عن مراكزهم عند الضرورة. يشرف على هؤلاء القوميسار أمين العمال أو أمين الفلاحين (حسب موقع كل وحدة) وكان بيد هذا المشرف العام نقل كل قوميسار من موقعه أو فصله حسب رغبته (أو حسب مقتضيات الحال)، وبهذا صار الجميع موظفين سياسيين خاضعين للاتهام بالخيانة العظمى، وعقوبتها الموت، بهذا الأسلوب ـ وبعد موت الكثيرين ـ تركزت السلطة فى أيدى أفراد قلائل من أعضاء الحكومة فى موسكو، وكان كل شئ يتوقف على إخلاصهم للينين وللحزب ولبعضهم البعض. صار الجميع فى ترقب وانتظار حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

لم تحل مشكلة العيش والملح بالضبط والربط وبالإخلاص للنظام وللقائد، فقد تداعى اقتصاد الدولة كلها بمصادرة الدولة للأملاك الخاصة. حدثت مجاعة فى البلاد تبعتها عصيان البحارة فى كرونستاد. قام بهذا التمرد نفس الرجال الذين كانوا سببا فى تنصيب لينين واستيلائه على الحكم. عكس لينين سياسته وسمح ـ فى مارس ١٩٢١ ـ بالرغم من معارضة زملائه فى الحزب لنشاط القطاع الخاص، وقد أتاح هذا الإجراء الحياة للحزب الشيوعى لتستعيد الدولة سيطرتها وتملكها لكل شئ فيما بعد. وفى نفس الوقت تمكنت الحكومة ـ بتضافر استراتيجيات وجهود العسكريين والسياسيين من أعضائها ـ من استعادة غالبية الأقاليم التى اضطرت للتخلى عنها مؤقتا. عادت أوكرانيا وروسيا البيضاء والقوقاز لسيطرة موسكو عام ١٩٢٣ واندمجوا فيما صار يعرف بالاتحاد السوفيتى، بينما لم يحدث أى تقدم فى بقية الأقاليم الغربية: فنلندا واستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا. أولا كان يسكن تلك الأقاليم أقوام من الطبقة المتوسطة الذين يتحدثون بغير اللغة الروسية، أقوام من المثقفين المتعلمين وذوى الأملاك الذين قاوموا السيطرة التى يفرضها الموظفون الروس ورفضوا السلوك الذى يتبعه الشيوعيون. كذلك استمرت جورجيا مستقلة لأربعة أعوام ولكن أمكن تحطيم مقاومتها بالقوة عام ١٩٢١، وكذلك بما فعله أعضاء الحزب والبوليس السياسى والجيش الأحمر

الجديد من عزل وإبعاد أى موظف فى حكومة جورجيا يرفض الخضوع لطلب إدماج الإقليم فى الاتحاد السوفيتى.

أصيب لينين بالفالج فى مارس ١٩٢٢ ثم توفى فى يناير ١٩٢٤، بعد أن أثبت نظرية جديدة وأفلح فى وضعها موضع التنفيذ وكون نوعا آخر من الحكومة من ذلك الصنف من الرجال الذين كانوا متوافرين فى ذلك العهد فى روسيا، ولم يكن الكيان يختلف كثيرا عن النظام الذى سبقه. تغيرت الأسماء ولكن بقيت المؤسسات والنظم على ما كانت عليه. شغل بنفسه مكان الحاكم التقليدى الأوتوقراطى الدكتاتورى فى روسيا، التى كان الاستحواذ على السلطة هو غايته الكبرى والتى يعمل على الاحتفاظ بها ما أمكنه، ولذا كان من الطبيعى أن يتمتع خليفته بالسلطان كله، ويسئ استعماله ـ كما أساء استعماله كل المنفردين بالسلطة من قبله (ومن بعده). منحته خاصته والمحيطون به الأقربون ـ أعضاء المكتب السياسى ـ من التدخل فى شئون الحكومة أو انتقاد تصرفاتها أو زيادة عدد أعضاء المكتب السياسى ـ بحجة الحفاظ على صحته ـ وهكذا وجد الدكتاتور نفسه محاطا بدكتاتورين مثله ـ من بين رجاله برز رجلان وجدا فى نفسيهما المقدرة على استكمال الدور الذى بدأه لينين: تورتسكى وستالين. كانا فى نفس العمر (حيث ولد كليهما عام ١٨٧٩)، ومن المحاربين القدماء الذين انخرطوا فى الدفاع عن أهداف الثورة منذ نعومة أظفارهما، ولكنهما اختلفا كثيرا فى طباعهما.

ليون دافيدوفتش بروتستين أو تروتسكى جاء من أوكرانيا، ابن فلاح يهودى يستأجر عمالا زراعيين. كان رئيسا لسوفيت بطرسبرج فى سنة الحرب، سنة ١٩٠٥. ولكن بعد حلول السلام عمل كصحفى، وسافر كثيرا فى أنحاء أوروبا وفى أمريكا. فى أيام الأزمة تردد فى التحالف مع لينين واستمر ـ فيما بعد ـ معتدا برأيه متمسكا بوجهة نظره. ولكن لينين عينه قوميسارا فى حكومته، أولا للشئون الخارجية ثم للشئون الحربية ـ حيث أنشأ الجيش الأحمر واستطاع قمع الحرب الأهلية. أما الرجل الآخر ـ جوزيف فيساديونوفتش دجوجا شفيلى ـ ستالين فكان من جنس آخر ومن طبقة أخرى. كان ابنا لأحد أفراد الجيل الأول من خدام الأرض المعتقين. كان ثوريا فوضويا مثيرا للجماهير من بدء حياته فى روسيا وكان يعمل دائما لتثقيف العمال سياسيا وتنظيمهم عندما كان يغادر السجن. بدأ حياته فى تفليس ثم غادرها سريعا إلى باكو، حيث بدأت صناعات استخراج النفط وتكريره فى الازدهار. فى تلك الأيام حفلت حقول النفط بالعديد من الأفراد، من مختلف القوميات، الذين احتشدوا لحاجة العمل إليهم. تعرف ستالين عليهم وخالطهم عن قرب. استمع ستالين إلى أقوالهم وأصغى إليها باهتمام، وكتب قليلا ولم ينبس ببنت شفة. اختاره لينين ليصبح قوميسارا للأقوام والجنسيات المختلفة عام ١٩١٧. فى هذا المنصب استطاع أن يخمد قومه فى جورجيا عن المطالبة بالاستقلال ـ كما شاهدنا ـ وتمكن من ضم جورجيا إلى اتحاد السوفييت. فى

عام ١٩١٩ اسند إليه ـ بالإضافة ـ عمل الاشراف على العمال والفلاحين، وبعد شهر من إصابة لينين بالفالج عينه المكتب السياسى فى المنصب ـ الذى يحتاج لجهد شديد ـ منصب الأمين العام للحزب.

كان تروتسكى محدثا لبقا، مثقفا، حاضر البديهة، معتدا بنفسه رغم سذاجته وبطلا شعبيا ورجل العالم، بينما كان ستالين المستمع الصامت، المبتعد عن الناس، بطئ التفكير والحركة واتخاذ القرارات، الحذر والحسود، المدير الكفء والمبتدع فى الخفاء. تحت تلك الصفات الظاهرة كانت هناك اختلافات فى الأسلوب وفى الهدف والسياسة كما كانت هناك اختلافات فى المنصب الذى حصل عليه كل منهما فى الحكومة الجديدة وفى جهاز الحزب الشيوعى، وتوقف على تلك الاختلافات مصير كل منهما ومستقبل الثورة الشيوعية ـ كانت تلك الاختلافات واضحة فى حياة لينين ولكن بعد وفاته تفاقمت الأمور. كان تروتسكى مسئولا عما يسمى فى حكومات البلاد الأخرى المناصب الوزارية الرفيعة وكانت إنجازاته واضحة للعيان فى جميع أنحاء العالم. أما ستالين فكان مسئولا عن الأعمال السرية التى تقدم أفضل الفرص لمن يشغلها من أعضاء المكتب السياسى الخمسة. كقوميسار للعمال والفلاحين ومشرفا عاما عليهم استطاع أن يستخدم كل إمكانيات الحكومة للتحكم فيهما. وكأمين عام للجنة المركزية للحزب الشيوعى كان هو الرجل المتحكم فيما يعرض على اللجنة من أمور فى كافة اجتماعاتها خاصة عند النظر فى تعيينات أو فصل أعضاء الحكومة. فى حكومات المجتمعات المغلقة تبين أن منصب سكرتير الحزب الحاكم هو رئيس الجهاز المتحكم فى شئون الدولة.

عانى رئيس الدولة ـ لينين ـ من نوبات متتالية من جلطة الدماغ، وكان يحتضر تدريجيا على مدى عامين ولكن ظلت الحكومة متماسكة طوال هاذين العامين. لم يكن يجمع أفراد الحكومة حب متبادل ولكن كان كل منهم يخشى من زملائه فالذى سيخلف الزعيم سيقتل الآخرين. كما لم يكن يحب أحد منهم الشعب الروسى ولا حتى الزعيم لينين، ولكن كان الجميع يتخوفون من بعضهم البعض، وزاد هذا الخوف كلما ساءت صحة الزعيم وتدهورت حالته. كان القياصرة دوما يتوجسون خيفة من الشعب ولكن الشيوعيين كانوا يخافون من أنفسهم. بالرغم من ذلك ظلوا متماسكين، فقد كان الحزب يجمعهم، ليس بالسلطة التى أضفاها عليهم ولكن بروح التآمر التى كان يتصف بها الحزب الشيوعى. التآمر صفة تصاحب السلطة فى كل الحكومات، ولكن السلطة كانت ـ فى تلك الحال ـ سلطة مطلقة وكان يمسك بزمامها رجال صقلوا على احتراف التآمر، ولذا جاءت لتسيطر على كل شئ ـ كانت تلك الصفة هى التى اختارهم لينين من أجلها والتى من أجلها وهبوا حياتهم المضطربة. استمر كل منهم تآمره على رفقائه، واعترف كل منهم بتفاصيل المؤامرات التى حاكها لزملائه فى اعترافاته العلنية فيما بعد.

لم يكن هذا يعنى أن ستالين استطاع أن يقبض على السلطة بمجرد وفاة لينين. ولكن بعد خمس سنوات من الحركات والتآمر استطاع ستالين أن يكون الخليفة الأوحد للينين. أبعد تورتسكى كما أبعد واحدا تلو الآخر من بقية الزعماء المحتملين، وحشد كل أعوانه فى المكتب السياسى للحزب وفى البوليس السياسى وتمكن فى عام ١٩٢٩ أن يصبح الزعيم الأوحد للاتحاد السوفيتى والخليفة الوحيد للينين الذى يقبض على كل السلطة بين يديه. صار أولئك الذين عينوا أصلا لخدمة الحكومة وللحفاظ عليها هم الحكومة نفسها والمتحكمين فى الدولة. صار العبيد هم السادة وصار المماليك هم السلاطين. نشأت دولة بوليسـية، كما لم يتوقع كل من كارل ماركس وفلاديمير لينين، المفكر ذو الرؤية المستقبلية والسياسى الداهـية. أثبت سكرتير الحـزب، الذى لم تبـدو عليه مخايل الفطنة طوال شغله لهذا المنصب، أنه الزعيم الذى لا يكل والقائد الذى لا يمل ليخضع المجتمع بأكمله لسيطرته المطلقة.

كان هدف الزعماء الشيوعيين أثناء خلقهم لدولتهم فك أواصر كافة الديانات لتعلو الشيوعية فوقها، سواء كانت مسيحية أو مسلمة أو يهودية. أنشـأوا متحفا يبشر بعدم وجود إله فى كتدرائية القديس اسحاق فى بطرسبرج التى أعيد تسميتها لتصير لينينجراد، ليتعلم فيه المواطنون. أحيطت قبة الكنيسة بكتابات من حروف الذهب تقول أن الدين هو أفيون الشعوب. ولكن ظل عامة الشعب ـ الذين يرون أن القيصر هو ظل الله فى الأرض ـ يؤمنون بأن قديسيهم ما زالوا شهودا على حب الله لهم حتى بعد موت هؤلاء القديسين وأن موسيقى الكنائس ـ التى كانت تبلغ ذروتها فى عيد القيامة ـ هى الدليل على وحدة الأمة بأسرها. كانت كتابات ماركس وانجلر العقلانية ـ التى كانت ترضى أعضاء المكتب السياسى ـ وهم فى الأصل مفكرون عقلانيون تم استبعادهم ـ لم تكن كافية لإشباع الحاجات الوجدانية لجماهير الشعب ـ كان موت لينين مبررا كافيا لخلفائه لإرضاء الشعب بإعطائهم ما يريدون. كان ستالين قد قضى خمس سنوات أيام شبابه فى مدرسة دينية يديرها رهبان روس فى مدينة تفليس، وتم فصله فى مايو عام ١٨٩٩. كان ستالين هو المحرك لتقديس لينين بين أعضاء المكتب السياسى الفوقيين وبين جماهير الشعب السانجة تحته. خطط ونفذ تحنيط جسد لينين ليحافظ عليه إلى الأبد، وبنى له قبرا عظيما ليكون مركز لاحتفال ضخم يقام سنويا لتخليد الثورة تحت جدران قلعة عظيمة. كانت هذه هى الخطوة الأولى لخلق ديانة شيوعية جديدة. وكانت الخطوة التالية فى بدع تلك الديانة هو إعداد نفر للتبشير بهذا الدين الجديد وإعداد الكتابات والشعارات التى أخذوا يكررونها بلا ملل المرة تلو المرة بطريقة عاطفية تثير وجدان الجماهير وبعيدة كل البعد عن الفلسفة الجامدة للشيوعية. وقد قرأ ستالين تلك الوثيقة أمام مؤتمر السوفييت بعد خمسة أيام فقط من وفاة لينين. عارض كثير من الشيوعيون القدامى ـ ومنهم أرملة لينين نفسها كروسكايا ـ

استخدام أساليب الدين فى الدعاية للشيوعية فتنازل ستالين عنها جزئيا واتبع طريقا آخر ثبت أنه أكثر فاعلية وأشد تأثيرا. فقد نصب لينين نفسه ـ كالمصدر الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ كأساس للعقيدة الشيوعية، ولم يجرأ أحد من أخلص أتباع لينين على الاعتراض على هذا الأسلوب. أصبحت كتابات لينين وأقواله وأحاديثه هى كتابات الشيوعية المقدس وبذا نشأ دين لينين، الذى أصبح عقيدة الحاكم الحالى ـ ستالين نفسه. أتم ستالين تخطيط وتنفيذ سياسته فى خمس سنين، فشل المكتب السياسى للحزب واللجنة المركزية والبوليس السياسى الذى يراقب جميع المواطنين ـ وعلى الأخص الزعماء فى القضاء على تلك السياسات ـ وهكذا ضمن بدون منازع ـ مركز خليفة لينين الذى لا يجرؤ أحد على منافسته فيه. كان أى رأى أو عمل يخالف خط الحزب ـ الذى كان فى حقيقة الأمر خط القائد نفسه وفكره ـ يعتبر انحرافا عن المسيرة مصير من يفعله الطرد من الحزب وفقدان الوظيفة والإبعاد إلى معسكرات العمل حيث يعاد «تأهيل المجرم» إذا بقى على قيد الحياة. وكانت هذه هى الوسيلة التى ثبت بها ستالين ثورة لينين.

بعد أن تمكن ستالين من حل مشاكله الشخصية على هواه تحول إلى المشاكل الكبرى. تبين أن البرنامج الذى وضعه مع تروتسكى صعب التنفيذ ووضح أن على الحكومة السوفيتية أن تتفرغ لإصلاح الأمور فى دولتها قبل أن تبدأ فى نشر الفكر الشيوعى فى العالم، وأن عليها أن تلتفت لتطوير الزراعة المتخلفة وتحديث الصناعة المتهرئة فى البلاد قبل أن تهرع للتبشير بالشيوعية فى العالم على اتساعه. كان تورتسكى ـ قبل لينين ـ مؤمنا بحتمية الحل الشيوعى فى العالم بأسره وكان هذا يتماشى مع شخصيتهما وعبقريتهما وخبرتهما قبل وبعد الثورة. أما ستالين فكان غير مؤهل لتفهم أو تنفيذ مثل هذا البرنامج، فلم يكن يدرى عن أى شئ فى العالم خارج روسيا. وبالتدريج تباعد عن ذهنه وعن نظره التفكير فى الأمور خارج بلاده. فرصها وخطورتها، وقربت إلى فكره المشاكل الداخلية ولاحت أمامه الفرص المتاحة وتهددته المخاطر المرتقبة. وفى عام ١٩٢٩، وقد تهددت المجاعة البلاد لم يكن أمام الحكومة سوى استجداء الطعام والنقود من الخارج.

كانت الحكومة قد سلمت الأراضى الزراعية فى البلاد للفلاحين، وبحلول عام ١٩٢٨ صار بيد ٢٥ مليون فلاح إشباع ١٠٠ مليون مواطن بما يحصدونه من حقولهم، وعلى مجهودهم وعملهم تتوقف حياة كل المواطنين ويعتمد بقاء الدولة. من بين المزارعين كانت هناك طبقة لا تتجاوز ١٠٪ من الناجحين الذين برعوا فى الإدارة وفى استخدام الأدوات الحديثة التى كانوا يستطيعون شراءها وفى تشغيل العمال الزراعيين بكفاءة، وهؤلاء كانوا «الكولاك». وعلى النقيض كان هناك ٢٥٪ من الفلاحين المتخلفين الذين ما برحوا يستخدمون الأدوات الزراعية البدائية ويستعملون خمسة ملايين محراث خشبى من صنع أيديهم من الطراز العتيق. وبين أولئك وهؤلاء كانت غالبية الفلاحين. منذ تحرير عبيد

الأرض ـ قبل جيلين ـ انقسم المزارعون إلى طبقات لاقت درجات مختلفة من النجاح فى التغلب على مشاكلهم الزراعية عندما يفلحون أراضيهم. وبعد عشر سنوات من طرد السادة غرق غير الأكفاء ـ بعد زوال الحماية ووقف المساعدة وانقطاع المشورة ـ فى بحر عميق من الفشل. كان الحل الواضح هو تزويد المزارعين بالآلات الحديثة وإعطائهم النصح والمشورة ممن يفهمون ويجيدون الزراعة. كان الحل الواضح هو تمكين «الكولاك» من إدارة المزارع التعاونية الجماعية والسماح لهم باستخدام أدواتهم وآلاتهم ولكن الحكومة لم تمكنهم من خوض التجربة لخشيتها على النظام الاشتراكى ولم يثق «الكولاك» بدورهم فى حكومة اشتراكية. صادرت الحكومة أدواتهم الزراعية ووضعت المزارع تحت إدارة أشخاص لا يتمتعون بالخبرة والكفاءة ولكنهم يحظون بثقة الحكام، أى وضعت الدولة تحت إدارة أهل الثقة لا أهل الخبرة. وعانى أهل الثقة هؤلاء من بطش الحكام، ففى خلال خمس سنوات تم إبعادهم ونفيهم أو قتلهم. كذلك صدرت الأوامر بذبح كل الماشية وبقية الحيوانات. قاوم الفلاحون جميعا تلك الاجراءات وعلى رأسهم «الكولاك» فقاموا بذبح نصف عدد الحيوانات فحسب ونتج عن ذلك أن عانت البلاد كلها ـ باستثناء أعضاء الحزب ـ من المجاعة.

تم الانتهاء من إنشاء المزارع الجماعية خلال عشر سنوات ـ بعد هذه التكلفة المهولة ـ وتحقق من إنشائها هدفان: الملكية العامة ومنع الاتجار الخاص، كما تمت سيطرة الدولة ـ بواسطة الحزب الشيوعى ـ على المزارعين. نتج عن هذا تغير جذرى فى طبائع مجتمع الفلاحين: فى خصالهم وقدراتهم وأفعالهم، وحدث لهم تحول فى كل تلك الصفات إلى الأسوأ. دمر هذا التحول الرجال، ولم يتيح لهم فرصة إتقان الطرق الحديثة للزراعة المتسعة بل قتلها قتلا. لم يتبق سوى أولئك الرجال الذين استمروا يعملون بأنفسهم عملا شاقا مضنيا مستمرا ـ كشأن الفلاحين منذ أن نشأت الزراعة ـ ولكن لم يسمح بالغالبية العظمى من الفلاحين الاستمرار فيما نشأوا عليه. وجد النظام الشيوعى أن فكرة المزارع الجماعية فلسفة خاسرة ولذا سمح للفلاحين بزراعة مساحات صغيرة من الأراضى لأنفسهم وبتربية أعداد قليلة من الحيوانات لهم خاصة. وبعد ثلاثين عاما (أى فى عام ١٩٦٧) ـ بعد وفاة ستالين وإخوانه من أصحاب فلسفة المزارع الجماعية ـ صار ثلث الإنتاج الزراعى والإنتاج الحيوانى فى الاتحاد السوفيتى من ثمرة هذه المزارع الخاصة. ولكن نوعية الناتج لم تختلف كثيرا عن نوعيتها أيام الحكم القيصرى. وهكذا نتبين أن الميكنة والزراعة التعاونية والفلاحة الجماعية التى أضافت الكثير من الإنتاج الزراعى فى البلدان التى تؤمن بالتخصص عادت بأفدح الكوارث عندما تم تطبيقها بالقوة وأدارتها الدولة فى الاتحاد السوفيتى، وتركت الاتحاد السوفيتى فقيرا كما كان بعد المعاناة الإنسانية ـ من الدكتاتورية والتسلط ـ التى لم يعانيها شعب آخر. على سبيل المثال كان إنتاج القمح ٨٦ مليون طن فى روسيا فى عام ١٩١٣ وبلغ ٩٥ مليون طن فى عام ١٩٤٠ وانخفض

إلى ٨٠ مليون طن سنويا فى الأعوام من ١٩٥٠-١٩٥٣. ولكن حدث العكس فى البلدان الرأسمالية فقد أثمرت الأبحاث العلمية والتطبيق التكنولوجى لتلك الأبحاث عن النمو المطرد والسريع للإنتاج الزراعى. ويرجع ذلك إلى الانتقاء المستمر للمزارعين الأكفاء الذى سمح به النظام الرأسمالى واستبعده عن عمد النظام الشيوعى. (بالإضافة للفلسفة الشيوعية التى فرضت عمدا على الشعب، فرضت على الاستيلاد الحيوانى والتكاثر النباتى أساليب تتمشى مع النظرية الماركسية واللاماركية فى الوراثة، حبذها تروفيم ليسنكو الذى اتخده ستالين رئيسا لأكاديمية لينين للعلوم الزراعية لمدة خمسة وعشرين عاما وصار بمثابة راسبوتين العلوم البيولوجية للدكتاتور الجديد). فرض ستالين سياسة زراعته التى تتمشى مع نظرة لينين بالتخطيط المركزى والملكية العامة للدولة للصناعة. اتخذ ستالين لنفسه نموذجا من الذى شاهده يطبق فى البلاد الرأسمالية الغربية قبل وأثناء الحرب. طبق ستالين تلك النظم على نطاق أشد اتساعا وأكثر طموحا ليتمكن من تطوير الصناعة الروسية لتتساوى مع الصناعة فى الدول الرأسمالية الغربية بدون الاستعانة برأسمال مختزن كما فعلت دول الغرب، ولكن بمعاناة وطموح وجهد العمال أنفسهم. حدثت طفرات هائلة فى الصناعات الثقيلة اللازمة لإدارة الفلاحة وإدارة الحرب بين عامى ١٩٣٩ و١٩٤١ عندما هاجم الألمان الاتحاد السوفييتى، ولكن تم دفع ثمن باهظ لتلك الطفرات، كما حدث فى الصناعة الإنجليزية فى بدايتها، من استغلال جهد العمال وعرقهم وليس من أرباح الصناعة. وكلما كان التطور سريعا كان الاستغلال عظيما أيما كان المستغل: رأس المال الخاص فى الصناعة فى بلاد الغرب أو ستالين نفسه بصفته قائدا للدولة الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى. وفى خلال تطويره للصناعة فى روسيا وتحديثه للمجتمع الروسى أدخل ستالين عاملا بارزا فى سيطرته على التطور وهو سيطرة الدولة على التخطيط وعلى الإدارة. كانت سيطرة الدولة منفردة شرطا من شروط تحقيق الشيوعية فى البلاد. بداية من عام ١٩٣٠ قيدت الحكومة مداخل ومخارج الدولة الشيوعية. بدأ الأوتوقراطيون القدامى فى منع دخول وخروج المواطنين وفى منع دخول المعلومات إلى الدولة، ثم زاد الأوتوقراطيون الجدد فى منع دخول الأجانب إلى البلاد وفى منع خروج المعلومات من البلاد. صارت روسيا بهذا منفصلة عن العالم ومقيدة وسجينة. أضفت تلك القيود ـ التى لا يمكن اختراقها ـ على روسيا أمانا وحماية على النظام السياسى والعسكرى بها وبهذا صار من غير الممكن تكرار أى نشاط ثورى بها. وقد أدى هذا إلى مكاسب سريعة ومزايا عاجلة ولكنه عاد عليها فى النهاية بخسارة عظيمة وأضرار آجلة أخذت تتراكم عبر السنين.

خلال ألف سنة أدى اكتساب أفراد جدد ـ حتى فى أقصى فترات الحكم القيصرى قسوة وأشدها عنفا ـ إلى خلق مهارات تقنية وإلى تكوين طبقات مهنية داخل المجتمع الروسى. وقد توقف

كل هذا فجأة وجف الينبوع الذى كانت تأتى منه جماهير البشر سهلة التنقل من مكان لآخر وتجدد أنفسها ويتجدد نشاطها. أدى هذا الجفاف إلى معاناة نصفى العالم، ولكن كانت المعاناة أساسا من نصيب الجزء الأصغر الذى يحوى سدس سكان العالم. لتخفيف تلك المعاناة كسرت الثورة الحواجز القديمة بين الأجناس والطبقات. أصبح اليهود والأرمن والبولنديون والفنلنديون والجورجيون يملئون المراكز القيادية فى الدولة والحزب وصاروا - لبضع الوقت - جزءا من المؤسسة الروسية السياسية والمهنية والأكاديمية. بعد قليل، بدأت القيود تفرض على اليهود، وعادت الغطرسة الروسية للبروليتاريا هى المتحكمة فى الأمور. صار اليهود يحملون خطورة على الدولة: لبعضهم معتقدات دينية لا يتخلون عنها ولآخرين ارتباطات أجنبية أو عالمية. فى نفس الوقت رفض أعضاء الحزب الشيوعى - بما لهم من وضع متميز فى المجتمع - إطلاق الحرية الاجتماعية على عواهنها بعد أن اكتسبوا تلك الأوضاع المتميزة. وقد لاحظ تروتسكى أولا كما لاحظ دجيلاس فيما بعد أن أعضاء الحزب الشيوعى صاروا طبقة حاكمة جديدة منفصلة عن الشعب ولهم جميعا أفكار شيوعية وينتمون للجنس الروسى ويتحدثون باللغة الروسية ويودون الاحتفاظ بمراكزهم تلك بعيدة عن الانتقاء الطبيعى بآثاره التى قد يفقدون فيها مراكزهم وسلطاتهم والتى يتعرض لها سائر أفراد الشعب.

اكتسبت المؤسسة الشيوعية الجديدة الحاكمة صفات مختلفة عن كافة الطبقات الحاكمة فى التاريخ. كان ماركس - كما كان لينين - يعتقدان أن مسار الثورة الطبيعى هى فى كراهية الجماهير لحكامهم وفى الصراع الذى يتلو انتزاع السلطة منهم ولم يدر بخلد أحد منهم أن الصراع يتلوه التهجين وليس انتزاع كافة السلطات من الطبقات الحاكمة فحسب. بهذه العقيدة الخاطئة تأخرت العودة إلى الوضع السوى لأجيال وتعطل الإبلال من آثار عملها لسنوات طويلة.

فشلت الثورة الروسية فى تحقيق ما كان يتطلع إليه لينين. ويرجع هذا جزئيا من خشية الحكام من التدخل الأجنبى ومن خوفهم من الغزو الخارجى. لجأ ستالين بين الأعوام ١٩٣٥-١٩٣٨ إلى الاستغناء عن عدد كبير من كبار الموظفين ومن كبار ضباط وقادة الجيش - كجزء من هذا الخوف. لجأ القادة الشيوعيون إلى هذا الإجراء الخاطئ للاستعانة بأهل الثقة بعيدا عن أهل الخبرة. حدث كبت للآداب والفنون وقمع للعلم والعلماء كما حدث كبح لكافة أنشطة الطبقات المهنية، وجاء هذا الاضطهاد من احتقار القادة الشيوعيين لهؤلاء الأفراد وللطبقة التى ينتمون إليها. ولكن عندما حلت أزمة الحرب العالمية الثانية - عام ١٩٤١ - أدرك الحكام أن عليهم أن يدفعوا ثمنا لهذه السياسات الخاطئة، فاستبدلوا كبار الضباط الشيوعيين بقادة من الأكفاء - أصحاب الخبرة - لجأوا للاستغناء عن أهل الثقة وأعيد انتصار عام ١٨١٢ بعد كوارث الهزيمة التى أحدثها القياصرة فى أعوام ١٨٥٥

و١٩٠٤ و١٩١٥. فى سبيل النصر تخلى ستالين عن مبادئ كارل ماركس ولينين أثناء الهجوم على ستالينجراد الذى حدث فى شتاء عامى ١٩٤٢ و١٩٤٣.

تحت حكم لينين حدثت تفرقة مالية ومنحت امتيازات خاصة لأهل الثقة وصارت عرفا. ولكن عندما أكب ستالين على تصنيع البلاد واندفع فى هذا السبيل بأقصى قوته اضطر إلى إحياء التنافس بين ذوى المقدرة ليضمن كفاءة الصناعة وجودة المصنوعات حتى تتفوق على إنتاج الغرب. وفى الجيش استعيدت الأوسمة والنياشين على السترات العسكرية تمنح للمتميزين من رجال القوات المسلحة وللتفرقة بين سترات الضباط والجنود وأعيد تسمية الكتائب والفرق باسم عظماء القادة مثل سوفوروف أو كوتوزوف من جنرالات العهد البائد، وأعيد تشكيل كتائب الحرس الجمهورى على نظام كتائب الحرس الإمبراطورى السابق واستعاد الجيش الأحمر ـ الذى بدأه تروتسكى ـ مهمته فى إعادة إحياء وتنظيم الجيش الروسى. بعد الانتصار على ألمانيا الهتلرية النازية بدأ الجيش فى غزو الأقطار الأرثوذكسية فى البلقان وضمها إلى مجال نفوذ الاتحاد السوفيتى، وكذلك بدأ دكتاتور روسيا فى احتضان الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ـ بعد أن بقيت فى الظل والنسيان والامتهان لمدة خمسة وعشرين عاما.

هكذا عادت القومية واستعادت الوطنية مكانها فى تاريخ روسيا بعد إهمالها لسنين طويلة ـ بدأ التنافر العرقى بين مختلف القوميات التى يتألف منها الاتحاد السوفيتى فى الظهور بعد كبتها منذ عام ١٩١٧، واعترفت الدولة بها وقبلتها. كما بدأت الدولة فى قبول طبقات فى المجتمع السوفييتى وشجعت الدولة الفروق الطبقية. بدأت الدولة تقبل الخرافات ـ إذا ما كان لها مصلحة فى انتشارها ـ كما بدأت فى التخلى عن الأفكار الشيوعية وفى طرحها جانبا وفى تبنى آراء تجمع بين أفكار البروليتاريا ومعتقدات البورجواز التى تجمع بين المحافظة والتعلق بكل ما هو قديم من آثار المجتمع الرأسمالى الإمبريالى.

فى سبيل المحافظة على الوطن الأم للدولة الشيوعية طرح قادة الشيوعية الجدد أفكار الآباء الشيوعيين القدامى جانبا وتمت التضحية بتلك المبادئ. كان الآباء الشيوعيون يرفضون مبدأ القتل، فتم قتلهم جميعا. مع التخلى عن المبادئ تم اعتناق ديانة جديدة بسرعة فائقة فى نفس الوقت الذى تخلى القادة الجدد عن المذهب الجديد. بعد مرور خمسين عاما على الثورة الشيوعية فى روسيا يمكن أن نتعلم منها على طبيعة النفس الإنسانية أكثر مما تعلمنا من سابق فصول تاريخ البشرية كلها. لم يحدث فى السابق محاولة لتغيير صفات مجتمع من المجتمعات بهذه الدرجة. خططت المحاولة على أساس معرفة مسبقة بسابق محاولات التاريخ وجرت بمنتهى المهارة والحذق، وبعقدة،

وبحمية وعنف لم يسبق لها مثيل. وبعد مرور كل هذه السنين لم تتغير طبيعة البشر فى روسيا ولا معتقداتهم ولم يتم إنجاز أى شئ يذكر، بل كان إنجاز الدول من حولهم أكثر نجاحا فى حين لم يتعرض الإنسان فيها لتلك الدرجة من العنف.

إذا شبّ المرء فى مجتمع تتجه فيه الطبقات الجديدة إلى التصنيع وحسن الإدارة وجودة التعليم، طبقات جديدة تهجنت مع الطبقات المهنية القديمة، يقف على قمتها الحزب الشيوعى المختار بعناية بناء على مقدرة أفراده على تشغيل جهازه الخاص، ويبقى الفلاحون على حالهم فى قاع المجتمع رغم تواجد المواهب غير المستكشفة بين أفراده على كثرتها، فإن مصير هذا المجتمع هو الضياع. وبالرغم من محاولات قادة هذا المجتمع على تغيير تركيبته وعلى تغيير سلوك أفراده فى الاتجاه الذى قادهم فيه أولئك القادة فإنهم لم يفلحوا. حاولت التجربة الماركسية العظمى تحويل مسار التاريخ أو الإسراع به عن تغيير حياة الأفراد وتعديل العلاقات بين مختف الأجناس والأمم والطبقات. اعتقد لينين أولا أن بإمكانه إزاحة طبقة حاكمة عفا عليها الزمن بالقوة وإحلال مجموعة حاكمة جديدة محلها يجمعهم تفهمهم للنظرية الماركسية. وقد نجح فى هذا الشأن ـ كما سبق ونجح أسلافه الاشتراكيين المعتدلين. اعتقد لينين ثانيا أن بإمكانه فعل نفس الشئ فى العالم على اتساعه ولكنه نجح فى روسيا فقط لأن الطبقات الحاكمة فى سائر دول العالم لم تكن بالية وكانت تتطور ببطء وتتبدل بتؤده وتتغير بالتدريج بالتهجين وبالتكيف، ولم يعد التركيب الطبقى معتمدا على أصول جينية فحسب كما كان يعتقد ماركس ولينين خطأ. اتبعت الصين نفس المسار ـ رغم أن التغيير فيها لم يكن متوقعا ولكن سرعان ما تضاربت مصالح الدولتين الشيوعيتين فى العالم. ونجح ستالين فى المقام الثالث فى خلق دولة صناعية ـ كما حدث فى البلدان الأخرى ـ معتمدا على التخطيط والضبط المركزى متبعا نفس أساليب أسلافه القياصرة وناقلا تجارب البلدان الغربية بدلا من الابتكار ومستغلا العمال قاهرا لهم كما حدث فى المجتمعات الغربية فيما مضى. وفشل ستالين ـ رابعا ـ فى تطوير مجتمع الفلاحين فى الاتحاد السوفيتى ـ بأفدح مما فشل فيه النظام القيصرى السابق. لم يتمكن ستالين ونظامه من قيادة الفلاحين بأكثر مما أتاحته لهم قدراتهم ولم يمكن تطويرهم بأبعد مما هيأته لهم ملكاتهم، التى لم تتغير بسرعة تغير زملائهم أهالى المدن. ولم تتمكن أى قوة على الأرض أن تسارع بإحداث هذا التغيير. وفى المقام الخامس، تمكن ستالين تحت ضغط الصراع العالمى من التخلى عن الافتراضات الماركسية لتركيبة المجتمع الذى وضعه على قمته. المساواة والعقلانية بديلا عن الدين، والعالمية بديلا عن القومية المحلية ذهبت كلها هباء لضمان مركزه وسلطانه وتربعه وحيدا بلا منازع على رأس الدولة وللحفاظ على حزبه الشيوعى الحاكم. كان لديهم نظرية للمجتمع وحكومة للاتحاد السوفييتى تضارعان النظم المسيحية القديمة والدول الرأسمالية. وتصارع النظامان فى كافة

أرجاء العالم ولكن كان النظام الشيوعى هو الأكثر انضباطا. وأخيرا بكل ما حوته قوتهم وقدراتهم، أثبت لينين وخلفاؤه أن الرجال العظام هم الذين بيدهم تحريك مسار التاريخ.

للرجال العظام آثار واضحة ـ كما أن للرجال الصغار فى المراكز العظيمة ـ نفس تلك الآثار. فبدون نيقولا الثانى ـ الذى وصفه التاريخ بالرجل التافه الإمّعة ـ لم يكن للينين أن يجد مكانا فى التاريخ. الرجال العظام يحدثون ـ درجة ما ـ الآثار التى سعوا لإحداثها ولكن آثارهم لا تجد تحقيقا لها إلا فى المجالات التى يعرفون الكثير عنها ويتوقعون لها النجاح. حدثت تلك التوقعات فى مجالى العلم والتقنية، وفى هاذين المجالين تزداد التوقعات وتزداد الانجازات الناجحة المتوقعة. توهم كل من ماركس ولينين أنهما يدريان الكثير عن دراسة المجتمع وتوقعا توقعات مختلفة وأتت النتائج بغير ما توقعا. تهيأ لهما أن الأفكار هى التى تشكل المجتمعات وأنهما يستطيعان التحكم فيها وضبطها ولكن جاءت النتائج بخلاف ما توقعا. كان كل من ماركس ولينين سابقا للتاريخ، ليس كسبق وايكليف وسرفيتس اللذين كان لديهما أيضا الأفكار الصحيحة التى سبقت زمانهما بقرن كامل، ولكن كان سبقهما لعهدهما قبل أن تتطور المعارف وتعطى الأساس اللازم لتطبيقها أو الإشارة إليها.

الباب الثاني عشر

عوالم منفصلة

أولا: أمريكا

دخل أول إنسان إلى أمريكا من شمال شرق اسيا عبر شريط من الأرض يعبر مضيق بيرنج خلال عصر الجليد الأخير (حوالى ١٢ ألف عام قبل مولد المسيح). بدأت موجات من الصيادين تتخلل أمريكا الشمالية وتقطن فى الأماكن غير المغطاة بالجليد. قابل الصيادون جماعات كبيرة من الحيوانات آكلة العشب: الماموث والجمل والفرس والبيزون، وخلال ستة آلاف عام تم القضاء نهائيا على خمسة وثلاثين نوعا من تلك الحيوانات فى أمريكا الشمالية. تكاثر الإنسان بينما انقرضت مجموعات كبيرة من الحيوانات.

تم القضاء على الحيوانات بسرعة فى العالم الجديد بينما بقيت على قيد الحياة فى العالم القديم لصغر مساحة العالم الجديد وسهولة الاتصال بين أرجائه المختلفة. ثانيا نظرا لطول مدة بقاء الإنسان فى العالم القديم فقد وصل إلى نقطة توازن وتكيف مع ضحاياه وأعدائه وأمراضه بينما كان اختراقه للعالم الجديد حربا على ضحاياه وأمنا له من أعدائه وأمراضه ـ حتى لاقى الإسبان.

كانت هذه هى بداية حياة الإنسان فى أمريكا. وصل خلال ثلاثة آلاف عام إلى الطرف الجنوبى فى أمريكا الجنوبية ثم بدأ فى احتلال جزر البحر الكاريبى. تتابعت موجات المهاجرين والغزاة من الجنس المغولى، ذو السحنة الصفراء فى خضرة، التى تشابه لون الزيتون الأخضر، وذوى الشعر الأسود الناعم وذوى العيون المطوية. آخر تلك الموجات كان الاسكيمو الذين استوطنوا ألاسكا والسواحل الشمالية لكندا فى الألف سنة التالية لميلاد المسيح. أولئك هم مجموعة البشر الذين استوطنت جماعة منهم جرينلاند فى القرن الرابع عشر الميلادى ـ اسكيمو القطب الشمالى والذين ظلوا منعزلين تماما من بقية البشر لخمسة عشر جيلا، ويعتبرون من أنقى صنوف البشر عرقيا. كانت غالبية هؤلاء البشر من الجنس المغولى منفصلين عن بقية سكان العالم القديم بانعزالهم فى القطب

الشمالي. ظلوا على مدى خمسمائة جيل محتفظين بسحنتهم المميزة وشعرهم الأسود الناعم وذقنهم الغزيرة وأحيانا بلون جلدهم الداكن. ما زال سكان فنزويلا الأصليين يصبغون وجوههم ـ مثل عرب حضرموت ـ وقاية لهم من أشعة الشمس. اختلف الأمريكان كثيرا فى كثير من الوجوه بعد زيادة أعدادهم فى مساحات شاسعة. اختفى عامل الانتقاء الطبيعي. عدم إصابتهم بأمراض العالم القديم كانت عاملا آخر. اختفت بعض فصائل الدم الموجودة فى إنسان العالم القديم بالإنتشار السريع للإنسان فى العالم الجديد. ظهرت تكيفات جديدة من الحياة فى أعالى جبال الأنديز ومن المعيشة فى الغابات الاستوائية أو فى الصحارى الكبرى فى الشمال والجنوب. وكان العامل الأساسى فى الاختلاف هو البرزخ الضيق التى يصل أمريكا الشمالية بأمريكا الجنوبية الذى كان على جميع من دخل أمريكا الجنوبية أن يعبره.

ظهرت الزراعة فى العالم الجديد فى نفس وقت ظهورها فى العالم القديم، مع بدء تراجع الجليد، وبدأت فى الأماكن التى كان على الناس أن يتجمعوا فيها نتيجة نقص مساحات الأرض. انفصلت تلك الأماكن عن بعضها البعض بالجبال العالية والغابات الكثيفة والصحارى الجافة، وبعدت عن بعضها البعض كثيرا. تختلف الأربعة آلاف ميل المتعرجة الممتدة من أريزونا إلى بوليفيا اختلافا حادا عن الألف ميل الممتدة بدون عوائق فى الهلال الخصيب. ظهرت الزراعة فى أمريكا فى أمكنة متفرقة يقطنها إناس مختلفون، اختص كل منهم بزراعة أنواع خاصة من المحاصيل، ثم زاد تنوع تلك المحاصيل حتى تتمكن من الإبقاء على حياة البشر، لأن أيا منها لم يكن له تلك الصفات الغذائية المتكاملة للقمح أو للأرز الذين استزرعهما الإنسان فى العالم القديم. ظهرت الأذرة والبقول والقرع كنباتات برية أكلها الإنسان فى المكسيك حوالى خمسة آلاف عام قبل الميلاد، وقد حمل الإنسان القرع ـ ومنه القرع العسلى ـ جنوبا أثناء ترحاله وتم تهجين ثم اختيار أنواع معينة منه لاستخدامات مختلفة فى مرحلة مبكرة. نفس الشئ حدث فى البطاطا التى نشأت من تضاعف عدد الكرموزومات من بعض الأنواع البرية المختلفة. توصل الإنسان القديم إلى جمع عدد من النباتات المختلفة التى تحوى التوابل والشراب والسموم والعقاقير، ثم انتشرت تلك النباتات بين بنى البشر بالسرعة ذاتها التى انتشرت بها نباتات التغذية. وهكذا، بحلول الألف سنة الثالثة والثانية قبل الميلاد هيأت تحركات البشر إلى حدوث اختلافات فى الأعراق البشرية وفى المحاصيل الزراعية وفى المخترعات التقنية ـ خاصة صناعة الفخار ـ التى بنيت عليها فيما بعد حياة القرى والمدن. الظاهر أن نباتات المنيهوت والبطاطا والطباق والكاكاو انتقلت فى الاتجاه المضاد لتحرك البشر، فقد انتقلت من الجنوب من بيرو شمالا إلى المكسيك فى الألف سنة الأولى قبل الميلاد حينما أنشئت أول دولتان فى أمريكا: فى بيرو وفى المكسيك. بينما فشلت محاصيل أخرى فى الانتقال عبر برزخ بناما ـ مثل البطاطس ـ التى لم

تصل إلى أمريكا الشمالية حتى أحضرها الإسبان إلى فلوريدا وأدخلها الإنجليز إلى فيرجينيا. كذلك عادة التدخين ـ التى نقلها المستوطنون من المكسيك عبر نهر المسسيبى لم تجد طريقها ثانية إلى بيرو الوطن الأصلى لنبات الطباق حيث ما زال السكان الأصليون يستنشقونه كنشوق. كذلك حيوانات اللاما وخنزير غينيا ظلت حيوانات بأمريكا الجنوبية والديك الرومى بقى بأمريكا الشمالية. تشير القرائن أن تلك التحركات لم تنشأ من انتقال البشر عن طريق الأرض ولكن نتيجة رحلات صيد سمك غرقت فيها السفن وتمكن الأشخاص من بلوغ الشواطئ على سواحل المحيط الهادى. كذلك انتقل الأناناس من البرازيل عبر جزر البحر الكاريبى إلى المكسيك. بخلاف تلك التنقلات بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، حملت تنقلات أخرى نباتات وحيوانات أخرى إلى أماكن بعيدة عبر المحيط ــ حمل البحارة أصناف البطاطا المحسنة فى الألف سنة السابقة لمولد المسيح إلى جزر البولونيز حيث بدأوا فى زراعتها وفى تكوين مجتمعات بها. كذلك نقل الفخار اليابانى ــ أثر غرق سفن ووصول الركاب إلى الشواطئ ــ إلى الاكوادور. قد يكون لمثل تلك الانتقالات ــ حتى بدون النساء ــ أثر بالغ فى المجتمعات الصغيرة فى الجزر البدائية ولكن من المستبعد أن يكون لها آثار بعيدة فى المساحات فى القارات. وهكذا يكون الأمريكيون قد نشئوا فى عزلة عن باقى العالم حتى الكشف الاسباني.

كشف الإنسان فى أمريكا ــ منفردا ــ خطوات استئناس النباتات، على نفس المنوال الذى انتقل به جامعو الطعام فى العالم القديم إلى زارعين له. وبالتالى تكونت مجتمعات زراعية هاجمها ثم أخضعها ثم حماها ثم حكمها الأقوام التى اشتغلت بالصيد والقنص ثم امتزج المجتمعان وتزاوجا وكونا طبقات فى المجتمع على غرار ما حدث فى العالم القديم. على سبيل المثال تكاثر الغزاة على شعوب المايا حوالى ٨٠٠ سنة بعد الميلاد ثم تمثلوا الغزاة وصار منهم شعب واحد جديد بنفس الأسلوب التى تمثل به السومريون الأجناس السامية فى بابل قبلهم بثلاثة آلاف عام.

ظلت أقوام العالم الجديد مستقلة عن العالم القديم كما ظلوا مستقلين عن بعضهم البعض. كشفوا منفردين عن فن صناعة الفخار والبناء وزراعة المحاصيل، وتوصلوا إلى طرق الرى وإلى تعدين الذهب والفضة. فى أثناء بنائهم لمجتمعاتهم كشفوا عن مزايا الرقيق وفوائد الدين وابتدعوا طقوسا دموية التى تمضخت عن الغذاء بالإنسان فى ديانات الأزتك. ولكنهم فشلوا فى اختراع الكتابة ولم يستنبطوا الحروف والأرقام (ومنها الصفر) إلا بعد ألف سنة حين توصل كهنة المايا إليها ومنهم انتقلت للإمبراطورية فى بيرو. ولكنهم لم يتوصلوا بتاتا إلى سبك البرونز ولم تصل تلك السبيكة إلى شعوب المايا والأزتك قمتا التحضر فى الأمريكتين. ومن هذا يتضح ضعف الصلات الحضارية

التى تهيؤها شعوب صيد الأسماك وغرق السفن ولجوء راكبها إلى الشواطئ. تهى تلك الوسائل انتقال المنتجات والتقنيات الشعبية فحسب. الفتح هو السبيل الوحيد لالتحام مجتمعات كلها ببعضها البعض: انتقال الأسرار الدينية والكتابة والرياضيات واستخدام المعادن والاشتغال بها، فهذه كلها تعتبر من الأسرار التى تحرص المجتمعات على الاحتفاظ بها ـ فى طبقات معينة ـ وتحرص على عدم انتقالها لمجتمعات أو لطبقات أخرى. وهناك ناحية أخرى لتلك المشكلة وهو الاحتفاظ بلغات منفصلة. تكلم أقوام العالم الجديد ما يقرب من ألفى لغة، أمكن تجميعها فى ثلاثين عائلة ـ كما فى العالم القديم اليوم. نشأ هذا الاختلاف على مدى خمسة عشر ألف سنة من جماعة عرقية محدودة من شمال شرق آسيا مما يدل على حداثة تكون اللغات (وليس على حداثة الأصوات المختلفة)، بعيدا عن امتداد اللغات بالعالم القديم: اللغات السامية والاريانية والصينية ولغات البانتو. حدث الامتداد فى العالم الجديد من التوسع فى تملك الحيوانات (التى ساعدت على امتداد إمبراطورية الانكا) ومن وجود مساحات شاسعة قابلة للزراعة حيث امتد المزارعون بعد استقرارهم وتكاثروا سريعا. لم يوجد هذا العاملان فى أمريكا حيث منعت الجبال العالية من توسع البشر وامتدادهم وعاقتهم الغابات ومنعتهم المحيطات.

نشأت إمبراطوريتان فقط فى أمريكا. إمبراطورية الأنكا وإمبراطورية الأزتك ومنعت صحارى شيلى والمكسيك من امتدادهما. قبيلة الانكا كانت تعيش حول بحيرة تيتيكاكا (وفى جنوب بيرو) فى جبال الأنديس على ارتفاع ١٢ قدم من سطح البحر. غزت البلاد المجاورة وفتحها وأنشأت إمبراطورية عظمى تحكى بناياتها المرتفعة عمارة مصر بعظمتها، واستمرت تمتد بفتوحاتها شمالا حتى (إكوادور الحالية) وبفتوحاتها جنوبا حتى نهر مول فى وسط شيلى الخصب. بلغ امتداد إمبراطورية ألانكا ٢٥٠٠ ميل (مما يعادل فتوحات الإسكندر الأكبر). حدثت تطورات مذهلة فى تلك الإمبراطورية تعادل ما أحدثه الفرس الأقدمون والإغريق الهيلينستيون والرومان. زرعوا حكاما من الأنكا فى كل الأقاليم التى تم فتحها وكونوا فرقا حربية مختلطة من الأهالى وانتقوا زراعا مجيدين ونشروا كهنة للتبشير بالدين الملكى ـ دين الشمس. نشأت تلك الحضارة من تعاون قبيلة محاربة وطبقة من الكهنة. لم يسترقوا المواطنين ولم يستعبدوهم ولكن كخدم تحت إشراف النبلاء المحليين وبمعونتهم فى الضياع الإمبراطورية وحرصوا على ألا يعرضوا مواطنيهم لارتفاعات لم يتكيفوا عليها فى الجبال العالية بهذا استقر السلام والأمان وازداد توسع الإمبراطورية وصارت إمبراطورية متعددة اللغات. شقوا الطرق وبنوا المصاطب (الزراعية) وشبكات من قنوات الرى وأدخلوا منتجاتهم ومحاصيلهم الزراعية الراقية وصناعاتهم المتقدمة إلى الأماكن الخالية من السكان. بهذا امتدت زراعات الأذرة حتى وصلت إلى شواطئ المحيط الأطلنطى وأدخلت محاصيل جديدة من شيلى ومن أحواض نهرى الأمازون والبليت.

نشأت حضارة أخرى فى المكسيك. نشأت حضارة فى مايا واقتصرت على ياكنان، ونشأت حضارة أخرى بين الأزتك الذين كانوا حريصين على إخضاع جيرانهم لأخذ الجزية منهم ـ مما مكنهم من جعل عاصمتهم على البحيرة ـ عظيمة الثراء وكثيرة السكان ـ مثل مدينة البندقية فى حضارات العالم القديم. والهدف الثانى من إخضاع جيرانهم هو أسر أبنائهم ليس لاستخدامهم كخدم أو رقيق وإنما للتضحية بهم كطقس من طقوسهم الدينية ـ توقفوا فى تطور حضارتهم عند هذه المرحلة الوجدانية والدينية ـ المرحلة التى سبق أن مرت بها كثير من حضارات العالم القديم حيث كانت التضحية بالبشر وإراقة دمائهم أعظم لديهم من استخدامهم كعبيد. ربما كان الكشف عن البرونز واستئناس الأبقار هى التى أخرجت حضارات العالم القديم من تلك المرحلة. شابهت حضارة المكسيك فى الألفى سنة قبل وبعد الميلاد نفس الملامح التى حدثت فى حضارات البحر المتوسط ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد واعتمدت على مغامرات المغامرين ونفى المنفيين من بلادهم ورحيل الأفراد والعائلات والجماعات والقبائل إلى حدود العالم المعروف حينئذ ثم إلى البرارى المجهولة فى الشمال. بهذه الوسيلة نشأت مجتمعات جديدة، زراعية فى أغلبها ومكونة دائما من جنس هجين. فقد هؤلاء المهاجرون من المكسيك مهاراتهم فى الفنون المكسيكية وفى الكتابة وفى أعمال التعدين. ظهرت أولى تلك المجتمعات فى الألف سنة السابقة للميلاد فى سهول أريزونا: قبائل البويبلو، وظلوا محتفظين بنقائهم العرقى على مدى ستين جيلا ويعرفون باسم جنس البويبلو. يحفر الرجال ويبنون وتغزل النسوة وينسجون مع التساوى فى الحقوق والواجبات بدون وجود كهنة يتوارثون المهنة بينهم. عبر المهاجرون من المكسيك نهر المسيسبى ووجدوا سبيلهم إلى أوهايو. علّم المهاجرون المكسيك الأهالى الفنون المكسيكية ومنها فنون الحرب والقتال ونشأت مجتمعات حكمها ملوك ورؤساء واسترقوا العبيد وبنوا مقابر ضخمة ومعابد عظيمة فى الألف سنة بعد ميلاد المسيح ـ تشابه تلك المجتمعات بالنسبة للمكسيك مجتمع الاتروسكان بالنسبة للبابلين. ابتلعت أقوام من غزاة الشمال من تلك المجتمعات حيث عمل النساء بالحفر وعمل الرجال بالصيد والقنص والقتال. استمرت بينهم طقوس الفداء بالدماء البشرية والتعذيب كما بدأت فى المكسيك، بهذا اختلفوا تماما عن البويبلو الذين اختفت بينهم تلك الطقوس. استمرت زراعة الأذرة وانتشرت فى كل ربوع أمريكا الشمالية وجاءوا بها من أصلهم بالمكسيك. كما نشأت أعمال أخرى فى بعض المناطق مثل زراعة الطباق والتجارة، وظل هذا هو حال الهنود الحمر الأمريكيين حتى غزاهم الأوروبيون.

فى عام ١٤٩٢ أتم الأمراء الكاثوليك فى قشتالة وأراجون مهمتهم فى تحرير إسبانيا من العرب بفتح غرناطة. وفى نفس العام وصل مبعوثهم الخاص ـ كريستوفر كولومبوس ـ إلى جزر الهند الغربية. وجدوا الجزر كثيفة السكان تقطنها قبائل يتحدثون بلغة أراواكان مما يدل على أنهم دخلوا

خلال الجزر الكثيرة من جهة ترينيداد – أى من أمريكا الجنوبية – ربما قبل ألف عام. كانت تلك القبائل فى ذلك الحين تكاد تدفعها للخارج مجموعة من الغزاة – الكاريب – من آكلى لحوم البشر الذى أتوا من نفس الجهة، ولكن لم يثبت أن أيا من الجنسين أقام صلات منتظمة مع السواحل القريبة لأمريكا الشمالية. كان الغزاة الجدد مغامرون أشداء أتى معظمهم من الجزر التى جعلوها قاعدة لهم فى هيسبانيولا وكوبا وجامابكا، ومنها رحلوا وتعرفوا على الحضارات التى لم تكن معروفة فى أمريكا.

فى خلال خمس وعشرين سنة، فى عام ١٥١٧ بدأوا فى التجول على سواحل المكسيك، وبعد عامين استطاع أشد أولئك المغامرين وأكثرهم فطنة وذكاء – هيرناندو كورتيس – الشاب الذى بلغ من العمر أربعة وثلاثون عاما أن يتحدى ثم ينتصر على دولة المكسيك وحضارتها. استولى على عاصمة الأزتك فى الجبال بقوة تعدادها ستمائة من الإسبان. بعد اثنتا عشر عام استطاع تلميذه بيزارو – الذى فاقه فى عدوانيته – أن يكرر نفس ما فعله بقوة تعدادها ١٨٣ رجلا. كانت سلسلة العمليات الحربية والسياسية التى أخضعت البلاد مما لم يشهده التاريخ من قبل. لأول مرة فى التاريخ تصارعت قوى حضارات العالم القديم مع العالم الجديد بعد فرقة دامت خمسمائة جيل. تصارعا وتحاربا ثم تزاوجا وتناسلا مع بعضهما البعض. كانا مختلفان أشد الاختلاف فى المزاج والطباع واللغة والأدوات. ولكنهما كانا متماثلين فى التركيبة الاجتماعية، فلدى كل منهما ملك أو رئيس ورجل دين وعبيد، حتى إجراءات المحاكم المكسيكية وأخلاقياتها، فقد اتضحت للزائرين الجدد كما كانت لأهل البلاد.

حطم كورتيس وبيزارو إلى الأبد التركيبة الاجتماعية والسياسية التى بنيت عليها تلك الإمبراطوريات وحل محلها – فى سنوات قليلة – مؤسسات تعتمد على المحاربين ورجال الدين المسيحيين بديلا عن تلك الإمبراطوريات الوثنية. صار الحكام من الإسبان أو من جنس هجين من الإسبان والأهالى. كان الجنود الإسبان يسعون نحو الذهب والفضة والعبيد وكانوا يذبحون بلا رحمة أو شفقة الجنود المحليين – خاصة النبلاء منهم – إذا وقفوا فى سبيلهم. وكان هناك القسس ورجال الدين الكاثوليك والرهبان الذين مارسوا القتل والتذبيح أيضا لمن كان يعترض على اعتناق المسيحية الكاثوليكية. ولكن بعد التحول إلى الكاثوليكية وقبول حكم الغزاة تفرغ الجميع للإبقاء على خضوع الجماهير للحكم الجديد والدين الجديد. كان العلم والتنوير والمعدات الحربية والأدوات هى أسلحة الغزاة الجدد. بالتدرج بدأ الأهالى يعجبون بمهارة القادة وعلم السادة واقتنع الأهالى شيئا فشيئا أن المستعمرين لم يكن هدفهم الذهب والفضة والعبيد بل سعيهم لتحرير العقيدة وتنوير الأهالى من الوثنية التى كانوا يعتنقونها.

كانت وسائل الحد من التكاثر التى يستخدمها حكام الأزتك فى المكسيك مكروهة أشد الكراهية من الأهالى ورفضها الإسبان ــ رغم فاعليتها الشديدة. أكل لحوم البشر ــ الذى كان يمارس كأحد الطقوس الدينية ــ كان مرفوضا من كافة الديانات. (استبدل القسس المسيحيون العزاب معاشرة الأولاد (الذين كانوا يلبسون ملابس البنات) فى العلن فى أمريكا (بعد أن كان يمارس خفية فى أوروبا).) فضح كورتيس ممارسات حكام الأزتك خلال غزوه للمكسيك ونال شهرة واسعة بين الأهالى لحدة ذكائه فى استخدام الأساليب الاجتماعية والسياسية بالإضافة لمقدرته الحربية، فى انتزاع الملك من حكام الأزتك. كان أول المتحولين إلى المسيحية هن النساء الذين تزوجهن الغزاة بعد أن خمدت الحرب وهدأ القتال. كان لإحدى النسوة «كاسيك» من تباركو ــ التى تحولت إلى المسيحية وصارت تعرف باسم دونا ماريا ــ أكبر الأثر فى تحول الجماهير. رافقت ماريا كورتيس إلى المكسيك وأنجبت غلاما ــ دون مارتن كورتيس. بالمثل أنجبت أخت من الانكا ولدا هجينا ــ صار المؤرخ جارسيلاسيو إنكا دولافيجا (١٥٤٠–١٦١٦). بمثل هذه الأحداث تأكد الفتح الإسبانى، تم زوال الطبقة الحاكمة القديمة وابتدع جنس من المهجنين التابعين. عمل الدين والآلات والنساء على خلق شعوب جديدة ولكن كان لسلاحين آخرين أبلغ الأثر فى القضاء على الهنود الحمر نشئا مع أربعة آلاف سنة من تاريخ تلك الشعوب فى أمريكا.

أولاهما كان الفَرَس، الذى جلبه العرب إلى إسبانيا منذ عهد قريب، والبارود الذى بدعه القديسون كعامل سحرى لمساعدة الإسبان. ساعدت الخيل الغزاة على حكم أوروبا لألفى عام ولحماية حكوماتها. أما بالنسبة لأمريكا فقد دمرت الخيول حضارات الهنود الحمر. كما سبق ودمر الهكسوس حضارة مصر القديمة منذ ثلاثة آلاف عام. سحب الغزاة الإسبان الخيول من إسبانيا ولقرن ونصف ساد الإسبان أمريكا بخيولهم من سانتافى إلى باميـاس، نفس الحيوان الذى قضى عليه الهنود الحمر أيام غزوهم العالم الجديد. كان العامل الثانى فى أيدى الإسبان الذين ساعدهم بتؤده وفى الخفاء هو المرض. منذ الحملة الأولى لكولومبوس بدأ الأوروبيون والهنود الحمر فى تبادل الأمراض. اكتسب الأوروبيون الزهرى (البثرات الكبرى) واكتسب الهنود الحمر الجدرى (البثرات الصغرى). أعقب ذلك انتشار الحصبة والدرن والحمى الصفراء والملاريا، وقد عانى سكان العالم الجديد من أمراض العالم القديم أشد المعاناة. وقد تخلص الجنس الهجين تدريجيا من وطأة الأمراض التى أعقبت لقاء سكان العَالَمْين.

ذبح الإسبان عددا كبيرا من سكان العالم الجديد وقضت أمراض العالم القديم على عدد آخر منهم. تم قتل أعداد كبيرة من الهنود الحمر فى سلسلة متتالية من القتال والمعارك والبطش. وقضت

موجات من الأوبئة والأمراض المعدية على عدد كبير آخر منهم حتى تم تهجينهم مع الغزاة. جاء غزو الإسبان والبرتغاليين لأمريكا اللاتينية أولا فى القرن السادس عشر أما غزو من يتحدثون الإنجليزية فجاء أغلبه فى القرن التاسع عشر كجزء من توسع الولايات المتحدة الأمريكية، وكان شكل الغزو مختلفا. غزا الإسبان والبرتغاليون أمريكا بالرجال الذين لم يجلبوا نساء معهم (باستثناء الحكام) أما الإنجليز فأحضروا معهم نسوتهم (باستثناء التجار). جاء غزو الإنجليز بعد أن تهجن الهنود الحمر وصارت لديهم مقاومة لأمراض أوروبا وبعد أن تعلموا فنون الحرب الأوروبية واستخدموا أسلحتهم وركبوا الخيل. لكل تلك الظروف المتغيرة تغيرت تركيبة مواطنى أمريكا. قضت الأمراض تماما على الكاريب فى القرن السادس عشر وعلى الفيوجيون فى القرن التاسع عشر وعلى الصيادين فى بحيرة تيتيكاكا فى القرن العشرين. ولكن ظلت أعداد كبيرة من الهنود الحمر تعيش فى الولايات المتحدة حتى اليوم. اختفى المتحدثون باللغات الهندية الأصلية تماما حاليا من جزر الهند الغربية ومن أوروجواى ومن الأرجنتين وكل المتواجدين فى تلك البلاد حاليا قد تهجنوا مع الإسبان أو البرتغاليين أو الزنوج الأفارقة. ماذا حدث للسكان الأصليين؟ ذُبح المقاتلون وطُرد الكهنة ودُمرت المعابد والقصور وانتهت الدولة واختفى الملوك وتولت طبقة جديدة الحكم ووُضعت على قمة المجتمع. كانت الطبقة الحاكمة الجديدة لا تدرى شيئا عن الزراعة والرى وتربية الحيوانات فى بلادها الأصلية وقد اجتذبتهم أمريكا للحصول على الذهب والفضة، وحصلوا على ما وجدوه. وعندما اختفت تلك العناصر الثمينة صاورا فى ضياع فى بلدهم الجديد واندثرت حقول الخضروات المزدهرة التى كان يملكها الأزتك، ودمرت المصاطب الشاسعة وقنوات الرى المتقدمة التى أقامها الانكا إلى غير رجعة. فى بيرو، فى عام ١٥٣٥، بعد ثلاث سنوات من الفتح، أنشأ بيزارو عاصمة جديدة له ونقل مقر الحكم من مدينة كوزكو فى أعالى الجبال إلى المدينة الساحلية ليما، حيث يتمكن الإسبان من العيش والتنفس، الميناء التى يمكن تجميع خيرات أمريكا الجنوبية فيه ومن ثَمّ يشحنها الموظفون الإداريون إلى مدريد. فى كل تلك الظروف التى تعمل على تدمير الحضارات القائمة كان التهجين مع المواطنين الأصليين هو الذى أنقذ البلاد تدريجيا من الدمار الكامل، وكان نسلهم – وليس السكان الأصليون – هم الذين حافظوا على البلاد. وقد شارك فى البناء والتقدم كل شعوب العالم القديم.

هناك فروق واضحة بين الجيل الأول والجيل الثانى من المهجنين. القبائل التى حافظت على لغاتها الأصلية هى القبائل التى احتفظت بطريقتها فى المعيشة – رغم تهجينها – مع أقوام من أوروبا. كان الرجال يعذبون ويقتلون، أما النساء فكن – يحتضن ويتزوجن. وقد تم نفس هذا الأسلوب مع التجار البيض والذين يتم أسرهم من البيض. حدثت كل صنوف الخلط بين مختلف الأجناس وتبعه خلق أجناس جديدة وطبقات جديدة امتلاءت بها أماكن جديدة فى مجتمعات جديدة. حدثت أمثلة

مشابهة لما حدث فى أمريكا اللاتينية فى الولايات المتحدة وفى كندا فى القرنين الثامن والتاسع عشر، وكثير من مشاهير زعماء قبائل الهنود الحمر من المهجنين ــ وقد يعزى إلى هذا إتقانهم لاستخدام الأسلحة الأوروبية ومهاراتهم فى ركوب الخيل عندما كانوا يلاقونهم فى المعارك. ظلت بعض قبائل الهنود الحمر حتى الآن من أصل هندى تماما، لعل أبرزها قبيلة الموهوك ذات المهارة الفائقة فى صنع وفى قيادة القوارب المائية. وهى القبيلة التى تقطن فى الجبال المرتفعة من مونتريال، ويعيش عدد منهم فى ولاية نيويورك وقد تخصصوا فى إقامة التركيبات من الصلب وعن قريب سيتم ابتلاعهم فى المجتمع الأمريكي.

لعل أنجح مجال برع فيه الهنود الحمر المهجنين فى عصرنا الحاضر هو فى تربية الحيوانات (حتى ولو كانوا غير مهجنين) خاصة فى مجال استئناس الخيل (التى هرب بعض منها بعد الحروب مع الإسبان إلى البرارى وصارت متوحشة تحتاج لإعادة الاستئناس) وقد اشتهر فى هذا المجال هنود المافاهو الذين رحلوا جنوبا من كندا وتخصصوا فى استئناس الخيول فى أريزونا بدءا من عام ١٦٦٠. بعد حين ــ فى عام ١٧٧٠ ــ وصلت الخيول البرية غير المستأنسة إلى الميسيسبى وإلى كندا ووصل عددهم إلى خمسة ملايين فرس ــ وبعد استئناسهم وإتقانهم لاستخدام الأسلحة النارية تمكنت قبائل الهنود الحمر إلى حين فى وقف تقدم الأنجلوساكسونيين والمستعمرين الأمريكان الجدد إلى غرب الولايات المتحدة حتى القرن التاسع عشر: كذلك تعاون الهنود الحمر مع الكاوبويز الأمريكيين فى القضاء على حيوان البيزون ــ آكل العشب الضخم الذى يقطن سهول أمريكا ــ وكذلك على الماستنج (فرس السهول الأمريكية البرى الصغير) ــ وحل مكانهما صنف لونجهتون من الماشية التى أدخلها الإسبان معهم عند مقدمهم إلى أمريكا وصار هو الحيوان الأساسى الآن فى أبقار تكساس. كذلك أدخل الإسبان الغنم إلى أمريكا، وانتشرت فى جبال روكى، ويرعاها حاليا أقوام من رعاة الغنم من الأوروبيين الباسك ومن قبائل نافاهو من الهنود الحمر. وهكذا صارت رعاة الماشية ورعاة الغنم ومربو الخيول فى أمريكا من كانت مهنتهم سابقا هى الصيد والقنص ــ كما فى العالم القديم ــ أما بعد القضاء الكامل على زراعى الأرض فلم يمكن الاستعاضة عنهم فى أمريكا إلا باستيراد فلاحين جدد من أفريقيا.

قابلت حاكم جاميكا الإسبانى عام ١٥١٥ مشكلة من يحل محل قبائل الأراواك المحلية ــ زارعو الأرض ــ الذين تم القضاء عليهم ــ بعد ثلاثة وعشرين عاما فحسب من وصول الإسبان إلى أمريكا. نصحه الناصحون باستيراد العبيد من المستوطنات البرتغالية فى غرب أفريقيا، ووصلت أول شحنة من العبيد الأفارقة إلى أمريكا بعد عامين. احتل أسطول إنجليزى جاميكا عام ١٦٥٥ وازداد استيراد

الزنوج من أفريقيا زيادة كبيرة، حتى منعته الحكومة البريطانية عام ١٨٠٧ أى بعد ٢٩٠ عاما من بدء هذا العمل. جاء العبيد الزنوج من أماكن كثيرة من غرب أفريقيا باصطيادهم ثم بيعهم بواسطة تجار عديدين من الذين اتقنوا دراسة خصائص القبائل الأفريقية المختلفة وقدروا أثمانا مختلفة لكل طائفة من أنواع الأسرى الأفارقة. بيع العبيد فى مزادات وتم إلحاقهم فى أنواع مختلفة من الأعمال. كان الفرنسيون يفضلون الماندينجو وذهبت غالبيتهم إلى هايتى. جاء البوبو والويداه من داهومى وعملوا فى الأعمال الشاقة التى تتطلبها زراعة قصب السكر. ثم قدمت مجموعات من أنجولا وكالابار وجامبيا الذى عملت نساؤهم بأعمال أكثر مشقة من أعمال الرجال، وجاء الإيبو من نيجريا، وكان معظمهم يموت من الأعمال الشاقة كعبيد ولم ينجو من الموت سوى من عمل بالخدمة فى البيوت. وأخيرا كان هناك المحاربون الأشداء من الأشانتى ـ الذين عرفوا باسم المورينو أو السمر ـ ولم يفلحوا كمزارعين فعهد إليهم بتربية الخنازير والعناية بها.

بعد احتلال الإنجليز لجاميكا حدث خلل مفاجئ فى التوازن الإسبانى ـ الزنجى فى المجتمع. اتصف خدم البيوت بالإخلاص لسادتهم فهربوا معهم إلى كوبا بينما بقى عبيد المزارع مع الإنجليز الذين حرصوا على بقائهم فى مزارع قصب السكر ـ تلك المزارع التى عادت على الطبقة الحاكمة الأنجليزية بالربح الوفير (مثل عائلات بكفورد وراسل وجروفز وجلادستون). رفض المورينو ترك تربية الخنازير وإعطائها للسادة الجدد وبعد ثمانين عاما من العصيان والثورات المتتالية اتنصر المارون. أما بقية أصناف العبيد الزنوج فقد اعتادوا على زراعة الأرض واستعذبوا حياتهم كعبيد لسادتهم. اتخذ سادتهم البيض نسائهم كعشيقات وتحررت كثير من ذريتهم من رق العبودية، بينما استمر بعضهم كرقيق. تغير الزنوج فى ملامحهم وفى لون بشرتهم وصاروا أكثر اختلافا، كما تغيرت عقلياتهم وذكاؤهم وطباعهم ولم يعودوا نفس القوم الذين أتوا من أفريقيا وخضعوا للرق والعبودية. زالت الفوارق القديمة بين الأسياد والعبيد وبدأ الثوار يظهرون بينهم. حدثت أولى الثورات عام ١٧٧٠ واستمرت بصورة متقطعة لقرن كامل.

بنهاية القرن الثامن عشر لفتت الثورة الفرنسية أنظار الأوروبيين أن نظام الرق وعبودية الإنسان لأخيه الإنسان لم يعد مقبولا ومن الصعب تنفيذه. كذلك بدأ مالكو العبيد ـ مثل جورج واشنجتن ـ يرون أن تلك التجارة لم تعد رابحة كما كانت فى الأزمان الغابرة. بدأت بريطانيا ـ بسيادتها على البحار ـ فى منع التجارة بالرقيق من عام ١٨٠٦ وأوجبت تحريرهم. حدثت صعوبات فى تنفيذ هذا القرار، منها التعويض الواجب دفعه لمالك العبيد المحررين، ومنها أن العبد الذى تحرر يفقد حماية سيده وربما يفقد عمله؛ وهكذا استمرت عملية تحرير الرقيق تجرى ببطئ طوال القرن التاسع عشر كما يوضح الجدول رقم (٢٦). ولكن استمر الرقيق فى الحبشة والبلاد العربية حتى

جدول رقم (٢٦)

تواريخ منع تجارة الرقيق في بعض بلاد أوروبا وأمريكا

المكسيك	١٨٢٩	
بريطانيا	١٨٣٣	(تم عام ١٨٣٨)
فرنسا	١٨٤٨	
البرتغال	١٨٥٨	(تم عام ١٨٧٨)
هولندا	١٨٦٣	
الولايات المتحدة الأمريكية	١٨٦٣	(تم عام ١٨٦٥)
كوبا	١٨٨٦	(تم تحرير نصف مليون عبد ويبلغون ثلث تعداد السكان)
البرازيل	١٨٨٨	(تم تحرير ٧٠٠ ألف عبد)

القرن العشرين. زنوج أمريكا ينحدرون من العبيد السابقين بينما ينقسم البيض إلى الفقراء والمتيسرين، وينحدر معظم الفقراء البيض من المجرمين السابقين الذين تم نفيهم من أوروبا إلى أمريكا. تكاثر كل صنف على حدة، ولكن بعض النساء السودكن يفضلن العيش مع رجال بيض كعشيقات (وفيما بعد مع رجال صينيين) بدلا من الزواج من رجال سود. على سبيل المثال يبلغ عدد الأطفال غير الشرعيين فى جاميكا ثلثى جميع المواليد وتؤكد هذه النسبة مدى اختلاط العرقين مع بعضهما البعض. وظلت بعض النسوة السود عوانس فى كل جيل (وكما تكثر العوانس فى الهند) وهكذا ينتشر العرق الأبيض تدريجيا فى الأجيال المتلاحقة.

يرتبط المركز المادى وثراء الأفراد بتكاثرهم. كلما زاد ثراء الرجل كلما نزع إلى الأرتباط بامرأة بيضاء أو امرأة مخلطة فاتحة اللون وهكذا ظل لون البشرة يعبر عن المركز الاجتماعى ودرجة ثراء الأفراد فى المجتمعات الأمريكية. يتلازم مع لون البشرة درجة تجعد الشعر والملامح الزنجية فى الوجه فى سوق الزواج وينطبق هذا فى كل طبقات المجتمع وفى كافة العلاقات الجنسية.

تشكلت طبقات جديدة فى المجتمعات الأمريكية وزاولت أعمالا مختلفة. هناك طبقة عليا من البيض من ذوى الأملاك والمهنيين ويدينون بالمذاهب الانجليكانية أو الكاثوليكية. وهناك طبقة وسطى من الملونين أو السود فاتحى البشرة يدينون بالبابتست ويعملون بالتجارة أو الأعمال الكتابية. وهناك طبقة دنيا منقسمة إلى أقلية من فقراء البيض وأغلبية من الزنوج داكنى البشرة يعملون بالأعمال اليدوية غير الماهرة ويعملون نظير أجر لدى غيرهم أو يعملون بزراعة الأراضى، وينجب من أولئك

بعض الجماعات. وأخيرا هناك مجموعة من المهاجرين بصفاتهم الخاصة وأعمالهم المعينة مثل السوريين والهندوس. كذلك هناك الصينيون الذين كانوا يعملون بالفلاحة في بلادهم ولكنهم صاروا تجارا عندما قدموا إلى أمريكا، وبرعوا في التجارة.

لتجارة العبيد الأفارقة في أمريكا آثار عميقة وواضحة ومختلفة من مكان لآخر ففي أمريكا اللاتينية والاستوائية، لأن الأوروبيين لم يستقدموا زوجات أوروبيات من البيض معهم، صاروا أقليات في البلاد. عومل الجنس الهجين الذي نشأ منهم بدون تفرقة عنصرية ووصلت أعداد كبيرة منهم إلى مراكز اجتماعية مرموقة وإلى ثراء عظيم. ولكن في أمريكا الشمالية معتدلة المناخ حظى الأوروبيون من ذوي الأصول الأنجلو ساكسونية في أمريكا الشمالية ـ وكانوا أغلبية عددية ـ بقصب السبق، وكانوا يحرصون على العزلة عن المواطنين من الهجين، لاعتقادهم بأن الجنس الأبيض يتفوق على الأجناس الأخرى وكل البيض متساوون.

لجأ البيض إلى استقدام الزنوج من أفريقيا في أول الأمر لحاجتهم إليهم في زراعة الأراضي، واستمروا في هذا الأسلوب على مدى ثلاثمائة عام، وبلغ من استقدموهم في تلك الأعوام حوالي ١٥ مليون. لم ينقص هذا العدد ـ الذي غادر أفريقيا ـ من أعداد السكان فيها ولم يكن له تأثير على نوعية هؤلاء السكان. ولكن بلغ عدد الزنوج في أمريكا حاليا حوالي ٤٠ إلى ٥٠ مليون من الزنوج والمخلطين. تكاثر الزنوج في أمريكا بعد مقدمهم. بلغ عدد الزنوج الذين رحلوا شمالا من أفريقيا إلى البلدان الإسلامية من سنة ٧٠٠ بعد الميلاد حتى عام ١٩٦٠ بعد الميلاد (في مدة تزيد عن أربعة أمثال المدة التي تكاثر فيها الزنوج في أمريكا) أكثر قليلا من تعدادهم في أمريكا. ولكن لانتشار تقليد إخصاء العبيد في البلدان الإسلامية كان تأثيرهم على التوالد في تلك البلاد ضعيفا ولم يبلغ الحد الذي حدث في أمريكا.

كانت أول المستعمرات الإنجليزية في أمريكا تلك التي نشأت في ماتسا شوستس عام ١٦٢٠. كان كل المستوطنين من الذين تم نفيهم من انجلترا والذين لم يقبلوا أوضاعهم الاقتصادية أو لم تتطابق آراؤهم الدينية مع المعتقدات السائدة في وطنهم في ذلك الوقت. استوطن المهاجرون حول النقطتين المركزتين الأصليتين اللتين تم إنشاؤهما. استقر الملكيون وأبناء الطبقات العالية والأنجليكان في فرجينيا وتملكوا الأراضي الزراعية الواسعة الصالحة للزراعة في الجنوب، وصاروا إقطاعيين. أما الثوار والخارجون عن المألوف والتجار، الذين رحلوا من بلادهم طلبا للحرية والاستقلالية فقد استقروا في نيو إنجلند في الشمال التي كانت تحيطها الجبال وتقطنها قبائل الهنود الحمر وكان عائدهم الرئيسي من الفراء والأسماك ومنتجات الغابات. ومما هو جدير بالذكر أن الآباء

المهاجرين الأوائل كانوا أيضا يقصدون التوجه إلى فرجينيا ولكن دفعتهم الرياح إلى بليموث، وسعى من جاء بعدهم فى عام ١٦٣٠ إلى التوجه إلى مستعمرة الخليج. أعقب أولئك المهاجرون الأوائل موجات متتابعة من المهاجرين من الاضطرابات المتتالية التى حدثت فى أكثر القرون اضطرابا فى التاريخ الإنجليزى. جاء الكاثوليك هربا من الأطهار فى حماية لورد بالتيمور واستقروا فى ماريلاند عام ١٦٣٣ واستقرت طائفة الكويكرز برعاية نجل الأميرال بن فى بنسلفانيا وكانت الحدود بين ماريلاند جنوبا وبنسلفانيا شمالا هى الحدود الفاصلة بين الجنوب والشمال.

بالإضافة إلى هؤلاء قدم مهاجرون جدد مختطفون من أيرلندة وأفريقيا، وجاء من عملوا كخدم هربا من الفقر، وحضر مغامرون ومستكشفون من بلاد مختلفة، وجاء مجرمون وحضرت غانيات. لم يكن لدى هؤلاء سوى كفاءتهم الشخصية ومعهم طاقاتهم ومهاراتهم ومقدرتهم على الحياة بمجهودهم. ازداد تطور البلاد وتقدمها سريعا بنمو طبقة الخدم وانتشار العبيد فى الجنوب، كما حدث التقدم فى الشمال من التنافس ومن الاضطهاد. أثبت مواطنو ماساتشوستس الذين كانوا هم أنفسهم ضحايا للاضطهاد أنهم أشد الناس قسوة وأكثرهم اضطهادا. كانت المعتقدات بالغة الشدة وأدت إلى سياسات فى منتهى العنف للمحافظة على طهر المجتمع الجديد. تم القضاء على قبيلة بيكوت تماما ـ وهم السكان الأصليون للمنطقة بحلول عام ١٦٣٧. لم تفرض الضرائب حتى عام ١٦٨٤. اضطر الرافضون لها إلى الرحيل والاستقرار فى الأراضى المجاورة وبذا أقيمت مستوطنات إنجليزية فى نيو هامبشير وفى رود أيلاند وكونيكتيكوت، وأخذت كل مستوطنة طابعها ودستورها. وكونت تلك المجتمعات انجلترا الجديدة. اختلفت الأحوال فى القرن التالى وتكونت مستوطنة جديدة بها كثرة من الفرنسيين فى مين ثم تكونت مستوطنة جديدة فى جورجيا قامت على أسس رفيعة بقيادة الجنرال أو هيلثورب. فى الوسط استقر الهولنديون من البروتستانت مع كثر من الهيوجينوت الذين أقاموا فى ـ مانهاتن. بالقرب منهم استوطن الكويكرز فى نيوجرسى وبنسلفانيا (وكان هؤلاء أول من تعلم دروس التسامح الدينى والقبول الاجتماعى). انتشر القبول والتسامح عبر المستوطنات الجديدة وصارت تدريجيا كلا متماسكا يتكون من إناس ذوى أصول واحدة وتاريخ واحد ومصالح واحدة فى شئون التجارة والحكم والحرب. إنطفأت حمية الحروب الدينية وفرض بعد المسافة على الموطن الأصلى ـ الذى كان مسرحا للخلافات الدينية والحروب ـ على الجميع التعايش السلمى والتعاون فى التقدم والنمو للجميع. ولكن ظهرت فروق فردية بين المجتمعات المختلفة. كانت خلافتهم العميقة عن الإله تعكس خلافات عن الإنسان وعن المجتمع وتؤكد خلافات موروثة فى الطبع. كانت الهجرة انتقائية وكانت مبنية على خلافات عميقة فى المعتقدات والآراء، ووحدت المصالح المشتركة بين المستوطنين

الجدد. انقسم المجتمع الأمريكى إلى فئتين متعارضتين بين من وحدتهم المصالح ومن فرقتهم المعتقدات والآراء والنظرة للمجتمع، وتمخضت تلك الخلافات عن حدوث حرب أهلية بينهما.

بحلول عام ١٧٧٥ كانت المستوطنات الإنجليزية تكون سلسلة تمتد على طول الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية حتى حدود فلوريدا. بلغ عدد المستوطنين ثلاثة ملايين ـ حوالى ثلث عدد سكان بريطانيا. كان نجاحهم البالغ فى تكوين مجتمع أوروبى ـ يكاد يكون خالصا ـ إلى حرية الهجرة التى أتيحت لملاك الأراضى كما أتيحت للفلاحين من انجلترا، البلد التى تحررت عن جيرانها من التصاق البشر بأرضهم. كما ترجع الهجرة المتزايدة من انجلترا أيضا إلى تناوب موجات الاضطهاد بين البروتستانت والكاثوليك تباعا والتى تعاقبت على فرنسا وهولندا وانجلترا واسكتلندة وأيرلندة.

فى السنوات الأولى لاستقرارهم كانت القوات الفرنسية والإسبانية تهدد المستوطنين الجدد على الحدود. كانت آخر المستوطنات الجديدة فى جورجيا وقامت فى أحراش السافانا عام ١٧٣٥ للدفاع عن الحدود الجنوبية ضد الإسبان. أمكن التغلب على تهديد الفرنسيين عام ١٧٥٩ بعد فتح كندا وظل الهنود الحمر لمسافة ألف ميل على الحدود الغربية وتحالفت معهم حكومة المستوطنين الإنجليز ضد الأجانب ولم تكن تجد غضاضة فى هذا التحالف ضد مستوطنين آخرين. أخيرا حل السلام عام ١٧٦٣ وتغير الوضع. فقد أبعد احتلال كندا وجزء من وادى الميسيسبى التهديد الفرنسى. وبدأ المستوطنون فى التوسع غربا ومهاجمة الهنود الحمر، وهنا نشأ خلاف حاد بين أهداف الحكومة البريطانية الحاكمة وبين اهتمامات المستوطنين. أعلنت الحكومة أن نيتها هى تثبيت الحدود القائمة ومنح الهنود الحمر السلام وإنهاء المشكلة الهندية وفى سبيل ذلك أعلنت الحكومة قرارها بتثبيت الحدود وترك السهول بين الجبال ونهر المسيسبى كاحتياطى للهنود الحمر. طالبت الحكومة المستوطنين بدفع ضرائب نظير حماية أراضيهم التى تمتد لألف ميل. ولكن المستوطنين كانوا يرغبون فى امتداد أراضيهم على حساب الهنود من القناصة وتمتد أراضيهم إلى الغرب فى الأراضى المتسعة وتمتد زراعاتهم إلى كل الأراضى الخالية، وبدأ المستوطنون يحلمون بالإمكانات المتاحة أمامهم. كانت الأرض المحصورة بين البحر (المحيط الأطلنطى) وبين سلسلة الجبال ضيقة ولم تكن أراضى خصبة، وقد زاد من فقرها التجريف المستمر، أما وراء الجبال فكانت الأرض بكرا، شديدة الخصوبة وكانت الحياة شديدة الاستقلالية. للمرة الأولى ظهرت الحكومة التى كانت حامية للمستوطنين تخذلهم وتبدو حامية للهنود الحمر.

لعب مندوب الملك للشئون الهندية ـ سير وليام جونسون ـ دورا حاسما فى هذا الشأن. كان رجلا ذو خبرة واسعة بقبيلة الموهوك فى الشمال، شملت زواجه من عدة نساء من الهنود الحمر.

لاحظ أن الهنود الحمر لم يستقروا فى وادى نهر أوهايو، فجعل هذا النهر هو الحد الفاصل بين المستوطنة الإنجليزية والهنود فى عام ١٧٦٥ . بهذا فتح الباب أمام إنشاء مستوطنات جديدة فى كنتكى وفى تنيسى وتقدم المستعمرون من الجبال للاستقرار فيهما عامى ١٧٩٢ و١٧٩٦، ثم فتح الطريق فيما بعد لما صارت إليه ولاية المسيسبى (عام ١٨١٧)، وآلاباما (عام ١٨١٩) ودخلتهما واستقرت فيهما مجموعة من الزراعين فى الولايات الجنوبية، فرح الفقراء فى التلال باكتساب تلك الأراضى الجديدة ولكن غضب الأغنياء فى السهول لأنهم كانوا يخشون من الضرائب.

اختلف زعماء نيوانجلند وبنسلفانيا وفرجينيا فى دياناتهم وفى أعمالهم وفى طباعهم ولكنهم اتفقوا فى قرارهم بأنه آن الآوان أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، وأن فى هذا القرار فائدة لهم ومكسبا لمواطنيهم أفضل من أن يحكمهم أى شخص يستقر فى انجلترا أو أى مبعوث تبعثه انجلترا. (نفس هذا الرأى اتبعته جنوب أفريقيا بعد ستين عاما عندما تم تحرير الرقيق). وضح لهم أن المستقبل سيكون زاهرا لو استقرت الأمور فى أيديهم. لم يتم اتفاقهم على وسيلة تحقيق هذا الهدف ولكنهم اتفقوا جميعا على نبذ خلافاتهم مؤقتا حتى يتحقق لهم الاستقلال عن انجلترا.

للقيام بالثورة، لا بد من اكتساب تأييد الجماهير. لم يكن الدين حافزا لهم ولكن كان الحافز هو أقوال الأحرار الإنجليز والفلاسفة الفرنسيين. أوضح الثائر الإنجليزى ـ توم بين ـ لهم فى كتابه «كومن سنس» فى يناير ١٧٧٦ ما يمكنهم فعله وخط لهم توماس جيفرسون بعد ستة أشهر «إعلان الاستقلال». هكذا أعلنت الطبقات العليا فى أمريكا ـ أو غالبيتهم ـ تحديها للمؤسسة البريطانية وصاروا ثوارا فى مجتمعهم الخاص. أمكنهم بهذه الدعاية جمع جماهير الشعب حولهم ومواجهة الجيش البريطانى. تكون جيش من المستوطنين الأمريكيين، ساعدته فرنسا وإسبانيا من دول أوروبا، وعاونته حملة من صغار رجال الجيش من أتباع لافاييت. أثار انتصار هذا الجيش غضب بريطانيا وحنقها. هزم السلاح فى أمريكا العرش البريطانى، ولكن بعد عشرين عاما هزم العرش الفرنسى داخل فرنسا من جراء الديون التى تحملتها الخزانة فى سبيل الحملة فى المستعمرات البعيدة ومن جراء الأفكار الثورية التى تبنتها على الساحل البعيد للمحيط الاطلنطي.

بعد أن خمدت الحرب فى أمريكا بدأت رياح التذمر تهب على الارستقراطيين الأمريكان (كما حدث فى انجلترا عام ١٦٤٩). خلق جميع البشر متساويين؛ وبدأ مالكو العبيد فى ماريلاند وفى ڤيرجينيا يلاحظون تلك النبرة الجديدة. كانت هناك قوانين فى كل الولايات تحرم زواج البيض من الزنوج. بدأ المستوطنون فى كنتكى يتساءلون متى يتم طرد الهنود الباقين بينهم وبدأ الناس فى كل مكان يتساءلون أى ذنب جناه الفقراء ليظلوا أميين ومشردين، ويستفسرون عما يؤخرهم عن اختيار

رئيس لهم يراعى تطبيق القانون وتشكيل مجلس نيابى يعد لهم التشريعات المناسبة لمجتمعهم. أظهر الدستور الأمريكى الذى تم وضعه عام ١٧٨٧ أن الثورة ـ كالحرب الأهلية الإنجليزية ـ كانت صراعا بين فئتين من الحكام: الحكام القدامى الذين استقروا فى مراكزهم والحكام الجدد الذين يتنافسون معهم ويتحدونهم. الفئة الأولى من الملكيين ومن الطبقات العليا والفئة الثانية من الجمهوريين السابقين ولكن كلاهما من الأغنياء ذوى الممتلكات وذوى الامتيازات الاجتماعية والأوضاع المرموقة. اضطر كرومويل ـ فى انجلترا ـ لاحترام الفروق الوراثية والطبقية أما لدى الأمريكان فلم يكن لتلك الفروق أى وزن. حدث توتر فى الحياة القومية بين النظرية والتطبيق. جمع مبدأ المساواة بين الأمة بأسرها ولكن فرق بينهم التنافس والفروق العرقية. تصاعد التوتر حتى حدثت الحرب الأهلية التى كانت متنفسا للأمة خلصها من حملها. ولكن ظل التوتر قائما بعد أن خمدت الحرب وما زال حتى اليوم (مثل سائر الأمم الغربية).

كان الأطهار من نيوانجلند والكويكرز من بنسلفانيا والكاثوليك فى ماريلاند والإبيسكو باليان فى فرجينيا والهيوجينوت فى الشمال وفى الجنوب على رأى رجل واحد جميعا، وقرروا عدم فرض عقيدة واحدة على الأمة بأسرها. الدين الذى وحد بين القبائل والشعوب من قديم الأزل ـ من أيام السومريين ـ صار اختياريا ولا يفرض على أحد بالقوة. وهكذا قررت الولايات المتحدة الأمريكية أنه لا مكان للاضطهاد الدينى فى بلادها ـ حتى ولو كان هو القاعدة فى سائر بلاد العالم. وحد بين الأمريكيين تصميمهم على حرية التعليم وعلمانيته كما وحد بينهم الهدف الواحد فى حماية هذا المبدأ. استمرت الأمة مقسمة إلى طبقات وإلى دخول اقتصادية متباينة غاية التباين، وزاد هذا الاختلاف بتزايد الهجرة واتساعها على مدى القرون التالية، ولكن ظل مبدأ المساواة يعطى أملا لغير المحظوظين فى صراعهم للحياة والوجود. زاد عدد الطوائف الدينية وكان عددها يعبر عن اختلاف الأقوام الجدد بأكثر مما تعبر عنه اللغات واللهجات التى انتشرت فى المجتمع الأمريكى. كونت كل جماعة مجتمعا صغيرا داخل الأمة، واختار كل فرد طائفته بكل حرية، وكان ينتقل تباعا بين مختلف الطوائف والعقائد. ظل هذا التفرد فى العقائد حاميا للأفراد من الذوبان كلية فى المجتمع. هكذا ظل الدين يقدم خدمة للمجتمع الأمريكى، كما كان اختلاف العقائد مصدر قوة للإمبراطورية الرومانية. كانت هناك حاجة ماسة لوحدة الأمة كما كان خوف زائد من الانفصال عن المجموع وحدث هذا من الوحدة الثقافية بعيدا عن الوحدة العقائدية. وتبين حديثا أن الحفاظ على ثقافة هندية ومكسيكية وزنجية ومحلية مختلفة قد يكون مصدرا لقوة الجمهورية ـ التى صارت حاليا إمبراطورية عظمى. وهذا هو السبيل نحو التطور الاجتماعى للأمم.

انقسمت الأمة الأمريكية إلى ثلاث مجتمعات مختلفة: مجتمع الجنوبيين يسيطر عليه رجال من نسل الفرسان، ذوو تقاليد إقطاعية، عسكريون من الريفيين المناهضين للحياة المدنية، محافظون وداخليو التوالد. كان هؤلاء هم السادة. استخدموا لديهم بعض الصناع والحرفيين المهرة وقليل من رجال المهن. كانوا يحتاجون لخدم وعمال رخيصو الأجر يزرعون لهم القطن والطباق والأرز. استوردوا لهذا الغرض ما يكفيهم من الزنوج لخدمتهم ولزيادة رقعة مجتمعهم الإقطاعي هذا. أثمرت سياستهم هذه مكاسب اقتصادية هائلة، ولكنهم لبلوغ هذه النتيجة اضطروا لطرد العمال الفقراء من البيض. المجتمع الثاني كان مجتمع الشماليين الذين سيطر عليهم رجال الصناعة الجدد المخترعون والمغامرون والمتحررون من أصل إنجليزي ومن الصناع المهرة من أبناء القرنين السابع عشر والثامن عشر. جمعوا وطوروا المهنيين والعمال المهرة في صناعاتهم وتكونت منهم طبقة صناعية ذات خبرة عالية وكفاءة فريدة. ولكنهم كانوا يحتاجون لمساعدين من العمال غير المهرة الذين حرمهم إلغاء تجارة الرقيق منها. فقدت تجارة العبيد رونقها بين أغنياء الشمال وأثارت شجون فقراء الشمال وغضبهم لأنها تتعارض مع نصوص الدستور ومع مبادئ المساواة. بالإضافة إلى هاذين المجتمعين المتعارضين كان هناك مجتمع ثالث في أمريكا، لم يحسب حسابه ولم يلق له وزن ولم يعلو صوته، أولئك هم رجال الجبال. جبال الأبالاش تغطيها الغابات إلا حول الأنهار وفي وديانها الضيقة. تفصل تلك الجبال بين المستوطنات كثيفة السكان على الساحل وبين حوض نهر المسيسبي المتسع وبين أماكن تواجد الهنود الحمر الفسيحة في الداخل. تخللت الجبال جماعات من المغامرين المزارعين والقناصين آتين من الأجزاء في أوروبا التي كان الفلاحون القناصون ما زالوا يشغلونها. أول من جاء لتلك البقاع كان المهاجرون اللوثريون والمورافيون وأقوام من سويسرا رحلوا إلى غرب بنسلفانيا عام ١٦٨٢. تبعهم ٣٠ ألف من أقوام من أصل استكتلندي ـ أيرلندي. حمى هؤلاء الألمان من الهنود الحمر حتى تم القضاء عليهم. أضيف إليهم بعد قليل أقوام من الإنجليز والهيوجينوت وتوسعوا إلى الجنوب وملأوا الجبال. كانوا يسمون جميعا بيض الجبال وكان لهم طبعهم الخاص. كان زعيمهم الأول دانيل بون الذي قاد رجاله إلى تينيسي في عام ١٧٦٨ ثم إلى كنتكي فيما بعد ثلاث سنوات من ترسيم الحدود بواسطة سير وليام جونسون. في عام ١٧٧٢، في ثورة ضد التاج البريطاني، وضع لنفسه دستورا مكتوبا وكان أول من كون جمهورية مستقلة في أمريكا. كون رجال الجبال هؤلاء أول كتيبة مسلحة ووضعوها تحت قيادة جورج واشنجتن ـ وكانت تلك الكتيبة هي كتيبته المفضلة. ولكن بعد انتهاء الحرب لم تساعدهم مبادرتهم هذه بمساعدة جورج واشنجتن على الحصول على أي مميزات خاصة لهم، فقد فرضت عليهم أول ضريبة على شراب القمح المقطر، الذي كان أساس حياة رجال الجبال في بنسلفانيا. حاربوا الحكومة وهزموا وبدأوا في التحرك جنوبا خلال أراضي الهنود

الحمر. بحلول عام ١٨٣٠ كان هناك مليون فرد قد استوطنوا نهائيا فى الجبال الجنوبية. كانوا طوال القامة، شجعانا وأذكياء ونتج منهم نسل عظيم: دافيدكروكت وسام هيوستن (من تكساس)، وجون كالهون (من جورجيا) وجاكسون وأبراهام لنكولن. عندما حلت الأزمة عام ١٨٦٠ ظنت حكومات الولايات المتحدة الجنوبية أنه سيساندونهم ولكنهم فعلوا عكس ما كان ينتظره الجميع منهم. رفضوا الخضوع لأوامر الأساقفة وتعليمات كافة السلطات. لم يساندوا العبيد وكانوا يحتقرون ملاك الرقيق على السواء، ولكنهم كانوا يرفضون رفضا مطلقا سياسة استعباد الإنسان لأخيه الإنسان. انفصلت أقوى جماعة منهم فى ولاية فرجينيا الغربية وتجمع حولهم كافة رجال الجبال وهكذا تم انقسام المستوطنين الأوروبيين فى أمريكا الشمالية وقامت الحرب الأهلية الأمريكية. بعد أن وضعت الحرب أوزارها كان رجال الجبال ـ للمرة الثانية فى التاريخ الأمريكى الحديث ـ هم المنتصرون، ولكن هضمت حقوقهم ولم يعترف لهم بالفضل مرة أخرى. كانت حدود الولايات قد تم ترسيمها منذ قرن سابق بناء على توجيهات الفلكيين فى انجلترا متجاهلين طبيعة الأرض وما تحويه من جبال ووديان وهكذا ظل رجال الجبال منقسمين بين ثمان ولايات، ظلوا أقلية فى سبعة منها. بعد أربعين عاما، وكان عددهم قد بلغ ثلاثة ملايين نسمة، لم يزد عليهم سوى ١٨ ألف من المهاجرين الأجانب الجدد. هاجر المغامرون الأشداء منهم إلى الغرب وكانوا باكورة تعمير غرب أمريكا، بينما ظل الباقون منهم فقراء، غير متعلمين، محافظين، داخليي التوالد يقطنون فى الوديان القريبة من الجبال، أقل مستوى من العبيد الذين ساعدوا على تحريرهم.

لا يشك أحد أن أبراهام لنكولن قد غير من وجه الولايات المتحدة تغييرا جذريا فى السنوات الأربعة التى تولى الحكم فيها. كان ماهرا فى إدارة الحكومة وكان شديد النجاح سياسيا فى الحفاظ على وحدة الدولة وكان موفقا أشد التوفيق فى القضاء على العبودية وتحرير العبيد، ولكن نجاحه الأكبر كان فى رسم أهداف المجتمع الذى جمعه حوله وحكمه. رسم للأمريكيين صورة ساطعة لأنفسهم وخط لهم نموذجا مثاليا حق عليهم أن يفتخروا به. كانت انجازاته على المستويين الاجتماعى والفردى وكانت عقلانية وثقافية. أدخل تصورات بدونها لم تكن لأمة عظيمة أن توجد. كانت هذه التخيلات هى من آراء رجال الجبال فى ذلك العهد ولم يكن من بينها أى من آراء أهل الشمال ولا أهل الجنوب.

الشخص الآخر الذى غير من وجه المجتمع الأمريكى هو إلى ويتى المولود فى ماساتشوستس فى عام ١٧٦٥ والذى تخرج فى جامعة ييل وعمره ٢٧ سنة. عمل فى جورجيا، وكان القطن المكسيكى قد دخل من جزر الهند الشرقية إلى ساوث كارولينا قبل ستة أعوام. كانت بذور القطن تفصل عن

شعر القطن لمدة خمسة آلاف عام بأصابع اليد، وكانت مهمة فى غاية المشقة إذ كان العبد يستغرق عشرة ساعات متواصلة من العمل ليحصل على رطل واحد من شعر القطن من ثلاثة أرطال من المحصول. استطاع ويتنى باختراعه ـ فى أسبوعين اثنين ـ اسطوانة ذات أسنان دوارة على شبكة من السلك وفرشاة، أى باختراعه لآلة حلج القطن، أن يصنع آلة أسرع ألف مرة من أصابع الإنسان لتتم هذا العمل فى عام ١٧٩٢. بهذه الآلة ارتفع محصول القطن السنوى للولايات المتحدة الجنوبية من أربعة آلاف بالة إلى أربعة ملايين، واستطاع المصدر من القطن من أمريكا إلى انجلترا من تشغيل نصف مليون عامل فى مغازل القطن التى نشأت فى شمال انجلترا. توسعت صناعات القطن وامتدت إلى حوض نهر المسيسبى وإلى سهول تكساس وتوسعت معها تجارة العبيد واستخدامهم فى حقول القطن وصناعاته، ونشأت حضارة كاملة بنيت على عبقرية ويتنى، وبالرغم من هذا فقد حرم هذا الرجل الفذ من نيل أى جائزة أو تقدير وسرق اختراعه وانتقل إلى نيو إنجلند بدون أن يُدفع فيه قرش واحد.

خطرت الفكرة نفسها لدى رجال آخرين على رأسهم لوبلان فى فرنسا وجوزيف براماه برونل فى انجلترا وهى صنع قطع غيار مقننة وممكن تركيبها فى كثير من الآلات، ولكن الفكرة نجحت نجاحا كبيرا فى يد ويتنى. كان رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت توماس جيفرسون الذى التقى لوبلان وفهم منه أساس الفكرة واستوعبها وأدرك آثارها ونتائجها التى أثبتت تفوقها عن كل حد كان يتوقعه الأوروبيون. لم تزح الآلة الإنسان عن موقعه كما فعلت الصناعات فى أوروبا ولكنها حسنت من أحواله وهيأت له معيشة رغدة. كان إنسان الولايات الشمالية هو الكفء، الذى استوعب التقنية الجديدة وهكذا بدأت الصناعة ونمت وترعرعت فى شمالى الولايات المتحدة الأمريكية وتكاثر البشر بعد توفر الخير وزيادة الثراء. هكذا يعود إلى ويتنى الفضل فى ثراء الجنوب والشمال معا وكان الجنوب يستخدم الآلات التى ينتجها أهالى الشمال. استمر الشماليون فى اختراعاتهم الواحد تلو الآخر واستمر الجنوبيون يستخدمون نتاج المدينة. وعندما حلت الأزمة وقامت الحرب الأهلية وواجه الجيشان بعضهما البعض، كان ويتنى قد توفاه الله منذ خمس وثلاثين سنة، ولكن إليه يرجع الفضل فى القضاء على نظام العبودية فى الجنوب وفى قيام الصناعة فى الشمال التى يرجع الفضل إليها فى قوة البلاد ومنعتها.

منذ أن خلق الإنسان، وقبل الكشف عن الزراعة بأمد طويل والتفاعل مستمر بين الفرد وبيئته، وقد استمر هذا التفاعل بين الإنسان والبيئة حتى عصر إلى ويتنى. هناك مجتمعات خاصة تساعد على تربية كبار المخترعين وتناسب تطبيق المخترعات الجديدة، ولكن لم يحدث من قبل ـ حتى عقب الحرب الأهلية الإنجليزية ـ أن نتجت كل هذه الآثار من تطبيق مبادئ جاء بها رجل واحد.

كان نجاح الإمبراطوريتان الأثينية والرومانية فى عصر الحديد، ثم نجاح الإمبراطوريتان البريطانية والأمريكية فى العصر الصناعى قائما على المنافسة الحادة وعلى الصراع العميق الذى حدث لكل من اكتسب ملكة أو تملك موهبة فى مناخ عاشه المجتمع بكل حرية وبدون أى قيود. كان النجاح فى كل الأحوال ساحقا وكانت القوة بالغة ولذا لم ير المجتمع أى ضرورة لتغيير أسلوبه فى الحياة الذى قاده لكل هذا النجاح. ما زال الوضع على ما هو عليه فى الولايات المتحدة الأمريكية ولكن مع تغيير فى أوضاع الأمة الوراثية. ظل زنوج الجنوب فى وضع مهين يثير شعور غالبية السكان البيض، وفى نفس الوقت رأى قادة الصناعة فى الشمال أن زيادة عدد العمال السود، غير المهرة قليلو الأجر ييسر عليهم نشر ميكنة الصناعة والسيطرة عليها والحصول على عائدها وحدهم. وكانت انتصار أهل الشمال فى الحرب الأهلية دافعا لهم لمزيد من هذا العمل. صار زنوج الجنوب أحرارا فى الهجرة من حقولهم إلى مدن الشمال للعمل فى المصانع، حيث وجدوا الترحيب بهم وسهولة المعيشة ـ مما لم يجدوه فى ولايات الجنوب. تدفق الزنوج شمالا، رحلوا بأعداد كبيرة بعد عام ١٨٩٠. بعد عشرين عاما ـ نظرا لاشتعال الحرب فى أوروبا ـ زادت الحاجة للصناعة الأمريكية وازدادت فرص الربح وصارت هجرة الزنوج إلى الشمال سيلا متدفقا. تحولت السكنى فى المدن المريحة إلى أحياء فقيرة مكدسة ووجد الزنوج أنفسهم يسكنون تلك الأحياء المعدمة. وصل تعداد الزنوج فى مدن الولايات المتحدة الشمالية إلى عشرة ملايين وتحول الزنجى فى الشمال إلى شخص مغامر ينتهز الفرص ولم يعد خادما مطيعا لأسياده البيض، بعكس الزنوج الذين تركوا فى ولايات الجنوب. فقد كانت هجرة الزنوج إلى الشمال انتقاء: هاجر الأذكياء ذوو المقدرة والصبر والجلد على العمل الشاق وتخلف الكسالى والأقل مقدرة على العمل. وهكذا تكونت مجموعة جديدة من الملونين فى الشمال وفى الجنوب.

هكذا تكون مجتمع طبقى يعيش داخل مجتمع طبقى آخر. مجتمع تعلو طبقاته، اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا، بعضهما فوق بعض (مثل مجتمع هاكا أو مانكوس فى الصين، ومثل النورمان فى انجلترا، ومثل الإنجليز فى أيرلندة أو الهند، ومثل الأفريكان فى جنوب أفريقيا ومثل مئات المجتمعات الأخرى التى تعيش وسط مجتمعات أكبر منها). ظلت تلك المجتمعات منعزلة وسط المجتمع الكبير بناء على رغبتها الخاصة واختيارها. ولكن مجتمع الزنوج فى الولايات المتحدة، والذين يبلغون ثمن تعداد السكان، فقد عزلهم لون بشرتهم وعزلتهم كفاءتهم الضئيلة ومقدرتهم المتدنية التى أتاحتها لهم الفرص أمامهم. فى أعين سبعة أثمان المجتمع الزنوج أقل درجة، لا يصلحون إلا للأعمال التى لا تتطلب مهارة برغم أنهم وصلوا إلى أوضاعهم هذه من الفرص المنتقاة الضائعة من أمامهم، فى كل

مراحل تطور الإنسان. كانوا دائما فى قاع المجتمع ولكنهم صاروا الآن فى القرار السحيق (باستثناء الهند) الذى لم يشاهد العالم مجتمعا مثله.

المجتمع الأمريكى يحوى أغنى الأغنياء كما يحوى أفقر الفقراء، وهذا الفاروق العميق هو نتيجة تنافس أفضل أنواع الجنس الأبيض على مدى قرون للتفوق والنجاح، وقد أكسبهم هذا ذعرا شديد من بقية أجناس العالم. نشأ خوف شديد لدى البيض فى الشمال من القتل والاغتيال ـ كما كان شعورهم فى الولايات الجنوبية. ونشأ اضطهاد للسود من نقابات العمال الشمالية (كما حدث لهم اضطهاد من ملاك الأراضى فى الولايات الجنوبية). هكذا وجد الفرد الأسود نفسه وقد تحرر من سلطة الحماية من الفرد الأبيض ولكنه لم يتحرر من المعاملة السيئة والإهانات المتتالية فى كل مرافق الحياة. قذفته الحياة فى بحر من الحرية لم يعهده أسلافه من قبل فى أفريقيا ولا فى أمريكا، ولكنها حرية البيض صنعها الرجل الأبيض بمصلحة مجتمع البيض. ألقى بالرجل الأسود فى خضم من الأمواج المتلاطمة، حيث لا مجال للعاطفة أو الرحمة، حيث يتصارع فيه الجميع ومجال الفوز للأسود ضئيل للغاية. لكل هذا نشأ العنف من أثر الإحباط (كما حدث عنف مشابه فى المجتمع الإنجليزى بعد هجرة الزنوج إلى انجلترا).

لإزالة هذا العنف ولتحقيق العدالة هناك طرق ثلاثة يمكن اتباعها. لأهل القانون، الحل الواضح هو صدور التشريعات التى تلغى التفرقة العنصرية بحكم القانون. حدث تقدم بالغ فى هذه الناحية فى قوانين الانتخاب وفى خدمات المحلفين، ولكن استمرت المقاومة عنيفة فى المجالات الشخصية. هل يسمح للزنوج بالمعيشة فى نفس أحياء البيض وهل يقبل أطفالهم فى نفس المدارس؟ قبل الجميع فى الجامعات (لأن بها اختبارات للقبول تتولى هى مسألة التفرقة العنصرية). لم يقبل التعليم العام فى المدارس إلا بمنتهى الصعوبة وحدثت مقاومة شديدة للسكن فى نفس الشوارع، وهذه لا يمكن فرضها عنوة. ففى جميع مراحل التاريخ قامت المدن على أساس الفصل بين الأجناس المختلفة وبين الطبقات ـ وستظل هكذا فى المستقبل المرئى. التفرقة العنصرية قديمة قدم التاريخ، يهذبها التعليم وتروضها الثقافة ويمحو آثارها المركز الاقتصادى ولكن لا يمكن القضاء عليها بالقانون.

الحل الثانى هو امتداد للحل الأول ففى جميع ولايات الولايات المتحدة الأمريكية صدرت قوانين ـ عام ١٩٦٧ ـ تلغى كل القوانين السابقة التى تمنع التزاوج بين البيض والسود. كان مجتمع البيض يرفض تماما فكرة التزاوج بين الأجناس ـ وقد رفض أبراهام لنكولن نفسه هذا المبدأ. ولكن التهجين بين الأجناس هو الوسيلة المثلى لتقارب الأجناس ولذوبان الفروق بينهما. ينشأ النسل متدرجا فى لون البشرة وفى ملامح الوجه وفى نوع الشعر على مر الأجيال. عندما تتكسر الحوائل الجنسية يتم

التقارب الاجتماعى وتنعدم التفرقة. يتم اختلاط الأجناس برغبة الفرد أو العائلة ولا يتحقق بقوة القانون، ولما كان الاختلاط يحدث عادة تدريجيا لم تنشأ عنه آثار سلبية.

الحل الثالث هو الحل الاجتماعى: حماية غير المهرة ورعاية المطحونين ـ سواء كانوا بيضا أو سودا ـ من الآثار المدمرة للتنافس مطلق الحرية من كل أنواع القيود. تلك الرعاية الاجتماعية حدثت بسهولة ويسر فى مجتمعات شمال أوروبا، ولكن فى الولايات المتحدة الأمريكية كان لا بد للأثرياء من المساهمة فى تكاليف رعاية الفقراء. مما لم يكن مستساغا لهم.

نادى بعض زعماء السود ـ من أمثال كارمايكل وهاميلتون ـ أن حل مشكلة السود والحفاظ على وحدتهم الثقافية واهتماماتهم الاجتماعية واعتزازهم بجنسهم لا يمكن تحقيقه إلا بتنميتهم عن مجتمع البيض، وقد أعطوا لمبدئهم هذا اسم «القوة السوداء» يشابه هذا المبدأ ما فعلته جنوب أفريقيا فى سياستها للتفرقة العنصرية. ينادى زعماء السود أولئك أنهم بعزل السود عن البيض سيتجنب تعرض السود للإهانات وحرمانهم من فرص العمل والنمو التى يستحقونها، وسيتفادى السود معيشتهم على هامش مجتمع البيض كخدم لهم أو كأتباع لأسيادهم يتحكمون فيهم. عند قراءتنا المتأنية لتاريخ العالم نرى هذا هو ما اتبعه الإنسان منذ الكشف عن الزراعة وأن هذا كان السبيل لأن ينجز الإنسان ما أنجزه ويحقق ما تحقق على يديه وبفكره وإبداعه. احتقر النورمان المنتصرون خدمهم من الساكسون وبنوا سياستهم على السيطرة عليهم، بين اللورد والخادم فى انجلترا. نشأت مجموعة متدرجة من الأجناس الوسيطة التى عبرت الفجوة وكان التهجين بين هاذين الجنسين أكثر كثيرا مما هو حادث الآن بين البيض والسود فى الولايات المتحدة الأمريكية. مجتمع السود سريع التكاثر عن مجتمع البيض. السود أكثر بطالة من البيض فى أمريكا، وفى أوقات الأزمات يتم التخلص عادة من العمالة السوداء قبل الاستغناء عن العمال البيض. مع كل كشف جديد ـ علمى كان أم تقنى ـ تعرض مزيد من العمال غير المهرة للاستغناء عنهم وللتفرقة بينهم وبين المهرة. كما حدث خلال الثورة الصناعية فى انجلترا شجعت الفروق فى المهارة وسرعة التكاثر والبطالة والاستغلال ـ بآثارها البعيدة ـ على انتقاء المهارة وعلى سرعة تطور المجتمعات الإنسانية ـ منذ أن بدع الإنسان أدواته وآلاته.

يعتبر إنشاء الجمهورية الأمريكية هو رفض الإنسان الذى هرب من العالم القديم للأخطاء والكبت الذى لاقاه هناك. وفى الحال صارت أمريكا هى البلد الذى يدعو البشر الذين يرغبون فى احتذاء المثل فى القدوم إليها. صارت الولايات المتحدة الأمريكية ـ بعد قليل ـ هو البوتقة التى تجمع فيها أفراد العالم القديم واختلطوا مع بعضهم البعض وزاد عدد القادمين الأواخر عن عدد المغامرين الأوائل حتى فاقوهم عددا. ويوضح الجدول (٢٧) نمو سكان الولايات المتحدة منذ نشأة الجمهورية.

جدول (٢٧)

نمو تعداد سكان الولايات المتحدة الأمريكية

السنة	التعداد	نسمة
١٧٩٠	٣ر٩ مليون	،،
١٨٦٠	٣١ر٤ مليون	،،
١٩١٠	٩٢ مليون	،،
١٩٢٠	١٠٥ر٧ مليون	،،
١٩٦٠	١٧٩ر٣ مليون	،،

* مات في الحرب الأهلية الأمريكية ما بين ١٨٦٠ – ١٨٧٠ ٥ر٢ مليون نسمة.
* حدث ارتفاع شديد في عدد المهاجرين إلي الولايات المتحدة ما بين ١٨٨٠ – ١٩٢٠
* في عام ١٩٦٠ كان عدد المواطنين البيض ١٥٨ر٨ مليون
الزنوج ١٨ر٩ مليون
أجناس أخرى ١ر٦ مليون

قدم السكان الجدد من أيرلندة بعد حدوث المجاعة عام ١٨٤٦ ومن ألمانيا بعد قيام الثورة أو التمرد بها عام ١٨٤٨. جاء كثير من اليهود من روسيا عقب مذابح عام ١٨٨١ وقدم المسيحيون إثر الثورة الشيوعية عام ١٩١٧. قدم من أرض السويد الفقيرة مزارعون بحثا عن أراضى يزرعونها وحضر من مدن إيطاليا المزدحمة ومن قراها، كما جاء من اليونان رجال من كافة الألوان. اتجه الذين يقصدون الأرض للزراعة إلى الجو المعتدل والأرض الخصبة التى تلائمت مع احتياجاتهم ووجدوا صعوبة فى التكيف مع بيئاتهم الجديدة. قسم الإنجليز الأوائل أنفسهم حسب الطبقة التى جاءوا منها والحزب الذى ينتمون إليه والطبع الذى يتطبعون به ودرجة الثراء بين الشمال والجنوب، وذهب الألمان إلى السهول الوسطى، واستقر السويديون والفنلنديون حول بحيرات الشمال، واحتل الإيطاليون مزارع الكروم فى كاليفورنيا. تحرك المكسيكيون إلى الشمال فى كاليفورنيا ونيومكسيكو وتكساس. أما المهنيون والأخصائيون ومهرة الصناع فقد اتجهوا ـ كما يتجهون دائما ـ إلى حيث يوجد عمل لهم. كون رجال المناجم الآتون من كورنويل مستوطنات لهم فى ويسكونسون وكولورادو ونيفادا، ووجد اليونانيون أنفسهم فى إقامة المطاعم أو فى إنشاء البنوك التجارية. لأول مرة وجد اليهود أنفسهم متحررين من الضغوط التى كانت تفرض عليهم لكى يتحولوا إلى المسيحية. برعوا فى الطب وفى الرياضيات ـ التى كانوا يستغلونها لخدمة الملوك والسلاطين فى العالم القديم على مدى ألفى عام.

كما برع اليهود أيضا فى الموسيقى وفى القانون واستثمروها لمنفعتهم كعهدهم طوال الثلاثة آلاف سنة الماضية.

توافقت موجة الهجرة الكبرى الجديدة ـ بين عامى ١٨٤٠-١٩٤٠ ـ مع الاندفاع الشديد لدفع المواطنين الأصليين فى أمريكا إلى الغرب تجاه شاطئ المحيط الهادى. كان التميز فى هذه الفترة للمغامرين والمجاهدين بعنفوانهم وقدراتهم الجسدية وليس للمفكرين والقارئين الكاتبين (هناك استثناءات جديرة بالإشارة إليها فى هذا الصدد مثل مارك توين ذو الملكات الثقافية والقدرات العقلانية ـ الذى لم يستقر فى الغرب). حدثت موجات إثر موجات من المستكشفين للحدود الغربية، تبعهم رعاة البقر من كنتكى ثم رجال المناجم من بنسلفانيا ثم المزارعون من نيوإنجلند، واحتدم الشجار بين تلك الفئات جميعا ولم يتجاوبوا معا أو يتجانسوا، كما لم يتجانس معهم من تبعهم. بقى البروتستانت والكاثوليك واليهود منفصلين عن بعضهم لعقيدتهم فلم يتزاوجوا، كما بقيت كل طائفة من البروتستانت منعزلة عن طوائف البروتستانت الأخرى، وكانت كل منها تنتمى إلى طبقة اقتصادية مختلفة. قطنت كل فئة فى حيها الخاص فى المدن المختلفة، وهكذا ظلت المدن منقسمة إلى أحياء منفصلة عن بعضها البعض منذ إنشاء المدن فى أول أمرها. الطبقة العليا فى كل مدينة كانت من البيض الابيسكوباليين، ولم يكن باستطاعتهم تخطى الشارع الذى يقطنونه بحثا عن مسكن أو زوجة وهكذا استمر نمط الحياة فى غرب الولايات المتحدة ـ مثل شرقها بعيدا عن النمط الأوروبى. أحدثت الحرية الكاملة فى الحركة، وحرية العقيدة والتحرر فى نوع العمل فى الولايات المتحدة تماسكا بين أفراد الشعب الأمريكى واختلاطا بين العروق والأجناس كما لم يحدث من قبل فى التاريخ الإنسانى، ولكن هذا الاختلاط كان بعيدا عن أن يكون عشوائيا كما كان ينتظر أن يحدث لو كان التوالد حرا غاية فى الحرية. كان الاختلاط دائما مقيدا بالطبقة والمكان والأصل العرقى للفرد أو العائلة وكانت المجتمعات المختلفة حريصة أن تبقيه على هذا النحو حتى لا تفقد كل جماعة أصلها ولا هويتها.

لم تكن جميع المجتمعات التى حافظت على هويتها فى المجتمع الأمريكى مجتمعات صالحة يود المجتمع الحفاظ عليها وتنميتها. فى المجتمعات المتقدمة تأخذ الجرائم أحد شكلين اثنين. هناك الجرائم المتفرقة مثل إطلاق الرصاص العشوائى (الذى قتل ما يقرب من عشرين ألف شخص فى الولايات الغربية بين عامى ١٨٧٠-١٨٩٥). كان الرجال يقتلون بعضهم البعض فى الأراضى الخالية. الشكل الثانى هو الجريمة المنظمة فى الولايات المتحدة، وعلى رأسهم جماعات المافيا من صقلية. بدأت المافيا كوكلاء لأصحاب الأملاك الغائبين حتى صارت دولة داخل الدولة وصارت الحكومة التحتية فى صقلية فى عهد البوربون. بعد تحرير جاريبالدى فى عام ١٨٦٠ استمرت المافيا دولة

داخل الدولة واستمروا فى سلطاتهم بالتهديد والاغتيال والاخلاص التام لجماعتهم ذات التوالد الداخلى الصرف. على الفرد المنتمى للجماعة كتمان الأسرار وعدم تعقب أخبار أصدقائه وعدم البوح بأى نبأ للعملاء أو لرجال الشرطة أو لأى جماعة أو منظمة تعلو عليهم. طبقت جماعة المافيا هذا النظام بمنتهى الدقة والحزم على كافة أعضائها. ثم انتقلت الجماعة إلى العالم الجديد وقدمت إلى أمريكا. وصل أول أعضاء المافيا إلى نيو أورليانز عام ١٨٩٠ وكان عددهم أحد عشر فرداء تم سجنهم فى جريمة قتل، ثم قتلهم أعوان ضحاياهم. دفعت حكومة الولايات المتحدة تعويضا مقداره ٣٠ ألف دولارا عن هذا الفعل، وهنا بدأت الجماعة تستقر وتجد لها جذورا ثم تتوحش فى أمريكا. بدأوا يختارون أعوانهم من المهاجرين الصقليين وتم تدريبهم على استخدام السلاح، ثم تم توالدهم وترقيتهم داخل نظام محكم، شديد الإحكام، حتى صار منهم زعماء وقادة يدين لهم الجميع بالسمع والطاعة فى جماعة منظمة غاية التنظيم، صارت حكومة عالم الإجرام التحتى. تسيدوا على سائر الجماعات ـ من الأيرلنديين واليهود وأخضوعهم لسلطانهم. ازدهر عالم الإجرام وترعرع فى سنوات منع شرب الكحول، بين ١٩٢٠-١٩٣٣ وانتقلت الجماعة من جماعة إجرامية محلية إلى جماعة إجرامية عالمية. كان القتلى كثيرين ولكن كان المكسب ضخما وانتعشت الجماعة تزاوجت العائلات البارزة فى جماعات المافيا (كما تزاوجت فى الماضى عائلات الكويكرز فى فيلادلفيا والعائلات المالكة فى أوروبا) ولكن لأسباب أخرى. لاصلاح هذه الأقوام ولا تصالح لها مع المجتمع.

حدث تكيف الأفراد مع بيئتهم فى أوروبا على مدى مائة وخمسين جيلا، ولكن فى الولايات المتحدة الأمريكية، حدث هذا التكيف فى عشرة أجيال فحسب، ولو أنه لاقى بعض الردة. فقد هاجر كثير من الفنانين وبعض الكتاب والأدباء ثانية إلى أوروبا. العامل اليدوى، الماهر بيديه والتقنى المبدع يذهب إلى حيث تكون الحاجة ماسة إلى مهارته، بينما يلجأ المفكر الخيالى الحالم إلى صحبة إخوانه الذين يجد نفسه بينهم، وتحلق روحه مع أرواحهم. وقد بدأ ـ فى العهد الأخير ـ مع مزيد من الهجرة ـ من اليهود وأقوام أخرى من بلاد الشرق الأوسط والشرق عموما ـ غرس بعض الروحانيات فى المجتمع الأمريكى، وبدأت المادية المطلقة تلين فى بعض الأماكن. ومع زيادة الروحانيات فى المجتمع الأمريكى خفت حدة الهجرة المرتدة إلى العالم القديم. ويمكننا القول أن المجتمع الأمريكى قد شارف على مرحلة النضج، ونضج أمريكا سينعكس حتما على العالم أجمع.

بدأت الطبقات الحاكمة فى العالم القديم كجماعات محارية ارتبطت بها فئات من المعاونين المخلصين. بالاختلاط والتوالد مع الطبقات العليا من هؤلاء المساعدين تغيرت العسكرية وصاروا من المدنيين ذوى المقدرة والكفاءة. بدأت الولايات المتحدة الأمريكية فى مرحلة متقدمة من هذا التحول،

ولكن نظرا لسرعة تطورها الاقتصادى ولامتدادها الجغرافى الواسع لم تستطع أن تثبت على حكمها مجموعة واحدة من سكانها. كل ما يمكن أن يلاحظه المرء هو امتداد لخيوط كثير من العائلات. هناك عائلات ارستقراطية من أصول عسكرية فى جنوب البلاد مثل الأسرة التى جاء منها جورج واشنجتن ذات أصول إنجليزية. وهناك أسر مالية وصناعية فى الشمال بدءا بمدن بوسطن ونيويورك وفيلادلفيا. وقد نشأت مراكز جديدة خرج منها رجال بارزون فى قيادة أمور الدولة وتسييرها، ليس من الضرورى أن يكونوا بيضا ولا أنجلوساكسونيين ولا ينتمون بالضرورة للمذهب البروتستانتى. ليس من الضرورة – فى أمريكا – أن يصل إلى مركز القوة والسلطة والمناصب الإدارية العليا من كان شهيرا أو معروفا ولكن بالإمكان أن يصل كل مجتهد – بكفاءته ومقدرته وجهده وعمله إلى أرفع المناصب. هذه هى الجماعة التى تشكل المؤسسة. صار الوضع الحالى – فى الولايات المتحدة كما كان فى انجلترا – أن الأغنياء والمقتدرين وواسعى الثراء هم الذين يتلقون أفضل تعليم، فى أحسن المدارس وقمة الجامعات وهم من لديهم فرصة النبوغ والظهور والجلوس على قمة المجتمع، أولئك الذين تبلغ عراقتهم ستة أو سبعة أجيال فحسب. العاصمة – وكثير من المدن الكبرى – فى حالة تطور مستمر وسريع، وعلى هذا التطور يتوقف مستقبل الأمة بأسرها.

ثانيا : الصـــين

دخلت الزراعة الصين فى الألف سنة الثالثة قبل مولد المسيح، ظهرت أولا فى الأراضى الخصيبة فى وادى النهر الأصفر حوالى ٥٠٠ ميل من شاطئ البحر لم يزرع القمح ولا الشعير ولكن زرع الدخن وفى أول الأمر، مع التوسع النيوليثى للمزارعين الأوائل القادمين إلى الشرق من وسط آسيا. أحضر المزارعون الأوائل معهم الغنم والماعز واستؤنس الخنزير المحلي. قدم المهاجرون الأوائل إلى الشمال (وليس إلى جنوب القارة كما حدث فى أوروبا)، وتبعهم المهاجرون التالون لهم والغزاة - باستثناء موجة من الهجرة جاءت فى الألف سنة السابقة لمولد المسيح، جاءت من الهند الصينية جالبة معها الأرز وزُرّاعه واستقروا فى جنوب الصين ثم تغلغلوا تدريجيا إلى شمال البلاد حتى وصلوا مع محصولهم إلى حوض نهر اليانجتسي، وكان توسعهم فى البلاد سلميا. عندما وصل هؤلاء إلى شمال الصين وجدوا فيها فلاحين محترفين يتقنون الزراعة ويروون محاصيلهم، يغزلون وينسجون الصوف، وقد تعلموا كيف يصنعون الحبال من القنب وكيف ينسجونه ليصير قماشا. وجدوا رجالا ونساء لهم خبرة خمسة آلاف عام يعيشون فى مجتمعات، قد قسمت إلى طبقات وصلوا إلى أقصى القارة من أصلوهم البعيدة. وصلوا إلى تلك الأماكن بعد اجتياز واحات وادى تاريم ووادى كانسو الممتد. بعد حين جف هذا الطريق وصارت الواحات واقعة وسط صحراء تاكلاماكان الرهيبة وبعد أن سكن الاستبس حولها حملة الأسهم والأقواس، راكبو الخيول المرعبين. تحول هذا الطريق فيما بعد إلى طريق الحرير الخطير المؤدى من الشرق إلى الغرب. ولكن فى الألف سنة الثالثة قبل الميلاد كان هذا الطريق آمنا، غزير المياه، تقطنه قبائل قليلة العدد. رغم هذا فإن الفلاحين المهاجرين عبر هذا الطريق احتاجوا لألف سنة أو ما يزيد ليعبروا مسافة الثلاثة آلاف ميل.

بعد وصول الزراعة إلى الصين، بعد الكشف عن أصولها فى الغرب، حدث تطور عجيب فى خطوات تطورها، كان الكشف عن الأوانى الفخارية التى توضع على النار قد تم بواسطة حارقى الطين فى الأفران قبل ألف سنة فى الغرب بعد الكشف عن الزراعة، وقد وصل صانعو الأدوات الفخارية إلى الصين وإلى اليابان قبل وصول المزارعين، وهكذا بدأ الصيادون والقناصة فى استعمال

الأوانى الفخارية فى الصين قبل أن يستخدمها المزارعون. تأخرت زراعة المحاصيل لأنها ينبغى أن تتكيف من المناخ أما صناعة الأوانى فتعتمد على مهارة الإنسان، فى إيجاد الطين الصالح للحرق والنار التى يحرق فيها الطين والمهارة اليدوية التى تؤهله لصنع الأدوات. كان الصناع الأوائل لتلك الأوانى من الموهوبين فى تلك الاختراعات والمهرة فى تلك الصناعات، تلك المهارة اليدوية التى ما زالت ذريتهم تتوارثها على مر الأجيال حتى عصرنا الحاضر. بعد حوالى ألف سنة دخلت الصين موجة ثانية من الغزاة عبر وادى كانسو من غرب آسيا. كان لهؤلاء الأقوام ـ الشانج رءوس غريبة وإله إيرانـي: إله الشمس، وديانات تذكرنا بديانات الجنس الآرى فى الغرب الكلاسيكي. أحضروا معهم القمح والشعير وبقية الغلال وأحضروا معهم البرونز وكذلك العربات الحربية التى تجرها الخيول الصغيرة. من الواضح أنهم أتوا عبر آسيا وقطعوا رحلتهم فى وقت أقصر مما قضاه أسلافهم ـ الهكسوس ـ الذين استولوا على مصر قبل عدة قرون بقليل من العربات الحربية. هؤلاء القوم كانوا يصنعون السيوف من البرونز ويربون الخيول ويصنعون العربات الحربية ويستولون على البلاد بسيوفهم وخيلهم وعرباتهم.

استغل هذا المجتمع الجديد الحصان الذى تم استئناسه فى أواسط آسيا والبرونز التى تم سبكه فى بلاد فارس، فى إخضاع القوم الذين كانوا يعيشون فى حوض النهر الأصفر. توسع الحكام من الشانج ومدوا حدودهم فى اتجاه الجنوب حيث تتلاقى مراعى الاستبس مع الغابات والجبال، حتى نهر اليانجستى تقريبا. وهكذا تكونت الأسرة المالكة الأولى فى الصين، وزرعوا القمح فى مملكتهم واتخذوا موطنهم هذا قاعدة للهجوم والاستيلاء على أراضى الشعوب المتخلفة أمامهم وتركوا إخوانهم من ورائهم لقبائل رحل. استغرق هذ العمل قرابة خمسمائة عام من سنين التاريخ.

كان الحصان هو الذى أتى بصناع البرونز بتلك السرعة من بلاد الغرب، ولكنه تخلف طويلا فى إحضار صناع الحديد. كانت القبائل مستقلة ولها طقوس سرية وسحرية وكانت حركتها مقيدة، وكانوا قبائل متفرقة لم تجمعهم وحدة ولا هدف ولم يتحركوا إلا بعد سقوط الإمبراطورية الحيثية، ووصلوا إلى الصين أخيرا حوالى سنة ٧٠٠ ق.م. كان التطور فى صناعات الحديد قد بلغ شأنا عظيما فى بطء شديد للغاية فى الغرب، فقد استغرق عمل الحديد الزهر حوالى ثلاثة آلاف عام (من ١٥٠٠ ق.م. إلى ١٥٠٠ ب.م.) ولكن هذا التطور حدث بسرعة مذهلة فى الصين. فقد بدأ العمل فيه حوالى سن ٣٠٠ ق.م. حين وفق الصينيون لصنع السيوف الحديدية. بهذه السيوف تمكن الإمبراطور تشين من تحقيق وحدة الصين وأسقط المملكة التى نشأت وتورثت بشكل إقطاعى طوال الثمانمائة عام السابقة ـ مملكة أسرة تشو. كان أهالى الصين مهرة فى صنع الآلات والأدوات والأسلحة. فقد

بنى الإمبراطور تشين سورا عظيما حول الصين امتد لألفى ميل لحماية بلاده من هجمات الفرسان من الهن فى القرن الثالث ق.م. لم تستطع الخيول تسلق السور بينما كان الرجال يستطيعون، فتولى أمرهم رماة السهام بالأقواس التى اخترعها الصينيون وصنعوها بمهارتهم اليدوية المعهودة، وحموا البلاد من الغزو لآلاف السنين. وقد تكون تلك الحصانة التى تمتعت بها الصين إحدى العوامل التى وجهت البدو ناحية الإمبراطوريتين الرومانية والهندية بعيدا عن الصين.

عمل أباطرة أسرة تشين على توحيد بلاد الصين وامتداد حدودها إلى مانشوريا وفيتنام والقضاء على الإقطاعيات المحلية. وعملوا على اضطهاد المثقفين وحرق الكتب التقليدية – التى كانوا يعتبرونها عائقا للتقدم، وكانت تلك السياسة نفسها سببا فى ازدهار حكم أسرة هان التى أعقبت أسرة تشين. يرجع الفضل لأسرة هان فى حفر القناة العظمى من تين تسنج إلى نانكنج وإلى بناء غالبية مدن الصين التى ما تزال تحتل نفس أماكنها إلى اليوم – استخدم هؤلاء الحكام المتحمسون جنودا مرتزقة من السكيثيين لمد حدودهم. استطاع هؤلاء الحكام عمل الاتصالات اللازمة مع ملوك البنجاب السكيثيين الذين أوفدوا بعثاتهم التبشرية البوذية الأولى للصين. هؤلاء الرجال الذين يرجع إليهم الفضل فى نقل ثمرات الحضارتين الهندية والصينية إلى اليابان. تمكنوا أيضا من الاتصال بروما، وأرسلوا لها الحرير والخوخ واستوردوا منها الذهب والكروم. وأخيرا تمكنوا – لحد كبير – من منافسة الهند وصدروا فنونهم وتقنياتهم إلى جنوب شرق آسيا التى تحولت إلى البوذية الهندية. بهذا التنافس مع الهنود وضعوا الحدود بين فيتنام الشمالية والجنوبية (التى امتدت إلى عصرنا الحاضر) ويوضح الجدول (٢٨) أهم معالم الأسر الحاكمة فى الصين.

جدول رقم (٢٨)

الأسر الحاكمة فى الصين

شانج ١٥٠٠–١٠٢٧ ق.م.	ارتبطت بالغزاة الإيريان. أدخلوا البرونز والخيل والعربات الحربية والقمح والشعير.
تشو ١٠٢٧–٢٤٩ ق.م.	تتوسع الدولة وتنقسم إلى عدة ممالك إقطاعية. بداية بناء سور الصين العظيم فى شمال البلاد عام ٤٠٠ ق.م. العاصمة لويانج فى هونان بعد عام ٧١٠ ق.م.
تشن ٢٤٧–٢٠٩ ق.م.	تتوحد الإمبراطورية من مانشوريا حتى فيتنام بعد صناعة السيوف الحديدة حرق الكتب – يستمر بناء سور الصين العظيم. العاصمة هسينيانج فى شنسي.

تابع جدول رقم (٢٨)

الأسر الحاكمة فى الصين

هان ٢٠٢ ق.م.٢٢٠ ق.م.	يمتد السور لحماية الطريق إلى الغرب من فرسان هن. يتم الاتصال عن طريق البر والبحر بالهند وروما. يخرج الحرير وتدخل البوذية يبدأ حفر القناة العظيمة. يزرع الشاى ـ يتم اختراع الورق وتبدأ كتابة الأرقام. العاصمة ١- تشانج آن ٢- لويانج
ممالك ثلاث ٢٢٠-٤٨٩ ب.م.	يغزو أهل التبت البلاد من الغرب ويغزو الترك والمغول من الشمال ويتم امتصاص حكامهم فى الأسر الحاكمة ـ يستوطن المهاجرون فى جنوب البلاد ويعتنقون البوذية ـ يتم تصدير الكتابة والحضارة إلى اليابان.
تانج ٦١٨-٩٠٧	مؤسس الأسرة الحاكمة يتزوج من تترية وتتم الوحدة ـ يلجأ إلى البلاد لاجئون زوراشتيون ونسطوريون. يشيد البوذيون أديرة. يغزو المسلمون البلاد. العاصمة تشانج آن
خمس أسرات حاكمة	تتقسم البلاد
سونج ٩٦٠-١٢٧٩	يفصل المسلمون والمغول الصحراء غرب البلاد عنها. نمو العزلة والمحافظة. العاصمة كيفنج فى هونان يحتل المغول شمالى البلاد فى عام ١١٢٦.
١٢٧٩-١٣٦٨	حكومة عسكرية مغولية تضم منغوليا والتبت. مهاجمة بورما وجاوة واليابان. استعادة الاتصال بالغرب (ماركوبولو). ورود القطن إلى شمال البلاد. العاصمة بكين
مينج ١٣٦٨-١٦٤٤	أسسها راهب بوذي. بدء الطباعة فى كوريا عام ١٤٠٢ ـ بعثات بحرية إلى الشواطئ العربية ١٤٠٥-١٤٣٣. حركة مقاومة للأجانب وحرق السفن ١٥٢٥. العاصمة كيفينج وبعد عام ١٤٢١ بكين.
مانشو ١٦٤٤-١٩١١	أسرة مالكة من الغزاة الشماليين. المسيحية ديانة غير شرعية (١٧٢٣) عصيان تاينج (١٨٥١-١٨٦٤). العاصمة بكين.
ثورة	١٩١٢ صن يات صون
الثورة الصناعية	ماوتسى تونج ١٩٤٩.

من هم الأقوام المختلفون الذى تكون منهم الشعب الصيني؟ **أول نوع من البشر** كان القوم الذين قطنوا فى السهول الزراعية التى كونت وسط الإمبراطورية. هؤلاء الذين سكنوا شمالى نهر يانجستى كانوا فلاحين من وسط آسيا وكانوا يزرعون المحاصيل التى تنمو فى البلاد المعتدلة الطقس: الدخْن ثم القمح والشعير. أولئك الذين سكنوا فى الجنوب كانوا فلاحين جاءوا من دلتا أنهار كمبوديا وفيتنام وتهجنوا من الفلاحين القادمين من الشمال. وزراعتهم الأساسية هى الأرز فى مصاطب بنيت بمهارة لتروى بسهولة ويسر على سفوح التلال الخصيبة. وقد زرعوا بالإضافة إلى الأرز المحاصيل الجديدة التى دخلت البلاد كالقطن والشاى والتوت (لديدان القز). **الصنف الثانى من البشر** كان الرعاة، الذى يركبون الخيل ويجوبون البلاد والمراعى من مانشوريا إلى كارباثيا. عندما قاد هؤلاء الرجال قادة من الإيريان كانوا يعرفون باسم السكيثيين، وعندما قادهم قادة من المغول أو الهن كانوا يسمون باسم اللغة التى يتحدثون بها فكانوا يعرفون أحيانا بالترك ويعرفون أحيانا أخرى بالتتار. ما زال هؤلاء القوم يعيشون بيننا إلى الآن فى الأراضى الجرداء والاستبس فى منغوليا. لم يتغيروا كثيرا إلا أن استخدام الأقواس صار حاليا رياضة لهم وليس أساسا لحياتهم. ما زالوا يربون الخيل والبقر وثور التبت الضخم كثير الصوف والماعز والغنم وغزلان الرنة، يتعيشون على لحومها وألبانها ولا يأكلون سواها (مثل قبائل الرعاة فى شرق أفريقيا). هؤلاء هم الأقوام التى أغار أسلافهم لثلاثة آلاف عام على الإمبراطورية الصينية، وهم الذين اخترعوا القوس والسهم واستأنسوا الخيل واخترعوا الركاب للخيول بعد ألفى عام. كون هؤلاء القوم العائلات الحاكمة: شانج، تشن، تانج، الأسرات المغولية وأخيرا المانشو، وتجرى دماؤهم فى عروق جميع الصينيين الذين يعيشون حاليا فى البلاد. ولكن على وجه الخصوص فى عروق الحكام من المحاربين ومالكى الأراضى والطبقات العليا، وقد تهجنوا جميعا من أهل البلاد الصينيين.

الصنف الثالث هم أبناء القبائل المتخلفة من الصيادين والقناصين الذين أستأنسوا الكلب فى سابق عهدهم واستخدموه للصيد (أو لأكل لحمه إذا عز الصيد). هم أيضا صيادو السمك ومربو الدواجن وجامعو الأكل، الذين جمعتهم جميعا الدويلات التى قامت حول المدن فى التلال المرتفعة أو فى الأراضى الأقل خصوبة فى أطراف البلاد أو حول المستنقعات. وقد تهجن هؤلاء جميعا مع الفلاحين الذين اقتربوا منهم واحتلوا أراضيهم أو استعبدوا بواسطة الحكومات الإمبراطورية واستخدموهم كجنود. من لم يتم امتصاصه داخل الإمبراطورية الصينية اضطر للرحيل جنوبا إلى بورما أو تايلاند أو لاوس، كما فعلوا دائما لآلاف السنين. كون الرجال الذين تهجنوا مع الفلاحين القوة الهائلة للعمل بالسخرة لبناء السور العظيم ولشق القناة العظمى. كان يتم طردهم بكثرة من البلاد وكانت الأمراض والأوبئة تحصدهم حصدا ولذا قل عددهم كثيرا. وهكذا نرى أن أهالى الصين

ينتمون إلى مجموعات عرقية كثيرة ومتباينة ولكنهم تهجنوا مع بعضهم البعض، وساعد فى هذا عدم وجود حدود داخلية فى بلادهم تعوق حرية الحركة والانتقال من مكان لآخر.

لعبت الصراعات والغزوات والفتوحات التى صاحبت نشأة الجنس الصينى على خلق الطبقية فى هذا البلد الشاسع. فى البداية قدم الصناع المهرة من أقصى الغرب مع شانج وتشو وتعاونو مع صناع الآلات الفخارية المحليين والنساجين المتواجدين فى البلاد لخلق طبقة صناعية متميزة، سرعان ما تكاثرت داخل المدن الصينية. فى القرن السابع ب.م. وفد إلى الصين بعثات تبشيرية بوذية ونسطورية، كما وفد لاجئون يهود وزراشتيين. ووفد أيضا للصين فى القرن السابع الميلادى تجار مسلمون وبحارة وأقاموا مستوطنات على السواحل الجنوبية. فى كانتون وحدها سجلت أسماء مائة ألف عربي. كل هؤلاء الأقوام تم امتصاصهم فى السكان الصينيين وتم تمثلهم فى المجتمع الصينى أنشأوا مراكز تجمع حولها طبقات تقنية وتجارية وثقافية مستنيرة ساهمت كلها فى ثراء المجتمع الصينى بطرائقها المختلفة وأسهمت فى بناء الحضارة الصينية مع اختفاء لغاتها الأصلية وطريقة كتابتها للحروف. بعد كل هذا الإسهام ـ من الحضارات المختلفة ـ فإن قلب بلاد الصين ـ يتكون أساسا من كتلة عظيمة تزعم أنها من «أبناء هان»، يحيطهم جماعات من المسلمين (المتحدثين باللغات الصينية أو التركية)، والمانشو والمغول وأهل التبت. بالرغم من هذا الانصهار للأجناس المختلفة فى شعب واحد، فإن الرق لم يمتنع فى المجتمع الصيني، أيام حكم أسرة هان دخلت إلى الصين كل أنواع الرق التى كانت معروفة فى المجتمعات الغربية: الأسري، المجرمون، المدينون كانوا يشترون ويباعون فى أسواق النخاسة ويشتريهم أفراد وأباطرة والمشرفون على الأديرة. لم يزد عدد العبيد فى الصين عن ١٪ من تعداد السكان (بينما وصل إلى ١٠-٢٠٪ من تعداد سكان الغرب). لم يستغل العبيد بتاتا فى الصناعة أو الزراعة ولكن كانوا يستغلون فقط كخدم. كان الفضل الأكبر فى تطور الزراعة فى الصين هو اعتماد ملاك الأراضى والفلاحين على عمليات رى مركزية، والمجتمعات التى بقيت على قيد الحياة هى المجتمعات التى خضعت للعمل الإجبارى الذى ينظمه لهم سادتهم. فقد خطط السادة بناء السدود والجسور وحفر القنوات والترع، وبعد ذلك خططوا لبناء الكبارى ثم الأسوار. كانت العلاقة الناشئة بينهما هى علاقة السيد بالمسود على مدى ستين جيلا من انتقاء الأصلح خلال عصور الرخاء وعهود المجاعات، وأثبتت صلاحيتها التامة لكلا الطبقتين. جاءت تلك العلاقة من تسيد الرعاة وسكان التلال على المزارعين قاطنى السهول. لم يكن أهل السهول قابلين للرق ولحياة العبيد (كما لم يقبل الهنود الحمر فى أمريكا واليهود فى الإمبراطورية الرومانية، والرعاة من الجنس الحامى فى أفريقيا) ولهذا اتخذ الرق شكلا آخر فى الصين ـ غير الرق المعروف فى مختلف المجتمعات. فى المجتمعات الأخرى يمكن بقاء الذكور كعبيد بإخصائهم، وبالتالى تصير

النساء محظيات لسادتهم. أما فى الصين فقد سمح بالإجهاض وقتل الأطفال ومعاشرة القرناء (مما حرمته الديانة اليهودية وبقية الديانات السماوية فى المجتمعات الأخرى).

الكتابة ـ أينما كان موضع اختراعها ـ كانت هى وسيلة الرقى الحضاري، ولو أن أفلاطون قد ذكر بعض أوجه مخاطر الكتابة، ورأى فلاسفة الصين بعض أوجه مخاطرها الأخرى، ذكر أفلاطون أن الكتابة تحث على النسيان (وكان يقصد نسيان الفرد ولم يقصد نسيان الجنس أو المجتمع). بنظرة بعيدة يمكننا تأمل تطور الكلام. بالكلام نستغنى عن الأشياء بالكلمات ويغنينا عن التكرار، وبالكتابة نحتاج لحفظ طريقة هجاء الكلمات بدلا من حفظ الأشياء، ولترتيب الأفكار وحسن تقديمها، وبالتالى يصير الكاتب شخصا مثقفا ويدفعنا هذا إلى التقدم والتطور إلى الأحسن وإلى مزيد من الثقافة لمزيد من الفهم، فهم الكلمات والكتب بدلا من مجهود فهم الأشياء. بالتعلم تكونت طبقة مثقفة تتميز عن بقية طبقات المجتمع. نشأت تلك الطبقة بين قدماء المصريين وبين اليهود وبين الإغريق، وعن طريقها تم اختراع الحروف الأبجدية وتم اتقان الكتابة، وعن طريقها حدث التطور العقلى العلمانى لكل مجتمع. أما لدى الصينيين فلم يتم اختراع الكتابة وتطورها، فجاءت الكتابة كحجر عثرة وكنظام غير قابل للتكيف والإصلاح.

بدأت الكتابة فى الصين ـ كما بدأت فى بقية أنحاء العالم باستخدام صور لتمثيل الأشياء وبدأت نحو ألف سنة بعد الكشف عنها فى الغرب ـ بطريقة مستقلة وليست منقولة عن مجتمعات أخري. بدأت الكتابة الصينية برسوم تعبر عن الأشياء، ثم جاءت رسوم أخرى لتعبر عن الأفكار وأخيرا جاءت كلمات مركبة لتعبر عن أشياء وأفكار معا. فى حكم أسرة تشانج كان عدد الحروف ٢٥٠٠، والآن هناك حوالى ٥٠٠٠ حرف معترف بها أكاديميا و٨٠٠٠ حرف تستخدم فعليا فى الكتابة، لكل منها حوالى ٢٠ علامة لتصير فى الواقع ٤٠ ألف حرف. وقد حاول النسطوريون وفئات أخرى من مثقفى المهاجرين ـ فى عصر تلو الآخر ـ استبدال تلك الحروف الصينية المزركشة بأبجدية بسيطة وسهلة، ولكنهم لم يوفقوا (وقد حافظ الترك على استقلاليتهم عن المجتمع الصينى تحت حكم جنكيز خان باحتفاظهم بأبجديتهم النسطورية فى الكتابة). الكتابة الصينية فقيرة فى الحروف الساكنة وثرية أشد الثراء بالحروف المتحركة مثلها فى هذا اللغات البوليفيزية ـ خاصة فى اللهجة البيكينية، ولهذا يحتاج الكلام باللغة الصينينة إلى مزيد من الحركات لتعبر عن نطق كافة الرموز. ثبت الإمبراطور تشن نظام الكتابة هذا وجعله نظاما عاما لجميع أنحاء إمبراطوريته، وعندما جاءت الطباعة فى عهد أسرة تانج الحاكمة كانت الحروف الصينية قد أخذت شكلها الدائم. نقل

الرهبان البوذيون اللغة الصينية إلى اليابان. وهكذا امتدت اللغة الصينية ـ بلهجاتها المختلفة إلى جميع أنحاء العالم ـ كما امتدت اللغات الرومانسكية إلى أنحاء أوروبا والتى بدأت باللغة اللاتينية. ثم تفرعت إلى اللغات الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية.

صارت الكتابة الرسمية الصينية عاملا قويا فى المجتمع الصينى وفى إدارة البلاد. سهل التفاهم بين كافة المواطنين مختلفى الأعراق فى إمبراطورية شاسعة مترامية الأطراف امتدت فى التاريخ منذ عهد أسرة تانج إلى عصرنا الحاضر. وصارت دليل السلطة وظهر السلطان للإمبراطور ولأعوانه من الإداريين الذين ارتفعوا فوق الطبقة العاملة غير المثقفة والفلاحين غير المتعلمين والصناع الذى يجاهدون فى الحياة كلٌ فى عالمه الخاص غير المرتبط بالعوالم الأخري. كان المثقفون يتفاهموم مع بعضهم البعض فى كافة أنحاء الإمبراطورية بحديثهم وكتاباتهم، ويعملون على وحدة إمبراطورية تانج، وكان لهم وحدهم، هم وكبار التجار فى الدولة، هذا الأثر. كانوا يخصصون نصف وقتهم للتعلم والاستزادة من العلم والمعرفة وللتمكن من تأويل كل تل الصور والرموز والحركات، ولهذا كان لهم فضل على عامة الناس الذين كان يكفيهم القليل البسيط مما يفكون به رموز الكتابة الصينية العويصة وكانت الكتابة الصينية مظهرا للطبقية، يستطيع من يقدر على فك رموزها أن يقرأ الأدب الصينى ويتمتع به. وهكذا زادت صعوبة اللغة الصينية وكتابتها من التفرقة بين الطبقات. لم تتغير طريقة كتابة اللغة الصينية على مدى ألفى عام. مع كل أسرة حاكمة جديدة كانت تتغير طرق التعليم ويتغير نظام الامتحانات وتتبدل طبقات المجتمع التى تعتمد على الثقافة والتعليم وتهدد البلاد بقيام الثورة. كانت العاصمة تنتقل فى مساحة مثلث ضلعه سبعمائة ميل بين بيكين وهانجتشاو وتشانجان ولكن بعد استقرار المجتمع نجد أن السلطة تعود ثانية للطبقة المثقفة التى كانت متوارثة منذ قديم الأزل. فى لحظة يأس ونفاذ صبر حرق الإمبراطور تشن الكتب وانتقد نظم الامتحانات، ولكن التعلم والثقافة كانت قد استقرت فى المجتمع الصينى منذ أمد بعيد وأثبتت أنها نظاما ممتازا لإدارة البلاد وحكمها وصارت هدفا فى حد ذاته يسعى إليه الجميع. كان كل غزاة جدد ـ بعد فترة من المقاومة ـ يقع فريسة للنظام الثقافى الصينى ويصير أسيرا لمن تغلب عليهم. كما كان يحدث فى العالم الغربى عندما خضع الرومان المنتصرون للثقافة الإغريقية. هكذا اكتسب الغزاة الفاتحون لبلاد الصين، من التتار والمغول والمانشو، الثقافة الصينية والتعليم الصينى والمخترعات الصينية مثل الكتابة وصناعة الورق وطرق الطباعة، واحدة بعد الأخري. ولكن الصينيين سجنوا أنفسهم ولم ينفتحوا على العالم الفسيح ولم يروا من منجزات باقى الأمم ما يمكنهم أن يقارنوه بمنجزاتهم.

كان نظام الكتابة الصينية المعقد وغير القابل للتطور أو التبسيط يمثل عائقا أمام انتشار الحضارة الصينية. فقد عاق امتداد الإمبراطورية الصينية فلم تتجاوز الحدود التى وصلت إليها طبقة الماندرين تحت حكم أسرة تانج. خضعت التبت وكوريا وسينكيانج وفيتنام والملايو لسيطرة الصين، ولكن نظرا لأن تلك الشعوب كانت لها طرائقها الخاصة فى الكتابة ولكل منها مجموعة من المثقفين ـ لم يمكن ضم أى منها إلى الصين وإدارتها بالحكومة الصينية (وما زالت الكتابة الصينية تشكل عائقا حتى اليوم لحكم سينكيانج بواسطة الصين). لم يمكن ضم سوى الأقاليم المتخلفة التى يسكنها الهمج فى الجنوب الغربى للبلاد ـ مقاطعة يونان ـ وامتصاصها ضمن الصين. دخل الصين مستعمرون عدة وتعايشوا مع أهالى الصين، وبلغ تعدادهم الملايين، ولكن هؤلاء جميعا جاءوا كتجار وصناع ولم يأت منهم المثقفون.

كان لغزو المغول لبلاد الصين ـ الذين دام حوالى قرن من الزمان ـ أثر بالغ فى الفكر الصيني، حتى بعد قلب حكومة المغول. ويرجع هذا الأثر لأن كوبلاى خان أحضر معه رجال حكومته الذين أداروا البلاد، كما جلب معه المثقفون والتجار من الغرب (الحكام الساراسينين الذين ذكرهم ماركوبولو). أدخل هؤلاء القوم الأفكار الغربية والكتابات الغربية وأوقدوا نورا جديدا فى بلاد الصين (وبذا أثاروا معارضة شديدة نحو طبقة الماندرين ـ المديرين الصينيين التقليديين) قامت صراعات حامية بين أهل البلاد الأصليين وبين الغزاة الفاتحين، صراعات تذكرنا بحركات الإصلاح التى حدثت فى التاريخ الأوروبي، وكانت تلك الصراعات أشد الصراعات فى تاريخ الصين كله. وللأسف فقد تغلب التقليديون فى الصراع الصينى على المتنورين المجددين المصلحين. بعد تغلب الماندرين تم حرق السفن، تلك السفن التى اتصل بها الصينيون مع العرب ومع التجار العرب بسواحل أفريقيا. فى نفس الوقت الذى بدأ فيه الأوروبيون يصلون إلى المحيط الهندى. أنكمش الصينيون داخل بلادهم وتقوقعوا وارتدوا عن العالم المتحضر.

اخترع فلافيو من أمالفى البوصلة المغناطيسية واستخدمت فى الملاحة بواسطة الأمير هنرى الملاح بمساعدة العلماء العرب واليهود والحرفيون والبحارة بعد قرن من اختراعها واستكشفوا السواحل الأفريقية. اخترعت البوصلة فى بلاد الصين قبل هذا التاريخ بثلاثة قرون واستخدمها أمراء البحر الصينيون ـ بمساعدة المهاجرين العرب من أمثال الحضرى المسلم تشنج هو ـ فى استكشاف جزيرة سيلان ثم فى الوصول إلى الخليج الفارسى وإلى البحر الأحمر، ولكن كل هذه المنجزات لم تثمر عن شئ عندما انتصر التقليديون الرجعيون فى الصين وأحرقوا السفن. صارت بكين ـ تحت حكم أسرة مينج ـ أكبر مدينة فى العالم. ولكن بعد اندحار عصر التنوير بهزيمة حكومة

المغول بدأ سكانها يهاجرون منها . ظلت لعشرة أجيال مدينة منعزلة وأعاقت هذه العزلة تطور الشعب الصيني. كانت فترة الظلام في الصين أقصر منها في العصور المظلمة في أوروبا . ولكن بعد عصور الإظلام الأوروبية جاء التنوير، وأبدعت عصور التنوير وما تلاها أكثر كثيرا مما حطمته عصور الإظلام أما في الصين كانت عصور العزلة انفصالا تاما عن العالم ولم تستعد الصين شيئا من الإنجازات الحضارية السابقة. صارت طبقة الماندرين أشد الطبقات بيروقراطية وانعزلت بالوراثة، وبامتلاك الأراضي والمباني والمقتنيات، عن كافة طبقات المجتمع.

حدث نفس تسلسل الأحداث في اليابان، حدثت موجات متتالية من الغزو لتلك الجزر، أحضرت إليها العصر النيوليثي ثم عصر البرونز، ثم دخلت البوذية ثم دخلت الكتابة وحدث نمو متواز لها كما حدث في الصين. دخل اليابان أولا مجموعات من الكوريين ثم من الصينيين مع دخول الديانة البوذية ودخول الكتابة الصينية. ثم حدث انعزال تام عن الأوروبيين في اليابان في حكومة شوجون في عام ١٦٤٧ ـ (كما حدث في الصين) ـ بعد محاصرة وقتل اليابانيين الذين تم تحويلهم للمسيحية، تم إحياء هذه العزلة مرة ثانية عام ١٨٥٤ عندما حدث ضغط أمريكي ـ وكان السبب الحقيقي هو وجود خلافات عميقة بين الشرق والغرب قواه الفرق الجذري بين الكتابة والثقافة والتعليم في الشرق عن الغرب. هناك فروق وراثية في الشعبين الصيني والياباني تجعلهما مختلفين عن باقي الشعوب، وقد أثرت تلك الفروق الجينية في تطور هاذين الشعبين. لهذين الشعبين ملكات فنية وتقنية وتجارية واجتماعية بالإضافة للفروق الكتابية والعقلانية التي تجعلهما مختلفين. كما أثرت ظروف بيئية في تطورهما . فقد قابل المزارع الصيني والياباني صعوبات بالغة في زراعة الأرض وفي ريها . لم يحدث في تاريخ هاذين الشعبين أن مرا بفترة العصور المظلمة التي آلمت بأوروبا وانتهت بتقسيم الأوروبيين إلى شعوب متفرقة. وقد أثرت كل تلك العوامل في طبيعة الشعب. فقد تعلم الصينيون ـ من الصعوبات التي لاقوها في زراعة القمح ـ الصبر والنظام والالتزام الدقيق، مما هيأهم لمقاومة الغزو من الغزاة المهاجمين.

يعتبر مجتمع التبت المثل الأعلى للعزلة ويصور أسباب العزلة واثارها في كافة مجالات النشاط الإنساني. بلاد التبت عبارة عن هضبة عالية ترتفع ١٤٠٠٠–١٦٠٠٠ قدم عن سطح البحر، وواد يبلغ ارتفاعه ١٢٠٠٠ قدم عن سطح البحر. تكيف الناس جميعا على المعيشة في جو مخلخل، مما لا يتحمله أي أجنبي يقدم إلى البلاد. أهل التبت منعزلون عن كافة جيرانهم، ويمكن الوصول إليهم من سيكيم ومن نيبال ومن كشمير ومن الصين. جاءت من تلك الاتجاهات الأربعة موجات من المهاجرين خلال الثلاثة آلاف سنة السابقة. جاء أول القادمين الرعاة الذين يسكنون التلال ـ من منغوليا جالبين

معهم الثور الآسيوى الضخم ذو الشعر الكثيف والأغنام. ثم تبعهم المزارعون واحتلوا الوادي. وجاء معظمهم من الصين. ثم قدم المحاربون الأشداء الذين قهروا التبت وكانوا التتار أو الهن الرعاة. فى القرن السابع بعد الميلاد ــ فعل ملكهم ــ نفس فعلة ملوك أوروبا من الهمج ــ وتزوج من زوجتين من الأغراب، إحداهما من نيبال والأخرى من الصين، اعتنق الملك، وجميع شعبه، الديانة البوذية. اشتدت الهجرة إلى بلاد التبت وحدث تهجين شديد مع السكان الأصليين من ملاك الأراضى والحرفيين، كما أدخلت الديانة البوذية للبلاد نظام الرهبنة، ودخلت الكتابة باستخدام الحروف الهندية. من هذه القاعدة حدث تطور فى بلاد التبت، وكان كله تطورا داخليا. سرعان ما تربع الرهبان على قمة المجتمع وشاركوا في الثروة وفى حكم البلاد ــ التى كانت مقصورة فيما سبق على كيار ملاك الأراضي. بعد حين ازداد ثراء الأديرة إلى حد كبير ــ كما حدث فى البلدان المسيحية ــ خاصة من الهبات التى قدمها لها من يريدون الخلاص من ذنوبهم. كان لكل قرية فى بلاد التبت الدير الخاص بها (حتى عام ١٩٥١) ــ الذى يعمل كالطفيل الكبير الذى يمتص كل خيراتها. أدى هذا النظام إلى الإفقار المستمر لبلاد التبت وإلى تناقص عدد السكان حثيثا. ساعد فى حدوث هذا الفقر النقص المتوالى فى خصوبة الأرض وفى تجريف الأراضى الزراعية بواسطة ملاك الأرض وخدمهم. كانت التبت منعزلة عن بقية أنحاء العالم ولم يحدث فيها تقدم علمى وتقنى وسياسى طوال الألف سنة الماضية. ظلت التبت لألف عام منعزلة عن جميع أنحاء الدنيا وكان التوالد فيها داخليا تماما مما كان سببا أساسيا فى وقف التجديد كلية.

فى عصر حكم أسرتى شانج وتشو ظهر تناقض شديد بين معتقدات الطبقات الاجتماعية المختلفة وعاداتها ــ بأشد مما حدث فى البلدان الغربية التى يقطنها الآريون. كان هناك الطبقات المحاربة الذين يركبون العربات الحربية ويمتطون الخيل ويشنون الحروب، ولهم رجال الدين الخاصين بهم والذين يقدمون القرابين لآلهتهم. كان للزواج عندهم احتفالات خاصة وكان يتم دائما مع القبائل والأسر الأخرى. وكان هناك المزارعون الذين توسعوا فى زراعاتهم حول المدن المسورة ــ التى بناها المحاربون وتولوا الدفاع عنها. كانت آلهتهم تعبر عن الأرض والمحصول والخصب وكان الزواج يتم فى احتفالات الربيع، يحضرها أولادها فحسب. قرب نهاية عصر أسرة تشو حدث اندماج للأديان المتعارضة وحدث تزاوج بين كافة المواطنين، وتوقف تقديم القرابين الآدمية عند دفن العظماء.

بدأ النبلاء يحاربون بعضهم البعض فى أقاليم الصين المختلفة لتوسيع إماراتهم. أحس الفلاسفة بخطورة انقسام البلاد وبدءوا فى التجوال فى كافة أرجاء البلاد يبشرون بوجوب الصلح

والخضوع لحاكم واحد، وبدأت الكونفشيوسية التى ساندت أسرة هان وساندتها تلك الأسرة وبدأت الإمبراطورية. بدأ تقليد الخضوع وطاعة حاكم واحد ـ الجالس على عرش الإمبراطورية الوليدة.

وقعت عواصم الصين المتتالية الأربعة فى وادى النهر الأصفر على مقربة من بعضها فى مسافة ٢٠٠ ميل: لويانج (عاصمة أسرة تشو)، هسيينيانج (عاصمة أسرة تشن)، شانجان (عاصمة أسرة هان وتانج) وكفيا فنج (عاصمة أسرة سونج). جاءت تلك العواصم الأربعة فى نفس المنطقة ـ لتركز الثروة الزراعية فى هذا المكان ـ وهكذا انطلق المزارعون والمحاربون والمثقفون والمتنورون جميعا من وسط بلاد الصين. وقد عكس هذا تماسكا ملأ جميع أنحاء الإمبراطورية مما مكن حاكم واحد من الحفاظ على وحدتها. بعد تقسيمها فى غرب البلاد كانت هناك دائما عاصمتان (أو أكثر) ولكل منها إمبراطوريتها، ولذا لم يتم اتحاد المنطقة الغربية المختلفة عرقيا وثقافيا ولغويا وبيئيا، ولكن فى تاريخ الصين كله كانت هناك عاصمة واحدة للبلاد جميعا ومن يحكم تلك العاصمة يصير حاكما للإمبراطورية كلها ـ بهذا تربع أباطرة أسرة هان على عرش الإمبراطورية جميعها وصاروا وحدهم حماتها والمدافعين عنها والمحافظين على النظام فيها، وصاروا وحدهم الناقلين لتعليمات السماء إلى الأرض ولذا أصبحوا فيما بعد مختلفين عن أتباعهم فى الأرض.

عندما دخلت أديان بلاد الغرب الرئيسية إلى الصين: أولا البوذية من الهند، ثم المسيحية النسطورية والمانيشيسية من بلاد الفرس، وبعدها الزرادشتية واليهودية والإسلام، لم يجد الأباطرة المتنورون ـ خاصة الأوائل من أسرة تانج ـ أى خطر من دخول تلك العقائد، بل على العكس رأوا فائدة فى تعدد المعتقدات التى دخلت إلى الإمبراطورية،لأنها جميعا قبلت الخضوع لسلطان الإمبراطور ـ ابن السماء ـ رغم عدم اعترافها بألوهيته. بعد حين بدأت تلك الأديان فى تحويل السكان المحليين إلى دياناتهم المختلفة، وبذا بدأت تناهض سلطان المؤسسة المحلية. بدأ الإمبراطور وطبقة المثقفين والعقيدة الكونفوشيسية يجدون أن تلك العقائد الجديدة الدخيلة على بلاد الصين تهدد سلطاتهم وتنتقص من هيبتهم وتتحدى جلوسهم على قمة النظام وفى أعلى المجتمع. فى نفس الوقت بدأت الخرافات المحلية العميقة فى أذهان الشعب تقتلع من جذورها. اقتلعت البوذية ـ إيمانها بالتوحيد ـ عادة تقديس الأسلاف وهددت بشريعتها بوجود إله أعظم يخضع له جميع الحكام من البشر وبيده أن يعاقب المخطئ منهم بدلا من العقيدة الصينية بأن الإمبراطور هو الحاكم المطلق الذى ليس فوقه أحد. عندما بدأت هذه الأفكار تتسرب بين الصينيين أخذت المؤسسة بيدها زمام الأمور وعاقبت من نشر تلك الأفكار بين الناس بكل أنواع العقوبات حتى يتوقف عن نشرها وإلا طرد من البلاد. عاشت الصين بدون الرجال الذين نادوا بالإصلاح الاجتماعى فى بلاد الغرب حتى حققوا

الانقلاب السياسي. هكذا تم التحكم فى تطور المجتمع الصينى بواسطة النظام الدينى والأخلاقى الذى بدعه، وتوقف نمو المجتمع ويبقى السادة هم كل شئ والمواطن لا شئ على الإطلاق. وكان الأفراد فى كل جيل يتم انتقاؤهم على هذا الأساس وكانوا جميعا خاضعين لهذا المعتقد ويسلكون السلوك المطابق له. وهكذا تماسك المجتمع الصيني، وتوقف تطوره، بالمعتقدات الكونفوشيسية كما تماسك المجتمع الهيلينستى بالآداب الهوميرية. تماسك المجتمع الصينى وتوقف تطوره ليس لأجيال قليلة ـ ولكن حتى عصرنا الحالي.

كان لمقاومة الأديان الأخرى وإحباطها تأثير آخر على الطبقات المثقفة فى المجتمع الصيني. كان لاضطهاد الأديان اليهودية والمسيحية والإسلام، الذى بدأ باضطهاد اليهود فى العام الغربي، ولعدم قبول الأصول العلمية والذى بدأ بالإغريق، أثر واضح وفعال فى تطور المجتمعات الغربية. بالتبشير وبالتعليم وبالاضطهاد المتبادل تكون رأى واحد للطبقات العلمية والمهنية والمثقفة مما طبع الحضارة الغربية بطابع خاص. اضطرت هذه المفاهيم للانتشار ـ تحت الأرض ـ فى وجه مقاومة علنية لها، وأزاحت تلك الأفكار ـ بالتدريج ـ الخرافات التى كانت سائدة فى كل المجتمعات الوثنية والبدائية فى العالم الغربي، ولم تتبق سوى تلك المعتقدات المتعلقة بكل من تلك الأديان (مهما كانت غير عقلانية فى نظر سيسيرو وجيبون وغير علمية فى تقدير جاليليو وهارفى ـ فى العقيدة المسيحية على وجه المثال). بالرغم من هذا فإن تلك الأديان كانت العامل الفعال فى إزالة الخرافات التى ورثها الإنسان من العصر الباليوليثي. لم تختف تلك الخرافات تماما وما زال الأفراد البدائيون غير المتعلمين يؤمنون بها. ولكن فى الصين فإن الشعب كله ما زال يعتقد فى تلك الخرافات. استمر الفلاح فى عبادة آلهة حقله وما زال يعبد المحاصيل التى ينتجها. أما رجل المدينة فقد ألتجأ إلى المعتقدات السرية للأديان المثبطة وخاصة البوذية ـ وفى هذا شبه لما لجأ إليه الرجل فى الغرب من اعتناق الماسونية فى السر. وقد اتجهت الحركات السرية فى العصور الحديثة إلى الثورة أو إلى الجريمة. وهناك نوع ثالث من الخرافات التى شجعت عليها المؤسسة الحاكمة وهو الاتجاه إلى التنجيم. كان التنجيم تقليدا متبعا بين أباطرة الصين كما كان مقبولا من البراهميين فى الهند ومن الحكام الوثنيين في الغرب. كان الحاكم يحسب التواريخ ويقرر ـ فى ضوء تلك الحسابات ـ متى يتم حرث الأرض ومتى يتم الرى ـ حسب ما تقول به النجوم. ثم تطور تقليد التنجيم ليصير هو الوسيلة التى تتقرر بها الاحتفالات الكبرى كما يشاء ابن السماء.

كان الخلاف عميقا بين الصين والغرب فى الأفكار الاجتماعية والمعتقدات الدينية وقد بلغ أشده فى القرن السابع عشر الميلادي. ازداد الخلاف عمقا بمجئ المانكوس فى عام ١٦٤٤. كانت

محاولات الإصلاح تتوقف مرارا تحت حكم الأسر المحلية وقد اندثر الإصلاح الاقتصادى تماما ـ فى أواخر حكم السونج وتوقفت الاستكشافات والتجارة الخارجية فى أوائل عهد مينج. قرر المانكوس تأييد أشد الأفكار محافظة اجتماعيا واقتصاديا وفكريا وثقافيا والوقوف بجانب المؤسسة القديمة. وقرروا أنفسهم فصل المواطنين فى التوالد وفى الإدارة. أنشئوا مدينة تتارية فى كل مدينة كبيرة فى الصين وقرروا منع الزواج تماما مع الصينيات (ولكن أباحوا أن يكون لهم عشيقات) أما للإمبراطور نفسه فقد حرموا عليه اتخاذ عشيقات من الصينيات، وكانت عشيقات الإمبراطور ينتقين من عائلات المانشو. وهكذا كون المانشو من أنفسهم طبقة (كما كون المغول طبقة قبلهم) واستبقوا لتلك الطبقات نصف عدد المراكز الإدارية (ولم يكونوا ناجحين فيها)، وثلاثة أرباع المناصب العسكرية ووظائف الحرس، واستبقوا الربع الباقى لأولاد السفاح منهم. مثل سناتورات الرومان والطبقة الارستقراطية فى البلدان الغربية. لم يشترك أبناء المانشو فى أى أعمال تجارية أو صناعية فقد كانوا يعتبرونها أقل من مستواهم ولا تليق بهم (والحقيقة أنهم كانوا لا يصلحون لمزاولتها). كانت المشكلة الأخرى لأسرة مانشو هو انقسام امبراطوريتهم وشعبهم إلى شمال وجنوب مع اختلاف فى الجغرافيا والثقافة والعرق بين أهل الشمال وأهل الجنوب. لم يسترد الشمال قوته بعد الدمار الذى حدث له من جراء غزو المغول وامتداد الصحاري، وهكذا صار أهل الجنوب أكثر ثقافة وأوفر ثراء وأكثر عددا، قاوم أهل الجنوب الغزاة الهمج بشراسة ولم يطلبوا رضاهم عنهم بخنوعهم وحسن معاملتهم لهم. كان الأباطرة شديدو التمسك بالأصول الكونفوشيسية كما كانوا يشعرون بمشاعر الشعب. أنفق الأباطرة الأموال الطائلة ـ حتى القرن التاسع عشر لإصلاح المعابد الناوية والبوذية إرضاء للجماهير (وفى هذه السياسة تساوى الشرق مع الغرب).

أدى الاتجاه الدفاعى لأسرة مانشو مع التوالد الداخلى إلى ضعف الحكومة وإضعاف الجنس والثقافة المحلية، فى نفس الوقت الذى دخلت فيه أوروبا إلى المرحلة الثانية من تقدمها الاجتماعى والثقافى والعلمى ومع قيام الثورة الصناعية. فى ذات الوقت توقفت الطبقة العسكرية للمانشو والطبقة الإدارية المحلية للماندرين، وكانتا طبقتان تساندان بعضهما البعض وتنتقيان بعضهما البعض وتعتمد الواحدة على الأخرى فى الثروة، التى اعتصراها من جماهير الشعب التى ابتعدت عنهما نهائيا.

تجلى تفكك أسرة مانشو للجماهير الصينية وللعالم أجمع فى انهيار الصين أمام بريطانيا فى حرب الأفيون عام ١٨٤٠. ثم توالت القرائن على هذا الضعف بنجاح هجوم الغرب على بكين فى عامى ١٨٦٠ و١٩٠٠. جاء رد الفعل الوحيد فى الأقاليم الصينية من الجنوب التقدمى بعيدا عن

الشمال المحافظ. أجبر الغزو التترى والمغولى أسرة سونج فى عام ١١٢٦ للإنسحاب من كايفنج إلى هانجشو، وفى النهاية إلى دمارهما، واضطرت الطبقات المثقفة وذوى المهارات اليدوية وأصحاب القدرات العقلية فى المدن الشمالية إلى الهرب منها. هربوا إلى المستعمرات القديمة وإلى مستوطنات جديدة: هربوا إلى كوريا وإلى اليابان وإلى أنام وجاوة وإلى بلاد أخرى كثيرة، ولكن غالبيتهم هربوا إلى مواطنهم الجديدة فى جنوب البلاد. استقر الهاربون فى منطقة كانتون ــ بعيدا عن بكين ــ فى المناطق التى ضمت حديثا تحت حكم أسرة تانج. أصبح القادمون أقرب ما يكون إلى التجار الأوروبيين الذين بدءوا يفدون على البلاد من الموانى الجنوبية. سرعان ما تمثلوا المسلمين المتحدثين باللغة العربية فى مستوطنة فوكين التجارية العظمى وبهذا تهيئوا لإقامة علاقات تجارية حميمة مع الأجانب. انتقل بعض الشماليون إلى كانتون فى عصر السونج وصاروا يعرفون باسم «العائلات من الضيوف» أو «هاكا» وما زالوا يعيشون إلى الآن كمجتمع متميز لأنهم لم يتزاوجوا مع أهل كانتون وما زالوا يحتفظون بلهجتهم الشمالية العتيقة فى الحديث، ويعتبر هؤلاء مجتمعا منعزلا تماما. لعب هؤلاء المثقفون، المترابطون، المتماسكون ببعضهم البعض دورا طليعيا فى الأربعين عاما من المقاومة ضد الغزاة من المانشو. قاسوا كثيرا ولكنهم استمتعوا بآثار معارضتهم للفاتحين. فصلوا من أعمالهم كمديرين ــ ولكنهم ــ نظرا لأنهم ــ المثقفون المفكرون المستنيرون ــ لم يقعوا تحت قيود المؤسسة الحاكمة، ومن بين صفوفهم قامت الثورة فى آخر الأمر.

قامت الثورة بطريق غير مباشر ــ كما حدث فى أوروبا قبلها بثلاثة قرون. لم يكن فى الصين تحد واضح فى الأمور الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية. بدأت الثورة بالرفض ــ كما كان منتظرا من الهاكا ــ للمسلمات الاجتماعية والدينية للمؤسسة الصينية القديمة، وظهرت على السطح بإعلان مؤسس الحركة *الرافضة*، عام ١٨٣٧، بنوع جديد من المسيحية. كان هذا هو أصل عصيان تايبنج. بعد أربعة عشر عاما من التبشير، وجد مؤسس الحركة نفسه قائدا للجيش الذى أعلنه ملكا سماويا على البلاد، واستولى الجيش له على كل الأقاليم الوسطى من جنوب الصين. بعد عامين آخرين من القتال استولى قواد تايبنج على نانكنج ــ أكبر المدن المسورة فى الصين (وفى جميع أنحاء العالم) واتخذوها عاصمة لهم. وهكذا بحلول عام ١٨٥٣ أقام قادة تايبنج أول حكومة حديثة على النظام الغربى عرفتها الصين، وكانت مقدمة لما فعلته اليابان بعد خمسة عشر عاما بواسطة امبراطور ميجى اليابانى. ولكنها زادت عن ذلك بمطالبتها بأن تصير المسيحية هى الديانة الرسمية للدولة، وعملت على انتشارها. ولكنها كانت مسيحية من نوع جديد، فلم يتم تعميد أى من قادة تايبنج ولم يفلحوا فى ترجمة نظرية الثالوث المقدس إلى أهالى الصين ــ ولكنها كانت مسيحية متطورة ــ أكثر فهما وأشد قبولا من المسيحية الحالية التى تنتهجها الحكومات الأوروبية. لم يمانع قادة الثورة

الجدد أى نهج للمسيحية سوف يتبعه الجمهور ـ هل مسيحيتهم التى يبشرون بها أو أى نوع آخر من المسيحية التقليدية التى تبشر بها مختلف البعثات التبشيرية الغربية. كان من أهداف عصيان تايبنج أيضا تحرير المرأة الصينية بدءا بتقليد تقييد الأقدام. كان الهدف الثالث هو فتح بلاد الصين للتجارة الخارجية. بدلا من نظرة الشك العميقة التى اتبعتها الحكومات المتتالية وأهالى الصين نحو ما هو أجنبى والتى باعدت بينها وبين العالم، لجأت الحكومة إلى اتباع نهج الصداقة والاتصال المتبادل بين الصين وبين بلاد العالم كافة،، كما كان متبعا فى العالم الغربي. كانت تلك هى أهداف حركة عصيان تايبنج وأعلن قادة الحركة هذه الأهداف بكل وضوح. وقد أفاد الأوروبيون الذين كانوا يعيشون فى الصين فى ذلك الوقت أن قادة الحركة هم جنس مختلف عن أهالى الصين، ومختلف تمام الاختلاف عن الحكام الذين أساءوا حكم البلاد لزمن طويل.

بعد سبع سنوات من اتخاذ نانكنج كعاصمة للبلاد فى وسط الصين بواسطة قواد حركة تايبنج، استولت القوات البريطانية والقوات الفرنسية على بيكين فى شمالى البلاد ودمروا القصور الصينية للأباطرة وأرغموا امبراطورية المانشو على التسليم بشروطهم. كانت تلك الشروط، أن تسيطر القوى الغربية على التجارة الخارجية للصين وأن تكون الأرباح من تلك التجارة لقوى الغرب ـ والتى كانت تعنى سقوط الحكومة التى تقبل بتلك الشروط. وفى نظير ذلك يساعدوا الإمبراطور بقوداهم وأسلحتهم على القضاء على حركة العصيان فى البلاد. بعد أربع سنوات من الصراع استطاعت جيوش الإمبراطور ـ تحت قيادة الجنرال جوردون وباقى الضباط المسيحيين من هزيمة الثورة المسيحية ومن استعادة السلطة للإمبراطور وحكومته ـ التى كانت أبعد ما تكون عن المسيحية.

مهما أفضنا فى استغلال الأوروبيين لمستعمراتهم فى أفريقيا وفى الهند وفى بقية أنحاء العالم، فلا يمكننا تصور ما فعله الأوروبيون فى الصين من استغلال بشع لثرواتها بعد هذا النصر. كانت ثورة تايبنج هى أول عصيان جذرى هز المجتمع الصينى منذ إنشاء الإمبراطورية. مات فى الحرب ثلث عدد سكان الصين ـ البالغين فى ذلك الوقت ٤٠٠ مليون نسمة وبها وفى نهايتها ضاعت فرصة من أعظم الفرص فى تاريخ الإنسانية البشرية جمعاء. عندما جاءت الثورة بعد خمسين عاما ـ فى عام ١٩١١ ـ كان مقدار الدمار الذى حل بالبلاد، وسوء الحكم تحت الإمبراطورة لاوچير، وتعاظم الفساد فى المجتمع، والحطة التى جلبتها السيطرة الأجنبية، لم تبق شيئا يمكن أن تقوم عليه دولة أو حضارة إلا التمهيد للطغيان الجديد القادم الذى أتى بعد ٤٠ عاما من المعاناة بانتصار الثورة الشيوعية بقيادة ماوتسى تونج. تعلمت الثورة الشيوعية ـ بعد عشرين عاما ـ بعض الدروس التى ألمت بالثورة الشيوعية فى روسيا. أعادت حكومة متحدة ومنضبطة القوة واستردت السلطة للدولة

الصينية ــ أو بالأحرى للإمبراطورية الصينية، واستعاد الصينيون احترامهم لأنفسهم وافتخارهم بالجنس الصيني، ولكنهم ــ أيضا ــ استعادوا عزلتهم عن بقية شعوب العالم وازدادت ريبتهم في الحكومات الأجنبية. حدث هذا بدون أن يخضعوا لحكومات شيوعية أخرى ويسيروا في ركابها. بدأ الحزب الشيوعي الصيني ــ كما حدث في روسيا ــ في فرض نفسه كطبقة حاكمة عليا فوق جماهير الشعب ولكن الزمن سيجعله يعطي مزيدا من الحريات للطبقات المثقفة ــ الذين لا غناء عنهم للأمة ــ وبالتدريج سينفتح الشعب الصيني على باقي الشعوب.

كسر الحواجز الثقافية بين الشرق والغرب حدث في الماضي: تحت حكم أسرة تانج وفي حركة تمرد تايبنج ولكن ضاعت الفرصة في كل مرة وسينتظر العالم جيلا كاملا قبل أن تسنح الفرصة مرة أخرى.

الخاتمة

الإنسان والمجتمع

فى صفحات هذا الكتاب حاولنا أن نتبين كيف بدأ الإنسان والمجتمعات المختلفة على سطح الأرض واعتمدنا على حقائق تاريخية وقرائن وافتراضات واستنتاجات واجتهادت الأقدمين والمحدثين. أول ما اعتمدنا عليه هو تشارلز داروين الذى اعتبر الإنسان كحيوان يمكن – بل يجب – دراسته كحيوان مع استخدام كل الطرق العلمية التى نستخدمها فى دراسة أى حيوان آخر، وهذا يعنى أن النواحى الوراثية والاختلافات فى صفاته الطبيعية والانفعالية والعقلية وأن أوصافه كفرد، سواء كانت اجتماعية أو عرقية، وأن أمراضه وحديثه وسلوكه ينبغى أن تخضع للدراسة التجريبية. واعتبر داروين أيضا أن تطور الإنسان يخضع لأسس الانتخاب الطبيعى كما تتضمنه من الاختيار الجنسى والاختيار الاصطناعى والاختيار غير الواعى. وثانى من اعتمدنا عليهم هم أتباع داروين الذين اتبعوا نهجه وحرصوا على التمسك بالأسس التى جاء بها، خاصة جالتون الذى كان أول من درس بعمق الذكاء الإنسانى وقياسه وتوارثه وتطور هذا الذكاء واختلافه، كما كان أول من طبق هذه المعارف الجديدة لمشكلات التاريخ فى المجتمعات البدائية والمجتمعات المتقدمة. ويمكننا حاليا النظر بطريقة أكثر ذاتية مما افترض دالتون وبذا يزداد اعتقادنا أن الذكاء يتعلق بالقدرات العقلية التى زادت من فرص الحياة للإنسان فى مجتمعه، والتى بدأت فى مكان ما من الشرق الأوسط ثم هيمنت على العالم بأسره، وأن هذا المعيار لا يشترط أن يظل متميزا بالصدق على مدى الدهر، وأنه ذاته معرض للتطور الدائم. وفى المقام الثالث ينبغى أن نذكر بالفضل أولئك النين بينوا المضاعفات غير المتوقعة لنظرية داروين، وأظهرهم كارساوندرز الذى بين أن المجتمعات الإنسانية – مثلها فى هذا مثل المجتمعات الحيوانية – تنظم تكاثرها، وبالتالى أعدادها بضوابط أخلاقية غريزية تقلل من التنافس وتتجنب الصراع. وفى تحليله لتلك الظاهرة بين أن عمليات التوالد هى ذاتها جزء من النظام الوراثى الجينى التى أمكن – حاليا – فهم تطوره فى الحيوانات وفى النباتات. ولكن – فى الإنسان – فإن الإذعان للمعلمين الدينيين قد يشوه أو يثبط الأخلاقيات الفطرية للشعوب البدائية. وفى مجال

آخر ينبغى أن نرجع الفضل إلى الإلهام الذى أتى به فوستل دى كولانج الذى تبين أن تقسيم مجتمعات المدن إلى طبقات يعود إلى تعاون الأجناس المختلفة فى المجتمع، وقد شكلت الأسس الوراثية لهذا المفهوم دراسات عالمى الاجتماع جومبلوفيتش وسوروكين وعالمى التاريخ أكتون وبيرين، وخاصة عالم الآثار القديمة فليندربيترى، الذى طور الفكرة وحولها إلى فرض أضاء لنا تساؤلات عدة. كتب فليندربيترى لنا «إن صعود حضارة جديدة مرتبط بهجرة جنس جديد...... وينتج من اختلاط العقائد، وعقبات من اختلاف الأوضاع الاجتماعية، ولكن كل تلك العقبات تذوب مع مرور الزمن ويندمج الجنسان مع بعضهما البعض».

وهكذا ذكر بيترى فى عام ١٩١١ كل الأسس: من جماعات الإنسان الدينية، والتزاوج المتجانس، والطبقية الاجتماعية والاختلاف العرقى والاتحاد الجينى الوراثى. أدرك بيترى أهمية هذه الأسس كلها من معرفته الوثيقة بكل من باتيسون وبيرسون، كبيرى علماء الوراثة والقياس الحيوى فى ذلك الزمان. وندين بالفضل الكثير أيضا للباحثين فى علوم الإنسان ـ الأنثربولوجيا. فقد درس ريفرز أصول المجتمعات لدى الشعوب البدائية وبين راجلان مظاهر وأسباب ركود الثقافة وضياعها فى تلك الشعوب، ولكن لم يربط أى منهما تلك الدراسات بالعلوم الأخرى، ولم يتبينا العلاقة بين ما كانا يؤمنان به من وجوب تجنب التوالد الخارجى مع ما كان ينادى به لويس مورجان من ضرورة تجنب التوالد الداخلى. هاذان العاملان هما أهم العوامل التى حكمت على مسيرة التطور الإنسانى عبر التاريخ. وسوف نصاب بالدهشة إذا أدركنا أن جوردون تشايلد ـ الذى بين فى تحليل مبدع أصول الحضارات الأوروبية ـ قد أغفل تماما العامل الوراثى والقرائن التى تشير إلى أهمية الثورات الجينى التى جاءت بها دراساته وبقية الدراسات الأخرى. هناك نواح أخرى للدراسات التى يمكن ربطها بالأفكار البيولوجية. هناك فكرة عامة، غامضة، عن المناخ الاجتماعى، مناخ محدد بالطبيعة الجينية الوراثية للمجتمع الذى يعيش فيه الفرد. فى هذا المجال تبرز أفكار باجيهوت عن الإذعان، تحاول طبقة بعينها أن تفرض أسبابها وتفسيراتها على غرائز ومواهب طبقة أخرى وتحاول تبرير هذا الأجبار أنه فى مصلحة كلتا الطبقتين. عندما لا نوافق على شئ ما نصف من يرفضه بالكبر وعندما نوافق على شئ آخر نصف من أتى به بالإخلاص، ويقع كل ذلك السلوك تحت مبدأ الإذعان. وقد أسهب ليكى فى شرح هذا المبدأ فى كتابه «تاريخ الأخلاقيات». فى هذا الكتاب نرى كيف انتشر المسيطرون، من الأفراد والطبقات، فى أوروبا وخلقوا المناخ الأخلاقى الذى أوجد الأفراد الخانعين الذين لا يقاومون الظلم الذى يقع على كواهلهم والطبقات التى تستعذب الخضوع لمن يسيطرون عليها. وهكذا تغيرت معايير أفكار وسلوك المجتمع ككل وصار كالجسد الذى يغطيه الجلد الرقيق، وصار هذا الاتجاه هو الاتجاه الحاكم لكل المجتمعات الطبقية. ولعل آخر التخصصات الكبرى التى

استفدنا منها هو تخصص الزراعة. عندما أعلن فافليوف اعتقاده أن سر التاريخ الإنساني في استئناس النباتات البرية رماه الناس باللغو في الكلام. ولكن بعد أربعين سنة فقط من هذا القول تبين أنه حقيقة لا غناء عنها لفهم ماضي الإنسانية، وفي نفس الوقت نلاحظ الوجه الآخر للعملة؛ أن انتشار الزراعة قد أدى إلى دمار البيئة الطبيعية للإنسان. أول من أظهر لنا هذا التناقض كان الكساندر فون همبولت وجورج بيركنز مارش، وتبعهما علماء آخرون آمنوا برسالتهما، ولكن كانت أصواتهم وتحذيراتهم هباء ضاع في الفراغ. كان مضمون رسالتهم والمبدأ الذي علموه لنا هو أن كل مصدر جديد يزيد من قوة الإنسان على الأرض في حاضره، يقلل في ذات الوقت من فرص خلفائه من بعده، وأن كل تقدم حدث للإنسان صاحبه تدمير للبيئة من حوله وهذا الدمار لا رجعة فيه ولا يمكن إصلاحه ورأب صدعه ولا يمكن للإنسان أن يتبينه في حينه ولا أن يدرك مخاطره في المستقبل، ولعل هذا هو أهم دروس التاريخ. لم نستطع للآن تقدير كيف أثر تدمير البيئة على سير أحداث التاريخ السابقة ولذا لا نستطيع حتى الآن تبين كيف سيؤثر دمار البيئة على الأحداث المستقبلية ولا مقدار ما سيحدثه هذا الدمار على مستقبل تطور الإنسان والمجتمعات الإنسانية. وأخيرا لا بد لنا من الإشادة بكل أولئك الذين أدركوا أن تطور تاريخ الإنسان والإنسانية ـ أعقد المسائل التي يمكن للمرء أن يدرسها ـ يحتاج لاستخدام كل الوسائل المتاحة لنا ـ وليس الاعتماد على ركن واحد أو جزء صغير من المعرفة الإنسانية ـ مهما كان هذا الجزء مفصلا ومنظما وعميقا كما قال المؤرخ أكتون «الرجل المثقف لا يمكن أن يصير مثقفا بدراسة فرع واحد من فروع المعرفة»، ورحم الله شيخنا ابن خلدون ـ أول من حاول دراسة التأثير المختلف لجميع أنشطة الحياة على تطورها وعلى سير التاريخ نفسه. وقد حاول هـ.ج. ويلز ـ من أتباع داروين وتلامذته المخلصين ـ أن يبدأ في مثل تلك الدراسة معتبرا أن استخدام نظريات داروين ـ في النشوء والارتقاء والبقاء للأصلح والانتخاب الطبيعي ـ لا تصلح وحدها لدراسة تطور الإنسان والإنسانية ولا بد من الاعتماد على علوم أخرى وعلى معارف مختلفة إذا عزم المرء على تناول هذا الموضوع والسباحة في هذا الخضم الهائج العميق. ولا شك أن ويلز ـ عند كتابة تاريخ الإنسانية استخدم قرائن عدة ـ قد لا نتفق مع بعضها وقد نرفض بعضها الآخر ـ للوصول إلى الخلاصات التي وصل إليها. ولكننا نوافق على فكرته ونحترم المبدأ الذي جاء به ونجله من أن تاريخ الإنسان هو تاريخ واحد في كافة البلدان ومختلف البقاع وهو ما نرمي إليه في كتابنا هذا، كما نحترم أيضا خليفته كارلتون كون لاستمراره في هذا المسعى وسيره في ذات الطريق مع زيادة مراجعه باتساع المعرفة الإنسانية.

فكرة وحدة التاريخ الإنساني قد تعززت في السنوات الثلاثين الماضية بالإنجازات الرائعة لعلمي الآثار والوراثة. العلمان ليس جديدين، فكل منهما بدأ منذ أكثر من قرن من الزمان، ولكن طفرة

تقنية واحدة قفزت بعلم الاثار قفزة عالية وغيرت من مفاهيمه القديمة، وعدد من النظريات الجديدة والكشوف المتتابعة قد أحدثت انقلابا فى علوم الوراثة.

استطاع الإنسان أن يحدد بدقة تاريخ كل أثر يعثر عليه باستخدام الكربون المشع (ك١٤)، وقد هز هذا الكشف علم الآثار من جذوره. استطعنا باستخدام هذه التقنية الجديدة إزالة أى شك فى تاريخ كل ما نعثر عليه وتحقق الإنسان بدقة من كل ما كان يشك فيه. استطعنا أن نحدد اتجاه حركة الإنسان فى العالم وقدرات الشعوب المختلفة ومخترعاتها فى العصور الحجرية قبل بدء التاريخ المكتوب. بهذا استطعنا التأكد من أن غالبية الاستدلالات التاريخية السابقة عن الزمان والمكان كانت صحيحة ولكن بعضها خاطئا. استطعنا التأكد من أن الزراعة والحضارة فى العالم القديم كله قد بدأت من مكان مركزى فى الشرق الأوسط ومنه انتشرت ـ بهجرة البشر ـ الرجال والنساء، والشعوب، وبتكاثرهم نشأت جميع الأمم البشرية. كذلك أمكننا التأكد أن الزراعة نشأت مستقلة بواسطة أناس آخرين فى العالم الجديد، وأن هؤلاء البشر قد زرعوا محاصيل جديدة. عرفنا أن الأفكار الجديدة لا تحدث إلا لماما بين الشعوب البدائية، ولكن إذا أتيح للأفراد المناسبين فى المكان المناسب الوقت الكافى فإن آراء عظيمة وأفكارا رائعة سوف تظهر، أكثر من مرة. وبعد ظهر الفكرة الجديدة تتبعها سلسلة متتالية من الأحداث الكبرى. من هذه البدايات النادرة الحدوث سارت الفكرة الأساسية على الأقدام ثم على ظهور الخيل وعبرت البحار على ظهر السفن، بسرعات يمكن قياسها. ولكن ـ حتى حلول العصر الحاضر ـ لم يتم انتقال تلك الأفكار بتاتا ولم تنتشر عن طريق الطائرات ولا عن طريق المذياع، وهذا ما يتناساه إنسان العصر الحاضر المتحضر. حتى الآن ظلت الثقافة مرتبطة بالشعوب التى بدعتها أو بأبنائهم وحفدتهم. عندما يتتبع عالم الآثار حضارات الشعوب المختلفة فإنه يتتبع تحركات البشر، والتغيرات التى تحدث فى المجتمع، صعودا أو هبوطا، نموا أو اندثارا، ومن ذلك التتبع يستطيع فهم الأسباب والروابط بين مختلف العمليات، وينتظر أن يركب كل تلك الأنشطة داخل المثبت الذى ينتظر ملء فراغاته، ونأمل أن نؤكد استمرارا فى الحدث أو انتشارا له أو انتقالا أو نقلا، ونربط بين السبب والأثر الذى تعتمده وحدة التاريخ الإنسانى كله.

أما التقدم الذى حدث فى علم الوراثة فهو تقدم مذهل وله آثار بعيدة وسنتبين فى المستقبل مقدار تلك الآثار على تطور الإنسان. فتطور الإنسان والمجتمعات الإنسانية ينشأ مما يمكن للرجل أو المرأة أن يفعلاه والدافع لهذه الأفعال وأهدافها، أى يعتمد على صفات الفرد، المحكوم بعوامل وراثية، وهذه العوامل الوراثية يحكمها نظام التوالد فى المجتمع. تختلف أنظمة التوالد ـ كما بينا ـ تماما ما بين التوالد الداخلى والتوالد الخارجى. مع نظام التوالد الداخلى تزداد قوة العامل الوراثى: يصير التصميم قطعيا وتتماثل المجموعة والجمهور والطبقة والجنس العرقى. بالإمكان تدميرهم أو

إزالتهم، أما لو استمروا فى أماكنهم فلا يمكن التنبؤ بأى حال. مع التوالد الخارجى تتآكل العوامل الوراثية وينشأ من إعادة تجميع الموروثات اختلافات عميقة وكثيرة لا يمكن التنبؤ بها وتحدث تجديدات بلا نهاية. ويعم المجهول، المجهول المنظم كيان المجتمع وينتقل ضبط التطور إلى قدرة انتقاء العوامل البيئية. بين هاذان الضدان يحدث التوازن فى كافة أنواع الحيوان والنبات. أما فى الإنسان، فمنذ الثورة النيوليثية، تأرجح التوازن بين طرفى النقيض تبعا لاختاف العوامل الاجتماعية وعندما لم يمكن المحافظة على التوازن حدثت الأزمات الكبرى فى التاريخ الإنسانى. تطور الذكاء الإنسانى ببطء مطرد وتأثر بالنظام الاجتماعى الطبقى. اختلف ذكاء البشر وتنوع، واختلف بالتالى نظام التوالد الذى اتبعه الإنسان. فقد نشأت جميع الطبقات الحاكمة كما تكونت طبقات العبيد ـ فى البداية من اتجاه الأجناس المختلفة على نشأة الطبقية فى المجتمعات، وكان التقدم دائما فى مصلحة المجتمعات الطبقية إذا ما قورنت بالمجتمعات التى تساوت فيها رؤوس البشر. كانوا أكثر تنافسا ، وتعاونت طبقات المجتمع ـ المتنوعة وراثيا مع بعضها البعض لإنتاج منتج أكثر تعقيدا وأشد كفاءة عما تنتجه المجتمعات البدائية البسيطة المتجانسة. وكانت هذه المجتمعات الطبقية أكثر تكيفا لأن التهجين الذى حدث بين الطبقات المختلفة قد أطلق تنوعا إضافيا فى تلك المجتمعات. بعد تكون المجتمعات الطبقية استقرت ثم جذبت وتمثلت الغرباء ليكونوا طبقات جديدة اتحدت لتبنى المدن والأمم ببطء شديد. بدأت المدن فى المنطقة المعتدلة الطقس ثم انتشرت بصعوبة إلى المناطق الأخرى، شمالا نحو القطب الشمالى وجنوبا إلى المناطق الاستوائية نتيجة هجرة منتقاة ثم بالتهجين مع سكان تلك البلاد الأصليين ممن يعيشون فى هذا المناخ الشديد. وبهذا تمكنوا من التكيف مع تلك الأحوال الجديدة. وكلما كان المجتمع أشد تعقيدا بمجموعاته الكثيرة، داخلية التوالد كل على حدة، كلما تأخر حدوث التكيف فيه. انتشرت الزراعة ببطء شديد وتكونت المدن أيضا ببطء شديد ولكن كان انتشار البشر سريعا، سواء كانوا صناعا أم محاربين، وخاصة من ركبوا الخيل أو أبحروا بالسفن وارتبطوا بمجتمعات جديدة حلوا فيها. إذا كانوا من الحكام نقلوا لغاتهم إلى الأماكن التى ارتحلوا إليها وتوسعوا فيها سواء كانوا آريين أو ساميين أو صينيين أو عربا أو أندونيسيين أو ممن يتحدثون البانتو. اعتمد الغزاة الجدد على طبقة حاكمة سابقة، تناسلوا معها وتهجنوا ولكنهم ظلوا بمنأى عن جماهير الشعب. بهذه الطريقة ـ مع تزايد الفتوحات ـ انتقلت لغات الحكام وانتقل دمهم إلى جميع أنحاء الأرض. كل المجتمعات بحاجة إلى رجال دين، الذى يضعون التشريعات التى تنظم عمليات التوالد فى شعوبها. إذا تركت تشريعات التوالد فى يد الطبقات الحاكمة فحسب لتحقق رغباتهم لاندثر الحكام واندثرت معهم الأمة كلها. لفهم هذا يتوجب الإمعان فى أصول الطبقات الجديدة التى تواجدت فى كافة المجتمعات.

كان من ابتدأوا الأسرات الحاكمة الجديدة سواء أكان قورش أو الإمبراطور تشن، أغسطس أو وليام الفاتح، ذوى أصول ذات صفات مميزة. جاءوا جميعا من توالد خارجى، قد يكون مبالغا فيه لدرجة أن يكونوا أبناء سفاح. بعد تحقيقهم الانتصار وفتح البلاد يسعون ليبقى الحكم داخل أسرتهم. الفراعنة والأخميميون، البطالمة والقياصرة، فى الزمن القديم وفى العصور الحديثة مثل أسرة الهابسبورج، تحولوا من التوالد الخارجى إلى التوالد الداخلى عندما يصلون إلى القمة، وبهذا تسببوا جميعا فى انهيار ملكهم وانتهاء عهود أسرهم الحاكمة. الوحيدون الذين امتنعوا عن هذا التقليد كان ملوك أوروبا فى العصور الوسيطة. ذلك لأن عددهم كان كبيرا ـ يشكلون قبيلة وحدهم ـ وعملوا بتزاوجهم من بعضهم البعض على تماسكهم سياسيا وثبات التوارث الجينى فيهم جميعا. كذلك منعهم البابا منعا باتا من التوالد الداخلى. وعندما فقد بابا الكاثوليك سلطته عليهم ظهر أثر ذلك سريعا عليهم وفقدت أسرتا الهابسبرج والبوربون ملكهما، بعد اتجاههما إلى أقصى درجات التوالد الداخلى عندما كان يتزوج الابن من أخته أو عمته ففسد النسل وانهارت الدولة. حتى عندما يكون التوالد الداخلى ليس بهذه الدرجة البالغة، يتأثر الحكم ويضعف، ليس بسبب عيوب وراثية تنشأ فى النسل ولكن بسبب ثبات نوعية الحاكم وخصائصه بعد تغير العصر وتبدل الزمان، كما ذكر كبير الوزراء لأقطاى ـ نجل جنكيز خان ـ «لقد تكونت إمبراطوريتك الشاسعة والعظيمة بمهارة أسلافك فى ركوب الخيل، وإتقانهم للفروسية ومهارات الكر والفر، ولكنك لا تستطيع حكمها بهذه المهارة وحدها». وتكرر هذا المثال مع أرستقراطيو أوروبا الذين تمكنوا من الفروسية واتقنوا فنونها ـ بفضل توالدهم الداخلى ـ تلك المهارات والفنون التى مكنت لأسلافهم النصر فى الحروب، ولكن فى عهودهم، بعد تغير أساليب الحروب وطرائقها، سبب تمسكهم بالفروسية وحدها واعتمادهم الكلى عليها ـ كما سبب تمسك المغول من قبلهم عليها ـ من حلول المصائب لهم. ولم يمكن لذكاء بعض الأفراد وبعد نظرهم من التغلب على غرائز الجماهير ونصحهم باتباع السلوك القويم.

فى الزمن القديم كان المستكشف التقنى غير معروف بالاسم ولكن أدت كشوفه فى كثير من الأحيان إلى فضل بالغ على قومه، وقد رفع بعضهم إلى مرتبة الألوهية والتقديس. لا نعرف شيئا عن آبائه وأسلافه وعائلته ولكننا نعرف مستبقى سر كشفه لقبيلته، (سواء كان هذا السر هو استئناس الفرس أو ركوب الخيل أو تقنية صهر الحديد)، وفى أول الأمر استبقى هذا السر لعائلته من دون قبيلته. يعود سر هذا الكشف على صاحبه بالقوة والثراء العظيم ويمتد تدريجيا إلى خارج المحيط الضيق الذى يحاول صاحب الكشف أن يستبقيه فيه. وبهذا تعود الكشوفات التى يحققها أفراد قلائل من البشر بفتح آفاق العمل لكثرة من الناس وتتكون طبقة من ذوى السلطة والسلطان ومن ذوى الثراء الواسع فى المجتمع.

لا يختلف عن هذا المثال ــ فى العصر الحديث ــ سوى المجتمع الهندى ــ الذى يحافظ على طبقات المجتمع بجمود ولا يسمح لأفراد طبقة أن ينتقلوا إلى طبقة أخرى. أما فى المجتمعات الأوروبية فرغم أن النظام الطبقى فيها مرن إلى حد ما ويمكن للفرد أن ينتقل من طبقة إلى أخرى إلا أن تغيير الفرد لطبقته محدود لدرجة كبيرة. ولكن الاختلاف بين ثبات المجتمعات أو ديناميكيتها واضح لدرجة كبيرة من مجتمعات الريف والحضر، بين المجتمعات الريفية ومجتمعات المدن، ويرجع الفضل فى ذلك إلى المدن. ففى المدن قطن سكانها الأوائل فى أحياء مختلفة منفصلة عن بعضها البعض. ولكن حدث تهجين بين مختلف الطبقات، وكان سهل الحدوث فى المدن ــ بعكس الريف ــ حيث يكون الفلاحون بأيديهم الغالبية العظمى من السكان ويكاد يكون الأثرياء ملاك الأراضى الأقلية. كان الفلاحون الفقراء هم وحدهم المتحملون لكل مصاعب الحياة وهم الصابرون الكادحون، وكان ملاك الأراضى هم المرفهون المنعمون الذين يحصلون على ثمرة العاملين المكافحين وعلى كل خيرات الأرض وما تنتجه. بالتدريج اتجه الفلاحون للهجرة إلى المدن وتهجن أولئك من سكان المدن وحدث التقدم الاجتماعى فى المدن. أسرعت عملية التهجين بنمو المدن وأعقب هذا قيام الثورة الصناعية فى مكان بعد آخر والتى شجعت على مزيد من الهجرة من الريف إلى الحضر ومزيد من التهجين ومزيد من التجديد. تلى ذلك نشأة مجتمعات، نشأت بفضل الثورة الصناعية وتبعتها وكانت لها خاصتان تميزانها. تكاثرت طرق اكتساب المعيشة وتنوعت سبل أكل العيش وتعددت المهن والحرف وزاد اختلافها عن سابقتها وصارت مؤقتة وغير ثابتة ولا دائمة عما كان يحدث فى أى مجتمع من المجتمعات السابقة. كما تفرق الأفراد إلى طبقات أكثر تعددا من طبقات المجتمعات السابقة حسب قدراتهم واستعداداتهم وحدث تزاوج أوسع بين مختلف الطبقات وسهل على كل فرد أن يغير مهنته وعمله وموقعه فى المجتمع. أثر هاذان العاملان: طريقة الحياة والفرد وعمله، وزيادة تعدد الأعمال على الإنسان كما لم يحدث فى كل مراحل التاريخ السابقة. ولعل هذا هو السبب وهو النتيجة للسرعة المتنامية للتقدم التقنى والمخترعات الجديدة.

نظرا لزيادة أقسام المجتمع ولتزايد الوظائف التى يقوم بها الإنسان فى هذا العصر نشأت مصاعب اجتماعية وصعوبات تاريخية كما كمنت الخلول لإصلاحها. أول تلك الصعوبات هى فى اختيار العمل الملائم لكل فرد. إذا لم يرغب الابن فى سلوك طريق أبيه والعمل فى نفس مجال عمله عليه أن يختار أى الأعمال سيعمل فيه. سينتقى عادة ما يعتقد أو يشير به عليه الآخرون ما يناسبه من عمل وما يظنون أنه سينجح فيه وسيكون أفضل الأعمال له. سيتبع الشخص شديد العزم وينتقى لنفسه ما يعتقد هو نفسه أنه الأصلح له، وسيخلق فى محيطه كل ما يؤهله لبلوغ قمة النجاح والحصول على الثراء غير المنقطع. أما الفرد ضعيف الشخصية ضعيف الإرادة فسيتبع آراء

الآخرين ويقبل ما يعرض عليه من عمل. بين هاذين المثالين يقع أغلبية الناس ويحدث التفاعل بين الفرد والمجتمع ومع العالم الذى يجد نفسه فيه. كل هذا يتوقف على الخصائص الوراثية للفرد والتركيب الوراثى للمجتمع ومن التأثيرات المختلفة والنتائج المبتاينة تتوقف النماذج المختلفة لأوجه النشاط الإنسانى. هناك نموذج للمجتمع سريع التغيير، فى المدن الكبيرة، فى البلدان التى كفلت حرية التنقل بسهولة ويسر لمواطنيها، التى لا يحدها عامل الفقر أو المميزات الدينية أو الاختلافات اللغوية. فى تلك المجتمعات يبلغ التوالد الخارجى أشده، وفى ظل هذا المستوى الحر من التوالد الخارجى يتنوع الأفراد إلى أقصى درجة ويصل بعضهم إلى الحدود القصوى من العبقرية أو التخلف، من المبدع إلى المعيب. فلنبدأ بمناقشة الشخص المعيب تجده كنويا شديد الكذب وهو سبب المصائب الكبرى فى تلك المجتمعات، يعوزه الانسجام والتكيف مع مجتمعه. هو عبء يجب أن يتحمله المجتمع ككل نتيجة تطبيق أفضل أساليب التوالد على الاطلاق. لحسن الحظ يكثر بين هؤلاء قصر العمر وانخفاض الخصوبة، ويلعب الانتقاء الطبيعى لعبته ويمنع هذا العبء من أن يكون غير محتمل. نناقش ثانيا التركيبة الجينية التى تنتج الشخص المبدع. هو المخترع، الفنان، البطل. هل يغير مثل هذا الشخص وجه التاريخ؟ ربما لا يفعل شيئا فى الأمد البعيد الذى مصيره الفناء، ولكن فى الأمد القصير، الذى قد يمتد لعدة مئات من السنين، أو مكان محدود، فى أمته والأمم المجاورة لها والشعوب التى تتأثر بها، فإن واقعه سيكون كبيرا. فمن نسميهم بالرجال العظام ينشأون من تركيبة وراثية فريدة ويظهرون فى أوقات استثنائية وفى أماكن معينة. يتأثر بهم جميعا تابعيهم ويمتد هذا التأثر إلى المكان والزمان. وللأسف فإن احتلال صغار الرجال للأماكن العظيمة قد يكون له نفس آثار شغل كبار الرجال لتلك الأماكن، مع الفارق الكبير أن نتائج أعمالهم تكون أبعد مما كانوا يهدفون إليه.

مقدم الرجال العظام شئ لا يمكن التنبؤ به. هناك عاملان يحددان عظمة الشخص: أحدهما وراثى والآخر بيئى، ولا يمكن التأكد من أيهما. المصدر الوراثى فى الفرد المبدع هو فى امتزاج فريد ينشأ من توالد خارجى نشأ من امتزاج منظم للجينات الوراثية إثر توالد خارجى، ونتج عنه تطور الإنسان وتطور العالم. أما المصدر الثانى الذى لا يمكن التنبؤ به فهو البيئة الحيوية حول الإنسان ــ خاصة بيئة الكائنات الدقيقة. لا يمكن للعلم حتى اليوم التنبؤ بمستقبل الأمراض المعدية ولا بالسبيل الذى ستسلكه فى المستقبل ولكننا نستطيع التنبؤ ــ بدرجة محدودة ــ عن الآثار التى ستخلفها على الإنسان. كلما تنوعت أصناف البشر وازداد الاختلاف الجينى الوراثى بين الأفراد كلما اختلف تأثيرها على الإنسان وتباينت آثارها على البشر.

ينبغى لنا أن ننظر إلى الإنسان ككل متكامل يشد بعضه بعضا لا كشعوب متفرقة لا يعنى مصير أحدها مصائر الآخرين. الجنس الإنسانى جنس واحد وهو أثمن الحيوانات وأشدها رقيا وينبغى علينا أن تحافظ عليه هكذا وأن نحاول دائما الاستزادة من رقيه ودفعه دفعا إلى الأمام وإلى مزيد من الترقى والعلو. لا يكفى لنا الامتناع عن قتله ولكن يجب علينا الحفاظ على بيئاته المختلفة من التدمير والاندثار حيث تعيش شعوب مختلفة تحتاج لتلك البيئات لتظل على قيد الحياة، فإذا ضاعت تلك البيئات فمن المستحيل استعادتها وصدق الله العظيم حين قال فى كتابه الكريم:

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾.

(سورة الحجرات الآية: ١٣)

محتويات الكتاب

فهرس الخرائط

فهرس الجداول

كتب أخرى للمؤلف

اسم الكتاب	دار النشر	سنة النشر
مضادات الحيوية	دار المعارف	١٩٧٨
الأمراض المعدية (باللغة الإنجليزية)	دار المعارف	١٩٧٨
مرض نقص المناعة المكتسب «إيدز»	مركز الأهرام للترجمة والنشر	طبعة أولى ١٩٨٧ طبعة ثانية ١٩٨٧ طبعة ثالثة ١٩٩٣
الأمراض المعدية : ماضيها وحاضرها ومستقبلها	دار المعارف	١٩٩٠
أمراض الكلى : أسبابها وطرق الوقاية منها وعلاجها	دار الشروق	١٩٩٤
مناطق الصراع فى العالم	دار المعارف	١٩٩٥
البغاء عبر التاريخ	دار الجيل	١٩٩٦
تحديات المستقبل	دار الأمين	١٩٩٧
الاستنساخ : هل بالإمكان تنسيل البشر	دار الأمين	١٩٩٧

دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع
٨ ش أبو المعالى (المجرزة) الجيزة - ت/ فاكس : ٣٤٧٣٦٩١
١ ش سوهاج من ش الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم - جيزة
تليفون وفاكس ٥٦٣٤٦٩٩


العالم بعد الزراعة
مراكز المستوطنات الزراعية الأولى
مراكز المدن المتطورة
مركز المستوطنات الزراعية المتطورة
الزراعة المختلطة

موجز
تطور الحضارات الإنسانية

■ لاحظ علماء الأنثروبولوجى فروقًا بين قدرات الأجناس المختلفة فقد تبينوا أن البوش مان (وغيره من الأجناس التى اتبعت الصيد والقنص) أكثر ذكاءً : فالصائد عرف خصائص الحيوانات وطرق تربيتها وبدأ فى استئناسها وتعلم كيف يجتذبها - مما دل على معرفته الواسعة والدقيقة بأنواع النباتات فى بيئته وخصائصها الغذائية ، والتطبيبية والسمّية . (وعرف أيضًا كيمية استخلاص السموم منها) . لاحظ العلماء أن جامعى الطعام كانوا أقل ذكاء ممن اعتمدوا على الصيد والقنص وصائدى الأسماك ، وصائدى الطيور وناصبى الفخاخ . وكان أكثرهم ذكاء كانوا مَنْ اعتمدوا على الصيد والقنص وجمع الطعام معًا . وهذه الميزة الجينية تفوق أى ميزة يمكن اكتسابها بالتدريب . ولكنه كان متخلفًا فى بعض النواحى : كان متخلفًا فى العد . سواء كان الأشخاص أو الحبوب أو الأيام . وكان يرى العمل اليدوى الرتيب المتكرر مثيرًا للملل . وهكذا كان لا يتحمل زراعة الأرض . كان الصياد القديم - مثل غجر أوروبا اليوم - دائم التجوال ، ويقاوم الاستقرار فى مكان واحد . ولم تتغير صفاته سوى بالتهجين (وتظهر صفاته الأصلية فى بعض أنواع الرياضة الحديثة فى بعض طبقات المجتمع مثل صيد الثعالب والحيوانات المفترسة ، ومثل تفاهته ، ومثل شغفه بالترحال) . أما جامع الطعام فهو أقل كراهية لزراعة الأرض من الصياد . ومتى أتقن الزراعة اتخذها وسيلة لإنتاج الطعام وبدأ فى التكاثر السريع (لأن الزراعة تحتاج لقليل من الجهد وقليل من العناية). بدأ الإنسان فى المقايضة بمنتجاته مع جيرانه ، ثم بدأ يتخذ التجارة وسيلة لكسب العيش ، ثم بدأ فى استخراج المعادن من باطن الأرض ، ثم فى صناعة السلاح وبيعه ، وعند بدء الأسواق انتقل الإنسان إلى مرحلة جديدة من مراحل تطور المجتمعات الإنسانية .

قال جلال الدين الرومى (كبير صوفية الإسلام الأعظم) مثل مقولة داروين قبله بمئات السنين :

خُلقت جمادًا فلما متُّ بُعثتُ نباتًا
خُلقت نباتًا فلما متُّ بُعثتُ حيوانًا
خُلقت حيوانًا فلما متُّ بُعثتُ إنسانًا
فَلِمَ أخاف الموت ! هل عمرى بُعثتُ أقلَّ مما كنت

من مقدمة المؤلف

DAR AL AMEEN
دار الأمين
طباعة ● نشر ● توزيع
٨ شارع أبو المعالى (خلف المعهد البريطانى) العجوزة - الجيزة - تليفون / فاكس : ٣٤٧٣٦٩١
١ ش سوهاج من ش الرقاريق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم - الجيزة - تليفون / فاكس : ٥٦٣٤١٩٩